جيمس فريزر

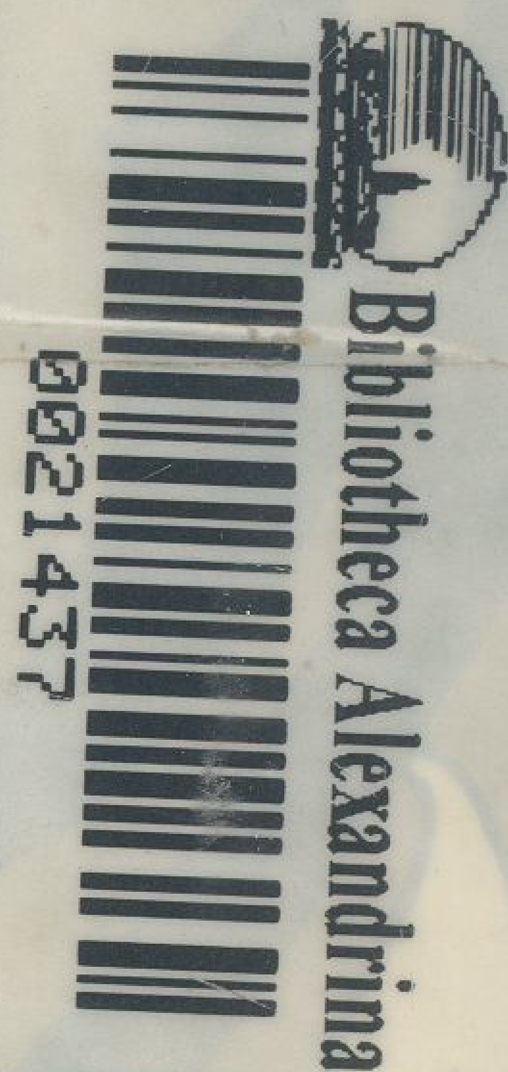
الفولكلور
فى العهد القديم (التوراة)

الجزء الثانى

ترجمة
دكتورة نبيلة إبراهيم



دار المعارف



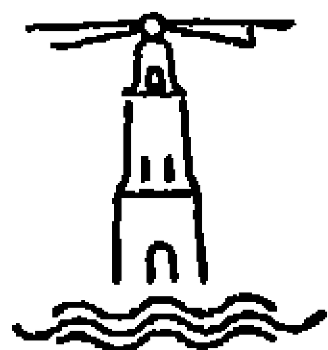
چيمس فريزر

الفُولكلُور في العَهد القدُيم (التوراة)

الجــزء الثانى

ترجمة : د . نبيلة إبراهيم

الطبعة الثانية



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ــ ١١٩ كورنيش النيل ــ القاهرة ــ ج٠م٠ع

الباب الثانى

عصـــر الأنبيـــاء

الفصل الأول

ميثـــاق ابراهيم

يختتم سفر التكوين التاريخ العام للجنس البشرى فى العصور الأولى منذ بدء الخليفة بحكاية برج بابل ، وتفرق الناس فى شـــــتى بقاع العالم من هذا المركز الذى كانوا يجتمعون فيه. ثم يضيق الكتاب نطاق حكاياتهم ويركزها حول الشعب العبرى وحده . وهنـــا يتخذ التاريخ شكل سلسلة من التراجم يصور من خلالها مصير هذه الأمة لا فى هيئة خطوط باهتة عامة ، وانما فى مجموعات من الصـــــور الملونة البراقة التى تســـــجل مغامرات الرجال الأفراد ، أجـــداد هذا الجنس . والوحدة التى تربط بين حياة الشيوخ الأجداد ليست مجرد سلسلة من الأنســـــاب ، وانما تربط بين هؤلاء الأجداد المصـــــالح المشتركة بقدر ما تربط بينهم رابطة الدم ، فقد كان هؤلاء الشيوخ جميعا بدوا رعاة يتنقلون بقطعانهم من مكان لآخر بحثـــا عن المرعى الخصب ،ولم يكونوا قد ركنوا بعد لحياة الزراعة الرتيبة ، وفى نفس الحقل الذى كان يعمل فيه آباؤهم وأجدادهم من قبل .. وباختصار فان كتاب سفر التكوين يصورون عصر الرعى بملامح واضحة وألوان حية لم يعتمها الزمن ، وما تزال هذه الملامح تأسر القارىء بسحرها الذى يفوق الوصف على الرغم من التغييرات التى عشناها فى حياتنا الحديثة . ويتصدر هذا المعرض التصويرى الذى صـــــورت مناظره بخلفية من الطبيعة الهادئة ، شخصية ابراهيم الجليلة . فبعد أن ترك ابراهيم بابل ، موطن ميلاده ، قيل انه رحل الى أرض كنعان . وهناك ظهر له الرب وأكد له المستقبل الباهر والمجد لبنى جنسه . ولكى يؤكد الرب هذا الوعد لابراهيم ، ارتضى ، كما قيل ، أن يعقد بينه وبين

ابراهيم عهدا مقدسا ، متبعا فى ذلك كل المظـاهر المألوفة التى كانت تتبع بين الناس فى مثل هذه الظروف • وتقدم لنا حكاية هذا العهـد لمحة ممتعة عن الوسيلة التى كان يتبعها المتعاهدون فى المجتمع البدائى بقصد انجاز عقد ملزم بين الطرفين المتعاقدين •

فنحن نقرأ فى سـفر التكوين أن الرب أمـر أبراهيم قائلا : « لتضح لى ببقرة عمرها ثلاث سنين ، ونعجة عمرها ثلاث سنين وكبش عمره ثلاث سنين ويمامة وحمامة صغيرة » • فأخذ ابراهيم البقرة والنعجة والكبش ، وشطر كلا منها الى شطرين ووضع كل شطر على الشطر الآخـر • أما اليمامة والحمامة فلم يشـطرهما وعندما تزاحمت الطيور الجارحة على لحم الذبائح طردهـا ابراهيم • وبينما كانت الشمس تغرب ، راح ابراهيم فى نوم عميق وقد تملكه الفزع من الظلام الحالك • فلما غربت الشمس تماما وأظلم الكـون ، أبصر ابراهيم أتونا يتصاعد منه الدخان ، وشعلة من النار تمر بين أجزاء الضحية ، وهنا أعلن الرب عهده لابراهيم •

ونلاحظ من خلال هذا الوصف أن الفزع الذى انتاب ابراهيم عند مغيب الشمس كان نذيرا بقدوم الرب الذى مر بين أجزاء الضحية فى هيئة أتون يتصاعد منه الدخان أو شعلة من النار • وبهذا يكون الرب قد استجاب للتقاليد الشرعية التى كان يتطلبها قانون العبريين القدماء للتصديق على العهد • فنحن نعرف عن النبى « ارميا » أنه كانت من عادة الطرفين المتعاهدين أن يذبحوا بقرة يشطرونها الى شـطرين ويمرون بينهما • ومما يؤكد كل التأكيد أن هذا كان هو النظام المتبع فى هذه المناسبة ، العبارة العبرية التى تستخدم فى عقد عهد بين طرفين وهى « قطع العهد » • كما يؤكد هذا الاستدلال ما يشـبه هذا فى اللغة والطقوس الاغريقية ، ذلك أن الاغريق يستخدمون عبـارات شبيهة بعبارة العبريين ، كما يمارسون طقوسا شبيهة بطقوسهم • فهم يتحدثون عن « قطع اليمين » بمعنى القسم به ، وعن « قطـع

العهد » بمعنى عقد العهد ، وهذا التعبير ، وبالمثل التعبير العبرى واللاتينى ، مستمد بدون شك من عادة ذبح الضحية وشطرها بوصفها وسيلة لخلع المهابة على القسم أو العهد •

فنحن نعلم ، على سبيل المثال ، أنه عندما كان أغاممنون على وشك أن يقود الاغريق الى طروادة ، أحضر العراف « كلخاس » خنزيرا بريا الى ميدان السوق وذبحه وشطره الى شطرين ، شطر جهة الشرق وشطر جهة الغرب ، ثم مر كل رجل شاهرا سيفه بين شطرى الخنزير وهو يغمس طرف سيفه فى دمه • وبهذا أقسموا على عدائهم « لبريام » (١) • وقد كانت الطقوس الاغريقية تفرض على المتعاهدين فى بعض الاحيان — وان لم يكن هذا أكثر شيوعا — أن يقف قاسم اليمين على جسد الضحية ، بدلا من أن يمر بين شطريها • فقد كان المتهم فى المحاكمات التى كانت تجرى فى محكمة «أريوباحوس» فى « أثينا » ، يقسم اليمين وهو واقف على أجزاء من جسد خنزير برى ، وكبش وثور قام بذبحها أشخاص بعينهم فى أيام محدودة • وعندما كثر خطاب « هيلين » الشقراء ، خشى والدها من انتقام الأحبة الذين ترفضهم ابنته ، فجعلهم جميعا يقسمون اليمين على حمايتها وحماية من تختاره من بينهم ليكون زوجا لها مهما يكن كنهه • ولكى يخلع على القسم نوعا من الرهبة ضحى بفرس وقطعه الى أجزاء ، وطلب من جميع الخطاب أن يقسموا اليمين وهم واقفون على أجزاء جسد الفرس • وقد كانت هناك فى حجرة المداولات فى الأولمب صورة للاله « نموس » الذى كان يكنى باله القسم •وكانت من عادة الرياضيين وآبائهم وأخوتهم وكذلك المدربين ، أن يقسموا اليمين وهم واقفون على أجزاء جسد الخنزير البرى المذبوح على ألا يقوم

---

(١) هو ملك طروادة وفقا للأسطورة الاغريقية وزوج « هيبوكا » وأشهر أولاده « هكتور » و « باريس » . وقد قتل بريام هذا فى حرب طروادة •

اللاعبون بالعاب غادرة • وقد كان هناك فى « مسينيا » مكان يسمى « قبر الخنزير البرى » ، لأن هرقل ، فيما يقال ، كان قد أقسم عنده هو وأبناء « نيليوس » وهو واقف على قطع من جسد خنزير برى مذبوح •

ومثل هذه الشعائر التى تتبع عند القسم أو عند عقد معاهدة سلمية كانت تتبعها القبائل البربرية فى الزمن القديم • فقد اعتادت قبيلة « مولوسيان » أن يقطعوا جسد ثور الى أجزاء صغيرة عند عقد معاهدة ، ويقسمون اليمين على هذه الأجزاء على الا ينقضوها • على أننا لا نعرف على وجه التحديد ماذا كانوا يصنعون بأجزاء الحيوان المذبوح فى احتفالاتهم • واذا رأى رجل من « السكيثيانيين » أن شخصا آخر قد أخطأ فى حقه ، وأحس أنه أعزل ازاءه ، يتوسل الى أصدقائه أن يعاونوه على النحو التالى : يذبح ثورا ويقطعه الى أجزاء ويغلى لحمه • ثم يبسط جلده المدبوغ على الأرض ويجلس فوقه وذراعاه مكتوفتان خلفه كما لو كان مكبلا • وقد كانت هذه هى أكبر أشكال التضرع العاجل عند « السكينيانيين » • فاذا جلس الرجل على هذا النحو ، والى جانبه اللحم المطهى ، فان كل فرد من من أصدقائه أو اقربائه أو أى شخص آخر يختاره لمساعدته ، يأخذ قطعة من اللحم ويضع قدمه اليمنى على الجلد ويعده فى الوقت نفسه بأن يمده بالعديد من رجال الحرب والافراس وبكل ما يمتلكه ما لم يكن رهينة عنده ، وذلك لكى يساعد المشتكى فى الانتقام من عدوه • وقد يعده البعض بأن يقدم له خمسة من الرجال أو عشرة أو أكثر من ذلك • أما أفقر رجال قومه فيعدونه بتقديم مساعدتهم الشخصية • وبهذه الطريقة تتألف قوة كبيرة يحسب حسابها فى شىء من الفزع لأن كل فرد فى هذه القوة قد أقسم اليمين على أن يقف فى صف صديقه • وينص قانون المحاكم « التبتية » حتى اليوم على « ان يقسم اليمين الكبير ، وهو ما يحدث نادرا ، فان حالف اليمين يقسم به وهو يضع كتابا مقدسا على رأسه ويجلس على جلد ثور مدبوغ ، ويأكل قطعة من

قلب هذا الثور المضحى به ، وتكاليف هذه الشعيرة تتحملها الجماعة التى تقوم برفع الدعوى على المتهم •

وما تزال القبائل البدائية فى افريقيا والهند تتبـــع مثل هذه الشعائر عند اعلان حالة السلم بين طرفين متنازعين • فعندما يعلن « الكافيروندبون » فى افريقيا الشرقية البريطانية حـــالة السلم بعد الحرب ، فان الجانب المغلوب يذبح كلبا ويقطعه الى جزئين • ثم يحمل ممثلون من الطرفين المتحاربين لحم الزند ولحم المؤخرة بصفة خاصة فى أيديهم ، ويقسمون فوق هذه الأجزاء على اشاعة السلم والصداقة فيما بينهم • ومثل هذه الشعيرة تقوم قبيلة « ناندى » بتأديتها ، وهى قبيلة أخرى تسكن المنطقة نفسها ، وذلك عند عقد معـــاهدة سلمية • فهى تأتى بكلب وتذبحه وتشطره شطرين ، ويحمل كل شطر ممثل عن الطرفين المتحاربين ، ثم يأتى رجل ثالث ويقول : « ليقتل من ينقض هذه المعاهدة • كما قتل هذا الكلب » • وعندما تشـــن عشيرتان من قبيلة « باجيسو » ــ وهى قبيلة من قبائل « البانتو » التى تقطن عند جبل « الجون » فى « افريقيا الشرقية البريطانية » ــ الحرب بعضها على بعض ثم ترغبان فى اقرار السلام بعد ذلك ، فان ممثلين من كلتا العشيرتين يحملان كلبا يمسك أحد الطرفين برأسه ، بينما يمسك الطرف الثانى برجليه الخلفيتين ، ثم يأتى رجل ثالث ويشق الكلب بضربة واحدة الى شقين ، ويرمى جســـد الكلب فى الأحراش حيث يترك هناك • وبعد هذا يمكن لأفراد العشـــيرتين أن يختلط بعضهم بالبعض الآخر دونما خوف من متـــاعب أو أخطار •

واذا شاء حيان فى قبيلة « واتشاجا » التى تســكن المنطقـــة نفسها ، أن يعقدا حلفا صارما ، أو معاهدة سلمية فان الشعائر التى تؤدى للتصديق على هذا الحلف أو تلك المعاهدة تجرى على النحو التالى : يجتمع المتحاربون من كلا الحيين ويجلسون متزاحمين فى شكل دائرى فى مكان ما فى الخلاء • ثم يلف حبل حول الجالسين ويعقد

طرفاه الســـائبان ، بحيث يبدو الجالسون كأنهم مكبلين بالحبل . وقبل أن يعقد الحبل من طرفيه السائبين ، يحرك الحبـــل ثلاث أو سبع مرات حول الجالسين بعد أن يربط فيه جدى صـــغير يتحرك مع الحبل وفى النهاية يمر الحبل من طرفه المعقود فوق جسد الجدى الذى يحمله رجلان بينهما وهو ممدد تماما . بحيث يكون الحبـــل والجدى متوازيين . ويقوم بهذه العملية ولدان لم يختتنا . وبالتالى لم يتزوجا وليس لديهما أولاد . ومغزى هذا العمـــل واضح ، فالصبيان يرمزان الى عدم الاخصاب ، أو الى موت الشخص دون أن ينجب ، وهو الامر الذى تنظر اليه القبيلة على أنه أكبر لعنة يمكن أن تحل بانسان ، كما أنها تعزى فى العادة الى ارادة القوى العليا . وفى معظم هذه المعاهدات يدعون باحلال هذه اللعنات على من يحنث باليمين ، وفى الوقت نفسه يدعون بكثرة الانجاب لمن يبقى على يمينه. والهدف من قيام الصبية غير المختونين بهذه الشـــعائر ، ليس مجرد الاشارة بالرمز الى مصير الحانث باليمين ، وانما التأثير عليه كذلك عن طريق السحر الانجذابى ، ومن أجل هذا السبب نفسه ، يقوم الرجال العجائز أنفسهم بتلاوة عبارات اللعنة والبركة ، لان هؤلاء قد تجاوزوا سن الاخصاب . وهذه الدعوات هى : « اذا قمت بايذائك بعد هذا العهد ، أو دبرت مكيدة ضدك دون أن أحذرك ، فلأنشق الى نصفين كما انشق هذا الحبل وذاك الجدى » . ثم يرد الكورس قائلا: « آمين ». « ولأقتل كما يقتل ولد صغير ويموت دون أن يترك ذرية وراءه » . فيرد الكورس قائلا « آمين » ، « وليفن قطيعى عن آخره » . ويرد الكورس قائلا « آمين » . « وليكن عدد أولادى كعدد النحل » فيرد الكورس بقوله : « آمين » . الى آخر هذه الدعوات . فاذا انتهى ممثلو الحيين المتعاهدين من حلف اليمين ، يقطع الحبل ويشق الجدى الى نصفين فى آن واحد بضربة واحدة ، وينثر الدم المنسكب على الطرفين المتعاهدين ، بينما يحل شيوخهم اللعنات والبركات على كل الطرفين دون تحيز عن طريق ترديدهم لعبارات شاملة . ثم يأكل الشيوخ الذين جاوزوا سن الانجاب لحم الجدى ويقطعون الحبل الى

جزئين ويتسلم كل طرف من المتعاهدين جزءا منه ، ويحافظ عليه فى حرص . فاذا انتشر وباء أرجعه الكهنة الذين يقومون بتفسير ارادة القوى العليا ، الى نقض سكان البلد الموبوء العهد بعمد أو غير عمد ، فلابد من التكفير عن ذنب الحبل أو كما يعبر عن ذلك الأهالى « بتبريد الحبل » . ذلك أن القوة السحرية التى خلعها العهد على الحبل تمراس نشاطها ، حسب اعتقادهم ، فى ذلك الانتقام ممن دنس قدسية هذا الحبل» . ذلك أن القوة السحرية التى خلعها العهد على الحبل تمارس وروثها ، بينما تتلى الكلمات الآتية : « هؤلاء النـــــاس قد ارتكبوا الخطأ دون علم ، ومن ثم فأنا أكفر اليوم عن ذنبهم أيها الحبـــــل ، فلنتقبل التكفير . لتقبل التكفير . لتقبل التكفير » . ثم يكفر الطبيب عن هؤلاء الذين نقضوا العهد بأن ينثر عليهم دواء سحريا يتكون من سلحفاة وحيوان العزير ، وظبى ، بالاضافة الى قدر من النباتات . وكل هذا يبث فيه الطبيب السر بأن يضع فيه حزمة من الاعشـــــاب المتنوعة ويتلو عليه بعض الكلمات السحرية .

وتتفق شعائر عقد معاهدة السلام التى تتبعها بعض القبائل فى افريقيا الجنوبية مع هذه الشعائر فى شكلها العام ، وان اختلفت عنها بعض الشىء . فاذا شاء زعيم قبيلة « بارولونج » أن يقد معـــاهدة سلمية مع زعيم آخر لجأ اليه طلبا للحماية ، فهو يأخذ معـــــدة ثور ويبقرها ، ثم يزحف الزعيمان واحدا تلو الآخر من خلال فتحة المعدة، فيعلنا بذلك أن قبيلتيهما قد أصبحتا اثر ذلك كلا واحدا . وتتبـــــع قبيلة « بتشوانا » مثل هذا النظام « اذا ما عقد زعيمان من زعمائها (تشوارنجا موشوانج) حلفا أو اتفاقا بينهما » . فهما يذبحان حيوانا ، ويمسك الطرفان المتعاهدان ببعض أجزاء أمعائه بحيث تتقابل أيديهما وتكون مغطاة بمحتوى أمعاء الحيوان المضحى به . ويبـــدو ان هذا الاجراء هو أكثر صور الاتفاق مهابة يعرفه الجمهور فى هذا البـــلد . فلقد أقيمت هذه الشعائر أكثر من مرة فى « شبوشنج » بينما كنت

هناك ، وذلك عندما لجأ بعض الزعماء الى « شيكهوم » ووضعوا أنفسهم تحت حمايته » •

ومثل هذه الشعائر تتبعها بعض القبائل التى تسكن تلال «أسام» وذلك عندما يقومون بعقد معاهدة سلمية • فقبيلة « ناجا » تتبع عدة وسائل فى تأديةاليمين • وأكثر هذه الوسائل شيوعا وقدسية ، أن يمسك أحد الطرفين برأس كلب أو دجاجة ، بينما يمسك الطرف الآخر بالذيل أو الأرجل ، ثم يذبح الحيوان أو الطير بآلة تسمى « داو » ، وهذا رمز لمصير الحانث باليمين • ومن بين الشعائر التى تتبعها قبيلة « ناجا » وفقا لمصدر آخر ، الشعيرة الآتية : « اذا أقسم أفراد القبيلة على المحافظة على السلم أو أى وعد آخر ، فانهم يضعون قصبة البندقية أو الرمح بين أسنانهم • وهم يقصدون بذلك أنهم اذا لم يبقوا على اتفاقه فانهم يكونون على استعداد لأن يقتلوا بأحد هذين السلاحين • وهناك شكل آخر بسيط من أشكال القسم ، وان يكن ملزما على حد السواء ، وهو أن يمسك الطرفان بطرفى رمح حجرى ، ثم يكسر هذا الرمح من الوسط بعد أن تترك قطعة منه فى يد الذين يمسكون به • على أن أكثر الايمان قداسة يكون ، فيما يقال ، عندما يأتى كل طرف من الطرفين المتعاهدين بدجاجة ، ويقبض أحد الطرفين على رأسها بينما يمسك الطرف الآخر بأرجلها ثم تمزق أربا ، مشيرين بذلك الى المصير الذى سيلقاه المخادع أو ناقض العهد » وتتبع قبائل أخرى فى « أسام » تنتمى الى مجموعة « ناجا » طرقا أخرى تختلف بعض الشىء عن الطرق السابقة فى سبيل فض النزاع • « اذ يمسك كل طرف من الطرفين المتقاصيين بطرف سلة مصنوعة من الخيزران بداخلها قطة حية ، ثم يهوى رجل ثالث على القطة عند صدور اشارة اليه ، فيشقها بسلاح حاد بحيث يلطخ الدم السلال • وعندما كنت أشهد هذه الشعائر فى مناسبة من المناسبات ، قيل لى : ان هذا الاجراء هو شكل من أشكال اقرار السلام أو عقد معاهدة ،

وأن ذبح القطة يربطهم فى رباط من العهد • ويعد القسم على الصداقة بين الزعماء عند عشائر « لوشاى كوكى » ، فى أسام أمراً خطيرا • اذ يربط حيوان المثان (وهو من فصيلة الثور الأمريكى) فى عمود ، ثم تأتى الجماعة التى تنوى القسم ، ويمسك كل فرد منها برمح فى يده اليمنى ويطعن المثان خلف رقبته بقوة بحيث يتدفق الدم ، ويكررون عبـارة فحواها أنهم سيظلون أصدقاء طالما جريت الانهار فى الأرض • ثم يذبح الثور بعد ذلك وتدهن جباه المقسـمين وأرجلهم ببعض دمه ، كما يأكلون قطعا صغيرة نيئة من كبده لكى يكونوا أكثـر ارتباطـا بالقسم » •

والآن علينا أن نتساءل : ما معنى ذبح الضحية عند عقـد عهد أو عند خلف اليمين ؟ •• ولماذا يصبح العهد أو القسم مصـدقا عليه من الطرفين عن طريق التضحية بحيوان وقطع جسده الى أجزاء يمشى الطرفان بينها أو يقفان عليها ، ثم يلطخان أنفسـهم بدم هذا الحيوان ؟ ان هناك نظريتين تجيبـان عن هـذه التسـاؤلات • النظرية الأولى تسمى نظرية « الجزاء » ، والأخرى تسمى نظرية « السر المقدس » أو نظرية « التطهير » • ولنبـدأ بالنظرية الأولى • وذبح الضحية ، بناء على هذه النظرية ، ثم تقطيعها الى أجزاء ، يرمز الى الجزاء الذى سيحل بالشخص الذى يخون العهد أو يحنث باليمين ، فمصـير هذا الشخص كمصير الحيوان ، هو القتل • ومن المؤكد أن هذا التفسـير يبدو أنه التفسير الصحيح للشعائر التى تتبعها بعض الشـعوب • فقبيلة الواتشاجا تقول فى أثناء تأديتها لشـعائرها : « لأنشـق الى نصفين كما ينشـق هذا الحبـل وذلك الجدى » • كما تقول قبيـلة « ناندى » عندما تذبح كلبا وتشطره الى شطرين فى هذه المناسـبة : « ليقتل من ينقض العهد كما يقتل هذا الكلب » •

ومثل هذه الشعائر كان يتبعها « الأومبيون » ، وهم شعب يسكن دلتا نهر « النيجر » ، ويعرفون باسم « الكالاباريون الجدد » وقـد كان هؤلاء يقومون بتأدية هذه الشعائر مصحوبة بالدعوات الشريرة

لاكساب هدنة السلام شيئا من الرهبة • فكانت اذا سئمت بلدتان أو عشيرتان من العشائر القتال الدائر بينهما ، فانهمــا كانتا ترســـلان رسولا الى بلدة « كى » القديمة التى تقع بالقرب من الساحل ، شرق نهر « سومبريرو » ، حيث يعيش كاهن فيتيشى أو « جوجو » يدعى « كى — نى أوبورسو » • وفى مثل هذه الظروف يدعى الكاهن الفتيشى ليحضر اليهم ليشرف على التصديق على المعاهدة السليمة بين المتحاربين • ومن ثم فان هذا الكاهن كان يحضر فى قـــاربه المغطى بفروع صغيرة من أشجار النخيل ، ويتفق مع المتخاصـــمين على يوم يعقـــدون فيه العهد فيما بينهم • فاذا حان اليوم المحدد ، فان المتخاصمين يجتمعون كما يحضر أهالى بلدة « كى » ومعهم الاشياء اللازمة لتقديم الضحية التى تتكون من شاة وقطعة من القماش الاسود أو الازرق ، وقدر من البـــارود ، وحشائش أو بذور الحشـــائش • ويقسم المتخاصمون فوق هذه الاشياء على السلام والمودة • ثم يقول الكاهن : « اليوم ، نحـــن أهالى « كى » نجلب السلام لبلدكم • ومن الآن فصاعدا لن يفكر أحد من المتخاصمين فى اساءة الطرف الاخر » • ثم يأتى بالشاة ويشطرها شطرين ويقول : « فاذا شنت احدى البلدتين الحرب مرة أخرى على البلدة الاخرى ، فلتنشق أجسام أفرادها كما انشق جسد هذه الشاة » ثم يرفع قطعة القمـــاش ذات اللون الداكن ويقـــول : « وليعم بلدة المسيئين ظلام حالك مثل حلكة هذه القطعة من القماش » • ثم يشعل النار فى البارود ويقول : « وكما يحترق هذا البارود فلتحترق بلدة المذنبين » • ثم يحمل فى النهاية الحشائش ويقول : « ولتغط الحشائش بلد من يشن الحرب مرة أخرى » • وقد كان هناك قانون « كالابارى » قديم يمنع أى بلد من أن تشعل الحرب على قرية « كى » ، لما تقدمه هذه القرية من خدمات فى سبيل اقرار السلام • واذا حدث أن أشعلت بلدة الحرب عليها فانها تقع تحت طائلة النفى ، أو تحت طائلة العقاب الجماعى من جميع أفراد القبيلة • ونلاحظ أن هـــذه الطقوس الكالابارية تكشف فى غير غموض عن القصد الجزائى من وراء شطر الشاة الى

شطرين • كما يؤيد هذا تلك اللعنات التى تصحب الشعائر الرمزية الاخرى •

ومثل هذا التفسير ينطبق على الطقس المشابه لهذا الذى تؤديه قبيلة « ناجا » ، كما تؤيده الصيغ المختلفة لحلف اليمين الذى يعد أنسب تفسير له هو الجزاء الذى يلحق الحانث باليمين • ويمكننا أن ندعم نظرية الجزاء بشواهد مستقاة من العصر الكلاسيكى القديم • « فعندما قام الرومانيون والألبانيون بعقد معاهدة فيما بينهما وهى أقدم معاهدة مدونة فيما يقول « ليفى » ، تضرع ممثل عن الشعب الرومانى الى الاله « جوبيتر » قائلا : « اذا نقض الشعب الرومانى المعاهدة عن عمد ، فلتلحق بهم الضربات عند ذاك أيها الاله « جوبيتر » ، كما أضرب هذا الخنزير البرى اليوم » • وبعد أن قال هذا ، هوى على الخنزير وذبحه بالسكين • ثم اننا نقرأ فى أعمال « هومير » ، أنه عندما عقد الاغريق والطرواديون هدنة فيما بينهما ، ذبحت الاغنام وسكب أغاممنون عليها قربان الخمر وهى تلفظ أنفاسها الاخيرة ، بينما كان الاغريق والطرواديون يدعون على من يحنث باليمين أن تهشم رأسه ويسيل مخه كما تسيل الخمر على الارض •

ويتضح هذا المغزى الجزائى من تقديم الضحية فى مثل هذه الاحوال كل الوضوح من خلال مخطوط أشورى دون فيه القسم المقدس الذى أعلن فيه « ماتو — ايلو » أمير « بيت — أجوزى » ولاءه « لأشور — نيرارى » ملك آشور • وها هو ذا بعض ماورد فى هذا المخطوط : « ان هذا الكبش لم يؤخذ من القطيع بقصد تقديمه ضحية ولا من أجل الالهة المسالمة « عشتروت » ، كما أنه لم يجلب من أجل مرض أو لمجرد أن يذبح وانما احضر لكى يقسم « مانع — أيلول » على ولائه « لآشور — نيرارى » ملك « أشور » • فاذا حنث « مانع — ايلو » بيمينه ، فان مصيره سيكون كمصير هذا الكبش • فكما أن هذا الكبش قد أبعد عن قطيعه ولن يعود اليه مرة أخرى ليسيطر عليه ،

فان « ماتع — ايلو » سيؤتى به كذلك من بلده مع أبنائه وبناته وبنى قومه ، ولن يعود اليهم مرة أخرى ليتزعم قومه • فهذه الرأس ليست رأس كبش ، وانما هى رأس « ماتع — ايلو » ورأس أولاده ونبلاء قومه ، ورأس شعبه بأسره ، فاذا قطع « ماتع — ايلو » عهده كما تقطع رأس هذا الكبش ، فان رأس « ماتع — أيلو » ستقطع بالمثل • وهذه الرجل اليمنى ليست رجل الكبش اليمنى ، ، وانما هى يد « ماتع — ايلو » اليمنى ، ويد أولاده ونبلاء قومه وشعبه • فاذا قطع « ماتع — أيلو » العهد كما تقطع رجل ذلك الكبش ، فان يده اليمنى ستقطع ، وكذلك أيدى أولاده ونبلاء رجال بلده » • ثم يلى هذا فجوة كبيرة فى المخطوط • ونحن نحدس بأن مكان هذه الفجوة كان وصفا لاعضاء الكبش الأخرى ، واستمرارا فى التعليق على أنه كلما قطع عضو من أعضائه ، فانه لن يكون سوى رمز لقطع العضو المماثل له عند « ماتع — ايلو » وأولاده ونبلاء بلده وقومه ، اذا ما اثبتوا خيانتهم لسيدهم الموالين له وهو ملك « آشور » •

ومثل هذه التضحيات التى تصحبها وتفسرها دعوات بالشر شبيهة بالدعوات السابقة ، تصادفنا فى طقوس الشعوب البدائية التى ما تزال تعيش حتى اليوم • فطريقة عقد العهد أو حلف اليمين فى جزيرة « نياس » ، هى أن تجز رقبة خنزير صغير رضيع ، بينما يدعو الشخص على نفسه بمثل هذه القتلة اذا ما نقض العهد أو حنث باليمين • والطريقة التى تتبع فى جزيرة « تيمور » لتقديم بينة على الحلف باليمين هى : أن يمسك الشاهد بدجاجة فى يد ، وفى اليد الاخرى بالسيف ويدعو قائلا : « الهى فى السماوات والارض ، انظر الى ، ان كنت أشهد شهادة زور تؤذى قومى ، فلتلحق بى العذاب • اننى أؤدى اليمين فى هذا اليوم ، فاذا لم أكن صادقا فى شهادتى ، فلتقطع رأسى كما تقطع رأس هذه الدجاجة » • فاذا فرغ من دعائه هذا فانه يهوى على رأس الدجاجة ويقطعها على كتلة من الخشب • وعندما يجتمع زعماء « الباتاكيون » فى « سومطرة » ليعقدوا صلحا أو عهدا مقدسا

فيما بينهم ، فانهم يأتون بخنزنر أو بقرة ويقف الزعمـــاء من حول الحيوان وفى يد كل منم رمح • ثم تقرع الطبول ، ويقطع أكبر الزعماء سنا وأكثرهم هيبة، رقبة الحيوان بسكين • ثم يبقر الحيوان وينزع من جوفه قلبه وهو مازال ينبض ، ويقطع الى قطع صغيرة بعدد الزعماء ثم يرشق كل زعيم نصيبه من القلب فى سيخ ، ويشويه أو يدفئه على النار وهو يقول : « اذا حدث حنثت بيمينى ، فلأقتل كما قتل هـــذا الحيوان المسجى أمامى وهو يدمى ، وليلتهم لحمى كما يلتهم قلبـــه الآن »• ثم يأكل قطعة اللحم أثر ذلك • وبعد أن يفرغ الرؤساء من تأدية هذه الطقوس يوزع لحم الحيوان الذى مازال مضرجا بالدم بين الناس ليحيـــون به وليمـــة •

واذا شاعت قبيلتـــــان من « الشينين » الذين يسكنون التلال التى تشرف على حدود « أسام » و « بورما » ، أن تحلفـــا اليمين أو تعقدا أواصر الصداقة فيما بينهما • فانهما تتقابلان ويحضران معا ثورا أليفا • ثم يصب شيوخ كل قرية عليه الخمـــر ، ويسرون الى أرواحهم المقدسة بكلمات لكى تشهد على هذا الاتفاق • ثم يمســـك زعماء كل طرف برمح ، ويقفان على جانبى الثور ، ويصوبان الرماح الى قلبـــه • فاذا استخدمت البنـــادق بدلا من الرماح فان الطرفين يطلقان النار فى رأس الثور أو فى قلبه فى آن واحد • وبعد أن يسقط الثور طريحا تقطع رقبته ، ويجمع دمه المسكوب فى وعاء • ثم يقطع ذيله ويغمس فى الدم ، كما يغمس زعماء الطرفين وشيوخهم أيديهـــم فى دمه ويلطخكل منهم وجه الآخر ،فى الوقت الذى يتمتم فيه حكماؤهم بالكلمات الاتيـــة : « ليمت من ينقض هذا العهد ميتة هذا الحيـــوان وليدفن جسده خارج القرية ، ولا تهدأ روحه أبدا • ولتمت أسرة كل من ينقض العهد ، وليلحق بها كل حظ عثر » •

وعندما كان يرغب « الكاريون » سكان « بورما » فى عقد حلف سلمى مع أعدائهم فى الزمن القديم ، كان يجتمـــع ممثلو كل جانب

ويتصرفون على النحو التالى : تمزج برادة سيف ورمح وبارود وحجر فى فنجان به ماء ، ويضاف اليه دم كلب وخنزير ودجاجة تذبح جميعـا لهذا الغرض • ويسمى هذا المزيج من الدم والماء والبرادة « بمـاء السـلام »• ثم تشطر جمجمة الكلب الى شطرين ، ويأخذ ممثـل الطرف الاول فك الحيوان السفلى ويعلقه بخيط حول الرقبة ، بينمـا يأخذ ممثل الطرف الثانى الجمجمة بما فيها الفك العلوى ويعلقها كذلك حول رقبته • ثم يعد الممثلان فى صرامة أن قومهما سيعيشون بعد ذلك فى سلام بعضهم مع بعض • ولكى يؤكدا هذا الوعد ، فانهما يتناولان جرعة من « ماء السلام » ويقولون « الان قد عقدنا عهد السلام • فاذا نقص شخص هذا العهد ولم يكن صادقا فيه فيتسبب فى أشعال نار الحرب مرة أخرى ، واثاره البغضاء ، فليشق الرمح صدره ، وليفتت البارود أمعاؤه ، وليشج السيف رأسه ، وليلتهمه الكلب والخنـزير وليحطمه الحجر » • ونلاحظ هنا أن هؤلاء الناس يفترضون أن السيف والرمح والبارود والحجر ، وبالمثل الكلب والخنزير المذبوحين ، تعين جميعا على الانتقـام ممن يحنث باليمـين ، ذلك بعد أن شرب ممثلا الطرفين جرعة من مزيج « ماء السلام » •

وترجع قدرة الضحية على الجزاء فى كل هذه الامثلة بدون شك الى الدعوات التى تصحب ذبح الحيوان : فذبح الحيـوان يرمز الى ذبح الحانث باليمين ، أو هو بالاحرى جزء من سحر تقليدى يقصد به الحاق الموت بالمذنب جزاء جريرته •

على أننا يمكننا أن نتساءل بعد ذلك عما اذا كانت فكرة الوظيفة الجزائية لتقديم الضحية تكفى لتفسير الملامح البـارزة فى الطقس العبرى والاغريقى الذىيتمثل فى المرور بينأجزاء الحيوان المذبوح أو الوقوف فوقها • وهنا رأى « و • روبرتسون » أن نفسر هذا الطقس بما يمكن أن نسميه نظرية التطهير أو السر المقدس • فقد افترض أن « مرور الجانبين بين أجزاء الحيوان المذبوح يرمز الى انتمائهم الى

حياة الحيوان الروحية » ولكى يؤكد روبرتسون وجهة نظره ، أشار الى استخدام هذا الطقس نفسه فى حالات أخرى لا يصلح قانون العقاب أو الجزاء ، فيما يبدو ، تفسيرا لها ، فى الوقت الذى يفسر بعضها على الاقل بنظرية التطهير الشعائرى • فمن أشكال التطهير الشائعة فى « بويوتيا » ، أن يذبح كلب ويشق شقين يمر الناس بينهما ومثل هذه الشعيرة كان يؤديها الجيش المقدونى • اذ كان يذبح كلب ويشطر شطرين • ثم يوضع راسه والجزء الامامى منه جهة الشمال ؛ بينما توضع أمعاؤه وجزؤه الخلفى جهة اليمين ، وبين هذين الجزئين تمر جماعات الجيش • ومن المألوف فى نهاية الاحتفال أن ينقسم الجيش الى قسمين يتشابكان معا فى حرب صورية • وقد قيل : أنه عندما أغار « بيليوس » على « أيلوكس » ونهبها ، قتل زوجة الملك وتسمى « أستى داميا » ، وقطعها أربا ، وجعل جيشه يمر بين أجزاء جثتها وهو فى طريقه الى المدينة • ومن المحتمل أن هذا الاجراء كان ينظر اليه بوصفه شكلا من أشكال التطهير الذى يضفى عليه الانسان الضحية درجة كبيرة من الرهبة • ويؤكد هذا التفسير ، تلك الطقوس التى يتبعها الالبانيون فى القوقاز فى معبد القمر • فهؤلاء قد تعودوا أن يضحوا بعبد مقدس بين الحين والآخر ، بأن يطعنوه برمح • ثم يحمل جسد هذا العبد الى مكان معين حيث تدوسه الاقدام كاجراء تطهيرى • أما اجراء التطهير بين « الباسوطويين » فى افريقا الجنوبية فيجرى على النحو التالى : يذبح حيوان ويصنع فيه تجويف ويطلب من الشخص الذى يراد تطهيره أن يمر فيه • وقد سبق أن رأينا قبيلة « بارولونج » تؤدى نفس الشعيرة عندما تعقد عهدا ، فالمتعاهدون يمرون خلال تجويف يحدثونه فى معدة الحيوان المقتول • فهذه العادات التى تتبع فى افريقيا الجنوبية تؤكد معا أن المرور بين أجزاء الحيوان الضحية يعد بديلا للمرور خلال تجويف يحدث خلال جسد الحيوان نفسه •

والتفسير التطهيرى أو بالاحرى الوقائى لمثل هذه الطقوس ، يؤكده عادات عرب موآب الذين لا يزالون يقومون بمثل هذه الشعائر

فى أوقات الكوارث التى تلم بهم مثل القحط أو الوباء • وهم يقولون : ان المقصود من هذه الشعائر هو تخليص الناس من الشر الذى يتهددهم • فاذا كانت القبيلة تعانى من وباء الكوليرا على سبيل المثال ، فان الشيخ يقف وسط خيمته ويهتف قائلا : « افتدوا أنفسكم أيها الناس ، افتدوا أنفسكم » • عندئذ تأخذ كل أسرة شاة وتضحى بها ثم تشطرها شطرين تعلقهما أسفل الخيمة ، أو على عمودين أمام الخيمة • ثم يمر أعضاء الاسرة جميعا بين شطرى الضحية ، اما الابناء الصغار الذين لا يقدرون على المشى ، فيحملهم أبواهم • وفى كثير من الاحيان يمر أفراد الاسرة أكثر من مرة بين جزئى الشاة الداميين اعتقادا منهم أن شطرى الضحية ، لهما القدرة على طرد الارواح الشريرة ، أو طرد الجن الذى يمكن أن يؤذى القبيلة • وهم يستعينون بمثل هذا العلاج فى مواسم القحط عندما تذبل الاعشاب وتموت الماشية بسبب قلة مياه الامطار • وتعد الضحية فدية للانسان والحيوان معا • ويقول هؤلاء العرب فى هذه المناسبة : « هذه فديتنا لنا ولمواشينا » • وعندما سئلوا عن الوسيلة التى تؤثر بها هذه الشعائر مثل هذا التأثير المجدى ، أجابوا بأن الضحية تقابل الكارثة وتقاتلها • فالوباء والقحط أو أيا كانت الكارثة ينظر اليها بوصفها ريحا تهب على السهول وتحصد أمامها كل ما تصادفه • حتى تقابل الضحية التى تعترض طريقا كالأسد الرابض • وعند ذاك ينشأ صراع مفزع بينهما ، يقهر على أثره الوباء أو القحط ويرجع أدراجه مخذولا ، بينما تظل الضحية المنتصرة مسيطرة على الحقل • وهنا نلاحظ أنه ليست هناك ثمة تفكير فى الجزاء ، اذ ليس من المعقول ، لا من قبل التفسير الرمزى أو السحرى ، أن موت الشاة يتسبب فى موت الناس الذين يمرون بين أجزائها ، بل أن الناس يعتقدون على عكس هذا ، أن الضحية تحميهم من الشر الذى يتهدد حياتهم بشكل أو بآخر •

ومثل هذه العادة تماماتتبع فى ظروف متشابهة عند « التشينيين » الذين يسكنون البلد الذى يكثر فيه التلال ويقع على حدود « أسام

وبورما » • فاذا اعتقد شخص من بين هؤلاء القوم ، أن شخصا تتعقبه روح ثائر ، مثل روح مرض الكوليرا ، فانه من المـألوف عندهم أن يذبح كلب ويشطر دون أن تنتزع أمعاؤه ، ويترك النصـف الأمامى منه على جانب من الطريق والنصف الخلفى على الجـانب الآخر منه ، ويصلون بينهما بأمعاء الكلب التى يمدونها عبر الطريق • وهم يفعلون هذا بقصد اسكان غضب الروح الثائر واثنائه عن عزمه فى اقتفـاء أثرهم » وهكذا يحرص « الشينيون » على تشخيص وباء الكوليرا بوصفه روحا خطيرا ، الى درجة أنه اذا قامت جماعة منهم بزيارة منطقة « رانجون » وقت انتشار الوباء ،فانهم يحملون سيوفهم مشهرة أينما ساروا ليدرأوا عنهم الشيطان ، كما يقضون وقتهم مختبئين بين الأجراش حتى لا يعثر عليم الشيطان • وقـد تعود « الكورياكيون » الذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية، أن يصرفوا الأوبئة والطاعون عنهم على هذا النحو• فهم يذبحون كلبا ويربطون الأمعاء حول عمودين ويمرون تحتها • ومما لا شك فيه أنهم يعتقدون بالمثل أنهم بهذه السبيلة يطردون روح المرض الذى يجد فى أمعاء الكلب حاجزا لا يقهر •ويسود الاعتقاد فى أن النساء بعـد الولادة يكن نجسات ، ومن ثم يكن عرضـة لأن تتملكهن الكائنات الشريرة المهولة • فاذا تركت المرأة عنـد غجر ترانسلفانيا فراشها بعد الولادة ، فانه يتحتم عليهـا أن تمر بين شـطرى ديك مذبوح اذا كان المولود ذكرا ، أما اذا كان المولود أنثى فانها تمر بين شطرى دجاجة • ثم يأكل الرجال هذا الديك فيما بعد ، ، كما تأكل النساء الدجاجة •

ويتضح من هذه الأمثلة أن المرور بين أجزاء الحيوان المذبوح يقصد به الوقاية لا العقاب • كما أن لحم الضحية ودمها تشكل عقبـة فى طريق القوى الشريرة، وفقا لتصور هؤلاء الناس، ومن ثم فهم يحولون بينها وبين اقتفاء أثر الشخص الذى مر خلال الطريق الضيق ، وبالتالى فهو لا يتعرض لايذائها • وبناء على ذلك فان هذه الشعائر يمكن أن تسمى بشعائر التطهير بأوسع معانى الكلمة ، اذ أنه يقصد بها تطهير الشخص أو تخليصه من تأثير القوى الشريرة •

فاذا عدنا من حيث بدأنا ، فانه يحق لنا أن نتساءل عما اذا كانت الوسيلة التى كان يتبعها العبريون القدماء عند عقد عهد بين طرفين ، عن طريق المرور بين أجزاء الضحية ، يقصد بها العقاب أو التطهير • وبتعبير آخر هل كانت تعد وسيلة رمزية لاحلال الموت بالحانث باليمين ، أم كانت وسيلة سحرية للوقاية المتعاهدين من تأثير القوى الشريرة ، ومن ثم فهى تحميهم من أخطار بعينها يمكن أن يتعرضوا لها ؟ ان الأمثلة الأخرى التى سبق أن ذكرتها عن مرور الأشخاص بين أجزاء الضحية المذبوحة ، تبدو وكأنها تدعم التفسير التطهيرى أو الوقائى للطقس العبرى ، اذ بينما لا يتطلب مثال من هذه الأمثلة التفسير الجزائى ، فان بعضها يستبعده صراحة • ومن ناحية أخرى نجد أن بعض هذه الأمثلة لا يفسر الا على أساس نظرية التطهير أو الوقاية التى تدعيها فى الحقيقة بعض الشعوب مثل العرب « والتشينيين » صراحة ، هؤلاء الذين يتبعون هذه العادة • حقا أن أية محاولة لتفسير هذه الشعيرة العبرية لا بد أن يراعى فيها تفسير الشعيرة المماثلة لها عند العرب المحدثين ، نظرا لتشابه شعائرهما فى الشكل • كما أن هذين الشعبين اللذين يقومان بتأدية هذه الشعيرة أو كانا يقومان بتأديتها ، ينتميان الى أسرة سامية واحدة ، ويتحدثان لغتين ساميتين متقاربتين ويقيمان فى البلد نفسه ، حيث أن أرض موآب التى مازال العرب يتبعون فيها هذه العادة القديمة ، كانت تكون جزءا من موطن بنى اسرائيل حيث رحل ابراهيم وعقد عهدا مع الرب على نحو ما ذكرناه (١) • ويبدو أن هذا الاستدلال حتمى ، وهو أن هذه الشعيرة التى اتبعها العبريون القدماء والتى مازال يتبعها الموآبيون ، ترجع الى أصل سامى وما يزال هدفها التطهيرى أو الوقائى واضح فى أذهان عرب موآب •

على أنه لا يزال هناك سؤال ينبغى أن نتساءل عنه وهو : فيم

---

(١) يعنى فريزر ما يفهم من أساطير العبريين التى روجوها بينهم وتناقلوها ثم دونوها فى العهد القديم ، ولا يبدو أنه يريد بذلك التقرير التاريخى •

تتمثل القدرة على التطهير فى مثل هذه العملية ؟ ولمـاذا يعتقد أن المرور بين أجزاء الحيوان المذبوح من شأنه أن يحمى الانسان من الخطر ؟ أما رد « روبرتسون سميث » عن هـذه التساؤلات فيتلخص فيما يمكن أن يسمى بتفسير السر المقدس لهذه العادة • فهو يفترض أن الذين يمرون بين أجزاء الضحية أو يقفون فوقها ،يتحدون مع الحيوان ومع بعضهم بعضا فى رابطة الدم ، أى أنه يعتقد فى الحقيقة أن مثل هذا العهد ليس الذى يخلق المتعاهدون عن طريقه ، بطريقة صـورية ، رباطا من القرابة العصبية فيما بينهم ، وذلك بأن يمزحوا حقا قـدرا من دمائهم بعضها ببعض • والاختلاف المـادى الوحيد بين شكلى هذا العهد ، بناء على هذا الفرض ، هو أن دم الحيـوان فى أحـد الشكلين يعـد بديلا لدم المتعاهدين أنفسهم فى الشكل الآخر • على أن هناك كثيرا من الجدل يمكن أن يثار حول هذه النظرية • وأولى نقاط هذا الجدل ، هو أن الشواهد فى أفريقيا الجنوبية تشـير الى النتيجة التى مؤداها أن المرور بين أجزاء الضحية ليس سوى بديل للمرور خلال جسد الحيوان المذبوح • ويؤيد هذه النتيجة أن « الشينيين » عندما يذبحون الكلب الضحية لا يفصلون شطرى الكلب أحدهما عن الآخر كلية ، وانما يحتفظون بالنصف الأمامى والنصف الخلفى متصلين عن طريق حبل أمعاء الحيوان الذى يمر تحته الناس • ويبدو أن «الكورياكيون» كانوا يتبعون هذه العادة ، وان تكن بطريقة أقل وضـوحا من طريقة « الشينيين » • فالابقـاء على حبـل الأمعاء بوصفه رابطا بين شطرى الضـحية يبدو بوضـوح أنه محاولة للربط نظريا بين وحدة الحيوان المقتول وبين الملاءمة العملية بشطره ، حتى يتسنى للناس أن يمروا خلال جسده • والا فما معنى أن يوضـع الناس داخل جسد الحيوان ما لم يكن الغرض من ذلك اكساب الشخص بعض خصائص الحيوان التى يعتقد أنه يمتلكها ، والتى يمكن ـــ وفقـا لتصور هذه الشعوب ـــ أن تنتقل الى الشخص الذى يطابق بين نفسه فيزيائيا وبين الحيوان عن طريق الدخول فيه حقيقة ؟ •

ومما يؤكد أن هذه الفكرة حقا هى أساس هـذه الشـعيرة ، تلك

العادة المشابهة المنتشرة بين الهنود « الباتاجونيانيين » • ففى بعض الحالات اذا ولد لهؤلاء طفل ، تذبح بقرة أو فرس وتنتزع منه معدته ثم تبقر ويوضع بداخلها الطفل وهى ما تزال دافئـــة • ثم تقيم القبيلة وليمة على سائر أجزاء الحيوان •

على أن الأشـــكال الأخرى لشعائر هـــذا الميـــلاد ، ما تزال أكثر همجية • فاذا ولد للأب طفـــل ذكر ، فان قبيلتـــه تأتى بفرس أو مهر حسبما يتفق وحالة الوالـــد المـــادية ، فان كان غنيا مرموقا بين قومه ، أحضرت له القبيلة فرسا ، وان لم يكن كذلك أحضرت له مهرا • ثم يربط وهق (١) حول كل رجل من أرجل الحيوان ، ورباط حول رقبته ، ورباط آخر حول جسمه • ثم ينتشر أفراد القبيلة حول أطراف هـــذه الأحبال ويمسكون بها ، وبذلك لا يتمكن الحيوان من السقوط • ثم يتقدم والد الطفل ويشـــق الفرس أو المهر من رقبته الى أســـفل • ثم ينتزع قلب الحيوان وغير ذلك من الأجزاء ويوضع الطفل فى تجويفها • والغرض من هـــذا الفعل هو وضع الطفل فى تجويف الحيوان وهو مازال ينتفض ، اعتقادا منهم أن الطفل سيصبح بكل تأكيد فى المستقبل فارسا ماهرا» •• وهنا تتمثل لنا بوضوح هذه العادة والسبب الذى يعزى لاتباعها • فاذا شئت أن يكون طفلك فارســـا ماهرا ، كمـــا يجادل هؤلاء الهنود ، فان أفضل وسيلة لذلك هى الربط بينه وبين الحصان عند ولادته ، وذلك بأن يوضع داخل تجويف فرس أو مهر وهو مازال على قيـــد الحياة • فاذا وضع الطفل على هذا النحو بين لحم الحيوان ودمه ، فانه يصبح شبيها به جسديا ، ويصبح له مقعد صيد القنطور (٢) الذى يتكون جسمه من جسم انسان وجسم فرس معا • وباختصار فان وضـــع الطفل داخـــل تجويف الفرس أو المهر ليس سوى صورة من صور المشاركة الذى يقصد به اكساب الانسان صفات خاصـــة •

---

(١) حبل فى طرفه انشوطة يستعمل لاقتناص الخيل والأبقار •
(٢) كائن خرافى •

ويمكننا أن نفسر وفقا لهذا الأساس ــ كمـا أشـار روبرتسون سميث الى ذلك ــ الشعيرة « السكيثيانية » عند عقد عهد ، عندما يدوس أفراد القبيلة بأقدامهم على جلد ثور مذبوح •فكل الذين يدوسون بأقدامهم اليمنى على جلد الثور يصبحون هم والحيوان شيئا واحدا ، بحيث تربط بينهم رابطة الدم التى تؤكد اخلاصهم لبعضهم بعضا • اذ من المحتمل أن الدوس بقـدم واحـدة على جلد الثور يعـد شكلا مختصرا للف الشخص بالجلد لفا كليـا ، تماما كمـا تعود المتعبد فى محراب الآلهـة السـورية فى « هيرابوليس » ، أن يجثو على جلد الشـاة التى قدمهـا ضحية للآلهة ، ويسحب رأسها وأرجلها فوق رأسه وكتفيه ويصلى للآلهة وهو فى هيئة الشاة ، لكى تتقبل الشاة التى قدمها ضحية لها •

وهـذا التفسير الذى قـدمه « روبرتسون سميث » لتلك العـادة تؤكده كل التأكيـد عادة أفريقية مماثلة لهـا • فمن عادة صـبية قبيلة « وانتشاجا » فى « أفريقيا الشرقية أن يهيئوا بعد عامين من ختانهم لما يمكن أن يسمى بالتعميد الحربى • ومن أجل هذا الغرض يجتمع الصبية مـع آبائهم وشـيوخ قرية زعيمهم ، ويقومون بذبح ثورين ونعجتين وتجمع دماؤها فى جلد ثور يحمله عدة رجال • ثم يعرى الصبية أنفسهم ويطوفون وهم واقفون فى صف طويل أربع مرات حول جلد الثور المتلىء بالدم • ثم يصطفون بعد ذلك ويمر عليهم شيخ ويحدث قطعا فى أسفل أكمامهم • ثم يخطو كل صبى الى الجلد المتلىء بالدم ويخز ذراعه حتى تسقط قطرات من دمه فوق دم الحيوان، ثم يملأ يده بهذا الدم الممتزج بدمه ويشربه ، ويرتدى ملابسه بعد ذلك • ثم يجلس الصبية القرفصاء حول زعيمهم • وبعد حديث طويل معه يسمى كل والد ابنه باسم حربى• فان لم يكن للصبى والد ، فانه يتسلم لقبه من شـيخ كهل يقوم بدور الأب • ثم يخطب فيهم الزعيم معلنا أنهم لم يعودوا بعد أطفالا ، وانما أصبحوا جنودا ، ثم يرشدهم الى تبعاتهم الجديدة ، كما يقدم لهم جميعا لافتة لذروعهم تبرزهم أنهم قـد أصبحوا ينتمون الى جماعة واحـدة بعينها • وهنا نلاحظ أن الصـبية الذين أصـبحوا محاربين فى جماعة

واحدة ، قد ارتبطوا جميعا برباط مزدوج من الدم هو عبارة عن دمهم ودم الحيوان المقتول ، اللذين مزجا فى جلد الثور ، ثم شرب كل منهم من هذا الدم المختلط نخب فروسيته المستقبلة • وليس هناك مثال يشير بوضوح أبعد من هذا الى صحة وجهة نظر « روبرتسون سميث » ، من حيث أن الغرض من استخدام جلد الثور فى الطقس « السيكثيانى » هو كذلك ربط المحاربين برباط دموى واحد •

وربما مكنتنا مناقشتنا هذه لعهد ابراهيم ، من القاء الضوء حول نقطة مظلمة فى تاريخ الكنعانيين • فمنذ اكتشف الأستاذ « ستيوارت ماكاليستر » فى حفرياته فى « جيزر » فى فلسطين مكانا للدفن يستلفت النظر • وهذا المكان هو ببساطة حجرة اسطوانية يبلغ ارتفاعها عشرين قدما ، واتساعها خمسة عشر قدما • وقد نحتت هذه الحجرة فى الصخر وترك مدخلها فى قمتها على هيئة فتحة دائرية • ويبدو أن هذه الحجرة كانت فى الأصل مخزنا للمياه قبل أن تتحول الى مدفن • وقد عثر فى أرض تلك الحجرة على خمسة عشر هيكلا آدميا ، أو بالأحرى أربعة عشر هيكلا ونصف هيكل • ذلك أنه لم يعثر لهيكل من هذه الهياكل سوى على جزئه العلوى ، فى حين لم يعثر على جزئه السفلى • وهذا الهيكل لفتاة تبلغ الرابعة عشرة من عمرها ، وقد قطع جسدها أو نشر من الوسط عند الفقرة الثامنة من عمودها الفقرى عند التجويف الصدرى • وحيث أن الأجزاء الأمامية من الضلوع قد هشمت عند هذا المستوى، فانه من الواضح أن هذا التهشيم قد تم فى مرحلة كانت العظام تستند فيها على الأجزاء الرخوة من الجسم • وأما سائر الهياكل فهى هياكل رجال ، اثنان منها لشابين يبلغان من العمر الثامنة عشرة أو ربما التاسعة عشرة والباقى لرجال كاملى النمو معتدلى القوام ، قويى البنية • ويدل وضع الهياكل على أن أصحابها لم يطرحوا فى الحجرة من خلال فتحتها العلوية ، وانما هبط بهم رجال الى داخل الحجرة • كما أنه يعتقد أن كميات الفحم الكبيرة التى عثر عليها بين العظام تدل على أن حفلا جنائزيا أو تضحية أو أى طقس مقدس آخر قد أدى داخل حجرة الدفن • كما نظر علماء الآثار

الى بعض الأسلحة البرنزية الدقيقة، مثل رءوس الرماح وفأس وسكين، تلك التى عثر عليها بجانب الجثث ، بوصفها شاهدا، أن هذا الدفن قد حدث قبل ظهور بنى اسرائيل ، أى أن أصحاب هذه الهياكل كانوا ينتمون الى عنصر سبق ظهور العبريين فى فلسطين • كما استدل العلماء من شكل عظام هذه الهياكل وتجاويف الجماجم الواسعة ، ومن أنوفهم المقوسة ، وبعض الخصائص التشريحية الأخرى ، أن الذكور يمثلون نماذج لعنصر لا يختلف عن عرب فلسطين اليوم •

فاذا كان التشابه الجسدى بين هؤلاء الرجال القدماء وسكان فلسطين المعاصرين كافيا لأن يبرر لنا أن نعدهما أفرادا ينتمون الى أصل واحد ، فربما حق لنا أن ننتهى الى أن كليهما ينتمى الى الأصل الكنعانى الذى كان يستوطن فلسطين قبل غزو العبريين لها ، والذى لم ينجح العبريون قط فى ابادته على الرغم من محاولتهم اخضاعه لسطوتهم • فوجهة نظر الخبراء أن الفلاحين المعاصرين أو المزارعين الفلسطينيين الذين يتحدثون اللغة العربية ، انما هم سلالة القبائل الوثنية التى سكنت فلسطين قبل الغزو الاسرائيلى وارتبطوا بأرضهم منذ ذلك الوقت•وعلى الرغم من أن موجات الغزو المتعاقبة على فلسطين قد غمرتهم ، الا أنها لم تنجح فى القضاء عليهم • فاذا كان الأمر كذلك ، فانه يحق لنا أن نفترض أن الهيكل النصفى للفتاة الذى عثر عليه فى « جيزر » ، يعد أثرا باقيا لعادة التضحية بانسان ، تلك العادة التى لعبت دورا بارزا فى الديانة الكنعانية • ونحن نستدل على ذلك بالعادة المشابهة لها التى أشار اليها الأنبياء العبريون ، وكتاب العصور الكلاسيكية القديمة • وقد دعم هذا الافتراض ما عثر عليه من هياكل أطفال عثر عليها فى «جيزر» محفوظة فى جرار تحت أرض المعبد ، فقد اعتقد الباحثون فى العادة ، أن هذه المخلفات تشهد على عادة التضحية بالابن الأول تكريما للاله المحلى• وقد عثر على مزيد من هؤلاء الأطفال المدفونين فى جرار حول معبد منحوت فى الصخر فى بلدة « تعنك » فى فلسطين ، وقد فسر تحنيط هؤلاء الأطفال على النحو الذى أشرنا اليه •

ولكن اذا كان هيكل الفتاة الذى عثر عليــه فى مقبرة « جيزر » ، يمثل حقا بقايا عادة التضحية بانسان فما زال علينا أن نتساءل : لماذا شق جسد الفتاة أو نشر على هذا النحو ؟ ان عهد ابراهيم الذى نقيس عليــه وبالمثل الطقوس المتشابهة التى تحدثنا عنها ، تشير الى أن شطر الفتاة الضحية الى شطرين ربما كان يقصـــد به الوقاية الجماعيـــة ، أو التصديق على عهـــد • أو أننا نفترض ــ حتى تكون أكثر وضـــوحا من هـــذا ــ أن جسد البنت قد قطع الى نصفين وأن الناس مروا بين هذين النصفين ، اما بقصد تضليل قوى شريرة كانت تعيش بينهم أو تتهددهم أو بقصد تأكيد معاهدة سلمية تأكيدا يتسم بالرهبة • ولنبدأ الآن بالتفسير التطهيرى أو الوقائى •

لقد سبق أن رأينا أنه عندما استولى « بيليوس » على مدينـــة « أولكس » قيل : انه أسر زوجة ملك المدينة وقطعها الى نصفين وترك جيشه يمر بين هذين النصفين قبل أن يدخل المدينة • ولا يبدو أن هذه العادة المتوارثة من قبيل الاختراع الصرف ، فربما كانت بقايا عادة بربرية متخلفة كان يتبعها الظافرون عند دخول المدينة المندحرة ، ونحن نعلم أن الانسان فى العصور الأولى كان يخشى كل الخشية من سحر الغرباء ، وأنه كان يقوم باحتفالات عديدة لكى يحصن نفسة ضد هذا السحر ، سواء عندما يسمح لغرباء أن يدخلوا بلدته ، أو عندما يخطو هو نفسه الى أرض قبيلة أخرى • وربما كان خوف مشابه لهذا من سحر الأعداء يدفع المنتصر أن يصطنع احتياطات غريبة بقصد حماية نفسه وجيشه من مكايدأعدائه ، وذلك قبل أن يجرؤ على دخول المدينة التى استولى عليها منهم بسيفه • وربما تمثل هذا الاحتياط الغريب فى أسر أسير ، وشق جسده أو جسدها الى نصفين ، وجعل الجيش يمر بين النصفين وهو فى طريقه الى المدينة • ووفقا لتفســـير السر المقدس لهذا الطقس ، فان التأثير الذى يحدثه المرور بين جزئىالضحية من شأنه أن يخلق عهدا دمويا بين الظافرين والمنهزمين معا ، ومن ثم فهو يؤمن المنتصرين ضد كل المحاولات العدائية من جانب المنهزم •

وهذا يفسر ما قام به « بيليوس » عند دخوله مدينة « أولكس » عندما أسر الملكة وشق جسدها الى شقين ، فقد كان هذا الاجراء وسيلة مقدسة لخلق وحدة بين الغزاة والمغزويين • فاذا كان هذا التفسير مقبولا ، فانه يتبع هذا فيما يبدو ، أن يكون هناك توافق بين وجهات نظر الطقوس التطهيرية أو الوقائية وطقس عقد العهد ، فالغزاة يطهرون أو يحمون أنفسهم من تأثير أعدائهم الشرير بالدخول ضمنا معهم فى عهد دموى •

ومن المحتمل أن عادة سامية مشابهة لهذه العادة يمكن أن تفسر هيكل الفتاة المشطور الذى عثر عليه فى « جيزر » • ونستطيع أن نحكم من خلال البقايا الآدمية التى عثر عليها فى هذا المكان ، أن المدينة احتلتها أجناس مختلفة من عصور مختلفة ، ففى العصور الاولى احتلها قوم قصار الجسم أقوياء البنية ، نحفاء ، ذوو رءوس بيضاوية ، لا ينتمون الى العائلة السامية ، بل انهم لا صلة لهم بأى جنس من أجناس البحر الابيض المتوسط • فاذا كان الكنعانيون قد غزوا هذه المدينة فيما بعد ، هؤلاء الذين إستوطنوها فيما بعد ، فربما احتفلوا بدخولهم المدينة بأن أسروا الملكة أو أية امرأة أخرى وقتلوها وشقوا جسدها الى نصفين ومروا بينهما وهم فى طريقهم الى المدينة • ولكن كيف نفسر فى هذه الحالة عدم وجود النصف السفلى من جسد الفتاة ؟ اننا لسنا فى حاجة لأن نفترض ، كما افترض المستكشفون ، أن الغزاة الكانيباليين قد أحرقوه أو التهموه • وانما ربما دفن هذا الجزء فى مكان آخر ، ربما فى المكان المواجه لهذا المكان من البلد ، وذلك بقصد نشر مفعول سحر الضحية فى كل المساحة الواقعة بين المكانين ، حتى تصبح المدينة بأسرها آمنة بالنسبة للغزاة ويكونون فى الوقت نفسه فى مأمن من ضربات أعدائهم • وقد قيل ان ملكا قديما من ملوك بورما قد أكسب مدينته الحصانة ، بأن قطع جسد خائن الى أربعة أقسام ، ودفن كل جزء فى ركن من أركان المدينة • وعبثا حاول أخو الخائن أن يستولى بجيشه على المدينة • وقد ظل يحاول ضربها

دون جدوى ، حتى أخبرته أرملة القتيل أنه لن يتمكن من الاستيلاء على المدينة طالما كان جسد زوجها يحرس أسوارها • عند ذاك أخذ الأخ يحفر الأرض بحثا عن أشلاء أخيه حتى عثر عليها • بعد ذلك استسلمت المدينة دون مقاومة • وشبيه بهذا الطقس ما يتبعه « اللوشايين » فى « أشام » عندما تكون المرأة فى حالة الوضع • فلكى يخفف عنها أصدقاؤها آلام الوضع يأتون بدجاجة ويذبحونها ويشطرونها شطرين متساويين • أما الشطر الذى يحتوى على الرأس فيوضع عند الطرف الشمالى من المدينة مع سبعة عيدان من الخيزران توضع فى شكل حزم • وأما الجزء السفلى من الدجاجة فيوضع عند الطرف الجنوبى من القرية مع خمس حزم من الخيزران • وفضلا عن ذلك فان جرعة من الماء تقدم للمرأة لتشربها • ويطلق على هذه الشعائر اسم « أرتى — بومفيلنا » ، ومعناه : « فتح البطن بمساعدة دجاجة » ، لأنهم يعتقدون أن شطر الدجاجة الى شطرين يسهل عملية الولادة • على أنه لم يذكر شىء عن الوسيلة التى يحدث بها هذا الطقس هذا التأثير المفيد ، ولكننا نحدس أن الناس يعتقدون أن جزئى الدجاجة الموضوعين عند طرفى القرية يحرسان المساحة الواقعة بين المكانين من غزو القوى الشريرة ، وبخاصة تلك القوى الشيطانية التى حاولت دون ولادة الطفل •

وربما تأكد هدف التطهير أو الحماية من التضحية بالفتاة التى عثر عليها فى « جيزر » ، باكتشاف آخر تم فى المكان نفسه • فقد كشفت الحفريات المتأخرة فى هذا المكان عن نصف هيكل غلام فى السابعة عشرة من عمره • وقد شق جسد هذا الغلام كما حدث مع الفتاة ، من وسطه بين الضلوع وتجويف الحوض • ولم يعثر كما هو الحال مع الفتاة ، على الجزء السفلى من جسد الغلام • والى جانب الهيكل النصفى للغلام عثر على هيكلين كاملين لرجلين ، الى جانب مجموعة من الأوانى الفخارية وضعت فوق الهياكل ومن حولها • وقد

عثر على هذا الكشف تحت أساس بناء ، ان لم يكن أسفله مباشرة • ومن ثم فقد أشار الأستاذ « ستيوارت ماكاليستر » الى أن هـذه الهياكل هى بقايا جثث آدمية ضحى بأصحابها وفقا للعادة المنتشرة ، ودفنوا تحت أساس البناء لاكسابه قوة ومناعة أو لحمايته من الاعداء • وتتضح هذه العادة كل الايضاح من خلال نماذج مستمدة من بلاد متعددة ، بحيث أننا نرى أنه ليس ن الضرورى أن نسهب فى ايضاحها ، وانما سأكتفى بتقديم مثال واحد سجله شاهد عيان • وقد حرصت على تقديم هذا المثال لأنه يشير بوضوح الى سلسلة التفكير التى أدت الى رسوخ هذه لعادة • فقد عاش بحار انجليزى هارب منذ سبعين أو ثمانين عاما مضت ، طيلة عامين وحـده بين « الفيجيانيين » الذين مازالوا متبربرين ملحدين • وقد خلف لنا هذا البحار حكاية تجاربه الساذجة وان كانت لا تخلو من قيمة • فبينما كان يقيـم مع هؤلاء المتبربرين ، تصادف ان كان يبنى بيت الملك أو الزعيم المحـلى • ثم أبصر « جاكسون » ذات يوم ، بينما كان يقف بالقرب من مكان البناء رجالا يساقون ويدفنون أحياء فى الجحور التى كان سيقام فيها أعمدة البيت • وقد حاول الأهالى أن يصرفوه عن رؤية هذا المنظر ، ولكنه أسرع الى أحد هذه الجحور ، حتى لا تتم عليه الخديعة ، فأبصر رجلا يقف فى الجحر ويداه تعانقان العمود ورأسـه مازال بارزا من بين التراب • فلما سأل الاهالى عن سبب دفنهم لرجال أحياء عند أسفل الأعمدة ، أجابوه بأن البناء لا يصمد طويلا مالم يمسك الرجال بدعائمه على الدوام • فلما سألهم : وكيف يتسنى لهؤلاء الرجال أن يمسكوا دعائم البيت بعد أن يموتوا ، أجابوه : بأنه اذا ضحى الرجال بأرواحهم فى محاولة الامساك بالأعمدة فان فضيلة التضحية تحض الآلهة على المحافظة على سلامة البناء بعد أن يموت الرجال •

وهذا المجرى من التفكير يصلح تماما لأن يفسر وضع هيـكل الذكرين اللذين عثر عليهما تحت أساس البناء فى « جيزر » ، ذلك أن أحد هذين الهيكلين قد عثر عليه وهو يمد يده الى آنية ، كما لو كان

يعين نفسه على تناول الطعام وبذلك يصبح قادراً على القيام بهـذا العمل الشاق وهو الامساك بالحائط • ولكنه ليس من اليسير على هذا النحو أن نفسر وجود نصف هيكل الغلام الذي عثر عليـه فى المكان نفسه ، ونصف هيكل الفتاة الذى عثر عليه فى المقبرة الاسطوانية • لانه اذا كان الشخص حقا مكلفا بحمل أساس البناء حتى لا يهوى ، فمن الطبيعى أن يختار لهذا العمل المضنى رجالا أشداد • ولكن كيف يقوم نصف جسد صبى ونصف جسد فتاة بهذا العمل ، وكيف يمكن للحائط أن يقف راسخا وهو يرتكز على صبية وفتيات ليس لديهم أرجل ؟ ومن ثم فان النظرية التى تقـول ان هؤلاء الضحايا قـد قتلوا وشقت أجسادهم الى نصفين بقصد تقديمهم ضحية لأساس البناء ، لا يمكن أن تكون مقنعـة •

والى هذا الحد ينتهى نقاشنا حول نظرية الوقاية أو التطهير فى تفسير وجود هذه الهياكل الغامضة التى عثر عليها فى « جيزر » •

ولننتقل الآن الى مناقشة نظرية العهد لنرى ما اذا كانت أكثر ملاءمة لهذه الحقائق • ووفقا لهذه النظرية أن الغلام والفتاة قد قتلا وشطر جسداهما الى شطرين ، لا بقصد تطهير البنـاء من الأرواح الشريرة أو حمايته منها ، وانما بقصد التصديق على عهد من العهود ، وذلك بأن يمر الطرفان المتعاهدان بين شطرى القتيل ، تماما كما كان العبريون يصدقون على العهد بأن يمروا بين شطرى العجل المذبوح• وربما أيدت الموازنة التالية وجهة النظر هذه • لقد سبق أن رأينـا قبيلة « الواتشاجا » التى تسكن أفريقيا الشرقية ، تخلع الرهبة على العهد أو هدنة السلام التى تعقد بين طرفين ، بأن يشطر جدى حى وحبل بضربة وحدة ويدعون فى الوقت نفسه على من يحنث باليمين بأن ينشق جسده الى نصفين كما انشق الجدى والحبل معا • ولكن قيل ان هذه القبيلة كانت تتبع وسيلة أخرى فى عقد الحلف ، وأن هـذه الوسيلة كانت تعتمد منذ العصور البالغة فى القـدم ؛ فهم يأخذون غلاما وفتاة ويطلب منهما أن يطوفا ثلاث رات أو سبع مرات حـول

المتعاهدين المجتمعين ، بينمـــا تتلى دعوات اللعنة أو البركة لتحل تباعا على من يحنث باليمين أو يبقى عليه • ثم يشطر الغلام والفتـــاة الى شطرين من الوسط ، وتدفن أجزاؤهما الاربعة عند حدود الحيين اللذين يسكنهما الطرفان المتعاهدان • ثم يســـير ممثلون من كلا الطرفين على قبر القتيلين ، ثم يتفرقون بعد ذلك عائدين الى بيوتهم • والفكرة فى هذه الشعائر ، فيما قيل لنا ، هى تلك اللعنة المتضمنة التى تحل بحانث اليمن ، فينشق جسده الى شقين كما حدث للغلام والفتاة ، وأن يموت دون أن يختلف وراءه ذرية كما حدث للغلام والفتاة كذلك • وقد قيـــل انه لكى نفهم المغزى العميق لهذه اللعنة ، فمن الضرورى أن نعـــرف ما تحتوى عليه ديانة « الوتشاجا » من عبادة أرواح الأجداد • فالرجل الذى يتوفى دون أن ينجب أبنـــاء ، لن يترك وراءه من يقوم بتقـــديم الضحية له التى تعـــد الوســـيلة الوحيدة لاستقبال الأموات له استقبالا حسنا ، وتضـــمن له تأييدهم على الدوام •

والرجـــل الذى يموت دون أن يخلف وراءه ذريـــة قد كتب عليه أن يعيش الى الأبد حياة الوحدة فى العـــالم الآخر ، فلا يجـــد من يلبى رغبته فى تناول قطعة من لحـــم البقر يشـــبع بها رمقـــه ، أو جرعة من الجعة يروى بها ظمـــأه ، ذلك أن الجعة ولحـــم البقر ولحم الضـــأن هى الأشياء التى ترغب الأرواح الراحلة فى تسلمها من أيدى أقربائهـــم الأحياء •

فاذا كانت الموازنة بين طقـــوس « الواتشاجا » والطقوس السامية تتفق فيما بينهمـــا ، فانها تهيىء لنا أن نفهـــم السبب فى شطر الضحايا التى عثر عليها فى « جيزر » وأن نفهـــم لماذا كانت هذه الضحايا غلاما وفتاة وليسا رجلا وامرأة كاملى النمـــو • فلسنـــنا فى حاجة ســـوى أن أن نفترض أنهما قد قتـــلا وشطرا الى شطرين بقصـــد التصديق على عهد مقدس ، وأن الطرفين المتعاهدين قـــد مرا بين شطريهما ، وأن كلا منهمـــا قد أخذ نصف الغلام أو نصف الفتـــاة وعاد به الى بلده كضمان

لصدق الآخر فى عهده ، تماما كما حصل كل طرف من الطرفين المتعاهدين فى قبيلة الواتشــاجا على نصف الحبل كضـــمان لصـــدق الطرف الآخر فى عهده • واذا كنا قد أشرنا الى أنه قد عثر فى « جيزر » على نصفى الغلام والفتاة وأن كلا النصفين هو النصف العلوى من الجســدين ، فليس بمستبعد كلية أن المزيد من الحفريات المستقبلة فى فلسطين قــد يكشف عن مصير الجزئين السفليين من جسديهما اللذين حملهما معــه الطرف الآخر من الطرفين المتعــاهدين الى بلده ودفنهمــا هناك • وأكثر من هذا فربما استطعنا أن ندرك الآن لمــاذا وقع الاختيار على الغــلام وفتاة لكى يقدما ضحية ، ولم يقع على رجل وامرأة • واذا كانت الموازنة بين الشعائر العبرية وشعائر « الواتشــاجا » تقوم على أساس سليم فان الهدف من وراء هذا الاختيار هو اللعنة الضمنية ، فيموت من يحنث بالقسم دون أن يخلف وراءه ذرية ، كما مات الغــلام والفتــاة اللذان مر المتحالفون بين أجزاء جسديهما من قبل أن ينجبا ذرية • واذا تذكرنا رغبة الساميين الملحة فى انجاب الأطفال ، استطعنا أن ندرك هــول تلك اللعنة بالنسبة للمتعاهدين ، وبالتالى مدى حرصهم على الارتباط بالعهد •

وأخيرا ، فان من الجدير بالنظر ، أن الموازنة بين شعائر الواتشاجا عند عقد العهد بالشــعائر العبرية التى تقــام فى مثل هذه المناســبات سواء كانت الضحية التى تشطر الى شطرين هى جدى أو انســان ، فان هذه الموازنة منشــأنها ان تدعم التفســـير الجزائى فى الطقــوس العبرية ، حيث أن المثالين اللذين أشرنا اليهما عند قبيلة « الواتشاجا » فهم منهما أن شطر الضحية الى شطرين يرمز الى مصير الحانث باليمين • ومع ذلك فمازال الباب مفتوحا لأن نفسر المرور بين أجزاء الضحية على نحو ما أشار اليه « روبرتسون سميث » ، أعنى أن هذا المرور يعــد وسيلة للربط بين الأشخاص والضحية بقصد إكساب هؤلاء الاشخاص صفات خاصــة يظن أن الضحية تمتلكها ، كمــا يظن أنها تنتقــل الى هؤلاء الذين يدخلون فى رباط مع الحيوان ، إما عن طريق المرور خلال

أجزاء جسده أو بأى وسيلة أخرى كأن يلطخ الاشخاص أنفسهم بدمه ، أو يرتدى جزءا من جلده • وفى حالة عقد العهد ، فان الغرض من ربط المتعاهدين بالضحية هو التأكد فيما يبدو ، وذلك عن طريق السحر المتبادل ، أنه اذا حنث أى طرف من الطرفين المتعاهدين بيمينه ، فان مصيره سيكون كمصير الضحية ، فالسحر المتبادل اذن هو الذى يخلق بين المتعاهدين والضحية قوة تربطهم وتكون أكبر ضمان على تحقيقه •

وبناء على ذلك ، فاذا صح تحليلنا لعهد ابراهيم ، فان الشعيرة التى قام بها تتكون من عنصرين متميزين ، وان كانامتلازمين ، أما العنصر الأول فهو شطر الضحية الى شطرين ، وأما العنصر الثانى فهو مرور المتعاهدين بين أجزاء الضحية • والعنصر الأول يفسر بنظرية الجزاء ، وأما العنصر الثانى فيفسر بنظرية السر المقدس وكلتا النظريتين تكمل احداهما الاخرى ، كما أنهما معا تقدمان تفسيرا متكاملا لهذه الشعيرة •

الفصل الثانى

ارث يعقـــوب
أو نظام وراثة
الابن الأصـــغر

١ ـ آثار وراثة الابن الأصغر عند بنى اسرائيل :

ان الروايات التى تتعلق بشخصية « يعقوب » تعد أكثر اكتمالا من تلك التى تتعلق بشخصية أبيه « اسحق » وجده ابراهيـــم . وهى فضلا عنذلك ، أكثر غنى فى مادتها الفولكلورية ، أى فيما تكشف عنـــه من بقايا معتقدات وعادات قديمة . وقد كان من الطبيعى أن تتجمـــع فى شدة ، الذكريات والخيالات حول شخصية الجد البطل الذى ينسب اليه بنو اسرائيل سواء من ناحية الاسم أو من ناحية الدم .

ومع ذلك فان شخصية الجد الكبير ، كما تصور فى سفر التكوين ، ليس فيها ما يمتع القارىء الحديث أو يجذبه اليها الا القليل ، كما أنها تتعارض بطريقة غير مستحبة مع الوقار الذى اتسم به جده ابراهيم ؛ كما تتعـــارض ع الورع التـــأملى الذى اتســـم به أبوه اسحق . فاذا كان ابراهيم يعد مثالا للشيخ الســـامى الذى تميز بالشجاعة والكرم والجلالة واللطف ، فان يعقوب كان مثالاً للتاجر السامى اللين الحذق ، والوافر الحيلة ، الذى يحرص على المكسب ، وعلى أن يتم صفقاته لا بالقوة ، بل بالحذق ، دون أن يتردد كثيرا فى اختيار الوســـائل التى يبز بها منافسية ويتفوق بها عليهم . هذا الجمع غير المرغوب فيه بين

الجشع والمكر ، تتكشف عن نفسها فى الحوادث المبكرة فى حيــاة يعقوب التى دونها سفر التكوين ، أعنى تلك الحيل التى سعى عن طريقهــا لأن يخدع أخاه الأكبر عيسو ، ويسلب منه حقه فى الارث ، كما يسلبه من بركة أبيه • فقد كان يعقوب وعيسو توأمين ، ولكن حيث أن عيســو كان أكبر الأخوين ، فقد كان من حقه وفقا للنظام الشائع ، أن تخــلع عليه بركة أبيه ، وأن يرثه • أما الوسائل التى سعى يعقوب عن طريقها أن يسلب أخاه الأكبر من حقوقه ، فكانت ببســاطة مواقف حادة من المؤامرات ، فقد استغل فى بداية الأمر جوع أخيه ، فاشترى منه حقه فى الوراثة مقابل أكلة من الثريــد ، ثم ارتدى بعد ذلك ملابس أخيــه واصطنع ملمس جلده الكثيف الشعر ، ثم تظاهر لأبيه الكفيف أنه هــو عيسو وبذلك اغتصب بركة أبيه التى كان يعى بها أخوه • حقــــا ان الموقف الثانى من الخديعة التى تمت على الأب الكهل ، لم تكن من صنع يعقوب ، وانما اوحت به اليه أمه « رفقـــة » التى كانت تســـمى قبل زواجها « لبيبة » ، وذلك لكى تختبر مهارتها فى خـــداع زوجها • ومع ذلك ، فان استعداد يعقوب السريع فى تقبل الخدعة ، يبرهن على أنه ما كان يعوقه فى خداعه لأبيه شعور بالود وإنما كان الميل إلى الحيلة السريعة يغلب كل إحساس طيب عنده •

وقد يثير مثل هذا التواطؤ فى مرحلة معينة من التطور الأخـــلاقى بعض الاستهجان ، وقد لا يثير هذا الاحساس على الاطلاق ، اللهم بين الذين يعانون منه • فقد يميل الشخص غير المتحيز المعاصر لهذا الفعل ، الى أن يثنى على هذا التواطىء الذى يدل على المهارة والذكاء اللذين مكنا صاحبهما من الانتصار على شـــخصية لا تتسم إلا بالصدق والغباء • ولكن بعد أن تغيرت المقاييس الأخلاقية ، فقد أصبح الرأى الجماهيرى يقف فى صف الصادق الغبى ، ويولى ظهــره لمثل هذا الانسان المــاهر الحاذق • ذلك أن التجــربة قد أثبتت أن أى تواطؤ مهما تكن درجة ذكاء صـــاحبه وبعد نظره ، فانه لا يسىء الى الأفراد فحسب ، وانما يسىء

الى المجتمع بوصفه كلا ، وذلك لأنه يخلخل رباط الثقة المتبادلة بين الناس ، تلك الثقة التى تربط وحدها بين جماعة الناس فى وحدة واحدة • وبعد أن عرفت هذه الحقيقة بوجه عام ، بدأ المؤرخون يقيمون أعمال الرجال فى العصور الماضية بمقاييس أخلاقية لم يكن يتسنى لهؤلاء الرجال المخادعين أنفسهم أو لمعاصريهم أن يستخدموها فى الحكم على أفعالهم • فاذا وجد الناقد الطيب أن الشخصيات البطولية التى عاشت فى الزمن الماضى تهبط دون هذا المستوى الأخلاقى ، فانه ، بدلا من أن يعترف صراحة بالبون الشاسع الذى أوجده التطور الاخلاقى بينه وبين هذه الشخصيات ، فانه يحاول ان يتغافل هذا ، بالتماس المعاذير لهم ، وادعاء المبررات التى يرفضها هو نفسه بناء على مقاييسه الاخلاقية فالميل الى تبرأة الفرد من الأعمال الشائنة ، اذا كان دافعه القلب الطيب وليس الغرور الكاذب فى ادعاء المتناقضات ، يعد عملا جديرا بالاكبار ، وربما كان غير مؤذ لغيره ، وهو فى ذلك يختلف عن المحاولة الاخرى التى تهدف الى طمس أكثر الشخصيات شهرة ، حيث أن مثل هذا العمل البغيض وان يكون مألوفا ، لا يصيب الشخص البرىء بضربة فى ظهره فحسب ، وانما يسىء الى المجتمع كذلك ، ويهبط بمستواه الأخلاقى ، حيث أنه يسلبه نماذج للفضيلة قلما نعثر عليها • وربما كان التأمل فى هذه النماذج أكثر ملاءمة للانسان الذى يتوق الى مثل الفضيلة ويعجب بها ، من الكثير من الأبحاث التجريدية التى تتحدث عن الفلسفة الأخلاقية •

وفى السنوات المتأخرة أخذ مواطن يدعى « يوسف يعقوب » على عاتقه مهمة الدفاع عن شخصية يعقوب ، فقد حاول أن يزيل تلك الوصمة عن الجد النبيل ، بأن أشار الى أن يعقوب ، وفقا للقانون القديم ، كان أحق بالارث ، بوصفه الابن الأصغر ، وأن الاحتيال الذى لجأ اليه للحصول على مأربه ، وفقا للرواية العبرية ، ليس سوى تفسير خاطىء من قبل المؤرخ لعملية لم يفهمها هذا المؤرخ نفسه •

ولست أود أن أخاطر بالقــول بما اذا كان هذا الاعتذار سليما أم غير بســليم ، ولكن من المؤكد أن مثل هــذا القــانون الوراثى القديم كان ينتشر ، كما افترض هذا المدافع عن يعقوب ، بين كثير من الشعوب ، وليس هناك ما يدعــو لأن نفترض انه لم يكن منتشرا فى هــذا الزمن البعيد بين أجداد بنى أسرائيل • وقد عرفت هذه العادة أو القانون : باسم حق الأبن الأصغر ، أو حق وراثة الابن الاصغر ، وذلك فى مقابل حق وراثة الابن الاكبر ، لأن الارث يؤول وفقا لهذا القانون ، الى الابن الاصغر بدلا من الابن الاكبر • وفى هذا الفصل أود أن أوضح هذه العادة من خلال الامثلة ، وأن أبحث أصلها •

ولنبدأ بالبحث عن آثار أخرى ممكنــة لحق الابن الاصغر أو حق وراثة الابن الاصغر فى العهد القديم نفسه • وربما كان أول ما يسترعى نظرنا أنه اذا كان يعقوب قد سلب أخاه الاكبر حقه ، فانه لم يفعــل الا ما فعله أبوه اسحق من قبل • ذلك أن اسحق كذلك كان ابنا أصغر ، وكان قد عزل أخاه اسماعيل من حقه فى وراثة أبيهما ابراهيم • وهــذا الذى اتبعه يعقوب فى معاملته لأخيه وأبيه ، اذا كان من المستطاع أن نسميه مبدأ ، يبدو أنه أتبعه بعد ذلك مع أبنائه وأحفاده • فقد قيل لنا : إن يعقوب كان يحب يوسف أكثر من أبنائه الكبار ، « لان يوسف كان ابن شيخوخته » • ولقد أبدى تفضيله ليوسف بطريقة أثارت الحقد فى قلوب اخوته الكبار ، الى درجة أنهم دبروا مؤامرة للقضاء عليه • حقا ان يوسف ، وفقا لرواية التوراة التى بين أيدينا ، لم يكن أصغر أبناء يعقوب ، حيث أن « بنيامين » قد ولد من بعده • ولكن ربما افترضنا أن يوسف كان حقيقة هو الابن الأصغر فى الرواية الاصلية • فالعاطفة القوية التى أبداها نحوه أبوه ، والرداء ذو الألوان المتعددة ، أو بالاحرى الرداء ذو الأكمام الطويلة التى كان يميزه بين أخوته ، ثم تلك المكانــة المرموقة التى تمتع بها بعد هذا كله ، كل هذا يؤيد أن يوسف كان أحب

أبناء يعقوب اليه • ولكننا نجد من ناحية أخرى أن اسم « بنيـامين » أصغر أبناء يعقوب معناه « ابن اليمين » • وهذا اللقب الذى يبرز بنيامين بوصفه صاحب الحق الشرعى فى الارث ، تؤيده الرواية المشهورة التى تحكى أن يعقوب عندما كان يبارك حفيديه ، ولدى يوسف فضـل متعمدا (١) حفيده الأصغر على الاكبر ، بأن وضع يده اليمنى على رأس حفيده الاصغر « أفرايم » ، ويده اليسرى على رأس حفيده الاكبر « منسى » ، وذلك على الرغم من معارضة أبيهما يوسف الذى قدمها لأبيه فى وضع بحيث يكون الابن الاكبر مقابل اليد اليمنى ، والابن الاصغر مقابل اليد اليسرى • ولكن الشيخ اضطر الى أن يضع يده على صدره فى وضع متقاطع ، حتى تصل يده اليمنى الى رأس حفيده الاصغر ، ويـده اليسرى الى رأس حفيده الاكبر • ومن ثم فان الباحث الذى آخذ على عاتقه الدفاع عن يعقوب ، يمكنه أن يقول بحق آن يعقوب كان يتمسك على الأقل فى أثناء حياته ، بمبدأ تفضيل الأبناء الصغار على الكبار ، وأنه كان يغفل هذا المبدأ عندما يجد أنه لا يخدم أغراضه الشخصية •

على أن هناك شواهد أخرى تؤيد هذا المبدأ ، وبتعبير آخر تشهد على أن عادة حق الابن الاصغر القديمة ، أو حقه فى الارث كانت متبعة فى بنى اسرائيل • فنحن نقرأ فى سفر التكوين أن « تامار » ابنة يهوذا أنجبت ولدين توأمين ، أحدهما كان يدعى « فارص » والآخر « زارح » وعلى الرغم من أن « فارص » كان هو الأسبق فى ولادته ، فان هنـاك رواية غريبة تحكى عن ميلاد الطفلين وتميل الى أن تؤكد أن « فارص »

---

(١) « فلما رأى يوسف أن أباه وضع يده اليمنى على رأس افرايم ، ساء ذلك فى عينيه . فأمسك بيد أبيه لينقلها عن رأس أفرايم الى رأس منسى . وقال يوسف لأبيه ليس هذا يا ابى ، لأن هذا هو البكر . ضع يمينك على رأسه . فأبى أبوه وقال علمت يا بنى علمت . هو أيضا يكون شعبا وهو أيضا يكون كبيرا ، ولكن أخاه الصغير يكون اكبر منه ، ونسله يكون جمهورا من الأمم » .

(سفر الخروج . الاصحاح الثامن والأربعون من آية ١٧ الى ١٩) .

كان حقا ، شأنه شأن يعقوب وأخيه عيسو ، أصغر الطفلين وليس أكبرهما كما يظن ذلك بعض الناس • على أنه لا يبــدو من ظاهــر الرواية أن « فارص » كان هو الاصغر ، ولكن هذا يتضح اذا تذكرنا أن «فارص» كان الجد المباشر للملك « داود » وأن « داود » نفســه كان أصغر أبناء أبيه ، وقد رشحه « صموئيل » عن عمد للملك مفضلا اياه على كل اخوته الكبار • ومن ثم فان هدف حكاية سفر التكوين من ذكر التفاصيل التى قد تبدو غير أساسية فى الحكاية ، ان لم تكن عارضة ، عن ميلاد التوأم، هو فيما يبدو اثبات أن الملك داود لم يكن أصغر أبناء أبيــه فحسب ، بل ينتسب كذلك الى أحفاد يهوذا ، أصغر التوأمين • وقد أورث داود بدوره الملك من بعده الى أحد أصغر أبنائه وهو سليمان ، وأبعد عن عمد أحد أبنائه الكبار وهو « أدونيا » ، الذى كان قد طالب العرش • واذا اجتمعت معا كل هذه الحقائق ، فقد تثير افتراض أن عادة إرث الابن الاكبر ، أو تفضيل الابن الاكبر على أخوته قد تلت ، عند الاسرائيليين ، عادة حق ارث الابن الاصغر ، أو عادة تفضــيله على أخوته ، بوصفه وريثا لأبيه • وقد يتأكد هذا الفرض اذا رأينا أن عادة مشابهة لهــذه العادة كانت تنتشر فى بقاع كثيرة من جهات العالم •

٢ ـ حق الابن الأصغر فى الميراث فى أوربا :

ومن بين هذه البلاد التى اتبعت هذه العادة وما تزال تتبعهــا ، بريطانيا • فما تزال هذه العادة القديمة ، او كانت حتى عهد قريب ، هى قانون الأرض فى كثير من جهات انجلترا • وهذا القانون يعرف باسم Borough English وقد استمد هذا الاسم لتلك العادة من كلمة محلية استخدمت فى محاكمة من المحاكمات تمت فى زمن « إدوارد الثالث » • اذ يبدو من تقرير فى الكتاب السنوى فى الســنة الاولى من حكم الملك « ادوارد الثالث » أنه كان فى « نوتنجهام » اقطاعيتان اسم احدهما Borough English ، والأخرى Borough French وقد كانت المساكن

كلها تؤول فى ظل نظام الاقطاعية الأولى الى أصغر الأبنـــاء ، كمـا كانت تؤول فى ظل نظام الاقطاعية الثانية الى أكبر الابناء • وقد قيل ان نوتنجهام ظلت حتى عام ١٧١٣ م منقســـمة الى الاقطاعيــة الانجليزية والاقطاعية الفرنسية ، وان كل اقطاعية كانت تسير وفقـا لعاداتها • بل ان عادات مشـــابهة لهاتين العادتين ما تزال تنتشر فى الأقاليم المجاورة لهما •

أما عن الأماكن التى كانت ينتشر فيها نظام Borough French أو نظام حق الابن الأصغر فى الارث ، فى انجلترا ، فكانت تنتشر على وجه التقريب على طول امتداد الشاطىء السكسونى « واسن » الى الأماكن المجاورة لـــ « سولنت » بما فى ذاك ممتلكات الكونت الجنوبية الشرقية بأسرها • ولكى نكون أكثر دقة ، فان هذه العادة كانت أكثر ما تكون انتشارا فى « كنت » و « ساسكس » و « سارى » وفى مجموعة الأقاليم الى كانت تحيط بلندن القديمة • كما أنهـــا كانت أقل انتشارا فى « اسكس » ومملكة « ايست انجيليان » • وقد كانت تنتشر بصفة عامة فى « ساسكس » بالنسبة للأراضى التى تمتـــلك بالالتزام ، تحيث أنها كانت تسمى القانون العام للمقاطعة • أمـــا فى منطقة « ريب لويس » فكانت تنتشر على وجه لتقريب انتشـــارا عاما بحق • وهناك أمثلة قليلة تدل على انتشـــار هذه العـــادة فى « همبشاير » ، ولكن كان هناك جزء كبير من « سومرست » يقـــع فى أقصى الغرب ، وهو عبارة عن مساحة متصلة من الارض ، يخضـــع لعادة قصر الارث على الابن الاصغر • وكانت هذه العادة تقل نسبيا فى « مقاطعة ميدلاند » ، فهى تنتشر فى وحدة ادارية من بين كل وحدتين إداريتين أو ثلاث ، فى حين أنها تنتشر فى أربع من المدن من بين المدن الخمس الدنماركية الكبيرة وهى : « ديربى » و « ســـتامفورد » و « لايكستر » ، و « نوتنجهام » • بالاضـــافة الى بعض المقاطعات المهمة الاخرى مثل « ستافورد » و « جلاوسستر » • ويبدو أن هذه

العادة لم تكن معروفة فى الشمال فى مجموعة المقاطعـــات التى كانت تقع بين « همبر » و « ميرسى » ••

على أن هذه العادة لم تكن مقصورة على الأماكن السكسونية فى انجلترا ، بل كانت تنتشر كذلك فى البلاد الكلتية مثل « كورنوول » و « ديفون » و « ويلز » • وتقضى قوانين « ويلز » القديمة بأنه « اذا تقاسم الأخوة الارث ، فان أصغرهم يملك المسكن وما يتبعـــه من أرض ومنشآت وكل منشآت الأسرة ، وثمانية فدادين على وجه التقريب ، كما يملك البلطة والمرجل والمحراث ، اذ أن الأب لا يمكـــن أن يمنح هذه الأشياء الثلاثة الا الى أصغر أبنائه • فإذا كانت هذه الأشياء مرهونة ، فانها لا تستبعد من الارث على الاطلاق » • أمـــا قانون ويلز فلا ينص فى حق الابن الاصغر فى الارث الا على العقار والأرض ، وهو عندئذ يرث بيتـــا مأهولا على الأقـــل • فاذا وزعت سائر الممتلكات بين الاخوة ، فلا يتمتع الابن الأصغر بأى استثناء فى ذلك • ويبدو أنه ليست هناك أية شواهد تشير الى انتشار عـــادة حق ارث الابن الاصغر فى أى مكان فى اسكتلنده ، ولكنه كان من المألوف فى جزر « شتلاند » ، أن يرث الابن الأصغر ، ذكرا كان أم أنثى ، عند تقسيم التركة ، مسكن الأبوين •

ويبدو أن عادة حق ارث الابن الأصغر كانت مرتبطة فى القانون الانجليزى القديم بسيطرة السادة على ملكية الارض • وقد كتب الى الأستاذ الراحل « ف•و• ويتلاند » حول هذا الموضوع فقال : « أما عن انتشار عادة حق ارث الابن الاصغر ، فقد اطلعت على كثير من شواهدها فى الوثاق التى ترجع الى القرن الثالث عشر • وســـــواء أكانت هذه الوثائق مطابقة للحقيقة أم لا ، فانه ينظر اليهـــا على الدوام بوصفها شاهدا ، ان لم تكن دليلا قاطعا ، على سيطرة السادة على ملكية الأرض • ويبدو ، وفقا لهذا النظام ، أن مســـاكن موالى السيد لم تكن تورث على الاطلاق ، ولكن هذا النظام كان يتطلب من

السيد أن يختار أحد أفراد أسرة المستأجر المتوفى ليحل محلـــه ، ولم يكن من الامور غير الطبيعية أن يختار هذا السيد أصغر أبنـــاء المستأجر المتوفى • أما سائر الأخوة فيضربون فى الحياة كما خلقوا فيها ، فى حين يبقى الابن الى جانب أبيه فى بيته ساعة احتضاره • ووفقـــا لكثير من العادات التى تراعى تقسيم التركة بالتساوى بين الأخوة ، يختص الابن الأصغر بوراثة بيت الأسرة وما حوله ، والمدفأة • على أننى لا أدعى بذلك أننى قد توصلت الى اثبات مبدأ العبودية فى نظام حق الابن الأصغر فى الارث ، ولكن من المؤكد أن وراثة الابن الاصغر لأبيه فى الأرض كانت تخضع لنظام العبودية فى القرن الثالث عشر • وفى وسعى أن أقدم أثباتا كافيا على ذلك • وكان هذا المبدأ يرتبط بنظام الاتاوة Merchetum (١) ، اذ كثيرا ما يذكران معا كما هو الحال فى المثال التالى(٢) : « أنتم عبيد أرضى ، فرضت عليــكم الجــزية ، ودفعتم لى الاتاوة فى زواج بناتكم ، وقد كان كل منكم أصغر أبناء أبيه فورثه فى التزامه » •

ومما هو جدير بالذكر ان نظام حق الابن الأصغر فى الارث فى فى انجلترا لا يقتصر على الذكور • فهناك عشرات ، ان لم يكن مئات من الأحياء الصغيرة التى يمتد فيها هذا الحق من الذكور الى الاناث• وفى هذه الحالة تفضل أصغر البنات أو أصغر الأخوات أو الخالات على شريكاتها الأخريات •

وكذلك ينتشر نظام حق الابن الأصغر فى الأرث فى بعض جهات فرنسا • « ففى بعض نواحى ممتلكات الكونتات فى « كورنواى » فى

---

(١) كان هذا اسم الاتاوة التى يدفعها الملتزم للسيد الاقطاعى عند تزويجه ابنته •

(٢) من رسالة ف • و • ميتلاند F. W. Maitland بتاريخ ١٨٨٧/١١/١

« بريتانى » ، يتمتع أصغر الأبناء بحق يختص به وحده يســاوى الابن الأكبر تماما • فأصغر الأبناء ، ذكرا كان أم أنثى ، يرث الأرض التى تسمى quevaise ، دون اخوته وأخواته » • ويعرف هذا الحق فى فرنسا بقانون maineté • وعلى الرغم من أن هذه العــادة تنتشر فى المقاطعات الممتدة الكثيرة التى كانت تابعــة للأشراف فى « بريتانى » ، فاننا لا نستطيع أن نتعرف بذلك على أصل انتشارها فى فرنسا • ذلك أن المحامين الاقطاعيين عندما كانوا يشرعون العادات فى الأقاليم ، كان النبلاء يولون ظهورهم للعادة غير المألوفة لديهم • كما أننا نعلم أن المنطقة التى كانت تنتشر فيها هذه العــادة فى القرن السابع عشر كانت تتضــاءل يوما بعد يوم على وجه التقريب • أما الأحياء التى كات تروج فيها تلك العادة ، فكانت تتضمن « دوقيــة روهان » ، ومقاطعة « بلا كريك » وممتلكات الأديرة فى « رينيك » و « بيجار » • أما فى « بريتانى » كما هو الحال فى كثير من جهــات انجلترا فقد كان نظام حق الابن الأصغر فى الارث يتبع نظام ادارة الأرض بالسخرة • واذا توفى الأب فى « بريتانى » كما هو الحــال فى انجلترا دون أن يترك أولادا ذكورا ، فان الارث يؤول الى أصغر البنات • وقد كانت تعيش هذه العادة تحت اسم Madelstad maineté فى « بيكاردى » و « أرتوا » ، « هينو » وفى « يونثيو » ، « فيقير » ، وفى الأحياء التى تقع حول « أراس» و «دواى» و «أميان» و «ليل» و «كاسل» ، وفى الأقاليم المجاورة من «سنت أومير» • ويتفاوت حق ارث الابن الأصغر فى كل هذه الأحياء ، بين أن يرث هذا الابن التركة جميعها ، أو أن يتميز عنهم فقط فى ارث أثاث البيت • وهذا النظام نفسه فى الارث ، ساد كذلك فى « جريمبرجن » فى « برابانت » •

وقد انتشرت مثل هذه العادات فى كثير من جهات « فرفزلاند » • وأشهر هذه العادات ، تلك التى كانت تعرف باسم «جوس‌ثيلاكتيوم» أو تشريع « أراضى ثيل » ، وهى تلك الاراضى التى كانت مقسمة أو موزعة فى الشمال فى شرق « فرفزلاند » غير بعيد ما منبع نهر « امز »

وقد ظل المزارعون فى هذا الحى حتى القرن التاسع عشر يحتفظون بحصصهم وفق نظام من القوانين المعقدة التى وضعت لتحول دون تجزئة الأراضى ، تلك التجزئة التى لا تعود عليهم بفائدة • فحصة الأرض التى تورث لم تكن تقسم ، وانما يرثها الابن الاصغر كاملة بعد موت أبيه • فاذا مات هذا الاب دون أن يترك وراءه ذرية ، فان هذهالحصة من الارض تصبح ملكا للجماعة •

وهناك أمثلة أخرى لعادة حق ارث الابن الاصغر يمكن ان تستخلص من العادات المحلية التى الغاها القانون المحلى فى « وستفاليا » وفى بلاد نهر الراين التى كانت تخضع « القانون السكسونى الخالص • وقد قيل لنا ان المزارعين كانوا يتمسكون بتلك « ميندن » ، والتى كان سكانها يدعون أنهم ينتمون الى العنصر السكسونى الخالص • وقد قيل لنا ان الزراعين كانوا يتمسكون بتلك العادة الى درجة « أنه حتى زمن قريب لم يكن يطالب الابن الأكبر بحقه القانونى الالزامى قط ، وانما كان الأبناء يرضون بحق أخيهم الأصغر فى الأرث ، وان لم يترك لهم أ ىنصيب يرثوه • ولم يكونوا يحلمون قط بالمطالبة بحقوقهم فى ظل قانون الإرث الذى لم يكن قابلا للنقض • وحتى اذا توفى الزارع دون أن ينص على هذه الوصية المألوفة ، فان الأبناء يرضون بعدم مشاركتهم لأخيهم الأصغر فى الارث » • وشبيه بهذه العادة تلك العادة التى ازدهرت فى « سيليزيا » وفى جهات بعينها من « فورتنبرج » ، حيث فشلت قوانين الوراثة الجديدة فى القضاء على الامتياز القديم المقدس للابن الأصغر الذى كانت تراعى حقوقه فى تسوية سرية أو بقوة الرأى المحلى • وهناك فى غابة « أودين فالد » ، وفى الحى الذى لا يزدحم بالسكان ويقع الى الشمال من بحيرة « كونستانس » ، ممتلكات من الأراضى يطلق عليها اسم « هوف جوتر » غير قابلة للتقسيم ، وانما تؤول الى أصغر الأبناء الذكور • فان لم يكن هناك أبناء ذكور آلت الى البنت الكبرى• وهناك أماكن أخرى كثيرة تنتشر فيهاعادة حق الابن الأصغر فى الارث • فقد

قيل لنا انها توجد فى سوابيا ، وفى سويسرا ، والالزاس ، وغير ذلك من البلاد الألمانية أو تلك التى يخضع جزء منها للبلاد الألمانية • ففى هذه الأماكن ما تزال هذه العادة لها تأثيرها على المزراعيين على الرغم من أنها فقدت صفتها الشرعية •

وليس هناك دليل على أن هذه العادة كانت منتشرة فى الدانمارك والنرويج والسويد • ولكن الابن الاصغر كان يتمتع بهذا الحـق فى جزيرة « بورنهولم » (التى كانت مملكة ذات يوم) وهى جزيرة ملحقة للتاج الدنماركى ، كما أن آثار لهذه العادة قد سجلت فى مقاطعـة جمهورية « لوبيك القديمة » •

أما فى جنوب روسـيا وغربها ، فان النظام يتجه الآن الى تحطيم وحدة العائلات القديمـة عن طريق سكنى الأبناء فى بيوت مستقلة يملكونها • وقد قيل انه ينظر الى الابن الاصغر فى هذه الحـالة بوصفه وريثـا لمنـزل الأسرة • واننى لمدين للسـيدة « م•أ•تزابليكا » العالمة الاثنولوجية البولندية المرموقة ، لأنها أمدتنى بالمعلومات الآتية التى قالت فيها : « من المعروف ان حق الابن الأكبـر أو الابن الاصغر فى الارث ، كان هو العرف الذى يسير وفقه المزارعون الروس منذ الزمن الذى ظهـر فيه التشريع الروسى « روسكايا برافدا » ، وهو التشريع الروسى الأول الذى شرع فى عهد « ياروسلاف « الأكبر • بل إن هذا النظام مازال هو السائد فى قانون المزارعين العرفى ، الأمر الذى يجعل من الممكن افتقاء أثر أصل هذا القانون فى نظام الوراثة • ولا يعد حق الابن الأصغر امتيازا وانما هو أمر طبيعى • وذلك نظرا لمـا يحدث فى الواقـع وهو انفصـال الأبنـاء الكبـار فى العـادة عن منزل أبيهم وعن أسرهم ، فى حين أن الابن الصغيرأو الاصـغر لا ينفصل عن أبيه قط طالما كان الأب على قيد الحياة • على أنـه اذا ورث الابن الصغير ، بالاضافة الى مسكن الاب ، ممتلكات أخرى الامر الذى يضر بأخوته الكبار ، فانه يرث كذلك أعباء بعينها • وتلك

الاعباء هى أن يرعى أبويه العاجزين ، كما يرعى فى الغالب اخـواته غير المتزوجات . فاذا لم يكن الابناء الكبار قد انفصـلوا عن منزل أبيهم عند وفاته ، فان منزل الاسرة يؤول كذلك الى الابن الاصغر ، على أن يكون من واجبه أن يساعد أخوته الكبار فى تأسـيس مسـاكن لأنفسهم » • كما أخبرتنى السيدة « تشابليكا » بأنه « ليس هناك أثر لعادة حق الابن الاصغر فى الارث فى غير طبقة المزارعين فى روسيا • ويقتصر الارث فى هذه الحالة على بيت الاسرة وعلى قطعة من الارض التى تملكها الأسرة ، لا تلك التى تملكها الجماعة » •

وبهذا نكون قد ألقينـا نظرة على انتشـار عادة حق ارث الابن الأصغر بين الشعوب الآرية فى أوربا • فاذا انتقلنا بعد ذلك الى الشعوب الاوربية التى لا تنتمى الى الأصل الآراى ، فاننا نعرف « أن قانون الضواحى فى هنغاريا يقضى بأن يرث الابن الاصغر بيت الاسرة على أن يعوض الابن الاصغر أخوته عن هذا الامتياز • وعلى الرغم من أن رب الاسرة عند « التشوديين الشـماليين » يمكن أن ينيب عنه الابن الاكبر أو الاصغر فى ادارة شئونه ، وربما أناب عنه شخصا غريبا اذا شاء ، الا أنه يتحتم عليه أن يورث أصغر أبنائه المسكن الذى يسكن فيه •

٣ ــ مسألة أصل حق الابن الأصغر فى الميراث :

بعد أن قدمنا نماذج لانتشار عادة حق الابن الاصغر فى الارث أو تفضيل الابن الأصغر على اخواته فى الارث ، يحق لنا أن نتساءل : ماذا كان اصل هذه العادة التى تفاجئنا اليوم بغرابتها وباجحافها بحقوق الأبناء ؟ ان الآراء التى تعرضت لهذا الموضوع كثيرة ، ومن الافضل أن نبدأ برأى العالم ورجل القانون « سير وليم بلاكستون » الذى عبـر عنه فى شروحه الشهيرة للقانون الانجليزى • ففى أثنـاء حديثه عن عن نظام ملكية الاراضى فى الاقطاعات أو البلاد التى لها حـق التمثيل فى البرلمان ، ماثل بينه وبين نظام ملكية الارض فى ظل النظام

الحربى ، أو خدمة الفروسـية ، وعدة من مظاهـر بقايـا الحرية السكسونية التى أبقى عليهـا هؤلاء الافراد الذين لـم يرهنوا أرضهم ولم يضطروا الى استبدالها ، « ذلك أنه كلما كانت ملكية الأراضى أكثر شرفا ،كما كانوا يدعون ذلك، كلما زادت أعباؤها» والحرية السكسونية من وجهة نظره « تشمل أيضا التنوع الكبير فى العادات التى تؤثر على نظام الملكية التى تعد أهمها وأبرزها النظام الانجليزى الذى يعرف باسم Borough English تمييزا لها عن العادات النورمندية ، تلك التى أشار اليها « جلانفيل » و « ليتلوتون » وغيرهما وشرحوها ، بأن الابن الاصغر ، لا الأكبر ، هو الذى يرث مسكن الأسرة بعد موت أبيه • أما السبب الذى قدمه « ليتلون » لاتباع هذه العادة ، فهوأن الابن الأصغر نظرا لصغر سنه ، لن يكون قادرا على اعـالة نفسه كما يفعل اخوته الكبار • وهناك مصادر أخرى قدمت سـببا آخر أكثر غرابة بحق ، هو أن سيد الاقطاعية كان فيما يبـدو ، من حقه أن يتخذ محظية له فى ليلة زفافه من زوجته الأصلية التى تنتمى الى هذه الاقطاعية • ومن ثم فان مسكن الأسرة لا يؤول الى أكبر الأبناء بل الى أصغرهم الذى يكون انتماؤه الى الاقطاعية أكثر ترجيحا من انتماء الابن الأكبر لها • ولست أعرف أن هذه العادة كانت تنتشر فى انجلترا ، وان كانت قد انتشرت بالفعل فى اسـكتلندا (تحت اسم Marcheta أو Mercheta ، حتى قضى عليها « مالكولم الثالث » • وهناك سبب ثالث ربما كان أكثر منطقية من السببين الاولين استخلص من عادات التتـار الذين كانت تنتشر بينهم ، وفقا لمـا ذكره الأب « دوهالدى » عادة حق ارث الابن الاصـغر • وقد كان الشعب التترى يتكون أصلا من الرعاة وأصحاب القطعان ، وكان الابناء الكبار يهجرون أباهم ، بمجرد أن يصبحوا قادرين على أن يعيشوا حيـاة رعوية بمفردهم • وفى هذه الحالة يصحبون معهم عددا من القطعـان ويبحثون عن مسكن جديد لهم • أما الابن الاصغر ، الذى يعيش فيما بعد مع أبيه ، فهو يصبح وارث بيت الاسرة بعد موت أبيه ، ويتحمل سائر الأعباء • وهكذا نرى أن العادة التى كانت متبعة بين كثير مـن

الشعوب الشمالية هى أن يهجر الابناء جميعا آباءهم فيما عدا الابن الاصغر الذى يصبح وريثه فيما بعد ، بحيث يمكننا أن نستخلص أن هذه العادة ، حيثما وجـدت ، يمكن أن تكون بقايـا النظـام الرعوى لأجدادنا البريطانيين والجرمانيين ، ذلك النظام الذى وصـفه كل من قيصر وتاكيتوس •

على أننى لم أعثر على عبارة « دوهالدى » التى أشار اليهـا « بلاكستون » ، ولكن هذه العبارة يؤكدها مؤرخ محـدث أخبرنا أن « أهم ما يميز القانون القديم الذى كان سائدا بين الاتراك والمغول ، وهو الذى يلقى ضوءا حيا على تاريخهم ، تلك العادة التى سأطلق عليها ، نظرا لاحتياجى الى اصطلاح آخر ، عادة « التبنى المعكوس »• فالعادة المتبعة عند الأتراك فى الارث ، تضع له نظاما على نحو غريب للغاية • فالوريث الدائم الذى يرتبط على نحو ما بتربة وطنـه هو أصغر الأبنـاء • وهو الذى يطلق عليه المغول اسـم « أوت ــ ديزيكين » ، كما يطلق عليه الأتراك اسم « تيكين » أى « حارس الدار » • فالى هذا الابن الأصغر يؤول نصيب الأرض الذى لا يتغير، ذلك الذى ذكره المؤرخون الصينيون والرحالة الغربيون • فالأبنـاء الكبار يوزعون فيما بينهم المنقولات وأهمها المال الذى هو القطعان والماشية » • وفضلا عن ذلك كانت عادة حـق ارث الابن الأصغر مألوفة لدى مجموعة من القبائل المغوليـة • وربما أدى البحث عن أحوال هذه القبائل الاجتماعية الى القاء الضوء على مشكلة الارث هذه • ولكننى أود أن أشير ، فى بداية هذا البحث الى أنه ليسـت هناك قبيلة من هذه القبائل تشتغل بالرعى ، على عكس ما كنا ننتظره وفقا لنظرية « بلاكستون » ، هذا اذا افترضنا أن نظريته صحيحة ، وانما تعتمد هذه القبائل كلية فى معيشـتها على ما تنتجه الأرض المستفلحة •

٤ ـ توريث الابن الأصغر فى آسيا الجنوبية :

ولنبدأ بقبيلة « لوشاى » التى تسكن فى جـــزء كبير من تلال أسام . وأناس هذه القبيلة قصار أشداء أقوياء العضلات ، ذوو وجوه عريضة جرداء من الشعر ، وعظام بارزة فى الصدغين ، وأنوف قصيرة مفلطحة وعيون صغيرة لوزية الشكل ، وبشرة تختلف بين اللون الأصفر والبنى . ومن ثم فان الرائى لا يخطىء أصلهم المغولى . وهذا الدليل الذى يشير اليه مظهرهم الجسمانى ، تؤكده اللغة التى يتحدثون بها ، تلك اللغة التى تنتمى الى فرع « التبت ــ البورمانى » ، وهو أحـــد فروع لغة « التبت ــ الصينية » . وهؤلاء القوم مزارعون وغذاؤهم الأساسى هو الأرز . ولكنهم وفقا لنظـــام الزراعة الذى يتبعونه ، اضطروا لأن يكونوا قوما مهاجرين ، اذ قلما يستقرون فى مكان واحد بضعة سنوات . ونظامهم الزراعى يعرفه الكتاب الانجليز فى العادة ، هؤلاء الذين يكتبون عن الهند ، باسم jhuming أو jooming فهم يقطعون أشجار الغابات أو أشجار الخيزران فى مســاحة مـــن الغابات أو الأحراش . فاذا جفت أشجار الغابات أو أشجار الخيزران قاموا بحرقها واستخدامها سمادا للأرض . ومن ثم فهم لا يعزقـــون الأرض بعد تسبيخها على هذا النحو الا سطحيا . فاذا تجمعت السحب منذرة بأن فصل الجفاف قد أوشك على الانتهاء ، وأن المطر أوشـــك على السقوط ، خرج كل فرد منهم يحمل فوق كتفه ســـــلة ممتلئـــة بالحبوب ، كما يحمل سكينا عريضا (داو) فى يده . فاذا اســـتعد الجميع على هذا النحو ، أخذوا يبذرون الحب بأن يشـــقوا الأرض بسكاكينهم شقوقا سطحيا يبذرون فيها الحب . ومحصولهم الرئيسى هو الأرز ، ولكنهم يزرعون كذلك البقول والدخان والذرة والدخـــن والقطن . وهذه الطريقة فى الزراعة مضياعة للمحصول ، حيث أنهـــم قلما يحصلون على محصولين من قطعة واحدة من الأرض فى ســـــنين متتالية . وعنـــد ذاك تترك الأرض بورا حتى تكتسى بالأحراش أو الشجيرات النامية مرة أخرى . فاذا كانت الأرض التى كانوا قد أزالوا

عنها الأشجار جزءا من حراش الخيزان ، فأنه يتحتم مرور ثلاث أو أربع سنوات قبل أن تصبح الأرض ملائمة للزراعة . أما اذا كانوا قد أزالوا أشجار غابة فإنه ينبغى أن تمر فترة تتراوح بين سبع وعشر سنوات قبل أن تتكرر عملية قطع الأشجار مرة أخرى . ويقال ان أرض الغابة تدر محصولا أوفر من أرض الأحراش ، ولكنها تتطلب جهدا أكبر فى ازالة الأشجار منها وتطهيرها من الأعشاب الضارة بالزرع . وبهذه الطريقة تستنفد بمرور الوقت ، الأراضى الصالحة للزراعة التى تحيط بقرية كبيرة ، ويصبح من الضرورى أن يبحث السكان عن مكان آخر يستوطنونه . واختيار مكان جديد أمر يثير قلقهم ، فهم يرسلون مندوبين عنهم من شيوخهم ليناموا فى المكان الذى يقع عليه الاختيار ، ويأخذون معهم ديكا يتكهنون عن طريقه فيما اذا كانوا يستقرون فى هذا المكان أم لا ، فاذا صاح الديك قبل الفجر بساعة ، فانهم يتفاءلون بذلك ويستقرون فى هذا المكان القرية الجديدة مدة أربع أو خمس سنوات . وقد كان من الممكن فى الزمن القديم أن تبعد القرية الجديدة عن القرية القديمة بمسافة تستغرق يومين أو ثلاثة أيام . وكان يتحتم على المواطنين أن يحملوا على ظهورهم أمتعتهم الدنيوية من مكان لآخر ، وكان من الطبيعى أن يحول التوقع المستمر للانتقال المضنى دون زيادة منقولاتهم ، وبالتالى كان يحول دون نمو ثروتهم وتجارتهم . كما كان من الطبيعى فى ظل هذا النظام للزراعة المتناوبة ، ذلك النظام الذى تألفه أغلب القبائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، ألا يطالب الزراعون بملكيتهم للأرض ، بل أن زعماءهم لم يكونوا يطالبون بحق فى ملكية الارض أو الغابات ، ولم يكن للزعيم سلطان سوى بين رجال قبيلته أينما ساروا وحيثما استقروا استقرارهم المؤقت . ويقوم العبيد بين القبائل الأكثر بدائية بالجانب الأكبر من استصلاح الأرض وزراعتها . وهؤلاء العبيد تأسرهم القبائل فى غاراتها حتى يقوموا بدلا منهم بهذا العمل المهين .

وقد كانت قرى « اللوشاى » تقع فى الغالب على قمم سلاسل التلال وتمتد على جوانبها المنحدرة • وهى فى الغـــالب قرى كبيرة تتألف من مئات البيوت • على أن حاجة الأهالى الى التجمع فى قرى كبيرة حصينة قد انقضت نظرا لمـا كفلته لهم الحكومة البريطانية من حماية ونظام للملكية ، ومن ثم أخذ يتضـــاءل حجم القرى الكبيرة تدريجيا ، كما أخذ السكان يتفرقون فى شكل قرى صغيرة ، بل بيوت منعزلة بين الأحراش ، بعيدة عن الأماكن الآهلة • ومن أبرز الملامح فى قرية « اللوشاى » هو « المزولبوك » أو الفناء الذى ينـــام فيه الرجال غير المتزوجين ، والغلمان ابتداء من سن النضوج • ذلك لأن هؤلاء لا يسمح لهم بالنوم فى بيوت آبائهم • كما يأوى المسافرون من القرى الاخرى كذلك الى هذه الافنية التى تتعدد فى القرية الواحدة الكبيرة • وهذا النظـام مألوف بين القرى التى تسكن التـــلال فى « أسام » •

وكل قرية من قرى « اللوشاى » تعد دولة مستقلة يحكمهـــا زعيمها • وعندما يكبر كل ابن من أبناء زعيم من الزعماء ويصل الى سن الزواج ، يزوده أبوه بزوجة ويقوم بتكاليف الزواج ، كما يمده بعدد معين من أفراد اسرته يرحل بهم لكى يؤسس معهم قرية تكون ملكا له • وهناك يحكم بوصفه زعيما مستقلا ، ويعتمد نجاحه أو فشله فى سياسة قريته على موهبته فى الحكم • وهو لا يدفع جزية لأبيه ، ولكن أباه يتوقع منه أن يساعده فى نزاعه مع جيرانه من الزعماء • فاذا عمر الآباء طويلا ، لم يكن من غير الطبيعى أن يتبرأ الابناء حتى من هذا القدر القليل من تبعيتهم لآبائهم • أما الابن الاصغر فقد كان يبقى فى قرية أبيه ويرثها من بعده كما يرث سائر ممتلكاته • وهكذا نجد أن عادة « اللوشاى » هذه تؤكد فى قوة ، تفسير « بلاكستون » النظرى لنظام حق الابن الأصغر فى الارث • ذلك أنه يبدو أن الابن الأصغر بين هؤلاء القوم يرث أباه لأنه ببساطة كان يبقى مع أبيه فى مسكنه بعد أن يهجره الأبناء الكبار ويخرجون الى الحيـــاة بحثا عن مساكن جديدة لهم • فاذا شئنا أن نستعين بمزيد من الأمثلة لتأكيـــد

الرأى فاننا نجدها فيما اعترى هذه القبيلة من تغيير فى العصر الحديث فنحن نقرأ فى آخر تعداد فى أسام « أن تضاءل حجم القـــرى عند « الوشاى » قد أدى الى تغيير على جانب كبير من الأهمية فى عادة حق الابن الأصغر فى وراثة قرية أبيه وممتلكاته • فقد كان المبرر لهذا النظام القديم فى الارث هو أن الأبناء الكبار كانوا يستقلون بقراهم عند زواجهم • ولكى يكون هذا الأمر ميسرا لهم ، فان عددا من كبار رجالهم (أوباس) وعددا من عامة الناس يؤمرون بأن يرافقوا الزعيم الشاب لكى يكونوا معه نواة لقرية جديدة • وليس غريبا عندما يستقر الأبناء الكبار على هذا النحو ، أن يرث الابن الأصغر قرية أبيه وممتلكاته وأن تقع عليه مسئولية حماية والدته • ولكن بينما نجد أن عدد أسرات الزعماء لم يكن يميل الى الانخفاض ، فان متوسط حجم القرى كان يتضاءل الى النصف ، كما لم يكن هناك بيوت تكفى لايواء الأبناء جميعا • وبناء على ذلك فلم يكن أحد من الآباء يتمكن بحق ، من الاســتقلال فى قرية جديدة • ومن الواضـــح فى مثل هذه الحالة أن تؤول التركة الى الابن الأكبر ، وقد قبـــل الناس عن رضى هذا التغير فى نظام الارث » •

وبناء على ذلك فانه يبدو لنا أن عادة حق ارث الابن الاصغر عند هؤلاء الناس تتحول الى عادة حق ارث الابن الأكبر ، لأن الدوافـــع الاجتماعية التى تطلبت تبنى النظام الاول ، أصبحت فى سبيلها الى الاختفـــاء • حقا ان قانون الوراثة كان يطبق الى حد بعيد بين أسر الزعماء فقط ، ولكن هذا القانون نفسه كان يسود كذلك بالنسبة لوراثة الملكية الخاصة بين عامة الناس • فوفقا لاحدى الروايات « ان الارث يقسم بين الأبناء على أن يختص الابن الأصغر بأكبر الأنصبة ، فى حين يحصل سائر الأبناء على أنصبتهم بالتساوى » • ووفقا لرواية أخـــرى متأخرة عن الرواية السابقة ، « أن القاعدة العامة أن يختص أصـــغر الأبناء بالأرض ، ولكن الأكبر يطالب فى بعض الاحيان بنصـــيبه فى الارث » • والسبب فى تطبيق هذه العادة بين أسر عامة الناس هـــو

فيما يبدو السبب فى تطبيقها فى أسر الزعمـــاء • فقـــد رأينـــا أنه عندما كان يستقل ابن الزعيم ويخرج الى الحياة ليبحث له عن قرية جديدة ، فانه كان يأخذ معه عددا من عامة الناس لكى يكونوا تابعين له فى مكانهم الجديد • ويحق لنا أن نفترض أن سكان المستعمرات يتألفون من كبار أبناء الأسر ، لأن صغار الأبناء يظلون مع أبائهم فى مســكن الاسرة ويرثون ممتلكات الأسرة •

وتنتشر عادة حق ارث الأصغر فى شكل محدود بين « الانجاميين » وهم قبيلة مغولية تسكن فى « أسام » • « فاذا تزوج الأبناء فى حياة أبيهم فانهم يتسلمون أنصبتهم من الأرض التى يملكها أبوهم • فاذا توفى الأب تاركا عددا من الأبناء غير متزوجين ، فان هؤلاء يقتسمون الارث بينهم بالتساوى • وعندما يتزوج هؤلاء فانهم يتركون بيت أبيهم ويبنون مساكن خاصة بهم • ومن ثم فان الابن الاصغر يرث فى العادة دائما بيت الأسرة » • وهنا نلاحظ مرة أخرى أن وراثة الابن الأصغر لبيت الأسرة تعتمد ببساطة على ظروف بقائه فى بيت أبيه ، بعــد أن يتزوج أخوته الكبار ويستقلون بمساكنهم • فاذا حدث أن الأبناء كانوا لا يزالون فى بيت الأسرة قبل شروعهم فى الزواج حين وفاة الأب ، فان الابن الاصغر لا يفضل عندئذ فى الارث عند أخوته الكبار •

ومما هو جدير بالذكر أن قبيلة « الأنجامين » التى تعد أكبر قبائل « ناجا » فى « أسام » ليست قبيلة مهاجرة ، كما أنها لاتفلح الأرض بالطريقة البدائية المضياعة التى تتبعها معظم القبائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، أعنى عن طريق ازالة الأشجار والشجيرات من رقعـــة من الغابات أو الأحراش ، ثم زراعتها لبضع سنين ثم تركها لتعـــود الى طبيعتها البرية التى كانت عليه من قبل ، وانما تقوم هذه القبيلة على عكس هذا بزراعة محاصيلها فى مدرجات دائمة تنحتها بمهارة على على جوانب التلال • وتروى هذه المدرجات عن طريق قنوات صناعية تحفر على طول انحدارات التلال بميل تدريجى مريح • كما أن هـــذه القبيلة تقطن قراها الحصينة الكبيرة على الدوام ، ذلك لأن أفرادهـــا يرتبطون بمساكنهم كل الارتباط ويرفضون تغييرها •

ويرجع « المايثيون » الذين يكونون العنصر المسيطر فى « مانيبور » فى « أسام » الى أصل مغولى ، وهم يتحدثون لغة « التبت البورمية » • وعلى الرغم من أن هؤلاء يرتبطون بالقبائل المتوحشة التى تسكن التلال المحيطة بهم برباط الدم واللغة ، الا أنهم قد وصلوا الى درجة كبيرة من الحضارة الاجتماعية ، بحيث أصبحوا أشبه بواحة فريدة يعيش الناس فيها حياة حضارية نسبيا ، وفى ظل مجتمع منظم وسط قفار من الأحوال المتبربرة ، فهم يقيمون فى قرى مستقرة ويعيشون أساسا على الأرز الذى يزرعونه فى حقولهم الدائمة • ومعنى هذا أنهم قد تجاوزوا مرحلة الهجرات الموسمية ، تلك التى يسببها ما وصلت اليه الأرض المجاورة لهم من انهاك • أما بالنسبة لقانون الوراثة المنتشر بين الماثيين ، فان مؤرخى « مينيبور » لم يمدونا بمعلومات كافية تؤكد نظام الوراثة فى الممتلكات الخاصة ، كما أن أحوال الدولة الاقتصادية فى العصر الحاضر تقع فى اطراد سريع تحت تأثير الأفكار السياسية والاجتماعية الحديثة• فالأرض ينظر اليها على أنها تخضع لارادة القوة الحاكمة فى الدولة • أما بالنسبة للممتلكات المنقولة فانها تؤول فيما يبدو ، وفقا للعرف الشائع ، الى الأبناء فى أثاء حياة أبيهم • كما أن هذا العرف ينظر الى الابن الأصغر بوصفه الوارث بصفة عامة ، اذا كان مازال يعيش فى منزل أبيه عند وفاة أبيه • فاذا كان قد انفصل عن بيت الأسرة حين وفاةالاب تقسم التركة عندئذ بالتساوى بين الأبناء • وينفصل الأبناء عن بيت الأسرة بسبب زواجهم بطبيعة الحال ، وهذه هى المناسبة التى يتعين على الآباء أن يزودوا أبناءهم وبناتهم بالعون فى حياتهم الجديدة» ويعتمد حق وراثة الابن الأصغر لأبيه عند « المايثيانيين » وبالمثل عند « الانجاميين » سكان أسام ، على ما اذا كان هذا الابن مازال يعيش فى بيت الأسرة بعد أن انفصل عنه اخوته جميعا بسبب زواجهم ، وبحثوا لهم عن مساكن مستقلة • أما اذا كان الابن الأصغر قد تزوج واستقل بمعيشته حين وفاة والده ، فانه عندئذ لا يميز عن اخوته فى الارث ، وانما يقتسم معهم التركة بالتساوى ، وتعيش عادة حق ارث الابن الأصغر فى شكل محدود فى « أسام » و « انجلترا » بعد أن كف

الشعب عن الهجرة ، واستقر فى قرى دائمة تحيط بها الحقول ، وتظل على هذا النحو جيلا بعد جيل •

و « الكاشينيون » أو كما يسمون أنفسهم « الشينجبويون » أو « السينجفويون » يرجعون الى أصل مغولى ويسكنون شمال أعالى بورما • وقد كانت مساكنهم القديمة تقع عند أعالى نهر « أراوادى » ، ولكنهم انتشروا شرقا فى الأقاليم الصينية فى يونان وغربا فى الاقاليم الهندية فى «أسام» • واسم « شينجبو » أو « سينجغوا » الذى يسمون به أنفسهم يعنى ببساطة « الرجال » • أما « البورميون » فيطلقون عليهم اسم « الكاشينيين » أو « الكاخينيين » • وهؤلاء سكان جبال متوحشون وهمجيون وينقسمون الى عدد من الجماعات الصغيرة أو الى عدد من القبائل ليست بذات شأن ، وكل قبيلة يحكمها زعيم وقد كان « الروميون » و « الشانيون » ، الاكثر مسالمة منهم يخشون غاراتهم قبل عهدهم بالاستعمار الانجليزى • ومع ذلك فهم يشتغلون بزراعة الأرض ، بل انهم خبراء فى فلاحتها • وغالبا ما تقع حقولهم فى أعماق الوديان ، بينما تقع قراهم فوق التلال • وليس هناك شك كبير فيما يقال ، فى أن « الكاشينيين » ينتمون الى الأصل التتارى • ويشير تراثهم الى موطنهم الأول الذى يقع فى مكان ما جنوب صحرا «جوبى»، كما كانت تحركاتهم تتجه دائمـا الى الجنوب • ولكن اختـلاف لون بشرتهم وملامحهم اللذين نلمسهما حتى فى الأماكن التى لم تتأثر قط بالتأثير « الشانى » و « البورمى » ، يشير الى اختلاطهم بالأجناس الأصيلة التى حل محلها « الكاشانيون » •

وقانون الوراثة عند « الكاشينيين » ، كما ينص على ذلك فى كثير من الأحيان ، يربط بين عادتى حق ارث الابن الأكبر وحق ارث الابن الاصغر • ذلك أنه يروى « أن التركة تقسم بين أكبر الأبناء وأصغرهم • بينما يترك الأبناء المتوسطون لمصيرهم • ويرث الابن الأكبر لقب الأسرة واقطاعيتها ، فى حين يحدل الابن الأصغر الممتلكات الشخصية والمنقولات ويذهب ليبحث لنفسه عن مسكن جديد » • ووفقا لهـذه

الرواية التى أكدها الكتاب العـديدون الذين تركزت أبحاثهم حـول « الكاشانيين » ، فان الابن الأكبر يبقى فى بيت أبيه مالكا لاقطاعيـة أبيه ، فى حين يأخذ الابن الاصغر الممتلكات الشخصية ويخرج من بيت أبيه ليشق طريقه فى الحياة • وهذا يختلف تماما عما يتبع ، فيما روى، بين أقربائهم من القبائل المنغولية التى تسكن هذه المنطقة • ويحق لنا أن نتشكك فى أن تلك الرواية التى يرجح أن القائد « ح•ب• نويفيللى » قد رواها ، أساسها الفهم الخاطىء • وعلى كل فقد قدم لنا « سـير جورج سكوت » الذى كانت لديه الوسائل الوافرة للتعـرف الوثيق على العادات الكاشانية ، رواية عن قانون الارث عند هؤلاء الناس • فهو يقول : « لقد كان هناك ميل دائم بين الكاشانيين الى التفـرق ، كما هو الحال بين « التاينيين » ، كما أن الطابع التلالى لبلادهم جعل الأنصبة من الاراضى المقسمة ضئيلة للغاية • وقد كان هذا التفريق يرجع فى العصور القديمة أساسا وبدون شك الى ضرورة الهجرة التى تسببت عن زيادة عدد السكان والنظام المتلاف لزراعة التلال • فقد أصبحت العادة أن يرث الابن الاصغر أباه الزعيم عند موتـه ، بينما يخـرج الأبناء الكبار مصطحبين أكبر عدد من الأتباع ليقيموا لأنفسهم مساكن جديدة • فاذا قدر لهم النجاح فى موطنهم الجديد ، فانهم يصبحون على مر الزمن قبائل بارزة تسمى كل منها باسم ـــ مؤسسها • فالقانون « الكنتى » للاقطاعيات الانجليزية يعد بدون شك بقايا عادة مشابهة تنتشر بين القبائل « الأنجلو » •

وفى مكان آخر يقدم لنا « جورج سكوت » رواية قيمة عن نظم الملكية المختلفة ، تلك النظم التى تتصل بالملكية الفردية والجماعية وتنتشر بصفة خاصة فى التلال والوديان • ويقوم الاختلاف فى هذه الملكيـة على أساس الاختلاف بين نظم زراعة المهاجرين ونظم الزراعة الدائمة التى تتبع فى التلال والوديان • يقول « جورج سكوت » : « فيمايختص بنظام زراعة التلال أو « تاونجيا » ، فان نظام الملكية الفردية لا يعرف فى هذه الاماكن وانما تعد الارض ملكا للجماعة كما يصرح بهذا زعيمها

(دووا) • كما أن نظام الزراعة لا يسمح باستغلال قطعة واحدة من الارض استغلالا دائمـــا • ولكن الأمر يختلف حيث تكون الأرض ممتلكة فى الوديان بحيث يزرع الارز فى الجو الرطب • ففى هذه الحالة يسمح للمالك الفرد أن يملك الأرض على أساس ألا يسلم الأرض لغريب • ويحصل الزعيم (دووا) على سلة أو سلتين مملوءتين بالأرز كل عام رمزا للاعتراف بملكيته الاسمية للأرض جميعا • والأرض تتبع أهل البيت جميعا ، كما أنها تستغل فى العادة لصالح الجميع • ومن ثم يفقد حق المشاركة فى الأرض من يترك بيت الأسرة • فذا حدث انفصال اضطرارى بين أهل البيت ، فان قسمة التركة لا تتبع نظاما محددا فيما عدا أن الابن الاصغر يحصل على نصيب « بنيامين » ، كما يرث بيت أجداده وملحقـــاته » •

ويبدو أن هذه الرواية تميز فى وضوح بين الاراضى المرتفعة حيث الزراعة تتبع نظام الهجرة ، والاراضى المنخفضة حيث الزراعة دائمة • فالارز يزرع فى التلال وفق النظام الجاف ، أما فى الوديـــان فيزرع بطريقة الرى الغزير • ولا يعد الارتباط بين نظام الزراعة الجاف وزراعة الهجرة من ناحية ، وبين نظام الزراعة الذى يحتاج الى الرى والزراعة الدائمة من ناحية أخرى من قبيل الصدفة • اذ بينما نجد النظام الجاف مناسب للإقامة المؤقتة فى الأرض ، فان نظام الرى يعد من ضرورات الاقامة الدائمة • ففى « جاوة » على سبيل المثال ، حيث كان الأرز يزرع فى منحدرات مرتفعة ويروى ريا صناعيا ، نجد أن الأرض كانت تغل محصولين فى كل عام وذلك وفقا لذاكرة الأحياء • فالشىء الواضح اذن ، أن الأراضى التى تزرع زراعة مؤقتة عند « الكاشانيين » هى ملك للجماعة ، فى حين أن الأراضى التى تزرع زراعة دائمة هى ملك للأفراد • وقد سبق أن رأينا أنه ليست هناك ملكية فردية بين « اللوسهانيين » الذين يتبعون نظام الزراعة المؤقتة •

والسبب فى هذا واضح ، فالاقامة الدائمة فى الأرض تتطلب أساسا نظام الملكية الفردية ، ولا تلائمها الملكية الجماعية أو القبلية • وحيث

أن الثابت فى تاريخ الانسانية ، أن حياة الصيادين وأصحاب قطعان الماشية ، وحياة الزراعين المتنقلين قد سبقت حياة الزراعة المستقلة التى ازدهرت فى ظل النظم الأكثر تقدما لفلاحة الأرض ، فانه يتبع هذا فيما يبدو ، أن الملكية الفردية للأرض كانت فيما بعد أكثر انتشارا من الملكية الجماعية أو القبلية ، وأن هذه الملكية الفردية لا يقرها القانون الا اذا زرعت الأرض على الدوام • أى أن الملكية الجماعية ، باختصار أقدم من الملكية الفردية ، وأن تحول نظام ملكية الأرض من الملكية الجماعية الى الملكية الفردية ، قد ارتبط بتقدم طرق فلاحة الأرض الى حد كبير ، ذلك التقدم الذى يسهم بقوة فى تطور المجتمع بوجه عام ، شأنه شأن كل وسائل التقدم الاجتماعى •

ويمارس الكاشانيون فى الصين وكذلك اخوانهم فى « بورما » كلا من نظام الزراعة المؤقتة والزراعة الدائمة • واذا ألقينا نظرة على بلادهم من فوق قمة جبل شاهق ، فاننا نجد بلادهم تمتد من كل جانب فى حدود ما تصل اليه العين ، وكأنها بحر من التلال التى تكسو الغابات قممها ومنحدراتها على وجه العموم ، اللهم الا فى بعض الأجزاء التى تشير الى مواقع القرى ، أو حيث تخترقها الأنهار خلال واد ضيق متجه الى أسفل • وتقع القرى على الدوام بالقرب من مجرى مائى دائم يقع على الجبال وفى الغالب فى وهدة محمية • وقد تنتشر هذه القرى بحظائرها على المنحدر المعتدل فى انحداره ، وتغطى مساحة من الأرض تبلغ الميل • وتبنى البيوت التى تتجه فى العادة شرقا وفق نظام واحد ، فهى تبنى من عيدان البامبو ويتراوح طولها بين مائة وخمسين قدما ومائتى قدم ، كما يتراوح عرضها بين أربعين وخمسين قدما • ويحتفظ بالحجرة الأولى فى كل مسكن جماعى من هذه المساكن الكبيرة لاستقبال الغرباء ، أما سائر الحجرات فتكون مساكن لأسر متعددة ترتبط بين بعضها بعضا برباط الدم أو الزواج اللذين يكونان المجتمع الأسرى • أما الأفاريز البارزة التى ترتكز على أعمدة فتكون شرفات يعمل فيها الرجال والنساء أو يستريحون فيها بالنهار ، كما يبيت فيها الجاموس والبغال والخنزير والخيل والدجاج •

والى جوار المنازل توجد حظائر مسيجة تزرع فيها النيلة ذات الزهور البيضاء ، ونبات الخشخاش والطلح • أما الأرز والذرة فيزرعان فى المنحدرات المتاخمة والروبى التى تسوى بعناية فى هيئة شرفات مكونة فى الغالب شكل مدرج • ويحجز المجرى المائى عند أعلى مكان يقع فيه المجرى ، ثم يوجه مجراه بحيث يروى هذه الشرفات ، وبعد ذلك يتجه الى أسفل حيث يصب فى حوضه الذى يقع فى الوادى • وفى بعض الأحيان تترك المياه تتدفق فى قنوات البامبو لتروى حقول الأرز والبيوت النائية • وفى كل عام تقطع أشجار الغابات التى تنمـو على جوانب التل وتحرق • ومن الممكن رؤية ممرات مهملة تقع بالقرب من كل قرية ، كانت قد أزيلت منها الأشجار وأصبحت تجرى فيها قنوات مائية صغيرة • وتستخدم الفئوس فى قطع الأشجار ، كما تسـتخدم المحاريث الخشبية فى زراعة الشرفـات • ويخشى هـؤلاء المزارعون الأجلاف المطر الغزير أشد من خشيتهم من الجفاف • ولكن طبيعـة الأرض الخصبة فى العموم تعوضهم بكميات وافرة من الأرز والذرة والقطن والدخان • وبجوار القرى توجد البساتين التى تزرع فيهـا أشجار الخوخ والرمان الجوافة ، كما تمتلأ الغابات بأشجار جوز الهند والبرقوق والكرز ، وأنواع متعـددة من شجر التـوت البرى • وفى المنحدرات الأكثر ارتفاعا تزدهر أشجار البلوط والبتولا ، كما تغطى أشجار « سينامومم كوادتوم » و « س • كاسيا » مساحات كبيرة ، ومنها يستخلص الزيت الذى يعرف بزيت القرفة • وتقطع مئات من هذه الأشجار لتهيئة الأرض للزراعة ، وتحرق جذوعها وفروعها حيث تهوى على الأرض •

ويتضـح الأصل المغولى لهـؤلاء « الكاشينيين الصينيين » من ملامحهم الطبيعية وان كانوا ينقسمون الى نمطين • والملامح العـامة للنمط السائد فيهما هى الوجه القصير المستدير والجبهة المنخفضة وعظام الخدود البارزة والأنف العريض والشفاه البارزة الغليظة والذقـن المستدير العريض والعينان الوزيتان المتباعدتان • ويخفف من قبـح

هذه الملامح تلك البشاشة التى تشيع فى وجوههم • أما لون الشعر والعينين فهو فى الغالب اللون البنى الداكن ، كما أن لون البشرة هو الأصفر المغبر • أما ملامح النمط الثانى فهى أكثر رقة ، وهى تذكر بملامح وجوه نساء « الكاشاريين » و « الليبشا » فى « سيخيم » • وأهم ما يميز هذا الوجه تلك العينان اللوزيتان والوجه الذى يميل الى الطول أو هو بالأحرى يميل الى الشكل البيضاوى المفرطح • ومن ملامحه كذلك الذقن المدببة والأنف الأقنى والخدود ذات العظام الناتئة • أما لون البشرة فأبيض ، وهو فى بعض الحالات يشبه لون بشرة الأوربيين • وربما كان أصحاب هذا النمط خليطا من الدم « الشانى » و « البورمى » • ويميل هؤلاء « الكاشينيون » الى القصر كما أن أطرافهم نحيلة وان تكن متناسقة ، أما أرجلهم فقصيرة غير متناسقة • وعلى الرغم من أن « الكاشينيين » ليست لديهم قوة عضلية الا أنهم رياضيون ونشيطون ، فهم يحملون الى أسفل الجبل أحمالا من خشب الوقود وكميات من الأخشاب الأخرى ، وهو ما لا يستطيع الرجل الأوربى أن يفعله الا بجهد جهيد •وتثب بناتهم الصغار فى الممرات كالغزلان ، بينما تتطاير خصلات شعورهن السائبة فى الهواء •

ويسود نظام الحكم الأبوى بين سكان الجبال هؤلاء حتى اليوم • فكل عشيرة يحكمها زعيم ورث الحكم عن أبيه الزعيم ويساعده نواب قد توارثوا هذه الوظيفة كذلك • والأمر الذى يبعث على العجب أنه بينما تراعى وراثة الابن الأكبر لمنصب نائب أبيه الزعيم فى صرامة ، « فان الابن الأصغر يرث زعامة العشيرة عن أبيه • فاذا كان اصغر الابناء قد توفى ورثه أصغر الابناء الاحياء • وهذا النظام يتبع فى وراثة الارض ، فالابن الاصغر هو الذى يرث الأرض فى كل الاحوال ، بينما يرحل الابناء الكبار ويستصلحون اراضى يمتلكونها » • ومن ثم فان حق الابن الاصغر فى الارض يرتكز على عادة خروج الابناء الكبار الى الحياة ليبحثوا عن رزق لهم ، بينما يبقى الابن الاصغر مع والديه فى بيت الأسرة القديم •

وقد تعرف دكتور « جون أندرسون » على عادة شبيهة بتلك العادة منتشرة بين « الشانيين » فى الصين وهم جيران الكاشينيين فى حى « يونان » . فالزعماء — كما يقول — يمارسون سلطة الأبوة فى مقاطعاتهم بمساعدة مجلس الزعماء ، فهم يقضون بين الناس فى جميع الأحوال المدنية والجنائية . والزعيم (تساوبوا) هو المالك الاسمى للأرض جميعها ، ولكن كل أسرة تضع يدها على قطعة محددة منها تزرعها وتقدم عشر المحصول ضريبة للزعيم . ولا يجرؤ أحد على أن يزعج هذه الأسرة فى أرضها ، كما أن هذه الأرض تؤول بعد الأب الى الابن الاصغر ، بينما يبحث الاخوة الآخرون لهم عن عمل آخر أو عن تجارة اذا كانت مزرعة الأب صغيرة للغاية . ومن ثم فان الشانيين يميلون الى الهجرة والاقامة فى أرض خصبة كما يحدث فى « بورما البريطانية » .

وأغلب « الشانيين الصينيين » ينصرفون الى الزراعة وربما وصلوا الى مستواهم فى الزراعة مستوى البلجيكيين ، فهم يزرعون كل شبر من أرضهم ، ومحصولهم الرئيسى هو الأرز الذى ينمو فى حقول صغيرة مستديرة تجاورها السدود ، كما تمر بها الممرات وبوابات المياه لريها . ففى فترة الجفاف تترك المياه لتتدفق من أقرب نبع وتنساب خلال القنوات التى لا يحصى لها عدد حتى يتسنى لهم أن يرووا كل حقل من الحقول فى راحة . وفى بداية شهر مايو يبدو الوادى من أحد طرفيه الى الطرف الآخر بقعة من المستنقع المائى الذى يمتلىء بسيقان الأرز الذى يتلألأ فى أشعة الشمس . أما حوض النهر فيكاد يبدو نصفه عاريا نتيجة خلوه من المياه التى تدفقت فى الحقول .

و « الشانيون » أو بالأحرى « الشاى » هم أكثر العناصر كثرة وانتشارا فى شبه جزيرة الهند الصينية ، فهم ينتشرون فيما بين « أسام » الى « كوانج — سى » فى الصين ، ومن « بانكوك » الى داخل « يونان » . و « سيام » هى الولاية المستقلة اليوم بين الولايات الشانية . ويرتبط « الشانيون » بالصينيين ارتباطا وثيقا فى الملامح

الشكلية وفى اللغة • حقا ان اللغة الصينية واللغة الشانيةتعدان اختين سواء فى التركيب اللغوى أو من ناحية الثروة اللغوية ، وهما فى ذلك تختلفان اختلافا كليا عن كل من لغة « بورما » و « التبت »اللتين تنتميان ــ رغم هذا الاختلاف ــ الى هذه الأسرة اللغوية العامة التى يطلق عليها علماء اللغة اسم اللغة « الصينية ــ التبتية » • وعلى الرغم من أن الطبيعة الجبلية تغلب على بلاد الشانيين ، الا أنهم لا يعترفون بأنهم سكان تلال ، وذلك لأنهم يفضلون الارتباط بالوديان المسطحة المغرينية ، وبطون الوديان التى تتخلل الجبال • وفى كل مكان تجد الزارعون الكادحون ، كما تخترق السهول الاكثر اتساعا قنوات الرى بينما تحول السدود المجارى المائية الى قنوات تروى المنحدرات • وقد تستخدم العجلات المصنوعة من المامبو فى رفع المياه الى الحقول ، حيث ترتفع شواطىء الانهار ، وحيث توجد الاراضى المسطحة بوفرة بحيث تعوضهم جهودهم : البدنية والمادية • فاذا كانت الاقامة غير ميسرة فى السهل ، فقد يلجأ الشباب فى بعض الاحيان الى قطعة من الارض تكثر فيها الاحراش ، ولكن هذه الاراضى لا تصلح لزراعة الارز ، وانما تستغل فى زراعة بساتين الفاكهة وأشجار الموز ، ومن الممتع أن نلاحظ أن عادة حق الابن الاصغر فى الارث تنتشر بين شعب متقدم تقدما نسبيا مثل الشانيين •

ويقال : ان عادة حق الابن الاصغر فى الارث تنتشر كذلك بين «الشانيين» الذين يسكنون التلال الواقعة على مشارف بورما وأسام • ولم يتحدد بعد نسب هؤلاء الشانيين على وجه التحديد ، ولكنهم ينتمون فيما يبدو الى الأسرة المنغولية ويتحدثون لهجات متفرعة من لغة « بورما ــ التبيتية » • وما زال معظم « الشانيين » يعيشون حياة بالغة فى الهمجية ، كما أن العداء يشيع بينهم وبين جيرانهم • وهم ينقسمون الى عشائر صغيرة كثيرة يغير بعضها على بعض أو على القرى البورمية المجاورة ، كما أنهم يعتمدون أساسا على الزراعة • ومحاصيلهم

الرئيسية هى الارز والبقول والسمسم والدخان • على أن بلادهـم ليست صالحة كلية للزراعة ، حيث أن التلال تغطيها الاحراش الكثيفة كما تتخللها الوديان الضيقة الصغيرة الشديدة الانحدار • على أن السكان قد طهروا بعض المناطق القريبة من القرى من الأحواش وأعدوها للزراعة • ومن أبرز قوانينهم فى الزواج والارث ، تلك العادة التى تعطى الرجل الحق الاول فى الزواج من ابنة عمه • والقاعدة هى « أن الابن الاصغر هو الذى يرث أسرته ، وهو ملزم بالبقاء فى منزل أبيه ورعاية والديه وأخواته » ولكنه يبدو أن عادة حق الابن الاصغر فى الارث قد تحولت بين « الهاكاشين » أو هى فى طريقها الى التحول ، الى عادة حق الابن الاكبر فى الارث ، وان كان الابن الاصغر فى أسرتين أو عشيرتين على الاقل من بين عشائر هذه القبيلة ، هما « الكنلاوت » و « كلارسيوسونج » ، لا يزال على الدوام يرث مسكن الاسرة ، مالم يتنازل عن حقه ، أو يكون فى حالة نزاع مع أبيه أو يكون مجذوما أو مجنونا • وقد كان القانون الثابت فيما مضى بين جميع عشائر «الهاكا» أن يرث الابن الاصغر مسكن الاسرة • ولكن رجلا بعينه كان يسكن فى « سانجتى » ويدعى « لبين نون » اورث مسكنه الى ابنه الاكبر بدلا من أن يورثه الى ابنه الاصغر ، ومنذ ذلك الوقت اتبعت معظم العشائر هذا النظام • « أما فيما يختص بملكية الارض (لاى رام) ، التى تقع فى نطاق حوزة قبيلة « هاكا » فان ثلثى الارض يرثها الابن الاكبر والثلث المتبقى يرثه الابن الاصغر » •

وقانون الوراثة السائد بين قبيـلة « كامى » أو « أهكامى » ، وهى قبيلة تسكن تلال أراكان على حدود « بورما » ، هو أنه «اذا توفى الأب تاركا ولدين أو أكثر ، فان التركة تقسم على النحـو التالى : تقسم التركة بالتساوى اذا كان قد ترك ولدين • فاذا كانوا أكثر من اثنين فان كلا من الابن الاكبر والأصـغر يأخذ نصـيبين من التركة ، أما سائر الاخوة فيأخذ كل منهم نصيبا واحدا » • ويبدو أن هذا النظام فى الارث يوفق بين عادتى حق ارث الابن الاصغر وحق

ارث الابن الاكبر ، ذلك ان الابن الاكبر والابن الاصغر يفضلان على قدم المساواة على سائر الاخوة المتوسطين • وربما اشار هذا التوفيق بين النظامين الى مرحلة الانتقـال من عادة حق ارث الابن الاصغر الى عادة حق الابن الاكبر •

وقد قيل : ان عادة حق ارث الابن الاصـغر تنتشر كذلك بين « اللولبين » ، وهم جنس أصلى ذو شـأن ينتشر فى اقليم يونان الصينى ، وينتمى الى الأسرة المنغولية ويتحدث فرعا من فروع لغـة « بورما التبيتية » ووفقا لما رواه رحالة انجليزى « ان نظام وراثـة الممتلكات والخلافة فى الزعامة غريب عند هذا الشـعب ، فالابن الأصغر يرث أباه عادة ، ومن بعده الابن الاكبر » •

وبهذا نكون قد فرغنا من الحديث عن القبائل المغوليـة التى يسود فيها نظام حق ارث الابن الاصـغر • والآن نتعرض لقبيلتين يؤول الارث فيهما أساسا الى الابنة الصغرى •وهما قبيلتا «كهاسى»، و « جارو » فى « أسما » • ولايزال موضـوع أصل قبيلة «كهاسى» ، وعلاقاتها العنصرية محل نقاش • فمن المؤكد أن هذه القبيلة تتحدث لغة لا تنتمى الى الأسرة المغولية على عكس كل القبائل المحيطة بها • ويبدو أن لغتهم تنتمى الى لغـات « مون ــ كمير » التى يتحدث بها فى « الهند الصينية » ، تلك اللغات التى يعتقد الآن أنهـا تؤلف بدورها فرعا من أسرة لغوية كبيرة هى أسرة « أوستريك » التى يتحدث بها من مدغشقر فى الغرب الى جزيرة « ايستر » فى الشرق ، ومـن نيوزيلندة فى الجنوب الى البنجاب فى الشمال • على أن تحدث قبيلة بلغة غير مغولية لا يعنى عدم انتمائها للعنصر المغولى • ذلـك لأن اللغة اذا لم تثبت عن طريق الكتابة عند الشعب الذى يتحدث بها ، فانه من السهل أن يهملها هذا الشعب ويسـتبدل بها لغة أخـرى يستعيرها من عنصر مسيطر اختلط به هذا الشعب • وهناك أمثـلة صائبة تشير الى هذا الانتقال السريع من لغـة لاخرى ، دونت عن قبائل بورما الذين يتحدثون لغات ولهجات مختلفة • وتشير الملامح

الطبيعية لأفراد لقبيلة « كهاسى » وبالمثل طبائعهم الى أصلهم المغولى، فمظهرهم الخارجي لا يخطئه انسان بحق كما يقول «سير وليم هنتر» . فهم قصار قويو العضلات ذوو رءوس كبيرة ، وخدود ذات عظام عالية عريضة ، وأنوف مفلطحة ، وذقون ذات شـــعر قصير ، وشـــعور مسدلة سوداء ، وعيون ذات لون بني أو أسود ، وجفون منحرفة وان لم يكن انحرافها على نحو جفون ـــ الصينيين وبعض القبائل المغولية . أما بشرتهم فيختلف لونها من مكان لآخر ، من اللون البنى الفاتح الذى يميل الى الصفرة الى اللون البنى الداكن . وهـم مرحون بطبعهم ، جذلون ، سمحو الطباع ويميون كل الميل إلى المنكتة . وكل هـــذه الخصائص تؤكد بحق وجهة النظر التى تقول : ان قبيلة « خاسى » تنتمى الى المجموعة المغولية أكثر من انتمائها الى مجموعة الشعوب الجنوبية والاستوائية فى أساسها ، تلك المجموعة التى تنتمى قبيلـــة « خاسى » بلغتها اليها .

ومهما يكن الامر ، فان قبيلة « خاسى » لا تختلف فى وســـائل حياتها ومستواها الحضارى بشكل عام عن القبائل المغولية التى تسكن جنوب شرق آسيا وتتبع فى نظام ارثها عادة حق ارث الابن الاصغر . فأفراد هذه القبيلة يعيشون فى قرى مستقرة قلما يغيرونها ، وهـم يعتمدون أساسا على الزراعة حيث أنهم مزارعون نشيطون وان كانت الوسائل التى يتبعونها فى فلاحة الأرض بدائية على نحو ما . وهم يقومون بقطع أشجار الغابات وحرقها كما تفعل معظم القبـائل التى تسكن تلال هذه المنطقة ، وبذلك يحصلون على أراض جديدة يعدونها للزراعة . أما غذاؤهم الرئيسى فهو الأرز والسمك الجاف .

ويعتمد النظام الاجتماعى لقبيلة « خاسى » على صلة القربى بالأم ، أى على الرجوع بسلسلة نسبهم الى النســاء فحسب . فكل عشيرة من عشائر هذه القبيلة تدعى صلة نســـبها الى جدة ما لا الى جد ، كما أن كل رجل يرجع بسلسلة نسبه الى أمه فجدته وهكذا ، ولا

يرجع به إلى أبيه فجده • وكما أنهم ينتسبون الى أمهاتهم ، فأن الارث كذلك يؤول الى نساء الاسرة لا الى ذكورهـــا • والابنة الصغرى هى التى ترث أمها وليست الابنة الكبرى • فاذا توفيت الابنة الصغرى فى حياة أمها ، فان أختها الاكبر منهـــا مباشرة هى التى ترث الأم • فاذا لم يكن للأم بنات ، فان التركة تؤول الى أصغر أخواتهـــا التى ترثها بدورها أصغر بناتها • حقا ان البنات االكبار لهن حق المشاركة فى الارث عند وفاة الأم ، ولكن الابنة الصغرى تحصل على النصيب الأكبر بما فى ذلك جواهر الأسرة ومسكنها ، بالاضافة الى أكبر نصيب من محتويات البيت • ومع ذلك فانه لا يحق لها أن تتصرف فى مسكن الاسرة دون موافقة اخواتها الكبار اللاتى يكلفن بدورهن باصـــلاح هذا المسكن على نفقتهن • أما عن الأرض فانهـــا تؤول الى الابنة الصغرى وحدها على أن تشاركها أخواتها فى محصــــول الأرض • وغالبا ما تعيش الأجدة وبناتها وحفيداتها تحت سقف واحــــد أو فى منازل منفصلة تقع فى محيط واحد • والجدة هى التى تدير أمـــــور البيت طالما كانت على قيد الحياة • وفى مثل هذا المسكن الذى يسيطر فيه العنصر النسائى ، ليس هناك وجود للرجل ، فالرجل ليست لـــه أدنى أهمية ابنـــا كان أو أخـــا • ذلك لأنه يترك البيت عندمايتزوج ويعيش مع أسرة زوجته • فاذا كان زوجا لاحدى نساء البيت ، فان هذا لا يرفع من قدره فى هذه الأسرة ، لأنه لا يعد عضوا منإعضائها كما أن ليس له أى حـــق فى الارث ، وانما ينظر اليه بوصـــفه مجرد والد • وكل الممتلكات التى يكونها بعرق جبينه تؤول الى زوجته بعد وفاته ، ثم تؤول من بعدها الى الابناء على أن تحصل الابنة الصغرى على أكبر نصيب كالعادة • هو يظل فردا غريبا طالما كـــان يعيش فى مسكن زوجته • فإذا توفى فإنه لا يدفن فى مدافن الاسرة بجـــوار قبر زوجته ، بل لا يمس رماد جثته رماد جثتها •

وعادة ارجاع النسب الى المرأة ، وانتقال الارث بين النســـاء

بدلا من الرجال عادة مألوفة بين الاجناس غير المتمدينة • وربما يرجع السبب فى أصل نشأتها الى التأكد من صلة النسب بالأم بالمقارنة الى عدم التأكد من الانتساب الى الأب ،وذلك فى مجتمع يبيح فى حرية الاتصال بين الجنسين • على أن هذه مشكلة كبيرة صعبة تبعدنا مناقشتها عن موضوعنا الرئيسى • وكل ما يهمنا هو أن العادة المتبعة بين قبيلة « خاسى » فى الوقت الحاضر ، بصرف النظر عن مدى قدم هذه العادة بينهم ، ترتبط بنظام يلزم البنات بالبقاء ، وفقا له ، فى بيت الأسرة ، فى حين يخرج الأبناء لعيشوا مع أسر زوجاتهم • فالنساء اذن فى ظل هذا النظام ، هم الافراد الذين يبقون مدى الحياة فى بيت الأسرة ، ومن ثم كان من الطبيعى أن يسيطرن على البيت ومحتوياته بدلا من أن يسيطر عليهما الرجال الذين يتركون بيوت أسرهم ليعيشوا فى أسر زوجاتهم ، وبذلك يقضون فترة من حياتهم فى كل بيت • وهذا السبب نفسه يفسر وراثه النساء للأرض ، اذا كانت الأرض تقع بجوار مسكن الأسرة الذى يتركه الأبناء الذكور لينضموا الى أسر زوجاتهم فى قرى نائية • ولعله من السهل الآن أن نفهم فى ظل هذه الظروف السبب فى أن البنات لا الأبناء ، هن اللاتى يرثن ممتلكات الأسرة ، الحقيقة منها والشخصية •

على أننا اذا كنا قد قدمنا السبب فى تفضيل النساء على الذكور فى الارث ، فما زال علينا أن نبحث عن سبب تفضيل الابنة الصغرى عن اخواتهااللاتى يكبرنها فى الارث • وتفسر قبيلة « كهاسى » نفسها هذا التفضيل ، بأن الابنة الصغرى هى التى يلقى على عاتقها القيام بالواجبات الدينية • فهى التى تبقى على الدين على حد تعبيرهم ، أى أنها مكلفة بأن تؤدى شعائر الأسرة وأن تسترضى أجدادها • ومن ثم كان من العدل أن ترث الابنة الصغرى النصيب الأكبر فى تركة الأسرة لما تتجشمه من القيام بالتزامات الأسرة • ولهذا السبب نفسه تفقد الابنة الصغرى هذا الامتياز كما لو كانت قد توفيت ، وتمنحه أختها التى تكبرها مباشرة ، وذلك اذا هى غيرت دينها أو ارتكبت

دنسا بانتهاكها حرمة شيء مقدس • على أن هذا السبب الذى يعزى لتفضيل الابنة الصغرى على أخواتها على هذا النحو غير مقنـــع ، اذ ما زال علينا أن نتساءل عن سبب كون الابنة الصغرى أكثر ملاءمة من اخواتها فى القيام بواجب تقديس الأجداد • ويبدو انه ليست هناك أى اجابة عن هذا المتساؤل • كما أن السبب الذى تعزوه القبائل بعد خروج الاخوة الكبار منه ليستقلوا بمعيشتهم ، لا يصلح تفســـيرا لتفضيل الابنة الصغرى فى قبيلة « كخاسى » ، حيث أن البنات جميعا يمكثن ، كما رأينا ، فى بيت الاسرة ، وفيه يستقبلن أزواجهن • ومع ذلك فقد كان من الطبيعى أن نتوقع ان سبب تفضيل الابنة الصغرى ، يناظر السبب فى تفضيل الابن الاصغر • وبناء على ذلك فان النظرية التى تفسر حالة ، ولا تفسر الحالة المشابهة لهـــا ، لا تعد نظرية مقنعة •

أما القبيلة الثانية فى « أسام » التى تتبع عادتى الانتســـاب الى الأم وتفضيل الابنة الصغرى بالارث ، فهى قبيـــلة « جـــارو » التى تسكن التلال غير الشاهقة التى تغطيها الغابات الكثيفة وتسمى باسم القبيلة • وليس هناك شك فى انتماء هذه القبيـــلة للأصـــل المنغولى ، ذلك أن أفراد هذه القبيلة قصار البنية ، أقوياء الأطراف نشيطون وملامحهم شديدة الشبه بملامح الصينيين • وهم يتحدثون لغة « بورما ــ التبتية » التى تنتمى الى أسرة لغـــات « الصين ــ التبتية » • حقا انه يروى عنهم رواية مشهورة « عن هجرتهم من التبت ووصولهم الى السهول التى تقع فى ســـطح جبال الهملايا ، وعن تجوالهـــم شرقـــا الى وادى « براهما بوترا » ، وعـــن تعقبهم مرة أخرى لآثار خطواتهم حتى وصولهم الى السهول التى تقع بين هذا النهر والتلال التى يسكنونها اليوم • ويبدو أنهم استقروا فى هذا المكان بعض الوقت قبل أن يقوموا بتجوالهم الأخير الى البلد الجبلى الذى يعد اليوم موطن هذه القبيلة » • وقد أزيلت كل الغابات البكر التى كانت فيما سلف تغطى تلال « جارو » ، وذلك بقصـــد

تهيئة الأرض للزراعة • ولكن البامبو والأشجار الصغيرة حلت محل الغابات ، ذلك أن البلاد كله على وجه التقريب قد غطته الأحراش الكثيفة فيما عدا مساحات من الارض أزيلت منها هذه الأحراش وأعدت للزراعة • والرجل « الجاروى » هو فى الاصل رجل مزارع ، ففلاحة الأرض هى أول وآخر عمل يقوم به فى حياته ، وهو العمل الذى يبذل فيه قصارى جهده • وطريقته فى فلاحة الأرض ساذجة ، فهو يختار قطعة من الأرض غالبا ما تقع على جانب التل ، ثم يزيل منها الأحراش فى الجو البارد الذى يدوم من شهر ديسمبر الى شهر فبراير • وتظل الأرض مغطاة بالأشجار او البامبو ، حيث ان معظم أحراش التلال ينمو فيها البامبو وحده ، حتى نهاية شهر مارس حيث تحرق وهى راقدة فى مكانها • ثم تبذر البذور فى شهرى ابريل ومايو بمجرد أن تسقط قطرات المطر الأولى • وهم فى ذلك لا يعزقون الأرض أو يحرثونها ، وانما تحفر فيها حفر بعصاه مدببة وتوضع بعض بذور الأرز فى كل حفرة • أما الذرة العويجة فترمى بذوره ببساطة بين رماد الأحراش المحترقة • فاذا أعدت الأرض على هذا النحو ، فانهم يستمرون فى زراعتها مدة عامين ثم تهجر وتترك بورا مدة سبعة أعوام على الأقل • وتبنى القرى عادة فى الوديان أو فى الأغوار التى تقع على جوانب التلال حيث تتدفق المياه فى وفرة • أما حول القرى فتمتد الاحراش من كل جانب الى مالا نهاية • وتشيد البيوت على أعمدة طويلة يبلغ ارتفاعها مائة قدم • وحيث ان البيوت تخلو من النوافذ ، فان الظلمة والكآبة تشيعان فيها من الداخل • وتشغل حجرة العائلة الجزء الاكبر من المبنى • وفى هذه الحجرة تنام النساء غير المتزوجات ، كما تجتزأ منها أجزاء لينام فيها البنات المتزوجات وأزواجهن • أما رب الأسرة وزوجته فلهما حجرة نوم خاصة بهما • أما الرجال العزب فلا ينامون فى بيت الأسرة ، بل ينامون فى مسكن منفصل يبيت فيه كل رجال القرية غير المتزوجين • ويأوى الزائرون الأغراب الى فناء هذا المسكن المنفصل ، كما يعقد فيه رجال القرية اجتماعاتهم • وهذه العنابر التى يبيت فيها الرجال العزاب مألوفة

لدى قبـــائل « انجـــا » فى « أســـام » ، ولكنها لا توجد عند « الخاسيين » الذين يسكنون النجاد •

وتنتشر عادة الانتساب الى الأم بين قبيلة « كارو » كما تنتشر بين قبيلة « كهاسى » • فالزوجة هى ربة الأسرة ، وكل ممتلكات الأسرة تورث من خلالها • وتنقسم القبيلة الى مجموعات من الأسر العديدة التى تمتد بسلسلة نسبها الى الأم ، وتسمى « ماشونج » • وأفراد كل مجموعة من هذه المجوعات يرفعون نسبهم الى جـدة ا ، لا الى أبيهم الذى تكاد تجهله أسرته • ويتبع هذا النظام فى الارث كذلك ، اذ أن الارث يقتصر على فرع النساء • ولا يحق للرجـل أن يمتلك ممتلكات الا عن طريق ما يكسبة بعرق جبينه ، أمـا ممتلكات الأسرة فليس له حق فيها بأية حال ن الاحوال • « فقـانون الارث يمكن أن يتلخص فى أن الممتلكات متى اصبحت فى حوزة سلســـلة الامومة ، لا تخرج منها • واذا كان أولاد الام ينتسبون اليها ، فقد يبدو لاول وهـــلة أن الابن يؤكـد هذا النظـــام • لكن الذى يحـــدث أن الابن يتحتم عليه أن يتزوج امرأة من عشـــيرة أخرى ، فاذا أنجب أبناء ، فانهم ينتمون الى أمهم • ومن ثم فان الارث يؤول الى الابنة ثم الى ابنتها من بعدها وهكذا • فاذا لم يكن للأم ابنة ، فان التركة تؤول الى امرأة اخرى من نفس العشـــيرة يعينها بعض أفراد هذه العشيرة » • على أنه على الرغم من ان اقطاعية الاسرة وممتلكاتهـــا تنتمى الى المرأة من الوجهة القانونية ، فان الزوج هو الذى يستفيد عمليا من هذه الممتلكات فى أثناء حياتها • فأرض قرية من القرى — على سبيل الايضاح — هى ، على وجه التحديد ، ملك لزوجة رئيس القرية ولكنه على ألسنة الناس وفى أذهانهم ، هو مالك هذه الأرض • وعلى الرغم من انه يستمد حقوقه كلية من زوجته ، فان اسمها لا يذكر فى الدعوات القضائية ، اللهم الا اذا كان من صـــالح المدعى أن يذكر اسمها •فالمرأة عمليا ، ليست سوى الوسيلة التى تنتقل من خلالها الممتلكات من جيل لجيل وذلك لمصلحة الذكور فى المصاف الاول •

على أن كل ما سمعناه من الثقات الذين أعتمدنا عليهم فى أقوالنا هذه ، يختص بتفضيل الاناث على الذكور فى الارث بين قبيلة « جارو » ، ولكن شيئا لم يذكر عن تفضيل الابنة الصغرى على سائر أخواتها . اذ لم يذكر الرائد « بلايفير » الذى أمدنا بوصف قيم لهذه القبيلة ، شيئا حول هذا الموضوع . وربما استطعنا أن نعزو عدم ذكره لهذا الموضوع ، أن عادة حق ارث الابن الأصغر بين قبيلة « جارو » قد انقرضت فى عصرنا الحاضر ، أو هى فى سبيلها الى الانقراض . ولكنه يبدو أن هذه العادة كانت تتبعها هذه القبيلة على الأقل حتى نهاية القرن الثامن عشر على وجه التقريب . ذلك أن باحثا انجليزيا زار هذه القبيلة فى عام ١٧٨٨ م وعكف على دراسة أحوالها ، ودون عنها هذه العادة . فبعد أن وصف هذا الباحث حفل زواج رآه رأى العين عند هذه القبيلة ، قال : « لقد درست ظروف احتفال الزواج عند قبيلة « جارو » من خلال مشاهدتى لحفل زواج « لونجرى » ، ابنة الزعيم « أوداسى » الصغرى التى تبلغ من العمر سبع سنوات ، من ابن رجل من عامة الشعب فى قبيلة « جارو » ، هو « بوجلون » الذى يبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عاما . ويحق لى أن أدلى بملاحظتى فى هذا الموضوع ، وهو أنه على الرغم من عدم تكافؤ السن والمستوى الاجتماعى فى هذا الزواج ، فانه من حسن حظ «بوجاون » أن يتم له هذا الزواج ، حيث أنه سيرث الزعامة والارض معا . ذلك أن الابنة الصغرى عند قبيلة « جارو » هى على الدوام صاحبة الحق فى الارث وليس لأحد من اخوتها الذين ولدوا قبلها أن يرثوا شيئا عند موت والدها الزعيم . والأغرب من هذا ، أنه اذا توفى الزوج « بوجلون » ، فان « لونجرى » تتزوج أحد اخوته . فاذا لم يكن له أخوه تزوجت أباه . فاذا كان الأب كهلا رفضته وتزوجت ممن تختاره » .

وبهذا نكون قد أشرنا الى انتشار عادة حق الابن الاصغر بين عدد من القبائل التى تسكن « الصين الجنوبية المغربية » والمناطق

المجاورة لها فى «بورما» و «أسام» • وتنتمى هذه القبائل جميعا فيما عدا قبيلة «كهاسى» التى يساورنا الشـك فى أصلها ، الى الاسرة المنغولية • ويعتقد الباحثون أن الموطن الاصلى لهذه القبـائل كان الصـين الشـمالية الغربية فيما بين أعالى نهرى «يانج ـ تسى ـ كيانج» ، و «هو ـ أنج ـ هو» ، ومن هذا المكان انتشروا الى كل الجهات • وقد مروا مقتفين أثر وديان النهر فى أثناء هجرتهم بأنهار «شين دومين» ، و «اراوادى» و «سالوين» ، حتى وصـلو الى «أسـام» • وقد هاجرت هذه الشعوب المغولية فى ثلاث هجرات متعاقبة كانت آخرها هجرة «الكاشينيين» أو «السينجفونيين» •

وقد اسـتمرت هذه الهجرة الأخيـرة إلى أن أوقفهـا الاحتـلال البريطانى لبورما الشـمالية • وقد كانت وديان نهرى «براهما بوترا» و «اراوادى» الكبيرين هى بحق المنافذ التى تدفق منها الغزاة الشماليون الجسوسون من مواطنهم الشمالية البـاردة الجرداء فى قلب آسيا ، ليقوموا بغزو بقاع فى الجنـوب أكثر دفئـا وأكثر غنى من موطنهم الأول • وقد استطاعوا ، عن طريق هذا المسلك الطبيعى ،أن يحولوا جانب الحاجز الطويل الذى لا يخترق فى يسر ، الذى يتمثل فى جبال الهملايا ، الى ممر مباشر لغزو الهند من جهـة الشمال • على أنه يبدو أن جماعات هؤلاء الغزاة لم تتقدم على الاطلاق فى أثناء سيرهم جنوبا ، فيما وراء جبال «أسام» المتجهة التى تكثر فيها الغابات وتهطل عليها الامطار المغزيرة • فهناك توقف سيرهم ، وهناك استقروا وما زالوا مستقرين فى هذا المكان حتى اليوم ، كما لو كانوا ، طليعة من جيش كبير تتطلع الى قمم التـلال البـاردة وأطراف صعيدها المرتفع عبر الوديان الحارة والسهول اللافحة التى يكسوها بساط سندسى أخضر يمتد الى أسفل الى الاف الأقدام حتى يختفى مع الافق ، أو يتصل بسلسلة من جبال ترتطم بزرقة السماء فى الأفق البعيد • ومن المحتمل أن حرارة الهند كانت أشبه بدرع واق ضد هؤلاء الغزاة أكثر فعالية من أسلحة السكان الضعيفة ، هؤلاء

الذين لم يكونوا مولعين بالحرب • أما فى البقاع التى استوطنوها ، فقد كانوا يتنسمون فى حرية عبير أشجار البلط وجوز الهند ، والتنوب، تلك التى تنمو فى هذه الغابات ، وكانوا يخشون أن يهبطوا الى أسفل حيث تنمو أشجار النخيل والسرخس والخيزران •

على أن عادة حق ارث الابن الاصغر أو الابنة الصغرى لم تكن تقتصر فى هذه البقاع على القبائل المغولية • فالمتبع عند قبيلة « مرو » ، وهى قبيلة صغيرة تسكن التلال الواقعة بين « أراكان » و « تشيتاجونج» ، انه اذا تزوج الأبناء والبنات فان الأب يعيش مع ابنه الاصغر أو ابنته الصغرى • وعند موته يرث هذا الابن أو تلك الابنة تركته من بعده» • ورجال الموريين طوال أقوياء ذوو بشرة دكناء ، ليست لهم ملامح مغولية • وهم يزرعون الأرز ويشربون اللبن ويأكلون لحم البقر أو لحم أى حيوان آخر • وهم شعب مسالم بطبعه• جبان وبسيط ، ويميل لأن يفض منازعاته عن طريق التضرع الى الارواح أكثر من أن يفضها عن طريق الحرب • والشاب عندهم يخدم مدة ثلاث سنوات من أجل زوجته فى بيت أبيها • فاذا كان غنيا ، ففى وسعه أن يدفع لأهل الزوجة مبلغ مائتين أو ثلاثمائة روبية مقابل هذه الخدمة •

وكذلك تنتشر عادة حق الابن الاصغر فى الارث بين «الهوويين» أو «اللاركا كوليين» «لوركا كول» ، الذين يسكنون حى «سينجبهوم» فى البنغال الجنوبية الغربية • وينتمى «الهوويين» الى الجنس الأصلى ذى اللون الداكن الذى يسكن الهند • وهم يشبهون «الدرافيديين» فى ملامحهم الطبيعية • وان كانوا يتحدثون لغة تختلف كلية عن لغتهم ، وهى لغة يعتقد فى أنها فرع من أسرة «أوستريك» التى تعد لغة قبيلة «كهاسى» التى تسكن أسام فرعا منها كذلك • أما الجنس الذى ينتمى اليه «الكوليون» ، فقد ألف الناس أن يسموه «الكولاريين» • أما اليوم فهو يسمى فى العادة «موندا» نسبة الى القبيلة التى تسمى بهذا الاسم • و «الهوويون»

أو «اللاركوليون» شعب زراعى صرف ، وقد تطورت أساليبه الزراعية الى درجة أنه يستخدم المحاريث الخشبية ذات الرءوس الحديدية • ويبدو أنهم كانوا يسكنون فى الأصل اقليم «شـــوتا ناجيور» ، وهو الصعيد الشاسع المنعزل الذى يقع فى الشمال من موطنهم الحالى، والذى ما زال أقرباؤهم الموندانيون يسكنونه • ويعترف «الهووين» بصلة قرابتهم الى «الموندانيين» كما يحتفظون برواية عن هجرتهم من « شوتا ناجبور» • ووفقا لما ترويه قبيلة «أراون» وهى قبيـــلة لا تزال تعيش فى حالة أكثر بدائية من «الهوويين» وتســكن اقاليم «شوتا ناجبور» ، أن غزو «الهوويين» للنجد المرتفع هو الذى دفعهم الى البحث عن وطن جديد لهم فى الجنوب • على أنه ليس من اليسير أن نعتقد أن «الهوويين» قد تنحوا لجنس دونهم حضارة ، وغير مولع بالحرب مثل «الأورانيين» وأفسحوا لهم الطريق • ومهما تكن أسباب هجرة «الهوويين» ، فانهم يسكنون الآن بلادا أكثر وحشة ووعورة من التلال الرومانسية ووديان « شوتاناجبور » التى هجرها اجدادهم منذ زمن طويل • أما الاقليم الذى يسكنونه ويعرف باقليم «كولهان» أو «كوليهان» فتموج فيه فى كل مكان كتل متجهمة من الصــخور البركانية المتكسرة • وفى كل مكان يصــطدم البصر بسلســـلة من الجبال تبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قــــدم • وأكثر الأماكن خصــوبة وازدحاما بالسكان وأعلاها مســتوى فى الزراعـــة ، تلك الاراضى المنخفضة التى تحيط «تشايبازا» • أما فى الغرب فتمتد منطقــة من التلال والأحراش الشاسعة التى تخترقها بعض الوديان اليانعة ، بينما تغطى المنطقة التى تقع فى أقصى الجنوب الغربى كتلة من الجبال المتجهمة ذات الغابات الكثيفة ، تلك التى تعرف باسم «سارندا ذات التلال السبعمائة» • وهناك يسكن سكان القرى القليلة الغفيرة المنعزلة فى وهاد عميقة غير قادرين على مقاومة النمور التى تجرس الاحراش الكثيفة خلسة • «والهوويون» الذين يسكنون هذه الاماكن المرتفعة المنعزلة أكثر همجية وأشد قسوة من اخوانهم الذين يسكنون الاماكن المنخفضة ، كما أن وسائلهم فى الزراعة بدائية ، فهم يقطعون الأشجار

فى مساحات صغيرة فى الغابة أو الأحراش التى تحيـــط بقراهـــم الصغيرة • ويعدونها للزراعة • وعلى الرغم من ان التربة السوداء تدر لهم محصولا فى بادىء الأمر • الا أنهـــا سرعان ما تستهلك بسبب الأساليب البدائية التى يتبعها «الهوويون» فى زراعتهم • ومن ثم فهم يضطرون بعد ثلاث أو أربع سنوات من زراعتهم لتلك الأرض أن يعدوا على النحو نفسه ، أرضا جديدة للزراعة وأن ينوا لانفسهم مساكن جديدة فى مكان آخر من البرارى المترامية • فاذا لم تسعفهم مواردهم الغذائية فى أوقات المجاعات ، فان هؤلاء المتوحشين سكان الاماكن المرتفعة ، يغيرون على جيرانهم ويحضرون معهم الى حصونهم المنيعة كل ما يمكن أن تقع عليه أيديهم من غنائم • على أن الأمـــر أحسن حالا بالنسبة لأقربائهم الذين يسكنون الأحيـــاء الخصبة المنطلقة التى تقع فى الشمال • فهناك تقع القرى رشيقة فوق التـــلال وتطل على حقول الأرز المنبسطة فى هيئـــة شرفات ، وعلى الأراضى المرتفعة المتوجة • ومما يزيد معالم البلد الجميلة ما بها من أشجار التمر الهندى العتيقة النبيلة التى تزين جوانب التلال مختلطة بأشـــجار المانجو والبامبو • أما بيوتهم الفسيحة المتينة فتقف بسطوحها المسقفة بالغاب وشرفاتها الانيقة فى المكان المخصص لها مكونة مع الأبنيـــة التابعة لها أشبة بميدان يقف وسطه برج الحمام • وتضـــم القرية الخضراء التى يكسوها بساط من العشب الاخضر ، وتظللها أشجار التمر المهندى الضخمة ، ألواحا من الاحجار « يرقد تحتها أجداد القرية الغلاظ » • وهناك تحت ظل الأشـــجار الذى يثير فى النفس الرهبة ، يروق لشيوخ القرية أن يجتمعوا بعد الفراغ من عنـــاء العمل وبعد أن تهدأ حرارة النهار ، فيجلسون على الاحجـــار التى سوف يرقدون تحتها مع أجدادهم رقدتهم الاخـــيرة ، ويستمتعون بالأحاديث والتدخين •

وكل قرية من قرى قبيلة «هو» يحكمها زعيم يسمي «موندا» ، وقد يحكم زعيم واحد مجموعة ن القرى يبلغ عددها من ســـت الى

اثنتى عشرة قرية ، ويسمى هذا الزعيم « مانكى » • ومن الغريب أن النظام الذى يتبع فى خلافة الزعماء يختلف عن ذلك الذى يتبع فى ارث الملكية الخاصة ، اذ بينما تتحكم عادة حق ارث الأكبر فى خلافه الزعيم ، نجد أن حق الابن الاصـــــغر فى الارث هو الذى يتحكم فى وراثة الممتلكات • وهذه التفرقة بين النظــامين يؤكده دكتور « وليم دونبار » الذى أخبرنا « أن العادة التى يتبعها «الكوليون» فى الارث فريدة فى نوعها • وقد شرحت لى هذه العـــــادة لأول مرة من خلال الاشارة الى ظروف «مانكى» ، كما يسمى بذلك ، الذى تجـــــاوز قراه معسكرات «تشابياسا » • فعلى الرغم من أن هذا الزعيم يحكم عددا كبيرا من هذه القرى ، وكان يعد رجلا قويا بين أقرانه ، فقـــــد فوجئت بانه يسكن بيتا صغيرا فقيرا • وأن أخاه الاصغر يقيم فى أكبر بناء فى هذه القرى ، وكان ملكا لأبيه «المانكى» المتوفى • فلمـــا استفسرت عن سبب هذا ، علمت أن الابن الأصغر يرث بانتظام أكبر نصــــيب فى الملكية الخاصـــــة • ومن ثم فانه على الرغم من أن « المانكى » يخلف أباه فى الزعامة ويكون هو الشيخ الحاكم ، فإنـــــه كان ملزما بأن يسلم الى أخيه الاصغر الممتلكات والمتاع » • واذا كان الدكتور «دوبنار» لم يكن له علم من قبل بمثل هذا النظام فى الارث ، فان الرائد «تيكيل» قد ذكر هذه العادة نفسها التى يتبعها «المهوويون» أو «اللاركاكوليبون» فى ارث الملكية الخاصة ، وذلك قبل أن يذكرها ، «دونبار» بعدة سنوات ، فقال : «أن الابن الأصغر هو الذى يرث ممتلكات أبيه ، لأنه يكون عاجزا على أن يعول نفسه عند وفاة والديه على عكس اخوته الكبار الذين سبق لهم أن أعانهم أبوهم فى أثنـــاء حياته فى سبيل الاستقلال بحياتهم » • أما عن سبب اختلاف النظام فى إرث الزعامة وإرث الملكية الخاصة ، فلا يحتاج الى البحث العميق ، اذ بينما نجد أنه ليس هناك ضرر من أن تؤول التركة الى الابن الاصغر لينتفع بها مهما يـكن صغيرا ، فان الحكمة تتطلب أن يترك الحــكم لأكبر الأبناء ، أى الى الابن الأكبر •

وقد روى أن عادة حق ارث الابن الاصغر تتبع كذلك عنـــد «البهيليين» وهم جنس أهلى بدائى يسكن الهند الوسطى • وهؤلاء قوم قصار ذوو بشرة سوداء وأجسام مكتنزة قوية ، ولهـــم مقدرة كبيرة على التحمل • قد قيل : ان اسمهم مشتق من اللفظ الدرافيدى الذى يعنى القوس ، وهو السلاح المميز لهذه القبيلة • وقد فقدت هذه القبيلة لغتها الأصلية ، ولكن من المحتمل ان هذه اللغـــة كانت تنتمى ، امـــا الى الأسرة الموندانيـــة (الكولارية) أو الى الأسرة الدرافيدية • وكان أفرد هذه القبيلة يتجولون فيما سبق فى الغابات التى تغطى جبالهم المحلية بوصفهم صيادين ، أما الآن فقد اضطروا أن يهجروا لعبة القنص وتجوالهم الحر فى الغابات التى كانوا يسببون لها تلفا بالغا • ويعيش الكثير منهم فى العصر الحاضر فى البلد المفتوح وأصبحوا خدما فى المزارع وعاملين فى الحقول ، كما أن بعضهم يعمل مؤجرا فى الأرض ، والقليل منهم يمتلك قرى • وقد قيل : ان الذين يسكنون منهم فى حى «باروانى» فى الهند الوسطى على سبيل المثال ، لم يتأثروا بالحضارة حتى اليوم الا قليلا وما زالوا يعيشون حيـــاة بدائية للغاية • وليست لهؤلاء قرى محددة ، اذ أن مجموعات الأكواخ التى يمكن أن تعد قرى تهجر لأدنى فزع ينتاب الاهالى ، فيكفى أن يسمعوا بمجىء رجل أبيض حتى يولوا هاربين تاركين أكواخهم ، كمـــا أن هذه الأكواخ تقع متباعدة بعضها عن بعض فى نطاق ما يمكن أن يسى قرية ، لأن كل رجل يخشى خديعـــة جيرانه له ، وما يمكن أن يدبروه من شر ضد زوجته • والبهيلى رجل غابة من الطراز الاول ، فهو ذو دراية بأقصر الطرق بين التلال ، كما أنه يستطيع أن يسير فى أكثر الممرات وعورة وأن يتسلق أكثر الصخور الشامخة انحدارا دون أن تزل قدمه أو يشعر بتعب • وكثيرا ما يطلق عليه فى الاعمـــال السنسكريتية القديمة اسم «فينابوترا» ، أى «طفل الغابة» ، او يسمى «بال اندرا» ، أى «سيد الطريق» • وهذه الصـــفات توحى بشخصية «البهيلى» بحق ، فهو لم يكن يسمح لغريب أن يجتاز الشعب الضيقة « بال » المؤدية لبلده الا باذن منه ، كما كان يحصل على الجباية

من المسافرين عن طريق التهديد • بل انه ما زال حتى اليوم يفرض على المواطنين الذين يقومون برحلة ، الاعتراف بما يراه حقا شرعيا له • وفضلا على ذلك فانه صياد جرىء وماهـــر ، فهو يعرف كيف يصيد النمور والأسود والدببة ، وكيف يقتفى أثرها حتى يقتلهـــا • وفى وسع جماعة من البهيليين أن تهاجم ، هى مدججة بالسيوف وحدها فهدا هنديا وتقطعه أربا •

ويتحدد نظام الارث عند « البهيليين » الذين يسكنون « مالوا الغربية » واقليم « فيندهيان ـــ سابوتارا » الذى يقع على طول وادى « ناربالندا » فى الهند الوسطى ، وفقا لعادة القبيلة ، فالابن الاصغر يرث نصف التركة وهو مكلف بدفع نفقات الاحتفال الجنائزى الذى يقام فى اليوم الثانى عشر من وفاة أبيه ، كما عليه أن يعول إخواته • أما النصف الثانى من التركة فيؤول الى الأبناء الآخرين • فاذا كان الأبناء يعيشون معا ، الأمر الذى قلما يحدث ، فان الابناء يقسمون التركة بينهم بالتساوى • وهنا نجد مرة أخرى أن تفضـــيل الابن الأصغر فى الارث يعتمد ، فيما يبدو ، على بقـــائه وحده فى بيت الأسرة حين وفاة أبيه • فاذا حدث أن الابناء جميعا كانوا يقيمون فى بيت الأسرة ساعة حدوث الوفاة ، فان الابن الاصغر لا يتمتع بأى امتياز ، وانما يرث مع اخواته على قدم المساواة •

ويبدو كذلك أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث تنتشر فى شكل محدود بين « البداجايين » ، وهم شعب يشتغل بالزراعة ويعيش مع « الكوتايين » الذين يشتغلون بالزراعه كذلك ، و « التودايين » الذين يشتغلون بالرعى وحده فى تلال تيلجهيرى « فى الهند الجنوبية » • وفيما يلى ما ذكره دكتور « ريفرز » حول هـــذا الموضوع : « لقـــد ذكر « بريكسى » أن من عادة « التودايين » أن بيت الأسرة يؤول الى الابن الأصغر بعد وفاة أبيه ، ومن الواضح أن هذا القول لا ينطوى على شىء

من الصحة ، اذ أن هذه العادة لا يعرفها « التواديون » على الاطلاق ، ولكنها تنتشر بين « الباداجيين » • وقد قيل ان اتباع هذه العـــادة يرجع الى أن الابناء يتركون بيت الاسرة بعد زواجهم ، ويبتنون لهم بيوتا فى مكان آخر • وعندئذ يكون لزاما على الابن الاصغر أن يظل مقيما مع أبويه وأن يعولهما وهما على قيد الحياة • فاذا توفيا ظل مقيما فى بيت الاسرة لأنه صبح ملكا له » •

وقد قيل ان بقايا انتشار عادة حق الابن الأصغر بالارث فى شبه جزيرة الملايو قليلة ، ففى ولاية « ريمباو » احدى ولايات شبه جزيرة الملايو ، يؤول ارث الأسرة الى النساء • فاذا كان هناك أكثر من ابنة فى الأسرة ، فان الابنة الصغرى هى التى ترث مسكن الأم ، وعليهـا فى مقابل هذا ، أن ترعى أمها فى هرمها • و « الباتاكيون » فى سومطرة شعب زراعى ، ومن عاداته أنه اذا توفى رب الأسرة تاركا وراءه عددا من الأبناء أو الأخوة ، تقسم التركة فيما بينهم ، على أن يحصل أكبرهم وأصغرهم سنا على نصيب أكبر من أنصبة الآخرين • ووفقا لفقرات تشير الى اتفاقية فى تشريع مدون وان لم ينشر فيما يبدو ، أن العادة المتبعة فى اقليم « جورجيا » الذى يقع فيما وراء القوقاز ، أن الابن الأصغر يرث بالضرورة سكن أبيه الأمير أو النبيل عند وفاته ، بما فى ذلك الأبنية الملحقة به والحديقة • فاذا كان هناك كنيسة ملحقة بتلك الأبنية ، فان الابن الأصغر يحتفظ بها كذلك بعد أن يقدر ثمنها وبعد أن يدفع لاخوته الكبار جزءا من ثمنها المقدر • أما عندما يتوفى الأب الزارع فان بيته ومزرعته تؤولان الى الابن الأكبر فى حين يرث الابن الأصغر مخـــازن الغـــــلال •

٥ ــ عادة حق الابن الأصغر فى الارث فى آسيا الشمالية الشرقية :

لقد رأينا أن كل الشعوب التى تنتشر بينها عادة حق الابن الأصغر فى الارث ، باستثناء قبيلة « بهيل » ، شعوب زراعية • على أن هذه العادة تنتشر فى نطاق محدود بين القبائل التى لا تزال فى مرحلـــــة

الصيد والرعى • فقد قيل انها تنتشر بين قبيلة « يوكاغير » ، وهى قبيلة مغولية تسكن سيبيريا الشمالية الشرقية ، ويعيش بعض أفراد هذه القبيلة على القنص وصيد الأسماك ، والبعض الآخر على رعى قطعان الأيائل • ويرجع عدم تمكن هذه القبيلة من ممارسة حياة الرعى الى قسوة الجو البالغة ، فهذه المنطقة تعد أبرد بقاع سيبيريا ، ان لم تكن أبرد بقاع العالم • « واليوكاغير » الذين يعتمدون فى حياتهم على القنص وصيد الأسماك ويسكنون بجوار شواطىء النهر فقراء للغاية كما أنهم يتبعون فى حياتهم أكثر الوسائل بدائية ، الى درجة أنه ليست لديهم أدنى فكرة عن ملكية أى أداة فى نطاق الأسرة ، اذا صرفنا النظر عن نتاج غذائهم • فما يغنمونه من الصيد والقنص يسلم الى نسوتهن فتوزعه أكبرهن سنا على أفراد الأسرة • ويعترف بالملكية الفردية الى حد ما فى حدود الملابس وأدوات الصيد مثل البنادق والسهام وغير ذلك من أدوات الصيد • فكل فرد من أفراد الأسرة له ملابسه الخاصة ، كما أن كل فرد يقوم فيها بالصيد أو القنص ، له أدواته الخاصة به • وتشمل الملكية الخاصة كذلك أدوات الزينة وأدوات الحياكة مثل الابر والمقص والخيط ، كما يدخل فى نطاقها أدوات التدخين مثل الغليون والقداحة وجراب الدخان وكذلك الزوارق • أما قوارب الصيد والشباك وبيت الأسرة وما يحتوى عليه من أدوات منزلية فتعد ملكا للأسرة بأسرها • أما فيما يختص بارث ممتلكات الأسرة ، فان المبدأ المتبع هو أن تؤول هذه الممتلكات الى الابن الأصغر ، فاذا انفصل الأبناء الكبار عن الأسرة أو ذهبوا ليعيشوا مع عائلات زوجاتهم بعد وفاة والديهم ، فان ممتلكات الأسرة تبقى فى حوزة الابن الأصغر ، كما أنه يمتلك بندقية أبيه • أما ملابس الأم وحليها فتؤول الى الابنة الصغرى • ولا يترك الابن الأصغر بيت الأسرة ليعيش فى بيت زوجته كماسبق أن ذكرنا ، وانما يخدم والدها بعض الوقت مقابل زواجه من ابنته ثم يصطحبها الى بيت والديه • وتعلل قبيلة «يوكاجهير» تفضيلها للابن الأصغر فى الارث بأن الابن الأصغر يحب والديه أكثر من اخوته ، كما أنه مرتبط بهما أكثر من اخوته •

وإذا صرفنا النظر عن السبب العاطفى الذى تعـزوه قبيـلة « بوكاغير » فى تفضيل الابن الاصغر فى الارث ، فانه يحق لنا أن نظن أن سبب هذا التفضيل عندهم ، كما هو الحال عند القبائل الأخرى التى سبق ذكرها ، يرجع حقا الى عادة بقاء الابن الأصغر فى بيت والديه بعد أن يتزوج أخوته الكبار ويبرحوا بيت الأسرة ليعيشوا فى بيوت أسر زوجاتهم • وهذا الظن يصل الى حد اليقين اذا لاحظنا أن الأبناء فى هذا الفرع من قبيلة « يوكاغير » الذى يعتمد فى معيشته على تربية قطيع الأيائل ، « لا يبرحون بيت الأسرة بعد زواجهم وانما يبقون فيه ويتقاسمون ممتلكاته فى العادة • والأبناء يبقون معا فى بيت الأسرة بدوافع روابط القربى من ناحية ، وبسبب قلة الأيائل التى يربونها من ناحية أخرى ، الأمر الذى يجعل تقسيم ما ينتمى للأسرة غير عملى » • وليس هناك ما يمكن أن يلقى مزيدا من الضـوء على عادة حق الابن الأصغر فى الارض ، من أننا نلاحظ أن الابن الأصغر فى نطاق حدود ضيقة فى هذه القبيلة الصغيرة ــ ذلك أن تعداد قبيلة « يوكاغير » فيما نعلم ، لا يتجاوز بضع مئات ــ يرث التركة جميعها ، اذا كان من الفرع الذى يبقى فيه الابن الاصغر فى بيت الأسرة بعد وفاة والديه • ولكنه لا يفضل عن اخوته فى فرع القبيلة الذى يبقى فيه الأولاد جميعا فى بيت الأسرة ، وتقتسم معهم التركة على حد السواء • ومن ناحية أخرى فان الابنة التى تتزوج فى فرع قبيلة « بوكاغير » الذى يعيش على تربية الأيائل ، تترك بيت أبيها لتعيش مع حميها ، ولهذا فانها لا ترث أى نصيب من التركة عند وفاة أبيها • أما تركة الأم من ملابس وحلى وأوان ، فترثها البنات اللاتى لم يتزوجن عند وفاة أمهن • فالأحوال الاجتماعية فى فرع قبيلة « يوكاغير » الذى يعيش على تربية الأيائل تعارض الى حد ما بطريق مباشر ، تلك التى تنتشر بين « الحاسيين » ، فالأبناء فى قبيلة « يوكاغير » يعيشون فى بيت الأسرة طوال حياتهم ويرثون ممتلكات الأب ، فى حين تترك البنات بيت الأسرة عند زواجهن ولا ينلن من التركة شيئا • أما قبيلة « خاسى » فان البنات تمكثن فى بيت الأسرة طوال حياتهن ويرثن تركة الأسرة ، فى حين يترك الأبناء

بيت الأسرة عند زواجهم ولا يرثون شيئا • أى أن التركة فى كلتا الحالتين تؤول بطبيعة الحال الى الابناء الذين يبقون فى بيت الأسرة ، ذكورا كانوا أم اناثا •

وتعطى قبيلة « تشوكشى » التى تعيش على تربية الأيائل وتسكن فى أقصى الشمال الشرقى من آسيا ، أهمية كبيرة « للوح النار » ،وهو عبارة عن شكل بدائى محفور فى الخشب فى هيئة انسان ويستخدم فى اشعال النار عن طريق الاحتكاك • وتخلع القبيلة عن هذه الألواح صفات انسانية وتعدها مقدسة ، فهم يحسبون أنها تحمى قطيع الأيائل من الشرور وتحرسه بحق • وتملك أسر كثيرة عددا من هذه الألواح بعضها جديدة نسبيا ، والبعض الآخر توارثته عن الأجيال السالفة • ويعد أكثر الألواح قدما فى أى الأحوال أرثا ثمينا ، وهو يؤول مع تركة البيت وكل ما يتبعه إلى الوريث الرئيسى الذى يكون فى العادة الإبن الأكبر أو الأصغر • ومن الواضح أن السؤال عما اذا كان الوريث هو الابن الأصغر أو الأكبر يتحدد بالنسبة لمن يظل منهما فى بيت الأسرة بعد وفاة الأب • فقد قيل لنا أن « مسكن الأسرة يؤول الى الابن الأصغر ، كما يصبح هو الوريث الرئيسى ، اذا ما ترك الأخ الأكبر بيت الأسرة » •

وتنتشر عقيدة تبجيل ألواح النار بين «الكورياكيين» الذين يسكنون سيبيريا الشمالية الشرقية • فهم يعدون هذه الألواح آلهة نار البيت ، وحارسة مسكن الأسرة كما ينسبون لها المقدرة السحرية على حماية قطيع الأيائل ، وعلى مساعدة الرجال فى الصيد وقتلهم حيوانات البحر الثديية • « فلوح النار عند المجموعة التى تعيش على الصيد البحرى فى قبيلة « كورياك » ، كما هو الحال عند المجموعة التى تعيش على تربية الأيائل ، يرتبط برخاء الأسرة ، ومن ثم يحرم نقله من بيت الأسرة الى بيت غريب • ولكن اذا حدث أن اجتمعت أسرتان لتعيشا فى مسكن واحد فى فصل الشتاء لتقتصدا فى استهلاك وقود التدفئة ، فان كل أسرة تحتفظ معها بتعويذتها فى هذا المسكن • ويرث اللوح المقدس الابن الأصغر أو البنت الصغرى على شرط أن يكون زوجها

مقيما فى بيت والدها ، وذلك فى حـالة ما اذا كان اخوتها الكبـار قد استقلوا بمساكنهم أو استقلوا بقطيعهم » • وهنا يبدو مرة أخـرى أن عادة حق الابن الأصغر فى الارث تتحـدد باقامته وحده فى بيت الأسرة بعد أن يكون اخوته الكبار قد برحوه • ولا تقتصر هذه العادة على جنس الآخر ، فقد يكون المتمتع بالارث ابنا أو بنتا بناء على من يظل فى بيت الأسرة وحده فى نهاية الأمر •

٦ ـ توريث الابن الأصغر فى أفريقيا :

يقل انتشار عادة حق الابن الأصغر فى الارث الى درجة كبيرة بين القبائل المرعوية فى افريقيا • فهى تتبع فى شكل محدود عند «البوجو» ، وهم قبيلة تعتمد أساسا فى معيشتها على رعى قطعان الماشية وان كانوا يقومون بفلاحة الأرض فى نطاق محدود • وهم يعيشون فى أطراف جبال الحبشة النائية جهة الشمال ، وتفتقر بلادهم الى الغابات والمياه الجارية، وان كانت تتمتع بجو معتدل صحى • وتتجول القطعان على مدار السنة على وجه التقريب بحثا عن المراعى الخضراء ويهاجر معهما ثلث السكان حيث يقيمون فى خيام مصنوعة من حصر النخيل • فاذا انتقلوا بخيامهم حملوها على ظهور الثيران • أما سائر الناس فيسكنون فى قرى دائمة فى كثير أو قليل ، حيث تبنى الأكواخ من القش • على أنهم يحرقون هذه الأكواخ الضعيفة عند الحاجة ويرحلون مع قطعانهم فى الليل بحثا عن مراع جديدة • ذلك أنهم يملكون مساحات شاسعة من الأراضى فى كل مكان • وتنتشر بين قبيلة « بوجو » عادة حق الابن الأكبر فى الارث ، فالابن الأكبر هو عميد الأسرة ، كما أن زعامة القبيلة تنتقل من خلاله جيلا بعد جيل ، بل انه ينظر اليه بحق بوصفه شيئا مقدسا لا يجوز أن تنتهك حرمته ، وهو يعد ملكا وان كان لا يملك بهـاء الملوكيـة • فاذا توفى الأب قسمت التركة بحيث يحصل الابن الاكبر على أفضل نصيب بما فى ذلك البقر الأبيض ذو القيمة الغالية ، وأثاث البيت كله وسائر المتاع المنزلى • وبعد ذلك يرث الابن الأصغر البيت نفسـه

خاليا • واذا توفى ملك « النويرين » وهم شعب يسكن عند النيل الأبيض ويعيش على الرعى ، ورث الابن الأصغر الحكم من بعده • أما عند قبيلة « سوك » ، وهى قبيلة تسكن فى شرق أفريقيا البريطانى ، فان الابن الأكبر يرث معظم ممتلكات أبيه ، فى حين يرث الابن الأصغر معظم متلكات أمه • ويبدو أن « السوكيين » كانوا فى الأصل شعبا زراعيا صرفا ، ثم انقسموا فى عصر متأخر الى قسمين : قسم اشتغل بالزراعة والآخر بالرعى وكلاهما يتبع العادة السالفة فى الارث ، كما تتبعها قبيلة « توركانا » ، وهى قبيلة أخرى تسكن فى هذا الاقليم نفسه •

وتنتشر عادة حق الابن الأصغر فى الارث بين بعض « الايبو » ، وهم شعب يشتغل بالزراعة فى جنوب نيجيريا • والشىء الغريب حقا عند هؤلاء ، أن حق الابن الأصغر فى الارث يقتصر على ما تمتلكه الأم ، وليس له حق فى ممتلكات الأب • ولكن العادة حتى فى هذه الصورة المحدودة ، تعد استثناء وليس قاعدة •

٧ ــ أصل عادة حق الابن الأصغر فى الارث :

اذا ألقينا نظرة على الشواهد السابقة التى تشير الى عادة حق الابن الأصغر كما صادفتنا بين قبائل آسيا وافريقيا ، فاننا ننتهى الى أن هذه العادة تنتشر بين الشعوب الزراعية كما تنتشر بين الشعوب الرعوية • حقا ان غالبية القبائل التى تتبع عادة حق الابن الاصغر فى الارث تعيش أساسا على الزراعة ، ولكن نظام الزراعة الذى يقوم على الهجرة وهو الذى يتبعه هؤلاء ، نظام مضياع ، فضلا على أنه يتطلب مساحات من الأرض تفوق الحصر لا تكفى هذه الشعوب وفقا للنظام الذى يتبعونه فى حياتهم • فما ان يكبر الأبناء ، حتى يتركوا بيت الأسرة ، ويمهدون مساحة من الأرض فى الأحراش أو الغابات ليزرعوها • ولا يبقى فى بيت الأسرة بعد ذلك سوى الابن الأصغر الذى يعول والديه بطبيعة الحال ، ويرعاهما فى شيخوختهما • ويبدو أن هذا

التفسير هو أبسط التفسيرات وأكثرها احتمالا ، على الأقل فيما يختص بحقوق الابن الاصغر • ويؤكد هذا التفسير تلك العـادة التى يتبعها الزارعون الروس اليوم ، فهم يفضلون الابن الأصـغر فى الارث • ويفسرون هذا التفضيل على نحو ما شرحناه • وترتبط هذه العادة عندهم بوراثة الابن الأصغر لبيت الأسرة فى الغالب • فارثه لبيت الأسرة يعد حقا شرعيا له وان لم يرث سواه • وهو حق طبيعى وعادل اذا كان هو الذى يتخلف فى بيت الأسرة ويظل يسكنه حتى وفاة والديه •

وهذا الأساس نفسه يصلح أن يكون تفسيرا لعادة الانتساب الى الام ، وخلافة الابنة الصغرى لها فى زعامة الأسرة ، تلك العادة التى تتبعها بعض القبائل مثل قبيلتى « خاسى » و « جارو » • فالابنة الصغرى هى آخر من يتزوج من البنات بطبيعة الحال ، بل انها تمنع من الزواج بحق عند بعض القبائل ، ومن بينها قبيلة « جارو » ، قبل أن تتزوج سائر أخوتها • ومن الطبيعى بناء على ذلك ، أنها تمكث مع والديها مدة أطول من تلك التى تمكثها اخواتها ، وتصبح عزاء والديها وسلوتهما فى شيخوختهما ، كما تصبح وريثة لهما بعد وفاتها • وحتى ان بقيت البنات الأخريات فى بيت الأسرة بعد زواجهن ، كما يحـدث بين قبيلة « خاسى » فيما يبدو ، فان رعاية أسرهن تستغرق كل وقتهن بالضرورة ، بحيث لا يكون لديهن متسع من الوقت لرعاية أبويهن • ومن ثم يبدو أن تفضيل الابنة الصغرى بالارث فى هذه الحالة كذلك ، ليس بالأمر غير الطبيعى •

وتتضح عادة حق الابن الاصغر فى الارث أكثر من ذلك ، كما لاحظ « بلاكستون » هذا منذ زمن طويل ، بين القبائل الرعوية • فمسـاحة المقاطعة الشاسعة التى يعيش فى نطاقها البـدو والرعاة أو أصحاب القطعان ، تتيح للابناء عندما يكبرون أن يخرجوا الى الحياة ويتجولوا بقطعانهم وماشيتهم ، بينما يظل الابن الأصغر آخر الأمر مع أبويه فيعولهما ويرعاها فى هرمهما ثم يرث ممتلكات أبيه عندما يتوفى • وعلاقة

الأب بأبنائه فى القبائل البدوية تسمح حقا بتفضيل الأب لابنه الاصغر على سائر أخوته • وقد كتب « بورخارت » الذى كان قد ألف حياة البدو ، حول هذا الموضوع فقال : « ان الخلافات اليومية التى تنشأ بين الأبوين وأولادهما تمثل أسوأ ملامح الحياة البدوية • فعندما يصل الابن الى سن البلوغ يسأل أباه بزهو أن يمنحه أى عدد من رءوس الماشية حيث أنه فى وسعه أن يحصل بساعديه على ما يبتغيه ، وهو يعتقد بهذا أن أباه لزم بأن يحقق له مأربه • أما الأب ، من ناحية أخرى فيستاء لسلوك أبنائه المتغطرسين نحوه ، ومن ثم تنشأ الخلافات بينه وبينهم • وتتسع هوة هذه الخلافات فى العادة بحيث تصعب معالجتها • وعند ذاك ينتزع الابن الشاب نفسه من سلطة أبيه ، اذا أستطاع ذلك محتفظا له ببعض الاعتبار طالما كان يعيش معه فى خيمة واحدة • ولكنه متى استطاع أن يكون سيد الخيمة ، (وهو الأمر الذى يظل يسعى اليه) فانه عند ذاك لا يستمع لنصيحة ناصح ، اللهم الا الى صوت ارادته • أما الابن الذى لم يصل الى سن البلوغ بعد ، فيبدى الاحترام لابيه ألا يحاول الأكل معه فى طبق واحد ، بله أن يأكل أمامه • وانها لتعد جريمة شنعاء عندما يقول أحد الافراد : « انظر الى هذا الابن كيف يلتهم الاكل فى حضرة أبيه » • أما أصغر الأبناء الذى لم يكن قد تجاوز سنه الرابعة أو الخامسة فيدعى لتناول الطعام مع والديه ، وأن يأكل معهما من طبق واحد » • وهنا نلاحظ كما سبق أن رأينا فى أمثلة أخرى كثيرة ، أن نقطة التحول فى علاقة الأب بابنه تبدأ من اللحظة التى يهجر فيها الابن بيت والديه ليعيش فى مسكن مستقل • وطبيعى أن تلك الرغبة المتغطرسة فى الاستقلال ، تلك التى يبديها الابن البدوى لأبيه منذ اللحظة التى يبرح فيها الابن خيمة والديه ، تحول عنه عاطفة الأب وتدفعه لأن يحرم هذا الابن المتكبر العنيد الذى استقل عنه ، من التركة ، وأن يورث كل ما يملكه لابنه الأصغر الخنوع الذى احترم رغبته وبقى معه فى خيمته • حقا ان العرب يقسمون الآن التركة بين أبنائهم الذكور بالتساوى وفقا للتشريع الاسلامى ، ولكنهم ربما كانوا

قبل ظهور الاسلام ، يستجيبون لنزواتهم الطبيعية ، ويحرمون الابن الاكبر من التركة ارضاء للابن الاصغر .

وبناء على ذلك ، فان الظروف التى دعت الى نشأة عادة حق الابن الاصغر فى الارث سواء فى المرحلة الرعوية أو الزراعية التى يعيش فيها مجتمع من المجتمعات ، هى وجود مساحات شاسعة من الاراضى مع قلة عدد السكان . فلما لم يعد من السهل للأبناء أن ينفصلوا عن الأسرة ، وأن ينشروا فى أرضهم طولا وعرضا ، اما بسبب ازدياد السكان أو لأى سبب آخر ، فان حق الابن الأصغر الكلى فى الارث أصبح عرضة لأن ينازعه فيه اخوته الكبار ، كما أصبح عرضة لأن يعطل ، بل أن تحل محله عادة حق الابن الاكبر فى الارث ، كما يحدث اليوم بين قبيلة « لوشاى » فى «أسام» . وعلى الرغم من ذلك ،فربما استمرت العادة القديمة فى الانتشار بدافع تأثيرها المتوارث ، وان اختفت ظروف الحياة التى نشأت فى كنفها . فلا تزال عادة حق الابن الأصغر فى الإرث تعيش أو كانت تعيش جنبا الى جنب مع عادة حق الابن الأكبر فى الأرث فى جهات غير قليلة من انجلترا . فاذا عدنا الآن الى النقطة التى بدأنا منها بحثنا حول هذا الموضوع ، أمكننا أن ندرك السبب فى أن بعض آثار عادة حق الابن الأصغر فى الارث كان من المحتم أن تعيش بين العبريين القدماء بعد أن هجرها هذا الشعب بزمن طويل واستبدلوا بها عادة حق الابن الأكبر فى الارث ، وذلك بعد أن عاش حياة الزراعة المستقرة فى فلسطين بعد أن كان شعبا راعيا متجولا فى الصحراء . وقد تعجب المؤرخ الذى يدون تاريخه فى عصر متأخر ، عندما كانت عادة حق الابن الأصغر فى الارث قد نسيت فيه تماما ، تعجب من أن يجد تراثا مرويا يحكى عن وراثة أصغر الابناء لتركة آبائهم دون الأخوة الكبار . وقد حاول أن يفسر هذه الاحوال التى كانت بعيدة عن مفهومه فى نظام الارث ، فقدم هذه الاحوال بوصفها شواذ ترجع الى مجموعة من الأسباب العريضة ، كان تصاحب ولادة الابن الأصغر حادثة معينة

أو تفضيل الأب التعسفى له ، أو أنها ترجع الى جشع الابن الاصغر ومكره • وبناء على وجهة النظر هذه ، فان يعقوب لم يرتكب أى اساءة فى حق أخيه الاكبر « عيسو » ، وإنما شاء أن يثبت لنفسه حقــه فى الارث الذى كان القانون القديم يمنحه بصفة عامة لأصغر الأبناء ، لولا بدعة غزت مجتمعه فى عصره ونقلت هذا الحق فى أصغر الأبنــاء الى أكبــرهم •

الفصل الثالث

يعقــوب وجــلد الجــدى

أو الميــــلاد الجــديد

١ ــ البركة المحــولة :

فى الفصل السابق التمسنا سببا لافتراضنا أن يعقوب بوصفه الابن الأصغر لاسحق ، كانت له الأولوية فى ظل العادة القديمة ، فى المطالبة بحقه فى ارث أبيه اسحق ، وأن التحايل الذى قام به بقصــد حرمان أخيه « عيسو » من حقه فى الارث ، لم يكن سوى محــاولات من جانب المؤرخ بهدف تفسير عادة تفضيل الابن الأصغر على الابن الاكبر فى الارث ، تلك العادة التى كانت قد هجرت قبل عصره بزمن طويل ، وأصبح مغزاها غير واضح على وجه التقريب • وفى ضوء هذه النتيجة ، فاننى أرى أن نتدبر فى هذا الفصل ، الخدعة التى قام بها « يعقوب » متواطئا مع أمه « رفقة » ، بهدف خداع أبيه لكى يحول تركته من أخيه اليه ، حيث اننى أعتقد أن هذه الحكاية تتضمن بقايا طقوس قديمة كانت تتبع عندما حلت عادة حق الابن الاكبر فى الارث محل عادة حق الابن الاصغر ، وذلك بقصد تعيين الابن الاصغر خلفا لأبيه بدلا من أخيه الاكبر • فبعد أن دعمت عادة حق الابن الاكبر فى الأرث ، بوصفها قانونا للأرث ، كان التجاوز عن هذه العادة يعــد نقضا لعادة متوارثة لا يكون فاعلها فى حــل منها الا باتبــاع بعض الشكليات الغريبــة التى كان الغرض منهــا تغيير نظام الارث بين الأخوين ، أو حماية الأخ الأصغر من بعض الاخطار التى يمكن أن

يتعرض لها بسبب أقصائه أخاه الأكبر من حقه فى الأرث • ولسنا فى حاجة لأن نفترض أن يعقوب قد قام بهذه الشعائر الشكلية بقصد تدعيم موقفه من ارثه لأبيه • وذلك لأنه اذا كانت عادة حق الابن الاصغر لاتزال رائجة كل الرواج فى عصره ، فانه كان يعد الوريث الشرعى لأبيه ، ولم يكن فى حاجة لأن يقوم بتأدية شعائر معينة لاكتساب تلك الحقوق التى منحها لكونه أصغر اخوته • ولكن عندما حلت عادة حق الابن الأكبر فى الأرث محل عادة حق الابن الأصغر فى عصره متأخرا ، فربما رأى مؤرخ حياة يعقوب أن من واجبه تبرير حصول بطله على تلك المنزلة التقليدية ، بأن نسب اليه تأدية الشعائر التى كانت تتبع فى زمن المؤرخ بين الحين والآخر ، بهدف التصديق القانونى على تفضيل الابن الأصغر فى الارث • وربما كان قد غاب عن الكاتب الذى سجل حياة يعقوب فى زمن متأخر ، المغزى الشرعى لهذه الشعائر ، ذلك لأنها لم تكن مألوفة لديه ، فقدمها بوصفها مجرد خدعة ماكرة احتال بها يعقوب متواطئا مع أمه بقصد خداع أخيه حتى لا يحصل على البركة المقدرة له • ومن ثم فقد وصلتنا حكاية سفر التكوين فى هذه المرحلة الأخيرة من سوء الفهم والتشوية وفقا لهذا الغرض الذى افترضناه •

وأود أن ألفت نظر القارىء الى نقطتين فى حكاية سفر التكوين ، أولاهما اقصاء الابن الأصغر لأخيه الأكبر ، وثانيهما الوسيلة التى اتبعها فى سبيل تحقيق غرضه • فقد تظاهر يعقوب لوالده بأنه أخوه الأكبر ، وذلك بأن ارتدى ملابس أخيه وبأن غطى يديه ورقبته بجلد جدى لكى يصطنع ملمس جلد أخيه الذى يكسوه الشعر • وقد قام بهذا الفعل بدافع التحريض من أمه التى ساعدته فى القيام بهذا العمل الزائف ، بأن ألبسته ملابس أخيه من ناحية ، وغطت يديه ورقبته بجلد جدى من ناحية أخرى ، وبذلك نجح يعقوب فى تحويل بركة أبيه اليه ، تلك البركة التى كان مقصودا بها أخوه ، وبذلك أصبح خليفة لأبيه • ومن المحتمل أن هذه القصة تحتوى على بقايا شعائر قانونية كانت تتبع عندما يصبح الابن الأصغر خليفة شرعيا لأبيه بدلا من أخيه الأكبر •

٢ ـ تقديم الجلد ضحية فى الشعائر :

هناك بعض القبائل فى افريقيا تتشـــابه عاداتها مــع عادات الساميين فى بعض جوانبها الغربية ، وربما ساعدت على اســتجلائها وتفسيرها • ذلك أن هذه القبائل الافريقية قد تخلفت عن الشعوب السامية فى مجرى التطور الاجتماعى البطىء ، ومن ثم فقد احتفظت فى وضوح بطابع عادات بدائية محددة ، فى الوقت الذى انقرضت فيه هذه العادات فى كثير أو قليل وبليت بتأثير زحف المدنية • وهذه القبائل تسكن فيما يسمى بالقرن الافريقى الشرقى ، أى أنها تنتشر على وجه التقريب بين الحبشة وخليج عدن شمالا ، وجبل « كليمانجارو » وبحيرة فكتوريا نيانزا جنوبا • ولا تنتمى هذه القبائل الى مجموعة القبـــائل الزنجية الخاصة التى تتحدد اقامتها فى افريقيا الغربية ، كما أنهـــا لا تنتمى الى مجموعة قبائل البانتو التى تحل بشكل عام بقاع افريقيا الجنوبية جميعها ، من خط الاسواء الى رأس « الرجاء الصالح » • حقا ان بينهم قبائل ، مثل قبيلتى « أكامبا » و « وكيكويو » اللتين تتحدثان اللغات البانتوية ، وربما انتمت أصلا الى مجموعة قائل البانتو • ولكن حتى هذه القبائل ربما ساورنا الشك فى مدى انتمائها لمجموعة قبـــائل البانتو ، وفى مدى التغير الذى طرأ عليها نتيجة اختلاطها أو احتكاكها بعنه رغريب عنها • وفى العموم فان العنصر المسيطر فى هذا الجزء من افريقيا هو ما يطلق عليه العلماء الاثنولوجيون اســم الأثيوبيين ، وأخلص عنصر فى هؤلاء فيما يبدو ، هم الجاليون • كما يبدو أن قبيلة « باهيما » الرعوية التى تسكن فى « أنكولى » فى محمية أوغندا والتى تنتسب اليها فيما يقال ، الأسر الملكية فى « أوغندا » و « أونييورو » و « كراجوى » ، يبدو أنها كانت تكون القاعوة الأمامية التى تقــع فى الغرب • ومن بين القبائل الأخرى التى تنتمى الى هذه الأسرة وربما أشهرها ، قبيلتا ماساى وناندى اللتان تربط بينهما صلة قرابة • ولحسن الحظ أننا نملك بحثين قيمين عن هاتين القبيلتين ، كتبهما لنـــا الباحث الاثنولوجى « أ • س • هوليس » • ففيمـــا يختص بعـــلاقة هاتين

القبيلتين بالجاليين كتب تقول : « لست أعتقد أن الدور الذى لعبه الجاليون فى تكوين قبيلة « ماساى » وقبيلة « ناندى لومبو » وغيرهما من القبائل مثل قبيلة « باهيما » التى تسكن أوغندا ، كان دورا فعالا ، أو أن هذا التكوين كان له أثر فى الزمن الماضى • وكثيرا ما يشار الى تأثير الأجداد الجاليين على هذه القبائل فى المظهر الفيزيائى وفى دينها وعاداتها ، كما يشار اليه بصورة أقل فى لغات كثير من القبائل » • ولا يفصل موطن الجاليين فى افريقيا عن شبه جزيرة العرب ، مهد الجنس السامى ، سوى بحر ضيق ، ومعنى هذا أن العلاقة بين هذين الموطنين وهذين الشعبين لابد أنها كانت قوية منذ العصور القديمة • ومن ثم فانه ليس غريبا ، كما قد يبدو لأول وهلة ، أن نجد تشابها بين العادات السامية والعادات الاثيوبية • حقا ان الصيحة من فوق جبل زيون لم تكن لتصل الى جبل كليمنجرو نظرا لبعد المسافة فيما بينهم ، ولكنها ربما كانت تصل خلال محطات كانت تقع فيما بينهما على طول شواطىء افريقيا وشبه جزيرة العرب • على أننى لا أهدف من قولى هذا أن أقدم رأيا حول مسألة ما اذا كانت وجوه التشابه بين العادات الأثيوبية والسامية تفسر بأن هذه العادات مستمدة من أصل واحد ، أو أنها ترجع الى تأثير أحداث متشابهة تركت تأثيرها مستقلا على عقول الأجناس المختلفة ، وانما أهدف فحسب الى اثارة افتراض أصل واحد لهذه الاجناس ليس من السهل تجاهله •

وبعد هذه المقدمة المسهبة التى تحصننى ضد الشكوك التى يمكن أن تثار حول بحثى عن وجوه التشابه بين عادات جنسين عبر مسافة زمنية غير معقولة ، أدلى الآن ببعض الحقائق التى تشير الى مراسيم شرعية قديمة تتضمن قصة خداع يعقوب لأبيه •

فمن المألوف عند الجاليين أن يتبنى زوجان عاقران أطفالا • ويربط نظام التبنى الزوجين بالأبناء المتبنين برباط قوى ، الى درجة أنه اذا أنجب هذان الزوجان أولادا بعد ذلك ، فان الابن المتبنى يحتفظ لنفسه

بحقوق الابن الأصلى الأول كاملة • وتجرى الشعائر التالية عند انتقال الطفل من عند أبويه الشرعيين الى أبويه اللذين يرغبان فى تبنيه • فاذا كان هذا الطفل يبلغ من العمر حوالى ثلاث سنوات ، يؤخذ من حضن أمه ويحمل الى غابة حيث يتخلى أبوه الأصلى من خـلال اجراءات صورية عن حقه كاملا فى بنوته لابنه ، وذلك بأن يعلن أن ابنه يعد منذ تلك اللحظة ميتا بالنسبة له • وعند ذاك يذبح ثور ، وتطلى جبهـة الصبى بدمه كما يوضع جزء من شحمه حول رقبته ، وتغطى يـداه بقطعة من جلده • وهنا تتضح وجوه التشابه بين هذه الشـعائر وبين الاجراءات التى قام بها يعقوب لخداع أبيه : ففى كلتا الحالتين غطيت رقبة الشخص المعنى ويداه بجلد الحيوان الضحية أو شحمه • على أن مغزى هذه الشعائر لم يتضح بعد • وربما اكتشفنا مغزاها من خلال فحصنا لشعائر مشابهة لها تؤدى فى مناسبات مختلفـة عند قبـائل افريقيـا الشرقيـة •

فمن المألوف بين هذه القبائل أن يقدم حيوان ضحية ، غالبا ما يكون نجعة أو شاة ، ويسلخ جلده ويقطع الى شرائح تلف حول معصـمى الشخص الذى يراد له الاستفادة بسحرها بطريق أو بآخر أو تلف حول أصابعه • وقد يكون الهدف من ذلك درء المرض عنه أو اكسابه مناعة ضده أو تطهيره من دنس أو تخليصه من قوى غريبة تتملكه • فعندما يولد طفل بين « الأكامبابين » ، تذبح نعجة ويسلخ جلدها وتقطع منه ثلاث شرائح تلف حول معصمى الطفل ومعصمى الأب والأم ، كل على حدة • وفى مثل هذه المناسبة يذبح الاكيكويون شاة ، ويقص شريط من جلد رجليها الأماميتين يلف حول معصم الطفل حتى تبعد عنه الحظ العاثر أو الدنس (ناهو) الذى يعتقد فى أنه يلازم الأطفال المولودين • ومثل هذه العادة تتبع كذلك بين « الأكيكويون » فى احتفال غريب هو احتفال « الميلاد الجديد » (كو ــ تشى ــ آ ــ روو ــأوكى ــ رى) أو « الميلاد من نعجة » (كو ــ تشى ــ آ ــ رئ ــ ى ــ رو ــ هذه أومتور ــ ى) كما يسمونه الاهالى ، وهو الاحتفال الذى يحتم

أن يؤدى لكل طفل قبل ختانه • ويختلف عمر الأطفال الذى تقام فيه هذه الشعائر حسب الزمن الذى يمكن أن يقتنى فيه الأب النعجة أو الشاة اللازمة لتأدية الطقس ، ولكنه يبدو أن شعائر الميلاد الجديد تؤدى فى الغالب عندما يبلغ الطفل حوالى العاشرة من عمره ، وربما قبل ذلك • فاذا كان والد الطفل متوفيا أو والدته ، عين بدلا منهما رجل وأمرأة يكونان بمثابة الوكيلين عنهما ، وفى هذه الحالة ينظر الطفل الى هذه المرأة بوصفها أمه • ثم تذبح شاة أو نعجة بعد ظهر هذا اليوم ويحتفظ بمعدتها وأمعائها • ثم يقام الاحتفال بعد ذلك فى المساء فى كوخ من الأكواخ حيث لا يسمح لغير النساء بالحضور • ثم تمرر قطعة ذات شكل دائرى من جلد النعجة أو الشاة فوق احدى كتفى الصبى الذى سيولد من جديد ، وتحت ذراعه من الجانب الآخر لهذا الكتف ، كما تمرر أمعاء الحيوان فوق الكتف الأخرى وتحت الذراع الثانية للصبى • ثم تجلس الأم أو من تقوم مقامها ، على جلد الحيوان المبسوط على الارض والطفل بين ركبتيها ، وتمرر حولها أمعاء الحيوان ثم توضع تلك الأمعاء بعد ذلك أمام الصبى • ثم تأخذ الأم فى الأنين كما لو كانت تعانى آلام الوضع • وتأتى أمرأة ثانية فتقطع أمعاء الحيوان الذى يمثل الحبل السرى • وعند ذلك يصطنع الصبى بكاء الطفل الوليد • ولا يجوز للصبى قبل أن تؤدى له شعائر الميلاد الجديد أن يشارك فى دفن جثة أبيه أو أن يساعد فى حمله الى الخلاء ليموت هناك • وقد كانت شعائر الميلاد الجديد سالفا ترتبط بشعائر الختان ، ولكننا الآن نبحث الظاهرتين منفصلتين •

هذه هى عادة الميلاد الجديد الغريبة كما تمارسها أو كانت تمارسها قبيلة « أكيكويو » ، وكما وصفها بعض المواطنين الذين تخلصوا من سيطرة التقاليد وتعرضوا للتأثير المسيحى ، للسيد « روتلدج » وزوجته • ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا محجمين عن الحديث فى هذا الموضوع ، ولم يجد معهم الاغراء الرشوة فى السماح للباحثين الانجليز لمشاهدة هذه الشعائر • وعلى الرغم من ذلك فان

مغزاها العام واضح كل الوضوح ، كما أنه يزداد وضوحا من خـــلال الاسم الذى يطلقه الأهالى على هذه الشعائر وهو « ميلاد الصبى من النعجة » •وجوهر هذه الشعائر فى الحقيقة هو تظاهر الأم بأنهـــا النعجة التى يخرج من بطنها الصبى • وهذا يفسر نشر معدة الحيوان وجلده حول الصبى ، كما يفسر تمرير أمعائه حول الأم والطفل معا • وتتضح عملية تظاهر المرأة بأنها حيوان يلد ، أكثر من ذلك من خـــلال حكاية مستقلة رواها « س • و • هوبلى » عن هذا الاحتفـــال ، وان يكن الحيوان الذى تقوم المرأة بتقليده فى هذه الحالة شاة وليس نعجة• واسم هذا الاحتفال كما ذكر « هوبلى » « كو ــ تشياريو ــ رينجى»، وترجمته الحرفية « الميلاد مرة أخرى » • ثم يخبرنا « هوبلى » بعد ذلك أن قبيلة « أكيكويو » تنقســم الى فرعين همــا « كيــكويو » و « مساى » ، وأن اجراءات هذا الاحتفال تختلف على نحو ما من فرع لآخر • فاذا كان والدا الطفل ينتميان الى فرع « مساى » ، فان طقوس الاحتفال تجرى على النحو التالى : « يذبح الأب خروفا بعد ميلاد الطفل ذكرا كان أم أنثى ، بحوالى ثمانية أيام ، ويأخذ معــه لحمه الى البيت الذى يسكنه أم الطفل ، فتأكل الأم لحم الحيوان هى وجيرانها طالما كانوا ينتمون الى فرع « مساى » • وفى نهاية الوليمة تزين الأم بجلد رجل الخروف الأمامية اليسرى وبجلد كتفيه وذلك عن طريق ربط شريط من هذا الجــلد بين معصــمها الأيسر وكتفهــا اليسرى • وتظل الأم على هذا النحو مدة أربعة أيام ، وبعد ذلك ينتزع عنها هذا الشريط ويوضع فى سريرها حيث يظل فيه حتى يختفى • كما يحلق شعر الأم والطفل فى اليوم الذى تؤدى فيه هذه الشعائر • على أن هذا الاجراء ليس له صلة بتسمية الطفــل ، اذ أنه يســمى يوم ميلاده » • وهنا نرى أن الهدف من هذه الاجراءات هو أن تقــــرن الأم بالخروف ، ويتم هذا عن طريق أكلها لحمه وارتدائها جلده الذى يترك فى سرير الأم مدة ثمانية أيام قبل ميلاد الطفل • اذ من الملاحظ أن شعائر الميلاد الجديد على هذا النحو تتبع الميلاد الحقيقى بفترة لا تتجاوز بضــعة أيام •

فاذا كان الأبوان ينتميان الى فرع « كيكويو » ، فان طقـوس الميلاد الجديد فى جنوب بلد « الكيكويويين » تجرى على النحو التالى :
« يذبح خروف بعد ميلاد الطفل بيوم ، ثم يغلى بعض دهن الحيوان فى وعاء يقدم للأم والطفل ليشربا منه • على أنه لم يذكر على وجه التحديد أن هذا العمل له صلة مباشرة بطقس الميلاد الجديد ولكنه يذكره فى بداية وصف هذا الطقس • فاذا بلغ الطفل ما بين الثالثة والسادسة من عمره ، يذبح الأب خروفا ، ويزين الابن بجزء من جلده وجزء من جلد معدته وذلك بعد ذبحه بثلاثة أيام • ثم يربط هذا الجلد حول كتف الابن اليمنى ، أو حول كتف الخروف اليسرى واحدى أرجله • ويظل الابن مرتديا هذا الجلد مدة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع يضـاجع الأب والأم • على أن هناك ملاحظة على جانب من الأهمية ، وهى أن ينام الابن مع أمه فى سريرها ، قبل أن يزين بجلد الحيوان ، ويصرخ صراخ الطفل المولود • ولا يصح ختان الابن الا بعد القيام بهـذه الشعائر • وبعد أن يختن ببضعة أيام يعود الابن فينام فى سرير فى كوخ أمه ، أما الأب فلا يعود الى هذا الكوخ قبل أن يذبح خروفا ويقـدم للصبى جرعة من دمه • وبهذه المناسبة ينبغى على الأب أن يضاجع الأم » •

فاحتفال الميلاد الجديد فى هذا الشكل الشـعائرى الذى وصفه « روتليدج » وزوجته ، يؤجل بضعة سنوات بعد ولادة الطفل • وسواء أقيم هذا الاحتفال اثر ولادة الطفل مباشرة أو بعد ذلك بسنين ، فانه جوهره واحد ، وهو أن تتظاهر الأم بأنها شاة تضع وليدها ، على أنه ينبغى علينا أن نشير الى استبدال الخروف بالشـاة فى هذا العمـل التشريعى ، ذلك الاستبدال الذى ليس من السهل علينا أن نفسره فى هـذا المقـام •

وبعد أن انتهى « هوبلى » من وصف طقوس الميلاد فى شكلها كما تتبع عند فرعى قبيلة « اكيكويو » ، عاد فوصف لنا طقوس احتفال آخر

شبيه فى شكله باحتفال الميلاد الجديد • ويطلق على هذا الاحتفال الأخير اسم مشابه للاحتفال الأول وليس مطابقا له كل التطابق (فهو يسمى « كو شيآريو كونجى » بدلا من « كو ــ شيآريو رنجى » • وهذا الاحتفال الثانى هو احتفال التبنى • وقد قيل : انه يشبه الاحتفال « السواحيلى » الذى يسمى « ندوجو كو شانجايانا » • « فمن الطبيعى أن الشخص الذى ليس له اخوة أو والدان ، أن يجتهد فى أن يكون تحت حماية رجل ثرى وأسرته • فاذا وافق هذا الرجل الثرى على أن يتبناه ، فان كلا منهما يأخذ خروفا ويذبحه فى حضرة شيوخهما ثم يقطع هؤلاء الشيوخ جلد الرجل اليمنى من كل خروف وجلد صدريهما الى شرائح تلف حول يدى كل من المتبنى والمتبنى بحيث يزين كل منهما بشرائح جلد خروف الآخر • وعند ذاك ينظر الى الرجل الفقير بوصفه ابنا للرجل الغنى • فاذا شاء المتبنى أن يتزوج ، دفع الرجل الغنى عددا من الرءوس فى مقابل شراء زوجة له » • ومن الصعب فى هذا الاحتفال أن يكون هناك تظاهر بالميلاد الجديد ، حيث ان بطلى هذا الاحتفال من الذكور • ولكننا عندما نقارن هذه العادة بالعادات السالفة ، فانه يحق لنا أن نفترض أن كلا من المتبنى والمتبنى يتظاهر بأنه شاة •

وهناك شعائر أخرى تؤديها قبيلة « كيكويو » قبل الاحتفال بالختان • ففى صباح اليوم السابق على تأدية شعائر الختان ، يذبح جدى شنقا ام يسلخ جلده ويقطع الى شرائح • ثم تلف شريحة منها حول معصم الصبى الأيمن ويسحب من خلف يده بحيث يدخل بنصره فى شق فى هذا الجلد • ومثل هذه العادة تتبعها قبيلة « واشامبا » ، وهى قبيلة تقطن فى افريقيا الشرقية • فقبل القيام باحتفالات الختان • تقدم نعجة ضحية لروح أحد الأجداد ، ثم تقطع حلقات من جلد النعجة كى يلف بها الصبى الذى سيختن ، كما يلف بها أبواه وأقرباؤه • ثم يتضرع الأب الى الروح وهو يذبح النعجة ويقول : « لقد اجتمعنا كى نخبرك بأن ابننا سيختن اليوم • فلترع طفلنا وكن رحيما به ولا

تكن غاضبا علينا • وها نحن نقدم لك نعجة » • وهنا يبدو أن أفـراد الأسرة وهم يلتفون بالحلقات التى قطعت من جلد النعجة ، يقرنـون أنفسهم بهذا الحيوان الذى يقدم ضحية لروح أحد الاجداد • وعند قبيلة « واتشاجا » التى تسكن جبل كيليمانجالوا يجتمع الصبية بعد شهرين من ختانهم افى قـرية الزعيم حيث يجتمع كذلك العرافـون والاطباء ، وهناك تذبح النعاج ويقطع الأولاد الذين ختنوا حديثـا شرائح من جلدها ويدخلون أصابعهم الوسطى من أيديهم اليمنى فى شقوق طولية يحدثونها فى شرائح الجلد • وفى هذه الأثناء يصـنع العرافون دواء مصنوعا من محتوى معدات النعاج بعد مزجها بالمـاء والمواد السحرية • ويرش الزعيم هذا المزيج على الصبية حتى يتم فيما يبدو اتحادهم السحرى أو المقدس بالنعاج • وفى اليوم التالى يتم والد كل صبى وليمة لأقربائه ، فيذبح نعجة ، ويأخذ كل ضيف قطعة من جلد النعجة يلفها حول الاصبع الاوسط من يده اليمنى • ويحق لنا فى هذا المجال أن نقارن بين هذا الاحتفال باحتفال آخر يقوم به « البورانيون الجاليون » عندما يصل الصبية عندهم سن البلوغ • وهذا الاحتفال يسمى « أدا » أو الجبهة وتفسره كلمة « جارا » معناها الختان • وفى هذه المناسبة يجتمع الغلمان الذين يحتفل بطهورهم ، مع آبائهـم وأمهاتهم وشيوخ أقربائهم فى كوخ يبنى لهذا الغرض • ثم يذبح ثور على سبيل التضحية ويغمس كل فرد من الحاضرين اصبعه فى دم الثور بحيث يقطر منه الدم ، كما يدهن الرجال جباههم والنساء قصباتهن الهوائية ببعض هذا الدم • ثم تدهن النساء أنفسهن بدهن الضحية ، كما يرتدين شرائح رفيعة من جلدها حول رقابهن ويحتفظن بها على على هذا النحو حتى اليوم التالى • وفى النهاية تقام مأدبة من لحـم الثـور الضحية •

ويستخدم جلد الحيوان على هذا النحو فى احتفالات الزواج عند بعض القبائل الأفريقية • ويجرى جزء من هذه الاحتفالات عند قبيلة « واوانجا » التى تسكن مقاطعة « الجون » فى افريقيا الشرقيـة

البريطانية على النحو التالى : يذبح ذكر من الماعز ويقص شريط طويل من جلد معدته • ثم يشق والد العريس أو أى غريب آخر مسن له ، الجلد طوليا ويمرره فوق رأس العروس بحيث يتدلى على صـــدرها ويقول : « لقد وضعت الآن الجلد على رأســك ، فاذا هجرتنـــا لكى تتزوجى رجلا آخر ، فليتبرأ منك هذا الجلد ولتصبحى عاقـــرا » • ويحدث مثل هذا عند قبيلة « وا ــ جيرياما » وهى احدى قبائل البانتو التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، اذ يذبح الزوج عنزة فى اليوم التالى لزواجه ويقطع شريطا من جلد جبهتها ويصنع منه تعويذة يقدمها لزوجته كى ترتديها فى ذراعها اليسرى • أما لحم العنـــزة فيـــأكله الحاضرون • ونلاحظ فى هاتين الحالتين أن جلد العنزة لا تستخدمه سوى الزوجة • على أن الزوج فى قبيلة « ناندى » التى تســـكن فى شرق افريقيا البريطانى يستخدمه كذلك • ففى يوم العرس تختـــار عنزة قوية سليمة من بين القطيع وتمسح بالزيت ثم تشنق • وبعـــد ذلك تنتزع أحشاؤها التى يتفاءل أو يتشاءم بالحالة التى تكون عليها • ثم يسلخ بعد ذلك جلد الحيوان ويصنع منه على وجـــه السرعة رداء ترتديه العروس فى الوقت الذى تشوى فيه النســـاء لحـــم الحيوان ويأكلنه • وفضلا على هذا فانه يصنع من جلد الحيوان خاتم وسوار • أما الخاتم فيرتديه العريس فى الاصبع الاوسط من يده اليمنى ، وأما السوار فترتديه العروس فى معصم يدها اليسرى •

وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الخواتم التى تصنع من جلد النعجة الضحية ، يرتديها الأشخاص الذين يعقدون عهد الصداقة فيما بينهم • ويبدو أن هذه العادة مألوفة بين القبائل التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية • فأواصر الصداقة تعقد عند قبيلة « واشاجا » من خلال الاحتفال الذى يسمى « كيسكونج » • « ويتكون هذا الاحتفـــال من أخذ قطعة من جلد رأس عنزة الضحية وشقها بحيث يرتديها الشخص كما لو كانت خاتما فى اصبعه الأوسط » • وبالمثـــل فان تبادل الخواتم

التى تصنع من جلد الحيوان الضحية الذى يؤكل لحمه عادة ، من شأنه أن يدعم أواصر الصداقة بين أفراد قبيلة « أكابا » .

وتقيم قبيلة « أكيكويو » مثل هذا الاحتفال ، وإن يكن فى صورة أكثر اتقانا عندما يترك رجل حيه لينتمى رسميا لحى آخر . عند ذاك يحضر هذا الرجل شاة ، وكذلك من يقوم بتمثيل الحى الذى أوشك على أن ينتمى اليه الرجل المعنى ، وقد يحضر كل منهما ثورا ان كانا موسرين . ثم يذبح الحيوانات « ويقطع شريط من جلد معدة كل حيوان وكذلك من رجل كل منهما . ثم يوضع دم الحيوانين معا فى وعاء كما توضع أحشاؤهما فى وعاء آخر . ثم يأتى شيوخ من قبل الطرفين ويشقون الشرائط التى قطعت من جلد الحيوانين ويصنعون من كل جلد سوارين يرتديهما الطرفان ، بحيث يلبس كل طرف السورين المصنوعين من جلد الحيوان الطرف الآخر . ثم يحضر شيوخ الطرفين الوعاءين المملوءين بالدم وأحشاء الحيوانين ، ويسكبون بعض الدم فى راحتى أحد الاطراف الذى يسكبه بدوره فى راحتى الطرف الآخر . وعند ذاك يستدعى الواقفون ليشهدوا على امتزاج دم الحيوانين ويستمعوا الى التقرير الذى يعلن ان الطرفين أصبح يجمعهما دم واحد » . وهذا المثال واضح كل الوضوح ، حيث انه يطلعنا فى غير لبس على ان الغرض من هذا الطقس هو ربط الطرفين المتعاقدين فى دم واحد . ومن ثم فنحن ملتزمون لأن نفسر بناء على هذا الاساس عادة احاطة المعاصم بشرائح من جلد الحيوان الذى يستخدم دمه فى شعائر هذا الاحتفال .

وتقوم قبيلة « واونجا » التى تسكن مقاطعة « الجون » فى شرق افريقيا البريطانى بتقديم عدد من الحيوانات ضحية وذلك قبل ان يسمح للاهالى بزرع الذرة ، أما سائر قبائل هذه المقاطعة فتقوم بخنق كبش أمام كوخ أم الملك ، ثم تنتزع أحشاؤه وتوضع فى الكوخ بجانب السرير بحيث يكون مواجها لرأس السرير . وفى اليوم التالى لذلك تؤخذ الأحشاء وتقطع ، ويلف الملك وأبناؤه وزوجاته أجزاء منها

حول أصابعهم • ويقوم شعب « النجامين » ، وهو شعب مخلط يسكن فى آفريقيا الشرقية البريطانية برى زراعاتهم عن طريق قنـوات تحفر فى موسم الجفاف • فاذا حان ميعاد رى الزرع عن طريق فتح القنوات حتى تتسرب منها المياه الى الحقول ، يقتلون شاة ذات لون محدد خنقا وينثرون شحمها المسلى وروثها ودماءها فى شقوق الارض وفى ميـــاه الرى • واثر ذلك تفتح القنوات ويوكل لحم الشاة الضـحية • وينبغى على الرجل الذى قام بخنق الشاة ، والذى يتحتم ان يكون منتميـــا لعشيرة معينة ، أن يرتدى جلد الشاة حول رأســـه مدة يومين • فاذا ثبت فيما بعد أن المحصول ليس وافرا ، أعيدت الشـعائر مرة أخرى ، فيجتمع شيخان من شيوخ هذه العشيرة المتسلطة التى يمكن مقارنتها باللاويين الاسرائيليين ، مع شيخين من أية عشـيرة أخرى ، ويعودون معا الى الحقول حاملين معهم شـــاة من نفس لون الشـــاة الاولى ويذبحونها ويأكلون لحمها ثم يقطعون جلدها ويأخذ كل منهم قطعة منه يلفها حول رأسه مدة يومين • فاذا فرغوا من ذلك ساروا حول الحقل فى اتجاهين متعارضين وهم ينثرون شحم الحيوان وروثه ، كما ينثرون العسل فى الحقل حتى يلتقوا مرة أخرى •

ويقدم المفرد فى قبيلة « ماساى » ضحية للاله حتى يحفظه هـو وقطعانه سليما معافيا • وتقدم هذه الضحية بين الحين والآخر ، وهى تقدم فى بعض الأماكن كل عام • وعند ذلك تشعل النار فى القريـــة ، عن طريق حرق الخشب الجاف والأوراق ولحاء الشجر ، كمـــا ينثر فيها مسحوق يثير عمودا من الدخان المتصاعد الذى تنبعث منه الرائحة العطرة • وعند ذلك تشتم الآلهة فى السـماء هذه الرائحة الطيبـة وتستريح لذلك • ثم يحضر كبش بدين أسود ويغسل بالعسل المتخمر ويرش عليه مسحوق خشب معين ثم يقتل خنقا ويسلخ جلده ويقطـع لحمه ، ويأخذ كل فرد من الحاضرين قطعة من اللحـــم يشـــويها ويأكلها ، كما يتسلـــم شريطا من جلد الحيوان يصنع منه عددا مـن

الخواتم يلبس أحدهما فى اصبعه ويقدم الباقى لافراد أسرته • وهذه الخواتم هى بمثابة تعاويذ تحفظ من يرتديها من كل أنـــواع المرض • أما النساء فيعلقنها فى أقراطهن الضخمة المصنوعة من أسلاك حديدية ذات شكل لولبى ، وهى تلك التى يزين بها صدورهن أو لنقل يشوهنها •

ومثل هذه العادة تتبع فى حالة المرض • فقد يحدث بين قبيلـــة « واوانجا » على سبيل المثال ، أن يستدعى الرجل المريض وهـــو فى حالة الهذيان ، شخصا من أقربائه المتوفين • فاذا فعل ذلك ، فان هذا معناه أن المرض قد جاوزه واستقر عند عتبة شبح الميت ، ومن ثـــم فان أقرباءه يقومون باجراء من أجل القضاء على هذا المرض • وهنـــا تقدم بعض النقود لرجل عجوز فقير لكى يقوم بالعمل الخطير وهـــو اخراج جثة هذا الميت من القبر ، ثم تحرق عظامها فوق عش مـــن أعشاش النمل الأحمر ، ويجمع بعد ذلك الرماد فى سلة يطرح بهـــا فى النهر • وقد تختلف وسيلة تهدئة الشبح عن ذلك بعض الشىء • فبدلا من اخراج عظم الميت ، يزج سيخ فى القبر • ولكى يزدادوا يقينا مـــن أنهم قد أصابوا الشبح ، فانهم يصبون الماء المغلى اثر ذلك فى القبر • وبعد أن يشعروا برضائهم فى القضاء على الشـــبح على هذا النحو يذبحون كبشا أسود ويمسحون صدورهم ببعض روثه الذى يأخذونه من أمعائه ، ويلفون شرائح من جلده حول معاصمهم اليمنى • ثم يأتى زعيم الاسرة التى ينتمى اليها المريض ، ويأخذ قطعة من جلد الحيوان ويلفها حول سبابة يده اليمنى ، كما يلف المريض نفسه شريطا آخـــر من جلد الحيوان حول عنقه • وفى هذه الحالة لايمكن أن يكون الهدف من وراء التضحية بالكبش الاسود هو اسكان غضب الشبح ومصالحته حيث انه قد زج بالسيخ فى رأسه ، كما سكب الماء المغلى على عظامـــه وأولى من ذلك ان نفترض أن التضحية بالكبش ترجع الى مزيد من الشك فى انه حتى هذه الوسائل العنيفة ربما لايكون لها الأثر الفعـــال فى القضاء على الشبح • ومن ثم يحق لنا أن نفترض ، اذا شـــئنا أن نكون فى الجانب الآمن ، أن الرجل المريض وأصدقاءه ، بذبحهـــم

الكبش ، يحصنون أنفسهم ضد طعنات الشبح وذلك عن طريق ارتدائهم لجلده الذى يخدمهم فى هذا الغرض بوصـــــفه تعويذة • فاذا اتهم شخص من بين هذه القبيلة بالسرقة ، فانه يذهب مع متهمه الى شجرة محددة هى شجرة (ارثرينا تومينتوزا) ، ويزج كل منهما برمحه فيها ، فيقع أثر ذلك المذنب منهما ، سواء أكان هو المتهم بالسرقة أم من اتهمه فريسة للمرض • على أنهم لم يقدموا سببا يعزى اليه مرض هــذا الشخص ، وانما نرجح أن روح الشجرة التى استاءت بطبيعة الحـــال لطعنها بالسهام ، تنتقم لغضبها ، عن طريق التمييز الحصيف ، مـــن المجرم وحده • ومن ثم فان الرجل الشرير يمرض ، ولاشىء يشفيه من مرضه الا اذا اقتلعت الشجرة من جذورها ، لأن هذا هـــو الطريق الوحيد للقضاء على روح الشــجرة • وبناء على ذلك فان أصـــدقاء المريض يأتون الى الشجرة ويقتلعونها ، وفى الوقت نفســـه يقومون بذبح شاة ويأكلون لحمها توا ، كما يتناولون معه بعض الأدوية • ثــم يلف كل فرد منهم شريطا من جلد الحيوان على معصم يــده اليمنى • أما الرجل المريض نفسه الذى تقام هذه الشعائر من أجلـــه • فيلف شريطا من جلد الحيوان حول رقبته ، كما يمسح صدره بروث الحيوان المذبوح • وهنا نلاحظ مرة أخرى أن الغرض من ذبح الشاة ليس هــو استرضاء الروح بحال من الأحوال وانما هو بالأحرى حماية المريض وأصدقائه من نقمة روح الشـــجرة ، وذلك فى حالة ما اذا كانوا قــد فشلوا فى القضاء عليه عن طريق تحطيم الشجرة •

كما تنتشر عادة ارتداء جزء من جلد الحيوان الضحية انتشـــارا مألوفا بين قبائل افريقيا الشرقية ، وذلك عندما تقام شــعائر التكفير عن الذنب • فاذا ضرب رجل من قبيلة « وانتشـــاجا » زوجته وخرجت من بيته اثر ذلك ثم عادت اليه ، فان الزوج يقطع أذن نعجة ويصـــنع منها خاتمين ، ويقوم كل منهما بوضع خاتم فى اصبع الآخر • ولا يجوز للزوجة قبل ذلك أن تطهو له الطعام أو أن تأكل معه • وتنظر قبيلـــة وانتشاجا وبالمثل كثير من القبائل الافريقية ، الى الحدّاد نظرة فزع ،

منشؤه التطير منه • ذلك لأنهم يعتقدون أن قوى غريبة تتملكه وترفعه فوق مستوى الرجل العادى • ولا تقتصر هذه النظرة الغريبة الغامضة على شخص الحداد فحسب ، وانما تمتد الى آلاف حرفته ، وبصفة خاصة المطرقة التى تمتلك وفقا لتصورهم ، قدرة سحرية أو روحية • ومن ثم فانه يتحتم على الحداد أن يكون حريصا فى استعمال هذه الآلة فى حضرة الناس ، والا تعرضت حياتهم بتأثير سحرها العجيب للخطر البالغ • فإذا أشار بها إلى رجل على سبيل المثال ، فانهم يعتقدون أن هذا الرجل سوف يموت ، ما لم تؤدى شعائر مقدسة لابعاد الشر الذى قد يلحق به • وعند ذاك تذبح عنزة ويصنع خاتمان من جلدها ، أحدهما يلبسه الحداد فى الاصبع الأوسط من يده اليمنى ، والآخر يلبسه الرجل المعرض للخطر فى الاصبع الأوسط من يده اليمنىكذلك ، ثم تتلى عبارة التطهير التقليدية • وتؤدى هذه الشعائر كذلك اذا أشار الحداد الى أحد بملقطة النار ، أو اذا رمى فى غير تعمد ، برادة حديده على أحد •

وتودى قبيلة « واتشاجا » التى تسكن فى مقاطعة « الجون » فى افريقيا الشرقية البريطانية ، شعائر للتكفير من هذا النوع • فاذا اقتحم شخص غريب كوخا من الأكواخ ، على سبيل المثال ، وسقطت عباءته الجلدية على الأرض ، أو كان قد اشترك فى مشاجرة ما أصيب على أثرها بجراح تساقطت منها قطرات من الدم على أرض الكوخ ، فان أحد سكان الكوخ يكون فى هذه الحالة معرضا للمرض ، ما لم تؤد شعائر معينة لدرء هذا المرض • وفى هذه الحالة يتحتم على هذا الشخص الغريب أن يحضر عنزة ويذبحها ويسلخ جلد صدرها وبطنها ويقطعه الى شرائط تقلب فى محتوى معدة الحيوان ، ثم يأخذ كل فرد من أفراد الكوخ شريطا منها ويلفه حول معصم يده اليمنى • فإذا حدث أن وقع أحد أفراد الكوخ فريسة للمرض قبل أن يتخذ هذا الأجراء ، فان الشريط يلف فى هذه الحالة حول رقبة المريض ، كما يمسح صدره ببعض روث الحيوان • ثم يأكل أفراد الكوخ نصف لحم العنزة والنصف

الآخر يأكله القادم الغريب • وتعتقد قبيلة « وأونجا » وبالمثل كثير من القبائل الهمجية ، أن الام التى تلد توأما ، تكون معرضة لأخطار بالغة ، ومن ثم يتحتم القيام بشعائر متنوعة قبل أن تتمكن من مغادرة الكوخ والا لحق بها من الأذى مالا داعى لذكره • ومن بين هذه الشعائر ، أن تقوم الأسرة باصطياد حيوان التليا « الخلد » وقتله عن طريق وخزه بشوكة خشبية خلف رقبته ، ثم تشق بطنه وتنتزع محتويات معدته ويمسح بها صدر الأم وصدرا الطفلين التوأم • ثم يقطع جلد الحيوان الى شرائط تلف حول المعصم الايمن من كل صبى كما تلف حول عنق الأم • وبعد خمسة أيام من ارتداء هذه الشرائط تخرج الأم لتستحم فى النهر وترمى بهذه الشرائط فيه • ثم يدفن لحم الحيوان تحت شرفة الكوخ ، كما يطرح جزء منه أمام باب الكوخ وتوضع فوقه آنية مثقوبة من أسفلها فى وضع مقلوب •

وأخيرا ، ربما تسنى لنا أن نشير الى أن قبائل افريقيا الشرقية تستخدم على هذا النحو جلد الحيوان الذى يقدم ضحية فى احتفالات مقدسة بعينها ، تقام بين فترات متباعدة وفقا لمراتب الاعمار التى يقسم اليها الشعب بأسره • فقبيلة ناندى على سبيل المثال ، تنقسم الى سبع مراتب • وبناء عليها يقام هذا الاحتفال كل سبع سنوات ونصف • وعند كل احتفال يتحول حكم البلد من رجال ينتمون الى مرتبة انقضت ، الى رجال أصغر منهم سنا وينتمون الى مرتبة قادمة من العمر • ويحضر رئيس الاطباء هذا الاحتفال الذى يبدأ بذبح ثور أبيض يقوم المحاربون من الشباب بشرائه لهذا الغرض • وبعد أن يأكل شيوخ القبيلة لحم الثور ، يصنع كل شاب من شباب القبيلة خاتما من جلد الحيوان ويلبسه فى أحد اصابع اليد اليمنى • وبهذه الطريقة تنتقل فى صورة شكلية قوة الشيوخ الى الشباب • وعند ذاك يخلع المحاربون الشباب أرديتهم الجلدية ويتشحون بأردية الشيوخ المصنوعة من الفرو • وفى الاحتفال المماثل لذلك عند قبيلة أكيكويو الذى يجرى عندهم كل خمسة عشر عاما ، يلف كل فرد شريطا من جلد

جدى ، يقدم ضحية لهذا الغرض ، حول معصمه ، وذلك قبل أن يعود الى بيته •

وقد نخلص بعد هذا العرض الشامل للعادات السالفة ، الى أن الغرض من ارتداء الشخص لجزء من جلد الحيوان الضحية ، هـــو حمايته من شر اصابه حقا أو قد يصيبه • أى أن جلد الحيوان يستخدم فى هذه الحالة بوصفه تعويذة • وربمـــا انطبق هذا التفســـير على الحالات التى تتبع فيها هذه العادة عند التصديق على عهد من العهود ، حيث ان الطرفين المتعاهدين يحميان أنفسهما من خطر قد يلحق بهمـــا اذا ما نقض أحدهما العهد • كأننا يمكننا أن نفترض أن الغرض مـــن طقس الميلادالجديد أو الميلاد من النعجة ، الذى تعودت قبيلة أكيكويو أن تؤديه قبل ختان الصبية ، هو حماية هؤلاء الصبية من بعض الشرور التى قد تلحق بهم اذا لم تود لهم الشعائر المناسبة • أما الطريقة التى يتأثر بها الشخص المعنى بهذه الشعائر ، فهى أن الشخص بارتدائـــه جلد الحيوان يطابق بين شخصه والحيوان الضحية الذى يكون بمثابة الحاجز بينه وبين ايذاء القوى الشريرة له ، سواء كان ذلك عن طريق خداعها أو مداهنتها ، فتوجه تأثيرها الى الحيوان ، بدلا من الرجل • أو أنه يظن أن لحم الحيوان ودمه وجلده له خاصية سحرية معينـــة تحفظ الشر بعيدا عن الانسان • وتتضح فكرة مطابقة الانســـــان بالحيوان كل الوضوح فى شعيرة الميلاد الجديد عند قبيلة « كوكويو » فبناء على هذه الشعيرة تتظاهر الأم بأنها نعجة وأن ابنها المولودهـــو الجدى الصغير المولود • ويحق لنا أن نفترض من خلال هذه الشعائر أن ارتباط الانسان بقطعة من جلد الحيوان الذى قدم ضحية يعد بديلا للفه فى جلد الحيوان كله • والغرض من هذا الفعل هو مطابقة الانسان بالحيـــوان •

٣ ــ الميـــلاد الجـــديد :

ان حكاية يعقوب الغريبة التى تحكى عن الاحتيال والخديعة اللذين دبرهما الابن الماكر متواطئا مع أمه ضد الأب والزوج الخرف ، بقصد تحويل بركة الاب من عيسو الى يعقوب ، تحمل مظهرا آخر أكثر وقارا

من ذلك الذى خلعه عليها كاتب القصة ، وذلك اذا افترضنا أن هذا الدور المعيب الذى لعبته القصة ، قد ضمنه اياها القاص الذى فشـل فى الوصول الى الفهم السليم لطبيعة العمل الذى وصفه • فالعمل الذى قام به يعقوب ، ان كان فرضنا سليما ، ليس سوى عمل شرعى يحمل مغزى الميلاد الجديد فى شكل عنزة ، وذلك بهدف أن يعامل يعقوب شرعيا معاملة الابن الأكبر بدلا من كونه الابن الأصـغر • وقد سبق أن رأينا أن عادة الميلاد من عنزة أو شاة قد لعبت فيما يبدو ، دورا مهما فى الحياة الاجتماعية والدينية عند قبيلة « أكيكويو » التى تسكن افريقيا الشرقية ، والتى ترجع فيما يبدو ، الى أصل عربى ، ان لم تكن ترجع الى أصل سامى • وفى وسعنا أن ندعم نظريتنا هذه اذا استطعنا أن نبين أن عادة التظاهر بالميلاد الجديد عن طريق امرأة أو حيوان ، كانت تتبع بين شعوب أخرى فى أحوال يظن فيها أنه من الافضـل للرجل أن ينسلخ من شخصيته القديمة ويصطنع شخصية جديدة يبدأ بها مرحلة جديدة فى حياته • وباختصار فان عادة الميلاد الجديد كانت تستخدم فى مرحلة مبكرة من تاريخ التشريع فى التأثير على وضع من أوضاع الانسان واعشارة الى ما يعترى حياته من تغير فى هـذا الوضع • والأمثلة التالية يمكن أن توضح هذا الغرض العام •

فعادة الميلاد الجديد كانت تستخدم فى المقـام الأول استخداما طبيعيا فى أحوال التبنى ، أى بقصد جعل الابن المتبنى ابنا حقيقيا للأم المتبنية له • فالمؤرخ الصقلى « ديودورس » يخبرنا أن هرقل عنـدما ارتفع الى مصاف الآلهة ، أغرى أبوه الاله « زيوس » زوجته « هيرا » أن تتخذ من هذا الابن غير الشرعى ابنا حقيقيا لها • وقد حققت الآلهة النبيلة مطلب زوجها ، بأن نامت فى سريرها وضمت هرقل اليهـا ثم وضعته داخل ردائها ودفعته حتى سقط على الأرض ، مصطنعة بذلك أنها تلد حقيقة • ثم يضيف المؤرخ الى ذلك بأن البرابرة فى عصره كانوا يتبعون هذا الأجراء فى حالة تبنيهم طفـلا • ويبدو أن هـذه العادة كانت تتبع فى العصور الوسطى فى أسبانيا وفى بعض جهـات أوربا • فكانت الام أو الاب يضع الطفل المتبنى داخل ردائه ، وأحيانا

يضعه فى طيات ردائه المنساب ، ثم يجعله يسقط على الارض • ومن ثم فان الاطفال المتبين كانوا يسمون « أطفال الاردية » • « وقد ذكر فى عدة مخطوطات من « التقويم العام » أن اليوم الذى عمد فيه « مودارا » وخلع عليه لقب فارس ، لبست زوجة أبيه قميصا فضفاضا فوق ردائها ، ووضعت الطفل فى أحد أكمامه ثم سحبته من فتحته وهى تعلن أنه أصبح أبنها ووريثها » • ويقال : ان هذا الأجراء هو الشكل المألوف الذى يتبع فى أسبانيا عند تبنى الابناء • بل انه ما زال يتبع فيما يقال بين السلافيين الجوبيين • ففى بعض جهات بلغاريا تضع الام الطفل المتبنى داخل ردائها من أسفله وتخرجه من فتحته العليا عند صدرها • وعند « أتراك البوسنة » يجرى الاحتفال بتبنى الطفل على هذا النحو : تدفع الام المستقبلة بالابن المتبنى داخل سروالها مصطنعة بذلك أنها تلد بحق • كما قيل : « ان الطريقة المألوفة لتبنى الطفل عند الأتراك بوجه عام هو أن يمر الشخص المتبنى من ازار الشخص الذى يرغب فى تبنيه • ولهذا فان الاصطلاح الذى يستخدمه الاتراك للتبنى هو : « أن يمر الشخص المتبنى داخل ازار متبنيه » •

« ويقوم بعض الكلمانتانبين سكان بورما (وهم البروانيون والليلاكين الذين يسكنون فى بارام) باحتفال رمزى غريب عند تبنى أسرة لطفل من الأطفال • فاذا استقر رأى رجل وزوجته على أن يتبنيا طفلا ، فانهما يتجنبان ، قبل القيام باحتفال التبنى بضعة أسابيع ، تلك المحرمات التى تتجنب عادة قبل الشهور الاخيرة من حمل الزوجة • وكثير من هذه المحرمات يمكن أن يوصف بوجه عام بأنها الامتناع عن كل عمل يؤدى الى صعوبة فى وضع الطفل أو الى تأخير فى الوضع • ومثال ذلك ألا تزج يد فى جحر ضيق لاستخراج شىء منه ، وألا يثبت شىء فى وتد خشبى ، وألا يتردد الزوج أو الزوجة عند عتبة حجرة ، عند دخولهما أو خروجهما منها • فاذا حان اليوم الذى يجرى فيه احتفال التبنى ، تجلس الام مستندة الى سناد وملفعة بقماش على نحو ما تفعل دائما عند الوضع ، ثم يدفع الطفل من خلف رجليها الى

الامام • فاذا كان الطفل رضيعا ، فانه يوضع على صدرها ليمتص ثدييها ، ثم يسمى بعد ذلك باسم • ومن العسير تماما أن يحصل الانسان على ما يثبت أن طفلا بعينه قد تبنى ، وأنه ليس ابنا حقيقيا لابوين بعينهما • ولا يرجع هذا الى الرغبة فى اخفاء الحقيقة بقدر ما يرجع الى كمال عملية التبنى ، فالزوجان ينظران الى الطفل المتبنى بوصفه ابنا حقيقيا لهما بحيث انه يصعب علينا أن نعثر على ألفاظ تعبر عن التمييز بين الطفل المتبنى والطفل الحقيقى • ويحدث هذا بصفة خاصة اذا ما رضع الطفل المتبنى من الام حقا » •

وهنا نلاحظ أن الوالدين يشتركان معا فى اتباع اجراءات الميلاد الجديد ، فكل من الاب والام يتظاهران بمراعاة النظم التى يتبعها عادة كل أب وأم بين هؤلاء القوم بقصد العمل على تيسير ولادة الطفل الحقيقى • ويقوم الوالدان المتبنيان لطفل ما بدورهما فى هذه المسرحية العائلية بجدية بالغة ، الى درجة أنه لم يعد يميز بين الادعاء والحقيقة ، والى درجة أننا لا نجد ألفاظا تعبر عن الفرق بين الابن المتبنى والابن الحقيقى • وليست هناك وسيلة أبعد من ذلك تجعل الابن المتبنى يعتقد أنه الابن الحقيقى لابويه المتبنيين له •

فاذا حدث عند قبيلة « باهيما » التى تسكن فى افريقيا الوسطى « أن ورث رجل أولاد أخيه المتوفى ، فانه يأخذهم ويضعهم واحدا تلو الآخر فى حجر زوجته التى تستقبلهم بدورها وتقبلهم بوصفهم أولادها الشرعيين • ثم يحضر الزوج سيرا من الجلد يستخدم فى ربط الابقار الجامحة عند حلبها ، يلفه حول وسط الام بعد الوضع • وبعد هذا الاحتفال يتربى هؤلاء الابناء فى كنف الاسرة ويصبحون من أفرادها » وتتضح ملامح شعائر الميلاد الجديد فى هذا المثال فى وضع الأطفال فى حجر الام ، وفى ربط وسطها بالسير الجلدى على نحو ما تفعل القابلة مع الام بعد ولادة الابن الحقيقى •

وتقام شعائر الميلاد الجديد لصالح الاشخاص الذين كان يظن خطأ أنهم توفوا ، ومن ثم أقيمت لهم الشعائر الجنائزية غيابيا بهدف اهجاع أرواحهم الهائمة التى يمكن أن تتملك الاحياء وتضايقهم مالم تؤد هذه الشعائر • فاذا حدث بعد ذلك ان عاد هؤلاء الاشخاص والتم شملهم بأسرهم ، فان هذا يخلق موقفا محيرا لهذه الاسرة ، حيث ان هؤلاء الاشخاص أصبحوا يعدون نظريا فى عداد الموتى ، بنـــاء على طقوس السحر التقليدية أو شعائر الادعاء • وعندما واجه الاغريق والهنود القدماء هذه المشكلة ، وجدوا حلا لها عن طريق تأدية شعائر الميلاد الجديد • وهنا كان يتحتم على العائد ان يتظاهر فى رهبة ، قبل أن يختلط فى حرية بأقرانه ، أنه قد عاد للحياة مرة أخرى وذلك عن طريق ولادته من امرأة • وقد كان الاغريق يعدون هــؤلاء أشخاصا نجسين قبل أن تؤدى لهم هذه الشعائر ، فكانوا يرفضون الاختلاط بهم ولا يسمحون لهم بالاشتراك فى الطقوس الدينية ، ويمنعونهم بصفة خاصة من دخول معابد الآهات الانتقام • ومن ثم يتحتم على هؤلاء الاشخاص ، لكي يستردوا حقوقهم المدنية ، أن يخرج الفرد منهم من رداء امرأة ، ثم تغسل القابلة له جسمه وتلفه فى القماط وتضعه على صدر هذه المرأة ليمتص ثديها • ويعتقد بعض الناس أن هذه العادة ارتبطت فى نشأتها بشخص بعينه كان يدعى « اريستيفوس » • وقد حدث أن تغيب هذا الشخص وأقيمت له الشعائر الجنائزية فى أثنـــاء غيابه • فلما عاد الى قومه رأى أن الناس جميعا يتجنبونه كما يتجنبون الشخص الطريد • عند ذاك لجأ الى نبوة دلفى يلتمس النصيحة ، فأرشده الاله الى أن يقوم بتأدية شعائر الميلاد الجــديد • على أن البعض الآخر يعتقد كل الاعتقاد أن هذه العادة أقدم فى نشـــأتها من عصر « أريستيفوس » ، وأنها وصلت اليهم من عصور بالغة فى القدم أما عند الهنود القدماء ، فقد كان يتحتم فى مثل هذه الظروف ، على الشخص الذى كان قد ظن أنه قد توفى ، أن يقضى الليلة التى يعود فيها الى قومه داخل برميل ممتلىء بمزيج من الماء والدهن • وقبل أن يخطو داخل البرميل ، يتلو والده أو أقرب قريب له بعد الأب ، عبارة

محددة يعتقد بعدها أنه قد ارتد الى الحالة التى كان فيها جنينا فى رحم أمه • ولهذا فانه يتقمص شخصية الجنين ، فيجلس فى البرميل ساكنا قابضا يديه رتقام فوقه الشعائر التى تؤدى بانتظـــام للأم الحامل • وفى صباح اليوم التالى يخرج من خلف البرميل ثم يقـــوم بتأدية الشعائر التى سبق له أن أداها منذ بلوغه مرحلة الشـــباب حتى ذلك الوقت ، وبصفة خاصة الاحتفال فى قدسية بزواجـــه من امـــرأة جديدة ، أو من امرأته القديمة • ويبدو أن هذه العادة لم تختف كلية فى الهند حتى يومنا هذا • أما عند « الكوماويين » ، فان الشخص الذى يعتقد فى أنه يلفظ أنفاسه الاخيرة ، يحمل خارج بيته لكى يؤدى له أقرب قريب له شعائر التطهير من الذنوب • فاذا شفى بعد ذلك ، فانه يتحتم عليه أن يقوم بكل الطقوس التى سبق أن قام بها منذ ولادته حتى اليوم ، كأن يرتدى الخيط المقدس ويتزوج النساء ، أو يعـــود فيتزوج زوجاته مرة أخرى •

على أن شعائر الميلاد الجديد كانت تؤدى فى الهند قديما فى غرض آخر مختلف عن الغرض الاول وأكثر منه قدســـية • فـــرب الاسرة البراهمانى الذى كان يقوم بتقديم الضحية بانتظام كل خمسة عشر يوما ، كان يعتقد فى أنه أصبح الها لوقت محدد • ولكى يتم تحويلهمن انسان الى اله ، ومن الفناء الى الخلود ، كان من الضرورى له أن يولد من جديد • وفى هذه الحالة يرش بالماء ، وهو عمل رمزى يشـــير الى الذرية • ثم يصطنع بعد ذلك أنه أصبح جنينا ، وذلك بـــأن يحبس نفسه داخل كوخ خاص يمثل رحم المرأة • ثم يرتدى حزامـــا تحت ردائه ، كما يرتدى فوق الرداء جلد بقرة وحشية سوداء • والحزام يرمز الى الحبل السرى ، كما يرمز الرداء وجلد البقرة الوحشية الى كل من الغشائيين الداخلى والخارجى اللذين يغلفان الرحم • وعند ذاك يجب عليه أن يحرص على ألا يخدش نفسه بمسمار أو عصاة والا مات بوصفه جنينا • ولكنه يجوز له أن يتحرك داخـــل الكوخ ، حيث ان الجنين يتحرك داخل الرحم ، كما يجوز له أن يقبض على يديه حيث

الجنين يفعل ذلك أيضا • فاذا استحم وخلع عنه الجلد الأسود وارتدى رداءه الخارجي بعد ذلك ، فذلك لأن الطفل يولد بالغشـــــاء الداخلي لا الخارجي • وبهذا يكتسب بالبراهماني من خلال هذه الشعائر جسدا جديدا متألقا ذا قوة خارقة ، الى جانب جسده الطبيعى الفانى ، كما يحاط بهالة من النار ، وتهذا يصبح الها من خلال عملية الميلاد الجديد ، ومن خلال تجديده لطبيعته الجسدية •

هكذا نرى أن شعائر الميلاد الجديد يمكن أن تخدم أغراضـــا مختلفة ، فهى تعيد الحياة الى الشخص الذى كان يظن أنه مات ، وهى ترفع الرجل الحى الى مرتبة الألوهية • وقد كانت هذه العادة تتبع فى الهند حديثا ، بل انها لا تزال تتبع حقا الى اليوم بين الحين والآخر ، بوصفها طقســا تطهيريا يكفر عن اهمال النـــاس لعـــادة من عادات الأجداد • ولهذا يتضح حبل التفكير الذى أدى الى ممارسة هـــذه العادة « فالمذنب الذى تقام له شعائر الميلاد الجديد يصـــبح رجـــلا جديدا ، ومن ثم فهو يكف عن أن يكون مسئولا عن ذنوبه التى ارتكبها قبل الميلاد ، فعملية التجدد تعد فى الوقت نفسه عملية تطهير ، اذ أن مثل هذا الشخص قد خلع عنه طبيعته القديمة واكتسب طبيعة أخرى جديدة • فالمجتمع القبلى فى قبيلة « كوركو » ، وهى احدى القبائل الاصلية فى المجموعة الكولاريانية أو « الموندانية » التى تسكن الاقاليم الوسطى فى الهند ، يعاقب من يرتكب جرما اجتماعيا مألوفا بالعقوبات العادية • ولكنه « فى بعض الاحـــوال الخطيرة مثل مخالطة الشخص المنبوذ الادنى منه ، فانه يتحتم على مثل هذا الشخص أن يقوم بشعائر الميلاد الجديد ، فيوضع داخل وعاء كبير مصنوع من الطين ويغلق دونه الوعاء • وعندما يخرج منه يقال انه قد ولد من جديد من رحم أمه • وعند ذاك يدفن فى الرمل ويخرج منه جسدا جديدا من التراب • ثم يوضع داخل كوخ مبنى من الاعشاب وتشعل النار فى هذا الكوخ فيجرى هاربا من النار ويغطس فى المـــاء ، وأخيرا يقص جزءا من خصلة من شعره التى تنمو على رأسه الحليق ، ويدفع غرامة ، قدرها روبيتان

ونصف روبية » • وهنا يتضح أن شعائر الميلاد الجديد يقصد بها تخليص الشخص من تحمل مسئولية أعماله السابقة ، وذلك عن طريق تحويله كلية الى شخص جديد • ولكن ما ذنب تحمله لاساءة ارتكبها شخص آخر قبل أن يولد هو ؟ •

ويكون احتفال الميلاد الجديد أكثر دقة وأكثر تكلفة اذا كان المذنب الذى يراد القيام بالاحتفال من أجله ذا حسب أو صاحب مجد • ففى القرن الثامن عشر « حدث أن أرسل « راجهو ـ ناث ـ رايا » أو « راجوبا » اثنين من البراهمة بوصفهما رسولين له الى انجلترا ، فسافرا اليها عن طريق قناة السويس • ولكنهما عند عودتهما الى وطنهما عوملا معاملة المطرودين ، وذلك لأنهما سافرا عبر بلاد يسكنها « الميليشهانيون » أى القبائل النجسة ، وعاشا بينهم متبعين الشرائع الموضوعة فى كتبهم المقدسة • كما نسب اليهما كذلك أنهما عبرا بحر « أتاكا » • وعند ذاك عقدت الاجتماعات وتوافد البراهمة العلماء من كل حدب ، ولم يستطع « راجهو ـ ناثا ـ رايا » بنفوذه وتأثيره أن ينقذ رسوليه من هذه التهمة • وعلى كل فقد انتهى الاجتماع الموقر الى أن يقوم الرسولان بشعائر تجديد جسديهما ووسامتهما الكهنوتية معا ، وذلك اعتبارا لسلوكهما الكريم السالف الذى رفع بهما الى مستوى عالمى ، ونظرا للمهمة السامية التى قاما بها فى البلاد النائية من أجل مصلحة بلديهما • ولهذا الغرض طلب منهما أن يصنعا تمثالا من الذهب لاحدى القوى الطبيعية الانثوية فى شكل امرأة أو بقرة • ثم يدخل كل منهما داخل هذا التمثال ثم يسحب من فتحة منه • واذا كان تكاليف هذا التمثال بأبعاده المحددة تعد باهظة ، فيكفى أن يصنعا تمثالا للآلهة « يونى » المقدسة يمر من خلاله الشخص المعنى • ولكن « راجو ـ ناث ـ رايا » صنع لهما تمثالا من الذهب الخالص تمت بواسطته عملية الميلاد الجديد ، كما أجريت الشعائر الاخرى ، ومنح البراهماتيان الهدايا المتعددة لقبولهما مرة أخرى فى مجتمع المؤمنين الصادقين » •

« كما روى أن « تانجورى ناياكار » خــدع « مادورا » وعانى المتاعب بسبب ذلك • فنصحه مستشاروه البرهمانيون أنه من الافضل أن يولد ن جديد • وعند ذاك صنعت له بقــرة ضخمة من البرونز ، ودخل « ناياكار » فى تجويفها وأغلقت عليه • ثم استقبلته زوجة معلمه البراهمانى التى كانت تقوم بخدمته ، بين ذراعيها وأجلسته على ركبتيها وضمته الى صدرها ، بينما أخذ « ناياكار » يصرخ صراخ الطفــل الرضـــــيع » •

كما كانت تستخدم طقوس الميلاد الجديد فى الهند بهدف رفـــع رجل ينتمى الى بيئة وضيعة بحكم مولده الى مرتبة اجتماعية أعلى منها • فمهراجيو « ترافنكورى » على سبيل المثال ، ينتمون الى طبقة « السودرا » ، وهى أدنى الطبقات الهندية الأربع • ولكنه يبدو أنهم يرفعون أنفسهم على الدوام الى طبقة البراهمانيين وهى أرفـــع هذه الطبقات ، وذلك عن طريق اجراء طقوس الميلاد الجديد من بقرة كبيرة مصنوعة من الذهب أو من زهرة لوتس كبـــيرة مصـــنوعة من الذهب كذلك • ومن ثم كان يسمى هذا الاحتفـــال « هيرانيا » أى الرحـــم الذهبى ، أو « باتماجاربها دانام » أى « هدية رحم اللوتس »• وذلك وفقا للشكل الذى يولد منه المهراجا ، بقرة كان أم زهرة اللوتس • فعندما كان « جيمس فوربيس » فى « ترافانكورى » أبصر الحــاكم وهو يخرج من تجويف بقرة مصنوعة من الذهب الخالص • ثم حطم التمثال الذهبى بعد ذلك ووزع على البراهمانيين • وعنــدما أقــام « الراجا مارتاندا فورماه » هذا الاحتفال عام ١٨٥٤ م ، كان التمثال الذى أجريت من خلاله الطقوس هو زهرة اللوتس • وقد قدر ثمنه بحوالى ستة آلاف من الدولارات • وقد وضــع داخل هذا التمثال قدر من المزيج المقدس الذى يتكون من العناصر الخمسة التى تكون محتوى جسم البقــرة وهى « اللبن والزبد وشرش اللبـــن والبول والروث » مما يشير الى أن المهراجا قد ولد من جديد من بقرة مقدسة،

وليس من زهرة اللوتس المقدسة • وبعد أن دخل جلالته داخل التجويف التمثال ، مكث بداخله الوقت الذى حدد له ، بينما أخذ الكهنة الذين كلفوا بتأدية الشعائر يصلون مرارا الصلوات المناسبة لذلك •

ويمكننا أن نستدل من هذا الاحتفال الاخير على أن المهراجات قد تحولوا منذ عام ١٨٥٤ م الى الشكل الثانى لشعائر الميلاد الجديد ، وهو الشكل الذى ربما كان أكثر قدسية من الشكل الاول ، ونعنى بذلك الميلاد من البقرة • ففى عام ١٨٦٩م أعلن أن « احتفالا آخر ليس أقل غرابة من الاحتفال الاول يسمى « ارنجا جهربوم » سيقام فى العام القادم ، حيث يمر جلالته (أى المهراجا حاكم ترافانكورى) من خلال بقرة ذهبية تصبح فيما بعد ملكا للكهنة » • ومرة أخرى نقـرأ أن المهراجا حاكم « ترافانكورى » ، وهى مقاطعة أهلية تقـع فى أقصى جنوب الهند ، قد فرغ منذ حين من اجراء الاحتفال النفيس الثـانى والاخير الذى يعرف باسم « المرور خلال البقرة الذهبيـة » ، ذلك الاحتفال الذى كان يتحتم على المهراجا أن يقوم به لكى يقف على قدم المساواة فى قليل أو كثير مع البرهمانى ، حيث ان المهراجا يرجع فى أصله الى طبقة « سودرا » • ويعـرف الاحتفـال الاول من هـذين الاحتفالين باسم « ثولا بورشا » • وكلمة « ثولا » باللغة السنسكريتية تعنى الميزان ، كما أن كلمة « بورشا » تعنى الرجل ، وكلمة «دانام» تعنى « منحة ذات طابع دينى » • ويتمثل هذا الاحتفـال فى دخـول المهراجا فى مكان ما ليقف على كفة الميزان ، فيوزن مقابل عمـلات ذهبية توزع فيما بعد على البراهمة • • أما الاحتفال الثانى فيعرف باسم « هيرانيا جاربهام » • وتعنى كلمة « هيرانيا » السنسكريتيـة الذهب ، كما تعنى كلمة « جاربهام » الرحم • وجوهر هذا الاحتفال هو المرور من خلال بقرة ذهبية • وهذه البقرة عبارة عن وعاء مصنوع من الذهب ، ويبلغ ارتفاعه عشرة أقدام ومحيطه ثمانية أقـدام • ويملأ هذا الوعاء حتى نصفه بمزيج يتكون من العناصر التى تتكون منها البقرة ، وعلى هذا المزيج يقوم البراهمة باجراء الطقوس المشروعة

ثم يصعد المهراجا الى قمة الوعاء عن طريق سلم مزين مصـــنوع لهذا الغرض ثم يغلق عليه الوعاء بينما يتلو البراهمانيون تعاويذهم وأناشيد الفيدا • ويستمر هذا الاجراء مدة عشر دقائق • يخرج بعدها المهراجا من الوعاء وينبطح أمام تمثال اله ملوك « ترافانكورى » •وعند ذلــك يأتى الكاهن الكبير ويضع تاج « ترافانكورى » على رأس المهــراجا الذى أصبح مقدسا بعد أن مر خلال البقرة الذهبية • والاحتفال الاول الذى يوزن فيه المهراجا بالذهب يجعله ملائما لأن يقوم بالاحتفـــــال الثانى الذى يعد أكثر تبجيلا وأكثر تكلفة من الاحتفال الاول ، وهــو مروره داخل تجويف البقرة الذهبية • وتكاليف هذه الاحتفالات باهظة ففضلا على قيمة الذهب الذى تصنع منه البقرة ، فانه ينفق الكثير من المال على اطعام حشد البراهمة الهائل الذين يجتمعون فى «تريفاندروم» بهذه المناسبة • ويقوم مهراجيو « ترافانكورى » بهذا الاحتفال منــذ زمن بعيد لا يذكر على وجه التحديد • ويعد أى اهمال من جانبهم لهذا الاحتفال اساءة لتراث البلد ، الأمر الذى يتطير به الهندوكيون كـــــل التطير » •

على أنه لو اقتصر هذا الاحتفال على هؤلاء القادرين على دفــع نفقات البقرة الهائلة المصنوعة ن الذهب ، لانحصرت فكرة التجديد فى طائفة محدودة هى طائفة الأغنياء ، ولحلت بهؤلاء وحدهم البركة عــن طريق دخولهم فى تجويف البقرة • ولكن البقرة الحية حلت ، لحســن الحظ ، محل البقرة الذهبية فى شعائر الميلاد الجديد • وبذلك أصــبح فى استطاعة الفقير والوضيع أن يقوما بهذه الشـــعائر ، وبذلك فتحت أبواب الجنة لحشد هائل من الناس ، ولولا ذلك لظلت مغلقة دونهم • حقا انه يمكننا أن نفترض بشىء من الثقة ، أن الميلاد الجديد عن طريق البقرة الحية ، كان هو الشكل الأول لهذا الاحتفال ، وأن اســـــتبدال البقرة الحية ببقرة مصنوعة من الذهب ، لم يكن ســوى اســــترضاء لكبرياء الراجاه وغيره من كبار رجال القوم الذين ربما حسبوها وصمة فى جبينهم لأن يولدوا كسائر أفراد الشعب من البقرة الحية • ومهمـــا

يكن الأمر ، فانه من المؤكد أن البقرة الحية لا تزال تستخدم فى بعض جهات الهند فى اقامة شعائر الميلاد الجديد • ففى الأقاليم الشمالية الغربية من أحياء الهملايا « يؤدى احتفال الميلاد من فم البقرة عندما يتنبأ الطالع لأحد الأهالى بحدوث جريمة من جانبه أو بحدوث كارثه مفجعة له • وعند ذاك يأتى هذا الشخص ويلبس ملابس ذات لون قرمزى • ويربط فى غربال يمرر بين أرجل البقرة الخلفية حتى أرجلها الأمامية ومنها الى فمها ، ثم يمرر فى الاتجاه المضاد مشيرا بذلك الى عملية الميلاد الجديد • ثم يرش الطفل المصطنع بالماء المقدس ، ويتشمم الأب رائحة ابنه كما تفعل البقرة مع عجلها » • وهنا نلاحظ أنه لما كان من الصعب بالضرورة تمرير الطفل داخل البقرة الحية ، لم يبق سوى تمريره جيئة وذهابا بين أرجل البقرة • وبهذا يصبح الابن مطابقا لابن البقرة ، كما يقوم الأب بدور البقرة نفسها عن طريق تشممه لرئحة ابنه • ومثل هذا يحدث فى الهند الجنوبية عندما يطرد رجل من مجتمعه لسبب قهرى ، فإنه يمكنه أن يعود اله بعد أن يمر عدة مرات تحت بطن البقرة • وعلى الرغم من أن الكاتب الذى دون هذه العادة لم يذكر أنها احتفال بالميلاد الجديد ، فانه يحق لنا أن نعدها كذلك فى ضوء الشواهد السابقة • ومن المحتمل أن اعادة وضع طفل عثر الحظ فى سلة أمام بقرة حلوب يقف بجانبها ابنها ، والسماح للبقرة بأن تلعق الطفل ، يعد اجراء مبسطا للاحتفال الأصلى • « وبذلك تبرح الطفل الصفات الشريرة التى يولد بها عن طريق الوراثة » •

فاذا كان طقس الميلاد من بقرة يمكن أن يتخذ أشكالا مبسطة يصعب علينا تفهم مغزاها ، ما لم يكن لنا علم بتفاصيل الاحتفال الكامل ، فانه لايبدو أنه من غير المحتمل أن تكون كذلك شعائر الميلاد من العنزة مثل تلك الشعائر التى تتبعها قبيلة « أكيكويو » عندما تربط يد الانسان الذى يولد من جديد بجلد هذا الحيوان صورة مصغرة لطقوس كاملة • ويتفق مع هذا الغرض أننا نجد قبيلة « أكيكويو »

تؤدى هذه الشعيرة الأخيرة فى مناسبات مختلفة ، وهى بعينها تؤدى هذا الطقس كاملا فى مناسبات مقدسة •

أليس من الطبيعى بعد ذلك أن نفترض أن الشعوب اختصرت فى زحمة الحياةاليومية التى لم تكن تسمح بالقيام بهذا الاحتفال الشاق وبتفاصيله الدقيقة ، اختصرت هذا العلاج المتحكم فيهم ، الى شكل مبسط مريح يمكن اللجوء اليه دون أن تضطر الى تأجيل ضروريات الحياة الأقل شأنا من هذا الاحتفال ؟ •

خاتمة :

فاذا عدنا من النقطة التى بدأنا منها،فإننا نذكر على سبيل الافتراض أن حكاية الخديعة التى ارتكبها يعقوب مع أبيه اسحق . تتضمن بقايا احتفال شرعى هو احتفال الميلاد الجديد من عنزة الذى كان الناس يرون ضرورة اتباعه ، أو يرغبون فى اتباعه عند ما يفضل الابن الأصغر فى الحقوق على حساب أخيه الأكبر الذى ما زال على قيد الحياة ، تماما كما يتظاهر الرجل الهندى فى أيامنا هذه بأنه يولد من جديد من بقرة ، وذلك اذا شاء أن يسمو الى مستوى اجتماعى أعلى من مستواه ، أو أن يعود الى قومه الذين خسرهم ، اما نتيجة حظه العاثر أو بسبب سوء سلوكه • وربما بسط هذا الاحتفال الغريب عند العبريين كما بسط عند « الاكيكيو » ، فأصبح يتمثل فى ذبح عنزة ووضع قطع من جلدها على الشخص الذى يعتقد بذلك أنه يولد من عنزة مرة أخرى • فاذا كان افتراضنا هذا صحيحا ، فان كاتب قصة يعقوب فى سفر التكوين يكون بذلك قد دون هذه الشعيرة القديمة ، وإن كان قد أساء فهمها فى الوقت نفسه •

الفصل الرّابع

يعقـــوب فى بيت ايـل

١ ــ حلم يعقوب : من الطبيعى أن تؤدى خديعة يعقوب لأخيه « عيســو » ، على نحو ما تصـــور فى حكاية الكتاب المقدس ، الى حدوث جفوة بين الأخوين • وقد تألم الأخ الأكبر نتيجة احساســـه بخطأ لا يحتمل ، ودفعته طبيعته العاطفية لأن ينتقم من أخيه الأصغر الذى تمكن بحذقه أن يسلبه حقه فى الارث • اما يعقوب فقد خاف على حياته من أخيه ، كما شـــاركته أمه التى تواطأت معه فى جريمتـه ، مخاوفه • ومن ثم فقد استقر رأيها على أن تدع يعقوب يرحل الى مكان آمن ريثما يهدأ غضب أخيه ، الذى كان رغم غضبه ، متسامحا كريما • ورأت الام أن ترسل يعقوب الى خاله « لابان » فى « حران » • وقـد أثار فى نفسها هذا القرار ذكرى موطنها الذى يقع فيما وراء النهـر الكبير ، حينما زفت الى إسحق وهى فى أوج جمالها • وربمـا مسـت هذه الذكرى شغاف قلبها المادى القاسى على نحو ما • ولكم تذكرت فى متعة بالغة ، تلك الامسية البهيجة التى ترجلت فيها عن جملها لتقابـل شخصا يمشى بخطى وئيدة بين الحقول ، ذلك الشخص الذى أصـبح زوجها فيما بعد • والآن لقد أصبح هذا الشـخص الذى كان مكتمـل الرجولة ، كفيفا خرفا طريح الفراش • ولم تكن هذه الأم قد أبصرت وجهها من قبل الا فى تلك الأمسية التى هيجت ذكراها ، عندما نظرت الى البئر ، فانعكست على صفحته صورة وجه مجعد وشعر أشـعث ، ولم تكن هذه الصورة سوى شبح جمالها السالف وخياله • حسـنا كم

تمضى الأيام كانها البرق الخاطف ! ولكن ربما كان فى عودة ابنها من وطنها مصطحبا زوجة شابة حسناء ترى فيها صورة شبابها الضائع ، سلوى لها عن نهب الأيام • هذه الأفكار ربما راودت الأم المعجبة بنفسها وهى تودع ابنها ، على الرغم من أنها لم تعبر له عن هذه المشاعر ، اذا كنا نعتمد على ما كتبه الكاتب اليهودى •

ورحل يعقوب متخذا طريقه من بلدة « بئر سبع » التى تقع عند مشارف الصحراء فى أقصى جنوب بلاد الكنعانيين متجها الى الشمال مارا بالضرورة بمرتفعات أرض الميعاد الجرداء • واستمر فى طريقه شمالا فى طريق وعر شاق حتى وصل الى مكان ما والشمس أوشكت على الغروب • فقرر أن يبيت فى هذا المكان ، اذ كان مجهدا وقد تقرحت قدماه من السير ، كما كان الظلام قد أوشك على مهاجمته • وقد كان هذا المكان منعزلا • فأخذ يصعده تدريجيا حتى بلغ قمته التى تعلو فوق سطح البحر ــ بمقدار ثلاث آلاف قدم • وكان الهواء حادا لافحا ، فنظر من حوله ، فرأى ، حسبما أتاحت له الظلال المتساقطة ، قفارا تتناثر فيها الأحجار والصخور الرمادية التى كانت تتراكم فى بعض الاحيان مكونة شكل أعمدة غريبة ، ونصبا تذكارية وأضرحة ، بينما كان يلوح على البعد تل قفر معتم تراءت جوانبه فى شكل شرفات حجرية بعضها فوق بعض • لقد كان منظرا موحشا لا يغرى المسافر بأن يجيل النظر فيه طويلا • وعند ذاك جلس يعقوب وقد أحاطت به الصخور الضخمة من كل جانب ، ثم وضع رأسه على احدى هذه الصخور كأنها وسادة ، وراح فى نوم عميق • فرأى فى منامه كأنه يبصر سلما يصل ما بين الأرض والسماء ، وكانت الملائكة تتحرك عليه صاعدة هابطة • ثم أبصر الرب يقف بجانبه ويعده بأن الارض التى تحيط به جميعا ستصبحله ولذريته من بعده • عند ذاك استيقظ من نومه مذعورا وهو يقول : « حقا ان الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم • وشعر بالخوف وقال : ما أرهب هذا المكان • ما هذا الا بيت الله وهذا باب

السماء » (١) • وظل يعقوب راقدا وهو يرتجف حتى أشرف الصباح على ذلك المكان المنعزل ، وقد كشف مرة أخرى عن المنظر المتجهم لتلك القفار الصخرية والصخور الرمادية التى كان بصره قد وقع عليها بالأمس • ثم هب يعقوب واقفا وأخذ الحجر الذى يسند عليه رأسه ونصبه فى هيئة عمود ، وصب عليه الزيت ، وأطلق على هذا المكان اسم « بيت أيل » أى بيت الرب • ونحن نفترض أنه على الرغم من هول الرؤيا التى رآها يعقوب ، فقد استأنف رحلته فى ذلك اليوم بروح عالية بسبب الوعد الذى وعده به الرب • بل ان المنظر الطبيعى نفسه تغير فى أثناء سيره وبدأ يأخذ مظهرا أكثر بهجة وانشراحا منسجما فى ذلك مع آماله الجديدة التى يمتلىء بها صدره • وترك يعقوب وراءه مرتفعات بنيامين الجرداء وهبط الى أرض « افرايم » المنخفضة الخصبة • واستغرق سيره أربع ساعات الى أن هبط الى الوهدة الجميلة حيث تبدو جوانب التلال متدرجة حتى القمة ، وحيث تنمو أشجار الزيتون وأشجار السرخس التى تكسو الصخور البيضاء ، وحيث يزين أطرافها نبات الزعفران ونبات بخور مريم الابيض والبنى ، بينما كان طائر النقار وأبو زريق والبوم الصغير يضحك أو ينقر أو يصفر بين فروع الاشجار ، كل حسب طبيعة صوته • وعند ذاك شق يعقوب طريقه بقلب مفعم بالأمل الى البلد البعيد •

٢ ـ الأحلام التى تتمثل فيها الآلهة :

ان حكاية حلم يعقوب قد حكيت فيما يبدو ، وكما لاحظ النقاد ذلك ، لكى تفسر قدسية « بيت إيل » ، ذلك المكان البالغ فى القدم الذى ربما كان يقدسه سكان أرض كنعان الأصليون ، قبل أن يغزوها العبريون ويستقروا فيها بزمن طويل • والاعتقاد فى أن الآلهة تتمثل للانسان فى رؤياه وتكشف له عن ارادتها ، اعتقاد كان ينتشر فى الزمن القديم • ووفقا لهذا الاعتقاد كان الناس يلوذون بالمعابد والأماكن

---

(١) سفر التكوين : الاصحاح الثامن والعشرون آية ١٦ ، ١٧ •

المقدسة الأخرى ويناموون هناك حتى تظهر لهم القوى العلويــــة فى رؤياهم وتتحدث معهم ، اذ كان من الطبيعى ان يعتقدوا ان الآلهة أو أرواح الأشخاص المؤلهين آكثر ما تتمثل لهم فى تلك الأماكن المخصصة لمعبادتها • فقد كان فى « أوروبوس » على سبيل المثال ، تلك المدينة التى كانت تقع فى « اتيكا » ، محراب للعراف الــذى كـــان يدعى « أمغياراوس » ، حيث تعود المستفسرون عن مسائل تخصـــــهم ، أن يذبحوا الكباش ضحية له وللاشخاص المؤلهين الآخرين ، الذين كانت قد نقشت أسماؤهم فى المحراب • وبعد ذلك يفترش هؤلاء جلـــــود الكباش ويناموون عليها ، وهم يتوقعون أن يتمثل لهم هؤلاء الأشخاص فى رؤياهم • ويبدو أن أمكنة النبوءة هذه كان يزورها أساسا وبصـــفة دائمة المرضى الذين كانوا يبحثون عن وسيلة لتخفيف آلامهم • فـــاذا توصلوا الى هذه الوسيلة من خلال رؤياهم التى يرونها فى تلك الأماكن المقدسة ، فانهم يعبرون عن شكرهم برمى قطع من النقود الذهبية أو الفضية فى النبع المقدس لهذا المكان • فقد أخبرنا « ليفى » أن معبد « أمغياراوس » القديم كان يقـــع فى مكان جميل بين الينابيـــــع والجداول • وقد تأكد هذا عن طريق استكشـــاف هذا المكان فى العصر الحديث • فهذا المكان عبارة عن وهدة صغيرة جميلة ليست بالمتسعة أو العميقة ، تقع بين تلال منخفضة تكسوها أشجار الصـــنوبر فى بعض أجزائها • ويجرى فى هذه الوهدة جدول صـــغير يشـــــق طريقه بين شواطىء تنمو على حافتها أشجار الدفل والدلب لمسافة ميل حيث يصل الجدول فى البحر • وعلى البعد تحول جبال « اوبونيا » الشــــاهقة الزرقاء دون امتداد المنظر فيمـــا وراءهـــا • ولقد كـــانت مجموعات الأشجار والشجيرات التى تتكاثر عند جوانب الوهدة وتغرد عليهـــا الطيور ، وتلك المروج الخضراء الممتدة عند أسفلها ثم هذا الســـكون وتلك العزلة ، بالاضافة الى أشعة الشمس المتوهجة فى هـــذا المكـــان المغلق ، كان كل ذلك ملائما لأن يجعل المكان ملاذا للمرضى الذين كانوا يتوافدون عليه ليلتمسوا النصيحة من اله الشفاء • حقا ان هذا المكان مغلق للغاية ، الى درجة أن الحرارة التى تشع فيه من شمس بـــــلاد

اليونان التى تخلو سماؤها فى مثل هذا الوقت من السحب ، بالاضافة الى خلو الوهدة من الهواء ، لم يكن يتحملها الزائر القادم من بلاد الشمال • أما بالنسبة للمواطن اليونانى ، فهو مكان مناسب له فيما يبدو • ومن المؤكد أن مكان النبوءة هذا لم يكن يفتح أبوابه للزائرين الا فى أشهر الصيف ، ذلك لأن الكاهن كان ملزما بأن يكون موجودا بهذا المكان مدة عشرة أيام على الاقل من كل شهر ، ابتداء من نهاية الشتاء حتى يبدأ موسم الحرث الذى يتفق مع ظهور نجوم الثريا • وفى هذه الفترة لم يكن يسمح للكاهن أن يتغيب أكثر من ثلاثة أيام دفعة واحدة • وكان على المريض الذى يجى لهذا المكان يلتمس النصيحة من الاله ، أن يقوم قبل كل شىء بدفع رسم قدره تسع أوبولات على الأقل (أى ما يساوى شلنا على وجه التقريب) من الفضة الخالصة لخزينة المعبد فى حضرة حافظ غرفة المقدسات ، الذى يقوم بتدوين اسم هذا الشخص واسم باده فى السجل العام • فاذا كان الكاهن موجودا ، فان من واجبه أن يصلى فوق الحيوان الذى قدم ضحية وأن يضع لحمه فوق المذبح • أما اذا كان الكاهن متغيبا ، ففى وسع الشخص الذى قام بتقديم الضحية أن يؤدى هذه الشعائر بنفسه • ويحصل الكاهن على جلد كل حيوان يقدم ضحية كما يحصل على كتف من كتفيه ، بوصفهما منحة له ، ولكنه لا يسمح بأن ينقل أى جزء من لحم الحيوان خارج هذا المكان • فاذا قام الشخص بهذه الاجراءات يسمح له بعد ذلك بالمبيت بهذا المكان حتى يستقبل النبوءة • وفى المهجع ينام الرجال والنساء منفصلين بحيث يفصل بينهما المذبح • وترقد النساء جهة الشرق فى حين يرقد الرجال جهة الغرب •

وقد كان هناك مهجع شبيه بالمهجع السابق كان مخصصا للمرضى الذين كانوا يأتون الى معبد « أسكولابيوس• » الكبير الذى كان يقع بالقرب من « ابيداوروس » • وقد اكتشفت فى العصر الحديث آثار هذا المعبد التى تنتشر فى مساحة كبيرة ، وهى تكون معا إحدى الاثار الرائعة التى تشهد على حضارة الاغريق • وتقع آثار هذا المعبد فى

واد مفتوح جميل تحيط به المرتفعات الشاهقة التى تبرز جهة الشمال الغربى فى شكل قمم ناتئة من الصخور الجرداء ذات اللون الرمادى ، فى حين تبدو وجهة الشرق والجنوب فى شكل تخوم مســتوية بعض الشيء وفى شكل منحدرات مخضرة • وتنتشر زراعة الذرة فى فصــل الربيع فى أكثر أمكنة هذا الوادى انخفاضا التى تتخللها مجموعات من الاشجار والشجيرات • والاثر العام الذى يتركه هذا المكان فى النفس هو الاحساس بالسكون والرهبة ، ونوع من العــزلة المحببــة الى النفس ، وذلك لبعده عن المدن • وهناك وهدة منطرفة ذات جو رومانسى تغطيها الغابات الكثيفة ، تقــود الطريق الى آثار « ابيداوروس » القديمة التى تقع فى موقع جميل فوق نتوءات صخرية تطل على البحر عبر سهل تغطيه حدائق الليمون وتحيط بها جبال عالية تكسوها الغابات • وقد تعود المرضى الذين سبق لهم أن ناموا فى معبد « أيسكولابيوس » فى « ابيداوروس » ، وشفوا من وهنهم عن طريق الكشف الذى ظهر لهم فى أحلامهم ، تعودوا أن يدونوا ذكرى هذا الشفاء على ألواح كانت توضع فى المكان المقدس بوصفها شاهدا ناطقا على قوة الاله القادر على الشفاء ، وتقديرا لهؤلاء الذين وضعوا ثقتهم فيه • وقــد كان هذا المكان المقدس يزدحم فى العصر القديم بهذه الالواح التى اكتشف بعضها فى العصر الحديث • وقد أضفت هذه الكتابات سحرا عجيبا على هذا المكان الذى يشبه الى حد ما مستشفيات العصر الحديث •

ففى هذه الالواح نقرا ، على سبيل المثال ، كيف ان رجلا كانت قد شلت أصابعه جميعا عدا اصبعا واحدا ، جاء لهذا المكان ليتضرع للاله ليشفيه • فلما وقع بصره على الالواح الموضوعة داخل المعبد وقرأ أخبار الشفاء العجيبة المدونة عليها ، بدأ الشك يساوره • على أنه نام فى مهجع المعبد ، فرأى فى منامه كأنه يلعب النرد فى المعبد • وبينما كان يرمى الزهر ظهر له الاله ووضع يده على يد هذا الشخص وبسط له أصابعه اصبعا بعد الآخر ثم ســأله ما اذا كان لا يزال يشــك فى الكتابات المدونة على ألواح هذا المعبد • فأجاب الرجل بأنه حقا لم يعد

يشك فيها • عند ذاك قال له الاله : « ولكن لانك قد شككت فيها من قبل ، فانك ستدعى باسم الكافر من الآن فصاعدا • ثم برح الرجل فى صباح اليوم التالى المعبد وقد برىء من سقمه • ومرة أخرى زارت هذا المكان امرأة أثينية عوراء تدعى « أميروزيا » لتلتمس النصيحة من الاله فى مرضها • وبينما كانت تسير فى أرجاء المعبد ، قرأت أخبار الشفاء المدونة على ألواح المعبد وسخرت من بعضها اذ وجدتها مستحيلة بعيدة عن العقل ، وقالت لنفسها : « كيف يمكن للاعرج أن يصبح سليم الساقين ، وللاعمى أن يسترد بصره لمجرد رؤيتهما لرؤيا؟» ثم نامت فى المهجع وهى على هذا النحو من الشك ورأت رؤيا فى منامها ، بدا فيها الاله يقف بجانبها ووعدها بأنها سوف تسترد بصر عينها المفقودة ، على شرط أن تقدم للمعبد خنزيرا من الفضة كذكرى لكفرها البالغ • وبعد أن وعدت الاله أن تفى بذلك ، فتح الاله عينها وصب فيها البلسم ، فرجعت فى اليوم التالى الى بيتها وقد ارتد اليها بصرها • ومرة أخرى جاء الى هذا المكان رجل من فيساليا يدعى « بانداروس » على أمل أن يتخلص من الحرف «A» القرمزى اللون الذى وشم على جبينه • فرأى فى منامه كأن الاله يقف بجانبه وهو يربط فى جبينه برباط وأمره أن يهدى المعبد هذا الوشاح عندما يعود الى بيته فى اليوم التالى • فلما استيقظ « باندروس » فى اليوم التالى ورفع الرباط عن جبينه ، ورأى أن الحرف «A» المشين قد زال من جبينه وانطبع فى الرباط • وهب الرباط الى المعبد ورحل • ثم توقف فى أثناء سيره فى أثينا ، وأرسل خادمه « اخيدوروس » الى « ابيداوروس » بمبلغ من المال ليقدمه منحة الى المعبد • ولكن « اخيدوروس » الذى كان له مثل هذه العلامة على جبينه لم يقدم النقود لخزانة المعبد ، وانما احتفظ بها لنفسه • ثم نام فى المهجع وهو يأمل أن يتخلص من هذه العلامة كما تخلص منها سيده • فرأى فى منامه

كأن الاله يقف بجانبه ويسأله عما اذا كان قد أخذ من « بانداروس » نقودا ليسلمها الى المعبد • ولكن الخادم أنكر أنه قد تسلم أى شىء من سيده ، ووعد الاله أن يرسم صورة لنفسه ويهبهـا للاله ، اذا ما أزال عنه هذه العلامة • وعند ذلك طلب منه الاله أن يأخذ رباط سيده ويربط به جبينه ، ثم يخلعه فى اليوم التالى عندما يغـادر مهجعه ، ثم يغسل وجهه فى النبع وينظر فى صفحة المياه • ففعل الخادم ذلك • ولكنه عندما كان ينظر بشغف الى الرباط متوقعا أن تكون العلامة قد طبعت عليه ، اذ به يجد أن الرباط لم ترسم عليه أية علامة • فأسرع الى المنبع ونظر الى وجهه على صفحة الماء فوجد أن علامة « بانداروس» قد طبعت على جبينه الى جانب علامته •

وقد كان هناك كذلك معبد مقدس مخصص للنبوءة يقع عند شاطىء « لاكونيا » الموحش الصخرى ، حيث تهبط سلسلة جبال « تايجيتوس» فى شكل صخور جرداء الى البحر • وفى المعبد كانت الإلهة تكشـف عن رغباتها الى الناس فى أحلامهم • وقد اختلفت الآراء فيمن تكون الالهة هذه • أما الرحالة الاغريقى « باوسانياس » الذى زار هـذا المكان ، فقد اعتقد ان هذه الالهة هى « لـو » الهة البحر • ولكنه أقر أنه لم يتمكن من رؤية تمثال لها فى هذا المعبد ، حيث أن المعبـد كان ممتلئا عن آخره بأكاليل الزهر التى كان يقدمها فيما يبدو المتعبدون تعبيرا عن شكرهم لظهور الالهة لهم فى رؤياهم • ومما يؤيد ان الالهة « اينو » هى صاحبة هذا الضريح ، قربه من البحر الذى كانت تصطخب أمواجه بالقرب منه • على أن البعض الآخر كان يرى أنها «باسيفاى» الهة القمر • وقد كان هؤلاء يؤكدون رأيهم هذا ، بأن النـاس كانوا ينظرون الى القمر الفضى فى السماء قبل أن يأووا الى مضجعهم ثم ينظرون الى صفحة الماء ليروا انعكاس أشعة القمر الفضية عليـه • ومهما تكن هذه الالهة ، فان كبار قضاة اسبرطة كانوا يترددون على هذا المكان التماسا للنصيحة الإلهية من خلال رؤياهم • وقد قيل ان أحدهم قد رأى رؤيا أنذرته بحدوث كارثة تحل باسبرطة ، وقد حدثت هذه الكارثة المشهورة فى تاريخ اسبرطة •

وقد كان فى ايطاليا قديما مثلما كان فى بلاد الاغريق ، أمكنة للنبوءة كان يلجأ اليها من يريد أن يلتمس النصيحة أو يبحث عن السلوى من الالهة أو القديسين عن طريق الاحلام • فقد كان العراف « كالشاش » ، يعيد فى معبد « دريبيوم » فى « أبوليا » ، وكان كل من يذهب الى هذا المكان يلتمس النصيحة ، كان يذبح كبشا وينام على جلده • وكان هناك مكان مقدس آخر فى ايطاليا مخصص للنبوءة وهو معبد « فاونوس » ، وكان الناس يتبعون الطريقة السابقة فى التماس النصيحة عنده • فاذا ذبح الشخص كبشا ونام على جلده فانه يستقبل الرد عن سؤاله فى رؤياه • فإذا تصورنا ان هذا المكان المقدس الاخير كان يقع وسط غابة مقدسة كانت تقع بدورها بالقرب من شلالات «تيبور» ، حيث أن هناك من الاسباب ما يدعونا لهذا التصور ، فربما كان ظل الاشجار الرهيب وخرير المياه المتلاطمة يملأن نفس الحاج بالرهبة كما كانت تختلط بأحلامه • وربما كان المعبد الدائرى الذى مازال يشرف على هذه الشلالات هو هذا المكان بعينه الذى كان الاله يهمس فى آذان النائمين الورعين ، كما كان يعتقد الناس •

٣ ــ سلم السماء :

لقد كان المكان الصخرى المنعزل بين التلال الجراء الذى نام عنده يعقوب ورأى فى منامه أن الملائكة تهبط وتصعد على سلم يصل بين السماء والارض ، يختلف كل الاختلاف عن أماكن النبوة التى كانت تقع وسط الطبيعة الجميلة فى كل من بلاد الاغريق وايطاليا • والاعتقاد فى وجود مثل هذا السلم الذى تستخدمه الكائنات الالهية أو أرواح الموتى يصادفنا فى بقاع كثيرة من انحاء العالم • فقد أخبرتنا «كنجلى» فى أثناء حديثها عن آلهة غرب أفريقيا فقالت : « اننا نجد فى كل مجموعة مجموعات الحكايات الشعبية الاهلية على وجه التقريب ، حكايات تروى عن زمن كانت فيه الالهة أو الارواح التى تسكن السماء على اتصال مباشر بالناس • وقد انقطعت هذه العلاقة بسبب أخطاء ارتكبها بعض الناس • فشعب « فرنادوبو » يحكى على سبيل المثال ، أنه فى زمن

من الازمنة لم تكن هناك متاعب أو اضطرابات على وجه الارض ، حيث كان هناك سلم شبيه بالسلم الذى يستخدمه الناس فى الحصول على ثمار جوز الهند من أعالى الشجر ، الا أنه كان طويلا للغاية ، وعن طريق هذا السلم كانت الالهة تصعد وتهبط لتشارك فى شئون الناس الدنيوية • ثم حدث أن تسلق ولد شقى هذا السلم حتى وصل الى ارتفاع شاهق عندما أبصرته أمه ، فصعدت فى أثره • فلما رأت الالهة ذلك تملكها الخوف من تصورها أن الاولاد والنساء سوف يغزون السماء ، فأسقطت السلم • ومنذ ذلك الوقت ترك الجنس البشرى ليقاسى الحياة وحده » •

ويروى « الترود جانيون » الذين يتحدثون اللغة البارية ويسكنون « سيلييس الوسطى » أنه فى الزمن القديم عندما كان الناس يعيشون جميعا معا فى مكان واحد ، كانت السماء ترتبط بالارض عن طريق زحافة • وذات يوم ظهر شاب وسيم ينتسب الى أصل سماوى يدعى « الشمس » وفقا لقولهم ، وكان يركب جاموسة بيضاء • ووقع بصر هذا الشاب على فتاة تعمل فى حقل فأحبها ، وتزوجها وعاش معها فترة من الزمن • وفى أثناء ذلك أخذ يعلم الناس فلاحة الارض كما أمدهم بقطعان من الجاموس ، ثم حدث ذات يوم أن الطفل الذى ولد « للشمس » من زوجته ، سلك فى البيت سلوكا سيئا ، الامر الذى سبب ازعاجا للاب من قبل الجنس البشرى كله ، فعاد الى السماء عن طريق الزحافة • فلما حاولت الزوجة أن تصعد على الزحافة لتلحق به ، حطم الزحافة فهوت بالمرأة على الارض وتحولت هى والزحافة الى حجر • ومن الممكن رؤية المرأة والزحافة فى شكل تل جيرى يقع غير بعيد من نهر « ويمبى » • وهذا التل عبارة عن حبل ملتف يسمى التل الزحافة • ومرة أخرى نقرأ فى الحكايات الترودجانية أن نباتا بعينه يسمى « الروطان المجدول » كان لناس يتسلقون عليه ليصلوا الى السماء • وهذا النبات عبارة عن نبات متسلق شائك ينمو حول شجرة التين ، وفى كل عام يضيف لفيفة جديدة الى لفائفه • واذا شاء شخص

أن يستخدم هذا النبات فعليـــه أن يضرب نسيجه المتين بهراوته حتى يوقظه من نومه • وعند ذاك يستيقظ النبات من سباته ويهتز ويأخذ بذرة من بذور الفوفل ويسأل الانسان عن مطلبـــه • فاذا طلب منه الشخص متوسلا أن يحمله الى السماء ، أرشده النبات أن يتخذ له مقعدا إما على أشواكه أو طرفه الاعلى ، ومن يحمل معه سبعة أوعية مصنوعة من الخيزران ويملؤها بالماء لكى تحفظ توازنه بثقلها • ثم يأخذ النبات فى الصعود وهو يتمايل يمنة ويسرى ، بينما يصب عليه المسافر بعض الماء فينتعش النبات ويسير فى خط مستقيم نحو السماء • فاذا وصل قبو السماء اندفع من خلال فتحة فى قبة السماء وتشبث بشوكه فى أرض السماء ، وانتظر فى صبر ريثما يقضى المسافر أمره فى السماء ، ويرغب فى العودة الى الارض • وبهذه الوسيلة يصعد بطل الحكاية الى الاجواء العليا ليحقق مأربا ، أليا كان هذا المأرب ، فاما انه يسعى الى استرداد قرط مسروق ، وأما أن يثير الزوابع والعواصف فى قرية سماوية ، أو أن يعيد الحياة لرجل مستعينا بحداد السماء •

ويحكى الباتاكيون سكان سومطرة أنه كان فى سالف الزمان فى وسط الارض ، صخرة تصل قمتها الى عنان السماء • وعن طريق هذه الصخرة كان الناس المفضلون مثل الابطال والكهنة يصـــعدون الى السماء • وقد كانت تنمو فى السماء شجرة تين ضخمة تمتد جزورها حتى تلمس الصخرة • وذات يوم قطع رجل هذه الشجرة بدافع الغيظ ، أو أنه اجتث جذرها ، لان زوجته التى كانت قد هبطت من السماء ، عادت اليها وتركته وحيدا • ويعتقد « البتسيميساراكيون » ســـكان مدغشقر أن أرواح الموتى تصعد الى السماء عن طريق سلم من الفضة • وهذا السلم تستخدمه الارواح السماوية فى تبليغ رسالات السماء الى الأرض •

على أن هناك سلالم حقيقية تختلف عن تلك السلالم المتخيلة ، ينصبها بعض الناس ليسهلوا عملية هبوط الالهة والارواح من السماء

الى الارض • فأهالى « تيمورلاوت » و « بابار » وجزر « ليتى » التى تقع فى الارخيل الهندى يعبدون الشمس كل عام مع بداية موسم الأمطار ، بوصفها الاله الرئيسى الذكر الذى يخصب الارض التى تعد بدورها الهة • ومن أجل هذا العمل الطيب ، يهبط الاله الى شجرة تين مقدسة • ولكى يسهل الناس له عملية الهبوط الى الارض فانهم يضعون أسفل شجرة التين سلما يتكون من سبع درجات ، وقد حفر على حاجزيه شكلين لديكين • ربما كان الغرض منهما أن يعلنا بصياحهما من خلال بوقين ، وصول الاله • وعندما يقدم التوارد جانيون سكان سيليبيس الوسطى التضحية للالهة عند بناء بيت جديد ، فانهم يضعون حزمتين من النباتات فى وضع منتصب ، تزينها سبعة أشرطة من قماش مصنوع من لحاء الشجر ، لتكون بمثابة سلالم يهبط عليها الالهة ليأخذوا أنصبهم من الارز والدخان والتبول والنخيل التى يخصصها الناس لهم •

كما تصور الناس فى الزمن القديم والحديث أن أرواح الموتى تصعد من الأرض الى السماء عن طريق سلم ، بل انهم كانوا يضعون سلالم مصغرة فى القبور لكى يسهلوا للأرواح عملية الصعود الى مكان البركة • ويكثر الحديث عن سلم فى كتابات أهرامات الجيزة ، وهى أقدم الكتابات المدونة فى العالم ، كان الملوك المصريون المتوفون يرتقون عليه الى السماء • بل انه قد عثر على سلالم فى قبور الفراعنة ، وربما كان الغرض منها مساعدة الأرواح عند الخروج من القبور ، وربما كان الغرض منها مساعدتهم على الصعود الى السماء ، كما كان يفعل المارك المتوفون وفقا لاعتقاد الناس • وتحرص قبيلة « ماناجار »وهى قبيلة محاربة فى « نيباول » ، على وضع سلالم فى قبور موتاهم تمكنهم من الوصول الى مساكنهم فى السماء • « فهم يضعون كتلتين من الخشب يبلغ طول كل منها ثلاثة أقدام ، وكل كتلة توضع على جانب من جوانب القبر • أما الكتلة الأولى فهى مقسمة الى تسع درجات مكونة شكل سلم تصعد عليه أرواح الموتى الى السماء • أما كتلة الحجر الثانية

قد وضعت لكي يحفر كل من حضر الجنازة خطا عميقا دليـــلا على حضوره الجنازة • وعندما يخرج خال المتوفى من القبر بعد دفـــن الجثة ، فانه يودع المتوفى الوداع الأخير ويطلب منه أن يصـعد الى السماء عن طريق السلم الذى يقف معدا له » • على أنهم يحرصـون على سد الطريق بالأحراش الشوكية فى حالة اذا لم يشأ أن يكمل رحلته الى السماء وفضل أن يعود الى مأواه المألوف •

٤ ـ الحجـر المقدس :

على الرغم من الجفاف والجذب اللذين يحيطان « ببيت ايل » ، فقد أصبح فى العصور المتأخرة أكثر الأماكن المقدسة شهرة فى عهـد المملكة الشمالية • فهناك أقام « يربعام » عبادة أحد العجلين الذهبيين اللذين صنعهما ليكونا آلهة لبنى اسرائيل ، وهناك شيد معبدا وأنشـا للكاهن منصبا • وفى عصر النبى « عاموس » أصبح المعبد تحت الرعاية الملكية الخاصة كما كان يعد كنيسة ملكية • ومنذ ذلك الحين ازدحـم المكان بالمتعبدين ، وتعددت المعابد ، كمـا روعيت الدقة فى اقامـة الشعائر • وكان الناس يدفعون ضريبة العشر فى هذا المكان فى مقابل صيانة معابده • أما الأماكن المجاورة لهذا المكان فقد ازدحمت بمشاتى الأثرياء ومصـايفهم الكثيرة الأنيقة • وقد كانت يعقوب وحلمه تحكى للمتعبدين فى هذا المكان على سبيل تأكيد قدسيته البالغة فى القـدم ، عندما كان هذا المكان مهجورا بطبيعته ، ثم اكتسب على مر الزمـن مظاهر البهاء والطهر • وطالمـا كان الناس يدفعون ضريبـة العشر للكاهن ، فانهم كانوا يعتقدون أنهم بذلك يوفون بالوعد الذىوعدبه الرب يعقوب فى هذا المكان ، عندما استيقظ فزعا من نومه المضـطرب ونذر بأن يقدم للرب العشر من كل شىء يمنحه آياه • كما ان الاعتقاد ساد فى أن الصخرة المنتصبة أو العمود هى بعينهما الى وضـع عليها يعقوب رأسه المجهد بعد تجواله فى تلك الليلة الخالدة ، وهى بعينها التى نصبها فى صباح اليوم التالى ذكرى لرؤياه • ذلك أن مثل هذه الأحجار المقدسة أو الأعمدة الصخرية كانت تعد فى العادة معابد مقدسـة عند

الكنعانيين والعبريين فى الزمن القديم • وكثيرا منها قد اكتشفه الباحثون الأثريون فى أماكنه الأصلية ، هؤلاء الذين أزاحوا الستار عن هذه « الأماكن العالية » (المعابد) فى العصر الحديث • بل انه يبدو أن النبى « هوشع » كان يرى ضرورة وضع حجر منتصب أو عمود ليكون ملحقا ، لا غنى عنه ، لأى مكان مقدس يخصص لعبادة يهوه • ولم يحكم الاسرائيليون على هذه الآثار الحجرية البسيطة بوصفها بقايا عبادات وثنية ، ودعوا الى هدمها ومنعوا تشييدها ، الا فى عصور متأخرة ، وذلك بدافع تطور جوهر ديانتهم • وقد كانوا يعتقدون فى الأصل ان الرب كان يسكن حقا فى هذه الأحجار ، وكان احساسهم بالرهبة من سكنى الرب لهذه الأحجار هو الذى يخلع عليها قدسيتها ، ومن ثم فقد أعلن يعقوب أن الحجر الذى نصبه فى « بيت أيل » ينبغى أن يكون بيت الرب •

وفكرة أن الحجر يسكنه الرب أو أية قوة روحية أخرى لم تكن غريبة على الاسرائيليين القدماء ، بل كان يشاركهم فيها كثير من شعوب العالم • فقد كان العرب الجاهليون يعبدون الأحجار ، بل أن الحجر الأسود مازال يحتل مكانة أساسية بين شعائرهم المقدسة • وكما هو معروف أن النبى أشعيا أو الكاتب المتأخر الذى كان يسمى باسمه قد اتهم الاسرائيليين الذين كانوا يعبدون الأحجار الملساء المتآكلة بفعل المياه ، تلك التى كانت تقع فى الأخاديد الصخرية الجافة ، ويصبون عليها قربان الخمر ويقدمون لها الهبات — اتهمهم بالوثنية • وقد نقل عن الاغريق أنهم كانوا يعبدون الأحجار الطبيعية بدلا من الصور ، فقد كان هناك فى سوق « فاريا » الذى كان يقع فى « أشايا » ثلاثون حجرا مربعا كل منها سماه الناس باسم اله • ولما كان سكان « ثيسبيآى » فى « بويوتيا » يقدسون الهة الحب فوق كل الآلهة ، فقد كانت المدينة تزدان بالتماثيل التى شكلها المثالان « ليسيبوس » و « براكسيتيلز » من البرونز والمرمر لتمثل اله الحب • ولكن ، الى جانب هذه الأعمال الفنية التى تشهد على روعة الفن الاغريقى ، كان الناس يقدمون الهبات لصنم غريب فى هيئة حجر خشن يمثل الاله •

وكذلك كان « الاينانيون » سكان « ثيسالى » يعبدون حجرا ويقدمون له الضحايا ويغطونه بشحم الضحية •

واذا كانت الأحجار الطبيعية تقدس فى جميع أنحاء العالم ، فانها لم تكن تقدس بشكل منتظم فى أى مكان من أنحاء العالم ، مثلما كانت تقدس فى « ميلانيزيا » • ففى جزر « بانك » وجزر «الهبريد الجديدة» الشمالية ، كانت الأرواح التى يقدم لها الطعام ترتبط فى أغلب الأحيان بأحجار تقدم عندها الهبات • وبعض هذه الأحجار كانت تتصل بعبادة بعض الأرواح القديمة ، كما أن الشخص بعينه الذى يمتلك لحسن حظه هذه الأحجار قد ورث طريقة استرضاء هذه الأرواح أبا عن جد • « على أنه اذا عثر شخص على حجر استرعى نظره لغرابتــه ، أو اذا عثر على أى شىء غريب آخر ، كان يكون أخطبوطا فى جحره أو سمك القرش أو حية أو سمكة الأنقليس ، تلك الحيوانات الغريبة لديــه ، فانه ينثر النقود على الحجر أو عند المكــــان الذى يجد فيه هــــذه الحيوانات ثم يعود الى بيته وينام • وعند ذاك يرى فى منامه كــأن شخصا يأخذ بيده ويطلعه على منحة الخنازير أو النقود التى تقدم له وذلك لارتباطه بالشىء الذى عثر عليه • وهذا الشىء يسمى فى جــزر « بانك » « تانو ــ أولولو » أى مكان التضحية • أمــا الشىء الــذى ينتظر الشخص أن يحصل عليه من وراء ذلك ، فهو النقود والخنازير • فاذا علم جيران هذا الشخص أنه قد حصل على هذه الهبة ، ــأن ثروته قد تزايدت ، فانهم يأتون اليه ليستعلموا منه عن الشعيرة التى توسل بها الى الروح الذى تعرف عليه • ولكنه لايفشى هذه المعلومات الا الى ابنه أو ابن أخيه • فاذا مرض شخص ، فانه يقدم لشخص آخر يعرف بأنه يمتلك حجرا ذا قوة خارقة ، ويعتقد أن الروح الذى يسكن هــذا الحجر قد أساء اليه المريض ــ مبلغا من المال وقطعة من جذر نبــات الفلفل (جيا) الذى يستخدم فى صنع مسكر من المسكرات • ويقـــال عندئذ ان الرجل يقدم الضحية (أولولو) لصاحب الحجر • ثم يأخــذ صاحب الحجر هذه الاشياء ويحملها الى المكان المقدس وينثرها هنـــا

ويتوسل للحجر وهو يقول : « دع هذا الشخص يشفى « • فاذا شفى هذا الرجل فانه يقدم ضريبة شفائه • فاذا رغب شخص فى اكتساب منفعة من الحجر ، أو أى شىء آخر له قوة سحرية ويعرف لدىالآخرين بمقدرته على زيادة ثروة المال أو صـــاحب الحجر أو الشىء المقدس يصطحب الشخص الى المكان المقدس ، حيث يوجد فيما يبدو عدد من الأحجار ، كل منها يحقق غرضـــا من الاغراض • وعند ذاك يقـــدم الشخص قدرا من النقود قد تبلغ المائة ويسلكها فى خيط يبلغ طولـــه بضع بوصات • ثم يقدم اليه صـــاحب الحجر الرئيسى حجرا مـــن الأحجار ويقول له : « هذا نبات اليام » • فيدفع الرجل اثر ذلـــك نقودا • ثم يقدم له حجرا آخر ويقول : هذا خنزير برى » ، ويقول له عن حجر ثالث : « وهذا خنزير ذو أنياب » ، والرجل فى كل حالة يضع نقودا • والسبب فى هذا هو أن الروح « فوى » الذى يتصل بالحجر يحب النقود التى يسمح ببقائها فوقه أو الى جانبه • فاذا أدت الضحية غرضها ، فان الشخص المستفيد من ذلك يدفع لصـــاحب الأحجـــار والأرواح ثمن ذلك » •

من هذه الرواية المفيدة نعلم أن المكان المقدس فى هذا المكان قـــد ينشأ اثر رؤية شخص لحجر ذى شكل غريب يسترعى نظره • فاذا نام بجواره رأى رؤيا توحى له بأن هذا الحجر يسكن فيه روح قوى يعينه على قضاء حاجاته ، ومن ثم فانه وأبناءه من بعده يقومون بتقديـــم الهبات لهذا الحجر استرضاء له • واذا رأينا كيف أن مثل هذا المكان يظل يجذب المتعبدين اليه كلما ذاعت شـــهرته ، وبذلك تزداد موارده المالية من خلال الهبات التى يقدمها الشاكرون لصنيعه من ناحية ، وما يقدمه له الطامعون فى زيادة ثروتهم من ناحية أخرى • أفلا تعد المعابد الميلاليزية مطابقة فى هذه الحالة لما يروى عن « بيت ايل » ؟ اننـــا اذا استخدمنا طريقة أكثر قدما فى تفسير حكاية هذا المكان ، فربما رأينا فيها تزييفا كبيرا لروابط دينية أصلية •

وقد كان للاله « توريا » فى جزر « ساموان » ضريح فى شـــكل

حجر أملس يقع داخل غابة مقدسة • وقد كان الكاهن يحرص على أن ينتزع الأعشاب من حول الحجر وأن يغطيه بفروع الشجر لكى يستدفىء بها الاله • وعندما كان المتعبدون يقومون بواجب الصلاة فى ظروف الحرب أو المجاعة أو الوباء ، فان فروع الشجر كانت تجدد بعناية • ولم يكن أحد يجرؤ على أن يمس الحجر والا شع منه تأثير سام مميت يصيب من يقترب منه • وقد كان فى قرية ساموانية أخرى حجران مستطيلان أملسان موضوعان على قارعة الطريق ، وكان الناس يعتقدون أن هذين الحجرين هما والد الاله « سانتو » ، الاله الذى يتحكم فى المطر • فعندما كان الزعماء وعامة الناس يتأهبون للخروج لممارسة رياضة صيد الحمام لمدة أسابيع ، فانهم كانوا يضعون السمك المشوى على الحجرين ويتوسلون للاله أن يمنحهم جوا معتدلا خاليا من الأمطار • فاذا رفض أحدهم أن يقدم العطاء للاله ، فان رفقاءه يغضبون منه • فاذا حدث بعد ذلك أن سقط المطر فى أثناء رحلتهم ، فانهم ينسبون اللوم له ويعاقبونه لأنه أغضب الاله المتحكم فى الجو وبذلك أفسد عليهم رحلتهم الموسمية • واذا كان الناس فى طريقهم للبحث عن نبات اليام البرى فى أوقات القحط ، فانهم يقدمون ثمرتين منه للحجرين شكرا للاله على فضله ، معتقدين بذلك ان الاله يجعل هذا النبات ينمو ، وأنه يهديهم الى أفضل الطرق التى يعثروا فيها على الدرنات الصالحة للأكل • كما اعتاد الناس عندما يمرون بهذين الحجرين وهم يحملون سلالا ممتلئة بالطعام ، ان يرموا قدرا من هذا الطعام للحجرين • فاذا أكلت الكلاب أو الفئران هذه الأطعمة فى أثناء الليل ، فانهم يعتقدون ان الاله قد تجسد لوقت محدد فى هيئة هذه الحيوانات لكى يأكل الطعام المقدم له •

ويهتم أهالى جزيرة تيمور ، احدى جزر الأرخبيل الهندى ، اهتماما كبيرا بأرواح الأرض التى تسكن الصخور والأحجار التى تلفت النظر بشكلها الغريب • على ان مثل هذه الصخور والأحجار قد لا تكون مسكنا للأرواح • ولهذا فانه اذا عثر شخص على أحد الأحجار

أو الصخور فان الذى يقطع باحتواء هذا الحجر على الأرواح ، هو أن يرى الشخص رؤيا بجانبه • فاذا ظهر له الروح فى الرؤيا وطلب منه أن يقدم له انسانا ضحية أو حيوانا أو نبات التنبول ، فانه ينقل هذا الحجر ويضعه بالقرب من بيته • ومثل هذه الأحجـــار تقدسها أسرات بأكملها أو قرى ، وأحيانا أحياء بأكملها • والروح الذى يسكن الحجر يحرص على رخاء الناس ، ويقدم له فى مقابل هـــذا الأرز ونبـــات التنبول ، وأحيانا الدجاج والخنازير والجاموس • وفى كثيـــر مـــن الأحيان تغرس الى جانب الحجر عصى مدببة تعلق عليها جماجم بعض الأعداء المقتلى •

وفى « بوسوجو » وهو حى فى افريقيا الوســـطى يقـــع الى الشمال من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، يعتقد الأهالى أن « كل حجر كبير أو قطعة من الصخر يسكنها روح يمارس نشاطه فى القرية اما خيرا أو شرا • فكثير من الأمراض وبصفة خاصـــة الأوبئة ، تعزى الى الشر الذى تضمره أرواح الصخور • فاذا انتشر مرض أو وباء ، فان الروح يتملك شخصا من هذا المكان رجلا كان أو امرأة • وعند ذاك يتســـلق هذا الشخص الصخرة وهو واقع تحت تأثيرها ويصـــيح بالناس ، فيجتمع الزعيم والأطباء بالناس ، ويقدمون نعجة أو دجاجة ضـــحية للروح ، ثم يتلو عليهم الشخص الطريقة التى يتمكنوا بها من ايقاف المرض • فاذا أفصح الروح عن رغبته للناس على هذا النحو ، فانـــه يترك الشخص ويسكن الصخرة مرة أخرى • وعند ذاك يعود الوسيط الى بيته ليمارس عمله العادى حيث يكف الروح عن استخدامه وسيطا مرة أخرى » • ومعنى هذا أن هناك فى « بوســـوجو » كثيرا مـــن الصخور والأحجار المقدسة التى تعد آلهة محلية • والى هذه الصخور والأحجار يذهب الناس فى أحوال وظروف مختلفة يلتمسون العون من الآلهة • ويقدم « الميكرينيون » سكان الســـودان الفرنسى جنـــوب النيجر ، الضحية للصخور والأحجار • ففى « سابو » يملك زعيـــم القرية حجرا كبيرا يضعه عند باب بيته • كما يقدم الشخص الذى لم يستطع أن يحصل على زوجة ، أو لم يمنح أولادا من زوجته أن يقدم

دجاجة ضحية الى الصخرة ، آملا أن يمده الحجر بالزوجة أو الأولاد • ويقوم هذا الشخص بتسليم الطير الى الزعيم الذى يقوم بذبحه وأكل لحمه • فاذا تحققت رغبة الرجل ، فانه يقوم بذبح دجاجة عند الحجر شكرا له على فضله •

وقد كان مكان النبوءة الكبير عند الهنود الماندبين حجرا مساميا كبيرا يبلغ محيطه عشرين قدما • وكان هؤلاء البدائيون السذج يثقون ثقة عمياء فى أعمال هذه الصخرة المعجزة ، ففى كل ربيع وكذلك فى بعض شهور الصيف ، تقف وفود عند هذه الصخرة ويدخنون عندها فى وقار بالغ وهم يتبادلون الغليون فيما بينهم ثم يسلمونه الى الصخرة • وبعد أن يقوم الناس بهذه الشعائر فانهم يأوون الى غابة قريبة ويبيتون الليلة هناك ، تاركين الصخرة تتدبر الموقف وحدها • وفى صباح اليوم التالى تظهر نتيجة هذا التدبر فى شكل علامات محددة بيضاء ترتسم على الصخرة لا يصعب على بعض رجال الوفد أن يفكروا رموزها ، حيث انهم هم أنفسهم قد قاموا بنقشها على الصخر فى الظلام ، بينما كان رفقاؤهم يغطون فى نوم عميق • وقد روى عن الهنود الداكوتيين أن الرجل عندهم « يلتقط حجرا مستديرا أيا كان نوعه ويطليه ويسير به بعيدا عن مسكنه ببضعة خطوات ، ثم يقوم بتنظيف هذا المكان فى محيط يبلغ قدما أو قدمين • وفى وسط هذا المكان يضع الحجر أو الآله كما يمكن أن يسميه ، ويقدم له بعض الدخان وبعض الريش ويتضرع للحجر كى يجنبه بعض الأخطار التى قد حلم بها أو تصورها •

وقد كان سكان اسكتلندا يعتقدون فى وجود جنية بعينها يطلقون عليها اسم « جرووااجاخ » • وهى فى نظر البعض ذكر ، وفى نظر البعض الآخر أنثى • ووظيفة هذه الجنية هى رعاية قطعان الماشية وابعادها عن الصخور • وهى تسكن الحقول التى ترعى فيها هذه القطعان ، كما تتردد على حظيرة كل سيد • وعلى هذا السيد أن يقدم

لها اللبن كل مساء فى تجويف صخرة معينة يحتفظ بها فى الحظيرة تسمى صخرة « جرووا جاخ » • فاذا لم يفعل السيد هذا ، فإن أبقاره تمتنع عن ادرار اللبن ، كما أن القشدة لا تعلو سطح اللبن فى الاناء • ويقول البعض ان اللبن لا يسكب للجنية فى تجويف الصخرة الا عندما يرحل الناس وقطعانهم إلى المرعى الصيفى أو يعودون منه ، أو عند ما يمر شخص فى الحظيرة وهو حامل وعاء به لبن • ولاتزال توجد حتى اليوم فى « هولم » ، « ايست سايد » ، و « سكورى بريك » التى تقع بالقرب من «بورترى » فى « يكى » تلك الأحجار التى كان يصب فيها قربان اللبن « لجرووا جاخ » •على أنه من المحتمل أن هذه الأحجار كانت تعد أوعية تلعق منها الجنية اللبن ، أكثر مما كانت تعد مساكن لها • ويتصور الاسكتلنديون هذه الجنية فى العموم فى شكل رجل وسيم أو امرأة وسيمة يتدلى شعرها الذهبى على كتفيها • وقد اعتاد الزارعون فى بعض الأحياء الجبلية فى النرويج حتى القرن الثامن عشر أن يحتفظوا بأحجار دائرية يغسلونها مساء كل خميس ويطلونها أمام النار بالزبد أو بأية مادة دهنية أخرى ، ثم توضع على القش النضر فى مكان الشرف• وفضلا عن ذلك فان هذه الأحجار تغمس فى الجعة فى فصول معينة من السنة ، حيث انها على هذا النحو بناء على تصور هؤلاء الناس ، تجلب الحظ والطمأنينة للناس •

وتذكرنا عادة طلاء الأحجار بالزبد عند النرويجيين بما صنعه يعقوب عندما صب الزيت على الحجر الذى نصبه إحياء لذكرى الرؤيا التى رآها فى « بيت ايل» •وتعد هذه الأسطورة أصدق دليل على تقديس الحجر ، ومن المحتمل أنها تشير الى عادة قديمة هى عادة طلاء الحجر الذى يوضع فى المكان المقدس بالزيت • ومن المؤكد أن عادة طلاء الأحجار المقدسة بالزيت تنتشر على نطاق واسع فى جميع أنحاء العالم • فقد كان هناك فى دلفى بالقرب من قبر « نيوبتوليموس » حجر صغير كان يصب عليه الزيت كل يوم ، كما كان ينشر عليه الصوف غير المغزول فى كل احتفال • ووفقا لما رواه « ثيوفراستوس » ، أنه كان من سمات

الرجل المتطير ، أنه اذا رأى أحجارا ناعمة عند مفترق الطريق ، فانــه يصب عليها الزيت من قارورة يحملها معه ، ثم يسجد أمامها ويصلى لها قبل أن يستأنف سـيره • كما يحـكى « لوسيان » عن رجــل يدعى « روتيليانوس » ، أنه كان كلما أبصر حجرا مطليا بالزيت ، أو له ننوء فى قمته فانه كان يسجد أمام الاله الأصم ثم يقف أمامه مصليا لبعض الوقت • وفى مكان آخر تحدث هذا الكاتب الشاك نفسه فى سخرية عن تلك الأحجار المطلية بالزيت وتلك التى تكللها أكاليل الزهر التى كـان يعتقد فى أنها أماكن للنبؤة • أما الكاتب المسيحى « أرنوبيوس » فيقول فى معرض حديثه عن عبادة الأوثان فى أيامه بطريقة عميـــاء : « اننى تعودت كلما أبصرت حجرا مطليا بالزيت أن أعبده كما لو كانت فيـــه قوة تسكنه ، ثم أطريه وأتحدث اليه وألتمس الخير من تلك الكتلــة الصخرية الصماء » •

وتعبد قبيلة « واراتى » ، وهى قبيلة تسكن أحراش « كونكــان الشمالية » فى ولاية « بومباى » ، سيد النمور « واجهيــا » الـــذى يتصورونة فى شكل حجر غير منتظم مطلى بالرصاص الأحمر والزبــد النقى • وهم يقدمون له الفراخ الصغيرة والنعاج ، كما يكسرون عــلى رأسه ثمار جوز الهند ويصبون عليه الزيت • وفى مقابل هذه الهبات فانه يقيهم أخطار النمور ويمنحهم محصولا وافرا ، ويحفظهم من الأمراض • وفى العموم فان الجهلة والمتطيرون فى ولاية بومباى بصــفة عامة وفى أحياء « كونكان » بصفة خاصة يعبدون الأحجار الفتيشية ، حتى تبعد عنهم الشر وتشفى مرضاهم • ففى كل قرية توجد هذه الأحجار وكل حجر يسميه سكان القرية باسم اله من الآلة أو روح من الأرواح ، تلك التى يقدسونها فى ورع لاعتقادهم أنها تتحكم فى الشياطين والأشباح • فاذا انتشر وباء فى قرية من القرى فان الناس يقدمون لها من الأطعمــة لحم الدجاج والنعاج وثمار جوز الهند • وأحد هذه الأحجار المقدسة ، على سبيل المثال ، يوجد فى « بونا » ، وهو ملون بلون أحمر ومطلـــى بالزيت • وعند « التوداويين » الذين يسكنون تلال « نيلجهيرى » فى

جنوب الهند ، تهاجر قطعان البقر من مكان لآخر بين التلال فى فصول معينة من السنة • وقبل أن تحدث هذه الهجرة فإن الأهالى يصبون اللبن على الأحجار المقدسة التى توجد فى أماكن حلب اللبن ، كما أنهم يطلونها بالزبد • فهناك أربعة من هذه الأحجار على سبيل المثال فى « مودر » وهى ملساء ذات شكل مستدير ، ومن المحتمل أنها أصبحت على هذا النحو تتطلب اقامة الشعائر عليها بصفة مستمرة •

ويحتفظ رب كل أسرة فى جزر « كاى » التى تقع فى جنوب غرب « غينيا الجديدة » بحجر أسود عند رأس مضجعه • فاذا خرج فى حرب أو فى رحلة أو فى مهمة من المهمات فانه يدهن الحجر بالزيت حتى يكون النجاح حليفة • أما فيما يختص بقبيلة « بتسيليو » ، وهى قبيلة تسكن وسط مدغشقر ، فقد قيل « ان هناك أحجارا كبيرة فى جهات كثيرة من البلد تلفت نظر كل سائح عندما يقع بصره عليها ، وقد كساها الشحم ، أو سكب فوقها الزيت أو الدهن على أقل تقدير • ومن ثم فقد تصور هؤلاء المسافرون الغرباء أن هذه الأحجار تمثل آلهة قبيلة « بتسيليو » • ولست أعتقد أنه يمكن القول بأن هذه الأحجار تقدس أو تعامل معاملة الآلهة • فمما لا شك فيه أنها ترتبط بمعتقدات تطيرية • وفى ضوء هذه المعتقدات تنقسم الأحجار الى نوعين : أحجار تسمى « فاتوبيتروكا » ، وهى تلك التى يزورها النساء اللاتى لم يرزقن بأطفال ، وهؤلاء يحملن معهن بعض الدهن أو الزيت ليطلين به الحجر وهن يناجينه ويعدنه بأنهن سيعدن مرة أخرى لطلائه بمزيد من الزيت اذا رزقن بأولاد •

كما يقوم التجار كذلك بزيارة هذه الأحجار ويعدونها بأنهم سيعودون لطلائها مرة أخرى ، أو ليدفنوا عند قاعدتها قطعة من الفضة اذا لم تتعثر تجارتهم فى بيعها ، واذا ما بيعت بسعر مربح • وهذه الأحجار تكون فى بعض الأحيان مجرد أحجار طبيعية ، ولكنها فى أحيان أخرى ، وان كان هذا نادرا ، تمثل ذكرى قديمة للأموات » •

وهناك فى مكان بعينه يقع فى ممر جبلى يصعب على قطعان الماشـــية اجتيازه ، يقف كل رجل من قبيلة « أكامبا » التى تسكن فى شرق أفريقيا البريطانى ، أمام صخرة بعينها ويطلوها بالزبد أو الدهن •

ولعله من المعقول فى ضوء هذه الموازنات أن نفترض أنه كان يوجد فى بيت ايل حجر مقدس تعود المتعبدون منذ زمن بالغ فى القدم أن يصبوا فوقه الزيت ، لأنهم كانوا يعتقدون بحق أنه بيت الرب (بيت ايل) ، أى أنه كان مأوى لروح مقدس • ويعزى هذا الاعتقاد وتلك العادة الى الوحى الذى ظهر ليعقوب فى هذا المكان قبل أن يتكاثر نسله ويستوطن هذه الأرض بزمن طويل • على أننا لا نستطيع أن نحدد ما اذا كـانت قصة يعقوب تعد رواية متوارثة لحادثة حقيقية ، أم أنها وضعت لتفسير قدسية هذا المكان الذى كان يرتبط بهذه العادة من قبل • فمن المحتمل أنه كان بأرض كنعان كثير من هذه الأحجار المقدسة أو بيوت الأرباب ، وكان ينظر اليها جميعا على أنها مساكن لأرواح قوية ، ومن ثم فقد كانت تطلى بالزيت • ومن المؤكد أن عبارة « بيت ايـــل » • أو بيت الآله كانت اسما مألوفا لأحجار مقدسة من نوع معين كان يوجد فى فلسطين • وقد استعار الأغريق هذه العبارة وحوروها الى « بيتيل ـ وس » أو « بيتيل ـ لون » ، وهى تشير الى الأحجار المستديرة الســوداء التى تسكنها أو يتقمصها روح من الأرواح يتحرك فى الهواء وينطق بنبوءات فى صوت كالصفير فى وسع الساحر أن يترجمه • ومثل هذه الأحجـار كانت ترتبط بآلهة مختلفة سماها الأغريق « كرونوس » أو « زيوس » أو ـ « الشمس » الى غير ذلك من أسماء الآلهة • وعلى كل فاننـــا نستخلص من وصف هذه الأحجار أنها لم تكن بالكبيرة بحيث كان يسهل حملها • وقد كان أحدها فيما قيل ، مستديرا استدارة كاملة وكـــان قطره يبلغ شبرا وإن كان هذا الحجم يزداد أو يقل بمعجزة ، كما كان لونه يتغير من الأبيض الى الأرجوانى • فاذا نقشت عليه الحروف فانها تبرز فى هذا اللون الأرجوانى • ومن المحتمل من ناحية أخرى أن الحجر

المقدس الذى ينسب الى يعقوب فى « بيت ايل » كان من هذه الأحجار الصلبة المنتصبة ، أو أحدى الأعمدة الخشنة التى كان العبريون يسمونها « ماسيبوث » ، وهى تلك الأحجار التى كانت ملحقة ، كما رأينـــا ، بمعابد الكنعانيين والإسرائيليين المبكرة • وقد اكتشف فى فلسطين فى العصر الحديث نماذج من هذه الأحجار فى حالة جيدة ، ونخص بالذكر منها ما عثر عليه فى معابد جيزر وتعنك • وفى بعض هذه الأحجار حفرت الحجور — إما فى قمتها أو فى جانبها • وربما كان الغرض من هذه الحجور هو صب الزيت أو الدم فيها • ويمكننا أن نفترض أن الحجر المقدس الذى قيل إن يعقوب قد نصبه فى بيت إيل وطلاه بالزيت ، كان شبيها بتلك الأحجار • ومن المحتمل كذلك أن نسل يعقوب كان يتقرب الى هذا الحجر على هذا النحو طيلة عصور طويلة من بعده •

الفصل الخامس

يعقـــوب عند البئر

سار يعقوب فى طريقه منشرح الصدر لرؤيته الملائكة فى حلمــه ، ولما وعده به الرب من حمايته وحماية قومه ، حتى وصل الى أرض أبناء المشرق. هناك تقابل مع أقربائه ، وهناك وجد زوجاته ، وهناك أصبح يمتلك قطعان الماشية بعد أن كان فقيرا مشردا لا مأوى له . على أن الكاتب لم يحدد بدقة المكان الذى جرت فيه تلك الأحداث التى تعــد حاسمة فى تاريخ أبنائه من بعده . فقد تعمد المؤرخ ، أو بالأحــرى الفنان الأديب أن يترك الطبيعة الجغرافية لهذا المكان باهتة ، بينمــــا صور معايشة يعقوب لحبه الأول فى منفاه فى ألوان حية للغاية . وقــد سطع هذا المنظر بتأثير قلمه فى عمق ، تماما كما سطع بريشة رفائيل ، ذلك الرسام الذى أكسب الحادث خلودا ثانيا بما أودع من تصويره فى متاحف الفاتيكان . ولم يصور رفائيل فى صورته حياة الحضارة ، وانما صور حياة الرعى ، ذلك أن الحبيبين لم يتقابلا فى زحمـــة الأســــواق وضوضائها ، بل تقابلا فى هدوء المراعى الخضراء ووداعتها ، تلك التى كانت تقع فى تخوم الصحراء ، وقد انتشر فوق رأسيهما قطاع كبير من السماء ، ومن حولهما تستلقى قطعان الأغنام ، وهما ينتظران فى صبر حتى يحين دورها فى الورود . أما كاتب القصة من ناحية أخرى ، فقد حدد الساعة التى تقابل فيها الحبيبان ، ذلك لأنه ذكر أن الشــــمس الحارقة لم تكن قد توسطت السماء بعد ، وهو يدعنا نتنسم نسيم صباح يوم من أيام الصيف قبل أن تشع الحرارة القائظة فى ظهيــرة بــــلاد الجنوب . وهل يمكن أن يتقابل عاشقان شابان فى مكان وزمان أنسب

من هذا الزمان وذاك المكان ؟ • لقد تحولت طبيعة يعقوب الجشـــعة بسحر هذا الوقت وذاك المكان الى شيء أشبه بالرقة ، فنسى فى الحال حسابات المكسب المكبوح ورضخ لانفعالات الحب ، بل انفعال الفارس العاشق ، فلقد هرول الى البئر عند رؤية الفتاة الجميلة قادمة مـــع قطيعها ، وأزاح الصخرة التى كانت تسد البئر وسقى لها خرافهـا ، ثم قبل وجه ابنة خاله الساحر وبكى • فهل بكى يعقوب لتذكره الحلم الذى رأى فيه الملائكة فى « بيت ايل » ورأى أن الحلم قـد تحقق فى حلم حبه الشاب ؟ هذا ما لا نستطيع أن نقطع به • وإنما الشيء المؤكد أن المحتال الأنانى قد تحول فيما يبدو لوقت قصير الى محب عاشق • وقد كان هذا الوقت الشاعرى الرومانسى الوحيد فى حياة يعقوب المادية بل الخسيسة •

وقد احتار شارحو سفر التكوين بعض الشيء فى تفسير اجهاش يعقوب بالبكاء عندما قبل ابنة خاله الجميلة راحيل • ومن ثم فقـــد افترضوا أنه فعل ذلك تعبيرا عن سعادته بخاتمة رحلته الســـعيدة • وهم يوضحون هذه الطريقة فى التعبير عن المشاعر السعيدة بأحاسيس الشعوب الشرقية العميقة ، أو بعدم قدرتهم على ضبط مشـــاعرهم • ولكن يبدو أن الشراح قد فشلوا فى ملاحظة أن البكاء عند غير قليل من الشعوب ، يعد طريقة تقليدية لتحية الغرباء أو الأصدقاء بخاصة هؤلاء الذين اجتمع شملهم بهم بعد غيبة طويلة ، وأن هذه التحية على هـــذا النحو هى فى الغالب تحية تقليدية لا تفوق فى العاطفة المصحوبة بهـــا عادة السلام بالأيدى أو عن طريق رفع القبعة ، ومن شـــأن الأمثلة التالية أن توضح رأينا هذا •

فهناك فى العهد القديم نفسه أمثلة أخرى لتحية الأقربـــاء أو الأصدقاء على هذا النحو • فعندما كشف يوسف عن نفسه لأخوته فى مصر ، قبلهم وأجهش فى البكاء بصوت مرتفع الى درجة أن ســـمعه المصريون الذين يسكنون فى الجانب الآخر من البيت • ولكن يبـــدو أن

بكاء يوسف فى هذه المناسبة كان تعبيرا طبيعيا عن مشاعره وليس مجرد عمل تقليدى • فمن المؤكد أنه اندفع فى البكاء متأثرا برؤية أخيه بنيامين لأول مرة بعد غيبة طويلة ، اذ لم يتمالك يوسف نفسه عند رؤيته أحب أخوته اليه الذى كان قد فقده زمنا طويلا ، فترك الحجرة التى كان الناس قد تجمعوا فيها ، واندفع مسرعا الى حجرته وأخذ يبكى وحده حتى استطاع أن يتمالك نفسه ويكف عن البكاء ، ثم غسل عينيه المحمرتين ، ومسح الدموع عن خديه ، وعاد الى أخوته بوجه صارم • ومرة أخرى بكى يوسف عندما تقابل مع أبيه الهرم فى « جاسان » ، فقد مال على رقبة أبيه وأخذ يبكى وقتا طيبا (١) • وفى هذه المرة كذلك كانت دموع يوسف تنبع من قلبه عندما وقع بصره على الرأس الأشيب وقد نكس أمامه ، وعندما تذكر حب أبيه له فى أيام صباه • وعندما تقابل الصديقان العزيزان داود ويوناتان فى ساعة حالكة لآخر مرة ، قبل أحدهما الآخر وبكيا معا فى صوت واحد حتى بالغ داود فى بكائه ، اذ كانا قدشعر بأنهما لن يرى أحدهما الاخر بعد ذلك • ونحن نعتقد هنا كذلك • أن البكاء لم يكن مصطنعا • ومرة أخرى نقرأ فى سفر طوبيا كيف أن طوبيا عندما وفد غريبا على بيت قريبه « رعوئيل » فى « اكباتان » وكشف عن شخصه لضيفه « قفز رعوئيل وقبله وبكى » • وربما كان البكاء فى هذا الموقف كذلك نتيجة المفاجأة السارة أكثر من كونه امتثالا لعادة اجتماعية •

ومهما تكن دوافع البكاء فى هذه الأمثلة عند العبريين فانه من المؤكد أن الإجهاش فى البكاء عند شعوب أخرى فى ظروف اجتماع الناس بعضهم ببعض أو افتراقهم عن بعضهم بعضا ، تلك الشعوب

---

(١) « فأرسل يهوذا أمامه الى يوسف ليرى الطريق أمامه الى جاسان . ثم جاءوا الى أرض جاسان . فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال اسرائيل أبيه الى جاسان . ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زمانا » . (سفر التكوين ، الاصحاح السادس والأربعون ٢٨ ، ٢٩) .

التى كانت تعيش فى مستوى حضارى أدنى من مستوى العبريين ، لم تكن فى كثير أو قليل سوى تقليد شكلى لسلوك فرضه المجتمع المهذب . ومن بين هذه الشعوب التى لا يمكن أن تدعى محافظتها علـــى آداب السلوك ، وهى تعبر فى الوقت نفسه فى عنف عن عاطفتها بالبكاء ، سواء كان ذلك التعبير صادقا أم مصطنعا ، « الماوريون » سكان « نيوزيلنده » . فقد روى عنهم « أن مزاجهم العاطفى يتضح أكثر ما يكون عند رحيل الأصدقاء بعضهم عن بعض أو عند اجتماع شملهم . فاذا خرج صديق فى رحلة قصيرة الى « بورت جاكسون » أو الى « فان ديمانز لاند » ، فانهم يقومون بعرض كبير للتعبير عن مشاعرهم الســطحية . ويبدأ هذا العرض بأن ينظر المودعون الى بعضهم البعض نظرة غامزة ، ثم ينشجون ويصيحون صيحة رقيقة ، ثم تأخذ الدموع تترقرق فى أعينهم ، وتتجهم وجوههم ، ويدلفون الى جانب الشــخص الراحل ويتعلقون برقبته . وعند ذاك يصرخون دفعة واحدة ويمسحون وجهــه وذراعيه بحجر القداحة ، ويصرخون بطريقة لا تحتمل ويظلون يغمــرون هذا الشخص بالدموع والقبلات ويلوثونه بالدم حتى يكاد يختنق ويتوق الى الهرب منهم . وعند عودة الأصدقاء أو عند القيام بزيارتهم لهم على بعد ، فإنهم يقومون بهذه الأفعال نفسها ولكن بغير نظام . ومـــن العسير ألا تنسكب الدموع من عينيك عند رؤية هذا المنظر المحــزن وعند سماع العويل الصاخب والأصوات المتنافرة التى يطلقونها . وفى هذا كله مبالغة فى اظهار العواطف ، ذلك أنه فى وسع هؤلاء أن يظلوا واقفين أو جالسين على بعد من الشخص الذى يتحتم عليهم أن يبكوا على فراقه ، حتى يتهيأون لهذه اللحظة ويتدبرون أمرها ، التى يندفعون فيها نحوه فى شغف ظاهرى ويمسكون بفريستهم ، (فهذا هو أفضل تعبير عن ذلك) ويعملون على انهاك أنفسهم ونفاد صبره . والشىء الذى يستحق التنويه به فى هذه العملية ، هو أنه بالرغم من مقدرتهم على البكاء فى كل المناسبات ، فانهم يكفون عن البكاء كلية عندما يطلب منهم ذلك ، أو عندما يأخذ منهـــم التعب مبلغه . لقد ســـــبق لى أن

استمتعت ذات مرة برؤية هذا المنظر فى قرية « كايكوهى » التى تبعد عن « وايمانى » بحوالى عشرة أميال • فقد كان قد عاد الى هذه القرية ست من الأصدقاء والأقرباء من زيارة « للتاميس » بعد غيبة ستة شهور • وبينما كان الجميع منصرفين الى البكاء التقليدى ، جففت امرأتان دموعهما فجأة اثر اشارة أشارت بها احدهما للأخرى ، وانتهيتا من ابداء عواطفهما ، وقالتا للجمع المحتشد فى سذاجة بالغة : « اننا لم نفرغ من العويل بعد • سنذهب لنضع الطعام فى الفرن ونطهيه ونعد السلال لنضعه فيها ، ثم نعود لنستأنف بكاءنا • فإذا لم نتمكن من العودة بعد حين فسنعود فى المساء لنواصل بكاءنا » • ثم ختمتا عبارتهما المعولة بأن توجهتا للحاضرين وقالتا : « أليس الأمر كذلك ؟ أليس الأمر كذلك ؟ » • وفى أعقاب هذا الحديث معهما حول نفاقهم هذا بخاصة وأنهم يعلمون أنهم لا يكترثون كثيرا ، عدم اكتراثهم بثمن ثمرة البطاطس ، بما اذا كانوا سيرون هؤلاء الذين يبكون من أجلهم • وعند ذاك أجابتا قائلتين : « ها ! إن حب النيوزيلندى كله خارج قلبه ؛ انه فى عينيه وفى فمه » • وكثيرا ما وقع القائد البحار « ب • ديللون » فريسة لهذه المظاهرات العاطفية الصاخبة • وقد أخبرنا كيف أنه كان يجهد نفسه حتى يستطيع أن يتجاوب معهم بطريقة مناسبة لهم ، فقال « إن من عادة النيوزيلانديين أنه اذا اجتمع شمل الأقرباء أو الأصدقاء بعد غيبة طويلة فإنهم يذرفون الدمع ويلصقون أنوفهم بعضها ببعض • وكثيرا ما قمت معهم بهذه الأحتفالات بدافع المجاملة • ولو أننى كنت أهمل أداء هذه الأفعال معهم ، لاتهمت فى صداقتى لهم ، ولنظروا الى نظرة أفضل من نظرتهم للبربرى بقليل ، وذلك لمخالفتى لقواعد آداب النيوزيلنديين • على أن قلبى الجامد لم يكن يستجيب فى كل المناسبات للبكاء ، اذ كان يختلف عن طبيعة قلوبهم • ولكن كان يكفى لاصطناع الحب الحقيقى أن أضع منديلى على عينى لبعض الوقت وأن أعول بطريقتهم • ولم يكن هؤلاء القوم يحاسبون الأوربى الغريب على عدم مشاركتهم هذا الاحتفال ، أما

بالنسبة لى ، فكان يتحتم على آداؤها ، اذ كنت بالنسبة لهم ،«ثونجاتا مورى » أى مواطن نيوزيلندى كما كان يروق لهم أن يسمونى » • على أننا نقرأ مرة أخرى أن « اظهار هذه العواطف كان يميز المقابلات النيوزيلندية ، بينما كانوا يقومون بوداع أحبتهم دون الاستعانة بهذه المجاملات الظاهرية • فاذا تقابل الرجال والنساء بعد غيبة طويلة فإنهم يلصقون أنوفهم بعضها ببعض ويعولون ويذرفون الدمع ، وفى الوقت نفسه يحكون لبعضهم بعضا عن أهم الأحداث التى حدثت لهم منذ غيابهم عن بعضهم البعض • ذلك لأنهم لا يعرفون الحزن الصامت • فاذا حدث لقاء بين أقرباء من الدرجة الأولى بعد غيبة طويلة ، فإنهم يستمرون فى لصق أنوفهم بعضها ببعض وفى العويل مدة نصف ساعة • أما اذا حدث لقاء عرضى بين طرفين فإنهم يلصقون أنوفهم بعضها ببعض ثم ينصرفون على التو • وتسمى هذه التحية عندهم « هونجى » ومعناها « الشم » • ومن شأن هذه التحية ، كما هو الحال فى عادة أكل الملح عند الشرقيين ، أن تمحو العداوة بين الأعداء • ولا تتلاقى الشفاه فى أثناء تأدية هذه التحية ، اذ أنهم كانوا يمتنعون عن تقبيل بعضهم البعض » •

واذا تقابل الأقرباء بين السكان الأصليين فى جزر أندمان « بعد غيبة عدة أسابيع أو شهور ، فإنهم يعبرون عن سعادتهم بهذا اللقاء بأن يجلسوا متقابلين وقد التفت أذرعهم حول أعناق أقربائهم ، ثم يبكون ويعولون بطريقة تجعل الشخص الغريب يتصور أن حادثا مؤسفا قد حدث لهم • والواقع أنه ليس هناك أدنى فرق بين فرحهم بلقاء حبيب وحزنهم على فقد عزيز • وفى العادة تبدأ النساء بالعويل ، ثم تصاحبهن الرجال على التو • ويظل ثلاثة أو أربعة منهم يبكون فى نغمة واحدة ، حتى يكفوا عن البكاء عندما يشعرون بالإرهاق » • وعند شعب « مونجيلى تاهيل » الذى يسكن حى « بيلاسبورى » فى الهند ، « لا تختلف عن ذلك تقاليد استقبال الأقرباء الذين كانون متغيبين فترة طويلة ، فجماعة النساء فى كل حالة يجلسن ويبكين بصوت عال • أما

اذا عاد الابن الى بيت والديه بعد غياب عدة شهور ، فإن أول ما يفعله أن يجلس عند قدمى والديه ويلمسها • ثم يأتى اخوته وهو يجلس على هذا النحو ، وكل يأتى بدوره ويضع يديه على كتفيه ويبكى بصوت عال ، ثم يحكى له فى نغمة معولة حدثا مما حدث فى أثناء غيابه » • ويتطلب آداب السلوك عند « الشاوهانيين » الذين يسكنون الأقاليم الوسطى فى الهند ، أن « تبكى النساء اذا تقابلن مع أقرباء لهن جاءوا لزيارتهن من مكان بعيد • فاذا تقابلت امرأتان فى هذه الحالة ، فإنهما تبكيان معا بعد أن تضع كل منهما رأسها على كتف الأخرى ، ويديها الى جانبها ، وبين أثناء البكاء تغير كل منهما وضع رأسها مرتين أو ثلاثا ، وتصيح بنوع قرابتها لها إن كانت أما لها أو أخا الى غير ذلك • أما اذا توفى فرد فى العائلة ، فإن النساء يصرخن قائلات « آه يا أمى • أو آه يا أختى • أو آه يا أبى •• لماذا لم أمت أنا الأنسان السيىء الحظ بدلا منك ؟ » فاذا بكت امرأة بمصاحبة رجل فإنها تمسك بجانبيه وتضع رأسها على صدره • أما الرجل فيصيح بها بين الحين والآخر قائلا : « لاتبكى كفاك بكاء » • فاذا كانت امرأتان تبكيان معا ، فإنه من آداب السلوك أن تكف كبراهما عن البكاء أولا ، ثم تطلب بدورها من زميلتها أن تفعل ذلك • فاذا لم يكن يعرف أيهما أكبر سنا ، فإنهما تستمران فى البكاء فى بعض الأحيان مدة ساعة من الزمن حتى يثير بكاؤهما مشاعر المتفرجين الأصغر سنا • وهما تستمران على هذا النحــو من البكاء حتى يقدم شخص أكبر منهما سنا ، ويطلب من أحديهما أن تكف عـــن البكـــــاء •

ويبدو أن عادة إذراف الدمع بوصفها علامة على الترحيب ، كانت منتشرة بين القبائل الهندية التى كانت تسكن جنوب أمريكا وشـــمالها على حد سواء • فقد كانت تفرض الآداب الاجتماعية على « التوبيين » الذين يسكنون فى البرازيل بالقرب من « ريو جانيرو » ، أنه عنـــد دخول زائر غريب كوخا يتوقع أن يحتفى به ، فإنه يجلس فى أرجوحة مضيفة ، ويمضى بعض الوقت ساكنا متأملا • ثم تأتى النساء ويجلسن

على الأرض حول الأرجوحة ، ثم يخفين وجوههن بأيديهن وينفجرن فى البكاء ، وهن يرحبن به ويطرينه فى الوقت نفسه • وينتظر من الضيف الغريب بدوره ، وسط هذه المظاهرات الصاخبة ، أن يبكى مشاركة لهن ، فاذا لم يستجب له الدمع الحقيقى ، فإن أقل ما يجب عمله من جانبه ، أن يتنهد من أعماق قلبه ، وأن ينظر قدر الأمكان نظرة ملؤها الاسى • فاذا قام الضيف بهذه الشكليات على الوجه الأكمل وفقا لما تفرضه قواعد آدلب « النوبيين » ، فإن مضيفه الذى ظل حتى هذا الوقت متفرجـا غير مبال وغير مكترث بما راه ، يقترب من ضـيفه ويبادله الحديث • وتتبع قبيلة « لينجوا » فيما بينها ، وهى قبيلة هنديـة تسـكن فى « شاكو » ، « شكلا من أشكال الآداب وذلك عندما يتقابلون مع شخص عزيز لديهم طالت غيبته عنهم • فاذا تقابل هندى مع عزيز لديه غاب عنه فترة من الزمن ، فانهما يذرفان قليلا من الدمع قبل أن ينطق أحدهمـا بكلمة • فاذا تصرفا على غير هذا النحو ، فإن هذا يعد اهانة للضيف أو يعد على الأقل دليلا على أنه غير مرحب به » •

وقد وصف المستكشف الأسبانى « كابيسادى فاكا » فى القـرن السادس عشر عادة مشابهة للعادة السابقة كانت تتبعها قبيلتان هنديتان كانتا سكنان جزيرة نائية ، يبدو أنها كانت تقع محل شاطىء تكساس فقال : « هناك فى هذه الجزيرة يسكن شعبان يتحدثان لغات مختلفة ، أحدهما يسمى « الكابوكويون » والآخر « الهانتيون » • ومن عـادة هذين الشعبين أنهما اذا تعرف شخصان أحدهما على الآخر ، أو اذا تقابلا مع بعضهما البعض بين الحين والآخر ، فانهما يبكيان ما يقرب من نصف ساعة قبل أن يتحدث أحدهما مع الآخر • ثم يهم الشخص المستقبل ويقدم كل ما يمتلك لزائره الذى يتقبل هذه الأشياء ، ثـم يمكث فترة ويأخذها ويرحل • وقد يحدث أن يبتعد أحدهما عن الآخر بمجرد تقديم الهدية دون أن ينطق أحدهما ببنت شفة » • وقد وصف رجل فرنسى كان يدعو « نيكولا بيروه » ، وكان قد عاش بين الهنود عدة سنوات فى نهاية القرن السابع عشر أنه عندما تزور جماعة « اسيو »

قرية من قرى أصدقائهم « الأثاوا » يجهشون فى البكاء وفقا للعادة المتبعة ، أمام كل من يقابلهم من سكان القرية ، تعبيرا عن ابتهاجهم بلقياهم « وقد كان هذا الرجل الفرنسى نفسه هدفا ، أو بالأحرى فريسة لهذه المظاهرات المحزنة • فعندما أرسله حاكم « نيوفرانس » ليتعامل مع القبائل الهندية التى كانت تعيش فيما وراء نهر المسيسبى ، اتخذ لنفسه مسكنا عند شاطىء هذا النهر ، وهناك استقبل رسلا من « الأيويين » وهم جيران « الشيو » وحلفاؤهم ، وكانت قريتهم تقع على مسيرة عدة أيام جهة الغرب • وقد كان هؤلاء يرغبون فى أقامة علاقة طيبة مع المندوب الفرنسى • وقد وصف مؤرخ فرنسى مقابلة هؤلاء الهنود « لبيروه » المسكين ، فقال : أنهم ظلوا يبكون أمامه حتى جرت دموعهم على أجسامهم •• ثم أخذوا يمسحون رأسه ووجهه وملابسه باللعاب والأوساخ الخارجة من أنوفهم وأفواههم حتى تقزز الرجل الفرنسى من هذه القاذورات وكاد يشعر بالمرض • وقد كان هؤلاء الرسل طوال هذا الوقت يولولون ويصرخون • ولم يجد الرجل الفرنسى مفرا من أن يشهر فى وجوههم السكاكين والمخارز • فما أن وقعت أبصارهم عليها حتى كفوا عن هذه الضوضاء • ولما لم يكن مع هذا الوفد مترجم ، فإنهم لم يتمكنوا من الأفصاح عن رغبتهم ، ومن ثم فقد عادوا من حيث أتوا دون أن يحققوا غرضهم • وبعد بضعة أيام جاء الى الرجل أربعة من الهنود كان أحدهم يتكلم بلغة يعرفها الفرنسى • فقال له : إن قريتهم تبعد عن النهر بمقدار سبعة فراسخ ، وأنه جاء يدعوه لزيارتهم ، فقبل الفرنسى الدعوة • وعندما أبصرت النساء الرجال الفرنسيين قادمين ، جرين الى الغابات والجبال وهن يمددن أيديهن نحو الشمس • ولكن عشرين من الزعماء قدموا نحوهم وقدموا « لبيروه » غليون السلام ثم حملوه على جلد بقرة حتى أوصلوه الى كوخ الزعيم • وبعد أن وضعوه داخل الكوخ ، أخذوا يبكون هم وزعيمهم على النحو المألوف لديهم ، كما أخذوا يمسحون

رأسه بلعابهم . وإفرازات أنوفهم . وبعد ذلك جففوا أعينهم وأنوفهم وقدموا له غليون السلام مرة أخرى . ثم يضيف المـــــؤرخ الفرنسى قائلا : « اننى لم أر شعبا بين شعوب العالم يبكى بكاء هذا الشعب . فلا يتم مقابلاتهم إلا بالبكاء ، كما لا يتم فراقهم إلا بالبكاء » .

الفصل السادس

العهــــد ..
(عنـــد الحجـــر المنتصب)
عـــلى النصـــب

بعد أن قام يعقوب بخدمة خاله « لأبان » عدة سنوات ازدادت فى أثنائها ثروته فى الأغنام والماعز بفضل نشاط يعقوب ومهارته ، مـل الأخير هذه الخدمة الطويلة وقررأيه على أن يعود بزوجاته وأولاده وكل ما معه الى أرض آبائه . ويحق لنا أن نفترض أن ما دفع يعقوب لأتخاذ هذا القرار ليس مجرد الحساسه بالحنين لوطنه . حقا لقد كان يعقوب قد مل هذه الحياة ، هذا فضلا على أن نبض شبابه الدافىء ، إن كان قد عرف هذا النبض أصلا ، كان قد كف عن تحريك مزاجـــه الواقعى البارد فى جوهره . ومع ذلك فهو لم يتخذ هذه الخطـــــوة مدفوعا بحنينه الى مرتع صباه وحبه لوطنه ، وإنما المحتمل أكثر مـــن ذلك أنه كان قد أخذ يحسب فى هدوء مكسبه المادى من خدمته لخاله . حقا أنه كان سعيدا بأنه استطاع بفضل اجتهاده ومكره معا فى غضون هذه السنوات أن يحتفظ بثمرة قطعان الماشية فى حظيرته بدلا من أن يحتفظ بها فى حظيرة خاله ، ولكنه كان يرى أنه ما زال قادرا على أن يغنم أكثر من ذلك . ولقد كان قد اعتصر الرجل الكهل كمـــا تعتصر الليمونة ، وكان الوقت قد أصبح مناسبا تماما لأن يستخدم موهبته فى مجال آخر يدر عليه مزيدا من المكسب . ولكنه لما رأى بثاقب فكره أن خاله يمكن أن يعترض على رحيله بالجـــزء الأكبـــر من قطعـــــان الماشية ، فقد قرر فى شىء من التريث محاولة تجنب المشاحنات العائلية ،

بأن يهرب فى أثناء الليل فى ضوء القمر • ولكى يقوم يعقوب بتنفيذ هذه الخطة ، كان يتحتم عليه أن يطلع زوجاته على هذا السر ولكنه يبدو أنه شك فى طريقة استقبالهن لهذا النبأ ، ولهذا فقد فاتحهن فى هذا الموضوع فى شىء من الرفق ، فبدأ حديثه معهن بنغمة متملقة وأخبرهن بتغير سلوك أبيهن معه • ثم حكى لهن بعد ذلك فى روع زائف كيف أن الرب ناصره فحول قطيع أبيهن من عنده اليه • ولكى يخلع على المؤامرة مزيدا من الحبكة ، أخبرهن فى نهاية الأمر ، والوميض يسطع فى عينيه ، فيما يبدو ، كيف أنه رأى رؤيا فى الليلة الماضية ظهر له فيها ملاك الرب وطلب منه أن يرحل الى وطنه • ولم يجد يعقوب ضرورة بعد ذلك لأن يحوم حول هذا الموضوع أكثر من ذلك ، لأن زوجاته أبدين الأستعداد للموافقة على خطته ، وأعلن فى صراحة يمازجها الريب — بأنهن يضعن أنفسهن فى خدمته • بل إنهن رفعن أصواتهن بالشكوى اليه من أن أباهن المبذر قد ضيع الثروة التى كان قد قبضها ثمنا لزواجهن ، ولم يعد لديه ما يمكن أن يعطيه أو يورثه لهن • ومن ثم فقد أبدين الاستعداد للتنكر لأبيهن ومرافقة زوجهن الى البلاد الغربية النائية التى تقع فيما وراء النهر الكبير • ولكنهن قبل أن يجهزن أمتعتهن استعدادا للرحيل تذكرت « راحيل » الذكية ، لحسن الحظ ، أن أباها على الرغم من أنه لم يعد يملك أى شىء ، الا أنه مازال يحتفظ بالآلهة المنزلية التى ربما استاءت لهذا التدبير المدبر ضد صاحبها ، فتحاول أن تدرأ عنه ما يلحق به أذى وأن تعاقبهم جزاء إثمهم • ومن ثم فقد احتالت لسرقة هذه الآلهة وأخفتها بين أمتعتها دون أن تخبر زوجها بذلك ، اذ كانت تخشى أنه ربما وقع تحت وطأة وخز ضميره ، فيرد الآلهة المسروقة الى صاحبها •

وعلى هذا النحو كانت الأسرة على استعداد للرحيل ، وانتظرت اللحظة الحاسمة التى تتمكن فيها من الرحيل خلسة دون أن يقع عليها بصر أحد • وقد حانت هذه اللحظة عندما رحل « لابان » ليقضى بضعة أيام فى عيد جز الأغنام • عند ذاك همت القافلة بالرحيل ، أما النساء

والأطفال فقد ركبوا الإبل وقد سارت من قدامهم ومن خلفهم قطعان الماشية التى ملأت الجو بثغائها • وقد كان سير القافلة بطيئا بالضرورة ، اذ لم يكن يتسنى للأغنام والماعز أن تسير سيرا حثيثا ، ولكنها كانت قد استمرت فى سيرها طيلة يومين ، عندما علم « لابان » فى اليوم الثالث برحيلهم ، فخف مع أخويه ليلحق بهم • وبعد مسيرة شاقة دامت سبعة أيام تقابلوا مع طابور طويل من الهاربين يسير سيرا متثاقلا بين غابات جبل جلعاد الجميلة • وربما كان الهاربون قد وصلوا الى مكان فسيح فى الغابة ، حيث أخذت الأغنام ترعى فى المروج الخضراء ، وربما كانوا قد وصلوا الى وهدة عميقة حيث كانت الإبل ترعى فى أجمة قصب ، أو حيث كان قطيع المواشى يشق طريقه فى مياهها • وعلى كل فقد نشب الشجار بين الطرفين عند ذاك • وبدأ لابان حملته على يعقوب بتأنيبه بصوت جهورى على سرقة آلهته وسلب بناته كما لو كن أسرى حرب • ولم يكن يعقوب يعلم شيئا عن سرقة الآلهة ، فرد عن نفسه هذه التهمة فى حرارة بالغة ، وقال له أنه ليس بلص أو مدبر لسرقة أشياء تعد ملكا له شخصيا وعليه أن يقوم بتفتيش أمتعتهم ، فإن هو عثر على الآلهة فى أمتعة أحدهم فله الحق عندئذ أن يقتل السارق • وعند ذاك قام « لابان » بتفتيش الخيام خيمة بعد الأخرى فى دقة ، ولكنه لم يجد أثرا للآلهة ، لأن راحيل الذكية كانت قد أخفت التماثيل فى محفة الجمل وجلست فوقها وهى تضحك فى أكمامها ، بينما كان والدها ينقب بدقة فى خيمتها •

وقد كان فشل لابان فى العثور على الآلهة المسروقة دافعا لأن يسترد يعقوب ثقته فى نفسه تماما • إذ من المحتمل أنه كان قد شعر فى بداية الأمر بالخزى فى مواجهة خاله الذى خدعه وتركه فى موقف حرج للغاية • أما الآن فقد بدأ يشعر أنه كسب موقفا أخلاقيا ساميا ، ومن ثم فقد انقلب على خصمه الخجل ، فى حذق بالغ وانهال عليه يكشف له حقارته الأخلاقية • فرد عن نفسه التهمة التى دبرها له بسرقة الآلهة ، و صرح له بأن زوجاته وقطعانه حق له بعد أن قام بخدمته

متفانيا طيلة سنين عديدة • ثم أسهب فى نغمة مثيرة للشفقة ، فى شرح الصعاب ألتى تحملها فى خدمة قطعان ماشيته ، وروح الشرف التى كان يباشر بها عمله • ثم ختم خطبته الملتهبة بتهديد خاله بانه لو لم يكن يتلقى الرب المعين له ، لجعل خاله خادما مخلصا له ، وجعله يعيش بلا سترة على ظهره أو مليم فى جيبه • ولم يكن للخال أية وسيلة للمعارضة أمام هذه الفصاحة البالغة ، بل أنه بدأ يشعر بأنه لم يبلغ باع زوج بناته فى الفصاحة والقدرة على الخداع • ولا بد للانسان ، لكى يقف منه موقف المناوىء ، أن يكون متزودا بأسلحته • ومن ثم فقد اكتفى « لابان » بأن رد عليه فى حزن بأن بناته وأطفالهن وقطعان ما شيته قد أصبحوا ملكا له ، أى أن كل ما غنمه يعقوب انما كان ملكا لخاله « لابان » • وقد كانت هذه الإجابة أكبر من محاولة الرد بالحجج اللبقة ، بل انها قد تجاوزت حدود إمكان الدفاع عن النفس الرهين بتلك الظروف • ولكن كلا من الطرفين لم يكن مستعدا للدخول فى معركة • ومن ثم فقد اتفقا على أن يرحلا فى سلام من قبل أن يصلا الى حد إشهار السيوف فى وجه بعضهما البعض ، فاستأنف يعقوب رحلته بغنيمته الكبيرة وعاد لابان خاوى الوفاض الى أهله • ولكنهما قبل أن يفترقا ، نصبا حجرا كبيرا على نحو ما ينصب العمود ، وجمعا فوقه ركاما من الأحجار الأقل حجما ، وأكلا الخبز معا وهما جالسان أو واقفان فوق هذا الركام • ومن شأن هذا الركام أن يشير الى الحدود التى لاينبغى أن يتعداها كل منهما بهدف ايذاء الطرف الآخر • وفضلا على ذلك فإن هذا الركام كان بمثابة شاهد عليهما عندما يرحل كل منهما فى طريقه • ولهذا فإن العبريين والسريانيين يطلقون عليه اسم « نصب الشهادة » • وفى نهاية الاتفاق قام الطرفان بذبح الضحية وتناول وجبة عادية ، ثم عاد كل الى خيمته وقد انتهيا الى الصلح ، وإن كان صلحا زائفا • وقد كان يعقوب بدون شك سعيدا بكفاءته السياسية • أما « لابان » فلم يكن راضيا بطبيعة الحال بما حدث • وإنما ظل ساكنا متظاهرا بالرضاء على كل حال • وفى الصباح

الباكر ، استيقظ « لابان » وقبل أحفاده وبناته وتمنى لهم التوفيق وعاد الى أدراجه • أما يعقوب فقد استأنف رحلته الى بلاده •

إن السياق العام للحكاية السابقة ينحو الى أن يبين أن النصب الذى أقامه لابان ويعقوب فى المكان الذى افترقا عنده ، لم يكن نصبا يشهد بصداقتها ومحبتهما وإنما كان شهادة على شكهما وعدم ثقتهما فى بعضهما البعض • ومن ثم فقد استخدما ركام الأحجار ليكون ضمانا ماديا على رعايتهما لمعاهدة السلام التى عقداها فيما بينهما • أى أن هذا النصب كان بمثابة إجراء أو وثيقة فى هيئة حجر وضع عليه الطرفان المتعاهدان أيديهما ، حتى اذا نقض أحدهما العهد ، عوقب الخائن • فالنصب الحجرى لم يكن ينظر اليه بوصفه مجرد كومة من الأحجار ، بل بوصفه شخصا أو روحا قويا أو إلها ينظر بعين اليقظة الى الطرفين المتعاهدين ويذكرهما بعدهما • ويتضح هذا من خلال الكلمات التى وجهها « لابان » الى يعقوب عند إتمام شعائر العهد فيما بينهما ، فلقد قال له : « ليراقب الرب بينى وبينك حينما يتوارى بعضنا عن بعض ، أنك لا تذل بناتى ولا تأخذ نساء على بناتى • ليس انسان معنا ، أنظر ، الله شاهد بينى وبينك (١) » • ومن ثم فقد سمى هذا الركام باسم « برج المراقبة » (المصفاة بالعبرية) ، كما سمى « صخرة الشهادة » ، لأنه كان يقوم مقام الرقيب والشاهد معا •

وينتمى الحجر المنتصب وركام الأحجار اللذان حكت عنهما هذه الأسطورة المثيرة بدون شك ، إلى طبقة الآثار الحجرية الطبيعية التى لاتزال ترى بكثرة فى المنطقة التى تقع فيما وراء نهر الأردن بما فى ذلك جبل جلعاد حيث كان الفراق بين يعقوب ولابان كما تحكى القصة • وقد أشار « كانون تريسترام » الراحل ، الى هذا الموضوع وذلك فى أثناء

---

(١) سفر التكوين ٤٩ : ٥٠ .

حديثه عن بلاد موآب فقال : « إن جزءا من طريقنا كان يقع إلى جانب وادى « عتابيا » الذى يتجه جنوبا الى « الزرفاء » وهو واد صغير ينحدر انحدارا سريعا . وهناك فى هذا المكان صادفنا لأول مرة ، عند منحدر صخرى مرتفع ، ضريحا يتكون من أربعة أحجار خشنه عارية، ثلاثة منها موضوعة على حافة المنحدر مكونة ثلاثة جوانب من شكل مربع ، أما الحجر الرابع فيقع فوقها كما لو كان غطاء لها . ويبلغ طول كل حجر حوالى ثمانية أقدام . وعندما اتجهنا شمالا ، وقعت أبصارنا مرارا على هذه الأضرحة ، بحيث أننا كنا نصادف ما يفوق العشرين منها فى تجوال واحد ، ولكنها مشيدة على نحو واحد . وتقع هذه الأضرحة بدون استثناء على جوانب التلال الصخرية ، ولا يقع على قمتها على الاطلاق . فالأحجار الثلاثة الكبيرة الموضوعة على حافة المنحدر ، يقع كل منها جهة الزاوية اليمنى للحجر الآخر ، وهى جميعا تكون دعامة للحجر الصلب الذى يغطيها والذى كان يبلغ طوله من ستة الى عشرة أقدام . وهذه الأضرحة تعد أمكنة يستريح عندها العرب الرعاه الذين طالما أبصرناهم مستقلين فوقها يراقبون قطيعهم . ويبدو أن هذه الأضرحة لا توجد الا فى الأقاليم الذى يقع بين « زاره » (1) « كاليرهوى » و « حشبون » ، اذ أنها لاتوجد على الاطلاق فى الأقاليم المشابهة لهذا الأقليم الذى يقع جنوبا فى هذه المنطقة . على أننى سبق أن رأيت هذه الأضرحة فى أثناء زيارتى لفلسطين ، وكان الكثير منها يقع فى الجهات الجرداء من جبل جلعاد فيها بين جبل « أوشع » و « الجرش » . ومن العسير علينا أن ندرك سبب تشييد هذه الأضرحة على جوانب التلال . والشىء الذى يلفت النظر فضلا على ذلك ، هو أننى لم أصادف ضريحا يتكون من أربعة

---

(1) « زاره » هو الاسم الحالى لكاليرهوى . انظر :

P. Abel, Géographie de la Palestine, Paris-Lecoffre Gabada, 1938, Etudes Bibliques, tome I, p. 87.

أحجار سفيلة . فاذا وقع بصرنا على ضريح متهدم ، فإن عدد أحجاره عندئذ يتكون من أربعة أحجار لا أكثر ولا أقل . ونظرا لضحالة التربة ، لم يكن من اليسير اقامة هذه الأضرحة تحت الأرض . وعلى الرغم من أننى لم أجد أثرا لهذه الأضرحة أو أية أضرحة من نوع آخر فى الأماكن المجاورة ، فأنه من المحتمل أن السكان الأولين كانوا قد شيدوها فى أماكن أخرى ، ثم نقلتها الأجناس التى جاءت من بعدهم حتى تستغل الأرض فى الزراعة ، فى حين أنهم لم يمسوا تلك الأضرحة التى كانت تقع على جوانب التلال الجرداء التى لم تكن تصلح للزراعة على الاطلاق . وهناك شىء آخر يجدر بنا أن نذكره ، هو أن الطبقات الثلاث من النصب الأولية التى عثر عليها فى موآب ، أعنى الحجر الدائرى والأضرحة وركام الأحجار ، توجد فى أعداد كبيرة فى ثلاثة أمكنة مختلفة فى هذا البلد ، ولكنها لا توجد مختلطة على الاطلاق ، فركام الأحجار توجد جهة الشرق فى الطريق الذى يؤدى الى سلسلة الجبال العربية ، والأحجار المستديرة توجد فى جنوب « كاليرهوى » ، وأما الأضرحة فتقع فى شمال هذا الوادى . وربما أشارت هذه الظاهرة الى وجود ثلاث قبائل متجاورة كانت تعيش فى هذه الأمكنة فيما قبل التاريخ ، وكان لكل منها احتفالاتها وطقوسها الدينية الخاصة بها . أما العرب المحدثين . فمن الطبيعى أن يربطوا بين هذه الأضرحة وبين الجن » .

لقد سبق أن رأينا أنه عندما وضع « لابان » و « يعقوب » ركام الأحجار فوق الحجر المنتصب ، جلسا (١) فوق هذه الأحجار وأخذا

(١) تترجم الرواية المنقحة هذه العبارة التى ترد فى سفر التكوين الاصحاح الواحد والثلاثين صفحة ٤٦ على النحو التالى : « ثم تناولا طعامهما بجانب هذا الركام » . بينما تقول الرواية الأخرى المعتمدة « ثم تناولا طعامهما فوق هذا الركام » . على أن العبارة المقابلة لهذه العبارة التى ترد فى النص ترجح صحة الرواية المعتمدة على الرواية الأخرى. اذ من المؤكد أن المعنى الأولى للظرف « عند » يعنى « فوق » وليس هناك داع اذن لأن

يتناولان الطعام • ومن المحتمل أن تناول الطعام فوق الأحجار يقصد به التصديق على العهد • وربما استطعنا أن نستوضح السبب فى الاعتقاد فى أن تناول الطعام على الأحجار يعد تصديقا على العهد من خلال عادة نرويجية وصفها المؤرخ الدانماركى القديم « ساكسوجراماتيكوس » فقال : « عندما كانت الشعوب فى الزمن القديم تنصب ملكا عليهم ، كانوا يقفون على أحجار صلابة الحجر » • فربما كانت الشعوب تعتقد أن صلابة الحجر تمر الى الشخص الذى يقف عليه وبذلك تؤكد قسمه • فنحن نقرأ عن شخص أسطورى بعينه يدعى « راجاه الجاوى » كان يحمل لقب « راجاه سيلا بيرواتا » وهو يساوى لقب « واتو جوننج » وقد خلع عليه هذا اللقب لأنه وقف ثابتا على الجبل كالحجر فاكتسب منه قوته وشجاعته بدون عون أو مساعدة » • وفى الهند عندما يحتفل براهمانى بزواجه ، يجعل الزوج زوجته تدور حول النار ثلاث مرات ، وفى كل مرة يجعلها تطأ بقدمها اليمنى على حجر الرص وهو يصيح بها : « لتطىء بقدمك هذا الحجر ولتكن صلابتك من صلابته • ولتتغلبى على الأعداء وتطئيهم بقدميك وهذه الشعيرة القديمة التى وضعتها كتب الشعائر الآرية فى الهند الشمالية ، تبناها الناس فى الهند الجنوبية خارج نطاق الطبقة البراهمانية •فالزوجان فى هذه المنطقة « يدوران حول النار المقدسة ثم يرفع الزوج بيديه قدم زوجته اليمنى ويضعها على حجر الرحى ، ويكرر فعل هذا سبع مرات • وتعرف هذه الشعيرة باسم « سابتا بادى » (أى سبعة أقدام) ، وهى تعد أهم شعائر الزواج وأكثرها تأكيدا للرباط الزوجى • ذلك أن الزوجة تحض على أن تكون صلبة على الدوام صلابة الحجر الذى تضع عليه قدمها » • ويحدث مثل هذا فى الاحتفال

نتجاوز هذا المعنى فى هذا المجال » . (المؤلف) ويؤكد رأى المؤلف عبارة العهد القديم التى تقول « وقال يعقوب لاخوته التقطوا حجارة فأخذوا حجارة وعملوا رجمة وأكلوا هناك على الرجمة » . (سفر التكوين الاصحاح الحادى والثلاثون آية ٤٦) .

(المترجمة)

بدخول الغلمان فى مجتمع الرجال عند البراهمانيين • اذا أنهم يجعلون الغلام يطأ بقدمه اليمنى على حجر بينما يرددون العبارة الآتيـــة : « لتطأ بقدمك هذا الحجر ، ولتكن صلبا مثل صلابته • لتحطم هؤلاء الذين يبحثون لك عن أذى ولتنتصر على أعدائك » • وعند الاحتفال بالزواج عند الكوكيين الذين يسكنون شمال « كاشار » • « يضع كل من الزوجين قدما على حجر كبير موضوع وسط القرية • ثم يأتـــى الزعيم (جاليم) ويرشهما بالماء وينطق بعبادة توجه النصائح العامة للزوجين وتحضهما على الإخلاص • ثم يتاركهما ويتمنى لهما الذرية الكثيرة » • ويعتقد سكان مدغشقر أنه من الممكن للشخص أن يتحصن ضد البركة الأرضية المتقلبة ، بأن يدفن حجرا تحت مكان رئيسى فى بيته أو تحت عتبة بابه •

ويمكننا أن نفسر بناء على هذا الأساس ، عادة القسم على حجر فى الوقت الذى يضع فيه الشخص فوقه قدما أو قدميه معا • والغرض من هذا فيما يبدو ، هو أن خواص الحجر التى تتمثل فى صـــلابته وتحمله ، تنتقل على نحو ما الى حالف اليمين ، وبذلك يتأكد الناس من عدم حنثه بيمينه • فقد كان هناك فى أثينا حجر وقف عليه الرؤســاء التسعة عندما أقسموا أن يحكموا بالعدل وفقا للقوانين • كما يقع على بعـــد ضريح القديس كولومبا فى « ايونا » حجر أســـود • ولايرجع هذا الحجر بالسواد الى لونه ، اذ أن لونه رمادى فى الحقيقـــة • ولكنه وصف بهذا اللون نظرا لتأثيره على من يحنث بيمينه ، وذلك اذا ما اتهم شخص بالخيانة بعد أن يكون قد وقف عليه وأقســم اليمــين بالطريقة المألوفة ، فالأيمان التى تقسم عليه تكون قاطعة مهما تكــن الخلافات بين المتعاهدين •

وقد سلم « ماك ـــ دونالد » ملك الايسليين ، أتباعه ، حقوقهم فى أراضيهم التى تقع فى الجزر والقارة ، وذلك بأن رفع يديه وركـــع على الأحجار السوداء • ثم أقسم أمام كثير من الشهود وهو على هذا

النحو ، أنه لن يعود فيطالب بهذه الحقوق التى منحها لم • وقـــد كان هذا الإجراء بديلا عن امضائه على صك حقوقهم • ومعنى هذا انه اذا كان الشخص واثقا مما قد عزم عليه ، فإنه يقـول بطريقـــة ايجابية : ان لدى الخيار فى أن أقسم على هذا الموضوع على الأحجار السوداء • وقد كان هناك فى جزيرة « فلادا » ، وهى جزيرة أخرى من جزر الهيبريد ، حجر أزرق مستدير كان الناس يحلفون عليه أصـدق الايمان • وقد كان من المألوف أن يوضع حجر داخل حائط ملتصـق بأبريشة « ليرج » التى تقع فى «سوذر لاندر شاير » ، وكان يسمى حجر العهد • « وقد ذاعت شهرة هذا الحجر بوصفه وسـيلة ، بل مقدسة ، لعقد الصفقات وضمان الوفاء بالوعد وتوثيق العهود • فإذا امسكت الأطراف المتفقة على أمر من الأمور بأيدى بعضها البعض فوق هذا الحجر ، فانهميكونون بذلك قد الزموا أنفسهم بعهد صارم لا تنتهك حرمتـه »

وشبيه بهذه العادات تتبعها أجناس بدائيـة تعيش فى افريقيـا والهند • فاذا اختلف شخصان من « البوجيين » الذين يسكنون افريقيا الشرقية عند حدود الحبشة ، فانهما فى بعض الأحيان يفضان نزاعهما عند حجر بعينه يقف فوقه أحدهما ثم يدعو عليه الشخص الآخر بأن تحل به أقسى اللعنات إذا هو حنث بيمينه • وكلما نطق بلعنة رد عليه رفيقة الذى يقف على الحجر بقوله « آمين » • ويقسم « الأكامبيون » الذين يسكنون فى افريقيا الشرقية البريطانية أغلظ الايمان عند شىء يطلقون عليه أسم « كيثيتو » • وهم يعتقدون أن هذا الشىء تتملـكه قوى سحرية تقتل الحانث باليمين • وأمام هذا الشىء توجد سبعة أحجار يقف عليها حالف اليمين بحيث يضع كعبيه على حجرين منها • وفى « نايمو » احدى قرى « البانجهوليين » فى آسـام ، توجد كومة من الأحجار الغريبة فى شكلها يقف عليها النـاس ليقسموا أميانهـم المقدسة • وفى « جوشيجونح » التى تقع فى تلال « جارو » فى أسام يوجد كذلك حجر يقسم عليه الناس أكثر أيمانهم قدسية • فاذا قـدم

أحدهم ليقسم اليمين ، فانه يصافح الحجر أول الأمر ، ثم يصيح بالاله ، « ماهاديفا » ، ويداه مرفوعتان ومتشابكتان ، وعيناه مثبتتان على التلال ، لكى يشهد على صدق يمنيه • وبعد ذلك يلمس الحجر والفزع يشيع فى وجهه ، ويحنى رأسه له ويصيح مرة أخرى بالاله ماهاديفا • وعندما يفصح عن رغبته بعد ذلك يحملق فى التلال ويضع يده اليمنى على الحجر • ويقسم « الجارويون » كذلك وهم واقفون على الأحجار الشهابية ويقولون « ليقتلنى الاله » « جويرا » (اله الاضاءة) بأحد هذه الأحجار اذا كنت أقول كذبا » • ونلاحظ أن وظيفة الحجر فى هذه الحالة جزائية أكثر من كونها تأكيد المعهد • فالحجر موضوع فى هذا المكان لا لكى يكسب القسم صلابة الحجر بل ليطلب انتقام اله الاضاءة من الحانث باليمين • وربما كان هذا هو الهدف نفسه من القسم « الساموآنى » • ويتلخص هذا القسم فى أنه حينما كان اللصوص يقسمون على براءتهم فى حضرة الزعماء ، فانهم « كانوا يضعون حفنة من الأعشاب على الحجر أو على أى شى اخر يعتقد فى أنه يمثل اله القرية ثم يقول كل منهم وهو واضع يده على الحجر : « اننى أضع يدى على الحجر فى حضرة زعمائنا المجتمعين ، فاذا كنت قد سرقت الشىء المعنى فلأمت فى الحال » •

فالحجر فى هذه الحالة الأخيرة ، وربما فى بعض الحالات الأخرى ، كان ينظر اليه على أنه ممتلك لروح الهى يمكنه من أن يسمع القسم وأن يحكم على صدقه وأن يعاقب الحانث باليمين • فالأيمان التى كان يقسم بها على الأحجار التى كان لينظر اليها على أنها آلهة على وجه التأكيد ، كانت كما هو واضح ذات طابع دينى ، حيث أنها كانت تتضمن نداء الى القوى الخارقة للعادة أن تحل غضبها بالآثم • على أن الحجر فى بعض الأمثلة الأخرى السابقة ، كان يظن فيما يبدو ، أنه يؤثر تأثيرا مباشرا من خلال خواصه الطبيعية التى يتميز بها وهى الثقل والصلابة وخاصية القصور الذاتى • وبناء على ذلك فان القسم فى هذه الحالات ، أو فى أية احتفالات أخرى ، به طابع سحرى صرف • فالرجل يكتسب

بخواص الحجر القيمة ، تماما كما يكتسب شحنة كهربائية من بطارية • أى أن الشخص يصاب بالصاعقة فى الحالة الأولى ويكتسب شحنة من الكهرباء فى الحالة الثانية ، اذا أمكنا أن نستخدم هذا التعبير • على على أنه ليس من الضرورى أن يكون كلا من المغزى الدينى والسحرى للحجر متميزين على هذا النحو فى أذهان المقسمين ، ذلك أن الغموض والاختلاط يعدان من مميزات الفكر البدائى • وربما كان من واجبنا على الدوام أن نحلل هذا الخلط الغريب الى عناصره •

ويبدو أن هذين الضربين المختلفين من التفكير ، أعنى التفكير السحرى والتفكير الدينى قد تداخلا فى حكاية العهد الذى تم بين يعقوب ولابان عند ركام الأحجار كما تروى فى الكتاب المقدس • فمن الوضح أن الطرفين المتعاهدين من ناحية ، قد خلعا صفتى الحياة والادراك على الأحجار وعندما نادا عليها فى خشوع أن تشهد على اتفاقهم ، تماما كما سأل يوشع الحجر الكبير الذى كان يقع تحت شجرة البلوط لكى يكون شاهدا على العهد الذى تم بين الرب التى تحدث بها الى بنى اسرائيل • (١) فركام الأحجار أو الحجر الكبير الذى كان يوضع منتصبا وسطها ، كان أشبه بتمثال « يانوس » (٢) الذى كان له رأسان ينظر بهما فى اتجاهين لكى ينظر بعيون يقظة الى كل من الطرفين المتعاهدين • ومن ناحية أخرى فربما كان أفضل تفسير لتناول الطعام

---

(١) من الأفضل أن نشير هنا الى نص التوراة وهو : « وكتب يوشع هذا الكلام فى سفر شريعة الله . وأخذ حجرا كبيرا ونصبه هناك تحت البلوطة التى عند مقدس الرب . ثم قال يشوع لجميع الشعب : ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذى كلمنا به فيكون شاهدا عليكم لئلا تجحدوا الهكم » .
(سفر يوشع . الاصحاح الرابع والعشرون آية ٢٦ ، ٢٧) .
(المترجمة)

(٢) اله الأبواب والبدايات عند الرومان .
(المترجمة)

على ركام الأحجار ، ان كان يمكن لهذا التفسير أن يكون سليما ، هو أنه محاولة لاقامة علاقة ودية بين الطرفين المتعاهدين بتناولها طعاما واحدا فى الوقت الذى يدعم فيه عهدهما عندما يكتسب من الأحجار التى جلسا عليها ، صفتى القوة والصلابة •

واذا كان القارىء الذى ينحو تفكيره الى الشك ، ما زال يتشكك فيما اذا كانت الأرض التى يقف عليها الشخص يمكن أن تؤثر فى قيمة القسم الأخلاقية ، فاننى أذكره بعبارة « بروكوبيوس » التى يمكن أن تزيل شكه • فقد أخبرنا هذا المؤرخ المدقق عن طريقة استطاع بها ملك فارسى أن يستخلص الحقيقة من شاهد ثائر ضده وكان يميل . بل يسعى دائما ، لأن يجنث بايمانه • فعندما اعتلى « باكوريوس » عرش بلاد الفرس ساورة الشك فى أن « أرساكيس » ملك أرمينيا التابع له ، قد دبر ثورة ضده • فأرسل فى طلبه وواجهه بخيانته له • فرد ملك أرمينيا عن نفسه هذه التهمة بمهارة ، وأقسم بكل الآلهة بأن مثل هذا التدبير لم يطرأ على ذهنه قط • وعند ذلك دبر ملك الفرس خدعة أرشده اليها سحرته ، يتمكن بها من فضح الخائن ، فأمر بأن يفرش بلاطه الملكى بروث الحيوان ، بحيث يفرش نصفه بروث فارسى ، والنصف الآخر بروث أرمينى ، ثم سار مع مواليه على هذه الأرض وهو يؤنبه على نواياه المخادعة • وهنا بدأ التناقض الغريب فى دفاع الملك الأرمينى عن نفسه ، اذ أنه كان كلما وطئت قدماه على الجزء المفروش بالروث الفارسى ، أقسم بأغلظ الأيمان بأنه أخلص خادم للملك الفارسى • ولكنه ما أن ينتقل الى الجزء المفروش بالروث الأرمينى حتى تتغير نغمة حديثه ، واذ به ينهال على مولاه ويهدده بالانتقام من اهانته له ، ويعدد له ما يمكن أن يفعله ضده اذا ما استرد حريته • فاذا عاد وداس بقدمه جزء الأرض المفروش بالروث الفارسى عاد الى تذلله وتضرعه ، واستخدم كل أساليب التذلل فى طلب العفو من مولاه • وبهذا نجحت الخدعة وافتضح الخائن • ولكنه لما كان

يجرى فى عروق هذه الخائن الدم الملكى حيث أنه كان « أرساكيدى » فان ملك فارس لم يأمر بقتله ، وانما عاقبه كما يعاقب الأمراء المذنبين ، فحبس طيلة حياته فى سجن يسمى « قلعة النسيان » • وسبب هـذه التسمية هو أن السجين اذا اجتاز مدخله الكئيب وأغلق الباب دونه ، فلا ينبغى لأحد أن يذكر اسمه والا أعدم • وفى هذا السجن كان يدخل الخائنون ويظلون به حتى تفسد أجسامهم ، وفى هـذا السجن قضى ملك أرمينيا الحانث باليمين بقية أيام حياته •

ويبدو أن عادة تشييد ركام الأحجار بوصفها شاهدا على العهـد لم تنقرض فى سوريا حتى اليوم • فمن أشهر الأضرحة التى توجـد هناك ضريح هارون الذى يقع على جبل هور (١) • ويزور الحجاج هـذا القبر ويتضرعون للنبى هرون أن يشفى مرضاهم ، ثم يجمعون الأحجار ويشيدونها فى شكل قبوة لتكون شاهدا على الأيمان التى يقسمونها على لسـان مرضاهم •

---

(١) اسمه الحالى : جبل عكار ــ

P. Abel, op. cit., I, p. 302.

الفصل السابع

يعقوب عنـد مخاضة نهر اليبـوق

بعد أن افترق « يعقوب » عن « لابان » عند ركام الأحجار ، سار فى طريقه فى رفقة زوجاته وأبنائه وقطعان ما شيته ، متجها الى الجنوب، تاركا وراءه جبال جلعاد الشاهقة الباردة التى تكسوها الغابات ، وشق طريقه فى ربوع وادى يبوق العميق الذى يقع على بعد آلاف الأقـدام أسفل الجبل . والهبوط الى هذا الوادى من فوق قمم الجبال يستغرق عدة ساعات . فاذا وصل المسافر الى أسفل تلك الوهدة العميقة بعـد هذه الرحلة الشاقة ، فانه يشعر أنه قد مر فى أجواء طبيعية مختلفـة ، فمن الجبال العالية التى يهب فيها النسـيم البـارد وتغطيهـا غابات الصنوبر يهبط الى قرية « برمة » ذات الجو الصحى المنعش خـلال مسافة ساعة من الزمن ، حيث تنتشر أشجار الفاكهـة والشجـيرات والأزهار ، وحيث يطفىء المسافر ظمأه من المياه الباردة التى تتدفق من نبع جميل عندما يخلد للراحة فى الظهيرة . فاذا استمر فى الهبوط فانه يسير منحدرا الى مسافة ألفى قدم حيث يشعر بأنه يتنسم الهواء الحار وسط مزروعات غنية شبه استوائية تنتشر فى أعماق وادى نهـر يبوق الكبير . وهذا الأخدود موحش ورائع كل الروعة ، وعلى جانبيه ترتفع الصخور فى شكل عمودى على وجه التقريب الى ارتفاع شاهق . فاذا نظرت الى أعلى من خلال الصخور الناتئة أو المنحدرات ، فـان بصرك يصطدم بزرقة السماء . أما عنـد أسفل هذا الأخـدود العتى ، فيتدفق نهر اليبوق بتياره القوى . وتختفى مياهه الزرقاء ، وإن يكن

لمسافة قصيرة ، وسط غابة كثيفة من أشجار الدفلى الطويلة التى تضفى أزهارها القرمزية لونا ذهبيا على الوهدة فى الصيف البكر • ويجرى النهر الأزرق ، كما اصطلح على تسميته اليوم ، فى سرعة وقوة ، اذ قد يصل ارتفاع مياهه ، حتى فى الأيام العادية الى سرج الفرس ، بل انه فى بعض الأحيان يتعذر الخوض فى مجراه حيث تفيض مياهه على الأعشاب والأحراش التى تنمو على شاطئيه المرتفعين • وطريق الصعود من مخاضة النهر عند الجهة المقابلة له ، أى فى الجانب الجنوبى ، منحدر للغاية ، ذلك أن الطريق يلتف فى أثناء صعوده ، بحيث يتحتم على المسافر أن يترجل ويقود حصانه • وفى هذا الطريق الصاعد الطويل كان يعقوب يسير وحده متلكئا الى جانب المخاضة وقت الغسق ، وهو يرقب البعير المتعب ويسمع صياح الرعاة وقد أخذت أصواتهم تخفت فوقه شيئا فشيئا ، حتى اختفى مرآهم كما اختفت أصواتهم على البعد وفى الظلام •

وربما ساعدنا هذا المنظر على تصور المغامرة الغريبة التى خاضها يعقوب عند عبوره النهر • وكان قد أرسل قدامه زوجاته وأولاده وخادماته ليخوضوا النهر على ظهور الجمال • أما قطعان ما شيته ورعاتها فقد سبقت القافلة أو لحقت بها • وبذلك بقى يعقوب وحده فى مخاضة النهر • ولقد كان الوقت ليلا ، وكانت ليلة من ليالى الصيف يسطع فيها القمر فيما يبدو ، اذ لم يكن من المعقول أن يحاول يعقوب عبور النهر بهذه القافلة الطويلة فى الظلام ، أو فى الشتاء ، عندما يكون مجرى النهر سريعا وعميقا • ومهما يكن الأمر فقد بدا ليعقوب رجلا أخذ يناضل مع يعقوب طوال الليل حتى بزغ الصباح وأخذ ضوؤه يتسرب الى ذروة الغابات التى تنتشر فى أعلى جوانب الوادى فوق الرجلين المتصارعين فى ظلا الوادى • ثم نظر هذا الشخص الغريب الى أعلى وأبصر الضوء فقال ليعقوب : «أطلقنى لأنه قد طلع الفجر»(١) •

(١) سفر التكوين . الاصحاح الثانى والثلاثون آية ٢٦ .

وعلى هذا النحو كذلك انتزع جوبيتر نفسه من بين الأذرع « الخمينا » المغرمة به قبل بزوغ الغسق ، كما اختفى شبح والد « هملت » عند صياح الديكة . وكذلك حذر مفيستوفيليس فاوست وهو فى سجنه وضربات المشنقة ترن فى أذنه ، أن يسرع لأن النهار ، وهو اخر نهار فى حياة « جريتشى » قد أوشك عى البزوغ . ولكن يعقوب تعلق بالرجال الغريب وقال له : « لا أطلقك ان لم تباركنى » (١) وعند ذاك سأله الرجل الغريب عن اسمه ، وعندما ذكر يعقوب اسمه أجابه هذا الشخص قائلا : « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » (٢) . ولكن عندما استفسر يعقوب عنه قائلا : « أخبرنى باسمك » (٣) . رفض هذا الرجل أن يذكر اسمه ولكنه منح يعقوب البركة التى طلبها واختفى . وعند ذاك أطلق يعقوب على هذا المكان اسم « فنيئيل » أى « وجه الرب » . فلقد فسر هذا الاسم بقوله : لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى » (٤) . وسرعان ما أشرقت الشمس بعد ذلك وسطعت على وجه يعقوب . ولكنه وجد نفسه يعرج إثر ذلك ، اذا كان خصمه قد مس عظمة فخذه فى أثناء صراعه معه . « لذلك لايأكل بنو اسرائيل عرق النسا الذى على حق الفخذ الى هذا اليوم ، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا » (٥) .

والقصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل ان مؤلفى سفر التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا فيها رائحة الوثنية . ومن ثم فان أى تفسير لها انما يعتمد على الفرض . ولكننا اذا ربطنا هذه القصة بالملامح الطبيعية للمكان الذى جرت فه حوادثها

---

(١) سفر التكوين . نفس الاصحاح والآية .
(٢) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٢٨ .
(٣) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٢٩ .
(٤) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٣٠ .
(٥) سفر التكوين . نفس الاصحاح آية ٣٢ .

من ناحية ، واذا ربطناها بالأساطير الأخرى المشابهة لها التى سنعرض لها وشيكا من ناحية أخرى • فاننا نفترض بادىء ذى بدء أن هذا الغريم الغامض الذى تصارع معه يعقوب هو روح النهر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجل انتزاع البركة منه • وهذا يفسر سبب تخلف يعقوب عن قافلة النساء والأطفال وقطعان الماشية ، وبقاءه وحده فى الظلام فى مخاضة النهر • وربما حسب يعقوب أن اله النهر المنعزل يفزع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة ، أو بين أشجار الدفل التى تنمو على مسافة آمنة بعيدة ، حتى اذا ما مر الركب وساد الهدوء النهر فيما عدا صوت التيار الرتيب الهامس ، دفعه الفضول لأن يخرج من مخبئه ليستطلع أحوال النهر ،ويعرف سبب هذا الهرج والمرج • وعند ذاك يكون يعقوب الماكر فى انتظاره ، فينقض عليه ويتشبث به حتى يحصل منه على البركة التى يسعى اليها • وقد أمسك « مينيلاوس » على هذا النحو باله البحر « بروتيوس » الذى كان يرقد منعزلا وقت الظهيرة بين الحواجز وفوق الرمال الصفراء ، ليرغمه على أن يخبره بتكهناته وهو ممتنع عن ذلك • وعلى هذا النحو كذلك أمسك « بيليبوس » بالهة البحر « ثيتيس » واتخذها زوجة له • وفى كلتا الأسطورتين الاغريقتين حاول روح الماء ذو الجسد الطبع الأملس ، أن ينزلق من قبضة آسره مرة بعد الأخرى مغيرا شكله من أسد الى حية ، ومن حية الى سائل وهكذا، حتى وجد فى النهاية أن محاولاته تضيع هباء وأنه لن ينجح فى الانفلات من يد خصمه العنيد ، فرضخ لمطلبه وأعطاه المنحة التى يسعى اليها • وكذلك حول اله النهر أشيليوش نفسه الى حية ثم الى شبح لكى ينفلت من البطل الجرىء هرقل الذى أمسك به لكى يستولى على « ديجانيرا » الجميلة ، ولكن محاولات آله النهر ضاعت هباء •

وكل هذه الأساطير المشابهة لأسطورة يعقوب تؤكد أن غريم يعقوب فى الرواية الأصلية لهذه الحكاية قد حاول أن يغير شكله لكى يهرب من آسره اللحوح • وربما اتضح أثر هذا التحول فى الحكاية

التى تحكى عن ظهور الرب للنبى « اليا » عند جبل « حوريب » • فربما تحول الرب المتمنع فى الشـكل الأصلى لهذه الحكاية الجلية الى ريح وزلزال ونار على التوالى لكى يهرب من النبى ، ولكنـه هـزم أمـام اصراره ، وكشف له عن نفسه فى صوت خافت رقيق (١) • ذلك أنـه من الملاحظ أن أرواح المياه لا تنفرد من بين الكائنات الخارقة للعادة بمنحها البركة أو النبوءة لهؤلاء الذين ينتظرونها ويمسكون بها • فقد قيل ان الاله « المفريجيانى » « سيلينوس » كان يمتلك على الرغم من عاداته الطائشة ، مقدرة كبيرة على المعرفة التى لم يكشف عنها مضطرا الا الى « بروتيوس » • وقد استطاع « ميداس » ملك « فريجيـا » أن يمسك بهذا الاله فى لحظة ضعف ، عندما قـدم له الملك خمـرا ممزوجا بماء نبع بعينه ، فشربه متلطفا • فلما صحا من سكره وجـد « سيلينوس » نفسه أسيرا ، وكان عليه أن يؤنب الملك بحديث طويل عن الدنيا وغرور الانسان ، حتى أطلق الملك سراحه • وقد احتفظ لنا بعض كتاب العصر القديم المبجلين بنص دقيق فى قليل أو كثير لتلك الخطبة التى ألقاها الاله السكير المرح بجـانب نبع أو بجانـب من الزهور • كما قيل أن « نوما » قد أمسك بالالهين الساذجين « بيكوس » و « فانوس » عن طريق خدعة شبيهة بخدعة ميداس وارغامهما على أن يأتيا « بجوبيتر » من السماء عن طريق سحرهما وتعاويذهما •

وربما استطعنا أن ندعم وجهة نظرنا فى أن خصم يعقوم الذى ظهر له عند مخاضة نهر اليبوق ، هو إله النهر نفسه ، اذا لاحظنا أنه كان من عادة كثير من الشعوب استرضاء أرواح الأنهار التى تخشى

---

(١) « واذا بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبـال وكسرت الصخور أمام الرب . ولم يكن الرب فى الريح . وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب فى الزلزلة . وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب فى النار وبعد النار صوت منخفض خفيف » .

(سفر الملوك الأول ــ الاصحاح التاسع عشر من آية ١١ ــ ١٣) .

لخطورتها وتقلبها • وينصح « هيزيود » من يعبر النهر قائلا : « عليك قبل أن تعبر النهر ، أن تنظر الى المياه الجارية وأن تصلى وتغسل يديك ، لأن من يخوض النهر دون أن يغسل يديه ، فانه يتعرض لغضب الآلهة » • وعندما عزم « كليومينيس » ملك اسبرطة على عزو « أرجوليس » ، جاء بجيشه عند شواطىء « أراسينوس » وقدم ضحية للنهر • ولكن النبوءة نصحت بعدم عبور النهر • عند ذاك ، أشار الملك أنه على الرغم من اعترافه بوطنية اله المساء فى عدم خداعه قومه ، فانه يصر على عزو « أرجوليس » • ثم قاد جيشه الى الشاطىء وقدم ثورا ضحية للنهر ونقل جيشه فى سفن الى بلاد العدو • وعندما تجمع الفرس تحت زعامة « اكسيركس » عند نهر « ستريمون » قدم الماجيانيون أفراسا بيضاء ضحية للنهر كما قاموا بشعائر أخرى قبل عبوره • وبالمثل قدم « لوسولوس » على رأس الجيش الرومانى ثورا ضحية لنهر الفرات قبل أن يعبره • وكان « البروفيانيون » يقفون على شاطىء النهر ويأخذون جرعة منه ويشربونها ثم يتضرعون لاله النهر لكى يدعهم يعبرونه أو لكى يمنحهم السمك ، وبعد ذلك يرمون فيه حبوب الذرة لاسترضائه • بل ان الهنود الكولاديلاريين ما زالوا حتى اليوم يقومون بشعيرة تجرع جرعة من مياه النهر قبل أن يعبروه سيرا على الأقدام أو ممتطين ظهور الأفراس » • وكان سكان ويلز القدماء « يدقون الأرض بأرجلهم ثلاث مرات قبل أن يعبروا المجرى المائى فى الظلام ، وذلك لكى يحولوا عنهم غضب الأرواح والسحرة »•

وتعتقد قبائل البانتو التى تسكن فى افريقيا الجنوبية الشرقية أن « الأنهار تسكنها الشياطين أو الأرواح الشريرة ، ومن ثم كان من الواجب استرضاء هذه الأرواح قبل عبور مجرى مائى مجهول لديهم ، وذلك بالقاء حفنة من الذرة فيه أو أى شىء آخر ، وان لم تكن له أية قيمة فعلية » • وعندما يعبر الماسيون الذين يسكنون افريقيا الشرقية مجرى مائيا ، فانهم يرمون فيه بعض الحشائش بوصفها هبة له ، ذلك لأن الحشائش التى تعتمد عليها ماشيتهم فى غذائها ، تلعب دورا

أساسيا فى معتقدات المـــاسيين وطقوسهم • وقبل أن يخوض المسافر النهر عند « الباجانديين » الذين يسكنون افريقيا الوسطى ، فانه يسأل روح النهر أن يجعل عبوره آمنا ، ثم يرمى له ببعض حبوب البن منحة له • فاذا جرف التيار شخصا الى عرض الماء ، فان أصدقاءه لا يحاولون انقاذه ، لأنهم يخشون أن يأخذهم روح النهر كذلك إذا ماحاولوا انقاذ صديقهم الغريق ، ذلك أنهم يعتقدون أن الروح الذى يحرس هـــذا الشخص قد تركه تحت رحمة روح النهر ، ومن ثم فهو ميت لا محالة • وقد كانت توجد فى أماكن معينة عند نهرى « ناكيزا » و « سيزيبوا » فى أغوندا كومة من الأعشاب والعصى على كل من شاطئيه ، وكان كل من يعبر أحـــد النهرين يطرح بعض الأعشاب أو العصى على تلك الأكوام قبل أن يعبر النهر • وكان هذا بمثابة منحة لروح النهر حتى تضمن له عبوره الآمن • وكان الناس بين الحين والاخر يضعون عند هذه الأكوام منحا أغلى ثمنا ، كأن يحضرون معهم بعض الجعة أو حيوانا أو دجاجة أو بعض الأقمشة المصنوعة من لحاء الشجر ، ويربطون هذه الأشياء فى كومة الأعشاب أو العصى ويتركونها هناك ثم يرحلون بعد أن يصلوا لروح المـــاء • بل ان الكاهن كان يقوم بواجب التقديس لهذين النهرين، وان لم تكن توجد هناك معابد لهذا الغرض • وقد اشتهرت عشـــيرة « بين » بصفة خاصة بعبادتها لنهر « ناكيزا » ، وكان شـــيخ هـــذه العشيرة هو الكاهن • فاذا فاض النهر ، لم يكن يحاول أى فرد من أفراد هذه العشيرة أن يخوض فى النهر ، وكان الكاهن يمنعهم فى صرامة من العبور ، ومن كان يفعل ذلك منهم كان يقتل •

ويعترض مجرى نهر النيل عند مكان ما فى أعاليه يسمى « شلالات كاروما » ، صف من الأحجار العالية • وهناك تنحدر المياه عبر منحدر طويل أشبه بالبوابة الى عمق عشرة أقدام • وتحكى الرواية الشعبية أن هذه الاحجار وضعها « كاروما » الذى كان وسيطا أو أليفا للروح الكبير فى هذا المـــكان • فسر الروح الكبير بهذا الحاجز الذى شيده

خادمه وكافأه بأن أطلق اسمه على هذه الشلالات • وقد تعود ساحر أن يقف عند هذا المكان ليقود مثل هؤلاء الأتقياء الذين يودون عبور النهر • وعندما كان « سبيك » ورفقاؤه يعبرون نهر النيل عند هذا المكان ، ذبحت جماعة من « البانييورين » الذين كانوا يسافرون معه ، جديا عند كل شاطئ من شاطئيه بعد أن شقه طوليا وسط صدره وأمعائه ، ثم بسطوا الجديين على ظهريهما فوق الحشائش وفرو الشجر على نحو ما يبسط النسر ، ثم خطت فوقهما الجماعة المسافرة حتى تضمن نجاح رحلتها • وقد قام ساحر الشلالات بتوجيههم الى المكان المناسب لتقديم الضحية •

ويعد نهر « اتورى » أحد الروافد العليا لنهر الكنغو ، الحد الفاصل بين الأرض المعشبة والغابة الكبيرة • « وعندما كنت على وشك أن أعبر بقاربى المياه الزرقاء المتدفقة فى سرعة ، تلك التى يبلغ اتساع مجراها مائة وخمسين ياردة ، أبصرت على الشاطئ المقابل لى شكلين مصغرين لبيتين بنيا عند حافة النهر تماما ويشبهان فى كافة تفصيلاتهما أكواخ الفلاحين • وقد أعرض الزعيم الشيخ عن أن يفسر لى مغزى هذين البيتين ، ولكننى أخبرت بعد لأى أنهما قد شيدا ليكونا فيئا للزعيم السالف الذى أمر بأن يعوض أرواح النهر عن الجهد الذى تبذله فى حراسة طرق الذين يعبرون النهر • ومنذ ذلك الوقت ، عندما توشك قافلة على العبور عند شاطئ النهر ، يحمل قليل من الطعام الى بيتى الأشباح اشارة لهم بأن القافلة تطلب حمايتهم لعبور النهر » • ويقوم « الأبويون » الذين يسكنون اقليم « أوكا » فى نيجيريا الجنوبية بذبح شاة ودجاجة وتقديمها ضحية للنهر ، اذا كانوا يقومون بدفن جثة ميت ، وكان عليهم أن يحملوها عبر النهر » •

ويعتقد الباداجيون وهم قبيلة تسكن تلال « نيلجهيرى » فى الهند الجنوبية فى وجود إله يسمى « جانجاما » « يتواجد عند كل مجرى مائى بخاصة عند نهرى « كوندى » و « بيكار » • وقد كان من عادة

كل مالك لقطيع من الماشية أن يرمى فى هذين النهرين ، إن شاء أن يعبرهما فى أثناء فيضانهما ، بربع روبية ، اذ كان يحدث دائما أن يجرف تيارهما قطعان ما شيتهم ويغرقاها . ومن بين الآثام الكبيرة التى كانت تعدد للشخص المتوفى فى أثناء القيام بشعائر جنازتته ، أنه قد عبر النهر دون أن يدفع دية الولاء للاله جانجاما » . وكذلك كان ينظر « التودايون » وهم قبيلة صغيرة ، وان تكن اكثر شهرة من سائر القبائل التى تسكن هذه التلال نفسها ، الى نهرى « تاييباكه ــ بايكارا » و « باكهوار ــ أفالانشى » بوصفهما الهين أو مأوى الهين . وقد كان يتحتم على كل من يعبر هذين النهرين أن يخرج يديه من ردائه علامة على التبجيل . وفى الزمن الماضى لم يكن يسمح للناس بعبور هذين النهرين الا فى أيام محددة من الاسبوع . فاذا عبر هذين النهرين المقدسين رجلان يكونان ابنين لأخ وأخته ، فانه يتحتم عليهما أن يؤديا شعائر خاصة ، فاذا اقتربا من أحد النهرين فانهما يقطفان بعض الحشائش ويمضغانها ، ويقول أحدهما للآخر : « هل سأنتصر على النهر ؟ هل سأتمكن من عبور النهر ؟ » . ثم يذهبان الى الشاطىء ، ويغمس كل منهما يده فى الماء ثلاث مرات ويملؤها بالماء ويرميه بعيدا عنه . ثم يعبران النهر بعد ذلك وقد أخرج كل منهما يده خارج ردائه على النحو المألوف .

وقد أحرقت جثة زعيم مشهور من قبيلة « أنجونى » التى تسكن افريقيا الوسطى البريطانية ، بجوار نهر من الأنهار . بل انه من عادة هذه القبيلة حتى اليوم أن يحيوا النهر عند عبورهم له بتحية عميقة تخرج من أعماق حناجرهم ولا يحيون بها الا ملوكهم . واذا عبر أحدهم أى نهر من الأنهار فى قارب ، فانه يعترف أمامه بكل آثام خيانته التى كان متهما بها فى حق رفاقه . وهو يفعل هذا فيما يبدو ، بناء على تصوره أنه ان لم يفعل هذا فسوف يغرق فى النهر . ويعتقد « الترود ــ جانيون » الذين يسكنون «سيليبيس الوسطى »أن أرواح المياه التى تتقمص أشكال حيات تسكن البحيرات العميقة ومنحدرات الأنهار .

ومن ثم فان الناس يتخذون حذرهم من هذه الكائنات الخطيرة • فاذا كان الترورادجى على وشك أن يقوم برحلة عبر النهر ، فانه غالبا ما يصيح وهو واقف على الشاطىء ويقول : « لن أقوم بهذه الرحلة اليوم ، ساقوم بها غدا » • فاذا استمعت الأرواح الى هذا القول ، وكان من بينهما روح يتربص بالمسافر ، فان هذا الروح يصدق أن رحلة هـذا الرجل قد تأجلت حقا الى الغد ، ومن ثم فهو يؤجل كذلك طعنته لـه الى اليـوم التالى • وفى أثناء ذلك يهبط الترود جانى المـاكر الى النهر فى هدوء ، وهو يسخر فى أكمامه من سذاجة روح المـاء الذى استطاع أن يخـدعه •

وعلى الرغم من أن الأسـباب الحقيقية التى تدعو الى اتباع هذه العادات التى تختص بتقديس الأنهار ستظل مجهولة لنا ، الا أنه يبدو أن الدافع العام وراء اتباعها هو الخوف والفزع من الأنهار التى ينظر اليها إما على أنها كائنات مشخصة قوية أو انها مأوى لأرواح قوية • وتتضح كل الوضوح فكرة أن النهر كائن مشخص فى هيئة نهر من خلال عادة تنتشر بين « الكاكهيين » الذى يسـكنون بورما الشمالية • فاذا حدث ان غرق أحدهم فى النهر فى أثناء عبوره ، فان الشخص الذى يقع على عاتقه الانتقام من النهر يتردد على شواطىء النهر الآثم مـرة كل عام ، ويملأ وعاء بمائه ويضربه بسيفه كما لو كان يضرب عـدوا آدميا • وقد حدث ذات مرة فيما يقال ، أن فاض نهر النيل حتى غطى الأرض بمقدار ثمانيـة عشر زراعا ، وأخذت الرياح القـوية تقذف بالأمواج على بعد ، وعند ذلك أمسك فرعون برمحه وأخذ يضرب بـه التيار الجارف ، ولكنه عوقب بسبب اندفاعه وقلة ورعه بفقد بصره • ومرة أخرى نقرأ أنه عندما سار « كيروس » لغزو تابل ، وكان يعبر نهر « جينديس » ، جرف التيار أحد أفراسه البيضاء المقدسة التى كانت تصاحب الجيش فى مسيرته وأغرقه • فهدد الملك النهر وهو فى ثـورة غضبه من ارتكاب النهر لهذا الجرم ضد مقدساته ، بأن يجعل مياهـه ضحلة حتى يمكن المرأة أن تخوض فيها دون أن تبتل ركبتاها • وبناء

على ذلك أمر جيشه بحفر قنوات تحولت اليها مياه النهر من مجـراه الرئيسى • وبهذا انشغل الجيش طوال الصيف فى تحقيـق الرغبـة الطفولية لهذا الطاغية المستطير ، بدلا من أن ينشغلوا بغزو بابل •

وليست أرواح الأنهار هى الكائنات الالهية الوحيدة التى حاربها الرجال الجريئون أو عاقبوها • فعندما أطاحت العاصـفة بأول جسر شـيده « اكسيركس » عند « هيليس بونت » ليمر عليه جيشه ، أصدر الملك حكمه على المضيق فى ثورة من غضبه بأن يضربه ثلاثمائة ضربة وأن يقيده بالسـلاسل • وبينما كان الناس ينفـذون هذا الحـكم ويضربون الميـاه بأسواطهم ، كانوا يصيحون : « أيتها المياه المرة ، ان سيدك قد أنزل بك هذا العقاب لأنك أخطأت فى حقه ، وهو الذى لم يسبق له أن أخطأ فى حقك • وسوف يعبرك الملك اكسيركس طـوعا أو كرها • وانك لتستحقين الا يقدم أحد لك الضحية لأنك مياه مخادعة ومذاقك مر » • وقد قيل : أن الكلتيين القدماء كانوا يخوضون وسـط الأمواج وهى تتخبط على الشاطىء ، ويضربونها بسيوفهم ورماحهم ، كما كانوا يريدون اصابة المحيط نفسه بجراح أو بث الرعب فى نفسه • ويحكى الترودجايون الذين يسكنون « سيليبس الوسطى » أن قبيلـة من قبائلهم كانت تشتهر بتصرفاتهم الحمقاء ، جاءت الى شاطىء البحر فى أثناء جزره ، وابتنوا فى الحال كوخا عند شاطىء المياه مباشرة • فلما جاء مد البحر ، وهدد الكوخ ، تصوروا أن البحر كائن مهول يريد أن يبتلعهم ، ومن ثم فقد حاولوا تهدئة غضبه بأن رموا له بكل مؤونـة أرزهم • ولـكن لمـا استمر المـد فى الازدياد ، هـووا على المـاء بسيوفهم ، ورماحهم وسكاكينهم القاطعة ، بقصد اصابة الكائن الخطير بجراح أو إفزاعه حتى يضطر الى التراجع • كما حدث ذات مرة أنـه عندما كانت جماعة من « الأرافوويين » ، وهم قبيلة جبلية تسـكن الساحل الشمالى التابع لغينيا الجديدة المتابعة للاحتلال الهـولندى ، تلهو بين الأمواج ، جرفت منحسرة ثلاثة منهم وأغرقتهـم • ولكى ينتقم رفقاؤهم لغرقهم ، صوبوا بنادقهم وسهامهم ورماحهم عـدة

ساعات الى الأمواج المتلاطمة • وربما مكنتنا هذه الحكايات التى تشخص المياه بوصفها كائنا حيا يمكن أن يعتريه الفزع وأن تقهره القوة الجسدية ، من تفسير مغامرة يعقوب الغريبة عند مخاضة نهر اليبوق •

أما ما يحكى من أن يعقوب أصيب فى عصب معين فى فخذه اثناء صراعه مع خصمه الذى ظهر له فى أثناء الليل ، فمن الواضح أنها محاولة لتفسير امتناع العبريين عن أكل الجزء المقابل لهذا عند الحيوان • وكل من هذه الحكاية وتلك العادة ، لها ما يماثلهما لدى بعض القبائل الهندية التى تسكن أمريكا الشمالية ، هؤلاء الذين يقطعون على الدوام باطن ركبة الغزال الذى يذبحونه ويرمونها • ويقدم الهنود الشيروكيون سببين لاتباع هذه العادة : أولهما « أنه عندما يتمزق هذا العصب ، يتقلص داخل اللحم ، ومن ثم فكل من يأكل ، لسوء حظه ، من هذا الجزء فان أطرافه تتقلص على هذا النحو » • أما السبب الثانى فهو أنه اذا أكل الصياد هذا الجزء ولم يفصله ويرمه ، سرعان ما يحل به التعب فى رحلته ، وكلا السببين يشير الى عقيدة سحر المشاركة ، وان كان مفعول السحر يختلف فى كلا السببين ، فالسبب الأول يفترض أنه اذا أكل شخص من الجزء الذى تقلصت العضلة بداخله ، فان الجزء المقابل لذلك فى جسم الانسان يتقلص كذلك • أما السبب الثانى فيبدو أنه يفترض أنك اذا قطعت العصب الذى لا يستطيع الغزال السير بدونه ، فانك بالمثل تكون عاجزا عن السير على هذا النحو • وكلا السببين يرتبط كل الارتباط بفلسفة الانسان البدائى • وربما كان أحد التفسيرين كافيا لفهم مثل هذا التحريم عند العبريين • ويمدنا سفر التكوين ، وفقا لهذه النظرية ، بقانون دينى لعادة كانت ترتكز فى الأصل على عقيدة سحر المشاركة وحدها •

وحكاية صراع يعقوب مع الشيخ الذى ظهر له فى الليل ، بقصد انتزاع البركة من خصمه المتمنع قبل الغسق ، لها ما يناظرها فى خرافات

المكسيكيين القدماء • فقــد كان هــؤلاء يعتقــدون أن الاله الكبــير « تزكاتليبوكا » تعود أن يتجول فى أثناء الليل فى هيئة مارد يلتف فى ملاءة ذات لون ومادى ويمسك رأسه بيديه • وعندما أبصر الناس الجبناء هــذا الشبح المخيف • سقطوا على الأرض مغشيا عليهم ، وماتوا اثر ذلك • على أن رجلا شجاعا من بينهم أمسك بالشبح وأخبره بأنه لن يتركه يرحل حتى تشرق الشمس • فتــوسل الشبح اليــه أن يتركه ، وهدده بأنه ان لم يفعل ذلك فسوف يحل عليه اللعنــة • وكان على الرجل ان شاء أن ينتصر على الشبح المخيف ، أن يظل ممسكا به بشدة الى أن توشك الشمس على البزوغ • فاذا نجح فى هذا غير الشبح من نغمته ، ووافق على أن يمنح الرجل أى هبة يطلبها مثــل الثروة والقوة التى لا تقهر ، بشرط أن يرفع الرجل يده عن الشــبح ويدعه يرحل قبل الغسق • وقد تسلم الانسان المنتصر من خصــمه المهول الذى انهزم فى مشادة عنيفة مع الانسان أربع شوكات من نوع معين علامة على نصره • وطبيعى أن مثل هذا الرجل الجرىء ينتزع قلب الشبح من صدره ويلفه فى قطعة من القماش ويحمله معه الى بيته•ولكنه عندما عاد الرجل بغنيمته الى بيته ، وخلع النقاب عنها لم يجد شيئا سوى بعض الريش الأبيض أو شوكة أو ربما حفنة من الرماد أو طنفسة مهلهلة •

الفصل الثامن

قــدح يوسف

عندما جاء اخوة يوسف الى مصر ليحصلوا على القمح فى أثناء فترة المجاعة ، وكانوا على وشك أن يعودوا الى فلسطين ، أمر يوسف أتباعه أن يخفوا قدحه الفضى الذى يشرب منه فى جوال أخيــه بنيامين . وما كاد الاخوة يخرجون من المدينة ، وأصبحوا على بعد خطوات منها ، حتى أرسل يوسف خادمه فى أثرهم متهما اياهم بسرقة القدح . ومن ثم أخذ يبحث فى أجولتهم حتى عثر على القدح المفقود فى جــــوال بنيامين . وعند ذاك أخذ الخادم يعنف الاخوة على نكرانهم لجميــل سيده الذى عاملهم فى كرم ، فاذا بهم يقابلون هذه المعاملة الطيبــة بسرقة قدحه الثمين . ثم قال لهم الخادم « لماذا جازيتم شرا عوضا عن خير . أليس هذا هو الذى يشرب سيدى فيه وهو يتفاءل بــه . أسأتم ما صنعتم (١) » وعندما رجع الاخوه الى يوسف أعاد عليهــم هذه العبارات التأنيبية وقال لهم : « ما هذا الفعل الذى فعلتم : ألم تعلموا أن رجلا مثلى يتفاءل (٢) » . ويمكننا أن نخلص من هــــذه العبارة أن يوسف كان يتباهى بصفة خاصة بمقدرته على اكتشـــاف اللص عن طريق قدح التكهن .

وليست عادة استخدام القدح وسيلة للتكهن بالعادة غير المــألوفة

---

(١) سفر التكوين الاصحاح الرابع والأربعون آية ٤ ، ٥ .
(٢) نفســـه .

فى الزمن القديم والحديث معا ، وان اختلفت طريقة استخدامه لهذا الغرض • فنحن نقرأ أن الفيلسف « ازيدوروس » الذى كان من أتباع مدرسة الأفلاطونية الحديثة ، تقابل مع امرأة متدينة كانت تمتلك مقدرة غريبة على التكهن • وقد تعودت هذه المرأة أن تصب ماء رائقا فى قدح زجاجى ، وتتنبأ من خـــلال ما يتراءى لهـــا فى المياه بالحـــوادث التى ستحدث فى المستقبل وقد كان التكهن عن طريق النظر فى الماء يعد نوعا من أنواع التكهن ، وقد أطلق عليه الاغريق اسم « هيدرومانتيا » • وفى بعض الأحيان كان يوضع فى المـــاء حجر كريم من نوع معين لكى يستحضر عن طريقها صور الآلهة • وقد قيل ان الملك « نوما » كـــان يتكهن عن طريق صور الآلهة التى كانت تبدو له فى المـــاء ، وأنه كان يستخدم قدحا لهذا الغرض • ومن المحتمل أكثر من ذلك أنه كان يرى صور الآلهة على صفحة مياه النبع المقدس « ايجيريا » ، وذلك عـــن طريق الروح الذى كان مقترنا به • وعندما كان « الترالليون » الذين كانـــوا يســـكنون « كاريا » يرغبـــون فى التحقق من نتيجة الحـــرب « الميثريدانية » ، كانوا يستخدمون صبيا يعلن ، عندما يحملق فى الماء ، أنه يرى صورة الاله « ميركورى » ، ثم يتغنى من خلال الكشـــف الالهى بالحوادث المستقبلة ، بمائة وستين بيتا من الشعر • وقد قيـــل ان الفرس كانوا يشتهرون بمقدرتهم على التكهن من خلال النظـــر فى المـــاء ، وقد انتقلت هذه الطريقة فى التكهن الى الغرب عن طريقهـــم بحـــق •

على أننا ليس لدينا علم بالطريقة التى اتبعها يوسف فى الكشـــف عن السارق أو أية أمور أخرى عن طريق قدحه السحرى ، ولكننـــا نعتقد أنه كان يستمد استدلالاته عن طريق الصور التى كانت تتراءى له فى المـــاء • ومن المؤكد أن هذه الطريقة فى التكهن لا تزال تتبع فى مصر ، وربمـــا كانت منتشرة فى هذا البلد المحافظ على التقـــاليد منذ العصور القديمة • والاسم الحديث لهذه الطريقة فى التكهن هو « المرآة السحرية » • « وهى تستخدم على نطاق واسع على النحو التالى :

يطلب من غلام ساذج (لا يزيد عمره على اثنى عشر عاما) أن ينظر في قدح مملوءا بالمـاء ومنقوش عليه بعض العبارات ، بينما تلصق في غطاء رأسه من الداخل ورقة منقوش عليها كتابات كذلك وتتدلى فوق جبينه • ثم يعطر هذا الغلام بالبخور بينمـا يتمتم المشـعوذ ببعض العبارات • فاذا سئل الغلام بعد وقت عما يراه في القدح ، فانه يقول انه يرى شخوصا تتحرك في المـاء كما لو كانت تتحرك في مرآة • عند ذاك يطلب منه المشـعوذ أن يصدر أوامر للروح بأن تنصب خيمـة على سبيل المثال ، أو أن تحضر القهوة والغليون ، فتلبى هذه المطالب في الحال • ثم يطلب المشعوذ من المتفرجين الفضوليين أن يذكروا اسـم شخص يرغبون في أن تظهر صورته على صفة المـاء فيذكروا له اسم شخص حى أو ميت • وعند ذاك يأمر الغلام الروح أن تحضر له هذا الشخص • وفى لحظات تظهر صورة هذا الشخص على صفحة المـاء ويأخذ الغلام في وصفه • ولكن الأوصاف التى يسردها كما رأينا ذلك بأنفيسنا ، تبتعد دائما عن الحقيقة • فاذا ووجه لغلام بذلك اعتـذر بأن الصور التى ظهرت أمامه لم تتوسط القدح ، وظل نصفها دائما مختفيا • على أنه كان يرى في أحيان أخرى صور الشخوص كمـا هى ، بل كان يراها متحركة • واذا حدثت سرقة ، سئلت المرآة السحرية في بعض الأحيان عن السارق كما شاهدنا ذلك بأنفسـنا في احـدى المناسبات • (ويطلق على هذه العملية اسم ضرب « المندل » • وفى هذه المناسة أتهم الصبى شخصا ثبتت براءته كلية بعد ذلك ، ولـكن الصبى اتهمه عمدا بالسرقة ، كما اتضح لنا ، رغبة في ايذائه • ولهذا السبب فقد كافحت الحكومة هذه الشعوذة التى كانت منتشرة على نطاق واسع فيما مضى • ومع ذلك فان الناس ما زالوا يمارسونهـا حتى اليـوم •

وقد تكون المرآة السحرية التى تستخدم في التكهن في مصر حبـرا يصب في راحة يد المشعوذ بدلا من كونها قدحا ممتلئا بالماء ، ولكن الاجراءات التى تتبع في كلتا الحالتين واحدة • فالمشعوذ يدعى أنه يرى

صور الشخوص التى يطلب المتفرج استحضارها ، أحياء كانوا أم أمواتا • كما تستخدم مرآة الجد السحرية فى الكشف عن السارق وعن أمور أخرى ، كما هو الحال مع القدح المملوء بالماء • والأشخاص الذين يستعان بهم فى هذا الغرض هم الصبية دون البلوغ ، والفتاة العذراء ، وعبدة سوداء ، والمرأة الحامل • ولكن يبدو أن الصبى دون البلوغ كان أكثرهم استخداما فى هذا الغرض • فيرسم فى راحة يد الصبى مربع سحرى بالحبر ، وفى وسط هذا المربع يصب الحبر الذى يكون المرآة السحرية •و بينما يحملق المتكهن فى هذه المرآة ، يحرق البخور وتحرق معه ورقة مكتوب عليها بعض التعاويذ • وعندما كان « كينج ليك » فى مصر أرسل فى طلب ساحر ليقدم له نموذجا من هذا السحر الذى يمارسه • وكان هذا السحار رجلا ذا هيبة وله لحية طويلة ، ويرتدى عمامة كبيرة تلفت المنظر وملابس فضفاضة • ثم جاء هذا الساحر بصبى وجعله يحملق فى الحبر الذى وضعه فى راحة يده ليصف شكل الرجل الانجليزى الذى يذكر اسمه « كينج ليك » • وعند ذاك طلب « كينج ليك » استحضار صورة ناظر مدرسته فى « اتون » واسمه « كت » • وكان هذا الناظر شرسا مستبدا قصير الجسم ذا مزاج حاد ، وله حاجبان أشعثان يضرب لونهما الى الحمرة ، الى غير ذلك من الملامح التى تتفق مع هذه الصفات • وعند ذاك قال الصبى انه يرى فى مرآة الحبر صورة فتاة شقراء ذات شعر ذهبى وعينين زرقاوين ووجه شاحب وشفاة حمراء • فلما انفجر « كينج ليك» فى الضحك إثر هذا التصريح ، أعان الساحر الذى انتابته المربكة ، بأن هذا الصبى لا بد أن يكون قد ارتكب اثما ، ومن فقد ركله برجله وطرده •

وقد كانت هناك أشكال أخرى من التكهنات تتبع فى جهات أخرى من انحاء العالم • فقد كان الناس قد تعودوا فى الدول الاسكندنافية أن يذهبوا الى منجم مساء كل خميس لكى يروا فى الدلو الممتلىء بالماء صورة السارق الذى سرقهم • وليست عند التاهيتيين « سوى وسيلة

واحدة لاكتشاف سارق أى نوع من السرقة ، وذلك بأن يلجأوا الى شخص تتملكهروح التكهن ويؤكد لهم على الدوام أنه قادر على وجه السارق ينعكس على صفحة ماء موضوع فى قرعة مفرغة » • ويدعى بعض المتكهنين فى نيو غينيا الجنوبية الشرقة أنهم يكشفون عن وجـــه الآثم فى صفحة المياه فى بركة يذاب فيها بعض زيت جوز الهند • واذا خرج رجل عند الاسكيمو فى رحلة بحرية ولم يرجع فى الوقت المحدد لرجوعه ، فانهم يلجأون الى ساحر يتعهد بأن يؤكد لهم ما اذا كان هذا الشخص ما زال على قيد الحياة أم أنه قد توفى • ومن ثم فانه يستدعى أقرب قريب لهذا الشخص المتغيب ، فيقوم برفع رأس الساحر بعصاه ويدعه ينظر فى برميل به ماء ، ثم يعلن الساحر أنه يرى على صفحة المـــاء صورة البحار المتغيب وقـــد انقلب به القارب ، أو يراه جالسا فيه ويجدف بمجدافه • وبذلك يهدىء من نفس اقاربه القلقين عليه بأن يؤكد لهم سلامته ، أو أنه يحمل لهم نبأ وفاته فيدعهم لأحزانهم •

على أن الوعاء الممتلىء بالمـــاء لا يمثل الوسيلة المـــادية الوحيدة للمرآة السحرية ، التى تستكشف الحقيقة عن طريقها • فالطريقة التى تتبع فى الهند لاكتشاف السارق هى أن تكتب كل اسم من أسماء الذين تقع عليهم التهمة على كرة منفصلة من العجين أو الشمع ، ثم تـــرمى هذه الكرات فى وعاء به ماء • فالكرة التى تحمل اسم السارق تطفو ، وفقا لاعتقادهم ، فوق سطح المـــاء ، فى حين تستقر سائر الكرات فى القاع • وقد تعود الشباب فى أوروبا أن يلجأوا الى أساليب عدة من التكهين فى « أمسية منتصف الصيف » ، لكى يتأكدوا من مصيرهم فى الحب • فالفتاة فى « دورسنتشاير » تكتب الحروف الأبجـــدية عـــلى قصاصات من الورق قبل أن تذهب للنوم فى تلك الأمسية ، وتضعها فى وعاء به ماء ، بحيث تكون الأحرف مقلوبة • وهى تتوقع فى الصباح أن تجد الحرف الأول من زوج مستقبلها قد انقلب الى اعلى ، فى حين تظل سائر الحروف فى وضعها المقلوب •

وفى بعض الأحيان تقرر المصائر عن طريق اسقاط مادة ما فى وعاء به ماء ويحكم الشخص على مصيره من خلال الوضع أو الشكل الذى تتخذه المـادة فى المـاء • فالطبيب فى قبيلة « باهيما » أو « بانيانكولى» وهى قبيلة رعوية تسكن افريقيا الوسطى فى محمية أوغندا ، يأتى فى بعض الأحيان بوعاء به ماء ويرمى فيه بأعشاب معينة تحدث زبدا عندما توضع فى المـاء • ثم يرمى كذلك أربع حبات من البن فى المـاء ويراقب الموضع الذى تسير فيه • ومن خلال هذا الوضع أو من خلال طريقة انقلابها فى المـاء فى أثناء طفوها ، تتحدد ارادة الآلهة ، وفى بعض الأحيان يتكهن الكاهن فى قبيلة « جارو » التى تسكن فى أسام ، عن طريق قدح ممتلىء بالمـاء وبضعة حبات من الأرز الجاف ، فهـو يمسك بالقدح فى يده اليسرى ويسقط فيه حبات الأرز حبة حبة ويذكر اسم روح من الأرواح عند اسقاط كل حبة • فاذا حدث عند ذكر اسم روح من هذه الأرواح أن اصطدمت حبتان وهما تطفوان على سطـح المـاء ، فان هذه الروح هى التى ينبغى عليه أن يتضرع اليها • وفى مرتفعات سكتلاندا يتكهن الناس عن طريق أوراق الشاى أو عن طريق رواسب الشاى التى تتبقى فى فنجان • بل ان النساء غير المتزوجات فى اسكتلندا يذهبن حتى اليوم زرافات الى أمثال هؤلاء المنجمـين ، ليخبروهن ، مقـابل اعطائهم قـدرا من الشـاى ، بالأزواج الذين يناسبنهن • وطريقة التكهن فى هذه الحالة تـكون عن طريق مراقبـة نظام أوراق الشاى المتخلفة فى الفنجان ، وذلك بعد أن تغطى الثمالة المتخلفة جوانب الفنجان جهة اليد اليمنى وتصب من الفنجان • كما يستعان فى انجلترا ببقايا الشاى أو القهوة المتخلفة فى فنجان للتعرف على النبوءات • وبالمثل يتكهن الناس فى مقدونيا من خـلال القهـوة المتخلفة فى الفنجان • » وقد تشير فقاعة واحدة تظهر فى وسط فنجان القهوة الى أن صاحب الفنجان له صديق واحد وفى مخلص • فـاذا ــ تجمعت عدة فقاعات عند حلقة الفنجان ، فان هذا يشـير الى أن الشخص متقلب فى مزاجه العاطفى ، مشتت فى عبادته الدينية • كما

يختلف فى تفسير رواسب القهوة حسب الشـــكل الذى تتخذه ، فاذا انتشرت حول جوانب الفنجان من الداخل فى شـــكل نهيرات وجداول ، فان هذا يعنى رخاء فى المـــال ، وهكذا •

وهناك وسيلة مستحبة للتنبؤ تتبع فى أوروبا ، وذلك عن طـــريق صب رصاص أو شمع منصهر فى وعاء به ماء ، ثم تراقب الأشـــكال التى يتخذها الرصاص أو الشمع وهما يأخذان فى التجمد • وتتبع هذه الطريقة فى التنبؤ بالمستقبل فى كل من ليتوانيا والسويد واســكلندا وأيرلندا • كما أن الأيرلنديين يعتقدون أن الجنيات تتسبب فى احداث مرض يسمى « أسانى » • ولكى يتنبأ المنجمون بما اذا كان هـــــذا المرض سينتشر أم لا ، أو يتنبأون بطـــريقة للشفاء منـــه فى حـــالة انتشاره ، فانهم يستعينون فى ذلك بقطع من الفحم يضعونها فى وعاء به مـــاء رائق •

ويحق لنا أن نفترض بعد عرضنا لهذه الأمثلة أن يوسف كان يستعين بطريقة أو أخرى من هذه الطرق للتكهن عن طريق قدحه الفضى •

الباب الثالث

عصر القضـــاة والمـــلوك

الفصل الأول

موسى فى صندوق

القش

يمكننا أن نقول ان عصر الشيوخ والآباء عند بنى اسرائيل ينتهى بموت يوسف • وقد وصفت مجموعة من السير تميزت بألوانها الحية وتصويرها الرائع ، رحلة هؤلاء الشيوخ والآباء من شواطىء الفرات الى شواطىء نهر النيل • وهنا يترك المؤرخ هذه الحقبة من الزمن لفترة يسدل فيها الستار على الفصل الأول من تاريخ بنى اسرائيل • وعندما ارتفع الستار مرة أخرى على المشهد نفسه ، كانت قد ولت حقبة من الزمن تقدر بأربعمائة سنة نمت فى أثنائها أسرة الشيوخ وأصبحت أمة • من هنا يبدأ تاريخ هذه الأمة وعلى رأسها يقف موسى بشخصيته القوية ، ذلك المشرع والقائد الكبير الذى قيل انه خلص شعبه من العبودية التى عاش فيها فى مصر ، وقادهم فى تجوالهم عبر الصحراء العربية ، وشرع لهم قوانينهم ، حتى توفى فى نهاية الأمر على مرأى من أرض الميعاد التى لم يقدر له أن يطأها بقدمه •

وعلى الرغم من أننا لا نملك السبب الكافى الذى يجعلنا نشك فى صحة هذه الرواية فى خطوطها العريضة ، فان قصة موسى البطولية ، كما هى الحال فى كثير من قصص الأبطال الوطنيين قد زخرف نسيج واقعها الرزين بخيوط من الخيال المبهج فى العصور المتأخرة • ومع ذلك فان التغيير الذى داخل هذا النسيج لم يكن كبيرا الى درجة أنه لم يحل دون تعرفنا على العناصر الأساسية لهذه الحكاية • فما زالت

الحكاية تمكننا من أن نتخيل ملامح الرجل وهو يرتدى ملابس الساحر البهية الفضفاضة ، عندما واجه فرعون وتسبب فى إنزال المحنة بأرض مصر • وما زال فى وسعنا أن نتخيل الملامح الانسانية من خلال الهالة النورانية لهذا البهاء غير العادى الذى أشرق على ملامح القديس والنبى وهو يهبط من الجبل حيث تحدث مع الرب وتسلم باليد شريعة قومه الجديدة • ومما هو جدير بالملاحظة حقا ، هو أنه على الرغم من أن موسى أكثر اقترابا من الجد الفاصل فى تاريخ بنى اسرائيل من سائر شيوخهم الذين سبقوه ، الا أن عناصر الخيال والمعجزات قد داخلت قصته فى عمق أكثر مما داخلت قصص أجداده • فعلى الرغم من أن أجداده قد اتصلوا من جيل لآخر بالرب ، كما قيل ، أما وجها لوجه أو فى رؤياهم ، الا أنه لم يكن أحد منهم صانعا للمعجزات والعجائب التى تكرر حدوثها فى تاريخ موسى • فبينما نراهم هم أمامنا يتحركون بين الناس بوصفهم بشرا ، ومنصرفين للأعمال العامة ، ومشاطرين للناس أفراحهم وأحزانهم ، اذ نرى موسى من ناحية أخرى ، منذ بدء حياته حتى نهايتها ، منعزلا عن الناس لتأدية رسالته ، ومن ثم فقد كان يعيش فى أفق بعيد عن حياة الناس العاديين الفانين ، دون أن تنسب اليه تلك الزلات التى تنسب اليهم ، وهى تلك الزلات التى أضفت ، بلمسة رقيقة من ريشة المصور ، لونا حيا على صور آبائه • ولعل هذا هو السبب فى أن انسانية ابراهيم واسحق ويعقوب البسيطة تمسنا عن قرب أكثر مما يمسنا شخص موسى الذى يتميز بالروعة ، وان يكن يتميز بالانعزالية •

وتحيط ميلاد موسى ، شأن كل أحداث حياته ، هالة من الخيال • فقد قيل ان سلالة يوسف واخوته وهم أبناء اسرائيل ، تكاثرت فى سرعة فى مصر بعد موت يوسف وأخوته ، الى درجة أن أخذ المصريون ينظرون اليهم بعين الفزع وعدم الثقة ، وحاولوا أن يحولوا دون تكاثرهم عن طريق تشغيلهم فى الأعمال الشاقة التى ربما قضت عليهم ، ولكن لما فشلت هذه المعاملة فى تحقيق النتيجة المرغوبة ، أمر الملك المصرى بقتل

أطفالهم الذكور أثر ولادتهم • ولكن لما كانت القابلات اللاتى كلفن بتنفيذ هذا الأمر القاسى يتهربن من تنفيذ ذلك ، فقد أمر الملك شعبه جميعا بأن يطرح كل طفل ذكر يولد للعبريين فى النهر • وعندما ولد موسى فى هذه الظروف ، أخفته أمه أول الأمر طيلة ثلاثة شهور ، ولكنها لما لم تستطع اخفاءه أكثر من ذلك ، فقد صنعت له سفطا من القش ، أو بالاحرى من نبات البردى وطلته بالطين والقار ، ووضعت فيه طفلها • ثم حملت السفط والحزن يملؤها ، ووضعته بين الأعشاب على شاطئ النهر ، ورحلت ، بينما ظلت أخت موسى الكبرى واقفة على شاطئ النهر لتراقب ما يحدث له • وتصادف أن كانت ابنة فرعون ملك مصر ، تستحم فى النهر • فلما أبصرت السفط بين الأعشاب أرسلت احدى خدماتها لتحضره • ولما فتحت الأميرة السفط وأبصرت الطفل ، مدت يدها لتمسكه ، فبكى الطفل • فأشفقت عليه وقالت : « هذا من أولاد العبرانيين » (١) وبينما كانت تنظر للطفل ، جاءتها أخت الطفل ، التى كانت ترقب من بعيد ما يحدث وقالت للأميرة : « هل أذهب وأدعو لك مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد • فقالت لها ابنة فرعون ، اذهبى • فذهبت الفتاة ودعت أم الولد • فقالت لها ابنة فرعون اذهبى بهذا الولد وارضعيه لى وأنا أعطيك أجرك • فأخذت المرأة الولد وأرضعته • ولما كبر الولد جاءت به الى ابنة فرعون فصار لها ابنا • ودعت اسمه موسى وقالت لأنى انتشلته من الماء » (٢) •

وعلى الرغم من خلو قصة ميلاد موسى وترعرعه فى كنف أمه ثم فى كنف ابنة فرعون من العناصر الخارقة للعادة ، الا أنها تحتوى على ملامح يمكننا أن ننسبها ، بعد شىء من التدبر ، الى مجال الفولكلور أكثر من أن ننسبها الى التاريخ • اذ يبدو أن القاص ، لكى يزخرف معجزات حياة البطل ، رغب فى أن يحكى كيف تعرض الرجل العظيم

---

(١) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى آية ٦ •
(٢) سفر الخروج ، الاصحاح الثانى من آية ٧ الى ١٠ •

أو المرأة العظيمة للخطر ساعة ميـلاد الطفل ، وكيف أن الطفل لم ينقذ من الموت المحقق ، الا من خلال حادثة تبدو للعين العادية أنهـا حدثت صدفة ، وان تكن قد أثبتت حقا أن يد القدر قد تدخلت لتنقذ الطفل المعجز من أجل المصير الكبير الذى ينتظره . ومثل هذه الأحداث ينظر اليهـا فى كثير من الحالات بوصفها زخرفة اخترعها القاص . ولمسات تصويرية أضافها لكى يسمو بتأثير القصة البسيطة التى رأى أنها لا تليق بجلالة هذا الموضوع .

وقد تعرض مؤسس روما نفسـه ، وذلك وفقا للحكاية الرومانية ، فى طفولته للخطر . وربما كان مصيره الهلاك ، لولا تدخل العناية الالهية وارسالها ذئبة وطائر نقار الخشب . وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى : لقد كانت تقع مـدينة « ألبا لونجا » تلك المـدينة البيضـاء الشاسعة ، عند منحدر جبال ألبان ، وكانت تحكمها أسرة من الملـوك تدعى أسرة « سيلفى » أو أسرة « الغابات » . وفى هذه الفترة من الزمن كان الرعاة ما يزالون يرعون قطعان ما شيتهم على تلال روما ، وكانت الذئاب ما تزال تعوى فى الممرات المعشبة التى كانت تقـع بينها . وحدث فى هذا العصر أن كان لأحد ملوك « ألبـا » ، وكان يدعى « بزوكا » ابنان ، أحدهما كان دعى « نوميتر » ، والآخر « أموليوس » . وكان « نوميتر » هو الأخ الأكبر ، ومن ثم فقد عينه أبوه خليفـة على العرش من بعده . ولكن الأخ الأصغر الذى كان طموحا وان كان عديم الضمير ، سعى فى ابعاد أخيه الاكبر عن العرش بالقوة لكى يحل محله . ولم يكتف الأخ الأصغر بذلك ، وانما دبر مؤامرة ليحصن بها قوتـه المغتصبة وذلك بأن يحرم أخاه المظلوم من أن يكون له وريث من بعده . ومن أجل هذا أمر بقتل ابن « نوميتر » الوحيـد ، كما أغـرى ، أو بالأحرى أرغم ابنته التى كانت تدعى « ريانسيلفيا » ان تكرس حياتها لعبادة الالهة « فستا » (١) ، وأن تقسم على أن تظل عذراء طـوال

---

(١) الهة النار عند الرومان . (المترجمة) .

حياتها • ولكن « سيلفيا » أصبحت فيما بعد فى حل من هذا القسم عندما اكتشفت أنها حامل • وقد ولدت فيما بعد توأما ذكرا، ادعت أن الاله مارس أبوهما • ولكن عمها القاسى لم يسلم بهذا الادعاء وأمر بأن يرمى بالولدين فى النهر • وقد كان نهر « التيبر » فى ذلك الوقت قد فاض وأغرق شواطئه بحيث لم يتمكن الخدام الذين كلفوا باغراق الطفلين ، من الوصول الى النهر ، واضطروا أن يتركوا الصندوق الذى وضع فيه الطفلان فى المياه الضحلة عند سفح تل « بلاتين » ، وهناك تركوا الطفلين لمصيرهما • فلما بكى الطفلان جذب صراخهما ذئبة • فجاءت نحوهما وأخذت ترضعهما بلبنها وتعلق الأوساخ عن جسميهما • وقد خلدت هذه الحكاية فى شكل تمثال من البرونز لذئبة توضع طفلين ، وظل هذا التمثال منتصبا فى مكان الحادثة طيلة عصور الأباطرة ، ثم حفظ فيما بعد فى متحف الكابيتولين فى روما حيث لا يزال موجودا به حتى اليوم • وقد روى البعض أن طائر نقار الخشب كان يساعد الذئبة فى اطعام الطفلين وفى حراستهما • حيث ان كلا من الذئب وطائر نقار الخشب كانا مختصين بعبادة الاله مارس ، فقد أثار هذا الحادث من جديد الجدل حول بنوة الطفلين الالهين لكل من « روفولوس » و « ريموس » •

ويبدو أن هذه الحكايات العجيبة كانت تحكى بصفة خاصة عن مؤسسى الممالك والدول ، هؤلاء الذين ضاع مع الزمن نسبهم وتاريخ نشأتهم • ومن ثم فقد ملأ القاص هذه الفجوة التى خلفتها ذاكرة الانسان بأحداث من خياله • وقد أمدنا تاريخ الشرق بمثال لمثل هذه القصص السحرية التى ألقت الضوء على بداية عهد الامبراطورية القوية ، فقد كان « سرجون » الأكبر أول ملك سامى حكم بابل فى حوالى سنة ٢٦٠٠ ق • م • وقد استطاع هذا الملك أن يخلد اسمه عن طريق انتصاراته الرائعة وأعماله البناءة ، ولكنه على الرغم من ذلك فانه لم يكن يعرف له أبا • وهذا هو كل ما نعرفه من النقوش التى قيل انها كانت قد نقشت على أحد تماثيله • وقد نسخت هذه الكتابات

فى القرن الثامن قبل الميلاد وأودعت فى المكتبة الملكية فى نينوى حيث اكتشفت فى العصر الحديث • وفى هذه الوثيقة يحكى الملك تاريخ حياته المبكرة على النحو التالى :

أنا « سرجون » ، الملك القوى ، ملك أكاد
كانت أمى سيدة متواضعة ، أما أبى فلا علم لى به
ولكن عمى كان يسكن الجبال
ومدينتى هى « أزوريبانو » التى تقع على شاطىء الفرات
وقد حملتنى أمى المتواضعة وولدتنى سرا
ثم وضعتنى فى سلة من الأسل وأحكمت اغلاقها بالقار
وطرحتنى فى النهر الذى لم تغرقنى مياهه
ثم حملنى التيار الى السقاء « أكى » فحملنى معه
« أكى » السقاء ••• انتشلنى من المياه
« أكى » السقاء كفلنى كما يكفل ابنه
« أكى » السقاء عيننى بستانيا له
وبينما كنت أعمل بستانيا ، أحبتنى الالهة عشتروت
ولمدة أربع سنوات حكمت المملكة
وحكمت الشعوب ذات الرءوس السوداء وأخضعتها •

وتشبه حكاية ابعاد الطفل سرجون فى سلة من الأسل وضعت عند شاطىء النهر حكاية ابعاد موسى الطفل فى سفط من القش الذى وضع بين الأعشاب عند شاطىء النيل • وحيث أنه ليس هناك مجال للشك فى أن الحكاية البابلية أقدم بكثير من الحكاية العبرية ، فانه يترتب على هذا أن كاتب سفر الخروج ربما كان يعرف الحكاية البابلية ، وانه ألف الحكاية العبرية على نمطها • على أنه من المحتمل من ناحية أخرى أن تكون الحكايتان قد نشأتا مستقلتين من الجذور العامة للخيال الشعبى • ومن ثم ، فحيث اننا نفتقر الى دليل يمكن أن يحسم فى تأثر

أى الحكايتين بالأخرى ، فلا مجال اذن لأن ندلى بوجهة نظر فى هـذا الموضـوع •

على أن النظرية التى تقول باستقلال احدى الحكايتين عن الأخرى يؤيدها الى حد ما وجود أسطورة هندية مماثلة لهاتين الحكايتين تحتوى عليها الملحمة الهندية الكبيرة « ماهابهاراتا » • ومن الصعب أن ندعى أن مؤلف هذه الملحمة كان على علم بالحكاية السامية بحيث يكون قد حاكاها فى أسطورته • وتحكى الأسطورة الهندية أن اله الشمس كان قد وقع فى غرام ابنة الملك التى كانت تدعى « كـونتى » أو « بيريث » ، وولدت منه ابنا « جميلا كالأفلاك السماوية » • وقد ولد هذا الابن « متمنطقا بالسلاح ، ولابسا قرطا ذهبيا وضاء ، ولـه عينا أسد وكتفا بقرة » • ولما خشيت الابنة من أن يفتضح أمرها ، ومن غضب أمهـا وأبيها منها ، « وضعت » ابنها ، بناء على نصيحة خادمتها ، فى سلة لا تتسرب اليها المياه ، وغطته بملاءات لينة ناعمة مصنوعة من خيوط الأماليد المجدولة ، ووضعت تحت رأسه وسادة جميلة ، ثم أسلمت السلة لنهر « آسفا » والدموع تترقرق فى عينيهـا » •

وبعد ذلك عادت الى القصر وقد كتمت أحزانهـا فى قلبهـا ، حتى لا يفضح وجهها الحزين سرها • وحمل التيار السلة وبداخلها الطفل حتى أوصلها الى نهر الكنج الذى حملها بدوره الى شاطىء مدينة « تشامبا » التى تقع فى مقاطعة « سوتا » • وتصادف أن كان رجل من قبيلة « سوتا » يسير مع زوجته على شاطىء النهر ، عندما وقع بصره على السلة ، فجرها من المـاء • وعندما فتحها أبصر طفـلا « جميلا كشمس الصباح ، متمنطقا بدرع ذهبى ، ويزين وجه الجميل قرط براق » • ولما كان هذان الزوجان لم ينجبا أطفالا ، فقد قال الرجل لزوجته عندما وقع بصره على الطفل الجميل : « لقد أرسلت لى الآلهة هذا الطفل بكل تأكيد لعلمها أننى لم أنجب أبناء » • ومن ثم

فقد تبنى الزوجان هذا الطفل الذى ترعرع فى كنفهما ، وأصبح راميا بارعا للسهام وأطلقا عليه اسم « كارنا » • أما أم الطفل فقد كانت تعلم أخبار الطفل أولا بأول عن طريق جواسيسها •

وشبيه بهذه القصص ما يحكى عن « تراكهان » ملك « جيلجيت » ، وهى بلدة تقع على ارتفاع خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر فى قلب جبال الهملايا الثلجية • ولما كانت « جليجيت » تتميز بجوها وموقعها المتوسط ، كما كانت تشتمل على مساحة شاسعة من الأراضى الخصبة ، فقد كانت مركزا لحكام تعاقبوا عليها عبر الأجيال ، فرضوا سيطرتهم فى قليل أو كثير من العنف على الأودية والممالك المجاورة • من أشهر هؤلاء الحكام بدون منازع كان الملك « طرخان » الذى كان يحكم فى حوالى مطلع القرن الثالث عشر ، وكان ، فيما روى ، أعظم هؤلاء الحكام وأكثرهم زهوا ، ومازال الناس يشغلون أنفسهم بروايات حكايات عن كنوزه وأفعاله • وتجرى حكاية ميلاده وابعاده على النحو التالى : كان والد طرخان واسمه « ترا ــ طرخان » ملكا على جيلجيت ، وكان متزوجا من امرأة تنتمى الى عائلة ثرية فى « داريل » • ولما كان الزوج يهوى لعبة البولو ، فقد تعود أن يذهب الى « داريل » كل أسبوع ليمارس لعبته المحبوبة اليه مع اخوة زوجته السبعة • وذات يوم كان الجميع يلعبون بحماس بالغ الى درجة أنهم اتفقوا فيما بينهم أن الغالب فيهم يحكم على الآخرين بالموت • وقد كانت المباراة طويلة وحامية ، ولكن الملك أحرز النصر فى نهاية الجولة ، ونفذ الحكم فى الاخوة السبعة بوصفه رياضيا صادقا • وعندما رجع الى بيته بروح عالية بدون شك ، وأخبر زوجته بنتيجة المباراة المؤلمة ، وان كانت محتمة ، كانت الملكة أبعد من أن تشاركه فرحه بنصره ، بل انها استاءت لجريمته ، أو بالأجرى بتنفيذه حكم الشنق فى اخوتها السبعة ، وعزمت على أن تنتقم لهم منه ، فوضعت له الزرنيخ فى طعامه ، فهلك فى الحال وحكمت بدلا منه • وكانت الملكة تعلم ، وهى تتخذ هذه الخطوة الجريئة، أنها حامل من الملك • ثم وضعت طفلا ذكرا بعد وفاة زوجها بشهر ،

وسمت ابنها « طرخان » • ولكن الأم كانت ما تزال حزينة كل الحزن على فقد اخوتها الى درجة أنها لم تطق النظر الى ابن قاتلهم • ومن ثم فقد وضعت الطفل فى صندوق خشبى ورمت به سرا فى النهر • فحمل التيار الصندوق بعيدا الى « هودار » وهى قرية تقع فى ضاحية « تشيلاز » • وتصادف أن كان أخوان فقيران يجمعان الحطب من من الشاطىء ، عندما أبصرا الصندوق يطفو على الماء ، ولما كانا يعتقدان أن الصندوق ربما احتوى على كنز ، فقد غاص أحدهما فى الماء وجر الصندوق الى الشاطىء • وحتى لا يثير الأخوان فضول الناس إذا ما سارا بالصندوق الذى يحمل الكنز المتوقع عاريا ، فقد أخفياه بين عيدان الحطب وسارا به الى بيتهما • وعندما فتحا الصندوق، فوجئتا لدهشتهما بأن بالصندوق طفلا حيا جميلا • فتسلمته منهما أمهما وشملته برعايتها • ويبدو أن الطفل كان قد جلب معه البركة لأهل البيت ، اذ سرعان ما أخذت تبدو على الأسرة التى كانت معدمة من قبل ، امارات الثراء • وتفاءلت الأسرة بالطفل الذى كان سببا فى هذا الخير • ولما شب الطفل عن الطوق وبلغ الثانية عشرة من عمره ، شعر برغبة شديدة فى زيارة « جيلجيت » التى طالما سمع عنها الكثير من الأخبار • فرحل اليها فى صحبة أخويه فى الرضاع • وفى أثناء الطريق، مكثوا بضعة أيام فى مكان يسمى « بالداس » ، كان يقع على قمة تل من التلال • فى هذا الوقت كانت أم الصبى الملكة ما تزال تحكم فى جليجيت ، وكانت قد وقعت فريسة للمرض • ولما لم يكن هناك من يخلفها فى الحكم ، فقد أخذ شعب جيلجيت يبحث عن ملك غريب ليحل محلها • وذات صباح ، وبينما كانت كل شئون الدولة معلقة بظهور الملك الجديد ، أخذت ديوك القرية تصيح • ولكنها لم تصح صياحها المألوف ، « كوك آه دودلى ــ دو » بل صاحت :« بلداس ثام بابيى » • ومعنى العبارة « هنا ملك بينكم فى بادااس » • واثر ذلك أرسلت الرسل الى « بلداس » لتحضر كل شخص غريب تقع عليه أبصارهم • وتقابل الرسل مع الأخوة الثلاث الغرباء وأحضروهم

الى الملكة ، ولما كان « طرخان » ممشوق القد ذا هيبة ، فقد أخـذت تتحدث معه دون اخوته ، ومن خلال حديثها معه عرفت قصة حياته • ولشدة سعادتها عرفت أن هذا الغلام الجميل هو ابنها الذى فقدته عندما رمت به فى النهـر وهى فى غمرة حـزنها على فقد اخـوتها ، وحنقها على زوجها الراحل • وعند ذاك احتضنت الأم ابنها ونادت به ملكا على جيلجيت من بعدها •

وقد افترض بعض الباحثين أن الحكايات الشبيهة بحكاية ابعـاد موسى الطفل وطرحه فى المـاء بقايا عادة قديمة كانت تتبع بقصـد اختبار بنوة الأطفال الشرعية لآبائهم • فقد كان الأطفال يطرحـون فى المـاء حيث يتركون لمصيرهم • فاما أن يطفوا ، أو يستقروا فى قاع المـاء • والطفل الذى يطفو يعد طفلا شرعيا ، أما الطفل الذى يستقر فى المـاء ، فان المجتمع يرفضه بوصفه ابنا غير شرعى • وربما اتضح فى ضوء هذا الفرض ، أن ميلاد الطفل فى كثير من الحكايـات السابقة يصور على أنه حـدث خارق للعـادة ، ويرتبط بهـذا ميل المتشـككين الى اعتبار الطفل مرادفا للشىء الخـارج عن المألوف • ومن ثم حكت الأسطورة الاغريقية أن كلا من الطفلين « برسيوس » ، و « تيليفوس » كانا ابنى الاله زيوس ، وبالمثل البطل هرقل • كذلك حملت الأم العذراء فى التوأم « روموليوس » ، فى الأسطورة الرومانية، عن طريق الاله « مارس » • كما عزت الأميرة فى الملحمة الهنـدية ، حملها فى ابنها لاحتضان اله الشمس لها • أما فى الحكاية البابلية من ناحية أخرى فقد كان الملك سرجون ، أقل حظا من أبطـال الاغريق الهنود والرومان ، أو لنقل أكثر صـدقا منهم ، عندما اعترف فى صراحة بأنه كان يجهل أباه • أما حكاية التوراة فلم تذكر شيئا عن شرعيـة بنبوة موسى • لكننا اذا تذكرنا أن عمران والد موسى كان متزوجا من عمته ، وأن موسى كان ثمرة هذا الزواج ، واذا تذكرنا أن القانـون العبرى المتأخر قد أبطل مثل هذا الزواج باعتباره زنا ، فربما ساورنا الشك ، ونرجو ألا نتهم بالتعسف فى هذا الشك ، أن أم مـوسى فى

الشكل الأصلى الحكاية كان يدفعها سـبب خاص فى طـرح ابنهـا فى النهر ، وأنها لم تفعل هذا رضوخا لأمر عام صدر من فرعون بطرح كل أطفال العبريين فى الماء • ومهما يكن الأمر فى الحكاية العبرية فانه يبدو أنه كانت من عادة الشعوب الأخرى ، أن تطرح الطفل فى المـاء لتقرر ما اذا كان الطفـل شرعيا أم غير شرعى ، ومن ثم كانت تقرر الابقاء عليه أو اعدامه • فقد قيل ان الكلتيين كان يحكمون نهر الراين فى أمر شرعية أبنائهم أو عدم شرعيتهم ، فقد كانوا يرمون أطفالهم فى النهر ، فاذا كان الأبناء أولاد زنا ، آغرقهم النهر المتجهم ذو المياه الصافية • أما اذا كانوا أبناء شرعيين ، حملهم النهر فى رفق عـلى سطحه ، ودفعهم الى أحضان أمهاتهم اللاتى كن يقفن مرتجفات فى انتظار حكم النهر • وبالمثل حكى الناس فى افريقيا الوسطى للمكتشف « سبيكى » عن حاكم مشهور كان يسكن بالقـرب من « أوروورى » احدى ضواحى « أونييورو » التى تتبع ولاية « كيميزبرى » ، أنـه كان يزين أطفاله بالخرز ويرميهم فى نهز نيانزا لكى يتأكد من شرعية بنوتهم له • فاذا غرق الأطفال فى الماء ، كان ذلك دليلا على أنهـم ينتسبون لأب آخر ، أما اذا طفوا ، فانه يعيدهم الى حضانته •

الفصل الثانى

شمشون ودليله

يبدو شمسون البطل المارد ، ذا شخصية غريبة بين قضـــاة بنى اسرائيل الكبار • وقد ذكر الكتاب المقدس أن شمسون كان يشـــغل منصب القضاة فى بنى اسرائيل طيلة عشرين عاما ، ولكنه لم يـــذكر شيئا عن احكامه القضائية التى أصدرها وفقا لشخصيته القضائية • واذا كان لنا أن نصدر حكما على فحوى أحكام شمسون من خـــلال طبيعة أفعاله ، فانه يحق لنا أن نتشكك فيما إذا كان هذا الرجل يعـــد مفخرة فى تاريخ القضاء الاسرائيلى ، ذلك أن موهبته كانت أكثر ما تتمثل فى احداث الشغب والعراك وفى احراق مؤن الذرة التى يختزنها الناس ، وفى كثرة التردد على بيوت الدعارة • أى أن شمسون كـــان يبدو فى شخصية الطليق الفاجر الخليع أكثر مما كان يبدو فى شخصية القاضى الكفء الصارم • ومن ثم فنحن لن نعالج الآن قائمة جافة من الأحكام القانونية ، وانما سنعالج حكايات مغامراته المسلية غـــير اللائقة ، فى الحب والحرب ، أو بالأحرى فى القرصنة • ذلك أننا اذا قبلنا الحكايات التى دونت عن هذا الطائش الفاجر ، ونحن ملتزمون بها بدون شك ، فاننا نجد أنه لم يقم قط بحرب نظامية ، كما لم يقم بعصيان وطنى مسلح ضد الفلسطينيين الذين ظلموا قومه ، وانما كان يقوم بمجرد هجوم مفاجىء عليهم بوصفه البطل الفرد أو الفـــارس المتجول ، ثم يضربهم بفك حمار أو بأى سلاح آخر يقع فى يده • وحتى فى هذه الغارات التى تقوم على السلب ، (اذ أنه لم يكن يتورع عن أن يسلب ضحاياه من ملابسهم ، ومن المحتمل من ثروتهم) كانت فكرة تخليص قومه من العبودية ، كما يتضح ن كل الشواهد ، آخر ما يتراءى

له • وعندما كان يقوم بمذبحة للفلسطينين ، كما كان يفعل ذلك كثيرا في تهور بالغ ، وبارتياح قلبى ، فانه لم يكن يفعل هذا بدافع وطنى أو دهاء سياسى ، وانما بدافع حقد شخصي صرف يهدف الى الانتقام من هؤلاء الذين أساءوا له ولزوجته وولدهما • فقصته من بدايتها حتى نهايتها هى قصة مغامر أنانى مخادع تحركه ثورات عاطفية جامحة ، ولا يكترث بشيء سوى ارضاء نزواته الوقتية • ولم يخفف من حدة نذالة هذه الشخصية وابتذالها المألوف سوى تلك القوة الخارقة للعادة ، والبسالة الطائشة ، ونمط مقيت من الفكاهة • وقد رفع هذا كله القصة الى نوع من الملحمة الهزلية من النوع الذى كتبه « أريستو » (١) • واذا كانت هذه العناصر قد أضفت الجدة على قصة معارك هذه الشخصية ، فانها لم تقلل من احساسنا بالنفور من هذه الشخصية الغريبة المختالة المتغطرسة ، وبخاصة اذا وضعناها جنبا الى جنب مع شخصيات القديسيين والأبطال الذين صوروا فى معرض التاريخ الاسرائيلى • وربما تمثلت الحقيقة فى أن المبالغة فى تصوير شخصية شمسون ترجع الى لمسات مصور القصة أكثر مما ترجع الى الحقيقة التاريخية • اذ من المحتمل أن الحوادث العجيبة المسلية التى رويت عن تاريخ حياة هذه الشخصية السيئة السمعة ، قد انسابت فى غير ضابط بوصفها حكايات شعبية ، مع تيار التراث الشفاهى ، وذلك قبل ان تبلور بزمن طويل فى ذاكرة الشعب حول شخصية رجل حقيقى باسل من سكان النجاد والحدود ، ومن نوع الرجال العبريين الذين كانوا يعيشون على السلب والنهب ، الذى أشتهر بوصفه بطل بنى اسرائيل فى كثير من الغزوات التى كان يقوم بها عبر الحدود الى سهول فلسطين الغنية ، بفضل مزاجه الحاد وقوته الخارقة وجسمه القوى • ذلك لأنه ليس هناك سبب مقنع يجعلنا نشك

---

(١) شاعر ايطالى كوميدى عاش فى نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر . (المترجمة) .

فى وجود أساس صلب من الواقع يرتكز عليه هذا التكوين المهلهل الخيالى الذى تشف عنه أسطورة شمشون . ومما يؤكد كل التأييد وجود رواية محلية أصلية لحكاية شمشون ، ويعارض فى الوقت نفسه نظرية الأسطورة الفلكية التى يمكن أن يلجأ اليها أصحابها فى تفسير قصة البطل الأسمر ، أن مناظر قصة حياة هذا البطل قد صورت فى أخص خصائصها من ميلاده الى مماته فى بلاد وأمكنة بعينها ..

وأكثر ما يتضح تدخل القاص فى هذه الحكاية ، فى وصف الكارثة التى حلت بالبطل بسبب خداع امرأة منافقة له ، بعد أن استطاعت أن تستدرجه حتى اكتشفت سر قوته وأفشته الى اعدائه . وتجرى حكاية هذا الخداع على النحو التالى :

« وكان بعد ذلك أنه أحب امرأة فى وادى سورق اسمها دليلة . فصعد اليها أقطاب الفلسطينيين وقالوا لها : تملقيه وانظرى بماذا قوته ومائة شاقل فضة . فقالت دليلة لشمشون أخبرنى بماذا قوتك وبماذا توثق لاذلالك ؟ . فقال لها شمشون اذا أوثقونى بسبعة أوتار طرية لم تجف ، أضعف وأصير كواحد من الناس . فأصعد لها أقطاب الفلسطينيين سبعة أوتار طرية لم تجف فأوثقته بها والكمين لابث عندها فى الحجرة . فقالت له ، الفلسطينيون عليك يا شمشون . فقطع الأوتار كما يقطع فتيل المشاقة اذا شم النار ولم تعلم قوته . فقالت دليلة لشمشون ، ها قد ختلتنى وكلمتنى بالكذب ، فأخبرنى الآن بماذا توثق ؟ . فقال لها اذا أو ثقونى بحبال جديدة لم تستعمل أضعف وأصير كواحد من الناس . فأخذت دليلة حبالا جديدة وأوثقته بها وقالت له ، الفلسطينيون عليك يا شمشون ، والكمين لابث فى الحجرة . فقطعها عن ذراعه كخيط . فقالت دليلة لشمشون حتى الآن ختلتنى بالكذب . فأخبرنى بماذا توثق ؟ فقالت لها اذا ضفرت سبع خصل رأسى مع السدى ، فمكنتها بالوتد . وقالت له . الفلسطينيون عليك

يا شمشون • فانتبه من نومه وقلع وتد النسيج والسدى • فقـــالت له ، كيف تقول أحبك وقلبك ليس معى ؟ هو ذا ثلاث مرات قد ختلتنى ولم تخبرنى بماذا قوتك العظيمة ؟ ! • ولمـــا كانت تضايقه بكلامها كل يوم وألحت عليه ، ضاقت نفسه الى المـــوت • فكشف لها كـــل قلبه وقال لها : لم يعل موسى رأسى لأنى نذير الله من بطـــن أمى • فان حلقت تفارقنى قوتى وأضعف وأصير كأحد الناس • ولمـــا رأت دليلة أنه قد أخبرها بكل ما فى قلبه أرسلت فدعت أقطاب الفلسطينيين ، وقالت اصعدوا هذه المرة فانه قد كشف لى كل قلبه • فصعد اليهـــا أقطاب الفلسطينيين وأصعدوا الفضة بيدهم • وأنامته على ركبتيها ودعت رجلا وحلقت سبع خصل رأســـه وابتدأت باذلاله وفارقتـــه قوته • وقالت الفلسطينيون عليك ياشمشون • فانتبه من نومه وقال أخرج كل مرة • وانتفض • ولم يعلم أن الرب قد فارقه • فأخـــذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه ونزلوا به الى غـــره وأوثقوه بســـلاسل نحاس وكان يطحن فى بيت السجن » (١) •

وهكذا نرى ان العبريين كانوا يعتقدون أن قوة شمشون المهولة كانت تكمن فى شعره ، وأن مجرد حلق خصلات شعره الطويلة الشعثاء التى كانت تتدلى على كتفيه ، ولم تحلق منذ نعومة أظفاره ـــ كـــان كافيا أن يسلبه قوته الخارقة للعادة ، ومن ثم يصبح عاجزا عن القيام بأعماله البطولية • وهذا الاعتقاد فى أن بعض الأحياء من الرجـــال والنساء ، وبخاصة هؤلاء الذين يعتقد فى امتلاكهم لقوة خارقة للعادة مثل شمشون ، ينتشر فى جهات كثيرة من أنحاء العالم • فقد كان أهالى جزيرة « أمبوينا » ، وهى جزيرة تقع فى جزر الهند الشرقية ، يعتقدون أن قوتهم تكمن فى شعرهم وأنهم يفقدون تلك القوة اذا ما قصـــوا خصلات شعرهم • وبالمثل كان المتهم أمام المحكمة الهولندية فى هذه

---

(١) سفر القضاة ، الاصحاح السادس عشر من آية ٤ الى ٢١ .

الجزيرة يصر على عدم الاعتراف بجريمته ولو تعرض للعذاب ، حتى تقص خصلة من شعره وعند ذاك يعترف بجريمته فى الحال • وقد حدث أن اتهم رجل بجريمة قتل وتعرض لأقسى انواع العذاب حتى يعترف بجريمته دون أن يبدى أى ألم ازاء هذا التعذيب • ولكنه عندما أبصر رجلا يحمل مقصا فى يده ، سأل عن الغرض من حمل الرجل لهذا المقص • فقيل له أنهم يريدون أن يقصوا له شعره ، وعند ذاك توسل اليهم فى الحال الا يفعلوا ذلك ، لأنه سوف يعترف لهم بكل شىء • ومن ثم فقد تعودت السلطات الهولندية أن تقص شعر المتهم ، اذا فشل التعذيب فى حمله على الاعتراف • وما زال سكان « سيرام » وهى جزيرة أخرى من جزر الهند الشرقية ، يعتقدون أنه اذا حلق شبابهم شعورهم فان الضعف والوهن ينتابهم أثر ذلك •

وقد ألف الأوربيون أن يعتقدوا أن القوة الشريرة عند السحرة والعرافين تستكن فى شعورهم ، وأنه ليس هناك من شىء يؤثر فى هؤلاء الأوغاد طالما كانوا يحتفظون بشعورهم على رءوسهم • ومن ثم فقد جرت العادة فى فرنسا أن يحلق كل جزء من أجسام الذين يتهمون بالشعوذة ، وذلك قبل تسليمهم الى من يقوم بتعذيبهم • وقد رأى « ميلايوس » رأى العين التعذيب الذى تعرض له بعض الأفراد فى تولوز حتى يعترفوا بجرائمهم وظلوا على هذا النحو من الاصرار حتى عروا من ملابسهم وحلق كل جزء من أجسامهم • كما كانت هناك امرأة تعيش حياة ورعة فيما يبدو ، ولكنها اتهمت بممارستها السحر ، ومن ثم فقد تعرضت لشتى أنواع التعذيب الذى تحملته بشكل لا يصدقه عقل ، حتى دفعها ازالة شعرها عن جسدها كله الى الاعتراف بتهمتها • وقد كان المحقق المرموق « سبرنجر » يكتفى بحلق رأس المتهم بممارسة السحر أو الشعوذة ، فى حين أمر زميله المتطرف « كومانوس » بحلق شعر جسم إحدى وأربعين امرأة قبل أن يحكم عليهن بالموت حرقا • وكان قد فوض تفويضا كاملا لأن يكون مدققا فى هذا العمل على نحو ما فعله ، حيث أن الشيطان نفسه كان قد

خطب من أعلى منبر كنيسة « نورث بيرويك » ليطمئن اتباعه بأن أكد لهم أن الأذى لن يلحق بهم قط « طالما كانوا يحملون شعرهم على أجسامهم ، وأنه لن يسمح لأحد بأن يزيل هذا الشعر عنهم » . وقد كان يحدث ما يشبه هذا فى مقاطعة « باستار » فى الهند . « فعندما كانت تثبت التهمة ضد رجل من هذه المقاطعة بأنه يمارس السحر ، فان الجمهور كان ينهال عليه ضربا ، كما كان يحلق شعره ، حيث أن قوى الشر تكمن فى شعره وتخلع أسنانه الأمامية حتى لا يستطيع ترديد التعاويذ . أما النساء اللاتى يتهمن بممارسة الشعوذة ، فانهن يتعرضن لمثل هذا الامتحان القاسى . فاذا ثبتت تهمتهن ، فانهن ينلن العقاب الذى يناله الرجال المشعوذين . وفضلا عن حلق شعورهن ، فانها كانت تربط فى شجرة فى مكان عام » وعندما كانت المرأة تتهم بممارسة السحر عند « البهيليين » وهم شعب بدائى يسكن الهند الوسطى ، فإنها كانت تتعرض لصنوف من التهديد التى تحملها على الاعتراف باثمها ، كأن تعلق أمامها على شجرة رءوس أشخاص سبق أن حكم عليهم بالشنق ، وكأن يوضع الفلفل فى عينيها ، وتقص خصلة شعر من رأسها وتدفن فى الأرض « حتى تنفصم آخر عروة بينها وبين قواها الشريرة السالفة » . وقد كان « الأزتيكيون » فى المكسيك يعاقبون السحرة والمشعوذين على هذا النحو ، « فعندما كان هؤلاء يقومون بأفعالهم الشريرة ، ويحين الوقت الذى ينبغى أن يوضع فيه حد لحياتهم المقيتة ، يلقى القبض عليهم وتحلق خصلة من الشعر من قمة رءوسهم ، فتسلب منهم مقدرتهم على التنجيم والشعوذة ، وفى النهاية يحكم عليهم بالموت ، فتنتهى بذلك حياتهم الكريهة .

وليس غريبا ان يجد هذا الاعتقاد الذى ينتشر على نطاق واسع ، مكانا له فى الحكايات الخرافية . فكل ما يبدو فى الحكاية الخرافية من خيال منطلق ، انما هو مرآة تنعكس عليها المعتقدات الحقيقية التى كان يعتقدها الناس الذين نشأت بينهم هذه الحكايات . فسكان جزيرة نياس التى تقع بعيدا عن الشاطىء الغربى من سومطرة يحكون

أنه كان فى سالف الأزمان زعيم بعينه يدعى « لابو ــ ماروس » • وقد هاجر هذا الزعيم من « مكاسار » التى تقع فى « سيليبيس » بسبب الزلازل ، ورحل مع رفاقه الى « نياس » • وكان من بين الذين شاطروه مصيره فى الأرض الجديدة ، عمه وزوجة هذا العم • ووقع ابن الاخ النذل فى حب زوجة عمه ، ودبر مؤامرة لكى يمتلكها لنفسه • وعندئذ هرب عمه المعذب الى « مالاكا » حيث طلب من سلطان « جوهورى » أن يساعده فى الانتقام من ابن أخيه • فوافق السلطان وأعلن الحرب على « لاوبو ماروس » • فى هذه الأثناء حصن الزعيم المخادع مكان اقامته بسور شائك من فروع البامبو بحيث باءت محاولات السلطان وجيشه بالفشل فى سبيل الاستيلاء على هذا المكان عنوة • فلما انهزم السلطان على هذا النحو فى هذه المعركة المكشوفة لجأ الى الخديعة • فعاد الى بلدة « جوهورى » ، وحمل سفنه بالحصر الأسبانية ثم أبحر مرة اخرى الى « نياس » ، ورسا بعيدا عن قلعة عدوه ، وشحن بنادقه بالحصر بدلا من البارود والمفرقعات ، وصوبها الى قلعة عدوه • وفى الحال تطايرت الحصر فى الهواء كوابل من البرد ، وغطت سور القلعة الشائك ، كما غطت الشاطىء المجاور • ولما أحكم السلطان الفخ على هذا النحو ، انتظر ما يفعله عدوه • على أنه لم ينتظر طويلا ، عندما أبصر امرأة عجوزا تجوس على طول الشاطىء خلسة ، وتأخذ احدى هذه الحصر ، بينما كانت سائر الحصر تنتشر حولها فى اغراء • وسعدت المرأة بهذا الاكتشاف ومضت تحمل أنباء هذه الحصر الى الجيران • عند ذاك خف الجميع الى هذا المكان ، وفى لحظة لم يصبح السور الشائك عاريا من الحصر فحسب ، وانما هو محطما الى الأرض • ولم يبق أمام السلطان سوى أن يسير بجيشه الى القلعة ويستولى عليها • وعند ذاك هرب الجيش المدافع عنها ، ووقع الزعيم النذل أسيرا فى يد اعدائه الظافرين الذين حكموا عليه بالاعدام • على أنهم لم يستطيعوا أن ينفذوا هذا الحكم فيه لأنهم عندما رموه فى اليم ، لم يغرقه الماء • فلما طرحوه وسط كومة

من الحطب المحترق ، لم تحرقه النار • فانهالوا على جسمه بالسيوف ، ولكن السيوف لم تخترقه • وعند ذلك أدركوا أنه لا بد أن هناك قوى سحرية تتملكه • فلجأوا الى زوجته عساهم يلمسون عندها النصح فى كيفية قتله • ورضخت الزوجة لمطالبهم وأفشت سر زوجها الخطير كما فعلت دليلة مع شمشون ، وأخبرتهم بأن هناك شعرة صلبة كالسلك النحاسى بين شعر رأس زوجها ، وأن حياته ترتبط بهذه الشعرة • فلما انتزعت الشعرة من رأس الزعيم ، فارقته روحه فى الحال • ونلاحظ فى هذه الحكاية كما هو الحال فى غيرها من الحكايات ، أن الشعر لا يعد مكمنا لقوة الشخص فحسب ، بل يعد كذلك مكمنا لروحه • ومن ثم فان فقدان الشخص لشعره يعنى فقدانه لحياته •

وكثيرا ما تتردد فى تراث الاغريق الأسطورى حكايات شبيهة بحكاية شمشون ودليلة • فقد حكى أن « نيسوس » ملك « ميجارا » ، كانت له شعرة ذات لون ذهبى أو أرجوانى وسط رأسه • وقد كان هذا الملك معرضا للموت اذا ما انتزعت هذه الشعرة من رأسه • فلما هاجم الكريتيون « ميجارا » وانتصروا عليه ، وقعت ابنة « ميجارا » فى حب « ميتوس » ملك الكريتيين • ولم تتورع الابنة عند ذاك من انتزاع هذه الشعرة من رأس أبيها الذى توفى فى الحال • ووفقا لرواية أخرى انه لم تكن تستقر فى هذه الشعرة روح « ميجارا » ، بل قوته • فلما انتزعت هذه الشعرة من رأسه وهن العظم منه ، وبذلك تمكن « نيسوس » من قتله • وهذه الرواية الأخيرة أقرب لقصة شمشون ودليلة من الرواية الأولى منها • وقد قيل ان « بوزايدون » قد أكسب « بيتيريلاوس » الخلود بأن منحه شعرة ذهبية فوق رأسه • ولكن عندما استولى « أمفيتيو » على « تافوس » موطن « بيترلاوس »، ووقعت ابنة الأخير فى حب « أمفيتريو » ، انتزعت الشعرة التى كانت تستقر فيها روح أبيها ، وبذلك قضى أبوها نحبه • وتحكى حكاية شعبية أغريقية عن رجل كانت تكمن قوته فى ثلاث شعرات ذهبية فى رأسه • فلما انتزعت أمه هذه الشعرات من رأسه ، انتابه الوهن

والجبن ، ثم قتل بيد أعدائه من بعد • وهناك حكاية أغريقية أخرى تحتوى على أثر من حكاية « نيسوس » و « سيسلا » ، وتحكى أن ملكا كان يعد أقوى رجال عصره ، وكانت له ثلاث شعرات فى صدره تكمن فيها قوته • فلما خرج لمحاربة ملك آخر ، كانت زوجته المخادعة قد انتزعت هذه الشعرات من صدره ، وبذلك أصبح أضعف الرجال فى هذه الحرب •

وتشبه حكاية خداع دليلة الغادرة لعشيقها شمشون ، عندما كشفت لأعدائه عن سر قوته ، ما يحكى فى التراث الكلتى والسلاف من حكايات شبيهة بذلك • ووجه الاختلاف بين الحكايات الكلتية والسلافية من ناحية ، والحكاية العبرية من ناحية أخرى ، هو أن قوة البطل أو روحه لا تكمن فى الحكايات الأولى ، فى شعره ، بل تكمن فى شىء خارجى مثل بيضة أو طائر • فهناك حكاية روسية تحكى ان ساحرا بعينه يسمى « كاشتشاى » أو « كوششاى الذى لا يموت » ، خطف أميرة وحبسها فى قلعته الذهبية • وبينما كانت الأميرة تسير ذات يوم فى حديقة القلعة وحيدة حزينة ، تقابل معها أمير من الأمراء وعرض عليها أن تهرب معه • وسعدت الأميرة بهذه الفكرة ، وذهبت الى الساحر وقالت له بألفاظ ناعمة رقيقة : « أتوسل اليك يا أحب رجل عندى أن تخبرنى : ألن تموت أبدا » ؟ فأجابها قائلا : « أجل ، بل أننى سأموت » • فقالت له : « حسنا ، ولكن أين مكمن موتك ؟ هل هو فى هذا المسكن الذى تعيش فيه ؟ « فقال لها » : نعم أنه بكل تأكيد فى هذا المسكن ، انه يكمن فى المكنسة التى تقع تحت عتبة الباب » • عند ذلك أتت الأمير بالمكنسة وألقت بها فى النار • وعلى الرغم من أن النار التهمت المكنسة فإن « كوششاى الذى لا يموت » ظل حيا لأنه لم يذكر لها شيئا عن شعره • فلما رأت الأميرة الماكرة الذكية أنها لم تنجح فى محاولتها الأولى ، جاءته مرة أخرى مقطبة وجهها وقالت له : « انك لا تحبنى حبا صادقا ، لأنك لم تخبرنى بالمكان الحقيقى الذى يكمن فيه موتك • ومع ذلك فاننى لست غاضبة منك لأننى أحبك من صميم قلبى » • وبهذه الكلمات المتملقة استدرجت

الساحر الى أن يخبرها بحق بالمكان الذى يكمن فيه موته • فضحك الساحر وقال لها : « لماذا تلحين وراء هذا الموضوع ؟ ومع ذلك فسوف أخبرك بذلك بدافع حبى لك • فهناك فى حقل بعينه تنمو ثلاث شجرات من البلوط ، وهناك تحت جذور أكبر هذه الشجرات تعيش دودة • فاذا تمكن أحد من العثور على هذه الدودة وقام بسحقها فاننى سأموت على الفور » • وبهذه الكلمات رحلت الأميرة على التو الى حبيبها وأخبرته بقول الساحر ، فهم فى البحث عن الشجرات حتى وجدها واستخرج الدودة وسحقها • ثم أسرع الى قلعة الساحر حيث وجده ما يزال على قيد الحياة • فلجأت الأميرة مرة ثالثة الى حيلة تملقت بها الساحر ولاطفته حتى غلبته بخداعها وفتح لها مكنون صدره وأخبرها بالحقيقة وقال لها « ان موتى يكمن فى المحيط الشاسع بعيدا عن هذه الأمكنة جميعا ، وليس من اليسير الحصول عليه • ففى هذا المحيط توجد جزيرة ، وهناك فى هذه الجزيرة تنمو شجرة بلوط يستقر تحتها صندوق حديدى بداخله سلة بداخلها أرنب برى • وبداخل الأرنب بطة وبداخل البطة بيضة • ومن يستطيع أن يعثر على البيضة ويهشمها ، فانه يقتلنى فى الوقت نفسه • وحصل الأمير بطبيعة الحال على هذه البيضة التى كان من شأنها أن تقرر مصيره ، وواجه الساحر وهو يحمل البيضة فى يده • وقد كان فى وسع الساحر أن يقتله ، لولا أن الأمير أسرع وهشم البيضة بين يديه • وفى تلك اللحظة صرخ الساحر من الألم وتوجه الى الأميرة الخادعة التى كانت واقفة وهى تبتسم فى شماتة وقال لها : « ألم يكن حبى لك هو الذى دفعنى لأن أخبرك بالمكان الذى يستكن فيه موتى ، واذ بك تكافئينى على هذا النحو ؟ » • ثم حاول أن يمد يده ليأخذ السيف الذى كان معلقا أمامه على المشجب • ولكنه قبل أن يفعل هذا سحق الأمير البيضة ، فتوفى الساحر فى الحال •

وفى رواية أخرى لهذه الحكاية نفسها ، أن الأميرة طلت المكنسة بالذهب عندما أخبرها كذبا أن موته يكمن فيها • فلما كان وقت العشاء

أبصر الساحر بريق المكنسة من تحت عتبة الباب فسألها في حـدة : « ما هذا الذى فعلته ؟ » فقالت له « أترى كيف أننى أقدرك ؟ » فقال لها : « أيتها المرأة الساذجة ، لقد كنت أمزح معك عندما أخبرتك أن موتى يكمن فى المكنسة ٠ فموتى يكمن فى الحقيقة فى سور القلعـة المصنوع من فروع البلوط » ٠ فلما خرج الساحر فى اليـوم التالى ، جاء الأمير وطلى السور كله بالذهب ٠ فلما عاد الساحر فى المساء وكان وقت العشاء ، نظر من النـافذة فبهـره بريق الذهب الذى طلى به السور ٠ فقال لها : « بحق الشيطان ، ما هذا الذى فعلته ؟ » فقالت له : « لعلك تتأكد كيف أننى أقدرك ٠ واذا كنت أنت عزيزا على كما ترى ، فان موتك يعز على كذلك ٠ ولهذا فقد طليت السور الذى يستقر فيه موتك بالذهب » ٠ وخدع الساحر بقول الأميرة وأبدى الرغبـة الصادقة فى أن يكشف لها سر البيضة الخطيرة ٠ وعندما حصل الأمير على البيضة بمساعدة بعض الحيوانات الصديقة له ، وضع البيضـة فى صدره وعاد الى قلعة الساحر ٠ وكان الساحر يجلس آنذاك فى شباك قلعته مشتت العقل ٠ وعندما وصل الأمير واطلع الساحر على البيضة ، صار الضياء فى عينه ظلاما وتحول الى شخص خنوع لين ٠ ثم أخذ الأمير المنتصر يلعب بها ويقذفها من احدى يديه الى الأخرى ، وكوششاى الذى لا يموت يتخبط من ركن الى ركن فى الحجرة ٠ وفى النهاية هشم الأمير البيضة ، فسقط الساحر ميتا ٠

وتحكى حكاية سيبيرية أن ساحرا بعينه يدعى « الصلب الأصيل » خطف زوجة أمير وحبسها فى كهفه ٠ وأخذ الأمـير يسـعى حتى عرف مكانها وأخبرها بأن تسعى جاهدة فى اغراء « الصلب الأصـيل » لكى يكشف لها عن مكمن قوته ٠ فلما عاد « الصلب الأصيل » الى مسكنه ، قالت له زوجة الأمير : « هلا أخبرتنى بالمكان الذى تكمن فيه قـوتك المهولة ؟ » فقال لها الساحر : « يا زوجتى العزيزة ، ان قوتى تكمن فى سيفى » ٠ فاتجهت المرأة الى السيف وأخذت تصلى له ٠ فلما رأى الصلب الأصيل ما فعلته ، سخر منها وقال لها : « أيتها المرأة الحمقاء

ان قوتى ليست فى سـيفى ، وانما فى رمحى وسهمى » • فتوجهت المرأة الى الرمح والسهم وأخذت تصلى لهما • عند ذاك قال لها « الصلب الأصيل » : « اننى اعتقد يا زوجتى العزيزة ان هناك وراءك معلما ماهرا يحثك على أن تبحثى عن المكان الذى تكمن فيه روحى • بل اننى أود أن أقول ان زوجك ما زال على قيد الحياة ، وهو الذى يحثك على هذا »• ولكن الزوجة أكدت له أن ليس هناك من يدفعها الى هذا • ولمـا رأت أنه قد ضللها للمرة الثانية انتظرت بضعة أيام ثم عـاودت السؤال عن سر قوته • فقال لها : « حيث أنك تفكرين كثيرا فى هذا الموضوع ، فسوف أخبرك بحق عن مكانها : هنـاك فى مـكان بعيد يوجد جبل شاهق وعند هذا الجبل يسكن ثعلب يستقر داخل قلبه طائر • وفى هذا الطائر تسكن قوتى • على أنه ليس من اليسير القبض على هذا الثعلب ، لأنه يستطيع أن يحول نفسه الى كائنات مختلفة » • وعندما خرج الساحر فى اليوم التالى من كهفه جاء الأمير وعلم من زوجته المـكان الحقيقى الذى تكمن فيه قوة الساحر فخف الى الجبل وهناك جاهد بمعونة أصدقائه من الطيور والكائنات المهولة مثل النسر والباز والتنين أن يمسك بالثعلب ، أو بالأحرى أنثى الثعلب التى كانت تغـير نفسها الى أشكال مختلفة • ثم شق قلب الثعلب وانتزع منه الطائر وأحرقه فى النار • وفى تلك اللحظة سقط « الصلب الأصيل » ميتـا عـلى الأرض •

وتحكى حكاية سيبيرية أخـرى أن تنينا كان يسـكن فى طاحونة مائية وابتلع ابنى ملك من الملوك واحدا تلو الآخر • فلما خرج الابن الثالث ليبحث عن أخويه ، ووصل الى الطاحونة المـائية ، لم يجد هناك سوى أمرأة عجوز حكت له عن هذا الكائن المهول الذى يدير الطاحونة ، كما أخبرته أنه قد ابتلع أخويه ، ثم نصحته فى نهـاية الأمر أن يرحل عن هذا المكان على الفور قبل أن يلقى مصير أخويه • ولكن هذا الأخ الذى كان شجاعا وماكرا فى الوقت نفسه ، قال لهـا : « هات الى أذنك واستمعى جيدا لمـا سوف أقوله لك • اسألى التنين

أين يذهب ، وأين تكمن قوته • فان أخبرك بذلك قبلى أمامه هـذا المكان بشدة ، كما لوكنت تحبينه كل الحب حتى تتوصلى الى معرفة هذا السر ثم أخبرينى بعد ذلك بما حدث » • وعندما عاد التنين الى مسكنه سألته المرأة العجوز قائلة : « بحق الاله أخبرنى أين كنت ، وأن تذهب بعيدا عن هذا المكان ، فانك لم تخبرنى قط بالمـكان الذى ترحل اليه » • فأجابها التنين قائلا : « نعم ياسيدتى العجوز ، اننى أرحل بعيدا » • عند ذلك أخذت تتملقه المرأة العجوز وتقول له « ولكن ما الذى يدعوك لأن ترحل بعيدا ؟ ألا تخبرنى بالمكان الذى تستقر فيه قوتك • اننى لو علمته لانهلت عليه تقبيلا : فابتسم التنين وقال لها : « ان قوتى تستكن هناك فى مكان النار هذا » • فأخذت المرأة العجوز تقبل مكان النار وتلاطفه • فلما أبصرها التنين وهى تفعل ذلك انفجر ضاحكا وقال لها : « أيتها المرأة البلهاء ان قوتى ليست فى هذا المكان ، وانما تكمن فى شجرة النباتات العطرية التى تنمو أمام مسكنى » • فانهالت المرأة على الشجرة تقبلها وتلاطفها • فضحك التنين منها مرة أخرى وقال لها : « دعى عنك هذه الافعال أيتها المرأة العجوز ، فقوتى ليست فى هذه الشجرة » • فقالت له المرأة : « وأين تكمن قـوتك اذن ؟ » فرد عليها قائلا : ان قوتى تكمن فى مكان بعيـد لا يمكنـك الوصول اليه • فهناك فى مملكة أخرى غير تلك المملكة ، توجد بحيرة تقع أسفل مدينة الملك • وفى هذه البحيرة يعيش تنين فى جوفه ثور • وفى جوف هذا الثور تعيش حمامة ، وبداخل هذه الحمامة تسـتكن قوتى » • وبهذا كشف التنين عن سره • فلما خرج فى صباح اليـوم التالى ليقوم بمهام عمله اليومى وهو التهام الناس ، جاء الامـير الى المرأة العجوز التى أطلعته على سر التنين • وبطبيعة الحال خف الأمير فى الحال للوصول الى البحيرة التى تقع فى البلاد النائية • وبعد صراع مرير استطاع أن يقتل التنين المـائى • ثم شق صدره وانتزع منه الحمامة التى كانت تكمن بداخلها قوة التنين المهول الذى يـدير الطاحونة المـائية • وبعد أن سأل الحمامة عن أخويه وكيفية ارجاع

الحياة اليهما ، لوى رقبة الحمامة فمات التنين الشرير فى تلك اللحظة بطبيعة الحال • والى هنا تتوقف الحكاية ولا تذكر شيئا عن موضوع الأخوين والأميرة •

وكثيرا ما يرد هذا الموضوع فى الحكايات الكاتية ، فقد روى عازف كمان كفيف كان يعيش فى جزيرة « اسلاى » ، أن عفريتا خطف زوجة ملك من الملوك كما خطف حصانيه واحتفظ بالجميع فى وكره • ولكن الحصانين هاجما العفريت وداساه بأقدامهما بحيث أصبح عاجزا حتى عن الزحف • ثم قال للملكة وهو على هذه الحال : لو أننى لم أحتفظ بروحى بعيدة عنى لقتلنى هذان الحصانان من زمن » • عند ذاك سألته الزوجة قائلة : « وأين تكمن اذن روحك ياعزيزى ؟ اننى أقسم لك بالكتب المقدسة أن أرعاها » فقال لها العفريت : « انها تكمن فى حجر « بوناش » » • فلما خرج العفريت فى الصباح وضعت الملكة الحجر فى شكل منظم للغاية استلفت نظر العفريت عندما عاد فى غسق المساء ، ومن ثم فقد قال لها « لماذا وضعت الحجر على هذا النحو المنظم ؟ » فأجابته قائلة : « لان روحك تسكن فيه » • فقال لها : « لقد أدركت الآن أنك ستقدمين واجب الاحترام لروحى ، اذا ما علمت مكانها الحقيقى • فروحى لا تكمن فى هذا الحجر ، وانما تكمن فى عتبة باب مسكنى » • فلما كان الصباح نظمت الزوجة العتبة وزينتها • فلما عاد العفريت سألها قائلا : « ما الذى دفعك لأن تفعلى هذا ؟ » فأجابته : « أليست روحك كامنة فيها ؟ » فقال لها « اننى أرى الآن أنك ستولين روحى كل عنايتك اذا ما علمت أين تكمن على وجه الحقيقة » • فقالت له : « وهذا ما سوف أفعله » • فقال : « ان روحى لا تكمن فى عتبة مسكنى كما أخبرتك • وانما هنالك لوح حجرى يقع تحت عتبة المسكن ، وتحت هذا اللوح يرقد كبش مخصى ترقد بطة داخل معدته ، كما أن هناك بيضة داخل معدة هذه البطة • وبداخل هذه البيضة تقع روحى » • فلما خرج العفريت فى الصباح ، رفعت الزوجة وزوجها الحجر وأخرجا الكبش المخصى ثم شقا بطنه وأخرجا

البطة وانتزعا من تجويفها البيضة • وأخذت الزوجة البيضة بين يديها وهشمتها • وعد هذا الوقت كان العفريت عائدا الى وكره فى غسق الليل • فلما تهشمت البيضة خر ميتا •

ومرة أخرى تقرأ فى حكاية من حكايات « آرجيليشاير » ، ان ملك « سورشا » وكان ماردا مهولا ، اختطف زوجة راع من « كرووواشان » وأخفاها فى الكهف الذى كان يسكنه • وبعد جهيد تمكن الراعى بمساعدة بعض الحيوانات الخيرة أن يصل الى هذا الكهف الذى أخفى فيه الملك المارد زوجته • ولما كان المارد ، لحسن الحظ ، متغيبا ، فقد أخفت الزوجة زوجها فى مكان علوى من الكهف وغطته ببعض الملابس • فلما وصل الملك المارد أخذ يتشمم حوله وقال لها : « اننى أشتم رائحة شخص غريب فى هذا الكهف » • فأنكرت الزوجة ذلك وأوحت اليه بأنه انما يشتم رائحة طائر صغير قامت بشوائه • على أنها قالت له متوسلة : « ولكننى أود أن تخبرنى ، أين تكمن روحك ، حتى يمكننى أن أرعاها » • فقال لها : « إنها تكمن فى حجر رمادى يقع بعيدا هناك » • فلما خرجت الزوجة فى صباح اليوم التالى أتت بالحجر وألبسته رداء ووضعته فى المكان العلوى من الكهف • فلما عاد المارد سألها قائلا : « ما هذا الشىء الذى يرتدى ذاك اللباس ؟ » • فقالت له : « انه روحك ياعزيزى • ولا بد من أن أرعاها » • فقال لها : « لقد أدركت الآن مدى حبك لى ، ولكن روحى ليست فى هذا الحجر » • فسألته قائلة : « وأين هى اذن ؟ » فقال لها : « انها تكمن داخل شاة ذات لون رمادى وتعيش عند جانب التل » • فخرجت الزوجة فى صباح اليوم التالى وأحضرت الشاة وألبستها رداء ووضعتها فى الجانب العلوى من الكهف • فلما عاد فى المساء سألها قائلا : « وما هذا الشىء الذى ألبسته الرداء على هذا النحو ؟ » فقالت له : « انه روحك ياعزيزى » • فقال لها : « ولكنها ما تزال بعيدة عن ذلك » فقالت له :«إنك تكلفنى اذن جهدا كبيرا فى رعاية روحك • ولقد كذبت على مرتين متتاليتين » فقال لها : « اننى أعتقد الآن أنه يمكننى أن أخبرك

بمكانها الحقيقى ، ان روحى تكمن تحت قدم حصان كبير فى حظيرة الخيول ، فهناك فى مكان بعيد توجد بحيرة صغيرة ، وعلى سطح هذه البحيرة توجد سبع قطع من جلود الحيوان • وفوق هذه الجلود سبع حبات من الخلنج • وأســفل هذا كله توجد سبعة ألواح من خشب البلوط • وهناك فى البحيرة سمكة كبيرة بداخلها بطة تستقر فى جوفها بيضة • وأخيرا هناك شوكة سوداء داخل هذه البيضة • فاذا استطاع شخص أن يلوك هذه الشوكة بأســنانه فاننى أتوفى فى الحال • على أننى أشعر أينما كنت اذا ما مس أحد قطع الجلود السبعة ، وحبات الخلنج السبع ، وألواح البلوط السبعة • واننى أحتفظ بفأس بأعلى باب الكهف ، وبدون الاستعانة بهذه الفأس فى قطع هذه الاشــياء بضربة واحدة فانه لا يمكن الوصول الى قاع هذه البحيرة » • فلما خرج الملك المــارد فى صباح اليوم التالى للقنص فوق التل • جاهد الراعى بمعونة الحيوانات الخيرة التى سبق أن ساعدته من قبل ، فى الحصول على الشوكة المصيرية ولاكها بأسنانه قبل أن يتمكن المــارد من الوصول اليه • وما كاد يفعل هذا حتى سقط المــارد جثة هامدة •

ويحكى أهــالى « جيلجيت » التى فى مرتفعــات الهنــد الشمالية الغربية حكاية شبيهة بهذه الحكاية • فهم يروون أنــه كان يحــكم « جيلجيت » فى سالف الأزمان ملكا غولا يدعى « شرل بادات » • وكان هذا الملك الغول يكلف أتباعه باختطاف الاطفال وتقديم لحومهم طعاما لغذائه ، ومن ثم كان يسمى « بآكل اللحوم البشرية » • وكان لهــذا الملك الغول ابنة تدعى « سكبنه » أو « ميوكهاى » تعودت أن تقضى شهور الصيف فى مكان جميل يقع على قمة الجبال ، فى الوقت الــذى كانت تصطلى فيه « جيلجيت » بحرارة الوادى الذى كانت تقع فيه بين الجبال • وذات يوم كان أمير وسيم يدعى « شامشير » يقتنص فى الجبــال بالقرب من مصيف الاميرة • ولمــا تعب الامير من القنص استراح هو ورفاقه وقت الظهير القائظة فى ظل شــجرة تقع بالقرب من نبع • فى تلك اللحظة ساق القدر ، أو ساقت الصــدفة خادمة

الأميرة الى هذا المكان ، لكى ترد من النبع • فلما رأت هؤلاء الغرباء نائمين فى هذا المـكان ، عادت الى سيدتها وأخبرتها بالامر • فغضبت الاميرة من تطفل هؤلاء على مكان اقامتها ، واستدعتهم اليها • ولكنها عندما وقع بصرها على الامير الجميل ، هدأ غضبها وأخذت تتحدث معه طويلا حتى المساء • وكان كلما طلب الامير أن يهبط الجبل ، منعتـه الاميرة وطلبت منه أن يحكى لها عن مغامراته وأفعاله الباسلة • وفى النهاية لم تستطع أن تخفى مشاعرها ، وطلبت منه أن يتزوجها • فوافق الامـير فى شىء من التردد لأنه كان يخشى عدم موافقة أبيها الشرير أن تتزوج من غريب مثله • ومن ثم فقد قررا أن يحتفظا بسرية زواجهما، وتزوجا فى تلك الليلة بعينها •

وما كاد الامير يفوز بالأميرة حتى أسرف فى طموحه ، وأخذ يسعى لأن يكون ملكا على هذه المملكة • ومن ثم فقد أوعز الى الاميرة أن تقبل أباها ، وأن تحمل لواء الثورة ضده • ووافقت الاميرة بدافع حبها لزوجها ، أن تدبر معه مؤامرة قتل والدها • ولكنها أدركت أن هناك عقبة تحول دون اتمام مهمتها ، هى أن الملك الغول « شرى بادات » كان من سلالة الجان ، ومن ثم فلم يكن يخشى أن يطعن بسيف أو برمـح لان هذه الاسلحة لم تكن تؤثر فى جسمه ، كما أنه لم يكن أحد يعرف طبيعة روحـه • ولهذا فقد كان أول واجب على الامير الطموح ، لكى يحقق مأربه ، أن يعرف طبيعة روح هذا الملك الغول على وجه التحديد • ومن ذا الذى يستطيع أن يستمد منه هذا السر أكثر من ابنته • وذات يوم أخبر الامير زوجته ، اما بدافع اشباع رغبتها فى التخلص من أبيها ، أو رغبة منه فى اختبار اخلاصها له ، بأنها لن ترى أباها قط اذا ما اصفرت أوراق شجرة بعينها وذبلت • ولمـا كان الوقت خريفا ، اذ كان الصيف قد أوشك على الانتهاء ، فقد أخذت أوراق تلك الشجرة فى الاصفرار والذبول • وظنت الاميرة أن ساعة وفاة أبيها قد حانت • وعند ذاك هبطت الجبل وهى تعول ، ربما بدافع وخز ضميرها ازاء الجريمة التى ترتكبها ضد أبيها ، ورحلت الى « جيلجيت » • ولشـدة

دهشتها أبصرت أباها الملك الغول يتمتع بكامل صحته ويتنـــاول غذاءه كعادته من لحم الاطفـــال • فتراجعت الى الوراء ، واعتذرت عـــن اقتحامجلسةأبيها وأخبرتهبأنقديساأنبأها بأنه مع ذبولأوراقشجرةبعينها تذبل حياة أبيها ويموت • ثم قالت له : « وفى هذا اليوم أبصرت أوراق تلك الشجرة وهى تذبل فخشيت عليك ، وجئت أرتمى عند قدميك • ولكن شكرا لله أن هذه النبوءة لم تتحقق وأن هذا القديس قد أثبت أنه نبى مزيف » • وتحرك قلب الغول بعاطفة البنوة وقال لهـــا : « ليس فى وسع أحد فى الوجود يا بنتى العزيزة أن يقتلنى ، لأنـــه ما من أحد يعرف طبيعة روحى • فكيف يتسنى لأحد أن يقتلنى دون أن يعرف طبيعتها ؟ ان القدرة على ايذائى فوق مقدرة أى انسان » • وعند ذاك أجابت الاميرة بأن سعادتها تتوقف على حياته وعلى أمنه ، وحيث انها تعلم أنها أعز ما لديه فى الوجود ، فليس عليه أن يخشى أن يطلعها على سر روحه ، لأنها اذا عرفت هذا السر ، ففى وسعهـــا أن تأخذ حيطتها ضـــد أى فأل شرير ، وأن تحميه ضد الاخطار التى تتهدده ، وبذلك تؤكد حبها لأبيها عندما توقف حياتها على أمن والدها • ولكن الأب الغول الحذر لم يكن يثق فيها ، وحاول أن يصرفها عن معرفة الحقيقة ، كما فعل « شمشون » ، وكما يفعل المردة فى الحـــكايات الخرافية ، باعطائها اجابات مراوغة أو خاطئة • ولكنه كشف لها فى نهاية الامر عن سره الخطير عندما غلبه لجاجها أو عندما طمأنه تملقها • فقال لها ان روحه مصنوعة من الزبد • فاذا رأت نارا مشتعلة فى قلعته أو حولها ، فلتعلم حينذاك أن هذا يكون آخر يوم فى حياته ، اذ كيف يمكن لزبد روحه أن يقاوم لهيب النار المشتعلة • ولم يكن يعلم الأب الغول أنه بقوله هذا كان يدع سره فى يد أمرأة ضعيفة وابنة عاقة كانت تدبر مؤامرة للقضاء عليه •

وبعد أن قضت الابنة الغادرة مع أبيها السليم النية بضعة أيام ، عادت الى مضيفها فوق التلال حيث كان ينتظرها زوجها شامشير بفارغ الصبر • وسعد كل السعادة عندما أطلعته على سر روح أبيها • ولما كان

الزوج قد عزم على أن يبذل كل ما في وسعه لأن يقضي على هذا الملك الغول ، فقد وجد الآن الطريق ممهدا لأن يحقق رغبته • وقد استعان في تنفيذ خطته بأتباع الملك الذين كانوا يتوقعون شغفا لأن يتخلصوا من هذا الغول ، وبذلك ينقذون من تبقى من أطفالهم من شراهته • وقد كان أتباع الملك عند حسن ظن الامير ، فما ان علموا بأن هناك من يود تخليصهم من هذا الغول ، حتى انضموا اليه طوعا واستعد الجميع للقضاء على هذا الوحش في عرينه • وقد كانت الخطة التى عمدوا اليها بسيطة للغاية إذ كان عليهم أن يشعلوا النار حول القلعة ، فتنصهر بتأثير حرارتها روح الملك وتتحلل • على أن الامير أرسل زوجته الى أبيها في « جيلجيت » قبل أن يقوم بتنفيذ خطته ببضعة أيام بعد أن أصدر اليها أوامر صارمة بأن تحتفظ بسرها ، حتى تبث في نفس أبيها الغول احساسا بالطمأنينة • وبذلك أصبح الجو معدا لتنفيذ الخطة • فعندما أرخى الليل سدوله ، خرج الناس من بيوتهم يحملون المشاعل وحزما من الخشب • وعندما اقتربوا من القلعة ، بدأت تشعر روح الملك المصنوعة من الزبد بالقلق وتملكه احساس بالضجر • وعند ذاك أرسل ابنته في ساعة متأخرة من الليل لتعرف سر هذا الاحساس الغريب الذى تملكه • فخرجت الابنة الخائنة الخادعة الى الخارج وتلكأت بعض الوقت حتى تترك الفرصة للمتمردين لكى يصبحوا على مقرب من القلعة ، ثم عادت الى أبيها وحاولت أن تؤكد له أنه انما يشعر بخوف كاذب ، اذ لم يحدث قط شيء يبعث في نفسه هذا الاحساس بالقلق • ولكن احساس الملك الداخلى بالخطر الداهم كان أقوى من أن تزيله محاولات ابنته المخادعة • فخرج من حجرته ليرى أن ظلام الليل قد محته مشاعل النار التى تحيط بالقلعة • ولم يكن هناك وقت للتردد أو التلكأ ، وسرعان ما اتخذ قراره ، فقفز في الهواء متجها نحو « شوتورخان » ، وهى منطقة ثلجية تقع بين الجبال العالية التى تحيط « بجيلجيت » ، وهناك أخفى نفسه تحت الثلوج • ولما لم تذب روحه هناك بين الثلوج ، فقد ظل يعيش هناك حتى هذا اليوم • ومع ذلك فما زال سكان جيلجيت يعتقدون أنه

سيعود يوما ليحكمهم ويلتهم أطفالهم بغيظ مضـــاعف • ومن ثم فانهم يحتفظون بنار كبير مشتعلة طوال ساعات ليلة ليالى شهر نوفمبر ــ وهو اليوم الذى يعد ذكرى لهروب هذا الغول من جيلجيت حتـــى يطردوا شبح هذا الملك اذا ما حاول الرجوع اليهم • وفى تلك الليلة لا يجرؤ أحد على النوم ، ولذلك فهم يصرفون الوقت فى الرقص والغناء حول النار المضطرمة •

وهنا يتضح التطابق العام بين هذه الحكاية الهندية وحكاية شمشون ودليلة من ناحية • والحكايات السلافية والكلتية من ناحية أخرى • وربما كان هذا التشابه أكثر اقترابا لو أن قاص الحكاية الهندية كان قد ذكر الاجابات المزيفة المضللة التى يمكن أن يكون الغول قد قدمها لابنته فيما يختص بسر روحه • ذلك أنه بمقارنة هذه الحكاية بالحكايات السلافية والعبرية والكلتية التى تشبهها ، فانه يحق لنا أن نفتـــرض أن الغول المـــاكر قد خدع ابنته عن طريق التظاهر بأن روحه تستقر فى أشياء لاعلاقة لها بها • وربما كانت احدى اجاباته المضللة لابنته هى أن روحه تستقر فى أوراق شجرة بعينها ، حتى اذا اصـــفرت أوراق تلك الشجرة ، فان هذا يكون علامة على موته • ولكننا نرى أن هذه النبوءة الخاطئة قد قيلت على لســـان شخص ثالث بدلا من أن يقولها الغول نفسه •

وبينما تبدو وجوه التشابه بين هذه الحكايات السلافية والكلتية والهندية من ناحية ، وحكاية شمشون من ناحية أخرى فى فـــكرتها العامة ، فانها تختلف عنها فى جانب واحد مهم على الأقل • فتعاطف القارىء فى حكاية شمشون يتركز حول الساحر المخدوع الذى يصور بصورة محبوبة بوصفه شخصية وطنية وبطل قومه ، فنحن نعجـــب بأعماله ، ونشفق عليه فيما تحمله من أذى حتى مات • كما أننا فى الوقت نفسه نشمئز من خداع تلك المرأة الفاجرة الماكره التى جرت عليه بحبهـــا الزائف مصـــائب لم يكن ينتظرها من جانبها • أما فى

الحكايات الهندية والكلتية والسلافية ، فان التركيز الدرامى حول هذا الموقف عكس هذا تماما ، ذلك أن المشعوذ يصور فى صورة غير مستحبة بوصفه ساحرا يمارس قوته الخارقة فى تحقيق أغراض شريرة ، ومن ثم فنحن نمقت جرائمه ، ونبتهج لهزيمته • كما أننا نصفق للمرأة الماكره التى أفشت سره لأعدائه ، أو نحن نغفر لها على الأقل هذا الخداع ، لأنها لم تكن تبغى سوى الانتقام من شر لحق بها هى وبقومها من قبل هذا الساحر • وبناء على ذلك فان دور كل من الشرير والضحية ينعكس فى الأداءين المختلفين لموضوع واحد • ففى حكاية شمشون ودليلة يصور شمشون بوصفه الضحية البريئة ، كما تصور المرأة بوصفها الشخصية الشريرة الماكرة • أما فى الحكايات السلافية والكلتية والهندية ، فان الساحر يمثل شخصية الشرير الماكر ، فى حين أن المرأة تقوم بدور الضحية البريئة ، أو أنها على الأقل تقوم بصفة عامة بدور الزوجة المخلصة لزوجها ولقومها • وقد لا يساورنا شك كبير فى أنه لو كانت لدينا الرواية الفلسطينية لحكاية شمشون ودليلة ، لوجدنا الوضع يختلف بالنسبة للشرير والضحية عنه فى الحكاية العبرية ، فربما وجدنا شمشون مصورا بوصفه الشرير المخادع الذى سلب وقتل الفلسطينيين العزل ، ولربما بدت لنا دليلة بوصفها الضحية البريئة لشراسة شمشون ، ولكنها سعت بسرعة بديهتها وشجاعتها النادرة أن تنتقم فى الحال مما لحق بها من شر ، وأن تخلص قومها من هذا الوحش الذى طالما عذبهم فى قسوة • ففى حالة النزاع بين الشعوب يختلف موقف البطل والشرير وفقا لاختلاف نظرة كل شعب له ، فقد يبدو الرجل نفسه أروع بطل اذا نظر اليه من الجانب الآخر • كما أننا نراه من وجهة نظر شعب من الشعوب محاطا بأكاليل الزهور ، بينما نراه من وجهة شعب آخر مرجوما بالأحجار • أى أننا يمكننا أن نقول على وجه التقريب ، ان كل شخص استطاع أن يثبت وجوده فى خضم الحوادث التاريخية المضطربة ، انما هو أشبه بالمهرج الذى يرتدى رداء تتعدد ألوانه • وهذه الألوان تختلف حيثما نظر اليها من الأمام أو من الخلف أو من اليمين أو من اليسار •

فكل من أعدائه وأصدقائه ينظرون اليه من جانبين متقابلين ، ومــن الطبيعى أن كلا منهما لا يرى الا اللون الذى يراه من ناحيته • ومن ثم كان من واجب المؤرخ المنصف أن ينظر الى هؤلاء المهرجين من كل جانب وأن يصورهم بأرديتهم ذات الألوان المتعددة ، ولا يصورهم فى أردية بيضاء فحسب كما يبدون لأصــدقائهم أو فى أردية ســوداء فحسب كما يبدون لأعدائهم •

الفصل الثالث

حــزمة الحيــاة

عندما يترك المسافر الأراضى الخصبة التى تتوسط أرض الميعاد ، ويتجــه شرقا الى البحر الميت ، فانه يخترق فى بداية الأمر سلســلة من التلال الممتدة والوديان التى تغطيها الحشائش والنباتات الطفيلية . فاذا استمر فى ســيره فى هذا الاتجاه فان المنظر الطبيعى يتغــير أمامه ، اذ تختفى أمامه الأعشاب الخضراء والنباتات الشوكية ، ويجد نفسه يمر تدريجيا فى منطقة جرداء جافة ، هى عبارة عن مساحات هائلة من الرمال ذات اللون الأصفر أو البنى ، ومن الأحجار الجيرية المتفتتة ، والحصى المبعثر . ولا يخفف من حدة جفاف هذه المنطقــة سوى مجموعة الشجيرات الشائكة والنباتات المتسلقة ذات العصارة . وبعد ذلك لا تكاد تقع العين الى مسافة عدة أميال على شجرة أو مسكن لانسان ، أو على أى مظهر من مظاهر الحياة . انما هى مجــرد سلاسل من التلال المتشابهة التى تنتظم فى تتابع لا نهائى رتيب ، فهى جميعا ذات لون أبيض ، منحدرة وضيقة ، كما يتخلل جوانبها عدد لا نهاية له من الأجراف الجرداء . وتلوح للمسافر قممها وهى تعلو الى السماء فى حدة وصلابة ، وذلك فى أثناء صعوده من المسطحات العريضــة التى يكسوها الطين الأبيض الناعم وتخترقها أحجار الصــوان التى تعزل كل سلسلة من التلال عن السلسلة الأخرى التى تقع خلفها . وتبدو المنحدرات الأكثر قربا لهذه التــلال المنعزلة ، كما لو كانــت الأمطار الغزيرة المفاجئة قد مزقتها وشققتها . أما المرتفعات التى تقع على بعد فتوحى بأنها أكوام من الرماد ذات شكل شيطانى . وفى بعض الأمكنة يسمع لوقع أقدام الخيل صوت عميق ، وفى بعض الأماكن

الأخرى تنزلق الأحجار والرمال من تحت حوافر الخيل • أما فى الاخاديد العديدة فان الصخور تتوهج بتأثير حرارة الشمس الحارقة التى تتسلط عليها من سماء تخلو كلية من السحب • فاذا استمر المسافر فى طريقه شرقا ، فان الطبيعة المنعزلة التى تحيط به هنا وهناك تتألق بين اللحظة والأخرى بمرأى البحر الميت بمياهه التى تضرب الى الزرقة الدكناء تجرى فى تجويف بين التلال عاكسة بذلك نوعا من التناقص الممتع بين زرقتها المتلألئة وألوان الصحراء الرتيبة الجافة • حتى اذا صعد المسافر آخر سلسلة من هذه التلال ، ووقف على حافة الصخور الكبيرة ، فانه يفاجأ أمامه بمنظر رائع ، فهناك أسفل منه بحوالى ألفى قدم يقع البحر الميت واضحا كل الوضوح ممتدا من طرفه الأدنى الى طرفه الأبعد ، كما تبدو له شواطئه التى تتكون من صخور صلبة صخرة تلو الأخرى ونتوءات يقع بعضها وراء بعض تفصلها الأخاديد العميقة التى تتخللها أراض تتوغل فى المياه الزرقاء الهادئة ، بينما تشمخ جبال موآب وراء البحيرة حتى تختفى فى الأفق البعيد ملتحمة بالسماء ذات اللون اللازوردى • فاذا اخترق المسافر البحر الميت عبر ينابيع « عين جدى » فانه يجد نفسه فوق قمم صخور مدرجة ذات شكل عمودى على وجه التقريب ، قد نحت فيها درب ملتف ذو صخور خشنة يؤدى الى سهل فى شكل حدوة ينحدر الى حافة المياه • وفى هذا الدرب يتحتم على المسافر أن يترجل ويقود حصانه فى حرص وهو يهبط هذا الدرب المنحدر كل الانحدار • فاذا كان وراءه مسافرون آخرون ، فانهم يخطون فى حذر ، لأن أية انزلاقة لأقدامهم قد تزحزح حجرا يتدحرج فى سرعة الى أسفل ويصيب المسافر الذى يسير فى أمان عبر الدرب • وعند سفح هذه الكتل الصخرية يتفجر نبع « عين جدى » (النبع الطفل) من فوق الصخر بمياهه الدافئة الغزيرة فى شكل شلال يتدفق وسط واحة نضرة تنمو فيها نباتات نصف استوائية•وكل هذا يفاجىء المسافر كل المفاجئة عندما يجد نفسه قد ترك البرية القفر التى تخلو منها المياه بعد أن قضى ساعات فى عبور أرضها الوعرة • وهذه البرية هى التى أطلق عليها

العبريون اسم « يشمون » أى الخراب أو برية يهوذا • وهى تمتد من مياه البحر الميت المرة والصافية فى الوقت نفسه ، حتى جبل الزيتون على بعد ساعتين من بوابات معبرون (الخليل) وبيت لحم وأورشليم •

والى هذه البرية الموحشة هرب داود من عدوه العتيد « شاءول » الذى ظل يقتفى أثره ، طالبا الحماية • وبينما كان يختبىء هناك مع عصبة من الرجال المهزومين الذين جمعهم من حوله ، زارته «أبيجايل» المرأة الجميلة الحكيمة زوجة المزارع الغنى « نابال » الذى كان يمتلك قطعانا من الغنم ، والذى كان قد تعهد له الشاب الطريد داود فى صدق بالغ ألا يسرق غنمه • على أن المزارع الساذج الفظ لم يدرك قيمة هذه الخدمة التى قدمها له هؤلاء المطاردون ، ورفض بازدراء ما طلبه منه زعيمهم فى أدب جم أن يزوده بسلفة من المؤن • وحركت هذه الاهانة احساس داود البالغ بكرامته ، ومن ثم فقد اتخذ طريقه عبر التلال الى هذا المزارع على رأس أربعمائة رجل من أشداء الرجال ، كل منهم يحمل سيفه العريض فى جنبه • وكان داود على وشك أن يتخذ طريقه مباشرة الى مزرعة هذا المزارع عندما قابلته زوجته التى استطاعت بكلماتها الرقيقة أن تلطف من حدة كبرياء الزعيم الغاضب ، بل انها أتت اليه بما هو أفضل من الكلمات ألا وهو قافلة من الحمير المحملة باللحوم والشراب من أجل جماعته التى كاد الجوع أن يقتلها• فى الحال تبدد غضب داود بتأثير جمال المرأة وكلماتها الناعمة وبمرأى الحمير المحملة بالزاد • واستقبل داود الزوجة التى جاءت لتعتذر عن تصرفات زوجها بلطف جم ووعدها بألا يتعرض له بخطر • ولكنه لم ينس أن يلمح لها بنظرة معبرة بأن الشمس لم تكن لتشرق على مزرعة زوجها فى صباح اليوم التالى ، لو لم تهم بمقابلته • وبعد ذلك تركها داود بعد أن خلع عليها بركته ، ثم ولى ظهره هو وجماعته ، وقافلة الحمير من ورائه ، وعاد الجميع من حيث جاءوا بعد أن قطعوا على أنفسهم العهد بألا يتعرضوا لهذا المزارع بأى

أذى . أما الزوجة فربما ابتسمت وتنهدت وهى تنظر خلفها تترقب هؤلاء الرجال الأشداء الذين أحرقت الشمس وجوههم ، وهم يواصلون الخطو فى رشاقة حتى اختفوا وراء أقرب سلسلة من التلال . ثم عادت الى بيتها وقد انزاح عن قلبها عبء ثقيل ، لتجد زوجها المزارع الساذج مع رجاله يعبون الشراب بعد أن فرغ من جز الخراف بوقت طويل ، دون أن يشغل باله بما قد حدث فوق التلال . فتركت الزوجة الحكيمة زوجها على ما هو عليه ، دون أن تطلعه على شىء مما حدث . ولكن عندما أفاق الزوج فى اليوم التالى أخبرته بما فعلته ، وفى الحال شعر الزوج بأن قلبه كاد يكف عن الخفقان ، اذ كانت الصدمة أكبر من أن يتحملها الزوج . ولم تكد تمضى عشرة أيام حتى كان قد لفظ أنفاسه . وبعد مرور بعض الوقت على وفاته خرجت الأرملة فوق التلال لتلحق بزعيم العصابة المطاردة .

وهناك عبارة تستلفت نظرنا بين عبارات الاطراء التى ذكرتها « ابيجايل » الساحرة لداود المرهف الحس ، عند مقابلتها الأولى له . فلقد قالت له : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك ولكن نفس سيدى لتكن محزومة فى حزمة الحياة مع الرب الهك وأما نفس أعدائك فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » (١) ..

ومما لا شك فيه أن هذه العبارة استعارية ، ولكن الاستعارة فيها غريبة وغامضة بالنسبة لأى كاتب انجليزى . ومغزى هذه العبارة هو أن أرواح الأحياء يمكن أن ترتبط فى حزمة ضمانا لسلامتها . أما فى حالة أرواح الأعداء فان الحزمة تحل وتتبعثر أرواحهم منها وتذروها الرياح . ولا يمكن أن تعترى الشخص العبرى هذه الفكرة حتى وان كانت مجرد صيغة تعبيرية ، ما لم تكن هذه الفكرة ترتبط فى ذهنه بعقيدة تتصل بنظرتهم الى الروح . واذا كان هذا التصور يبدو من وجهة نظرنا نحن الذين نرى أن الروح تظل ملازمة للجسد طالما كانت الحياة

(١) سفر صموئيل الأول ، الاصحاح الخامس والعشرون آية ٢٩ .

تدب فيه ، منافيا للطبيعة ، فهو قد يبدو طبيعيا بالنسبة للشعوب الأخرى التى يختلف تصورها للحياة عن تصورنا كل الاختلاف • فهنــاك فى الحقيقة عقيدة تنتشر بين الشــعوب البدائية انتشارا واسعا ، تتخلص فى أن الروح يمكن أن تغادر الجسد ، بل انها كثيرا ما تغادره ، دون أن ينجم عن هذا الوفاة العاجلة • فالأشباح والشياطين وأشرار الناس الذين يحملون ضغينة لشخص ما ــ كل هؤلاء يقومون بسرقة الروح من الجسد بقصد القضاء على صاحبها • واذا نجحوا فى ذلك وتمكنوا من اعاقة الروح فترة طويلة ، فان صاحبها يمرض ويموت • وهذا هو السبب فى أن الناس الذين يوحدون بين أرواحهم وظلالهم أو صورهم التى تنعكس على مســطح عاكس ، يخافون كل الخــوف مــن آلة التصوير ، لأنهم يعتقدون أن المصور الذى صور أشكالهم ، قد انتزع أرواحهم أو ظلالهم معها • وها هو ذا مثال من بين عشرات الأمثــلة التى تؤيد هذا القول • نصب مستكشف آلة تصويره فى قــرية من القرى التى تقع فى أدنى مجرى نهر « يوكون » فى « ألاسكا » ، وذلك لكى يأخذ صورة للاسكيمو وهم يتحركون بين بيوتهم • وبينما كــان يركز آلة تصويره على هذا المنظر جاءه زعيم القرية وأصر على أن ينظر معه أسفل قطعة القماش • فلما سمح له المستكشف بذلك ، ونظر هنيهة عــلى الأشــكال المتحركة على زجاج العدسة ، رفع رأســه على التو وأسرع الى قومه وقال لهم : « احذروا ، فلقد أخذ كل ظلالكم فى صندوقه » وعند ذاك دب الذعر بين الناس ، واختفوا فى لحظة فى فوضى واضطراب فى بيوتهم • فآلة التصوير ، أو مجموعة الصور ، تعد وفقا لهذه العقيدة حزمة من الأرواح أو صندوقا ترص الأرواح فيه ، كما يرص السردين فى العلب استعدادا لتصديره •

وقد تنتزع الأرواح من الأجســام لتحقيق غرض خير • فالرجل البدائى يعتقد فيما يبدو أن الانسان لا يبتلى بالموت ، طالمــا كانت روحه غير معرضة للأذى ، سواء كانت داخل جسمه أم خارجه • وبناء على ذلك فان الرجل البدائى يتصور أنه اذا نجح فى انتزاع روحــه

من جسده والاحتفاظ بها فى مكان ما بعيدا عن أى سوء ، فانه سيظل خالدا ، طالمــا بقيت روحه فى هذا المأمن بعيدة عن الأذى وعن الازعاج. ولذلك فان الرجل البدائى القلق على حياته ينتزع روحــه أو روح صديقه فى بعض الأحيان فى أوقات الخطر فى حرص بالغ ، ويودعها فى مكان آمن ، حتى يزول الخطر ثم يستعيدها بعد ذلك . ومثال ذلك أن كثيرا من الشعوب تعد الانتقال من بيت لآخر فترة عصبية تحيط فيها الاخطار بأرواحهم . وفى مثــل تلك الظروف العصيبة ، يجمع الكاهن فى « ميناهاسا » وهو اقليم فى « سيلييس » ، أرواح الأسرة فى حقيبة يحتفظ بها عنده حتى يزول الخطر ، ثم يعيد كل روح على حدة الى صاحبها . وعندما يحين الوقت الذى تضع فيه المرأة طفلها فى سيلييس الجنوبية ، فان الرسول الذى يذهب ليستدعى الطبيب أو الداية يأخذ معه سكينا حادة أو أى آلة أخرى مصنوعة من الحديد . وهذه الآلة التى يحملها معه تمثل روح المرأة التى يعتقد أنها تكون أكثر أمانا اذا كانت خارج جسدها فى هذا الوقت العصــيب . ومن ثم فانه يتحتم على الطبيب أن يحرص على هذه الآلة ، لأنها متى فقدت ، فان روح المرأة تفقد معها . ولهذا فهو يحتفظ بهذه الآلة فى بيته حتى تنتهــى المرأة من وضع طفلها ، وعند ذاك يحمل اليها الوديعة الثمينة ويتسلم أجره منها . وفى جزر « كاى » تشــق ثمرة جوز هنــد مجوفة إلى شقين ، ثم يلحم الشقان بعناية وتعلق الثمرة فى بعض الأحيان كمــا رأينا ذلك . وهذه الثمرة تحتضن روح الطفل المولود حتى لا تقع فريسة للأرواح الشريرة ان لم يحتفظ بها على هذا النحو . وتظل الروح فى حالة غير مستقرة بين هذين الشقين حتى يلتحما تماما . ويتخذ الاسكيمو فى ألاســكا إجراء احتياطيا شبيها بهذا الاجراء للمحافظة على روح الطفل المولود . فالطبيب يحول الروح الى شكل تعويذة سحرية يضعها فى حقيبته ، وبذلك تكون الروح فى مأمن من أى أذى أينما وضعت هذه الحقيبة . وعندما تخرج المرأة فى نيوغينيا الجنوبية الشرقية حاملة طفلها فى حقيبة « يتحتم عليها أن تربط فى ازارها فرع نبات متسلق

من أى نوع ، ومن الأفضل أن تربطه فى الحقيقة التى يستلقى فيها الطفل ، بحيث يجرجر وراءها على الأرض . فاذا حدث أن تجول روح الطفل خارج جسده فإنه ينبغى أن يعد للروح شىء يتمكن من التسلق عليه حتى يدخل الجسد مرة أخرى وهل هناك وسيلة مناسبة تعين الروح على التسلق أكثر من هذا النبات المتسلق الذى يصادفه أمامه فى الطريق ؟ .

وربما كانت أكثر الأمثلة قربا من « حزمة الحياة » ، حزم « شورونجا » وهى عبارة عن مجموعة من الأحجار المسطحة المسواه ومن العصى التى تحتفظ بها قبيلة « أرونتا » وبعض القبائل الأخرى التى تسكن استراليا الوسطى بعناية كبيرة وسرية تامة فى كهوف وشقوق الصخور . وكل حجر من هذه الأحجار السحرية ، وبالمثل كل عصا ترتبط ارتباطا وثيقا بروح فرد من أفراد العشيرة حيا كان أم ميتا . ذلك أنه بمجرد أن تدخل روح الطفل بطن أمه لكى يولد فيما بعد ، يوضع حجر من هذه الأحجار أو هذه العصى فى المكان الذى شعرت فيه المرأة لأول مرة بحركة فى بطنها . ثم يأخذ الزوج بمعونة الزوجة فى البحث عن حجر هذا الصبى أو عصا . فاذا عثرا على الحجر أو انتزعا العصا من أقرب شجرة صلبة ، فان الأب يسلمها الى زعيم حيه الذى يودعها بدوره مع سائر الأحجار والعصى فى المخزن المقدس الذى يقع بين الصخور . وكثيرا ما تربط هذه الأحجار فى شكل حزم . وهى تعد أكثر الممتلكات قدسية عند القبيلة ، وتحجب الأمكنة التى توضع فيها بمهارة عن الأنظار ، فتوصد مداخل الكهوف بالأحجار التى ترص بطريقة طبيعية للغاية حتى لا تثير حولها الشكوك. ولا يعد المكان الذى تخبأ فيه الأحجار والعصى وحده مقدسا ، وانما يشاركه هذه القدسية كل ما يحيط به . فلا ينبغى أن تمس النباتات والأشجار التى تنمو من حوله بأى حال من الأحوال ، كما لا ينبغى التحرش بالحيوانات التى تتجول من حوله . واذا تمكن شخص هارب من أعدائه او من الآخذ بثأره منه ، أن يلجأ الى هذا المكان المقدس ، فانه يظل فى أمان طالما بقى فى نطاق حدوده . ويعد فقدان هذه

« الشورونجا » ، وهو الاسم الذى يطلق على هذه العصى والأحجار التى ترتبط بأرواح أحياء ووفيات جماعة من الجماعات ، أكثر الشرور خطرا يمكن أن تحل بهذه الجماعة • فاذا سرقتها منهم جماعة من البيض المتهورين ، فان الأهالى ، كما يعرف ذلك عنهم ، لا يبرحون خيامهم طول أربعة عشر يوما يبكون فى أثنائها وينتحبون على خسارتهم ويطلون أجسامهم بالجص ، وهو شعار الحزن على الأموات عندهم •

وتعد هذه المعتقدات والممارسات التى تنتشر فى استراليا الوسطى فيما يختص « بالشورنجا » وكما سبق أن لاحظ ذلك « مسرز » و « سبنسر » و « جيلين » بحق : « تحويرا للفكرة التى عبرت عنه شعوب كثيرة ، والتى ، وفقا لها ، ينظر الرجل البدائى الى روحه بوصفها شيئا ماديا يمكن أن يضعه ، وفقا لتصوره ، فى مكان آمن بعيدا عن جسمه اذا تطلبت الضرورة ذلك • فاذا تعرض جسمه للخطر بشكل أو بآخر ، فان روحه التى تقع بعيدا عن جسمه • تظل بعيدة عن الأذى » • على أن الأرونتيين فى العصر الحاضر لا يعتقدون فى أن هذه الأحجار والعصى المقدسة هى المكان الحقيقى الذى تستكن فيه أرواحهم ، بمعنى أن تحطيم احدى هذه العصى أو الاحجار يؤدى بالضرورة الى هلاك الرجل أو المرأة أو الطفل الذى ترتبط روحه بهذا الحجر أو بتلك العصا • ولكننا نصادف فى تراثهم أخبارا واضحة عن أن أجدادهم كانوا يودعون أرواحهم فى هذه الأشياء المقدسة • فقد قيل على سبيل المثال ، ان بعض الرجال الذين ينتسبون الى الطوطم « القط البرى » ، كانوا يحتفظون بأرواحهم فى الـ « شورنجا» التى تعودا أن يعلقوها على عامود مقدس فى الخيمة ، عندما يخرجون للقنص • فاذا عادوا من رحلتهم ، فانهم يأخذونها من العامود ويضعونها حيث كانت • والغرض من تعليق الـ « شورينجا » على العامود عندما تخرج الجماعة للقنص ، هو الاحتفاظ بأرواحهم فى أمان حتى يعودوا •

وبناء على ذلك فان هناك من الأسباب ما يدعونا بحق لأن نعتقد

أن حزم العصى والأحجار المقدسة التى ما يــزال « الأرونتيــون » وغيرهم من القبائل التى تســكن استراليا الوسطى يحتفظون بهــا فى عناية كبيرة فى أماكن مقدسة ، كان يعتقد فيما سبق أنها مســكن لروح كل فرد من أفراد الجماعة • وطالما كانت هذه الحزم مربوطة ربطا محكما وموضوعة فى مكانها المقدس ، ظلت أرواح الناس كذلك فى أمان وفقا لهذا الاعتقاد • فاذا ماحل رباط هذه الحزم وتبعثــر ما فيها ، فانه ينجم عن ذلك أسوأ العواقب • وربما كان من قبيــل التسرع أن نؤكد أن الســاميين البدائيين كان يحتفظون بأرواحهم فى العصى والأحجار التى كانوا يودعونها فى الكهوف وشقوق الصخور فى قفار بلادهم ، ولكنه ليس من قبيل التسرع أن نؤكد أن مثل هذا الاعتقاد يمكن أن يفسر على نحو بســيط وطبيعى كلمــات أبيجايل التى وجهتها للزعيم الطريد ، وهى : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك ، ولكن نفس سيدى لتكن محزومة فى حزمة الحياة مع الــرب الهك ، وأما نفس أعدائك ، فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » •

ومهما يكن الأمر فانه يبدو أن العبريين حتى زمن متأخر نسبيا ، كانوا يمارســون نوعا من السحر الذى يهدف الى القبض على أرواح الأحياء واحتجازها بقصد الحاق الضرر البالغ بهم • وقد أشار النبى « حزقيال » الى هؤلاء السحرة الذين كانوا يمارسون هذا الســحر الأسود فى العبارة الآتية :

« وأنت يابن آدم فاجعــل وجهك ضد بنات شعبك اللواتى يتنبأن من تلقاء ذواتهن وتنبأ عليهن ، وقل هــكذا قال الســيد الرب • ويل للواتى يخطن وسائد لكل أوصال الأيدى ، ويصنعن مخدات لرأس كل قامة لاصطياد النفوس • افتصطدن نفوس شعبى وتستحيين أنفسكن• وتنجسنني عند شعبى لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز لاماتة نفوس لا ينبغى ان تموت واستحياء نفوس لا ينبغى أن تحيــا ــ بكذبكن على شعبى السامعين للكذب • لذلك هكذا قال السيد الرب • ها أنا ضد وسائدكم التى تصطدن بها النفوس كالفراخ ، وأمزقها عن

أذرعكم وأطلق النفوس التى تصطدنها كالفراخ ، وأمزق مخداتكن وأنقذ شعبى من أيديكن ، فلا يكونون بعد فى أيديكن للصيد ، فلتعلمن أنى أنا الرب (١) •

ويبدو أن هذه الممارسات الشائنة التى كان يتبعها هؤلاء النساء اللاتى أشار اليهن النبى ، كانت عبارة عن محاولات للقبض على الأرواح الشاردة فى شباك وقطع من الأقمشة وبذلك يتمكن من قتل بعض الناس عن طريق امتهان أرواحهم امتهانا لا هوادة فيه ، كما يتمكن من انقاذ بعضهم الآخر ، وهم المرضى فيما يبدو ، وذلك عن طريق أسر أرواحهم الشاردة واعادتها الى أجسامهم • ومازال المشعوذون والسحرة فى كثير من بقاع العالم يقومون بمثل هذه الأفعال المشينة لتحقيق الغرض نفسه • فقد تعود زعماء « الفيجانيين » على سبيل المثال ، أن يأسروا أرواح المجرمين فى أوشحة ، وعند ذاك يتعرض هؤلاء المساكين الذين سلبوا أهم جزء من أجسامهم الى الهزال ويموتون • وبالمثل كان المشعوذون فى « جزيرة الخطر » التى تقع فى الباسفيك ، يأسرون أرواح المرضى فى شراك ينصبونها بالقرب من بيوت المرضى ، ويظلون يراقبون الأرواح وهى تأتى خافقة حتى تأسر بين خيوط الشباك • ويعقب هذا وفاة المريض المحتمة ان آجلا أو عاجلا • وتصنع الشباك من خيوط متينة بها عقد ذات أحجام مختلفة لتأسر الأرواح ذات الأحجام المختلفة كذلك ، كبيرة كانت أم صغيرة ، سمينة كانت أم نحيلة • أما عند زنوج افريقيا الغربية ، « فينصب السحرة شراكهم على الدوام لأسر روح المريض التى تهيم خارج جسده فى أثناء نومه • فاذا استطاعوا أسرها فانهم يربطونها ويضعونها فوق النار الموقدة فى زوارقهم ، وعند ذاك تحضر المريض الوفاة فى الوقت الذى ترتعد فيه الروح فوق النار • ولا يقوم السحرة بهذا العمل بدافع العداء الشخصى أو الانتقام ،

---

(١) سفر حزقيال الاصحاح الثالث عشر من آية ١٧ الى ٢١ •

بـل هو مجرد عمل عادى يقومون به على الدوام • ولهـذا فـان الساحر لا يأبه بشخصية الروح التى تقع فى شراكه لأنه سيتسـلم أجره عند اعادة هذه الروح الى صاحبها ، بصرف النظر عمن يـكون الشخص الذى تنتسب اليه الروح • وبالمثل كان الأطباء السـحرة الذين لم يكن تسىء هذه الأفعال الى سمعتهم ، يحتفظون بملاجىء تلجأ اليها الأرواح الشاردة وهى الأرواح التى كانت تتجول ثم وجدت عند رجوعها الى الأجساد ، أن مكانها قد شغلته الـ « سيسا » ، وهى روح تنتمى الى الطبقة الدنيا • وهؤلاء الأطباء يحتفظون بالأرواح ويرسلونها لتقدم المساعدة للمرضى العاجزين عن شفاء مرضهم • وقد حدث ذات مرة بين « الباولبين » الذين يسكنون ساحل العاج ، أن أخرجت روح زعيم من الزعماء بتأثير سحر أحد أعدائه الذى نجح فى أن يأسرها فى صندوق • عند ذاك أمسك رجلان برداء من أرديـة الزعيم ، بينما أخذت ساحرة تتلو بعض التعاويذ • ثم أعلنت الساحرة بعد وقت أن الروح قد أسرت فى الرداء • وبناء على ذلك لف الرداء فى سرعة حول الزعيم حتى يسترد روحه • ويقوم السحرة فى الملايو بأسر أرواح النسـاء اللاتى وقعوا فى حبهن ، فى طيات عماماتهم ، ثم يضعونها فى أحزمتهم يتجولون بهـا نهارا • أما فى أثناء النـوم فانهم يضعونها تحت وسائدهم • وقد تعود الكاهن بين « المترود جانبين» الذين يسكنون « سيلمبيس الوسطى » ، أن يدلى حول صدره وعلى ظهره خيطا رصت عليه القواقع البحرية التى يأسر بداخلهـا أرواح الأعداء ، وذلك عندما يخرج مرافقا لحملة حربية • وقد كانت هـذه القواقع تسوى فى شكل شعب ، وتعقف ، فاذا دخلت الروح القوقعه حالت الشعب والعقوف ، وفقا لتصورهم ، دون هروبها • أما الطريقة التى كانت يغرى بها الكاهن الروح حتى تدخل فى الأسر ، فكانت تجرى على المنحو التالى : عندما يدخل المحاربون أرض الأعداء ، يرحـل الكاهن الى القرية التى يرمون مهاجمتها • وهناك عند مدخل هـذه القرية ، يضع الخيط الذى ترص فيه القواقع فى شكل دائرى ، ثـم يدفن داخل الدائرة بيضة وأمعاء دجاجة تفاءل بها الجيش قبل خروجه

الى الحرب • ثم يهز الكاهن الخيط سبع مرات فى هـذا المـكان ، ويستدعى أرواح الأعداء فى هدوء ويذكر اسما من أسماء أفراد القرية ويقـول : « ياروح فلان وفلان ، تعالى ودوسى على دجاجتى ، لقـد نسبت اليك تهمة ارتكاب الخطأ ، فلتجىء » • ثم ينتظر هنيهة بعـد ذلك ، فاذا سمعرنينا للقواقع ، فان هذا يكون علامة على أن روح عدو من الأعداء قد دخلت القوقعة حقا ، وأن القوقعة قد أسرتها بداخلها • وفى اليوم التالى يذهب الرجل الذى وقعت روحه فى الشرك ، رغـم أنفه الى المـكان الذى ينتظر فيه الأعداء الذين أسروا روحه ، وبذلك يقع فى يسر فريسة فى أيديهم •

ومثل هذه الممارسات يمكن أن تعين على تفسير أعمال الساحرات العبريات اللاتى تحامل عليهن حزقائيل • اذ يبـدو أن هؤلاء النسوة اللاتى كن طريدات المجتمع ، كن يأسرن الأرواح فى أوشحتهن عن طريق طرحها على رءوس ضحاياهم ، كما كن يحتجزن أسراهم من الأرواح فى شباك كن يربطنها حول أذرعهن •

وبناء على ذلك فانه يبدو أن العبريين كانوا يحتفظون منذ عصورهم التاريخية الأولى بفكرة أن الروح تعد شيئا منفصلا عن الجسد ، وأنه من الممـكن عزلها عن جسم الانسان فى أثناء حياته ، اما عن طـريق أعمال السحر الشريرة ، أو بناء على رغبة الشخص نفسه الذى يسعى الى الاحتفاظ بها فى مكان آمن لمـدة تطول أو تقصر • واذا كان أحد أنبياء بنى اسرائيل الكبار قد صـور لنا الساحرة العبرية وهى تقوم بعملها الشيطانى لاجتذاب أرواح الآخرين ، فربما قدم لنا نبى آخر كبير من أنبيائهم لمحة عن سيدة تنتمى الى الطبقة العليا فى أورشليم وهى تحمل روحها معها فى سلة صغيرة • فبعد أن وصف هـذا النبى فى أسلوب من الطعن والسخرية تطهر بنات زيون (١) المتعاليات وتمسكهن

(١) وقال الرب من أجل ان بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخشخشن بأرجلهن . يصلح السيد بنات صهيون ويعرى الرب عورتهن . ينزل السيد فى ذلك اليوم

بأهداب الدين ، هؤلاء اللاتى كن يسرن بعيون فاترة وخطوات وئيدة ، أخذ النبى أشعياء يستعرض الجواهر والحلى والأردية والشيلان ، وغير ذلك من الملابس والحلى المبهرجة التى كانت هؤلاء النساء المترفات الأنيقات يرتدينها • ومن بين قائمة الزينة الرخصية التى ذكرها ، أشار الى « مأوى الروح » • وهذا التعبير الذى ترجم ترجمة أدبية لا يتغير فى العهد القديم • وقد شرح المترجمون والشراح المحدثون هذا المأوى بأنه « صناديق العطور » ، (وزجاجات العطور) أو ما أشبه ذلك • ولكن ربما كان مأوى الروح هذا أشبه بتعاويذ كان يظن أن روح حاملها تسكن فيها • وقد أدرك المفسرون لعبارة النبى هذه ، أن كثيرا من الحلى الرخيصة التى ذكرها النبى كانت بمثابة تعاويذ سحرية فيما يبدو ، كما ما يزال يعد كثير من أنواع الحلى الذى يرتديه الأشخاص فى الشرق حتى يومنا هذا • على أن الكلمة التى تأتى بعد « مأوى الروح » فى النص العبرى ، نقلت فى « الترجمة الانجليزية المعتمدة » الى كلمة « تعاويذ » : أما الكلمة العبرية الأصلية فمستمدة من فعل معناه « أن يهمس » أو « أن يسحر » •

على أن تفسير « مأوى الروح » على هذا النحو ، لا يعنى بالضرورة استبعاد تعريفها بأنها زجاجات العطور ، فقد كان مجرد شم العطور من وجهة نظر شعب من الشعوب كالشعب العبرى الذى كان يرى أن أساس الحياة هو التنفس ، يمثل مظهرا روحيا ، ومن ثم فان استنشاق عبير الروائح العطرية يمكن أن يعمل على نماء الحياة بالأنفاس • وبناء على ذلك فانه من الطبيعى أن ينظر الى الشىء نفسه الذى يتضمن هذه الروائح ، سواء كان زجاجة من العطر أو بخورا ، أو زهرة ، بوصفه مركزا لاشعاع القوى الروحية ، أى أنه مكانا مناسبا تتزود منه الروح بالأنفاس متى رغب الشخص أن يفعل

زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة والحلق والأساور والبراقع والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والاحراز •
(اشعياء ، الاصحاح الثالث من ١٦ الى ٢٠) •

هذا لبعض الوقت • وربما كانت أقوال الشعراء خير ما يستعلن بـه لتوضيح أفكار الشعب ومغزى هذه الأفكار • فالشاعر يقول :

لقد أرسلت لك فى وقت متأخر إكليلا من الزهر
لا بقصد تبجيلى لك بقدر ما اننى
أبثه أملى فى ألا يذوى
فلتنشـقى عبـيره
وترديه الى مـرة أخرى
فطالمـا كانت أزهاره مزدهرة وذات أريج عطر
فاننى لا أقسم بها ، بل بك

ويقـول شـاعر آخر • •

أيتها الورود الذابلة الجميلة
انك لم تصبحى بعد مكانا لحبى

فإذا كان يظن أن الجمال يضفى من حياته وروحه عـلى روح الزهرة حتى تظل نضرة ، فليس غريبا أن المرأة نفسها تستعين كذلك بزجاجة العطر حتى تظل روحها نضرة • ومهما يكن الأمر فان هـذه الخيالات القديمة ان كانت قد عاشت بحق ، من الطبيعى أن تفسر السبب فى اطـلاق اسـم مأوى الروح على زجاجة العطر • وعـلى كل فان المـادة الفولكلورية التى نشأت حول العطور لم تدرس بعد • وربما استفـاد الدارس فى بحثـه لهذا الموضوع كما هو الحال فى بحث أى موضوع فولكلورى آخر ، من أقوال الشعراء الذين يدركون بالفطرة ما ينبغى علينا أن نعلمه عن طريق الحقائق المعملية • حقـا انه بدون لمسات الخيال الشاعرى ، يصعب علينا أن نتعمق مشـاعر الناس • ومن ثم فان البحث العقلانى ذا العاطفة الفاترة سيظـل يطرق دون جدوى مدخل عالم الخرافة المصنوعة من أكاليل الورود السحرية • واذا كان « جراند جرند » من هؤلاء العقلانيين ، فـان البواب الذى يقف حارسا لمدخل عالم الخرافة ، لن يفتح له هـذا المـدخل •

الفصل الرابع

ساحرة عين دور

من الشخصيات المأساوية فى تاريخ بنى أسرائيل ، شخصية الملك « شاءول » أول ملك حكم الأمة اليهودية فقد طالب الشعب اليهودى بأن يحكمهم ملك مدنى بعد أن أعلنوا تمردهم على حكم الكهنة الذين كانوا يتظاهرون لهم أنهم يحكمونهم باسم الرب وبارشاده المباشر • وقد كان آخر هؤلاء الأساقفة النبى « صموئيل » الذى رضخ فى اذعان لمطالب الشعب وعين « شاءول » ملكا على بنى اسرائيل • وربما أشبهت هذه الثورة تلك الثورة التى يمكن أن تحدث فى دولة البابا ، لو أن الناس بدافع أحساسهم بالضغط الكنسى وسوء الحكم ، أعلنوا تمردهم ضد البابوات ، وأرغموا الأسقف الحاكم على أن يسلم الصولجان الأرضى ، وهو ما زال ممسكا بمفاتيح السماء ، لحاكم مدنى • وقد سعى صموئيل فى براعة ، وهو الذى عرف بعنفه فى سياسة الأمور بقدر ما كان من أكثر الشخوص الكهنوتية صرامة ، لا أن يمسح « شاءول » فحسب ، بل عينه ملكا جديدا على شعبه ، تركزت من حول آمال بنى اسرائيل •

وقد كانت تلك الشخصية التى وقع عليها اختيار صموئيل جديرة بأن تكسب اعجاب الناس وولاء الجماهير • ومما ميزه لأن يكون من الطبيعى حاكما على شعبه ، جسمه الفارع التى ينبض بالهيبة ، وشهامته وجسارته وقيادته الماهرة ، وشجاعته الباسلة فى ميدان الحرب • ومع ذلك فان هذا الجندى الشعبى الجسور ، كان يخفى وراء مظهره الرائع ، نقاط ضعف خطيرة فى شخصيته ، فقد كان ينزع

الى الشــك والمغيرة ، كما كان صفراوى المزاج ، ضعيف الارادة ، مترددا فى اتخاذ قراراته • وكان فوق هذا كله مصابا باكتئاب ألــح على فكره ، الذى لم يكن منظما على الاطلاق ، وكان يصل به فى بعض الأحيان الى مشارف الجنون • ولم يكن يخفف من حدة هذا الاكتئاب الذى يغشى نفسه عدة ساعات مظلمة سوى الألحان الموسيقية الهادئة • ومن أكثر الصور التى صورها له المؤرخ العبرى نابضة بالحياة ، صورة ذلك الملك الوسيم وهو يجلس غارقا فى كآبته ، بينما يقــف داوود الصبى المنشد ذو الخدين الورديين ، يعزف على أوتار قيثارته الحانا عذبة ، حتى يختفى التقطيب من جبين الملك ويتصالح مع أفــكاره المصطخبــة •

وربما اكتشف « صموئيل » بعينه النفاذة هذه الجوانب الضعيفة فى شخصية « شاءول » ، وكانت هذه الجوانب موضع اعتباره ، عندما رضخ لرغبة الشعب فى أن يعين بدلا منه من يخلفه فى ادارة شئون البلاد العليــا • وربما اعتمد على هذا عندما عين « شاءول » بوصفه الحاكم البراق والقناع المزخرف الذى يخفى بكل تأكيد وراء الملامح العســكرية للجندى الشجاع الدمث سيماء صــارمة لنبى لا تلــين عريكته • وربما تصور « صموئيل » انه سيعامل الملك كما لو كان دمية تلبس التاج فوق رأسها وتمسك الصولجان فى يدها وترقص عــلى المسرح القومى على أنغام طيف مؤتمرة بأمر من يقف وراء الأنظار • فاذا كان « صموئيل » قد قدر كل هذه الأمور عندما ساعد شــاءول على اعتلائه العرش ، فان الأحداث قد أكدت صدق تقديره فيما بعد • فطالمــا كان صموئيل على قيد الحياة فان « شاءول » لم يكن سوى آلة فى أيدى صموئيل التى كانت تفوق بكثير قوة يديه • فلقد كــان النبى « صموئيل » بحق احدى القوى النزاعة الى السلطة بطبيعتها واحدى القوى المتعصبة التى صبت فى قالب من الحديد ، تلك القوى التى تسىء الى عزمها الذى لا ينثنى من أجل إرادة السماء ، فتسير قدما من غير انحراف الى هدفها ، ضاربة عرض الحائط بكل الاعتراضات

وقد أوصدت قلبها دون الاحساس بالشفقة وبالعاطفة الانسانية الرقيقة • وعندما كان « شاءول » مكتفيا بتنفيذ أوامر ناصحه المتغطرس ، ومعترفا له بما فى ضميره كما يعترف أمام الأب الروحى ، كان « صموئيل » يسمح له بأن يتبختر أمام الشعب ، وهو يحمل التاج الوهمى فوق رأسه • فلما حاول « شاءول » أن يحيد قيد انملة عن أوامر رئيسه الروحى ذى القلب المتحجر ، حطم صموئيل الملك الدمية وألقى به جانبا كما يلقى الانسان بآلة كفت عن القيام بوظيفتها • ثم عين النبى سرا خليفة لشاءول ، هو دواد المنشد ، وولى ظهره للملك الذى وخزه ضميره وأعلن توبته • ورفض أن يراه مرة أخرى ، بل انه أعلن عليه الحداد طوال حياته كما لو كان قد توفى بحق •

ثم ساءت الأمور مع « شاءول » بعد ذلك • فبعد أن حرم الساعد القوية التى طالما ركن اليها طويلا ، تملكه العند والشرود أكثر من ذى قبل فزاد اكتئابه وتضاعفت شوكه ، ولم يعد يستطيع التحكم فى مزاجه الذى كان يتميز بالتقلب ، فاستسلم لثورات الغضب وحاول الاعتداء على داود بل على ابنه يوناتان • وعلى الرغم من أن نوبات الغضب العاطفى كان يعقبها نوبات الحزن العاطفى ، فان أحدا لم يكن يخطىء ما انتاب طبيعته من تلف ، تلك الطبيعة التى كانت تتميز بالنبل ذات يوم •

وفى الوقت الذى كانت تتجمع فيه سحب الغروب فى حياته الآفلة ، حدث أن الفلسطينيين الذين سبق له ان شن عليهم حربا طويلة شعواء ، هاجموا بلاده بقوة كما لم يحدث من قبل • وعند ذلك وجه اليهم شاءول القوة الاسرائيلية لتعترض طريقهم ، وعسكر الجيشان تجاه بعضها البعض عند سفوح التلال وبينهما سهل ـ « يزرعئيل » العريض (١) وكانت عشية الغد الذى يتقرر فيه مصير بنى اسرائيل •

---

(١) يسمى حاليا مرج بن عامر •

ولكن الملك كان يتطلع الى المعركة الحاسمة بشك كبير ، وشعر كما لو كان ثقلا من حديد يرقد فوق روحه الواهنة • وظن الملك أن الرب قد تخلى عنه ، لأن كل المحاولات التى بذلها مستعينا بكل صور الالهــام لتكشف عن المستقبل ، قد باءت بالفشل ، فقد كان الأنبياء صامتين والنبوءة خرســاء ، بل انه لم ير فى نومه الثقيل أية رؤيا تســطع ببريق من الأمل • حتى الموسيقى التى طالمــا استعان بها فى أبعــاد الأحزان عن نفسه ، لم تعد طوع ارادته ، فلقد أبعدت ثورات غضبه الموسيقيين عنه ، هؤلاء الذين طالمــا لعبوا على أوتار آلاتهم وعزفوا بكل ما يمكن أن تخرجه هذه الأوتار من الحــان عذبة لتهىء لنفسه المتعبة ولو لحظة خالية من العذاب • ولم يستطع شاءول فى يأســه أن يقاوم التفكير فى صموئيل ، ذلك الناصــح المخلص الذى طالمــا التمس لديه العون فى الأيام السعيدة ، ولكن صموئيل كان يرقد آنذاك فى قبره فى « الرامة » • وهنا لاحت للملك فكرة : أليس من الممــكن أن يستحضر روح صموئيل من قبره وينتزع كلمات الأمل والسلوى من شبحه ؟ • لقد كان هذا ممكنا ، وان كان عسيرا ، لأنه كان قــد نفى بنفسه هؤلاء الذين يمارسون السحر الأسود • وعند ذاك استفسر عن هؤلاء من خدامه ، وعلم منهم أن هناك ساحرة ما تزال تعيش فى قرية « عين دور » التى تقع بين التلال على الجانب البعيد من الوادى، على بعد عدة أميال نحو الشمال • فقرر الملك أن يلتمس عندها النصيحة وأن يجعلها ، ان كان هذا ممكنا ، تضع حدا لشكوكه ومخاوفه • ولكنه أدرك أنه يقوم بمغامرة خطرة ، لأن الجيش الفلسطينى بأسره كان قد اتخذ موقعه بينه وبين قرية الساحرة ، واذا رحل اليها فى وضح النهار فان هذا يعنى نهاية حياته • ومن ثم لم يكن هناك بد من أن ينتظر حتى يرخى الليل سدوله •

وبعد أن جهز الملك كل شىء لمعركة اليوم التالى ، ذهب الى خيمته لا لينام ، اذ أن الثورة التى كانت تغلى فى دمه قد أبت عليه الراحة ، ولكن لينتظر فى تململ بالغ الساعة التى يستطيع أن يغادر فيها خيمته

تحت جنح الليل • فلما غـربت الشمس وأخـذ الظـلام ينتشر فى الأرجاء ترك الملك أبهته الملكية التى كان قد بدا فيها وشـيكا أمـام جيشه ، ولف جسمه الفارع فى رداء عادى ورفع أهـداب خيمتـه واختلس الخطا فى جنح الليل يتبعه اثنان من رجاله ، بينما كان جنوده من حوله يغطون فى النوم فى ضوء النجوم ، وقد سطعت وجوههـم ببريق النار التى كادت تخبو فى كتل الأخشاب المترامية هنا وهناك • أما فى الجانب الآخر من التل ، فقد أبصرت عينه على هذا المدى نار الحراسة المشتعلة فى جيش أعدائه ، كما أخذ يسـتمع فى سـكون الليل أصوات الصخب والموسيقى التى نقلتها اليه الرياح عبر الوادى وكأنها تحمل اليه النصر الذى يتوقعه عدوه فى الغد القريب •

وسار المغامرون الثلاثة عبر الوادى حتى وصـلوا الى سـفح التـلال ، مبتعدين عن النقط الأمامية لمعسكر العدو ، وهناك أخذوا فى صعود هذه التـلال • وهناك قادهم درب يقع عند كتف الجبل الى قرية عين دور الفقيرة حيث تلتصق أكواخها بالصخور التى تقع على المنحدرات الحجرية الجرداء • وهناك على البعد ، جهة الشمال ، كان يشمخ جبل « تابور » أسود صلبا ، كما كانت تبدو قمة جبل « هيرمان» الثلجية فى ضوء النجوم شاحبة ذات شكل شيطانى • على أن المسافرين لم يكن لديهم الوقت بله الرغبة فى تأمل المنظر الليلى • فما أن اقترب رفقـاء الليل الى مسكن الساحرة ، حتى قـاد المرشـد الملك الى كوخها • وقد كان النور يسطع من نافذة الكوخ ، عندما طرق المرشد بابه فى هدوء • وكأن السـاحرة كانت فى انتظارهم ، اذ أن صـوت امرأة نادى بهم أن يدخلوا • فخطوا الى داخل الكوخ وأغلقوا الباب دونهم ، ووقفوا منتظرين قدوم الساحرة • وحيث أن الكاتب الدينى لم يذكر شيئا فى وصف تلك الساحرة ، فانه يحق لنا أن نصفها من خلال تصورنا لها ، فربما كانت الساحرة شابة شـقراء ذات عينين متألقتين وشعر فاحم • وربما كانت عجوزا شمطاء عمشاء ذات شعر مجعد ، قد خلا فمها من الأسنان ، واقترب أنفها الأقنى من ذقنها ،

وانحنى ظهرها من الوهن والهرم • فليس فى وسعنا على كل حال • آن نقطع بشكلها ، ولكن الملك بدون شك قد أمعن النظر كثيرا فى شكلها ثم اخبرها دون التواء بسبب زيارته لها ، وقال لها اعرفى لى بالجان ، واصـعدى لى من أقول لك « (سفر صموئيل الاول • الاصحـاح الثامن عشر والعشرون آية ٨)• ولكن الساحرة اعترضت على مطلبه وذكرت زائرها الذى لم تكن قد تحققت بعد من شخصه ، بحملـة الملك ضـد السحرة والعرافين ، ومن ثم فان الاستجابة الى مطلبـه تكلفها حياتها • ولم توافق السـاحرة على استخدام قواها السحرية لصـالح الملك ، الا عندما أكد لها هذا الغريب ذو القامة الفارعة ، فى لهجة بين الأمر والتوسل ، بشرفه ، أن الأذى لن يلحق بها قط من جراء تحقيقها لـمأربه • وعند ذلك سألته الساحرة : « من أصعد لك ، فقال اصعدى لى صموئيل » ، (السفر نفسه ونفس الاصحاح آية ١١) • وفوجئت السـاحرة بسماعها هذا الاسم ، وحملقت فى وجه الزائر وأدركت أنه هو الملك بعينه فصرخت فى فزع فى وجهه عندما تصورت أنها وقعت فى الفخ وقالـت له : « لماذا خـدعتنى وأنت شـاءول » (آية ١٢) • ولكن الملك طمأنها ، وأكد لها أنه سيمنحها صفحا ملكيا ، ورجاها أن تبدأ بتعويذاتها ، ومن ثم فقد بدأت فى عملها ، وأخـذت تحملق فى عمق فيما بدا لزائرها انه مجرد فراغ • ولكن الملك أدرك من خلال نظرتها الزائغة الحائرة أنها ترى شيئا خفيا عنه • وعند ذلك سألها الملك عما بدا لها ، فقالت : « رأيت آلهة يصعدون من الأرض • فقال لها ما هى صورته • فقالت رجل شيخ صاعد وهى مغطى بجبة • فعلم شاءول أنه صموئيل • فخر على وجهه على الأرض وسجد • فقال صموئيل لشاءول لماذا اقلقتنى باصعادك إياى • فقال شـاءول قد ضاق بى الأمر جـدا • الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى • ولم يعد يجيبنى لا بالانبياء ولا بالأحـلام ، فدعوتك لكى تعلمنـى ماذا أصنع • (سفر صموئيل الاصحاح الثـامن والعشرون من ١٣ الى ١٥) ولكن الملك البائس وجد الشبح قاسـيا صعب المراس كما فعل صاحبه فى أثناء حياته ، عندما أدار ظهره غاضبا للملك الذى بلغ من

جرأته أن عارض وصيته • فقد سأل الرجل الكهل الذى لم تعـرف الرحمة طريقا الى قلبه ، فى نغمة قاسية ، سـأل الملك المتذلل كيف أنه جرؤ بحق الرب ، على أن يطلب النصح من نبى الرب • ثم أنبه مرة أخرى على عصيانه أو امره وذكره بنبوءته التى سبق له أن أخبره بها ، وهى أن المملكة ستؤخذ منه وتمنح لداود ، وطلب منه ان يعمـل على تحقيق تلك النبوءة • ثم ختم تعنيفه له بأن صرح له أن الغـد يحمل هزيمة بنىاسرائيل وانتصار الفلسطينيين ، وأنه قبل أن تغرب شمس أخرى سيكون شاءول وأولاده معه فى العالم الآخر • وبهـذه الكلمات اختفى الشبح فى باطن الأرض ، أما شاءول فقـد وقـع مغشيا عليه •

ولعلنا ندرك من هذه الحكاية المفصلة أن عادة تحضير الأرواح أو استدعائها بقصد التماس النصح عندها عن طريق النبوءة ، كـانت مألوفة لدى الاسرائيليين القدماء ، وأن التشريعات الصـارمة التى كانت تهدف الى تحريمها ، لم تستطيع أن تقضى عليها كلية • بل ان سلوك « شاءول » الذى لم يتردد فى حزنه البالغ ، فى التماس العون من محضرى الأرواح أنفسهم ، هؤلاء الذين أذلهم فى فترة ازدهـار دولته ، يكشف لنا عن مدى رسوخ هذه العادة فى العقيدة الشعبيـة أو فى خرافات هذا الشعب • ومن ثم فان تصرف « شاءول » على هذا النحو يعد مثالا للميل الى الارتداد الى الوثنية الذى تنبه اليه أنبياء بنى أسرائيل ولم يرتضوه لقومهم • وقد كان هذا الارتداد يظهـر بقوة فى محن الدولة العصيبة غير العادية أو فى أوقات المخطر ، عندما كان يبدو للناس عدم جدوى التشريعات الدينية الصحيحة فى اقنـاع الناس بالأمور الغيبية • فالقانون الاسرائيلى فى صورته الحالية التى يرجح أنها أحدث من عهد شاءول بكثير وان تضمنت عـرفا قديمـا جدا ، ينص على الحكم بالموت رجما بالحجارة ، على كل من يمارس مهنة السحر أو يقوم بتسخير الأرواح ، أى على كل من يمارس مهنة تحضير الأرواح بقصد التماس النصـح لديها عن طريق النبؤة • وعلى

الرغم من هذا التحريم ، فان من بين العادات التى أحياها الملك « منسى » الذى حكم بعد عصر « شاءول » بزمن طويل عادة استحضار الأرواح (١) ، فلقد أخرج هذا الملك المتطير هؤلاء الذين كانوا يمارسون السحر الأسود ، من جحورهم وزواياهم التى كانوا قد اختفوا فيها هروبا من القانون ، وسمح لهم بأن يمارسوا عملهم جهرا فى وضح النهار . ولكن الملك الورع « يوشيا » تصدى فى زحمة اصلاحه الدينى لمحضرى الأرواح ، سحرة كانوا أم عرافين ، ونسبهم الى طبقة المجرمين ، تلك الطبقة التى أصبحوا ينتمون اليها منذ أن مارسوا سحرهم (٢) . ويتضح من حكاية مقابلة « شاءول » لشبح « صموئيل » أن الشبح لم يظهر الا للساحرة . ولكن على الرغم من أن الملك لم ير الشبح ، فانه كان فى وسعه أن يسمع صوته ، وأن يجيبه بدون وساطة . ويمكننا أن ننتهى من ذلك فى شىء من الثقة الى أن هذه الطريقة كانت احدى الطرق التى كان يتبعها السحرة والعرافون الاسرائيليون للتحدث الى موتاهم ، فقد كانوا يتظاهرون باستدعاء الروح ورؤية شبح الميت ، فى حين لا يبصر هؤلاء السذج الذين يطلبون استحضارهم شيئا ، بل يسمعون صوتا يحسبونه لغفلتهم صوت الروح ، وهو فى الحقيقة اما أن يكون صوت الساحر نفسه أو صوت مساعده . ومهما يكن مصدر هذا الصوت ، فان فى مثل هذه الأحوال لم يكن يصدر من الساحر نفسه ، وإنما كان يأتى من مصدر خارج عنه يظنه المستفسر الغر المصدر الذى يقف فيه الشبح غير المرئى . ومثل هذه التأثيرات الواضحة يمكن ان يصطنعها هؤلاء الذين

---

(١) « وعبر ابنه فى النار وعاف وتفاءل واستخدم جانا وتوابع وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لاغاظته » . سفر الملوك الاصحاح الحادى والعشرون آية ٦) .

(٢) « لا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار ولا من يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر ، ولا من يرقى رقية ولا من يسأل جانا أو تابعة ولا من يستشير الموتى ، لأن كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب . وبسبب هذه الأرجاس الرب الهك طاردهم من أمامك » .

(سفر التثنية ، الاصحاح الثامن عشر من آية ١٠ — ١٢) .

يتكلمون من أجوافهم • وهؤلاء تكون لديهم أذن ميزة العمل بدون مساعد ، وبذلك يقللون من فرصة افتضاح أمرهم •

ولقد أخبرت الساحرة شاءول أن روح صموئيل صعدت من الأرض ، وربما كانت قد تمكنت عن طريق استخدام موهبتها الصوتية أن تصطنع صوتا أشبه بصوت منبعث من داخل الأرض ، عميق وذى صرير حسبه الملك صوت « صموئيل » المتوفى ، اذ كان يظن أن الأشباح تتحدث من باطن الأرض بمثل هذا الصوت العميق • وعلى كل فان محضر الأرواح لم يكن على الدوام يبذل جهدا فى محاكاة صوت الشبح من داخل نفسه ، وان كان يفعل هذا فى كثير من الأحيان على سبيل ايهام المستمعين السذج أنه صوت الروح الذى يتعامل معه أو صوت شبح الشخص المقدس لديهم • وهنا يقال ان الروح الذى يتعامل معه محضر الأرواح أو شبح الشخص الذى يستدعى ، قد تقمص محضر الأرواح ، حيث أن الصوت الغريب يخرج من جوفه • وسواء كان الصوت يصدر من جوف الأرض أو من جوف محضر الأرواح ، فان الشبح نفسه فيما يبدو ، كان يقف متواضعا فى خلفية المشهد • فنحن لا نعتقد أن السحرة العبريين بفنونهم السحرية المتخلفة، كانوا قادرين ، شأنهم شأن رفقائهم من السحرة فى العصور المتأخرة ، على مفاجأة المعتقدين وبث الروع فى نفوسهم عن طريق عرض أشكال للمردة أمامهم مرسومة بمادة قابلة للاشتعال على حيطان حجره مظلمة ، ثم تشعل النار فى هذه المادة فى اللحظة المناسبة ، فينفجر فى الظلمة فجأة ضوء متوهج يؤكد بالدليل العلمى سحر هذه العقيدة •

ويبدو أن عادة تحضير الأرواح كانت مألوفة عند العبريين وغيرهم من الشعوب السامية • والدليل الواضح على هذا يتمثل فى النشيد الثانى عشر من ملحمة جلجامش • ويصور البطل جلجامش فى هذا النشيد حزينا على فقد صديقة « ايابانى » ، ثم أخذ يتوسل الى

الآلهة وهو على هذا النحو من الأسى ، لكى تحضر له روح صـــديقه الراحل من العالم الآخـــر • ولكن الآلهـــة اعترفت له ، آلهـــا تلـــو الآخر ، بعجزها عن تحقيق مأربه • فتوسل فى نهاية الأمر الى الاله « نيرجال » ، اله الأموات ، وقال له : « أتوسل اليك أن تفتح حجرة القبر (وأن تشق الأرض) ، حتى تصعد روح « ايابانى » من باطنها كالريح • وأصغى الاله فى عطف لتضرعه ، وفتح حجرة القبر ، وشق الأرض ، وجعل روح « ايابانى » تصعد من باطن الأرض كالريح • وتحدث جلجامش الى الشبح الذى استدعى من باطن الأرض ، وعلم منه الحالة المحزنة التى يعيش فيها الأموات فى العالم الآخر ، حيث يغوص الدود الذى يلتهم أجساد الموتى فى التراب ، كما يغوص فيه غير ذلك من الأشياء • على أن الشبح لطف من حدة كآبة هذه الصورة ، بأن قدم لجلجامش معلومات عن السلوى التى تكلفها طقوس الدفـــن لأرواح المحاربين الذين يسقطون فى المعركة بالقياس الى الحالة المؤسفة التى يعيشها هؤلاء الذين تتمرغ أجسادهم فى التراب دون أن تؤدى لهم طقوس الدفن فى ميدان القتال •

وقد كان الإغريق القدماء يقومون باستدعاء أرواح الموتى ، اما بقصد استقاء معلومات منها أو بقصد تهـدئة غضبها • ويرد أول مثال لتحضـــير الأرواح فى الأدب الاغريقى فى الفقرة الشـــهيرة من ملحمة الأوديسا ، حيث أبحر أولسيوس الى الأرض المظلمة التى تقع عند نهاية أطراف المحيط ، وهناك استدعى أشباح العالم السفلى • وكان على أولسيوس ، لكى يتمكن من الحديث معها ، أن يحفر خندقا ، وأن يقدم شاة ضحيه ويترك دمها يســـيل فى الخندق • وعند ذلك تجمعت الأشـــباح الواهنة العطشى من حول الخنـــدق • وبعـــد أن شربت الدماء ، أسرت الى البطل بكلامات مطمئنة ، بينما كان يجلس بجانب الخندق وهو شاهر سيفه لكى يحافظ على النظام فيما بينها : حتى لا يتجرع أحد منها السائل الثمين فى غير دوره •

ويبدو أن عادة استدعاء الأرواح من العــالم الآخر عند الاغريق القدماء ، لم يكن يقوم به محضرو الأرواح فى أى مكان دون تمييز ، وانما كانت هناك بعض الأمكنة الخاصة حيث كان يعتقد أن محضر الأرواح يتصل ،تصالا مباشرا بالعالم السفلى عن طريق ممــرات أو فتحات تمرق منها الأرواح صاعدة أو هابطة حســب الأوامــر التى يصدرها لها محضر الأرواح • وهذه الأمكنة كانت تعرف بأمكنة نبؤة الموتى • وهناك عند هذه الأمكنة يتم ، فيما يبدو ، التعامل الشرعى مع أشباح الراحلين •

وقد كان أحد أمكنة نبؤة الموتى يقع عند « أرنوم » فى «ثيسبورتيس» حيث استدعى « أورفيوس » الموسيقار الأسطورى دون جدوى ، فيما يقــال ، روح محبوبته « أويريديس » التى فقدها • وفى عصر متأخر رحل « برياندر » حاكم « كورينثا » المتجبر الى هذا المكان نفسه ، ليسأل شبح زوجته « ميليسا » عن وديعة كان قــد أودعهــا شخص غريب عنده ، ثم وضعها « برياندر » فى مكان ما نسيه فيما بعد • ولكن شبح الزوجة رفض أن يجيب عن سؤاله ، لأن زوجته أخبرته بأنهــا عارية وتقاسى البرد ، حيث أن الملابس التى كان قد دفنها زوجها معها لم تنفعها لأنها لم تحرق عند دفنها • ولمــا استمع « برياندر » الى هذا القول ، دعا كل نســاء « كورنثا » للاجتماع فى محراب « هيرا » فجاءت النساء الى هذا المحراب فى أبهى ملابسهن كما لو كن قــــد جئن ليشهدن حفلا كبير • وما كدن يتجمعن فى هذا المــكان ، حتى طلب هذا المتجبر من حراســه أن يحطيوا بهذا الجمع المــرح ، وأن يأمروا كل امرأة وكل فتاة أن تخلع ملابســها • ثم جمع هذه الملابس ووضعها فى حفرة وأحرقها وفاء للزوجة المتوفاه ، وبهذه الطريقــة تصور « برياندر » أن الملابس وصلت الى زوجته • فلما اســتدعى شبح زوجته مرة أخرى ، وأعاد عليه السؤال عن الوديعة المفقــودة ، كانت الزوجة قد استدفأت وشعرت بالراحة وأصبحت مستعدة للاجابة عن سؤاله • ويبدو أن الأماكن التى تجاوز هذا المــكان ، كانت على

صلة كذلك بأرواح الموتى وإن لم تكن مأهولة بهــا ، ذلك أن أســماء أنهار العالم الآخر كانت تطلق على المياه المجاورة لها • فقــد كان يجرى بجوارها نهر « أخيرون » ، كما كان يجرى بعيــد من هــذا النهر ، نهر « كوكينوس » الذى سمى بذلك « نسبة الى العويل الذى سمع عاليا عند مجرى هذا النهر الحزين » • وربمــا كان المــكان المحدد الذى كان يتم الاتصال عنده بالعالم الآخر ، هو قرية من القرى التى يطلق عليها اليوم اسم « جليكى » ، حيث تشير بقايا أعمــدة الجرانيت وبعض قطع من رخام الأفارين الأبيض الى مــكان معبد قديم • وينبع نهر « أكيرون » الذى يسمى اليوم نهر « سوليوتيكو » أو « فناريونيكو » من جبال « سولى » الموحشة الجرداء ، التى كانت تتمتع ذات يوم بجانب من الشهرة ، ثم ينحدر النهر بطيئا بليدا عكرا خلال سهل ممتد تكثر به المستنقعات حتى يصب فى البحر • وقبل أن يجتاز النهر السهل منحدرا من الجبال التى تقف خلف السهل كمــا لو كانت حائطا رماديا ضخما يخترق أخدودا عميقا مظلما يعد من أكثر الأخاديد عمقا وحلكة فى بلاد اليونان • وعلى الجانب الآخــر تعــلو النتوءات فى شكل عمودى عند حافة المياه الى ارتفاع مئات من الأقدام ، وتغطى جوانبها وأخاديدها أشجار البلوط القصيرة والشجيرات • ثم ترتفع الجبال بعد ذلك حيث تتراجــع جــوانب الأخــدود عن الخط العمودى ، الى ما يربو عن ثلاثة آلاف قدم • وهناك تنمو أشجــار الصنوبر عند جوانبها الناتئة ، فتضيف بذلك جلالا قاتما الى هــذا المنظر • ويقود المسافر طريقا خطرا على طول افريز يقع أعلى جانب الجبل حيث يحملق المسافر الى أعماق هذه الوهدة المهولة ليرى النهر وهو يندفع مرغيا مزبدا • وفى أغلب الأحيان يقتحم النهر فى شــكل شلال هوة مظلمة تقع بعيدا كل البعد عن المسافر الى درجة أن خرير المياه يختفى فى الهواء قبل أن يصــل الى مسمعه • فالمنظر فى عمومه يجمع بين عناصر الروعة والوحدة والعزلة بدرجة تجعله ملائما لأن يثير فى النفس إحساسا بالضيق الممتزج بالخوف والكآبة • ولهذا فقــد كان كذلك ملائما لأن يتصور الناس أنه مرتبط بالقوى الخارقة • وليس

غريبا بعد ذلك أن القدماء كانوا يتخيلون أن هذه الجبال العابسة والمستنقعات الموحشة والآنهار الكئيبة ، كانت مسكنا لأرواح الموتى •

وقد كان هناك مكان لنبؤة الموتى يقع عند « هرقليا » فى « بيثينيا» • وقد لجأ الى هذا المكان الملك الاسبرطى « باروزانياس » الذى هزم الفرس فى معركة « بلاتيا » • وهناك حاول أن يستدعى شبح فتاة بيثنطية تدعى « كليونيك » كان قد قتلها عرضا ، وأن يسترضى شبحها • فظهر له الشبح وأخبره فى لغة غريبة أنه سوف يتخلص من كل متاعبه عندما يتحتم عليه أن يعود الى السبرطة • وقد تحققت النبؤة بموت الملك العاجل •

على أننا لا نملك آية معلومات عن الطريقة التى تظهر بها الأشباح ، وفقا لاعتقاد الناس ، وتجيب عن أسئلة المتسائلين • ومن ثم فاننا لا نستطيع ان نقرر ما اذا كانت هذه الأشباح تظهر للمستفسر نفسه ، أو أنها كانت تظهر للساحر المكلف باستدعائها وحده • كما أننا لا نعرف ماذا كان الشخص الذى اختصته الأشباح بالظهور له ، يراها فى اليقظة أم فى المنام • وعلى كل فان الاتصال بأرواح الراحلين فى بعض أماكن النبؤة الاغريقية كان يتم ، فيما نعلم ، عن طريق الرؤيا • ومن بين هذه الأماكن ، مكان نبؤة العراف « موبسوس » فى سيليسيا • ويخبرنا « بلوتارك » أن حاكم سيليسيا الذى كان ينزع الى الشك الدينى ، وكان صديقا للفلاسفة الأبيقوريين الذين كانوا يسخرون من القوى الخارقة ، قرر فى احدى المناسبات ، أن يختبر نبوؤة هذا المكان • فكتب سؤالا على لوح دون أن يطلع أحدا عليه ، ثم ألصق عليه غطاء وسلمه الى عبد معتق كان يثق فيه ، وطلب منه أن يدع شبح العراف يجيب عن السؤال الخفى المكتوب على اللوح • وبناء على ذلك رحل العبد الى معبد « حوبوس » ونام هناك وفقا لما هو مألوف • وفى الصباح أبلغ الحاكم أنه قد رأى فى رؤياه كأن رجلا وسيما يقف بجانبه ، وفتح فاه واختفى بمجرد أن نطق بكلمة واحدة هى

« أسود » • وتحير أصدقاء الحاكم الذين كانوا قد اجتمعوا ليستمعوا الى رسول العالم الآخر ويتهكموا به من هذه الاجابة المقتضبة • أما الملك فما ان سمع هذه الاجابة حتى خر ساجدا على نحو ما يسجد الانسان متعبدا! • وقد تبين سبب سلوك الملك على هذا النحو ، عندما أزيل الغطاء عن اللوح وقرأ محتواه بصوت عال ، وكان الملك قد طرح فيه السؤال التالى : « هل أضحى بثور أبيض أم أسود » • وقد هزت مطابقة هذه الاجابة عن سؤال الحاكم ، الفلاسفة الأبيقوريين الساخرين أنفسهم • أما الحاكم فقد قدم ثورا أسود ضحية وظل يقوم بواجب التقديس للعراف الميت حتى نهاية حياته •

وقد حكى بلوتارك النقى برضاء واضح تلك الحادثة التى نجحت فى دحض مزاعم المتظاهرين بالكفر بقوة الأشباح • ثم عاد فحكى حادثة أخرى شبيهة بالحادثة الأولى ، قيل انها حدثت فى ايطاليا • فقد فقد رجل غنى كان يدعى « اليسيوس » ، وكان من سكان تيرينا الافريقية التى تقع فى « بروتيوم » ، فقد ابنه ووريثه « ايوثينيوس » بوفاة غامضة مفاجئة • ولما كان قد خشى أن تكون هناك لعبة دنيئة وراء فقد وريثه ، فقد لجأ الأب القلق الى مكان نبؤة الموتى • وهناك قدم حيوانا ضحية ، ثم نام كما كانت العادة المتبعة فى هذا المكان المقدس ، ورأى رؤيا تمثل له فيها والده الذى أخذ يتوسل اليه فى أن يعينه على اكتشاف حادثة موت ابنه • فرد عليه شبح الأب قائلا : « اننى قد ظهرت اليك من أجل هذا الغرض نفسه ، وأنا آمل أن تستمد أجابتك من هذا الرجل الشاب » • قال ذلك وهو يشير الى شاب يسير فى أعقابه ، وكان يشبه ابن الرجل الغنى الذى فقده وأعلن الحداد عليه • عند ذاك سأل « اليسيوس » هذا الشاب ، وقد فوجىء بالتشابه التام بينه وبين ابنه وقال له : « ومن تكون أنت أيها الشاب ؟ » فأجاب الشبح : « اننى ابنك بحق • خذ هذا » • وسلم الى « أليسيوس » لوحا كتبت عليه بعض العبارات

التى تذكر أن ابنـــه قد مات ميتة طبيعية لأن الموت كان أفضـــل له من الحياة » •

وقد تعودت قبيلة « ناسامونى » فى الزمن القديم ، وهى قبيلة كانت تسكن شمال ليبيا ، أن ينام أفرادها فوق قبور أجدادهم ، سعيا وراء أحلام النبوءة ، فقد كانوا يعتقدون ، فيما يبدو ، أن أرواح أجدادهم المتوفين تصعد من قبورها لتقدم لهم النصيحة والسلوى • وما زال بعض « الطوارق » ســكان الصـــحراء يفعلــون ذلك حتى اليوم • فاذا خرج الرجال فى رحلة بعيدة ، فان زوجاتهم ترتدين أبهى المـــلابس وتخرجن الى قبور الأجداد وتنمن فوقها • وهناك تستدعين روح جد من الأجداد ليطلعهن على أخبار أزواجهن • وعند ذاك تظهر لهن روح تدعى « ادبيني » فى هيئة رجل • فاذا استطاعت امرأة منهن أن تكسب ود هذا الروح ، فانه يخبرها بكل ما يحدث فى الرحلة • أما اذا فشلت فى كسب وده ، فانه يبعد عنها • وبالمثل « توجد مجموعة من القبور ذات شكل بيضاوى ضخم بالقرب من » أوجيدت « فى شمال الصحراء • فاذا شاءت سيدة من« آزعار »أن تعرف أخبارا عن زوجها الغائب ، أو عن ابنها أو عشيقها ، فانها تذهب الى هذه القبورو تنام بينهـــا ، وهى تعتقد أنها سترى على وجه التأكيد رؤيا فى منامهـــا تمدها بالأخبار التى تسعى الى معرفتها » • وبالمثل يذهب « الترود ـــ جانيون » الذين يسكنون «سيلييس الوسطى » ، فى بعض الأحيان الى القبور وينامون فوقها ، بقصد التماس النصيحة من الشـــبح فى رؤياهـــم •

وتحتوى مأساة « أخيل » التى تقع تحت عنوان « الفرس » ، على أكبر وصـــف مسهب لعملية استحضار الأرواح فى الأدب الاغريقى• ويصور منظر المسرحية عند قبر الملك « دارا » حيـــث نجـــد الملكة « أتوسا » زوجة « اكسيركيس » تنتظر فى شغف أخبار زوجها وأخبار الجيش القوى الذى قاده زوجها ضد الفرس • ولكن الرسول يصـــل

حاملا أخبار هزيمة الفرس الساحقة عند « سلاميس » . وعند ذلك تقرر الزوجة فى حزنها ولهفتها ، أن تستحضر روح « دارا » من قبره لتلتمس عنده النصيحة فى هذا الأمر الجلل . ومن أجل ذلك قدمت للميت قربانا من اللبن والعسل والماء والخمر وزيت الزيتون فى الوقت الذى كانت الجماعة تردد فيه أناشيد السحر التى يناشدون بها آلهة العالم الآخر لكى تحضر لهم روح الملك المتوفى فى وضح النهار . وعند ذلك تصعد الروح من الأرض . ولما علم الروح بالكارثة التى حلت بالجيش الفارسى ، قدم النصيحة والتحذير لشعبه المنحدر . وتشير هذه الرواية بوضوح الى أن الشبح يمكن أن يظهر فى وضح النهار ، وليس فقط فى الأحلام . على أننا لا نستطيع أن نقرر ما اذا كان الشاعر يصف شكلا من أشكال تحضير الروح الذى كان يتبع عند الاغريق أو عند الفرس ، أم يصور ذلك ببساطة من محض خياله . ومن المحتمل أن هذا الوصف يرتكز على طقوس اعتاد محضرو الأرواح الأغريق أن يمارسوها إما عند أمكنة نبوءة الموتى المعروفة ، أو قبور أشخاص بعينهم حيث يسعون لالتماس النصيحة من أشباحهم . وقد روى « فيلوستراتوس » الذى دون ترجمة حياة الفيلسوف الفيثاغورى « أبولينوس النيانى »، أن هذا الفيلسوف قد استحضر روح « أخيل » من قبره فى « تسيسالى » . وقد ظهر له البطل على رابية فى هيئة شاب وسيم طويل القامة ، وتحدث معه بأسلوب ودى للغاية واشتكى له من أن أهل « تسيسيليا » قد كفوا منذ زمن طويل عن أن يقدموا له التضحيات عند قبره ، وقد اعترف عالم نحوى بعينه يدعى « أبيون » وكان يعيش فى عهد « بلينى » الشاب ، أنه استحضر روح هوميروس وسأله عن والديه وموطنه (أى عن والدى هوميروس وموطنه) (١) . وقد رفض هذا النحوى فيما بعد أن يفشى هذا السر ، من ثم فان الاجيال التى

---

(١) اضافة للتوضيح . (المترجمة) .

أنت من بعد لم تستفد من هذه المحاولة الجريئة في حل مشكلة هوميروس عند رأس النافورة •

وقد قدم لنا الشاعر « لوكان » بأسلوبه المطنب الرخيص وصفا رتيبا لمقابلة تمت ، كما يقول ، بين « سيكستوس بومبيوس » ابـــن بومباى الكبير وساحر من « تسيسالى » ، وذلك قبل وقوع معـــركة « فارساليا » • وقد حاول « سيكستوس » الذى لا يستحق أن يكون ابنا « لبومباى » العظيم كما تعود« لوكان » أن يقول ذلك عنـــه ، حاول بدافع الشغف لمعرفة مستقبل المعركة ، لا أن يتحدث عنـــد أمكنة نبوءة الآلهة الشرعية ، وانما تحدث مع الســـحرة ومحضرى الأرواح • وأعاد له ساحر خبيث كان يسكن بين القبور ، بناء على طلب الابن ، الحياة الى جسد لم يكن قد دفن بعد • وقد أخبر الروح الذى حل بالجسد بالفتنة التى رآها بين ظلال منظر الكـــارثة التى توشك أن تحل بالدولة الرومانية • وبعد أن أبلغ الرجل الذى بعث مرة أخرى هذه الرسالة ، طلب من الساحر أن يصنع معه صنيعا طيبا فى مقابل ذلك ، وهو أن يدعه يموت مرة أخرى ، وذلك لصالحه وصالح الجميع • فوافق الساحر على ذلك وجمع فى هدوء كومة من الحطب ســـار عليها الجسد بدون مساعدة أحد ، ثم أحرق معها فى هـــدوء • ومن المؤكد أن السحرة التسيسباليتيين كانوا يحاطون بسمعة سيئة فى العصور القديمة • ومن المحتمل أن عملية تحضير الأرواح كانت أحد صنوف السحر الأسود الذى كانوا يمارسونه • على أننا لا نعـــول كثيرا على وصف « لوكان » المزخرف كل الزخرفة للطقوس التى كانت تتبع فى استحضار الارواح • وربما كانت رواية « هوراس » عـــن الساحرين اللذين شاهداهما وهما يصبان دم الحمل الاسود فى حفرة بقصد استدعاء الأرواح لكى تجيب عن تساؤلاته ، أكثر احتمالا من رواية « لوكان » • وقد تحدث « تيبولوس » عن ساحرة كانت تستحضر الأرواح من قبورها عن طريق تعاويذها • كما أنه حكى أنه كان فى عهد « تيبيريوس » شاب ذو حســـب وان كان ضعيف العقـــل ، يـــدعى

« ليبيو » ، كان يشتغل بالسحر الأسود ، وكان يستعين بشخص يدعى « جونيوس » لكي يستدعى له أرواح الأموات عن طريق السحر •

وقد قيل ان كثيرا من أباطرة الرومان الأشرار كانـوا يحضرون الأرواح بقصد اخمـاد ثورة الفزع التى كانت تنتاب ضمائرهم القلقة من جراء تذكرهم لجرائمهم ، مثل جريمة الانتقام من الأرواح • فقد روى أن « نيرون الجبار لم تعرف الطمأنينة الى نفسه سبيلا بعـد أن قتل أمه « أجريبينا » • وكثيرا ما اعترف أن طيفها كان يتملكه وأن هذا الطيف كان يفرغ عليه جام غضبه بضربه بالسياط وحرقه باللهيب• ولكنه عبثا حاول أن يستدعى شبحها عن طريق الطقـوس ، وعبثـا حاول أن يهدىء من غضبها • وبالمثل كان « كراكالا » الجبار السفاح المسلوب العقل ، يتصور أن شبحى أبيه « سيفيروس » وأخيه المقتول « جبيتا » يلاحقانه بالسيوف • وقد كان يستعين بالسحرة لتهدئة ثورة غضبهما • ومن بين الأشباح التى استحضرها السحرة له ، روح والد الامبراطور ، وروح الامبراطور « كومودبوس » • ولـكن لم يتعطف شبح من الأشباح التى استعان بهـا هذا الملك السفاح ، وتحدث معه سوى شبح قريبه « كومودس » • وحتى هـذا الشبح لم يسر اليه بعبارة تعزية أو أمل • وكل ما استطاع أن يستخلصه منه هو أنه ألمح له فى حزن بقدوم محاكمة مفزعة • ولم يزد هذا القول روح « كاراكالا » المذنبة سوى مزيد من الفزع •

ولم تكن عادة تحضير الأرواح قاصرة على الشعوب المتحضرة ، بل كانت تمارسها كذلك القبائل البدائية • فقد انتشرت بـين بعض القبائل الافريقية ، عادة استشارة أرواح الملوك والزعماء المتوفين بوصفها مكمنا للنبوءات ، وذلك عن طريق الكهنـة والكاهنات الذين كانوا يتظاهرون بأن روح الحاكم المريض تتملكهم ، وأنهم يتحدثون بلسانه • فقد كان يبنى ، على سبيل المثال ، لكل شبح ملك يتوفى عند قبيلة « باجندا » التى تسكن وسط افريقيا معبد يحتفظ فيه بقدسية

بالغة بعظمة فكه السفلى . والغريب فى هذا الأمر أن الجزء الذى يتعلق به الشبح أشد التعلق من جسد صاحبه عندما يتوفى هو ، وفقا لاعتقاد هذه القبيلة ، عظمة فكه . ومن المألوف عندهم أن يبنى هذا المعبد فى شكل مخروطى كبير ، وأن يكون مقسما الى حجرتين ، حجرة داخلية وأخرى خارجية . وفى الحجرة الداخلية ، أو فى قدس الأقداس ، كان يحتفظ بعظمة الفك فى أمان داخل تجويف فى باطن الأرض . ويهب المتنبىء أو أى وسيط آخر تكون وظيفته استلهام شبح الملك من حين لآخر ، نفسه الى هذا المكان المقدس ، بأن يشرب جرعة من الجعة وجرعة من اللبن فى جمجمة الملك . فاذا شاء أن يستدعى الروح ، فانه يأتى بعظمة الفك من الحجرة الداخلية ملفوفة فى رداء مزخرف ويضعها على عرش فى الحجرة الخارجية ، حيث يجتمع الناس ليستمعوا الى النبوءة . وفى مثل هذه المناسبات يخطو المتنبىء الى العرش ويخاطب الروح ويخبرها بالمهمة المكلف بها ، ثم يشعل غليونا أو غليونين ، بعد أن يملأهما بالتبغ الذى يزرع فى البيوت ، وعندما يتصاعد الدخان مهيئا الجو للنبوءة ، ينتاب المتنبىء الهذيان ويتحدث مقلدا صوت الملك ، كما ينطبق بعبارات خاصة به ، لأن روح الملك ، فيما يعتقد الناس ، تكون قد تقمصته . وعلى كل فانه يصعب استيضاح الكلمات التى يتلوها فى سرعه ، ولهذا فان قسيسا يحضر لكى يفسرها للحاضرين . فاذا فرغ الملك الحى من سؤال الملوك المتوفين عن أمور تختص بشئون مملكته فانه يزور معابدهم ، معبدا تلو الآخر، حيث يحتفظ فى ورع دينى بتعاويذهم .

وفى بعض الأحيان تسكن أرواح الزعماء الموتى عند قبائل البانتو ، أجسام الرجال والنساء الأحياء ، وينطقون بالنبوءة من خلال أفواههم . فاذا تملكت الروح رجلا من الرجال فانه يأخذ فى الزئير كما يزأر الأسد . وتجتمع النساء معا وتقرعن الطبول وهن يصحن بأن الزعيم قد جاء ليزور القرية . ثم يتنبأ الرجل الذى تتملكه الروح بمستقبل حروبهم ويحذر الناس من تفقد الأسود لهم قريبا . ولا

يسمح لهذا الوسيط فى أثناء هبوط الوحى عليه ، أن ياكل أى نوع من الطعام قد طهى على النار ، وانما يكتفى بأكل العجين غير المخمور • على أن القدرة على التنبؤ يختص بها النساء فى العادة دون الرجال • وهؤلاء النبيات يصرحن بأن روح زعيم من الزعماء تتملكهن • وعندما يشعرن بقرب هبوط الالهام الروحانى عليهن ، فانهن يطلين وجوههن بلون أبيض ليجذبن الروح اليهن ، ويمسحن أنفسهن بالدقيق الذى له سحر دينى ، وفقاً لاعتقادهن ومقدرة على التطهير • ثم تقرع بعضهن الطبول بينما يرقص البعض الآخر ، وهن يغنين جميعا أغنية سحرية ذات فواصل غريبة • وعندما يصلن فى النهاية الى ذروة السحر الدينى ، تسقط النساء اللاتى تتملكهن الأرواح على الأرض ، وينفجرن فى ترتيل أغنية غامضة فى صوت منخفض ، يفسرها الأطباء للمتفرجين الذين يقفون واجمين من الفزع ، على أنها صوت الروح •

ومن عادة زنوج توجولاند الجنوبية المتكلمين بالايوى أن يستدعوا روح الميت بعد أن يفرغوا من اقامة الشعائر الجنائزية لوفاته • وعند ذلك يحمل أقرباء الشخص المتوفى الى الكاهن طعاما مطهيا ويخبرونه بأنهم فى احضار الماء لروح أخيهم الراحل • فيتسلم الكاهن منهم الطعام والخمر وقواقع صفراء ثم يصطحبهم الى حجرته ويغلق بابها وراءه • وهناك يستحضر الروح التى تأخذ فى البكاء عند وصولها ثم تتحدث الى الكاهن • وفى بعض الاحيان تدلى الروح ببعض الملاحظات عن الفرق بين الحياة فوق الأرض وتحتها • وفى بعض الاحيان يتحدث فى موضوعات خاصة كأن يتحدث عن الطريقة التى توفى بها • على أنه فى كثير من الأحيان يذكر اسم الساحر الشرير الذى قتله بسحره • وعندما يسمع أصدقاء الميت الذين يقفون فى الخارج عويل الشبح وشكواه داخل الحجرة ينفجرون فى البكاء ويصيحون قائلين : « ما أشد شفقتنا عليك » • وفى النهاية يرجوهم الروح أن يهدأوا ثم يرحل عنهم • وتلتمس قبيلة كيسى ، وهى قبيلة زنجية تسكن عند

حدود « ليبيريا » ، النصح من أرواح الزعماء المتوفين الذين تشيد لهم تماثيل صغيرة عند قبورهم وتعد مقرا للنبوءة • ولهذا الغرض توضع التماثيل على لوح خشبى يحمله رجلان على رأسيهما • فاذا وقف الرجلان وهما يحملان اللوح ساكنين تماما ، فان هذا يعنى أن الروح يجيب عن سؤال المتسائل بالنفى • أما إذا تأرجحوا يمنة ويسرة ، فان هذا يعنى أن الروح يجيب بالايجاب • وفى جزيرة « أمبريم » ، وهى احدى جزر الهبريد الجديدة تستخدم التماثيل الخشبية التى تمثل الاجداد بوصفها وسيلة اتصال بين الناس وبين أرواح المتوفين • فاذا اعترض رجل أمرا من الأمور فانه يصفر مع هبوط الليل بالقرب من تمثال الجد • فاذا سمع عقب صفيره صوتا ، فانه يعتقد أن روح قريبه المتوفى قد تقمصت التمثال ، وعند ذاك يسر له متاعبه ويطلب منه العون ••

وقد كان « الماوريون » سكان نيوزيلندة يشعرون بالخشية اذاء أرواح اقربائهم المتوفين ، وبخاصة الزعماء والمحاربين منهم ، كما كانوا يقومون بتقديسها • فقد كانوا يعتقدون أن هذه الأرواح ترقب على الدوام رجالهم الأحياء ، فتحميهم فى الحرب وترصد لهم أى خرق لقانون المحرمات المقدس • وتسكن هذه الأرواح فى العادة تحت سطح الأرض • ولكنها قد تصعد الى السطح اذا راق لها ذلك ، فتتقمص أجسام الرجال ، بل وبعض الأشياء الجمادية فى بعض الاحيان • وقد كانت بعض القبائل تحتفظ فى بيوتها بتماثيل خشبية يخصص كل منها لروح من أرواح الأجداد يتقمص التمثال لكى يتحدث مع الأحياء فى مناسبات خاصة • ويتم الاتصال بين روح الجد (أتو) والاحياء عن طريق الرؤيا • وقد يتحدث معهم مباشرة فى أثناء سيرهم • ولا يشبه صوت هذا الروح أصوات الناس العاديين ، وانما هو نوع من الصوت الغامض الذى يعد مزيجا من الصفير والهمس • وقد خص الأهالى الكاتب الانجليزى الذى ندين له بهذه المعلومات بميزة التحدث مع روحى زعيمين كانا قد توفيا منذ عدة سنوات • وقد تم اتصال هذا

الكاتب بهذين الروحين بواسطة امرأة عجوز شبيهة بساحرة عين دور . يعتقد الأهالى أن أرواح أجدادهم تظهر عند طلبها •

ويدعي الكهنة والكاهنات فى جزيرة « توكاهيفا » ، وهي احدى جزر « الماركين » أنهم يمتلكون القدرة على استحضار أرواح الموتى الذين يسكنون أجسام هؤلاء الكهنة والكاهنات لبعض الوقت ، يتحدثون فى أثنائها مع أقرباء الميت الاحياء • وتستدعى الارواح عادة فى حالة مرض أحد أفراد الأسرة عندما يرغب أصدقاؤه فى الاسترشاد بنصيحة الشبح • وقد شهد كاتب فرنسى كان يعيش فى هذه الجزيرة فى النصف الاول من القرن التاسع عشر احدى اللقاءات بين محضر الأرواح والروح ، ووصفها • وقد تم اللقاء ليلا فى بيت رجل مريض بقصد التأكد من حالته المرضية • وكان الوسيط فى هذه المناسبة كاهنة أمرت باطفاء النار المشتعلة فى الحجرة حتى يسودها الظلام • ثم استحضر روح سيدة كانت قد توفيت منذ بضع سنين تاركة وراءها مالا يقل عن اثنى عشر زوجا يبكون فراقها ، من بينهم هذا الرجل المريض • وقد كان هذا الزوج أحب هؤلاء الازواج اليها • وقد أنبأه شبحها فى غير مداراة أو إطناب بموته القريب • وفى بداية الأمر بدا صوت الشبح كأنه قادم من على بعد ، ثم أخذ يقترب تدريجيا حتى استقر على سقف البيت •

وتقوم قبيلة « مارينديبنيز » التى تستوطن الشاطىء الغربى من غينيا الجديدة التابعة للاحتلال الهولندى ، فى أثناء الاحتفال ببلوغ الصبي سن النضج ودخوله فى مجتمع الرجال ، باستحضار أرواح الأجداد من العالم السفلى ، وذلك عن طريق ضرب الأرض بشدة ليلا بثمرة جوز الهند مدة ساعة كاملة • وبالمثل يستدعى « التورادجانيون » الذين يتحدثون اللغة البارية ويسكنون « سيليبس الوسطى » ، فى أثناء احتفالاتهم ، أرواح الزعماء والأبطال المتوفين ،

وهى الأرواح التى تقوم على حراسة القرية ، وذلك عن طريق ضرب أرض المعبد بعصاة طويلة •

واذا دب خلاف بين أفراد « الكايانيين » ، سكان « بورنيو » ، عنـد تقسيم تركة ، فان المتنازعين يتصلون فى بعض الاحيان بساحر محترف أو بعراف ليستدعى لهم روح المتوفى ، ويسألونه عن رغبته فى تقسيم تركته • على أن تحضير روح المتوفى فى هذه الحالة لا يتم الا بعد جنى محصول الموسم الذى يعقب الموت • فاذا حان ميعـاد جنى المحصول ، فإن الورثة يصنعون نموذجا لبيت لكى يأوى اليـه الروح مؤقتا • ويوضع هذا النموذج فى ساحة البيت بجانب باب حجرة المتوفى بعد أن يملأوه بالطعام والشراب والدخان لانعاش الروح • والى جوار هذا البيت الصغير يقيم الساحر ويتمتم بتعاويذه طالبا من روح المتوفى أن تدخل بيتها ، ويعود فى الوقت نفسه أفراد أسرة المتوفى • وينظر الساحر من حين لآخر داخل البيت الصغير حتى يعلن فى النهاية أنه لم يعد داخل البيت الصـغير أثر لمـأكل أو مشرب • وعنـد ذاك يدرك الناس أن الشبح قد دخل البيت الصغير وأكل وشرب ما به من طعام وشراب • وفى أثناء ذلك يتظاهر الساحر بأنه يصغى الى همس الروح داخل البيت الصغير ، وهى تقفز وتقرق على نحو ما تفعـل الدجاجة • وفى النهاية يفصح الروح عن رغبته فيمـا يختص بتوزيع التركة ، متحدثا بضمير المتكلم ومقلدا طـريقة الميـت فى الحـديث وخصائصه الأخرى • فاذا صدرت التعليمات بخصوص تقسيم التركة على هذا النحو ، فان الورثة ينفذونها فى العادة وفقا لما أمر به الشبح •

ويعتقد الباتاكيون سكان سومطرة الوسطى أن أرواح الموتى ، لكونها شيئا غير مادى ، لا يمكن أن تتصل بالأحيـاء الا عن طـريق تقمصها شخصا حيا • ولهذا فانهم يختارون وسيطا ملائما ، يستطيع ، بوصفه وسيلة يستعان بها فى تبليغ رسالة الشبح ، أن يقلد صـوت

صاحب الشبح وطريقته فى الكلام ومشيته ، بل وطريقة ملبسه • وقد تصل مشابهته للمتوفى الى درجة كبيرة بحيث يتأثر أقرباؤه الأحياء بهذا الشبه ، فينفجرون فى البكاء • ثم يذكر الشبح ، عن طريق الوسيط ، اسمه وأسماء أقربائه ، ويصف تجوله بين الأحياء ، كما يفشى أسرار عائلته التى كان يحتفظ بها فى أثناء حياته ، الأمر الذى يؤكد لأقربائه أنهم حقا يتحدثون مع شبح أخيهم الراحل • فاذا كان أحد الافراد طريقه فى غابة أو فى أى مكان آخر ، فان أصدقاءه سيشفى أو سيموت • واذا انتشر وباء بين الناس ، فان الشبح يتهيج ، وعند ذاك تقدم له التضحيات حتى يمكنه أن يحمى الناس من العدوى بهذا المرض • فاذا كان هناك رجل عاقر ، فانه يستعلم من الشبح عن طريق الوسيط ، عن كيفية انجابه أطفالا • كما أنه يستشار عند حدوث سرقة فيما اذا كانت السرقة سترد • واذا ضل أحد الافراد طريقه فى غابة أو فى مكان آخر ، فان اصدقاءه الشغوفين عليه يسألون الشبح عن المكان الذى ضل فيه صاحبهم طريقه • فاذا سئل الوسيط عن الطريقة التى يتملكه بها الشبح ، فانه يجيب بأنه يرى الشبح يقدم نحوه ، ثم يشعر كأن شخصا ينتزعه ، وأن رجليه قد صارتا خفيفتين بحيث يتهيأ له أنه يقفز • كما يبدو له أن الناس قد تضاءلت أجسامهم وأصبغت بلون أحمر ، وأن البيوت تدور حول نفسها • ولا يستطيع الوسيط أن يسيطر على الشبح على الدوام ، اذ قد يتركه الشبح بين الحين والآخر فى فترة الوحى ويلهو من حوله • فاذا انتهى الوسيط من عملية استحضار الروح ، فان المرضى قد ينتابه فى كثير من الأحيان اثر ذلك ، وقد يموت •

وتمارس عملية استحضار الأرواح وسط ثلوج القطب الشمالى ، كما تمارس فى الغابات والأحراش الاستوائية • فنحن نقرأ عن شامانى من سكان اسكيمو لابرادور ، تعود أن يقدم خدمات لأصدقائه عن طريق استحضار أرواح الموتى ، متى رغب أحد الأحياء أن يستعلم من الشبح عن حالة راحل أو عن المكان الذى وصل اليه شخص يقوم

برحلة بحرية • ولكم يتم الاتصال بين هذا الوسيط والروح ، فان الوسيط يعصب عينى المستفسر عن أحد هذه الأمور ثم يدق الأرض بعصاه ثلاث مرات • وفى المرة الثالثة يظهر له الروح ويجيب عن أسئلة الشامانى • وبعد أن يستقى منه الشامانى المعلومات التى يريدها ، فان الشبح يعود الى مكانه بعد أن يدق الشامانى الأرض بعصاه ثلاث مرات أخرى كذلك • وتسمى هذه الطريقة فى استحضار الروح « استحضار الروح عن طريق العصا » • ويتبع الاسكيمو سكان « الاسكا » طريقة مماثلة لهذه الطريقة فى استحضار الروح • فهم يعتقدون أن الروح يصعد من العالم السفلى ويمر خلال جسم الشامانى ويتحدث من خلاله بوضوح • ثم يرد الشامانى الشبح الى مكانه عند ما يدق الأرض بقدمه • على أن الناس الذين ينزعون الى الشك يرون أن الوسيط يتحدث من جوفه عندما يجيب عن أسئلة المتسائلين •

وتعد عملية تحضير الأرواح فى الصين شيئا طبيعيا ، حيث أن تقديس الموتى يعد عنصرا أساسيا فى ديانة الصينيين • ويبدو أن الذى يقوم بهذه العملية أساسا فى الوقت الحاضر هم النساء العجائز • وتنتشر هذه العادة فى « كانتون و « أموى » بصفة خاصة • وكثيرا ما رأى رئيس القساوسة « جراى » رأى العين فى أثناء اقامته فى « كانتون » كثيرا من عروض هذا الفن •

ويقال إن عادة استدعاء أرواح الموتى بقصد التماس النصح لديها ، منتشرة كل الانتشار فى « أموى » ، حيث تحترف النساء هذه العملية • ويبدو ان هؤلاء النسوة لا يتمتعن فى وسط الرجال بسمعة طيبة من ناحية صدقهن • فاذا قلت لرجل فى أثناء مجرى حديث عام « انك تحضر أرواح الموتى » ، فان هذا معناه أنك تتهمه بالكذب والتلفيق • ومن ثم فان النساء اللاتى يحضرن الأرواح يفضلن أن يقمن بهذا العمل فى المحيط النسائى ، والا فانهن يتعرضن

لسخرية الرجال الشاكين • وفى هذه الحالة تقوم النسـوة بتحضـير الارواح فى مكان مغلق فى مسكنهم الخاص • أو فى البهو الرئيسى من معبد الأسرة • وعند ذاك يسمح لكل فرد من أفراد الأسرة بأن يشهد هـذا العمـل • وكثـير مـن الأسر تـلزم نفسـها باتبـاع قاعـدة عامـة ، وهى سـؤال روح قريبهـم مـرة عـلى الأقـل بعـد وفاتـه بزمن ليس بالطـويل ، عـن طـريق وسـاطة هـؤلاء الساحرات ، للتأكد من أنه يعيش فى راحة فى العالم الآخر ، ولمعـرفة ما اذا كان من الممكن للأسرة التى تبدى له كل الحب ، أن تفعل شيئا لراحته • وتقوم الاسرة باستحضار الروح فى يوم ذى طالع ميمون ، فيكنس البيت ويرش بالمـاء لأن الأرواح تنفـر من القـذارة ومن التراب • ثم يقدم للروح على سبيل الاغراء ، الطعام والحلوى ، كمـا يشعل البخور ، وكل هذا يوضع فوق معبد الأسرة ، أو عـلى منضدة عادية اذا كانت هناك ضرورة لتحضـير الروح فى حجـرة منعزلة • فاذا جرت عملية تحضير الروح فى حجـرة منعزلة ، فانه يتحتم على احدى النساء أن تذهب الى المعبد حيث توجد الألواح التى يعتقد فى أن أرواح أفراد الأسرة تستقر فوقها ، وتضىء شمعتين ، وتشعل ثلاث أعواد من البخور فى المعبد ، ثم تدعو الروح أن يترك الألـواح وأن يتبعها • ثم تعود المرأة بعد ذلك الى حجرتها فى تؤدة تحمـل أعواد البخور بين أصابعها ثم تضعها فى وعاء أو فى فنجان وتضع معها بعض الأرز النيىء • وبعد ذلك تبدأ الوسيطة فى عملها ، فتتلو التعاويذ بينما تداعب أوتار قيثارة أو تضرب على الطبول • وبمرور الـوقت تصاب بالتشنج وتتأرجح ذات اليمين وذات الشـمال والعرق يتصبب من جسدها • وهذه الظواهر تؤخذ على أنها شاهد على وصول الشبح • ثم تمسك امرأتان بالوسيطة وتجلسانها على كرسى حيث تهوى عليـه وهى فى حالة ذهول أن اغماء ، ويداها تستندان الى المنضدة • ثم يطرح غطاء أسود على رأسها • وفى هذا الوضع التشنجى تكون المرأة مستعدة للاجابة عن الأسئلة وهى ترتجف وتهتز على مقعدها ، وتضرب المنضدة

فى عصبية بيدها أو بعصاة • وعند ذاك يتحدث الروح عن أحواله فى العالم الآخر ، كما يخبر أهله بما يمكن أن يقوموا به لتحسين حالتـه أو لتخليصه كلية من متاعبه • كما انه يخبرهم بما اذا كانت التضحيات التى قدمت له قد وصلت سليمة الى هدفها أم أنها فقدت ، أو أصابها التلف فى طريقها اليه عن طريق البريد الروحانى • ثم يعدد لهم بعـد ذلك رغباته ، وما يرغب فى الحصول عليه • كما انه يخص أسرته بتوجيه النصح اليها فى شئونها العائلية • وهو فى هذا كله يتحدث بلغة غريبة • وقد تكون ملاحظاته ذات صلة بالأسـئلة التى تطـرح عليه ، وقـد لا تتصل بها على الاطلاق • وقد يدور حوار هامس ، أو بالأحـرى حديث بين الوسيطة والروح • ثم ترتعد الوسيطة فجأة فى نهاية الأمر وتفيق ، وتقوم معلنة أن الشبح قد رحل عنها • وفى نهاية المشـهد تقوم بجمع الأرز وأعواد البخور فى الوعاء وتتسلم اجرها وترحل • وينظر المتفرجون بطبيعة الحال الى الأحوال التى تمر بها الوسيطة فى أثناء تأديتها عملها على أنها تمثل مراحل اتصالها بالعالم الآخر ، وان كنا نرى ان هذا الفعل ليس سـوى امارة على الشذوذ النفسى والتشنج العصبى • ولكن المتفرجين ينظرون الى هذه الحالات بوصفها حـالة يتملكها الروح فيها ، سواء كان ذلك الروح الذى يطلب اسـتدعاؤه لاستشاره فى أمر من الأمور ، أو ذلك الذى تألفه الوسيطة وتتحدث معه عادة • أى أن الناس ينسبون لها القدرة على الرؤية الثانية التى تتمكن عن طريقها من رؤية الشبح • كما أن حالتها التشنجية تشـير الى الوقت المناسب الذى تغادرها فيه روحها لتزور العالم الآخـر حيث تتقابل مع روح الشخص المتوفى وتتحدث معه • كما أن شفتيها الهامستين تشيران الى ما يدور بينها وبين الروح من حديث • وربما حق لنا أن نتساءل : لماذا ترحل روحها الى العالم الآخر لتقابل روح الميت اذا كانت روحه مسـتقرة على المنضدة ؟ ان مثل هذا السؤال لا يمكننا أن نجيب عنه اجابة شافية •

من هذه الرواية يتضح أن السـاحرة الصينية تستدعى فى بعض

الأحيان أرواح الموتى ، لا بطريق مباشر ، بل بواسطة روح آخـر مألوف لديها يـكون رهن أمرها • « فأركيداكون جراى » يخبرنا أنه « يوجد فى الصـين ، كما هو الحال فى بلاد أخرى ، أشخاص بعينهم ، وغالبا ما يكونون من النساء العجائز ، يعترفون بأن أرواحا مـألوفة لديهم تتملكهم على الدوام ، وأنهن يستطعن أن يستدعين أرواح الموتى لتتحدث مع الأحياء » • وفى هذه الحالة فان الساحرات الصـينيات يشبهن السـاحرات الاسرائيليات فى الزمن القـديم ، اللاتى كـن يعتمدن فيما يبدو ، على مساعدة الأرواح المـألوفة لديهن فى استحضار الأرواح الاخرى • فعندما طلب « شاءول » من ساحرة « عين دور » أن تستحضر له شبح صموئيل قال لها : « أتوسـل اليك أن تتكهنى لى بالروح التابع ، واصعدى لى من أقول لك » (١) ••

ولعل هذه الأمثلة تبين لنا كيف أن عادة تحضـير الأرواح كانت تنتشر انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية المختلفة •

(١) سفر صمويل ـ اصحاح ٢٨ آية ٨ •

الفصل الخامس

جريمـــة الاحصـــاء

ومن حكايتين مشهورتين بين حكايات سفرى صـموئيل وأخبـار الأيام ، نعلم أن « يهوه » أبدى كراهيته فى مناسبة من المناسبات ، نحو القيـام بتعداد الشـعب اليهودى • ويبدو أنه كان يعد هـذا العمل جريمة أبشـع من جريمة غلى اللبن أو المشى على عتبة البيت • فنحن نقرأ أن « يهوه » أو ربما الشيطان ، قد أوحى الى الملك داود بفـكرة مشئومة ، وهى أن يقوم بتعداد قومه • ومهما يكن مصـدر هذا الوحى على وجه التأكيد ، لأن الكتاب الدينيين يختلفون حـول هذا الموضوع ، فان نتيجة هذا العمل ، أو على الأقل عاقبته ، كانت حلول الكارثة ببنى اسرائيل ، فقـد تناقص عدد الاسرائيليين اثر ذلك التعداد مباشرة نتيجة انتشار وباء الطاعون ، ونظر النـاس الى هذه الكارثة بوصفها جزاء طبيعيا لجريمة عدهم • بل ان خيالهم المتهيج صور لهم ، وقد أحاط بهم شبح الطاعون من كل صوب ، شبح «ملاك الخراب » ، وهو واقف بين السحب مشهرا سيفه فوق « أورشليم » ، تماما كما حدث زمن الوباء الكبير الذى حل بمدينة « لندن » ، وذلك اذا اعتمـدنا على رواية « ديفو » عند ما ازدحمت الطرقات بالناس وقد توهموا انهم أبصروا شبحا مفـزعا يتماوج فى الهواء • ولم يلق الشـبح الذى توهمه الاسرائيليون بسيفه جانبا ، كما لم يـكف الناس المكلومون عن التجول فى شوارع أورشليم ، الا عند ما اعترف الملك داود الآثم بجريرته ، وعند ما قدم التضحية لتهدئة غضب الرب •

وليس اعتراض « يهوه » أو بالأحرى اليهود على تعداد الناس ،

سوى مثال لعقيدة عامة كان يؤمن بها كثير من الشعوب الجاهلة عندما كانوا يأبون كل الاباء أن يعد أفرادهم ، أو رءوس قطعان ماشيتهم أو ممتلكاتهم بصفة عامة • ويبدو أن هذه الخرافة الغربية ، اذ أنها تعد كذلك بحق ، مألوفة لدى زنوج افريقيا • فعند قبيلة « الباكونجو » التى تسكن أعالى نهر الكنغو ، « يكون الحظ العاثر حليف المـــرأة ان هى عدت أولادها عدا متتاليا ، لأن الأرواح الشريرة ترهف السـمع الى عددهم فتصيب عندئذ بعضهم بالمـوت • وبالمثـل فان النــاس لا يرغبون فى الحصاء عددهم ، لأنهم يعتقدون أن هذا من شأنه أن يجتذب انظار الأرواح الشريرة اليهم ، فيموت بعضهم أثر ذلك • فقد حدث فى عام ١٩٠٨ ان أراد حكام ولاية الكنغو أن يقوموا باحصاء المواطنين بقصد جباية الضرائب • فأرسلوا ضابطا مع بعض الجنود ليقوموا بتعداد السكان • فثار الأهالى وأوشكوا على أن يشنوا الحرب ضده ، لولا أنه كان برفقة عدد كبير من الجنود • وليس من غير المتحمل أن تكون هناك معارك قد نشبت بين البيض والسود فى بقاع أخــرى من افريقيا ، لا بسبب رفضـهم لدفع الضريبة ، بل بسبب معارضتهم لعدهم ، وذلك خـوفا من أن تستمـع الأرواح الى عـددهم فتقضى عليهم » • ومثل هذا يحدث بين قبيلة « بولوكا » أو « بانجالى » التى تســكن أعالى الكنغو ، « فالمواطن يتطير كل التطير اذا عد أولاده ، بل انه يعادى هـذه الفكرة كلية ، لأنه يعتقد أنه اذا كان قام بعـد أولاده أو اذا ذكر عددهم على الوجه الصحيح ، فان الأرواح الشريرة ســوف تسمعه ، فتخطف بعض أولاده إثر ذلك • ومن ثم فانـك اذا سألته هذا السـؤال البسيط وهو : « كم عدد أولادك ؟ » ، فانك بذلك تحرك مخاوفه وتهيج تطيره • ومن ثم فانه يجيبك على التو : « لست أدرى كم عددهم » • فان أنت ألححت عليه فى السؤال ، فانه يخبرك بأن عددهم ستون أو مائة أو أى عدد آخر يخطر بباله • بل انـه يفعل هذا مع غير أولاده الذين يتعاطف معهم تعاطفه مع أولاده ، فلا يذكر لك عددهم على وجه التحديد وانما يذكر عددا كبيرا يدعو الى

التساؤل • وهو لا يفعل هذا بقصد خداع المتسائل ، بل يقصد خداع الأرواح الشريرة التى تعيش فى كل زمان ومكان » •

وبالمثل فان قبيلة « ماساى » التى تسكن افريقيا الشرقية لا تقوم بعد أفرادها أو حيواناتها خوفا من أن يتخطف الموت رجالهم أو حيواناتهم وفقا لتصورهم • ومن ثم فانهم يعدون الحشد الكبير من الناس أو الحيوانات بالعشرات أو بالمئات أو الألوف • فاذا كان المعدود جماعة صغيرة من الناس أو الحيوانات ، فانهم يعدونهم عدا كليا فى حذر بالغ ، دون أن يذكروا الرقم على وجه التحديد • أما الذين توفوا من الناس ، أو ما توفى من حيوان ، فانه يعد عدا منتظما ، لانهم لايخافون على هؤلاء من نقض عددهم • « وتأبى قبيلة » « واساناى » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى كل الإباء أن يعد أفرادها خوفا من أن يموت أحد الذين عدوا بعد ذلك بزمن قصير » • ولما كانت قبيلة « أكامبا » ، وهى قبيلة أخرى فى نفس المنطقة تهتم كل الاهتمام بثروة قطيعها ، فانها تحرص على اتباع بعض العادات الخرافية المحددة ، والا لحق الشر بقطعان الماشية • ومن بين هذه العادات الحرص على عدم عد رءوس القطعان • فاذا عاد القطيع الى القرية ، فان مالكه يلقى مجرد نظرة عليه ليتبين ما اذا كان رأس منه قد فقد • ولا يقتصر تحريم العد على المواشى فى هذه القبيلة ، بل يتعداها الى كل الكائنات الحية ، وبصفة خاصة البنات • وقد تحدث أحد الثقات عن هذه العادة عند هذه القبيلة فقال : « ان هذه القبيلة لديها بعض التطيرات ، فيما يبدو ، فيما يختص بعد قطعان ماشيتها • فالرجل الذى يملك قطيعا كبيرا من الماشية لا يعرف عدد رءوس هذا القطيع ، ولكنه يرقبه هو أو زوجته فى أثناء رحيله ليرى ما اذا كان رأس تميزه علامة خاصة ، قد فقد • واذا كان رب الأسرة يعرف بطبيعة الحال عدد أولاده ، فانه لا يرغب فى أن يخبر أى فرد خارج أسرته بعددهم الحقيقى • وهناك رواية تحكى أن رجلا كان يدعى « موندا وانجولا » ، كان يعيش فى تلال « ابيتى » • وكان لهذا

الرجل عدد كبير من البنين والبنات الذين كان يزهو بهم ويقول انـه يستطيع بمساعدتهم أن يقاوم أى هجوم من قبل « ماساى » • وذات ليلة فاجأته قبيلة « ماساى » وقتلته هو وأولاده • وقد نظر الناس الى هذا الحادث بوصفه جزاء طبيعيا لزهو هذا الرجل بعدد أولاده » • وإنه لمن الصعوبة بمكان أن يعرف الشخص الغريب عدد أفـراد أسرة من أسر قبيلة « أكيكويو » ، وهى قبيلة تسكن شرق أفريقيـا البريطانى ، ولو معرفة تقريبية • وسرعان ما يدرك المتحدث الغريب من الأمهات أن الحـديث حول عدد الأولاد على وجه الدقة يعد مجلبة للشر • ومثل هذا العزوف عن عد الأفراد يتفق مع مقت الإسرائيلين فى الزمـن القـديم لعـد الأفـراد • أمـا اذا شـاء المسئول أن يجيب سائله اجابة مهذبة عن عدد أولاده ، فانه يقول له : « تعالى معى وأبصرهم بنفسك » • وتعتقد قبيلة « جالا » فى شرق افريقيا ، أن عد القطيع يعد فألا سيئا ، وأنه يحول دون تكاثره • وبالمثل تعتقد قبائل الهوتنتوت أن عد أفراد المجتمع أو جماعة من الجامعات علامة على حدوث شر كبير ، فهم يتوقعون اثر ذلك أن يتوفى أحد أفرادهم • وقد قيل إن مبشرا قام بعد عماله من الأهالى ، وهو جاهل بهـذه العقيدة ، فدفع حياته ثمنا لهذا الخطأ •

ويبدو أن عادة التطير بين الناس ، تنتشر بصـفة عامة فى شمال افريقيا • فقد قيل أن اعتراض الجزائريين على الحكام الفرنسـيين بسبب سعيهم وراء القيام باحصاء السكان ، كان يرتكز الى حد كبير على تحـكم هذه العقيدة فى نفوسهم • والا يقتصر هذا الاعتقاد على عد الاشخاص ، بل يتعداه الى عد مكاييل المحاصـيل ، وهو عمل له طابع مقدس من وجهة نظر بعض الشعوب • فالشخص الذى يعـد مكاييل الحبوب فى « وهران » لا بد أن يكون فى حالة من الطهـارة الشعائرية • وهو بدلا من أن يعد المكاييل عدا تصاعديا منتظما ، أى يقول : واحد واثنين وثلاثة وهكذا ، فانه يقول : « باسم الله ، واحد ، بركتان ، اثنان ، يا كرم النبى ، ثلاثة ، سنربح بأمر الله ، أربعة ، فى عين الشيطان ، خمسة ، فى عين ابنه ستة ، الله يمنحنا البركة ، سبعة ،

وهكذا حتى يصل الى عدد اثنى عشر فيقول : الكمال لله • ويحدث مثل هذا فى فلسطين عندما تعد مكاييل الحبوب • فيقول كثير من المسلمين عند الكيل الأول : الله واحد • وعند الكيل الثانى : ليس له ثان • ثم يذكرون مباشرة العدد ثلاثة وأربعة • « وهناك أعداد كثيرة يتشاءم عرب فلسطين من ذكرها ، ومن بينها العدد خمسة • ولذلك فهم بدلا من أن يذكروا هذا الرقم ، فانهم يقولون : « يدك » ، اشارة الى عدد أصابع اليد الخمسة • ورقم سبعة يعد كذلك رقما شؤما وهو أمر يثير التعجب ، ولذلك فهم يمرون عليه دون ذكره ، أو انهم يذكرون كلمة « بركة » بدلا منه • وعند ذكر العدد تسعة يقول المسلم : « صلوا على النبى » • كما أنه لا يذكر العدد احدى عشر • فالشخص الذى يعد ويصل الى الرقم « عشرة » ، يذكر رقم اثنى عشر بعد ذلك مباشرة • وربما كان الغرض من عدم ذكر الأعداد المفردة هو خداع الأرواح الشريرة التى ربما تقبع فى انتظار سرقة المحصول أو اتلافه ، والتى قد تكون من الغباء بحيث يغيب عنها فهم هذه الطريقة الغريبة فى العد •

ويراعى سكان جزر « شورتلاند » التى تقع فى غرب الباسفيك ، اتباع بعض الشعائر والتقاليد عند بناء بيت الزعيم ، فعند تسقيف البيت يوضع عن كل زاوية فى السقف قدر محدد من أوراق شجر جوز الهند المصفرة • ولكنه لا يسمح للناس بعد هذه الأوراق لأن عدها يجلب سوء الحظ للبيت • فاذا كان عدد الأوراق أقل من المطلوب، لأنهم لم يعثروا على مزيد منها ، فانهم يؤجلون بناء البيت الذى قد يكون قد أوشك على الانتهاء • وهكذا قد يؤدى الخطأ فى تقدير الحساب الى خسارة كبيرة • ويمكننا أن نحكم بناء على ذلك على نظرة الناس الخطيرة فى عد الأوراق ، فأفضل لهم أن يضحوا بثمرة عملهم من أن يعدوها • وبالمثل فان هنود « شيروكى » فى شمال أمريكا « لا يعدون البطيخ أو الشمام ، كما انه لا ينبغى أن تفحص هذه الثمار عن قرب وهى ما تزال فى طور النمو ، والا حال ذلك دون نموها•

وقد حدث أن قام الضابط الحاكم فى « فورت سيمبسون » فى كولومبيا البريطانية ، بعمل احصاء لهنود المناطق المجاورة ، فتوفى عدد كبير منهم إثر ذلك مباشرة بتأثير وباء الحصبة • ومن الطبيعى أن يغزو الهنود هذه الكارثة الى ما قام به الضابط من عد الزنوج ، تماما كما عزا الملك داود انتشار الطاعون الى جريمة عده لقومه » • ولا يحفظ هنود أوهاما عدد سنوات أعمارهم ظنا منهم أن الروح الشرير يمكن أن يصل الى مسمعه عدد هذه السنوات » •

ومثل هذه الخرافات ما تزال تعيش فى أوروبا وفى بلدنا حتى هذا اليوم • فقد كان « اللابيون » يعرضون ، ومن المحتمل انهم ما زالوا يفعلون هذا حتى اليوم ، عن عد أفرادهم ، وعن الجهر بعددهم المحدد ، اذ انهم يتوقعون أن هذا العمل نذير بحدوث كارثة قد تحدث اثر القيام بعملية العد مباشرة • وفى الأماكن الجبلية فى اسكتلندة ، « تتشاءم الأسرة بعد رءوس قطعان ما شيتها أو قطعان ماشية أخرى ، وبصفة خاصة فى يوم الجمعة • فصاحب البقر يعرف كل واحدة بلونها وحجمها أو بأية علامة أخرى ، ولكنه من المحتمل أنه يجهل العدد الكامل للقطيع • كما أن الصياد لا يذكر عدد السمك الذى اصطاده فى رمية شبكة واحدة أو طوال اليوم ، لأن هذا يؤدى الى تغيير حظه فى صيد السمك » • وعلى الرغم من أن كل هذه الأخبار التى قدمناها قد اعتمدنا فيها على كاتب عاش فى القرن الثامن عشر ، الا أن مثل هذه التطيرات كانت تنتشر فى اسكتلندا حتى القرن التاسع عشر ، ومن المحتمل أنها لم تنقرض حتى يومنا هذا • وقد قيل لنا « انه يعتقد فى اسكتلندا أن الحظ العاثر يلحق بمن يذكر عدد قطعان الماشية أو الأفراس أو السمك أو أية منقولات أخرى يملكها الفرد ، حية كانت أم جمادا • كما قيل ان الاعتقاد ساد فى بعض الوقت فى أن انتشار وباء الجديرى يجىء فى أعقاب القيام بتعداد السكان » • ويحرص مجتمع الصيادين الذين يسكنون الساحل الشمالى الشرقى فى استكلندة على عدم عدسفنهم وهى فى عرض البحر بحال من الأحوال • كما أنهم

لا يقومون بعد جماعة من النساء أو الرجال أو الأطفال • ولا شيء يسيء الى جماعة الصيادات وهن يسرعن في الشارع لبيعن السمك أكثر من أن يشار اليهن بالبنان ويذكر عددهن بصوت مرتفع • ولهذا فان زوجات الصيادين في قرية « أوشميثي » ، وهي قرية تقع على شاطيء « فورفار شاير » ، ينزعجن لصياح الأولاد الأشقياء الذين يشيرون اليهن ويرددون هذه العبارات :

واحد ، اثنين ، ثلاثه

واحد ، اثنين ، ثلاثه

هل ترى عددا كبيرا من زوجات الصيادين

نعم انني أرى عددا كبيرا منهن •

ولم يكن الصيادون يتشاءمون بعد أفرادهم فحسب ، بل كانوا يتشاءمون كذلك بعد سمكهم ومراكب صيدهم •

« ولا ينبغي للمزارع في « لينكولن شاير » ، أن يعد شياهه على وجه التحديد في موسم الاخصاب • وربما جاز لنا أن نعتقد أن هذا التحريم يرتبط بفكرة أن عد الأغنام على نحو دقيق يقدم للقوى الشريرة معلومات دقيقة تستخدمها في ايذاء الماشية في الوقت المناسب • ولقد رأيت راعيا تبدو عليه الحيرة لأن سيده كان يجهل الضرر الذي يلحق به من جراء اصراره على عد رءوس قطعان ماشيته • فعلى الرغم من أن هذا السيد كان متساهلا في معاملة الراعي ، الا أنه كان يصر كل صباح على أن يعرف على وجه الدقة عدد الشياه التي ولدت • والسبب الذي دفع الراعي الى هذه الحيرة هو بعينه الذي يدفع الناس لأن يجيبوا حينما يسألون عن أعمارهن بقولهم : « انني أبلغ من العمر ما يبلغ لساني ، وأكبر بعض الشيء من أسناني « وقد لاحظ « جايدوز » في Melusine (ج ٩ ، ص ٣٥) أنه يتحتم على العجائز ألا يذكروا أعمارهم • فان اضطروا الى ذلك فانهم

يجيبون بأنهم يبلغون من العمر قدر خنصرهم • ويجيب الأهالى فى « جودار فيل هاينولت » عند ما يسألون عن أعمارهم بقولهم . « اننى فى عمر العجل ، فكل عام يساوى اثنى عشر شهرا » • ولا يقتصر التطير بعد الشياه على « لا نكولين شاير » ، بل ينتشر كذلك فى انجلترا • فقد كتب لى صديق يسكن فى قرية فى « وارفيك شاير » منذ بضع سنين يقول : « انه من العسير أن تموت الخرافات ، فبالأمس سألت امرأة عن عدد الشياه التى يملكها زوجها ، فأجابت بأنها لا تعرف عددها • ولما رأت الدهشة تشيع فى وجهى أضافت قائلة : « أنت تعرف يا سيدى أن ذكر عددها يجلب الشر » ثم قالت : « وعلى كل فنحن لم نفقد أى رأس منها حتى اليوم » • وقد كان زوج هذه السيدة موظفا فى البريد ويملك دكانا بالقرية ، أى كان من الناحية الفكرية أعلى مستوى من المزارع » •

ويحذر الناس فى الدانمارك من عد البيض الذى ترقد عليه الدجاجة حتى لا تطأ الدجاجة الأم البيض وتقتل أفراخها • فاذا فقس البيض ، لا ينبغى أن تعد الفراريج والا أصبحت فريسة سهلة للصقر أو الحدأة • وبالمثل لا ينبغى أن تعد الثمار أو زهورها والا ذبلت الزهور وسقطت الثمار قبل أوان نضجها • ويعتقد الناس فى شمال جوتلاند أنك اذا عددت الفئران التى اصطادتهم قطة ، أو تلك التى اكتشفتها صدفة ، فان عدد الفئران يتزايد • وبالمثل اذا عددت البراغيث أو القمل أو أية حشرة أخرى • وقد قيل إن الأرمن والاغريق كانوا يعتقدون أنهم اذا عدوا الدمامل فى أجسامهم فانها تتكاثر • وبالمثل فان هناك اعتقادا جرمانيا سائدا يدعو الى عدم عد النقود خوفا من نقصها • كما يعتقد سكان « بلاتينيت العليا » وهو حى فى « بافاريا » ، أنه لا ينبغى أن تعد الأرغفة وهى فى الفرن والا لن تنضج جيدا • وبالمثل يقول سكان «فرانكونيا العليا » وهو حى آخر فى « بافاريا » أنه لا يجوز أن تعد الزلابية فى أثناء طهيها لأنك اذا فعلت هذا ، فان النساء الصغيرات ساكنات الغابة اللاتى تشتهين هذا الطعام ، لن

تحصلن عن شيء منه • واذا حرمن من هذه الغذاء هلكن ، ومن ثـم فان شجر الغابة يذبل ويموت • ولكي يتجنب الناس حدوث ذلك ، فانهم يحذرون من عد الزلابيا وهي في طاسة التحمير • وتتبع مثـل هذه العادة في اسكتلندا وان اختلف سبب اتباعهـا بعض الشيء ، « اذ لا يجوز عد الكعك الذي يخبز في البيت في أثناء خبـزه ، لأن الجنيات يأكلن الكعك الذي حصر عدده ، وهو ما زال في الفـرن ، ومن ثم فهو لا يمكث داخل الفرن حتى يكتمل نضجه » •

ويمكننا أن نرجع بناء على ذلك أن اعتراض اليهود في عهد الملك داود على حصر عددهم ، لم يكن يرتكز سوى على أساس من التطهير الذي تأكد عند ما انتشر بينهم وباء الطاعون بعد اجراء عملية العـد مباشرة • وما زال عرب سوريا حتى اليوم يكرهون فكرة أن يُعدوا أو أن يَعدوا ، فقد قيل لنا ان هؤلاء العرب يأبون أن تعد خيـامهم وفرسانهم وقطعان ما شيتهم لأن الشر يلحق بهم ان هم فعلوا ذلك •

على أن المشرع اليهودي تساهل في عادة تحريم تعـداد السـكان الى حد كبير في العصور المتأخرة • فقد أباح أن يعد قومه على شرط أن يدفع كل فرد للحاكم نصف « شاقل » (١) جزية لحياته ، حتى لا ينتشر الوباء بين الناس • ويبدو أن غضـب الرب بسبب ارتكـاب جريمة تعداد السكان ، قد هـدأ عند ما تسلم من الناس هذه الجزية المتواضـعة •

---

(١) أى نصف مثقال من الفضة •

الفصل السادس

حراسة عتبة المعبد

كان هناك فى معبد أورشليم ثلاثة من الموظفين ، الذين يبدو أنهم كانوا من الكهنة ، وكانوا يلقبون « بحراس الباب » (١) . فماذا كانت وظيفة هؤلاء على وجه التحديد ؟ قد يقال انهم كانوا مجرد حراس للمعبد . ولكن اللقب الذى خلع عليهم يشير الى أن وظيفتهم كانت أكبر من ذلك بكثير . ذلك أن هناك كثيرا من الخرافات الغريبة قد نشأت حول موضوع عتبات الأبواب فى كل من العصور القديمة والحديثة . فقد قال النبى « صفنيا » على لسان يهوه : « وفى ذلك اليوم أعاقب كل الذين يقفزون فوق العتبة الذين يملأون بيت سيدهم ظلما وغشاء » . (سفر صفنيا الاصحاح الاول آية ٩) ويبدو من هذا التصريح أن من يتخطى العتبة واثبا يرتكب إثما يستحق عليه غضب الرب شأنه شأن اثم الخداع والغش . وقد كان الاله الفلسطينى « داجون » الذى كان موطنه « أشدود » ، ينظر لمن يطأ عتبة الباب نظرته للأثم ، فنحن نقرأ أن كهنة هذه الاله وعباده كانوا يحرصون على ألا يطئوا عتبة المعبد بأقدامهم اذا دخلوه . وما تزال هذه العادة تتبع حتى اليوم فى هذه المناطق . فقد تحدث الكابتن « كوندر » عن عادة سورية فقال : « انه يعد من سوء الطالع أن يطأ الشخص بقدمه

---

(١) انظر سفر ارمياء الاصحاح الخامس والثلاثون آية ٤ .
« ودخلت بهم الى بيت الرب الى مخدع بنى جنان بن يجدليا ، رجل الله الذى بجانب مخدع الرؤساء الذى فوق مخدع معسيا بن شلوم حارس الباب » . وكذلك نفس السفر الاصحاح الثاني والخمسين آية ٢٤ :
« وأخذ رئيس الشرط سرايا الكاهن الأول وصفنيا الكاهن وحارسى الباب الثلاثة » ..

عتبه الباب . ومن ثم فانه يوجد فى كل المساجد حاجز خشبى عند بابه ، حتى يضطر من يدخله أن يخطو فوقه عند دخول المسجد . ومثل هذه العادة تتبع فى الأضرحة الريفية » . وهذه الأضرحة تعد معابد صغيرة للأولياء ، وهى توجد فى كل قرية على وجه التقريب فى سوريا ، وهى تعد المركز الحقيقى لعبادة الفلاحين . « ويبدى الأهالى تقديسا كبيرا لهذه الأضرحة ، حيث يعتقد الناس أن الأولياء يسكنونها على الدوام فى صورة غير مرئية . ومن ثم فان الزائر يخلع حذاءه عند دخول الضريح ، ويراعى ألا تطأ قدماه العتبة » .

ويشير بقاء هذه العادة فى سوريا حتى اليوم الى أن حراس عتبة المعبد فى أورشليم ، ربما كانوا خفرا يقفون عند مدخل البناء المقدس لكى يمنعوا من يريد دخوله من أن يطأ العتبة بقدمه . ومما يؤيد هذا الفرض أننا نلاحظ وجود مثل هؤلاء الحراس فى أماكن أخرى حيث يقومون بنفس المهمة . فعندما زار « ماركوبولو » قصر بكين فى عهد الملك الشهير « كوبلاى خان » ، وجد عند باب كل قاعة (وفى كل مكان كان يحل فيه الامبراطور) ، رجلين ماردين ، يقف كل منهما على جانب من جانبى الباب ، وفى يد كل منهما رمح . وقد كانت مهمة هذين الحارسين مراقبة كل من يدخل القاعة حتى لا يطأ العتبة بقدميه . فاذا فعل أحد الزائرين ذلك ، خلعا عنه ملابسه ، ومنعاه من استردادها الا اذا قام بدفع دية . وقد يصفعانه عدة صفعات ولا يردان له الملابس . فاذا كان الزائرون من الغرباء الذين يجهلون تلك العادة ، فان بعض الأمراء يستقبلونهم ويشرحون لهم تلك العادة . فالصينيون كانوا يعتقدون فى الحقيقة أن كل من يطأ عتبة الباب بقدمه ، يلحق به الأذى . وعلى الرغم من اصرار الحراس على تنفيذ هذا النظام عند دخول الزائرين القصر ، فانهم كانوا يتهاونون فى اتباعه عند خروجهم منه ، لأن بعض الزائرين يكونون قد أصيبوا بالسكر وأصبحوا غير قادرين على التحكم فى خطوات أقدامهم . « على أن حراس العتبة فى بكين ، وفقا لرواية « فريا — أدوريك » الذى سافر الى الشرق

فى مطلع القرن الثالث عشر ، لم يكونوا يلفتون نظر من يدخل القاعة الى هذا التحريم ، بل سرعان ما يصوبون الرماح الى كل من أخطأه الحظ ووطىء بقدمه احدى عتبات القصر • وعندما كان الراهب « دى روبروكى » الذى كان يعمل سفيرا للويس الرابع عشر فى بكين ، فى بلاط « مانجوخان » ، حدث أن وطىء أحد رفاقه عتبة الباب بقدمه فى أثناء خروجه من القاعة ، وعند ذلك أمسك الحراس بهذا الرجل المتهاون وأحضروه الى « البولجاى » ، وهو قاضى القضاة ، أو سكرتير البلاط الذى كان يصدر الحكم على هؤلاء بالحياة أو الموت » • ولما علم هذا القاضى أن هذا الرجل المذنب قد ارتكب هذا الاثم نتيجة جهل منه بتلك العادة ، عفا عنه ولكنه لم يسمح له بعد ذلك بدخول أى بيت من بيوت « مانجوخان » • أما الراهب فقد كان سعيد الحظ لأن ينجو بنفسه • ولم يكن تقريع العظام هو أسوأ عقاب يناله مرتكبو هذا الجرم فى هذه البلاد ، فقد روى « بلانو كاربينى » الذى سافر الى بلاد التتار فى منتصف القرن الثالث عشر ، أى قبل وفادة « روبروكى » ببضعة سنوات ، أن أى شخص كان يطأ عتبة كوخ الأمير التتارى أو عتبة خيمته بقدمه ، كان يجر من خلال حجر أعد لهذا الغرض أسفل الكوخ أو الخيمة ، ثم يقتل دون رحمة أو هوادة • ويعبر المثل المنغولى بايجاز عن السبب الذى ترتكز عليه هذه الأحكام الصارمة على النحو التالى : « لا تطأ العتبة بقدميك لأن هذا يعد جرما » •

على أن هذه العادة لم تكن تقتصر فى العصور الوسطى على التتار أو المغول ، فقد كان الخلفاء العباسيون « يرغمون كل من يدخل قصورهم أن يخروا ساجدين عند عتبة بوابة القصر التى طعموها بقطعة حجر من حجر الكعبة الاسود وذلك لخلع مزيد من الرهبة على هذه العتبة ، حيث أن الناس قد تعودوا أن يخروا ساجدين لهذا الحجر • وقد كانت العتبة مرتفعة بعض الشىء عن الأرض وكل من يطأها بقدمه ينظر اليه على أنه قد ارتكب جرما » • وعندما زار

الرحالة الايطالى « بييترو فالى » قصر ملوك الفرس فى أصفهان فى مطلع القرن السابع عشر ، لاحظ أن « أكبر مظاهر التقديس كانـت تقام عند بوابة مدخل القصر • وقد كان هذا التقديس كبيرا الى درجة أنه كان محرما على كل شخص أن يطأ بقدمه الدرج الخشبى المـرتفع بعض الشىء عن الارض • بل ان الناس كانوا يقبلون هذا الدرج فى كل مناسبة ، كما لو كان شيئا مقدسا ثمينا » • فاذا نجح أحد المجرمين فى أن يخطو فوق العتبة ويدخل القصر ، فانه يكون بذلك قد أصبح فى حماية الحرم المقدس ، ولا يستطيع أحد عند ذاك أن يصيبه بسوء • فعندما كان « بييتر ديلا فالى » فى أصفهان كان يعيش فى القصر رجل ذو مكانة • وكان الملك متحاملا على هذا الرجل وعزم على أن يقتله • ولكن المذنب أسرع ودخل القصر ، وبذلك أصبح فى مأمن من الاعتداء عليه • ولو أنه كان قد خطا خارج البوابة ، لكان قد نفذ فيه حـكم الاعدام فى الحال » • ولم يكن أحد يمنع من دخول القصر • واذا استطاع شخص أن يخطو فوق العتبة التى يتحتم عليه تقبيلهـا ، كما سبق أن أشرت الى ذلك ، فان من حقه عند ذاك أن يطلب الحماية • وباختصار فان هذه العتبة كانت تقدس كل التقديس ، الى درجـة أن اسمها وهو « أستانى » ، كان يطلق عـلى البـلاط والقصر الملكي نفسه » •

وقد كانت تنتشر عادة تقديس المسكن على هذا النحو ، وتجنب لمسها ، بين الشعوب البدائية ، كما كانت تنتشر بين الشعوب المتحضرة • ففى « فيجى » ، كان يحرم على كل فرد الجلوس على عتبة المعبـد ، فيما عدا الزعيم الذى يتمتع بمكانة مرموقة • على أن الجميع كانوا يحرصون على ألا يطئوا بأقدامهم عتبة مكان قد خصص لعبادة الآلهة ، فالأشخاص ذوى المـكانة يعبرون فوقها ، أما عامة الناس فيزحفون فوقها ، على أيديهم وأرجلهم • ويحدث هذا كذلك عندما يخطو الناس فوق عتبة بيت الزعيم والفرق طفيف فى الحقيقة بين من يتمتع بمكانة

مرموقة وذلك الذى يتمتع بالمكانة الدينية من الدرجة الثانية ، فالأول يعد نفسه قريبا للاله ، كما ان الناس كثيرا ما يتحدثون عنه بوصفه الها ، وهو فى بعض الأحيان يجهر بحقــه فى الألوهية • وفى غرب أفريقيا « غالبا ما يسد مدخل قرية من القرى بحاجز خفيف مؤقت ، ولا يسمح للمرور من هذا الحاجز ســوى عن طريق بوابة ضــيقة ذات عقــد ومصنوعة من الشجيرات التى تتوجها الزهور والأوراق•ويعتقد السكان أن هذا الحاجز ، رغم ضعفه ، يحول دون دخول الأرواح الشريرة داخل القرية ، حيث أنهم يعلقون على العقد تعاويذهم الفيتيشية • فاذا كانت القرية على أبواب حرب حقيقية ، سد هذا المدخل بجذوع الشجر ، حيث تدور خلفه معركة حقيقية لا بين الانسان والأرواح الشريرة ، وانما بين الانسان والانسان • وفى بعض الأحيان تغرس شجرة فى وضــع أفقى عبر العتبة الضيقة لحماية هذه البوابة ويتحتم على الزائر الغريب ألا يطىء بقدمه هذه الشجرة ، وانما يعبر فوقها • فاذا كان أهالى القرية يتوقعون شرا مستطيرا ، فانهم يسكبون على البوابة فى بعض الأحيان دم نعجة أو شاة تقدم ضحية لهذا الغرض » • ولا يسمح لفرد من بين قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، أن يجلس عند باب بيت أو عند عتبته ، كما لا يجوز للرجل أن يمس عتبة داره أو يمس أى شىء آخر فى بيته ، فيما عدا سريره ، طالمــا كانت زوجته تقوم بإرضاع طفلها • وبالمثل لا يسمح لأحد فى مراكش أن يجلس عند عتبة البيت أو عند مدخل الخيمة • فاذا خــالف شخص هــذا التحريم ، فان الناس يعتقدون أنه سيقع فريسة للمرض ، أو أنــه سيتسبب فى حدوث شر لأهل البيت • ولا يجوز لأى شخص فى قبيلة « كورا » وهى قبيلة « درافيدية » فى « ميرزابو » أن يمس عتبــة البيت سواء عند دخوله للبيت أو خروجه منه • ويقول « الكورميون » الذين يكونن طبقة المزارعين الرئيسية فى أقاليم الهند الوسطى « أنــه لا يجوز لأى شخص على الاطلاق أن يجلس عند عتبة بيته ، لأن هذا مكان مخصص للالهة « لا كشيمى » ، الهة الثروات • فالجلوس على

العتبة اذن يعد امتهانا لها » • وبالمثل تنظر قبيلة « كالمـوك » الى الجلوس فوق عتبة البيت بوصفه جرما •

ونلاحظ من خلال معظم هذه الأمثلة أن تحريم الجلوس على عتبة البيت أو لمسها يعد تحريما عاما كليا • فليس لأحد ، كما سبق أن رأينا ، أى يجلس فوق العتبة ، أو أن يمسها فى أى وقت أو فى أى ظرف من الظروف • ونستثنى من ذلك حالة واحدة رأينا فيها أن التحـريم مؤقت ومشروط ، وهى انه لا يجوز للرجل فى قبيلة « ناندى » أن يمس عتبة داره ، اذا كانت زوجته تقوم بارضاع طفل لها • ولكننا رأينا أن هذا التحريم لا يقتصر على عتبة الدار ، بل يتعدها الى كل شىء فى البيت فيما عدا سريره الخاص به • على أن هناك أحوالا أخرى يقتصر التحريم فيها صراحة على أحوال خاصة بعينهـا ، وإن كنا لا نتصور أن التحريم كان محددا للغاية على هذا النحو ، وأن الناس فى غير هذه الظروف المشـار اليها كانوا أحرارا فى إيطاء العتبة بدون قيد أو شرط • ومثال ذلك أنه من المـألوف عندما يعود رجل الى بلده تانجير بعد تأديته لفريضة الحج فى مكة ، أن يحمله أصـدقاؤه فوق العتبـة ويضعونه على سريره • ومع ذلك فانه من الخطأ ان ندعى ، أن الرجال والنساء فى مراكش ، كانوا فيما عدا ذلك أحرارا فى أن يطأوا بأقدامهم الأعتاب أو أن يجلسوا فوقها ، فلقد رأينا فى مراكش أنه لم يكن يسمح لأحدى بأى حال من الأحوال أن يجلس فوق عتبة داره أو فوق عتبة خيمته • ومن عادة سـكان مراكش كذلك ، أن تحمل العروس عنـد دخولها بيت زوجها ، وذلك حرصا من أقربائها على ألا تمس قدماها عتبة بيتها • على أن عادة حمل العروس فوق عتبة بيت الزوج الـذى تدخله لأول مرة تنتشر فى جهات كثيرة من العالم ، كما أن الباحثـين قاموا بدراستها فى كل من الزمن القديم والحديث ، وفسروها تفسيرات مختلفة • وربما كان من الأفضـل أن نقدم أمثلة لهذه العادة قبل أن نعرض لوجوه النظر المختلفة فى تفسيرها • •

ففى فلسطين فى الوقت الحاضر « تحمل العروس فوق عتبة الباب

بحيث لا تمس قدماها عتبة بيت زوجها ، والا كان الحظ العثر حليفها • ويراعى الصينيون اتباع هذه العادة فى شكل أكثر دقة • فعند « الهاكايين » على سبيل المثال ، تقوم أمرأة عجوز ، يختارها الزوج ، بمساعدة العروس عندما تصل الى بيت زوجها وتحملها فوق العتبة وهى جالسة على كرسى ، بعد أن توضع فوق العتبة حديدة المحراث القاطعة بعد حرقها فى النار وغمسها فى الخل ، ثم يتلقفها أقرباؤها الذين يقفون على الجانب الآخر من العتبة • وربما اختلفت هذه العادة بعض الاختلاف من مكان لآخر فى الصين • فوفقا لرواية أخرى ، تنسب فيما يبدو لبلدة « كانتون » والأماكن المجاورة ، أن العروس عندما تنزل من محفتها عند باب زوجها ، « تحملها خادمة فوق ظهرها ، وتخطو بها فوق نار تشتعل بالفحم النباتى اشتعالا بطيئا ، وترص على جوانبها الأحذية التى كان المدعوون يرتدونها فى موكب العروس لتقدم هدية لزوج المستقبل • ثم تحمل خادمة أخرى وهى تخطو فوق النار كذلك ، صينية وضع فوقها عدد من الأعواد التى يتناول بها الصينيون طعامهم ، وكذلك بعض الأرز وبذور الفوفل » • ومن عادة « الموردفينيين » فى روسيا ، أو ربما كانت من عادتهم ، أن تأتى العروس الى بيت زوجها محمولة على أذرع بعض المدعويين • وفى جاوة وجزر سوندا الأخرى ، يحمل العريس بنفسه عروسه بين أذرعه ليوصلها الى داخل بيته • وفى « سيراليون » ، تحمل امرأة عجوز العروس فوق ظهرها وتغطيها برداء جميل وذلك عندما يقترب المرافقون للعروس من بلدة الزوج ، لأنه لا يسمح لأى رجل أن يراها بعد ذلك الوقت الا بعد أن تفض بكارتها • ثم تبسط الحصر على الأرض حتى لا يمس الذين يحملون العروس الأرض بأقدامهم • وعلى هذا النحو تحمل العروس الى بيت زوجها » • وعند قبيلة « أتونجا » وهى قبيلة تسكن إفريقيا الوسطى البريطانية غرب بحيرة نيانزا ، ترافق مجموعة من الفتيات الصغار العروس الى بيت زوجها حيث يكون هو فى انتظارها • ثم تقف العروس عند عتبة باب الزوج ولا

يسمح لهـا بعبور العتبة الا بعد أن يقدم لها العريس معزقة • وعند ذاك تضع قدما على عتبة الباب ، ثم يقدم لها الزوج قطعة من القماش طولها ياردتان • وعندئذ تخطو الزوجة بقدميها داخل البيت وتقف بالقرب من البـاب حيث تتسلم هدية هى عبارة عن عقد من الخـرز أو ما أشبه ذلك •

ولعلنا ندرك من هذه الروايات الأخيرة أن تحريم العروس من ايطاء عتبة البيت الجديد يفهم ضمنا ولا يعبر عنه صراحة • ولكن العروس بين الشعوب الآرية من الهند حتى اسكتلندا ، تحرص كل الحـرص على ألا تمس عتبة بيت زوجها ، ومن ثم فانها تعبرها أو تحمل فوقها • فقد كانت القاعدة عند الهنود القدماء على سبيل المثـال ، أن تعبـر العروس عتبة زوجها بادئة برجلها اليمنى بحيث لا تقف على العتبة • ويقال ان هذه العادة نفسها تتبع عند السـلافيين الجنوبيين وعنـد سكان موستار فى « هير تسيجوفينا » وفى « بوجادى كاتارو » • وفى « ألبانيا » عندما تصـل الجماعة المرافقة للعروس الى بيت الزوج ، يراعى أفراد هذه الجماعة أن يعبروا فوق عتبات الحجرات ، وبخاصة الحجرة التى توضع فيها أكاليل الزهر بادئين بالرجل اليمنى • وفى سلافونيا يحمل العروس الى بيت زوجها أفضل رجل • ولا يجـوز للعروس فى بلاد اليونان فى العصر الحاضر أن تمس العتبة بل تحمل فوقها • وبالمثل كانت تمنع العروس فى العصور القديمة فى روما من أن تطأ الأرض بقدميها • ومن ثم فانها كانت تحمل فوقها • وفى بعض جهات « سيليزيا » تحمل العروس عند عبور عتبة بيتها الجديد • وكذلك كانت من عادة سـكان ضـواحى « ألتمارك » أو ربما ما تزال مـن عاداتهم ، أن تصل العروس الى بيت زوجها فى عربة • وعند وصولها يأخذ الزوج بيدها ، ويحملها الى داخل بيته بحيث لا تلمس أرجلها الأرض ، ثم يضعها بجـانب الموقد • كما جرت العـادة فى سويسرا الفرنسية أن تقابل امرأة عجوز العروس عند باب بيت زوجها ، وتنثر فوقها ثلاث حفنات من القمح • وعند ذاك يحملها الزوج بين أذرعه

فوق عتبة الباب حتى لا تدوسها بقدميها • وقد قيل ان عادة حمل العروس فوق عتبة الباب كانت تتبع فيما مضى فى « اللورين » وفى بعض بقاع فرنسا • وفى « ويلز » « كان يعتقد أن الحظ العثر يجرى فى اثر العروس ان هى وضعت قدميها على العتبة أو بالقرب منها ، ومن ثم فان العروس كانت تحمل بعناية بعد الانتهاء من احتفالات الزواج فوق العتبة ثم تدخل الى بيت الزوج » • وقد كان المألوف فى بعض جهات اسكتلندا حتى مطلع القرن التاسع عشر ، عندما تصل العروس برفقة المدعويين الى بيت الزوج أنها « كانت تحمل فوق العتبة أو فوق الدرجة الاولى من السلم ، حتى لا يصيبها السحر أو الشؤم •

ولعلنا نتساءل بعد ذلك ، ما المغزى الذى يقع وراء حمل العروس فوق عتبة باب الزوج ؟ لقد أشار بلوتارك الى أن هذه العادة التى كانت تتبع فى روما ، وربما كانت أثرا متخلفا لعادة اختطاف « نساء سابينا » ، اللاتى كان الرومانيون يتخذون منهن زوجات • وبالمثل الى بين زوجها مع مراعاة ألا تطأ قدماها عتبة الباب • وهذه العادة قديمة ، وهى عادة اختطاف الزوجات من القبيلة المعادية ، وحملهن عنوة الى بيوت الأعداء • ولكن لعله مما يعارض وجهة النظر هذه أن عادة حمل العروس فوق العتبة من الصعب فصلها عن عادة تخطى العروس للعتبة دون أن تمسسها قدماها • ففى هذه العادة الأخيرة ليس هناك ما يشير الى عنف أو اكراه ، وانما تسير العروس مختارة الى بين زوجها مع مراعاة ألا تطأ قدماها عتبة الباب • وهذه العادة فيما نعلم ، قديمة قدم العادة الأولى ، إن لم تكن سابقة عليها ، حيث أنها هى العادة التى دونت فى كتب التشريع الهندية القديمة التى لا تذكر شيئا عن عادة حمل العروس فوق العتبة • وبناء على ذلك ، فاننا يمكننا أن ننتهى الى أن عادة حمل العروس عند زفافها الى بيت الزوج ، هى بكل بساطة اجراء احتياطى لتجنيب العروس من أن تمس العتبة بقدميها • وبناء على ذلك فهى ليست سوى مثال واقعى

لذلك الحذر البالغ فى عدم ايطاء العتبة بالأقدام ، وهو حذر ينتشر بين كثير من الشعوب كما رأينا • واذا كنا ما زلنا فى حاجة الى مزيد من الاستدلال الذى يؤيد معارضتنا لتفسير هذه العـادة من خلال عادة اختطاف النساء القديمة ، فاننا نشير الى عادات الزواج فى «سالسيت» وهى جزيرة تقع بالقرب من بومباى • فوفقا لعادات الزواج فى هذه الجزيرة ، يحمل خال الزوج نفسـه أولا فوق العتبة الى بيته ، ثـم يحمل العروس من بعده • وحيث أنه من العسير أن يفسر حمل الزوج الى بيته بوصفه أثرا متخلفا لعادة أسر الأزواج ، فانه يتحتم علينا كذلك ألا نفسر كذلك حمل العروس فوق العتبة من خلال هذا الغرض •

على انه ما زال علينا أن نتساءل : وما السبب إذن فى هذه المعارضة الشديدة للمس الأعتاب ؟ ولماذا تتخذ كل هذه الاحتياطات الدقيقـة لتجنب الاتصال بجزء من البيت ؟ من المحتمل فيما يبدو أن هذه العادة ترتكز على اعتقاد دينى أو خرافى ، فى أن هناك خطرا يستكن فى الأعتاب يمكن أن يؤثر على هؤلاء الذين يطئونها بأقدامهم أو يجلسون فوقها وقد رأى العالم « فارو » وهو أحد الجهابذه الفولكلوريين ، أن عادة حمل العروس فوق العتبة كانت تهدف فى الأصل تجنيبها من ارتـكاب نوع من الدنس اذا ما وطأت قدماها شيئا مقدسا كان مكرسا للالهـة « فستا » • ويعد رأى « فارو » العالم الأثرى الرومانى فى ارجاعه هذه الشعيرة الى نوع من الشـك الدينى ، أقرب الى الحقيقـة من العالم الأثرى « بلوتارك » الذى رأى أن يربط هذه العادة بعادة أخرى أو بالأحرى بموضـوع اختطاف الزوجات عنوة • فمن المـؤكد أن الرومانيين كانوا ينظرون الى الأعتاب بوصفها شيئا مقدسا الى حـد بعيد ، لا لاتصالها بالآلهة فستا فحسب ، ولكن لكونها ترتبط فى العموم بإله ما ، يمكن أن يعد حارسا للبوابة الالهية » أى حارسا للأعتاب • وهذا الاله هو « ليمينتينوس » الذى انتقده الآباء المسيحيون فىعنف ، فقد عرضته مكانته المتواضعة فى الحياة لمزاعم تتسم بالغباء والمهانة •

وتعتقد بعض الشعوب التى تعيش فى بقاع أخرى أن الاعتاب تسكنا الارواح • وربما كان هذا الاعتقاد فى حد ذاته كافيا لتفسير الاحجام عن وطء العتبة بالأقدام أو الجلوس فوقها ، حيث انه من الطبيعى أن يزعج هذا السلوك الكائنات المهولة التى تتخذ مسكنها فى هذا المكان • ففى مراكش يعتقد الناس أن العتبة يسكنها الجن • ويبدو أن هذا الاعتقاد هو السبب الذى يدفع المراكشيون لأن يحملوا العروس فوق عتبة بيتها الجديد • وفى أرمينيا يعتقد الناس كذلك أن الأعتاب تعد مسكنا للأرواح • وحيث أنهم يظنون أن المتزوجين حديثا يكونون بصفة خاصة معرضين لتأثير الأرواح الشريرة ، فانهم يجعلون رجلا يقف فى انتظارهم لحمايتهم وهو شاهر سيفه • ويقوم برسم علامة الصليب على الحائط عند كل باب من الأبواب • وقد قيل ان سكان روسيا فى زمن الحادهم ، كانوا يعتقدون ان أرواح البيت تتخذ مكانا لها تحت الأعتاب • ويرتبط بهذا الاعتقاد أن من يبنى بيتا جديدا فى ليثوانيا ، يضع أسفل العتبة صليبا أو أى شىء آخر يتوارثه الناس جيلا عن جيل • ومن المألوف كذلك فى ليثوانيا ان الأب يحمل ابنه هنيهة فوق العتبة بعد تعميده ورجوعه من الكنيسة • « وربما يهدف الأب من ذلك أن يدع هذا الفرد الجديد فى رعاية آلهة البيت » •• كما يتحتم على الشخص ، عندما يخطو فوق العتبة أن يصنع علامة الصليب ، ولا يجوز له فى بعض الأماكن أن يجلس فيها • وكذلك يغسل جسم الاطفال الذين أصابتهم العيون الشريرة بالمرض ، عند أعتاب الأكواخ حتى يطرد المرض خارج الباب بمعونة آلهة الرومان (بينات) التى تسكن عند هذه الاعتاب • « وهناك اعتقاد جرمانى يمنع الشخص من أن يطأ العتبة بقدمه اذا دخل بيتا جديدا ، لأن هذا يسىء الى الارواح الفقيرة » • كما يعتقد الايسلنديون أن من يجلس على عتبة الفناء تهاجمه الاشباح •

ومن المحتمل ان الناس يعتقدون فى بعض الأحيان ان الأرواح التى تستقر عند الأعتاب هى أرواح الموتى • وهذا الاعتقاد ينتشر حيثما

تجرى عادة دفن الموتى أو دفن بعضهم تحت عتبة البيت فعند قبيلة « واتافيتا » التى تسكن فى شرق افريقيا على سبيل المثال ، « يدفن الرجل المتوفى ، وفقا للعادة المتبعة ، عند باب كوخ أكبرزوجاته سنا•ومن واجب هذه الزوجة ان تحرض على الا تزعج الضبع المتجولة بقايا جثة زوجها • على ان أسرة « موينجارى » وعشيرة « نديجهيرى » ، يفضلان ان يكون قبر الزوج داخل كوخ الزوجة ، أما النساء فيدفن بالقرب من مداخل بيوتهن • وأما الأبناء الذين لا يحتفل بدفنهم ذكورا كانوا أم اناثا فيطرحون فى حفرة أو فى خندق يبعد قليلا عن الأكواخ ولا ترعى قبور هؤلاء الابناء بعد ذلك ، وان نهش حيوان مفترس هذه القبور والتهم ما بها من أجساد » • وبالمثل نجد أن المزارعين فى روسيا يدفنون الأطفال الجهيضين تحت عتبة الباب ، حيث أنهم يظنون ان أرواح الأطفال ترغب فى سكنى هذا المكان • ويحدث ما يشبه هذا فى « بلاسبور » وهو حى يقع فى أقاليم الهند الوسطى » • فالطفل الجهيض أو ذلك الذى توفى قبل مرور اليوم السادس على ولادته ، وهو يوم التطهير « شهانى » ، لا يحمل خارج البيت ليدفن بل يوضع فى وعاء طينى (جارا) ويدفن عند مدخل البيت أو فى فنائه • ويقول البعض انهم يفعلون ذلك لكى تلد الأم طفلا آخر • ويحدث هذا فى حى «هيسار » فى « البنجاب » • « فالبشناويين يدفنون الأطفال الموتى عند عتبة البيت معتقدين بذلك ان فى هذا ارتداد الروح الى الأم • وتنتشر هذه العادة فى حى « كانجارا » حيث يدفن جسد الطفل أمام الباب الخلفى » • وفيما يختص بالهنود الشماليين بصفة عامة ، فاننا نقرأ ان « الطفل عندما يموت ، يدفن عادة تحت عتبة البيت ، اذ ان الناس يعتقدون ان روح الطفل ستولد فى الأسرة مرة أخرى عندما يسير الوالدان على قبره كل يوم » • وهذا الاعتقاد فى تناسخ الأرواح يفسر تلك العادة التى تنتشر وسط افريقيا وهى عادة دفن المشيمة أسفل الباب أو فى الحقيقة تحت عتبة الأكواخ • فكثير من الناس يعتقدون ان المشيمة كائن انسانى ، وهى الأخت التوأم للطفل الذى يولد قبل

نزولها بفترة قصيرة • والأم تأمل فيما يبدو ، أن روح الطفل الميت أو روح توأمه تمر الى رحمها لكى يولد مرة أخرى ، وذلك اذا ما دفن الطفل الميت أو دفنت المشيمة تحت العتبة •

ومن الغريب حقا أن مثل هذا الدواء يستخدم حتى الزمن الحديث فى علاج بعض الشرور التى تنتاب الأبقار على الرغم من ان الأشخاص الذين يمارسونه أو ينصحون به ، ليست لديهم فيما يبدو فكرة واضحة عن الطريقة التى يتم بها العلاج من خلال اتباع هذه العادة ، ففى حى « كليفلاند » فى « يوركشاير » ، يرى الناس أنه من قبيل الحقيقة ان البقرة اذا ولدت عجلا جهيضا فى مكان الحلب فانه من المحتمل كل الاحتمال ان تحذو حذوها سائر الأبقار التى تكون معها فى هذا المكان ، الأمر الذى يسبب للمالك خسارة كثيرة • على ان الناس لا يقدمون سببا لهذه الظاهرة ، أو لما يعارضها فى حالة عدم حدوثها • والعلاج الوقائى لهذه الحالة ، أو بتعبير آخر العلاج الفولكلورى لها ، هو ازاحة عتبة المكان الذى حدثت فيه هذه الحادثة، والقيام بحفر حفرة عميقة تتسع لدفن العجل الجهيض ، بحيث يوضع على ظهره وتكون أرجله مرفوعة الى أعلى • ثم تغطى الحفرة بالتراب وتقام عليها العتبة كما كانت أول الامر • وقد سأل الدكتور « أتكنسون» رجلا ذكيا فى يوركشاير حول سبب استمرار هذه العادة الغريبة فقال فى لهجته المحلية : « ان هذه العادة ما تزال تتبع حتى اليوم ، وقد كان أبى يمارسها فيما مضى • واذا كان أبى قد فعل ذلك منذ سنين خلت ، فلا بد ان يكون العجل الجهيض الذى دفنه قد بلى تماما ، ولهذا فاننى أقوم بدفنه مرة أخرى » • فمن الواضح ان هذا الرجل يعنى بذلك ان النفع الذى يعود على الناس من وراء دفن العجل الجهيض ، لا يدوم الى الأبد ، ومن ثم يجب ان يعزز هذا الأثر بعملية دفن جديدة • وبالمثل كتب لى مدير مزرعة كبيرة تقع بالقرب من كمبردج ، منذ بضعة سنوات يقول : « أخبرنى راعى بقر أخيرا ان العلاج الوحيد للأبقار عندما ينتشر وباء الاجهاض بينها ، ان يدفن أحد العجول

الجهيضة تحت البوابة التى تمر خلالها العجول كل يوم » • وقد سبق أن دون هذا العلاج منذ مائة عام رجل انجليزى كان مهتمـا بالآثار القديمة فقال : « ان العجل الســقط أو الجهيض يدفن فى الطـريق الذى كثيرا ما يسير فيه القطيع ، وهذا يقضى الى حد كبير على هذا المرض الذى قد يصيب الابقار • وهذه العادة تنتشر على نطاق واسع فى « سافولك » • وربما كان مغزى هذا الاعتقاد القديم ان روح العجل المدفون تتقمص البقرة التى تمر فوقه ، ومن ثم فهو يولد مرة أخرى • ولكنه ليس من المحتمل أن يكون تفسير عملية السحر على هذا النحـو قد استمر فى انجلترا حتى العصر الحديث •

وبناء عـلى ذلك ، فان الجو السحرى الذى أحاط بالأعتاب فى الخيال الشعبى ، ربما كان مرده جزئيا الى عادة دفن الأطفال الصغار الميتين أو الحيوانات الميتة تحت الاعتاب • ولكن هذه العادة لا يمكن ان تفسر وحدها هذا التقديس الخـرافى للأعتـاب ، حيث ان هـذا التقديس قد ارتبط كذلك بعتبات الخيام كما ارتبط بعتبات البيوت • ولست أعلم فى حدود مشاهداتى وقراءاتى ، ان هناك شاهدا أو احتمال وجود شاهد يشـير الى عادة دفن الميت أسـفل مدخل الخيمـة • فالمراكشيون لا يعتقدون فى ان أرواح الموتى هى التى تسـكن تحت الأعتاب ، مهما تكن طبيعة الكائنات الروحية التى يعتقد الناس فى أنها تسكنها ، توضحها كل الوضوح عادة ذبح الحيوانات عند الأعتاب على سبيل الضحية ، وارغام الناس الذين يدخلون البيت على ان يخطـو فوق دم الحيوان المنسكب • وتذبح الضحية عند العتبـة غالبا ، فى اللحظة التى توشك فيها العروس أن تدخل بيت زوجها للمرة الأولى • فعند قبيلة « براهويس » فى « بلوخستان » ، تجلس العروس التى تنتمى الى الطبقة الشعبية المتيسرة ، فى محفة على جمل ، بينما يسير الزوج بجانبها ممتطيا حصانا ، وذلك حتى لا يسير كل منهما سـيرا مجهدا على الاقدام • فاذا وصلا الى بيت العرس ، تذبح شـاة عند العتبة وتعبر الزوجة فوق الدم المنسـكب بحيث يترك الدم علامة على

أحد نعلى حذائها • ثم يؤخذ بعض الدم ويوضع فى فنجان وتغمس فيه حزمة من الأعشاب ثم تدهن أم العـــريس جبهة العروس بالدم وهى تخطو فوق العتبة » • ويحدث مثل هذا فى احتفالات الزواج فى « ميهارده » فى سوريا ، اذ تذبح شاة خارج باب البيت وتعبر العروس فوق الدم فى أثناء انسكابه من الحيوان • ويبدو أن هذه العادة تنتشر بين اليونانيين والبروتستانتيين • « وفى مصر ، يذبح الأقباط شـــاة عند دخول العروس بيت العرس ، ويتحتم عليها أن تعبر فوق الدم المنسكب على العتبة عند مدخل البيت » • وتقديم الضحية للميت عند عتبة البيت عادة عنـــد قبيلة « بامبـــار » التى تســـكن منطقة أعالى النيجر ، كما يســـكب الدم على الحائطين اللذين يقعان عـــلى جانبى المدخل • وعلى عتبة الباب كذلك يقوم الصبى الذى يكلف بحمل حبوب الذرة من البيت الى الحقل عند الاحتفال ببذر الذرة بتحية أشـــباح الأجداد • ويبدو أن هذه العادات تعكس فكرة البامباريين فى أن أرواح الموتى تسكن بصفة خاصة عتبة البيت القديم •

وكل هذه العادات المختلفة يتجلى مغزاها ، اذا كان الاعتقاد يتمثل فى أن العتبة تعد مسكنا للأرواح التى يجب أن يسترضيها كل مـــن يدخل البيت أو يخرج منه فى مواسم بعينها • وهـــذا الاعتقاد نفسه يفسر كيف أن الناس فى كثير من البلاد ، وفى ظروف بعينها كانـــوا يحرصون على ألا يمسوا الاعتاب ، وكيف أن الناس فى بعض البلاد كانوا يعينون حراسا يقفون عند الأعتاب لكى يراقبوا تنفيذ هذا التحريم فى صرامة • وربما كان الحراس الذين كانوا يقفون عند مدخل معبد أورشليم أشبه بهؤلاء الحراس ، على الرغم من أن « الكتاب المقدس » لم يشر فى شىء الى العمل الذى كانوا مكلفين بالقيام به •

الفصل السابع

أشجار البلوط والتربنتين المقدسة

احتلت شجرة البلوط وشـــجرة التربنتين المكان الأول بين الأشجار المقدسة عند العبريين القدماء ، وكلا النوعين ما زال ينمو فى فلسطين • وتختلف الشجرتان عن بعضهما البعض من حيث النوع اختلافا كبيرا ، ولكنهما فى الوقت نفسه تتشابهان تشابها كبيرا من حيث الشـــكل • ولهذا فانه يبدو أن العبريين القدماء كانوا يخلطون بينهما ، أو أنهم على الأقل ، كانوا يضعونهما تحت صنف واحد ، ويسمونهما بأسماء مختلفة • ومن ثم فانه ليس من اليســير دائما معرفة ما اذا كانت الاشارة فى عبارات بعينها فى العهد القديم الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين •

ولا تزال تنبت فى فلسطين حتى اليوم ثلاثة أنواع من البلوط • وأكثر هذه الأنواع وفرة ، ذلك النوع الشـــوكى الدائم الاخضرار (Quercus Pseudo-coccifera • ويشـــبه هـــذا النوع فى شـــكله العام وفى لون أوراقه ، أشجار البلوط التى تنمو فى الجزر فى بلادنا تشابها تاما ، فيما عدا أن أوراق شجر البلوط الفلسطينى من النوع الشائك • كما أنها تختلف فى شكلها عن أوراق أشجارنا كل الاختلاف ، فهى أكثر شبها بأوراق البهشمية (١) • ويسمى الأهالى هذا النـــوع اسم سنديان ، أما اسم البلوط فتطلق على الصنف نفسه بكافة أنواعه • وهذا النوع الشائك الدائم الاخضرار من البلوط « هو الى حد كبير أكثر الأنواع وفرة فى الشـــام ، وهو يغطى التلال الجبلية بخاصة فى

---

(١) نبات ذو ورق صقيل شائك الأطراف ، وزاهر صغير ضـــارب الى البياض •

فلسطين فى شكل غابات كثيفة من الأشجار التى يبلغ ارتفاع كل منها من ثمانية أقدام الى اثنى عشر قدما والتى تأخذ فى التفرع من أسفل وتكسوها فى وفرة أوراق صغيرة صلبة دائمة الاخضرار ، كما ينتشر جوز البلوط فيه بوفرة • ويكون هذا النوع تسعة أعشار نباتات جبل « الكرمل » ، كما أنه ينمو بمثل هذه الوفرة على وجه التقريب على الكشوح الغربية فى الجبل الشرقى بلبنان ، كما ينتشر فى كثير من منحدراتها ووديانها • بل ان جذوره تعيش فى باطن الأرض فى الأماكن التى اختفت فيها الأشجار ، ويقوم الناس بانتزاعها من باطن الأرض ، واستخدامها فى الوقود ، كما يفعل سكان الوديان التى تقع جنوب بيت لحم • ونادرا ما تنمو غابات البلوط فى سوريا فى حجمها الكامل ، نظرا لأن السوريين يقومون باجتثاث الغابات فى غير قيد » ••

والنوع الثانى من غابات البلوط التى تنمو فى فلسطين هو الذى يسمى ببلوط فالونيا Guercus acgilops • وهذا النوع يغير أوراقه فى مواسم معينة ويشبه الى حد كبير أشجار بلوطنا الانجليزى من حيث نموه وشكله العام ، ومن حيث خلو غاباته من الأحراش والأدغال • وانما تعلو أشجاره فوق ساق قوية كثيرة العقد الى مسافة تبلغ من عشرين الى ثلاثين قدما ، كما يبلغ قطرها من ثلاثة الى سبعة أقدام • وأوراق هذه الأشجار كثيفة ، كما أنها تبدو فى منظرها الطبيعى أشبه بالحديقة لأنها تنمو فى الغالب فى فضاء الغابة المفتوح • ويندر وجود هذا النوع من الأشجار فى الجنوب فى حين يكثر فى الشمال • وبينما تنمو هذه الأشجار متفرقة فوق جبل « الكرمل » ، فهى تكثر فوق جبل تابور ، وتتكاثف فى شكل غابة فى شمال هذا الجبل • وفى مدينة « باشان » يتوافر نوع البلوط ذو الأوراق الشائكة الدائمة الاخضرار • وهى تلك التى يتحدث عنها الأنبياء العبريون بدون شك بوصفها نموذجا للكبرياء والقوة • ذلك لأن شجرة البلوط فى هذا المكان ذات حجم سحرى ، بخاصة تلك التى تنمو فى الوديان المنخفضة • ويأكل الأهالى ثمارها الكبيرة ، بينما يستخدم الصباغون

جوزتهـا فى أصـباغهم ، ويسمونها فالونيا وهى تصـدر على نطاق واسـع ٠

وأما النوع الثالث من أشجار البلوط التى تنمـو فى فلسـطين فهو الذى يسمى باللغة اللاتينية (Quercus infectoria) ؟ ، وهـذا النوع يغير أوراقه ذات اللون الأبيض من أسفلها ، فى مواسم معينة ٠ وليس هذا النوع مألوفا مثل النوعين السابقين ، ولكنه ينمو على جبل الكرمل كما ينمو بوفرة بالقرب من « قادش » وهى مدينة « قادش نفتانى » القديمة ٠ وتبدو هذه الأشجار رائعة نظرا لوفرة نسيجهـا النباتى ، ولونها الأحمر الداكن ولمعان سطحها اللزج ٠ ولم ير « كانون تريسترام » أشجار ضخمة من هذا النوع فى أى مكان ، كما أنه لم ير منه شيئا فى جنوب السامرة ٠

وما زال الفلاحون ينظرون الى أشـجار البلوط التى تنمو بوفرة فى جهات كثيرة فى فلسطين نظرة تقديس أساسه التصورات الخرافية ٠ فقد ذكر « طومسون » فى معـرض حديثه عن أيكة البلوط الجميلـة التى تقع بالقرب من بحيرة الحولة « فيالا » فى شـمال فلسـطين ، فقال : « ان هذه الأشجار التى نجلس تحتها الآن ، يعتقد الناس فى أنها مأوى للجن والأرواح ٠ فكل قرية من قرى هذه الأودية على وجه التقريب أو تلك التى تقع على الجبال ، تنبت فيها شجرة بلوط ضخمة أو أكثر من شجرة يقدسها الناس بناء على هذه الفكرة الخـرافية ٠ ويعتقد الأهالى أن كثيرا من الأشجار فى هـذه المنطقة يسكنها أشباح بعينها يطلق عليها اسم « بنات يعقوب » ، وهى تسمية غريبة ومبهمة لم أتمكن من أن أجد لها تفسيرا مقنعا ٠ ويبدو أن هذه التسمية تشير الى بقايا عبادة الأوثان القديمة التى قضى عليها القانون الاسـلامى شكلا ، ولكنه لم يتمكن من محوها كلية من نفوس الناس ٠ فقد استسلم المسلمون بحق لمثل هذه الخرافات ، شأنهم شأن أى طبقة أخـرى فى المجتمع ٠ وترتبط بـدون شك بهذا التصور عند المسلمين ، عادة دفن أوليائهم والأدعياء من الأنبياء عند هذه الأشجار حيث يشيدون لهـم

أضرحة أو مزارات . فجميع الطوائف غير المسيحية تعتقد فى أن أرواح الأولياء ترغب فى العودة الى الارض لتزور بصفة خاصة أماكن قبورها » .

وفى قرية « بلودان » الرومانسية التى يلجأ اليها سكان دمشق هروبا من حر الصيف ، توجد « آثار معبد بعل القديم . وما زال الفلاحون ينظرون الى أيكة البلوط العتيقة التى تنمو على السفح أسفل هذا المعبد نظرة تقديس خرافى » . « ففى وادى » « بردى » بالقرب من دمشق ، حيث ما تزال بعض الطقوس الوثنية تنتشر بين المسلمين ، قمت بزيارة أيكتين من أشجار البلوط من النوع الدائم الاخضرار . وهاتان الأيكتان يتخذهما الفلاحون أمكنة يتوسلون عندها لأوليائهم . فاذا ما تحققت لهم رغبة كانوا قد سبقوا أن نذروا نذرا عند تحقيقها ، فانهم يذهبون الى احدى الأيكتين فى يوم معين من أيام السنة ، ويكسرون جرة هناك ، أو أنهم يضعون آنية جديدة فى كهف صغير يقع أسفل صخرة فى احدى الأيكات . وقد نظرت فى هذا الكهف ورأيته ممتلئا حتى مدخله بالأوانى المختلفة التى قدمها الناس لهذا المكان المقدس . وأما فى الأيكة الأخرى ، فأنت ترى هناك أكواما هائلة من كسر الجرار » . وهناك أيكة أخرى مقدسة من أشجار البلوط تقع عند « باينو » فى شمال سوريا ، حيث توجد بين أشجارها آثار كنيسة يونانية . وقد علمنا أن الناس يقدسون شجرة بلوط ضخمة عتيقة تنمو فى قرية تركية فى شمال سوريا ، فعند هذه الشجرة يحرق الناس البخور ويقدمون النذور ، تماما كما يفعلون عند بعض الأضرحة . وليس هناك فى المناطق المجاورة لهذه الشجرة قبر لأحد الأولياء ، ولكن الناس يقدسون الشجرة نفسها » .

وفى كثير من الأحيان تنمو أشجار البلوط المقدسة منفردة أو فى شكل أيكة بالقرب من جامع ذى مئذنة بيضاء أو بجوار أضرحة أولياء الله المسلمين التى يمكن للمسافر أن يراها من أحد أطراف سوريا الى الطرف الآخر منها . وكثير من هذه المآذن البيضاء والأيكات

المخضرة يتوج قمم التلال • ومع ذلك فليس هناك من أحد يعــرف متى أصبحت هذه الأشجار أضرحة مقدســة ، ومن الذى خلع عليها هذه القدسية ، وما سبب قدسيتها • وكثير من هذه الأشــجار قد كرس لتقديس البطارقة والأنبياء ، والقليل منها خصص لتقــديس المسيح ورسله • كما أن بعضها يحمل أسماء أبطال شعبيين ، وبعضها الآخر يرتبط بأشخاص أو بأمــكنة وحوادث ذات أهمية محلية • ومن المحتمل أن تقديس الكثير من هذه الأمكنة ذات المكانة الســامية يرجع الى عصور سحيقة • وعلى الرغم من تعاقب الممالك والديانات عــلى هذه الأمكنة ، فقد ظلت كما هى حتى اليوم ، ومما يؤكد هذا أن بعض هذه الأمكنة يتردد المسلمون ســكان الصحراء ، وطائفة المتاولة (١) والدرزية ، وكذلك المسيحيون واليهود • ومن ثم فاننا لا نجد فقط فى هذه « الأماكن ذات المنزلة السامية » ، وتحت كل شجرة خضراء تنمو على الجبال العالية وفوق التلال ، آثارا ترجع الى زمن بالغ فى القدم وتشير الى معتقدات الانسان القديم ، وانما نجد أيضا مبانى حديثة ذات قباب تبرز وسط تلك الأيكات • واذا لم يكن كل هذا كفيلا بأن يجعلنا نشعر بقدسية هذه الأمكنة ، فانه يدفعنا لأن نتساءل عنها فى الحاح • فأحد هذه الأماكن المقدسة يقع فوق قمة جبل من جبال لبنان شرق قرية « جيزين » ، محاطا بأشجار البلوط المقدسة ، وقمة هذا الجبل ذات شــكل بيضاوى ، وتحيط بها الأشــجار المخضرة عــلى الدوام » •

وقد كتب كاتب آخــر كثيرا ما تجول فى الأرض المقدسة حــول تأثير هذه الأماكن ، فقال : « ان المسافر فى فلسطين كثيرا ما يقع بصره على مجموعات الأشجار التى تحيط بقبة بيضاء ، هى عبارة عن مبنى منخفض من الأحجار يبرز من بين الأوراق ذات اللون الأخضر الداكن • فاذا تساءل المسافر عن هذا البنــاء ، قيل له انه لولى من الأوليــاء أو قديس من القديسين ، وهو يعنى أن بداخل هذا البناء قبر ولى أو

(١) هم الشيعة الجعفرية •

قديس ذائع الصيت • وتقع هذه الأبنية عادة ، وان كان هذا لا يحدث على الدوام ، فوق قمم التلال • ويمكن رؤيتها من حول هذه التلال من كل مكان على بعد عدة أميال • وبعضها يعد معلما للبلد فيراه المسافر من على بعد مسافة كبيرة • فاذا سألت عن هؤلاء الأولياء فانك تجد ان الكثير من معالم حياتهم قد ضاع فى مجاهل التاريخ • والحقيقة أن التفسير الحقيقى لقدسية هذه الأمكنة ، هى أنها كانت فى العصور القديمة أماكن شيدت عندها معابد الكنعانيين • ولم يكن الاسرائيليون قد خربوا كل تلك الأماكن المقدسة عندما استولوا على الأرض المقدسة كما نعلم من نصوص كثيرة فى العهد القديم ، ولكنها أصبحت فيما بعد السبب فيما نسب اليهم من آثام • وفى العادة تنمو حول قبة الولى أكمة تنتشر فيها بصفة خاصة أشجار البلوط ، ويبدو ان هذه الأشجار بعينها هى التى كانت تنمو فى هذه الأمكنة أيام العبريين القدماء وبصفة خاصة على التلال • والى جانب أشجار البلوط التى تكون عادة من النوع الدائم الاخضرار ، لا من النوع الذى يغير أوراقه على نحو ما يحدث فى غاباتنا الانجليزية ، تنمو أشجار التربنتين وأشجار الطرفاء والسدر أو البنك Zizyphus – spina Chrisri وأحيانا يسميها الأوربيون Do'm ، وغير ذلك من الأشجار التى تنمو جنبا الى جنب مع الأشجار • وفى بعض الأحيان ينمو فى هذا المكان شجرة واحدة يقبع فى ظلها قبر الولى • ويتكون الضريح نفسه من بناء حجرى بسيط ليست له نوافذ فى أغلب الأحيان ، وبداخله محراب • ويراعى ترميم هذا الضريح على الدوام ، كما أنه يطلى بين الحين والآخر من الداخل والخارج بالطلاء الأبيض • وفى بعض الأحيان يوجد القبر داخل البناء تحت القباب ، وهو عبارة عن مبنى قبيح من الحجر مشيد فوق القبر ، ويبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثة أقدام • وفى كثير من الأحيان يكون ارتفاعه غير عادى ، مثل قبر « يوشع » • الذى يقع بالقرب من السلط شرق الأردن ، اذ يبلغ ارتفاعه حوالى ثلاثين قدما » •

وكذلك كتب الكابتن « كوندر » فى معـرض حـديثه عن الديانة الفعلية لا الاسمية للمزارعين السوريين فى أيامنا هذه فقال : « ان الدين المعترف به فى هذا البلد هو الاسـلام • ومبادىء هذا الدين بسيطة ، فهى تتلخص فى الايمان بآله واحد ورسول واحد • ومـع ذلك فقد يعيش الانسان شهورا فى جهات نائية فى فلسطين دون أن يبصر أو أن يسمع مؤذنا يؤذن للصـلاة • ولا يعنى هذا ان الناس لا يعيشون حياتهم بدون دين يشـكل سلوكهم اليومى ، ففى كل قرية على وجه التقريب يشاهد بناء صـغير تعلوه قبة بيضـاء ، وهـذا البناء يعد المـكان المقدس فى القرية الذى تطلق عليه أسماء مختلفة ، فهو يسـمى قبـة ، ومزارا ، ومقاما • والكلمة الأخيرة عبرية وقد استخدمت فى الكتاب المقدس اشارة الى أماكن الكنعانيين المقدسـة التى أمر بنو اسرائيل بتخريبها • وتقع هذه الأضرحة فوق قمم الجبال العالية ، وفوق التلال وتحت كل شـجرة خضراء • فالمـكان الذى يختار لاقامة المقام هو بعينه الذى يقع عليه الاختيار فى عهد موسى لاقامة المعابد ، وهو يراعى فيه أن يكون بارزا ، ففوق قمة الجبل أو عند حافته تسطع قبة صغيرة فى ضوء الشمس وقد انتشرت فوقهـا فروع شجرة من أشجار البلوط أو من أشجار التربنتين • وبجانب أشجار النخيل المنعزلة أو وسط أشجار اللوتس العتيقة التى تنبت عند نبع ، تشرف شجرة على بناء منخفض يقف منعزلا أو محاطا بالقبور المنخفضة فى الجبانة الصغيرة • وينظر الى الأشجار التى تنبت بجوار المقام نظرة تقديس على الدوام ، بل انه يحتفظ بالفروع التى تسقط منها داخل هذا البناء المقدس •

وتختلف شـكل الأضرحة حسـب درجة أهميتها ، فهى فى بعض الأحيان تكون مجرد أرض جرداء يحيط بها سور من الأحجار ، كما هو الحال فى ضريح النبى « جبرين » • وفى بعض الأحيان يـكون الضريح بناء معماريا فخما تزينه النقوش وأحجار الزينة كما هو الحال فى مسجد أبى هريرة (أحد صحابة النبى) الذى يقـع بالقرب مـن

« يبنة » • ولكن المقام يكون فى العادة بناء ذا طابــع حــديث ويبلغ محيطه حوالى عشرة أقدام وتعلوه قبة دائرية مطلية بالطلاء الأبيض الناصح ، وبداخله محراب يقع عند الحائط الجنوبى • وتزين الحوائط التى تحيط بالباب كما تزين العتبة الحجرية بالصور الزيتية ، وقــد تطلى بطلاء برتقالى يشبه لون الحناء • كما يوضع الى جانب العتبــة ابريق ممتلىء بالمــاء ليشرب منه زوار الضريح • وفى العادة يوجــد داخل المقام قبر صــغير تتجه رأس ســاكنه الى جهــة الغرب ، ويتجه جسده الذى يوضــع مستقليا على جانبه الأيسر ، كما هو المألوف ، جهة مكة • وفى بعض الأحيان تغطى أرض الضريح بالحصر ، كمــا يحتفظ داخل المقام فى الغالب بمحراث أو بأى شىء آخر ذى قيمة ، حيث يظل فى مأمن من أيدى أكثر اللصوص جرأة حيث لا يجرؤ لص على أن يسىء الى الولى الذى يجد النــاس فى ضريحه مكانا أمينــا يحتفظون فيه ببعض ممتلكاتهم •

ويجسد هذا المقام العقيدة الحقيقية للمــزارعين ، فهو مقــدس قدسية المكان الذى أقام عنده الولى ذات مــرة وفقا لتصور الناس (ومن ثم فقد سمى مقاما نسبة الى اقامة الولى فى هذا المــكان) • أو أنه مقدس لارتباطه بحادثة تتصل بتاريخ الولى • وهذا الضريح ينظر اليه على أنه المركز الذى يشــع منه تأثير هذا الولى • فاذا كان الولى ذا مكانة روحية عالية فان تأثيره قد يمتد الى مسافة عشرين ميلا من حوله • واذا كان الولى سمح النفس ، فانه يمنح الســعادة والصحة لزائريه وغير ذلك من البــركات • أما اذا كان غاضــبا من الناس ، فانه يحل عليهم لعناته ، كأن يصيب بعض أفرادهم بالجنون أو ينزل بهم الموت • فاذا أحس الناس بتصرف غريب فى سلوك أحدهم فانهم يقولون : « لقد أصابه الشيخ بالأذى » • كما يقال أنه أفضل للمجرم أن يقر بجريمة القتل التى ارتكبها وبذلك ينقذ نفسه ، من أن يقسم كذبا عند ضريح شيخ له مكانته بأنه لم يرتكب هذا الجرم ، لأنه ان فعل هذا فان وسطاء الولى الروحانيين يقتلونه حتما •

« وليست طريقة تقديس المقام معقدة . فعند هذا الضريح يسكن حارس على الدوام . وقد يكون هذا الحارس شيخا من بين الأهالى ، وقد يكون أكبر الرجال سنا فى القرية ، وفى بعض الأحيان يكون درويشا يسكن بالقرب من الضريح . كما يسكن عند المكان المقدس شخص يقوم بملء الماء وبنظافة المكان . ويتركز التقديس حول الضريح نفسه ، حيث يسكن الولى فى صورة غير مرئية كما يتوهم الناس . فاذا دخل المواطن الضريح ، خلع حذاءه عند العتبة ، ويأخذ حذره على ألا تمس قدماه عتبة الضريح ، كما عليه أن يحذر القيام بأية حركة من شأنها أن تسىء الى القوى الالهية التى تسكن هذا المكان . فاذا انتشر وباء فى القرية تقدم النذور الى المقام . وكثيرا ما رأيت زوجات فقيرات أو أمهات قد مرض أزواجهن أو أطفالهن يزرن الضريح ، وقد أحضرن معهن مصباحا زيتيا يضعنه أمام الضريح ويوقدنه . ويوفى نذر الولى عن طريق تقديم ضحية يطلق عليها اسم « كود » أو العوض ، فتذبح شاة قريبا من المقام ويؤكل لحمها فى وليمة تبركا بالشيخ » .

ولا تستخدم الفروع التى تسقط من الأشجار المقدسة سواء كانت أشجار البلوط أو التربنتين أو أشجار الطرفاء أو أى شجر آخر ينمو بالقرب من هذه الأمكنة المقدسة فى الوقود ، لأن المسلمين يعتقدون أنهم اذا استخدموا خشب الشجرة المقدسة فى الأعمال اليومية حلت عليهم لعنة الولى واستقرت عندهم .

ولهذا فان من المناظر الغريبة أن نرى فى هذه الأمكنة حيث يندر خشب الوقود ، أكواما من فروع الأشجار الجافة مطروحة على الأرض . ولا يجرؤ المسلمون على حرق هذه الفروع الا فى احتفال يقام للأولياء . أما الفلاحون المسيحيون ، فهم أقل دقة فى مراعاة ذلك لأنهم فى بعض الأحيان يستخدمون هذه الفروع المتساقطة فى وقود أفرانهم سرا .

وبناء على ذلك ، فان عبادة هذه الأماكن ذات المكانة السامية . وبالمثل الأشجار الخضراء ، تلك العبادة التى حرمها الملوك العبريون وأنبياؤهم منذ آلاف السنين ، لا تزال تعيش بوضوح فى هذه الأماكن نفسها حتى اليوم • أى ان هؤلاء المزارعين لم يتغيروا الا قليلا ، رغم تعاقب الامبراطوريات على مر السنين ، ورغم قيام الثورات الروحية والاخلاقية التى غيرت من وجه عالمنا المتمدين •

ولنشر على سبيل المثال الى بعض هذه الأماكن المقدسة المحلية • فهناك فوق سلسلة من التلال تقع بالقرب من بحيرة فيالا فى شمال فلسطين ، توجد هضبة صغيرة تغطيها أيكة من أشجار البلوط النبيلة : متخذة بحق شكل غيضة جليلة تثير فى النفس السحر الدينى العميق • وفى وسط تلك الأيكة يقف ضريح الولى أو الشيخ « عثمان حازورى »• ولا يختلف هذا الضريح عن أضرحة المسلمين العادية فى شىء ، ويحيط به حائط حجرى كالح • والى أسفل هذا الضريح مباشرة ، توجد نافورة صغيرة عند طرف أيكة تسمى باسم الولى • وهناك فوق جبل « أوشعا » ، وهو أعلى جبل من جبال جلعاد قبر شهير للنبى هوشع تظلله شجرة بلوط نبيلة دائمة الاخضرار • وهذا القبر يقدسه المسلمون والمسيحيون واليهود على السواء • فقد تعود الناس أن يحجوا الى هذا القبر ليقدموا الضحية ويقيموا الولائم ويؤدوا الصلاة • ويعد المنظر الذى يشرف عليه هذا الضريح من أجمل مناظر فلسطين • وربما فاق فى جماله ، وإن لم يكن فى مداه ، أشهر المناظر التى يشرف عليها جبل « نبو » حيث وقف موسى متأملا ، قبل موته مباشرة ، أرض الميعاد التى لم تطأها قدمه والتى كانت تسطع أضواؤها الأرجوانية وظلالها عبر وادى الأردن العميق •

ثم هناك ضريح « هابيل » الذى يقف فوق صخرة بجوار نهر « أبانا » فى لبنان وتحيط به أشجار البلوط الجليلة • وهذا الضريح بناء ذو قبة كسائر الأضرحة العادية واليه يحج المسلمون • وفى تل القاضى الذى كان يسمى فى الزمن القديم « وان » ، حيث تنبع

الروافد السفلى لنهر الأردن ، تكثر الأضرحة التى ترتبط بأشجار البلوط المقدسة • وتل القاضى هذا عبارة عن رابية طبيعية من الحجر الصخرى يبلغ ارتفاعها ثمانين قدما وعرضها نصف ميل • وتقع هذه الرابية فوق سهل فسيح وتكسوها مجموعة من أشجار الزيتون والبلوط التى تنحدر الى « بانياس » حيث توجد منابع نهر الأردن العليا • فموقع هذه الرابية فى الحقيقة رائع كل الروعة • وعلى الجانب الغربى من الرابية توجد أكمة كثيفة لا يسهل اختراقها ، وتنمو فيها أشجار البلوط والدفلى الذى تتغذى من منابع النهر السفلى • وهذه المنابع عبارة عن نافورة رائعة أشبه بحوض من المياه المزبدة ، ويقال انها أكبر نافورة لا فى سوريا وحدها بل فى العالم بأسره • وعلى الجانب الشرقى من الرابية يطل نبع آخر من منابع نهر الأردن • وتقف الى جانب هذا النبع ، وبجوار بعضها البعض شجرتا بلوط وتربنتين نبيلتان ، وقد ظللتا قبور الأولياء المسلمين ، وتدلت من فروعهما الخرق ونفايات النذور •

وفى كثير من الأحيان نجد أشجار البلوط مزينة بخرق الفلاحين ، وان لم تكن هذه الأشجار بجوار قبور الأولياء أو اضرحتهم • ففى « سلوان » التى تقع مكان شيوح القديمة ، تنبت شجرة بلوط كريمة تسمى « بلوطة ابراهيم » • وهى احدى الشجيرات التى تسكنها الأرواح ، وتتمتع بشهرة ذائعة فى هذا المكان • وعلى هذه الشجرة يعلق الفلاحون المتطيرون الخرق على فروعها لاسترضاء الأرواح التى « تسكنها » ، وفقا لاعتقاد الأهالى • « فاذا سرنا الى الوراء بعض الشىء فاننا نمر بمجموعة من أشجار البلوط الضخمة تتدلى من فروع شجرة منها خرق ذات أشكال وألوان متعددة • ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك : ما الهدف من تعليق هذه الزينة على فروع الأشجار ؟ ربما اعتقد الناس أن احدى هذه الشجرات تعد مأوى للأرواح الشريرة ، ومن ثم كانت وظيفة هذه الخرق هى حماية الناس من شرور هذه الأرواح • ومثل هذه الأشجار التى يعتقد الناس فى أنها مأوى

للأرواح الشريرة تنتشر فى كل مكان فى فلسطين ، ويخشى السكان المتطيرون أن يناموا تحتها » • وربما تمكن المسافر من رؤية احدى هذه الشجرات المسكونة من ناحية بيروت القديمة ، وهى عبارة عن شجرة بلوط جليلة دائمة الخضرة وتنو على حافة الجبال الناتئة ، ويعلق الناس على فروع هذه الشجرة قطعا من ملابسهم على سبيل التقرب من هذه الشجرة ، حيث أنهم يعتقدون أن قوة ما تسكن الشجرة ولها القدرة على شفاء المرضى • وأحد جذور هذه الشجرة يرتفع فوق الأرض فى شكل قبو • وقد تعود الناس الذين يقاسون من مرض الروماتيزم أو الليمباجو ان يزحفوا من خلال هذا القبو حتى يشفوا من آلامهم • كما أن النساء الحوامل يزحفن كذلك من خلاله حتى تكون ولادتهن ميسرة • وفى اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر يرقص الرجال والنساء طوال الليل ، كل جنس على حدة بجانب الشجرة • ويبالغ الناس فى تقديس هذه الشجرة الى درجة أنه اذا تجرأ شاك وانتزع أحد فروعها ، فانه يصاب بشلل فى ذراعه •

وتوجد أضرحة الأولياء بين الأيكات فى بقاع مختلفة من وادى الأردن الأعلى ، وجميعها مخصص لتقديس « بنات يعقوب » • ويمكن رؤية احدى هذه الأضرحة من مدينة « صفد » وهو عبارة عن مسجد صغير وبداخله قبر • والناس يعتقدون أن فتيات عذراوات حسناوات يسكنه ، ومن ثم فقد تعودوا أن يشعلوا البخور عند مدخل هذا الضريح • وقد حاول ضابط شجاع • أصبح فيما بعد ضابطا مرموقا ، ثم اشترك فيما بعد فى الاشراف على شئون فلسطين ، حاول ان يبحث عن بنات يعقوب فى هذا القبر ، ولكنه لم يعثر لهن على أثر • وربما يشير هذا الربط بين بنات يعقوب وأشجار البلوط الى اعتقاد الناس فى أن لشجر البلوط حوريات أو آلهة تسكنه •

والكلمة التى تشير الى شجرة البلوط عند العبريين تشبه تلك الكلمة التى تسمى بها شجرة التربنتين كل التشابه • والاختلاف الوحيد بين اللفظتين يتمثل فى حروف العلة التى اضافها المخطوط

الماسورى الى النص فى العصور الوسطى • ولم يتفق الباحثون حول تحديد نوع الشجرة التى تشير اليها كل من هاتين الكلمتين ، ذلك لأن الشك يساورنا ، عندما تعترضنا احدى هاتين الكلمتين فى نص من نصوص العهد القديم ، فيما اذا كان المقصود بها شجرة البلوط أو شجرة التربنتين • وما تزال شجرة التربنتين مألوفة فى فلسطين ، وهى تنبت اما مفردة أو فى شكل مجموعة من الشجرات التى تختلط بأشجار البلوط ، ويطلق عليها الأهالى اسم شجرة البطم • وهذه الأشجار تنتشر فى جنوب وشرق فلسطين حيث أنها تنمو بصفة عامة فى بيئة أكثر دفئا وجفافا من البيئة التى تنمو فيها شجر البلوط • وتبدو شجرة التربنتين من على بعد شبيهة فى شكلها فى شكلها العام بشجرة البلوط • ومن النادر أن تنمو هذه الأشجار فى شكل كثيف أو فى شكل أكمات ، ولا توجد منها غابات على الاطلاق ، وانما تقف هذه الشجرة بمفردها فى شكل سحرى فى بعض الوهاد العارية أو على جانب التل حيث لا ترتفع فوقها فى الغابة أية شجرة أخرى • وعندما تذبل أوراقها فى بداية الشتاء ، تكون حينئذ شبيهة بشجرة البلوط الانجليزية التى تعرف بقصرها وجذعها ذى العقد الكثيرة ، كما أنها تشبهها فى أغصانها المنتشرة غير المتناسقة وفروعها القصيرة • وأوراق هذه الشجرة ذات شكل ريشى ، وأما وريقاتها فأكبر من أوراق شجر المستكاء • ويميل لونها الى الخضرة المشربة بالحمرة الداكنة ، ولكنه لا يصل الى دكنة أوراق شجر الخرنوب • ويندر ظهور هذه الأشجار كلما اتجهنا شمالا ، ومع ذلك فهى تعد الشجرة الوحيدة التى تخفف من رتابة خطوات الأغنام وهى تسير فى طريق منحدر لا نهائى يقودها الى موآب القديمة وأمون ، والى المنطقة التى تحيط بهيشبون • على اننا نصادف فى الوهاد القليلة التى تقع جنوب نهر اليبوق • كثيرا من هذه الأشجار التى تفوق فى حجمها تلك التى لا تزال تنمو غرب نهر الأردن » •

على أنه اذا حق لنا أن نحكم من خلال ما كتبه الرحالة فى أثناء

اشاراتهم المتعددة نسـبيا الى هاتين الشجرتين ، فاننا نتبين أن شجر التربنتين أقل انتشارا فى فلسطين من شجر البلوط • كما أن النـاس فيما يبدو ، لا ينظرون اليه على الدوام نظرتهم الخرافية الى شـجر البلوط • ومع ذلك ، فان تقديس شجرة التربنتين ليس نادرا • فقـد ذكر « كانون تريسترام » أن كثيرا من أشجار التربنتين ما تزال حتى يومنا هذا موضع تقديس السكان المجاورين لها • كما أن النـاس يرون أن أفضل مكان لدفن الشيخ البدوى ، هو أسفل شجرة تنمـو بمفردها • ويورد أحد الرحالة الشرقيين ذكر شجرة « أم الخلقان » (١) التى تنمو عند مشارف الصحراء • وهم يعنون بها شجرة التربنتين التى تغطيها الخرق التى يقدمها الناس نذرا لها بدافع التطير أو بدافع ارتباطهم النفسى • وفى مكان آخر يتحدث هذا الكاتب نفسه عن شجرة التربنتين التى تنمو عند منبع نهر الأردن ، وقد تدلت من فروعهـا الخرق • وفى موآب تنمو أشجار البلوط بصفة عامة ، والبلوط الدائم الخضرة ، وكذلك شجر التربنتين والخرنوب والزيتون أيا كان نوعه ، اما مرتبطة بمكان مقدس أو تنمو بمفردها • ففى الحالة الأولى يبدو أنها لم تنم أصلا مستقلة عن المـكان المقدس الذى تظلله ، كما أنهـا ليست لها وظيفة مستقلة عن تلك الوظيفة التى تربطها بالولى الذى يعد مصدر نموها وسبب نضرتها ، والقائم على حمايتها • وأما الشجرة التى تنمو مفردة ، فلا تتمتع بمزايا المـكان المقدس المشيد على بعـد منها • وهذا النوع ينمو فرادى بجوار نبع أو فوق تل أو قمة جبل • ولقد مررت بشجرة من أشجار التربنتين ذات أوراق خضراء كثيفة تنمو بالقرب من « الطيبة » التى تقع فى الجنوب الغربى من « الكرك » غير بعيد من « الخنزيرة » ، وقد غطت فروعها الخرق • وهذه الشجرة تعد موضع تقديس كبير من قبل عرب هذا الحى • وقد سألت عـن قبر الولى الذى يرتبط بهذا المكان المقدس ، فأجابنى عربى كان قد فرغ من صلاته فقال : «ليس هنا مكان لقبر » • فلما سـألته بعد ذلك : « ولكن لماذا تأتى الى هذا المكان وتصلى عنده ؟ » أجاب على الفور :

(١) لعلها التى كان العرب يسمونها قديما « ذات الانواط » •

« لأن هنا فى هذا المكان يعيش رجل مقدس » • فقلت له : « وأين هو ؟ » فقال : « ان كل الظـلال التى تحيط بالشجرة تعد مأوى لـه كما أنه يسكن الشجرة وفروعها وأوراقها » • ومرة أخرى تجـد بين أطلال القلعة الرومانية « الرميلة » فى موآب ، شـجرة خضراء من أشجار التربنتين • ولا يجرؤ أى عربى أن ينتزع فرعا من فروعها حتى لا تصيبه روح الولى التى تسـكن الشجرة بأذى • فلما سألت عما اذا كان روح الولى يعيش فى الشجرة ، أجاب بعض العرب بأن روحه هى التى تكسب الشجرة قوتها ، كما أجاب البعض الآخر بأن روحه تعيش أسفلها • وهكذا نجد أن فكرتهم حول هذا الموضوع باهتة • ومن ثم فهم جميعا يتفقون حول اجابة واحدة وهى « الله أعلم » • وقد أخبرنا الأب « جوسن » الذى ندين له بهذه المعلومات ، أخبرنا عن شجرة التربنتين التى تنمو فى موآب فقـال : « ان روح الولى التى يقدسها الناس فى هيئة تلك الشجرة تتخذ مكان سكناها من حـول الشجرة ، فهى لا تستطيع أن تبرح هذا المكان ، وانما تعيش أسيرة فيه كما لو كانت تعيش فى سجن • فموقف هذا الولى يختلف عـن سائر الأولياء الذين لا يرتبطون بمكان واحد وانما يتنقلون فى الأماكن التى يستدعى فيها عبادهم أرواحهم • فاذا نام البدوى بدافع الخشوع تحت شـجرة من هذه الأشـجار المقدسة ملتمسا الشفاء من روح الولى ، فان روح الولى كثيرا ما تظهر له فى رؤياه وتكلفه بعمل مـا أو تحثه على تقديم الضحية ، وهو يلبى هذه الأوامر على الدوام •

وربما أدركنا من خلال هـذه الأمثلة أن روح الولى المستكنة فى الشجرة ، ليسـت سوى روح الشجرة التى كان يعبدها الوثنيون فى العصـور القديمة • وقد عاشـت هذه العقيدة فى صورة واضـحة عبر العصور الاسلامية والمسيحية • ويؤكد هذا رواية الأب « جوسن » عن تقـديس العرب الخرافى لهذه الأشجار ، فقال : « ان المجموعة الرائعة من هذه الاشجار تلك التى تسمى مايسة وهى التى تقـع فى جنوب كيراك وتتمتع بنفس الشهرة والتقديس اللذين تتمتـع بهمـا

الأشجار الأخرى • وبالمثل تتمتع شجرة الدغل بشـــهرة وقوة سحرية كبيرة ، وان كانت لا تظلل قبر أى ولى من الأولياء • ولم يذكر لى أى شخص على نحو مؤكد أن هناك وليا مدفونا عند تلك الشجرة وانمـا تملؤهم الشجرة نفسها بالورع على حد قولهم • والويل للعربى الذى يجرؤ على أن يقطع فرعا من فروعها بله ورقة من أوراقها ، فسرعان ما تعاقبه روح الشجرة فى الحال وربما تسببت فى موته • وقد حدث أن ترك رجل بدوى كيسا ممتلئا بالشعير فى حماية الشجرة • فعثرت نعجتان من بين قطيع جار له كانتا قد ضـــلتا طريقهما على الشـــعير وأكلتاه • عند ذاك أرسلت روح الشجرة ذئبا فى اثرهما فأكل النعجتين فى مساء اليوم نفسه • فالشجرة نفسها هى التى تعاقب ، وهى التى تمنح الخير • فالذى يلمس أوراقها يكتب له الشفاء من مرضـــه • ومن ثم فان البدوى لا ينسى عندما يمر بشجرة من أشجار ما يسة أو اشجار الدغل ، أن يمرر غصنا أخضر من أغصانها على وجهه وأذرعه ، حتى يجنب نفسه المرض أو لكى يكتسب قوة جديدة • فعملية اللمس كافية لأن توصل اليهم بركة الشجرة ، ومن المرضى من ينامون فى ظلها حتى يشفوا من أمراضهم ، كما أنهم يعلقون الخرق على فروعها بقصـــد التماس بركتها • ولهذا فانك ترى هذه الخرق فى أعداد كبيرة واشكال متنوعة • وفى اليوم الذى يعلق المريض خرقة على الشـــجرة يبرأ من مرضه ، لأن المرض يلتصق بالشجرة على حد تعبير الأهالى • على أن بعض هؤلاء الأهالى الذين يفكرون تفكيرا عقـــلانيا على نحـــو ما ، يذكرون أن الخرق التى يعلقونها على الشجرة لا يقصد بها سوى تخليد ذكرى زيارتهم لتلك الشجرة • وفى بعض الأحيان يربط العربى بالشجرة التى يمر بها قطعة من القماش • أو قد يترك هراوته إمـــا رمزا لتقديسه للشجرة أو لأنه يهدف الى ضمان بركة الشجرة له فى المستقبل • وليس من غير المـــألوف فى الواقع أن تقابل بعض العرب وهم يربطون قطعة من القماش الأخضر أو الأحمر (ومن النادر أن يكون لونها أبيض ، أما اللون الأسود فلا يستخدم على الاطلاق) بأحد فروع الشـــجرة المقدسة ، لكى يضمن لطفل محبب لديـــه الصـــحة

الوافرة • وفضلا عن ذلك فانني عثرت عند شجر « مايسة » عــدة خصلات من الشعر مربوطة فى فرع من فروع شجرة منها • وقد فسر لى مرافقى هذه الظاهرة على النحو التالى فقال : « لقد زارت سيدة مريضـــة هذه الشجرة ، فقصـــت شعرها وربطته بالشجرة علامة على تقديسها لها » •

وتعد شجرة التربنتين الشجرة الرئيسية فى بيئة موآب الدافئـــة الجافة ، بينما تزدهر أشجار البلوط فى أحياء جلعود والجليل التى تقع فى الشمال حيث يكون الجو أكثر برودة وأكثر أمطارا • ومن الطبيعى بناء على ذلك أن تكون شجرة التربنتين هى الشجرة المقدسة أساسا فى الجنوب ، وأن تـــكون شجرة البلوط هى الشجرة المقدسة أساسا فى الشـــمال • ولكنه يبدو ، اذا حكمنا من خلال روايات الرحالة ، أن الفلسطينيين بشكل عام يألفون أشـــجار البلوط • ومن ثم كانت هى الشجرة التى يقدسها الفلاحون أكثر من غيرها من الأشجار • وبنـــاء على ذلك فانه يحق لنا أن ننتهى ، اذا وضعنا فى اعتبارنا مدى تشبث الناس بأشكال المعتقدات الخرافية ، وتعلقهم بها عبر العصور ، ان ســـكان هذا البلد الوثنيين كانوا يقدسون شجرة البلوط فى العصـــور القديمة أكثر من تقديسهم لأية شجرة أخرى • وبناء على ذلك فاننا اذا ساورنا الشك فيما اذا كانت الكلمة العبرية فى العهد القديم تشير الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين ، فانه ينبغى علينا أن نرجح أنها تشير الى شجرة البلوط • ويؤكد هذا أن المتـــرجمين الاغـــريق القدماء ، وكذلك القديس « جيروم » كانوا ينقلون الكلمة التى يشك فى اشارتها فى العهد القديم الى شجرة البلوط أو الى شجرة التربنتين، الى الكلمة المقابلة لها فى لغتهم والتى تعنى شجرة البلوط لا شـــجرة التربنتين • وقد فعل منقحو الترجمة الانجليزية المعتمدة هذا كذلك ، باستثناء فقرتين ترجم فيها المنقحـــون كلمة « آلون » العبرية الى كلمة Oak الانجليزية أى البلوط ، كما ترجموا كلمة « آله » العبرية الى كلمة Terebinth الانجليزية أى التربنتين • أما خلاف

هذا فقد كانوا يترجمون كلمة « آله » العبـرية الى كلمـة Oak على الدوام ، ثم ذكروا فى الهامش أن كلمة Terebinth هى كلمة أخرى تقابل « آله » العبرية (١) .

ومما يؤكد أن الوثنيين العبريين القدماء كانـوا يقدسون شجرة البلوط ، تلك الاشارات التى أشـار اليها الأنبياء فيما يختص بهـذه العقيدة الخرافية . فالنبى هوشـع يقول : « يذبحون عـلى رؤوس الجبال ويبخرون على التلال تحت البلوط واللبنى والبطم لأن ظلهـا حسن . لذلك نزنى بناتكم وتفسـق كنانكم . لا أعاقب بناتكم لأنهن يزنين ولا كنانكم لأنهن يفسـقن لأنهم يعتزلون مع الزانيات ويذبحون مع الناذرات الزنى » (٢) .

فالنبى هنا يشـير الى عادة البغاء التى كا يسبغ عليها الصـفة الدينية لممارستها فى ظل الأشجار المقدسة . ويقول النبى « حزقيال » مشيرا الى تلك الأكمات المقدسة التى يقدسها قومه الكفرة : « فتعلمون أنى أنا الرب اذا كانت قتلاهم وسـط أصنامهم حول مذابحهم على كل أكمة عالية وفى رؤوس كل الجبال وتحت كل شجرة خضراء وتحت كل بلوطة غبيـاء الموضـع الذى قـربوا فيـه رائحـة سرور لكل أصنامهم (٣) . ومرة أخرى يتحدث النبى أشعياء عن الآثمين الذين هجروا الرب فيقول : « لأنهـم يخجلون من أشـجار البطـم التى اشتهيتموها وتخزون من الجنات التى اخترتموها ، لأنكم تصـيرون

---

(١) الشجرة التى يرد ذكرها بصفة عامة فى الترجمة العربية للعهد القديم هى شجرة البلوط .
(أنظر على سبيل المثال . سفر الخروج الاصحاح الثانى عشر آية ٦ ، والاصحاح الثالث عشر آية ١٨ . والاصحاح الرابع عشر آية ١٣ . وسفر التثنية ، الاصحا الحادى عشر آية ٣٠) .
وقد يرد اسم الشجرة الثانية تحت اسم البطمة (انظر سفر القضاه الاصحاح السادس آية ١١ . وسفر اشعياء الاصحاح السادس آية ١٣) (المترجمة).
(٢) سفر هوشع الاصحاح الرابع آية ١٣ وما بعدها .
(٣) سفر حزقيال الاصحاح السادس من آية ١٣ .

كبطمة قد ذبل ورقها وكجنة ليس لها ماء » • ثم يقول مؤلف النبؤة الأخيرة الذى يذكر على أنه النبى أشعياء وذلك فى معرض حديثه عن انتشار الوثنية فى عصره : « أما أنتم أولاد المعصية نسل الكذب المتوقدون الى الأصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الأودية تحت شقوق المعاقل » (١) • والضحية التى يشار اليها هنا هى بدون شك التضحية بالأولاد الى الاله « ملك » • ويشير النبى أرمياء الى هذه المعتقدات موجها حديثه فى نغمة انفعالية الى بنى اسرائيل الآثمين فيقول : « أيضا فى أذيالك وجد دم نفوس المساكين الأزكياء • لا بالنقب وجدته ، بل على كل هذه » (٢) • وهنا يبدو أن دماء الأطفال الذين كانوا يقدمون ضحية ، كانت تلطخ بها شجرة البلوط المقدسة • أو أنها كانت تقدم اليها على نحو آخر ما • وينبغى أن نذكر فى هذا المجال أن الضحايا كانوا يذبحون قبل أن تحرق أجسادهم فى النار حتى يمكن استخدام دمائهم قربانا للأشجار أو طلاء لها • فقبيلة « جالا » التى تسكن فى شرق افريقيا ، تسكب دماء حيواناتهم عند سفح أشجارهم المقدسة حتى لاتذبل أشجارهم • وفى بعض الأحيان يطلون جذعها وفروعها بالدم والزبد واللبن • وتقدس قبيلة « الماساى » فى شرق افريقيا نوعا من نبات التين الطفيلى الذى يلتف تدريجيا حول جذع الشجرة الرئيسية فى شكل جذور وفروع لولوبية بيضاء براقة • وهذه الأشجار يتقرب اليها الماسيون عن طريق ذبح نعجة ، وسكب دمائها عند جذورها • وعندما يقدم النونومايون سكان السودان الفرنسى الضحية للأرض حتى تمنحهم المحصول الطيب ، فانهم يسكبون دماء الدجاج المذبوح على شجر التمر هندى وغيره من الأشجار المقدسة • وتقدم قبيلة « البامبار » التى تسكن أعالى النيجر ، الشياة والنعاج والدجاج ضحية لأشجار النامبو أو أية أشجار مقدسة أخرى ، كما يسكبون الدماء فوق جذوع تلك الأشجار فى الوقت الذى يصلون فيه للأرواح التى تسكن الشجرة • وعلى هذا

---

(١) سفر اشعياه ، الاصحاح السابع والخمسين آية ٤ ، ٥).

(٢) سفر أرمياء (الاصحاح الثانى آية ٢٤) •

النحو كان « البرويسيون » يسسكبون دماء ضحيتهم فوق شــجره البلوط التى تنمو عند « روموت » • ويقول « لوكان » ان كل شجرة فى أيكة « درويديكال » المقدســة فى مرســيليا كانت تغســل بدماء الشخص الذى يقتل ضحية لها •

ولكن اذا كان أنبياء بنى اسرائيل فى العصور المتأخرة قد أشاروا الى عبادة أشجار البلوط أو التربنتين بوصفها طقسا من طقوس الوثنية، فهناك شــواهد عديدة أخــرى تشــير الى أن أشــجار البلوط أو التربنتين المقدسة كانت تلعب دورا رئيسيا فى العقيدة الشــعبية فى العصور السابقة على ذلك عند بنى اسرائيل ، بل انها تشــير الى أن يهوه نفسه كان مرتبطا بتقديس هذه الأشجار كل الارتباط • وعلى كل ، فانه يجدر بنا أن نشير الى ان الرب أو ملائكته كثيرا ما ظهروا لأحد البطارقة القدامى أو للأبطال عند شجرة البلوط أو عند شــجرة من أشجار التربنتين • فقد كان أول ظهور يهوة لابراهيم عند شجرة بلوط أو عند شجرة من أشــجار التربنتين ، كانت تنمو فى « شكيم » وتعد مكانا للنبؤة • وهناك ابتنى ابراهيم معبدا (١) • ومرة أخــرى نقرأ ان ابراهيم كان يسكن الى جانب شجرة بلوط أو شجرة تربنتين كانت تنمو فى ممــرا فى حبرون (٢) • وهناك ابتنى كذلك معبدا للرب • وهناك فى هذا المــكان بجانب شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى « ممرا » « ظهر له الرب فى شكل ثلاثة رجال بينما كان يجلس فى خيمتــه وقت الظهيرة (٣) • وهناك فى ظل الأشجار أكل الرب من

---

(١) واجتاز أبرام فى الأرض الى مكان شكيم الى بلوطة مورة . وكان الكنعانيون حينئذ فى الارض » . (سفر التكوين الاصحاح الثــانى عشر آية ٦) .

(٢) « فنقل ابرام خيامه وأتى وأقام عند بلوكات ممرا التى فى حبرون . بنى هناك مذبحا للرب » .
(سفر التكوين الاصحاح الثالث عشر آية ١٨) .

(٣) « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار . فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفون لديه » .
(سفر التكوين الاصحاح الثامن عشر آية ١ ، ٢) .

اللحم وشرب من اللبن واللبن الرائب الذى قدمه الشيخ الجليل له • وكذلك ظهر ملاك الرب « لجدعون » وجلس تحت شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى « عفره » ، وأحضر له « جدعون » الذى كان منشغلا بدرب القمح ، لحم جدى وحساءه ، كما أحضر له فطيرا غير مختمر ليأكل تحت شجرة بلوط • ولكن الملاك ، بدلا من أن يأكل الطعام ، طلب من جدعون أن يضع اللحم والفطير على صخرة وأن يسكب الحساء • ثم أشعل نارا من الصخر بلمسة من عصاه ، فأتت على اللحم والفطير • ثم اختفى الضيف السماوى بعد ذلك • أو ربما اختفى ساكن الشجرة • وابتنى جدعون اثر ذلك معبدا عند هذا المكان كما فعل ابراهيم من قبل (١) •

وقد كانت هناك شجرة بلوط أو تربنتين تعد مكانا للنبؤة بالقرب من شكيم ، وكانت هناك شجرة أخرى بالقرب من ممرات • على أننا لانعرف ما اذا كانت هذه الشجرة هى بعينها التى ظهر عندها الرب لابراهيم • ويبدو أن اسم الشجرة وهو « شجرة العرافين » ؛ يشير الى أن مجموعة السحرة أو الكهنة ، كما نميل الى أن نسميهم على هذا النحو ، التى كانت قد استخدمت لها مكانا عند الشجرة المقدسة ، لكى يفسروا لطالبى النبؤات حفيف الأشجار فى الهواء وهديل حمام الغاب بين فروع الأشجار ، وغير ذلك من سائر أشكال النبوءة التى تكشف عنها روح شجرة البلوط لعبادها • وما تزال وهدة شيخيم الجميلة التى تحتضن أشجار الزيتون وحدائق البرتقال وأشجار النخيل ، وترويها الجداول ذات المياه الوفيرة ، لا تزال تعد أغنى بقاع فلسطين • كما أنه يبدو أنها كانت فى الزمن القديم مكانا لعبادة الأشجار • ومهما يكن من أمر فاننا نصادف مرارا فى معرض تاريخها ، ذكر أشجار البلوط أو التربنتين التى يبدو من سياق الكلام أنها كانت مقدسة ، فقد أخذ يعقوب الأصنام أو « ربات البيت الغريبة » ، كما أخذ الأقراط التى تستخدم فيما يبدو ــ بوصفها تعاويذ ، ودفن كل

---

(١) سفر القضاه ، الاصحاح السادس من ١١ ــ ٢٤) •

ذلك تحت شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو فى شكيم (١) . ويذكر « أو يستاسيوس » أن هذه الشجرة كان شجرة تربنتين وأن سكان المناطق المجاورة لها كانوا يقدسونها حتى عصره . وكان قد شيد معبدا بجانب هذه الشجرة وكان الناس يقدمون فيه التضحيات . وقد نصب النبى يوشع تحت شجرة البلوط التى كانت تنبت عند المكان المقدس للرب فى شكيم ، حجرا ، ليكون شاهدا على قومه عندما قال لهم : « ان هذا الحجر يكون شاهدا علينا لأنه قد سمع كل كلام الرب الذى كلمنا به ، فيكون شاهداً عليكم لئلا تجحدوا الهكم » (٢) . كما نصب أهالى « شكيم » « أبيمالك » ملكا عند شجرة بلوط فى شكيم ، اذ كانوا يعتقدون أن شجرة البلوط ترتبط بالملك برابطة ما ، حيث أننا نقرأ فى مكان آخر عن شجرة كانت تسمى « بلوطة الملك » ، وكانت تنمو عند حدود موطن سبط بنى آشر . وقد دفنت عظام الملك شاءول وعظام أولاده وفقا لرواية من الروايات تحت شجرة بلوط أو تربنتين عند جبل جلبوع . وعندما توفيت « ديبورا » وصيفة « رفقة » ، دفنت تحت شجرة بلوط فى « بيت ايل » ، من ثم سميت هذه الشجرة « شجرة البلوط الباكية » . ومن المحتمل أن شجرة البلوط الباكية كانت هى بعينها الشجرة التى قابل عندها شاءول ، بناء على تعليمات صموئيل النبى ، وقبل أن يتوج بمدة قصيرة ، ثلاثة رجال كانوا ذاهبين لتقديم الضحية للرب عند « بيت ايل » ، فحيوه وقدموا له رغيفين من أرغفتهم . وهذه التحية التى حيا بها الرجال الثلاثة ملك المستقبل عند شجرة البلوط ، تذكرنا بظهور الرب لابراهيم فى هيئة ثلاثة رجال عند بلوطة « ممرا » . وربما أشارت تحية الرجال عند شجرة البلوط فى الرواية الأصلية لهذه الحكاية الى مغزى أبعد من ذلك الذى تكشف عنه الرواية المتأخرة لها . فاذا ربطنا حادثة مقابلة

---

(١) فأعطوا كل الالهة الغريبة التى فى ايديهم والاقراط التى فى آذانهم فطمرها يعقوب تحت البطمة التى عند شكيم » .
(سفر التكوين الاصحاح الخامس والثلاثون آية ٤) .
(٢) سفر يشوع الاصحاح الرابع والعشرون آية ٢٧ .

الرجال الثلاثة لشاءول قبل تتوجه ملكا ، بحادثة تتويج « أبيمالك » عند شجرة البلوط ، فاننا نستدل من ذلك على أن الملك شاءول كـــان ينتظر من شجرة البلوط التى ربما ظهرت له فى شـــكل ثلاثى أن تظهر له لتباركه فى حفل تتويجه • وبناء على ذلك ، وفى ضوء هذا التفسير فان دفن عظام شاءول تحت شجرة البلوط يتطلب ، فيما يبدو ، تفسيرا جديدا • فالملك الذى سبق أن باركته روح الشجرة فى بداية حكمه ، كان جديرا بأن ينام نومته الأخيرة تحت شجرة البلوط •

على أن أكثر الشجرات شهرة فى فلسطين القديمة وأكثرها ألفـــة بين الناس كانت فيما يبدو هى شجرة البلوط أو التربنتين التى كانت تنمو عند « ممرا » ، لأن الرب ظهر عندها لابراهيم جد بنى اسرائيل الأكبر فى هيئة ثلاثة رجال ، فهل كانت هذه الشجرة شجرة بلوط أم شجرة تربنتين ؟ هنا تختلف الشواهد القديمة ، ولكنها ترجح فى معظمها انها كانت شجرة تربنتين • فقد أخبرنا « يوسفوس » أن كثيرا من الآثار التى كانت فى عهد ابراهيم والتى كانت مبنية بعناية من الرخام الجميل ، كانت تقـــع فى « حبرون » ، وعلى بعد مائتى ياردة من البلد كانت تنمو شـــجرة تربنتين ضخمة للغاية قيل انها قد نبتت فى هـــذا المكان منذ بدء الخليقة • ويمكننا أن نفترض ان هذه الشجرة عـــلى الرغم من عدم تصريح « جوزيفوس » بذلك ، هى بعينها التى قيـــل ان ابراهيم قابل عندها الملائكة وتحدث معهم • وقد أكد « أريبوس » أن هذه الشجرة كانت موجودة حتى عصره ، أى حتى مطلع القـــرن الرابع الميلادى ، وان المـــكان الذى تنمو فيه كان يقدسه سكان الأماكن المجاورة • وقد صور الضيوف الثلاثة الغامضين الذين أخذوا حصتهم مما قدم لهم ابراهيم تحت الشجرة تصويرا مقدسا • وأوسط هؤلاء الثلاثة ، يفوق الآخرين وقارا فى هذا التصوير وقد تحدث عنه الشيخ الجليل قائلا : « انه الهنا بعينه • وهو منقذنا الذى عزف عن تقديسه حتى من عرفه » • وقد كان الســـكان المجاورين لهذا المـــكان يقدســـون الملائكة الثلاث • ويذكرنا هؤلاء لشدة دهشتنا بالآلهة الثلاثة الذين

كانت تتقدس صورهم عند شجرة البلوط المقدسة التى كانت تنمو فى بلدة « رومو فى » ، المركز الدينى للبروسيين الوثنيين • وربما كان الناس يعتقدون ان الاله الشجرة الذى كان موجودا فى كل من « حبرون » و « رومو فى » ، قد تمثل لهم لسبب ما فى شكل ثلاثة من الرجال • وقد كتب حاج من « بوردو » وهو مؤلف أقدم « دليل المسافرين فى أورشليم » ، عام ٣٣٣ بعد الميلاد يقول ان شجرة التربنتين كانت تنمو على بعد ميلين من حبرون ، « وأن قسطنطين أمر ببناء كنيسة جميلة هناك • على أننا نستدل من طريقة كتابته على أن كلمة « التربنتين » لم تكن سوى اسم لمكان ، أما الشجرة نفسها فلم يكن لها وجود فى ذلك الوقت ، ذلك أن « جيروم » الذى كتب مؤلفاته فى نهاية القرن الرابع الميلادى ، قد ذكر أن هذه الشجرة لم يكن لها وجود فى هذا المكان • فشجرة البلوط التى تنسب لابراهيم او الى بلدة « ممرا » ، وفقا لقوله ، كانت تنمو حتى عصر قسطنطين ، وأن مكان هذه الشجرة كان يقدسه الناس المجاورين لها بناء على ما توهمه الناس من أن ابراهيم قد تقابل فى هذا المكان مع ملائكة الرب » •

وعندما قرر قسطنطين ان يبنى كنيسة عند الشجرة المقدسة ، أفصح عن غرضه فى خطاب أرسله الى « أوزيبوس » أسقف قيسارية ، الذى احتفظ لحسن الحظ فى زمنه بنسخة من خطاب الامبراطور • وأشير الآن الى الفقرة الخاصة بالشجرة المقدسة • فقد قال قسطنطين : « ان المكان الذى يسمى « عند بلوطة ممرا » الذى اتخذ ابراهيم عنده مسكنا له كما نعلم ، قد دنسه بعض الناس المتطيرين بطرق شتى • فقد قيل ان أكثر الأصنام دلالة على الكفر قد وضعت بهذا المكان ، وأن معبدا شيد بالقرب منه حيث كان الناس يقدمون على الدوام التضحيات الدنسة • واذا كان هذا يبدو غريبا فى عصرنا ، وغير جدير بهذا المكان المقدس ، فاننى استسمحكم بأن أخبركم أننى قد كتبت الى صديقى الكونت « أكاكيوس » الموقر ،

آمره بأن يحرق دون ما تلكؤ كل الأصنام التى توجد عند هذا المكان ، وأن يهدم المعبد وأن يعاقب كل من يجرؤ بعد ذلك على اقتراف اثم يسىء الى قدسية هذا المكان • وقد أمرنا بأن يزين المكان بمبان كنسية فحسب حتى يصبح مكان اجتماع لائق بالقديسيين » •

ومن هذا الخطاب يتضح ان الامبراطور يتحدث عن شجرة البلوط المقدسة لا عن شجرة التربنتين • وبالمثل فقد عرفها المؤرخان الكنيسان « سقراطيس » و « سوزومينوس » ، بأنها شجرة بلوط • على اننا لا نعتد كثيرا بشهادة هؤلاء حيث أن الثلاثة قد اقتفوا أثر مخطوط « سبتراجنت » الذى أشار الى الشجرة على أنها شجرة بلوط وليست شجرة تربنتين • ومن المحتمل أنه من قبيل الاختلاف مع المرجع « سبتراجنت » أن أشار « ايوزيبوس » الى « بلوطة ابراهيم » فى الفقرة نفسها التى ذكر فيها أن شجرة التربنتين تعيش فى عصره • وقد ترك لنا المؤرخ الكنسى « زوسوميوس » وصفا لافتا له قيمته عن الاحتفال الذى كان يعتد كل ضيف عند الشجرة المقدسة منذ زمن قسطنطين وربما قبل ذلك • فقد قال :

« ومن الواجب على الآن ان أذكر الأمر الذى أصدره الأمبراطور قسطنطين الخاص بما سمى « بلوطة ممرا » ، فهذا المكان الذى يطلق عليه الآن اسم « التربنتين » يقع شمال جبرون بما يقرب من ستة أميال ، ويبعد عن أورشليم بما يقرب من ثلاثين ميلا • وانها لقصة حقيقية تلك التى روت عن ظهور « ابن الرب » لابراهيم بصحبة الملائكة الذين أرسلوا لعقاب شعب سودوم ، وإنبائه ابراهيم بميلاد ابنه • وما زال الناس المجاورون لهذا المكان يقيمون فيه احتفالا فى كل صيف كما يقيمه السكان الذين يعيشون فى مناطق نائية فى فلسطين وكذلك الفينيقيون والعرب • كما يجتمع كثير من الناس فى هذا المكان للتجارة فيبيعون ويشترون ، حيث أنهم يختزنون بضائعهم لحين قدوم هذا الاحتفال • أما اليهود فهم يحيون هذا الاحتفال لأنهم يخلدون

فى زهو ذكرى جدهم الأكبر ابراهيم . وأما الاغريق فهم يحيون هذا الاحتفال بدعوى زيارتهم للملائكة . وأما المسيحيون فهم يفعلون ذلك كذلك لأنه قد ظهر للرجل التقى فى هذا المكان وهذا الزمان « الواحد » الذى ولد فيما بعد من العذراء ليخلص البشرية . فكل طائفة تقدس اذن هذا المكان وفقا لعقيدتها ، فالبعض يصلى لرب العباد جميعا ، والبعض يبتهل الى الملائكة ويسكب الخمر أو يشعل البخور أو يقدم ثورا أو نعجة أو شاة أو ديكا ضحية ، ذلك أن كل رجل يظل يغذى حيوانا طوال العام وينذر أن يقدمه باسمه واسم أسرته ضحية لهذا المكان فى وقت الاحتفال . ويمتنع الرجال عن مخالطة النساء إما بدافع الاحترام لهذا المكان أو خوفا من أن يلحق بهم شر نتيجة غضب الرب . هذا على الرغم من أن النساء يتجملن ويتزين خصيصا لهذا الاحتفال ويظهرن سافرات فى هذا الجمع من الناس . ومع ذلك ، لايسلك رجل منهم مسلكا شهوانيا على الرغم من أن الجنسين يعسكران معا ويناممان معا فى مكان واحد . والناس يضربون خيامهم فى هذا المكان حيث أن الأرض ممهدة وخالية من الزرع وتخلو من كل مبنى فيما عدا ابراهيم القديم الذى يقع عند شجرة البلوط والبئر الذى شيده . وفى أثناء هذا الاحتفال لا يستمد أحد المياه من هذا البئر وانما يشعل بعضهم الشموع أو يسكب الخمر أو يلقى فيه الكعك والنقود والروائح والبخور ، وذلك وفقا للعادة الاغريقية . ومن ثم فربما كان الامتناع عن الشرب من مياه البئر فى ذلك الوقت يرجع الى أن مياهها تكون غير ملائمة للشرب بعد أن يرمى فيها بهذه الأشياء . وقد أخبرت والدة زوجة قسطنطين التى كانت قد زارت هذا المكان وفاء لنذر ، أخبرته بشعائر هذه الاحتفالات التى كانت تقام وفقا للطقوس الاغريقية ..

ومن هنا يتضح أن عادة تقديس الشجرة المقدسة والبئر المقدس فى حبرون ظلت مسيطرة على عقول الناس حتى اعترف بالدين المسيحى دينا رسميا للدولة الرومانية . ويبدو أن هذا السوق الذى

كان يقام مع الاحتفال الصيفى كان يجتذب التجار من كثير من بقاع العالم السامى ، كما أنه قد لعب دورا حزينا فى تاريخ اليهود ، لأن عددا كبيرا من أسرهم ، رجالا ونساء وأطفالا قد بيعوا عبيدا فى هذا السوق بعد أن أخضعهم الرومانيون اثر تمردهم الأخير عام ١١٩ بعد الميلاد • وبهذا انتهت الأمة اليهودية فى المكان بعينه الذى قيل عنه فى تراثهم أنه قد أسسه ابراهيم عند شجرة بلوط أو تربنتين كانت تنمو عند ممرا » • ولا تزال هذه الشجرة واقفة ، هى أو بديلتها فى حقل يكثر فيه العشب ويقع على بعد ميل ونصف ميل غرب حبرون • وهذه الشجرة عتيقة وجميلة ودائمة الاخضرار ، وهى تعد من أكرم الأشجار التى تنمو فى جنوب فلسطين • ويبلغ محيط جذعها ثلاثة وعشرين قدما ، كما يبلغ امتداد فروعها حوالى تسعين قدما • وبهذا تكون شجرة البلوط قد فازت فى منافستها على شجرة التربنتين فى هذا المكان المقدس عند ممرا ، اذ ليس هناك شجرة تربنتين واحدة ضخمة تنمو فى « جبرون » •

الفصل الثامن

الأماكن العالية عند بنى إسرائيل

يطلعنا العهد القديم فى كثير من نصوصه ، على أن أماكن العبادة التى كانت مألوفة عند الاسرائيليين القدماء ، كانت تقع فوق المرتفعات الطبيعية حيث تظللها فى كثير من الأحيان أو فى العموم أوراق الأشجار الكريمة • ويبدو أن معظم هذه الأماكن المقدسة لم تكن مغلقة ، بل كانت مفتوحة للسماء • على أنه كانت هنـاك فى بعض الأحيان أغطية بهيجة متعددة الألوان على هيئة سقف ، تظلل الشعارات المقدسة التى كانت تقف منتصبة فى شكل عامود خشبى أو نصب حجرى ، وتقيها من شمس الصيف وأمطار الشتاء • وقد ظل الاسرائيليون يترددون على هذه الأماكن أحقابا طويلة بعد أن استقروا فى فلسطين ، ليقدموا الضحية • وهناك فى ظل أشجار البلوط والتربنتين ، كان يؤمهم الأنبياء والملوك الأتقياء ، لا بقلوب تخلو من الاحساس بالاستياء ازاء هذه العبادة فحسب ، بل بقلوب يحثها الدافع الداخلى على الالتجاء الى هذه الاماكن المقدسة لارضائها وطمعا فى بركتها • على أن تعدد أماكن العبادة كان كفيلا بأن ينمى عند جهلة الناس عقيدة الايمان بالآلهة المتعددة التى كانت تقدس فى هذه الأماكن • ومن ثم فقد مالت عقيدة الايمان بالرب الواحد التى كانت تعتز بها العقول الاسرائيلية المستنيرة الى التحلل فى شكل الاعتراف الضمنى بتعدد الالهة أو البعول • فكل بعل كان يسيطر من فوق قمة العامود الخشبى المرتفع ، وكل منها كان مسئولا عن توزيع ما تمنحه الشمس والأمطار للناس من خصب ونماء فى دائرة المزارع التى تحيط به • كما كانت هذه المزارع بدورها تتطلع الى هذا البعل ، تطلع القرى الايطالية الى

نصرائها من القديسين ، لكى يباركها ويمنحها الغنى فى قطعانها ومواشيها وحقولها وحدائق عنبها وزيتونها • وقد أثار هذا التحول اللاشعورى ، وعلى هذا النحـــو البسيط ، الايمان النظرى بالرب الواحد الى الايمان العملى بالآلهة المتعددة ، أثار تساؤلات الأنبياء وقلقهم ازاء هـــذا الانحلال الدينى الذي أدي بدوره على وجه السرعة الى انحطاط خلقى عارم أدت اليه تلك الشعائر الدنسة التى كانت تؤدى فى أمكنة بريئة • وعلى الرغم من تلك القدسية التى خلعتها الطبيعة نفسها على مسارح هذه الأحداث البريئة ، لمـــا أشاعته بين ربوعها من صفاء وأمن ، فان هذه الأمكنة كانت تغد ، فيمـــا يتعلق بالأفـــكار الدينية والتـــأملات المستغرقة ، الشـــهادة الصامتة على تلك الشعائر ، بله الشهادة الخجلى الكارهة لهذه الأفعال • وقد ساعد على تدعيم هذه الاعتبارات الدينية والأخلاقية ، اعتبارات أخرى يمكن أن نسميها ســـياسية ، وهى تلك الاعتبارات التى كانت تبدو للعقل العبرى القديم الذى كان ينظر الى كل الامور من خلال ضباب الألوهية الذهبى ، مغلفة بمظهر الاحكام التى كان يتهدد بها المدبر للأحداث ، الآثمين وفاعلى الشر ، ويـــرى تنفيذها فيهم • وقد كانت قوى الامبراطوريتين الأشـــورية والبابلية المتصـــاعدة قد تهـــددت فى بادىء الأمر حريات المـــالك الصـــغيرة التى نشأت فى فلسطين ، ثم قضت عليها بعد ذلك • وقد كانت العقول المستنيرة فى بنى اسرائيل قد رأت بثاقب بصيرتها منذ زمن طويل ، تلك الكوارث المقبلة عليهم وتنبؤوا بها ، فغلفت تدبرها وتنبؤها بغلاف من التكهنات النبوئية الشاعرية • ولمـــا أدرك أصحاب هذه العقـــول الأخطار التى تهدد أمتهم ، حسبوا انهم قد وضعوا أيديهم على منبـــع الخطر متمثلا فى عبادة شعبهم لتلك الأماكن العالية التى تعدوا فيها ، عن طريق انزلاقهم فى طريق تقديس الآلهة المتعددة ، على حق الجلالة الربانية ، ولطخوا بغواياتهم اللاأخلاقية طهارة عبادة الرب الواحد • ولمـــا تصوروا على هذا النحو أن أساس الشر دينى ، فقد كان العلاج الذى اقترحوه دينيا كذلك • وقد تبلور هذا العلاج فى القضاء على عبادة الاماكن العـــالية وعلى من ســـهروا على رعايتها من الفجـــرة ،

وتركيز كل الاحتفالات الدينية فى أورشليم ، حيث تضمن لهم الطقوس الأكثر وقارا وانتظاما ، الخالية من كل دنس والتى تتمثل فى شفاعاتهم اليومية وترتيل مزاميرهم وتقديم الضحايا التى تفوح رائحتها الشهية، تضمن لهم حب الرب اياهم وحمايته لأرضهم جميعا • وبعد أن اختمرت هذه الفكرة فى نفوس كبار أنبياء بنى اسرائيل اتخذت شكلا عمليا فى الاصلاح المشهور الذى نسب للملك يوشيا • على أن هذا الاجراء الذى احكم تدبيره ، وعلقت على تنفيذه الآمال ، أثبت عدم قدرته على الصمود أمام انحلال دولة يهوذا ، كما انه لم يحل دون سقوطها • اذ لم يمض جيل واحد على اليوم الذى أزيلت فيه هذه الأضرحة العالية وشيد المعبد على « جبل صهيون » الذى أصبح المعبد الوطنى الشرعى الوحيد ، حتى فتحت أورشليم أبوابها للعدو ، وسيقت زهرات شبابها أسرى الى بابل •

وقد اعتمدنا فى بعض معلوماتنا عن الأماكن المقدسة المحلية التى ترتكز حولها الى حد كبير مصير الأمة اليهودية ، على تشهير الأنبياء بتلك الأماكن • ويشير الربط الدائم بين هذه الأماكن • ويشير الربط الدائم بين هذه الأماكن المقدسة والأشجار الخضراء فى معرض قدح الأنبياء لها الى أن الأشجار وبخاصة المخضرة على الدوام ، كانت تعد ملمحا مميزا لهذه المعالم المقدسة • فالنبى أرمياء يتحدث عن آثام قومه ويقول : « كذكربنيهم مذابحهم وسواريهم عند أشجار خضر على آكام مرتفعة » (١) • ثم يقول مرة أخرى : « وقال الرب لى فى أيام يوشيا الملك ، هل رأيت ما فعلت العاصية اسرائيل • انطلقت الى كل جبل عال والى كل شجرة خضراء ، وزنت هناك (٢) • كما كتب النبى حزقيال متحدثا باسم الرب قائلا : « فلما أتيت بهم الى الارض التى رفعت لهم يدى لأعطيهم اياها فرأوا كل تل عال وكل شجرة غبياء فذبحوا هناك ذبائحهم وقربوا هناك قرابينهم المغيظة ، وقدموا هناك روائح سرورهم وسكبوا هناك سكائبهم » (٣) • وفى

---

(١) سفر ارمياء الاصحاح السابع عشر آية ٢ •
(٢) سفر أرمياء الاصحاح الثالث آية ٦ •
(٣) سفر حزقيال الأصحاح العشرون آية ٢٨ •

سفر التثنية الذى يعتقد أنه « كتاب التشريع » الأساسى ، وهو الكتاب الذى بنى عليه « يوشيا » اصلاحه تنطق الكلمات التالية باللعنة على الأماكن العالية ومرافقها الوثنية : « تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأمم التى ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة وعلى التلال وتحت كل شجرة خضراء ، وتهدمون مذابحهم وتكسرون انصابهم وتحرقون سواريهم بالنار ، وتقطعون تماثيل الهتهم وتمحون اسمهم من هذا المكان » (١) • ونحن نعرف أن الملك شاءول جلس فى زمن مبكر ، قبل أن تصبح قمم التلال المخضرة ذات سمعة سيئة ، فى ظل شجرة تمر هندى وأمسك برمحه للملكية ، وقد أحاط به ناصحوه وأتباعه •

لقد سبق أن رأينا أن هذه الأماكن العالية فى فلسطين ، تلك التى تتوجها الأشجار المقدسة وبصفة خاصة أشجار البلوط الدائمة الاخضرار ، لا تزال حتى اليوم المكان المقدس الذى يتضرع اليه المزارعون المسلمون على الرغم مما تكشف عنه رواياتهم التى تحكى عن رقود أوليائهم المسلمين تحت ظلها الرهيب ، من طابع وثنى قديم • وانه لمن قبيل التفكير الصائب أن نشارك الكتاب المحدثين افتراضهم ، هؤلاء الذين كثيرا ما تجولوا فى الأرض المقدسة ، أن الكثير من قمم التلال الظليلة على الأقل ، هى الأماكن بعينها التى كان الاسرائيليون القدماء يقدمون عندها التضحيات ، ويشعلون البخور • وقد ظلت هذه الأماكن المقدسة الموغلة فى القدم ، التى تشرف على مناظر رائعة ، ظلت عبر الأزمنة ، رغم جهود المصلحين وفؤوس محطمى الصور ، المركز الرئيسى للديانة الشعبية • وربما حق لنا أن نبعد أكثر من ذلك ونفترض أن هذه الهضاب المخضرة التى تبرز فى روعة وسط المساحات الشاسعة من الأراضى الجرداء ، ومزارع الزيتون ذات اللون الأزرق الرمادى ، هى البقية من الغابات القديمة التى كانت ذات يوم تكسو أطراف البلد على بعد أميال بعيدة ، حتى أزالها الرجل العملى من

---

(١) سفر التثنية الاصحاح الثانى عشر من آية ٢ الى ٣ •

الأماكن المنخفضة ليفسح مكانا لزراعتـه ، فى الوقت الذى أخـذت فيه معتقدات الناس تعانى من ضآلة ما تخلف من الأماكن المقدسة • وقد ظلت هذه الأماكن المتخلفة فوق المرتفعات تشير الى آلهة الاجمات التى تراجعت أمام فأس رجل الغابة • واذا كانت الأجمات المقدسة على الأقل قد نشأت فيما يبدو على نحو هذا فى الأماكن الأخرى ، فان مشابهة هذه الأكمات بأكمات فلسطين تدعم افتراض أن السـبب المماثل قد نجم عنه تأثيرا مماثلا فى فلسطين •

فشعب « أكيكويو » الذى يسكن شرق افريقيا البريطانى ، كان فى الأصل شعبا زراعيا ، ولم يكن يملك سـوى قليل من قطعان الماشية ، وان كان يملك قطعان المـاعز فى كل قرية وربما الشياه كذلك • وقـد اضطر هؤلاء أن يزيلوا الغابات ليفسحوا مكانا لزراعاتهم • وقد ساعد حرق هذه الغابات على خصوبة التربة • ومن المحتمل أن غابات كينيا ، كانت متصلة بغابات « أبزدار » فى وقت من الأوقات ، وأن هـذه المساحة كلها كانت تغطيها الغابات • والدليل الوحيد الذى يشير الى هذه الغابات التى كانت تنمو ذات يوم ، هى تلك المجموعات المتنوعة من الأشجار التى تغطى قمم التلال التى تنتشر بدورها فى كل مكان فى هذا البلد • وهذه التلال ينظر اليها اليوم نظرة تقديس ، كما أنـه لا يسمح بقطع الأشجار التى تنمو فيها • وبهذا أنقذت تلك الأكمات من المصـير الذى تعرضت له سائر الغابات • ويعد تل « كاهومبو » « أحد التلال التى تغطيها الأكمال المقدسة التى توجد بوفرة فى بـلد « كيكويو » • وحيث أنه لا يسمح لأحد بقطع الأشجار أو اجتثاث الأحراش التى تنمو تحتها ، خوفا من انتشار المـرض كما يعتقـد الناس ، فقد كسيت هذه التلال فى العموم بالأشجار العالية التى تنمو وسط الأحراش الكثيفة • وقد أصبحت هذه الأحراش فى « كاهومبو » مأوى لعدد من الضباع التى لا تقدم لها الأرض الجرداء أو حتـى المزروعة منها ، غذاء يماثل غذاء تلك الأحراش • وعلى قمة التل يوجد سطح تحيط به أجمة • وهذا المكان يعد المكان المقدس الذى يطلق عليه

الأهالى « أثورى ألياكورو » • فاذا حدثت مجاعة أو شحت مياه الأمطار ، فان الناس يقررون فيما بينهم أن يقدموا ضحية لهذا المكان • وعند ذاك يبقى جميع الناس فى أكواخهم ، ولا يسمح لأحد أن يغادر مكانه عدا أربعة عشر رجلا كهلا (وازورى) • وهؤلاء الذين يعدون الكهنة المختارون ، يصعدون الى التل ومعهم شاة • وهم لا يأخذون معهم نعجة قط لأن الاله « ناجى » لايقبل النعاج فى مثل هذه المناسبة • ثم تشعل النار عند قمة التل وتقتل الشاه عن طريق الامساك بفمها وأنفها حتى تموت خنقا • ثم ينتزع جلدها الذى يقدم لأحد أطفال هؤلاء الرجال العجائز ليرتديه • أما الشاه فتطهى ويغمس فى شحمها فرع شجر ، وترش الأشجار المحيطة بهم بهذا الشحم • وبعد ذلك يأكل هؤلاء الرجال العجائز بعض لحم الشاة والا فان الضحية لا تقبل • أما سائر اللحم فيحرق فى النار ويترك الاله ناجى ليأكله • وبمجرد أن يفرغ الرجال من تأدية هذه الشعائر تأخذ السماء فى الارعاد وهم يهبطون التل ، كما يهطل البرد بشدة الى درجة أن يضطر الرجال العجائز الى أن يغطو رؤوسهم بملابسهم ويهرعون الى بيوتهم • وبعد ذلك تهطل المياه فوق التلال وتتدفق حول جوانبها » • وعلى نحو هذا قيل ان النبى « اليا » قدم الضحية فوق قمة جبل الكرمل المخضرة ، حتى تهطل الأمطار ويضع حدا للقحط الذى ابتلى به بنو اسرائيل سنين عديدة • وما كاد النبى يفرغ من تأدية شعائره حتى تجمعت سحابة من مياه البحر ، وأظلمت السماء وهرع الملك الوثنى فى مركبته الى أسفل الجبل حتى يهرب من المطر الغزير الذى أخذ يهطل من السماء الغاضبة كالينبوع المتدفق ، فى الوقت الذى أخذ يبصر فيه ما انتاب الأنبياء المزيفون من حيرة •

والمعروف عن الموند الذين يسكنون « تشوتا ناجبو » فى البنغال « انهم لا يصنعون تماثيل لآلهتهم ، ولا يقدسون أشكالا رمزية • ومع ذلك فهم يعتقدون أن الآلهة — رغم كونها غير مرئية — يمكن أن تسترضى ويتضرع اليها عن طريق تقديم الضحية لها • وعند ذاك

ترضخ لمطلبهم وتتخذ لها مــأوى لبعض الوقت فى الأمكان الخاصــة لعبادتها التى تتمثل فى أماكنهم العالية وأجماتهم • وهــذه الأماكن المقدسة عبارة عن كتل من الصخور التى لا يزيد عددها ولا ينقص • وأما الأجمات فهى عبارة عن بقايا غابات أصلية ، اعتنى بأشجارها عبر الأجيال • ثم تركت بعض الأشجار بعد أن أزيلت الغابات من حولها حتى لا تهجر الآلهة هذه الأمكنة عندما تنزعج لسقوط الأشجار الى تحتمى بها • بل ان الآلهة ما تزال حتى اليوم تعبر عن غضبها اثر قطع شجرة من الأجمعة المقدسة (التى يسمونها جاهيرا أو سارنا) بــأن تمنع سقوط الأمطار الموسمية • ولكل قرية من قرى قبيلة « موندا »، أجملة تقع بالقرب من القرية • والأهالى يعرفون أن هذه الأجمات بقايا غابات قديمة احتفظوا بها لتكون مأوى لآلهتهم • ويعتقد الأهالى أن الـــ « ديساولى » ، وهو الاله الحارس للقرية ، يأوى مع زوجتــه « جهار ــ ارا أو مابورو » الى الأجمة عند ما يريدان أن يسمعا الى توسلات الناس • ولكل قرية « ديساولى » الذى لا يتعدى نفــوذه حدود القرية التى تقع أجمته فى نطاقها • فاذا رغب رجل من قريــة ما أن يفلح أرضا فى قرية أخرى ، فانه يتحتم عليه أن يقدم عطاياه لكلا « الديساوليين » • وتعد آلهة الأجمات مسئولة عن المحصول ومن ثم فانها تقدس بصفة خاصة فى أعياد الزراعة المهمة • كما أن الناس يبتهلون لها فى حالات المرض » • ويخبرنا كاتب آخر عن موضوع أثر الآلهة فى حياة الناس فيقول : « انه على الرغــم من ازالة الجــزء الأكبر من الغابات الأصــلية بالفؤوس أو حرقا بنار جارا حيث نشأت مكانها قرى الموندانيين ، فان كثيرا من هذه القرى لا تزال تحتفظ بجزء أو بأجزاء من الغابة الأصلية التى تستخدم بوصــفها أجمات مقدسة (سارنا) • وفى بعض قرى الموندانيين لا تمثل الغابة الأصلية سوى مجموعة صغيرة من الأشجار العتيقة التى تستخدم بوصــفها « سارنا » للقــرية • ولا يعــرف الموندايون معــابد ســوى هذه « السارنات » ؛ ففيها تسكن الآلهة ، وعندها تقام الشعائر بين الحين والآخر ، كما تسترضى عن طريق تقديم التضحيات لها » •

ونحن نفترض أن هذه الآلهة المحلية المسئولة عن الثروة الزراعية تلك التى تسكن هذه الأجمات التى تعد بدورها بقايا غابات أصلية ، تقترب كل القرب من أبعال الكنعانيين الذين كانوا يسكنون مثلها الأشجار التى تنمو فوق قمم التلال المجاورة للقرى • وهناك كانت هذه الآلهة تتسلم أول محصول تنتجه الأرض على سبيل الامتنان لمنحها الفلاحين المحصوم الوافر والأمطار الغزيرة •

ومرة أخرى نجد عند حدود أفغانستان والهند ، « أن التلال المتاخمة لها غالبا ما تكون عارية من الحقول وخالية من السكان ، ومع ذلك فان المتجول بين أنحائها يصادف بين الحين والآخر بعض الزيارات فوق قمم بعض الجبال أو الصخور التى يتعذر الوصول اليها • ومن ثم فهى تذكرنا بالأماكن العالية عند بنى اسرائيل • وهناك تنمو بعض أشجار التمر هندى التى توقفت عن النمو ، أو أشجار النبق أو الزيزفون Zieg jyplus jiyule وتتدلى من فروع هذه الأشجار عدد لا حصر له من الخرق ، وقطع القماش الملونة ، لأن كل من ينذر نذرا ويتضرع للضريح يتحتم عليه أن يعلق قطعة من القماش فى فرع الشجرة ، بوصفها رمزا مرئيا على وفائه بالنذر » • وتقع احدى هذه الأضرحة الشهيرة فوق سلسلة جبال سليمان • وعلى الرغم من المشقة التى يعانيها الناس فى سبيل الوصول الى هذه الجبال . فان مئات من الحجاج يحجون اليها كل عام ، كما يحمل المرضى على أسرتهم الى هناك على أمل أن تشفيهم بركة الولى • وهذه الأسرة اما أن توضع على ظهور الجمال أو يحملها أصدقاء المريض الذين يسيرون بها أكثر من مائة ميل حتى يصلوا الى احدى هذه الزيارات • ولهذه الأضرحة خاصية أخرى وهى شيوع ممتلكاتهم فى رحابها لمدة طويلة ، وهم على ثقة من أنهم سيجدونها كما هى دون أن تمسسها يد بعد مدة طويلة قد تصل الى بضعة أشهر • ومن بين خصائص هذه الأضرحة كذلك أن قطع أى فرع من فروع الأشجار المحيطة بها يعد اثما • ومن ثم كانت الأضرحة هى المكان المخضر الوحيد الذى يقع بين

التلال ، ذلك لأنه يبتعد عن التخريب المسرف الذى تقوم به القبائل فى غيره من الأماكن التى تنمو فيها الغابات والأحراش •

ومن الواضح أن هذه الزيارات أو الأضرحة الجبلية التى تنتشر فى أفغانستان : تشبه أضرحة الأولياء التى تنتشر اليوم فى الأماكن العالية فى فلسطين • فكلاهما يقع فى العادة فوق قمم الجبال ويحاط بالأشجار التى لا يسمح بقطعها أو اتلافها ، وكلاهما يستمد قدسيته فيما يعتقد الناس ، من قبور القديسين • كما أنه من المألوف أن تودع فى رحابهما الودائع الخاصة حيث تظل فى أمان تام دون أن تمتد اليها يد• كما أن الحجاج يتركون عند كل منها ما يشهد على زيارته لها متمثلا فى تلك الخرق التى تعلق على فروع الأشجار •

وعند قبيلة شيرميس فى روسيا « تعد الأكمات المنعزلة فى الوقت الحاضر أمكنة لتقديم الضحية واقامة شعائر الصلوات • وتعرف هذه الأكمات باسم « كجوس — أوتو » • أما فى الأيام السالفة فقد كانت القبيلة تقدم الضحية لآلهتها وسط الغابات • ويقع اختيار الناس على هذه الأمكنة فى العموم عن طريق ظهور امارات تشير الى ادارة القوة الالهية ، كأن يتفجر نبع فى مكان ما فى الغابة على نحو مفاجىء وعند ذاك يصبح هذا المكان هو المكان المقدس الذى تؤدى فيه الصلاة • ويفضل « الشيرميون » الذى يسكنون فى « أوفا » الأماكن العالية التى تجاور الغدران • وقد ظلت هذه الأماكن العالية تحتفظ بقدسيتها حتى بعد أن عملت فأس رجل الغابة فى أشجار الاماكن المجاورة » •

فاذا تسنى لنا أن نقرن الأماكن المقدسة التى كانت فى فلسطين فى العصور القديمة ، تلك الأماكن التى أساءت كثيرا الى الأنبياء المتأخرين ، بغيرها من الأكمات التى أشرنا اليها عند شعوب أخرى ، فاننا نرجح أن الأكمات الفلسطينية كانت بقايا غابات قديمة • وقد أصبحت هذه الأكمات فيما بعد أشبه بالجزر الصغيرة الخضراء التى تركت منعزلة فوق الجبال ، حتى تكون ملاذا للمؤلهين السذج الذين

جرمهم الرجل المزارع من غاباتهم الشاسعة • وعلى الرغم من ذلك ، فان هذا الرجل المزارع ما زال يعتقد بأنه ملزم بدفع دية مقابل المحصول الذى تنتجه الأرض لهؤلاء الأبعـال بوصفهم المـالكين الحقيقيين لهذه الأرض • ومن المحتمل أن العامود المقـدس (أشيرا) الذى كـان يرتبط بتلك الأماكن المقدسة المحلية ، لم يكن سـوى ساق احـدى الأشجار المقدسة التى انتزعت فروعها يد الانسان أو انها انتزعت بفعل العوامل الطبيعية • وما زال فى وسعنا اليوم أن نكتشف مثل هـذه الرموز الدينية التى تطورت مع الزمن عند قبيلة « كايان » التى تسكن فى بورنيو • فهؤلاء البدائيون يعتقدون فى وجود أرواح معينة خطيرة يطلقون عليها اسم « نوه » • ومن المـألوف لدى أفراد هذه القبيلة ، عندما يطهرون مساحة من الأرض من الأحراش تمهيدا لزراعة الأرز ، « ان يتركوا بعض الأشجار القليلة فوق مكان مرتفع حتى لا يسيئون الى روح هذا المكان اذا ما سلبوه كل الأشـجار التى تعـد المـكان الذى يأوى اليه • وفى بعض الأحيان تنتزع فروع مثل هذه الأشجار ولا يترك فى أعلاها سوى بعض الفروع • وفى بعض الأحيان يربط عامود طويل بالشجرة حتى يصل الى قمتها فتنتشر فوقه أوراق هذه الشجرة • وفى بعض الأحيان يعلق فى هذا العامود صليب خشبى بحيث يتدلى منه ويتأرجح فى الهواء » •

الفصل التاسع

الأرملة الصـــامته

من عادة بعض الشعوب ، ان لم يكن من عادة شـــعوب العـــالم جميعا ، أنه عندما تتعرض أسرة لوفاة فرد منها ، تفرض على الأحياء قيود معينة تحدد من زوايا متعدد حرية الفرد التى يتمتع بهـــا فى حياته العادية • وكلما كانت صلة الأحياء بالميت أكثر قربا ، كانـــت القيود التى تفرض عليهم أكثر تعنتا • وعلى الرغم من أن أســـباب فرض هذه القيود لاتزال مجهولة فى الغالب لمن يضطر أن يخضـــع لها ، الا أن الشواهد العديدة تشير الى أن كثيرا من هذه القيود ، ان لم يكن جميعها ، قد نشأ نتيجة الخوف من شـــبح الميت والرغبة فى الهروب من ترقباته غير المستحبة ، بصرف نظره عنهم ، اما عن طريق طرده أو اغرائه ، أو ارغامه على أن يذعن لمصيره ويكف عن مضـــايقة أهله وأصدقائه • وقد كان العبريون القدماء يراعون اتباع كثير من القيود عند حدوث الوفاة • وهذه القيود قد يعبر عنها العهد القديم صراحة أو قد يشير اليها عرضا • وربما استطعنا أن نضيف الى قائمة القيود التى تفرض سلوكا معينا على المكلومين لوفاة ميت ، تلك القيود التى يمكن جمعها من الكتابات المقدسة ، قيدا آخر لم يطرأ على ذهن الكتاب الدينيين ، اذ لم يشيروا اليه فى كتاباتهم ، وان دلت عليه أصول الألفاظ ، وأكدته العادات المتشـــابهة التى تتبعها الشعوب الأخرى •

فربما كانت كلمة الأرملة العبرية تتصـــل فى أصلها بصفة تعنـــى

« الخرس » (١) . واذا كان تحليل اللفظ على هذا النحو سليما ، فانه يبدو حينئذ أن المعنى العبرى لكلمة الأرملة هو ، « المرأة الصامتة » . وهنا يتسنى لنا أن نتساءل : لماذا يتحتم أن ترتبط كلمة الأرملة بالصمت ؟ اننى أفترض ، وان كنت لا أدعى الثقة البالغة فى هذا الفرض ، أن هذه التسمية يمكن ان يفسرها انتشار العادة التى تفرض الصمت على الأرملة لبعض الوقت ، وربما كان لوقت طويل ، بعد وفاة زوجها .

فالأرامل عند قبيلة « كوتو » ، وهى احدى القبائل التى تسكن الكونغو ، تعلن الحداد على أزواجهن مدة ثلاثة أشهر قمرية . وفى هذه الفترة يحلقن شعورهن ويجردن أنفسهن من كل ملابسهن ، على وجه التقريب ، ويطلين أجسادهن بالجص ، ويقضين الشهور الثلاثة الأولى فى بيوتهن صامتات . ومثل هذه العادة تتبعها قبيلة « سيهاناكان » التى تسكن مدغشقر ، وان كانت المدة التى تكف فيها الأرملة عن الكلام تطول عن ذلك ، فقد تدوم أكثر من ثمانية أشهر ، وقد تمتد الى عام كامل . وفى خلال هذه المدة تتجرد الأرملة من زينتها ، وتغطى جسمها بحصيرة خشنة ، ولا يقدم لها سوى معلقة مكسورة وطبق مكسور لتتناول بهما طعامها . ولا يسمح لها أن تغسل وجهها أو يديها ، بل تقتصر على غسل اطراف أصابعها . وعلى هذا النحو تظل طوال النهار فى البيت دون أن يسمح لها بالحديث مع من يدخله . وتعد الأرملة عند قبيلة « ناندى » التى تسكن فى شرق افريقيا البريطانى نجسة طالما كانت فى فترة الحداد ، كما أن حديثها لايتجاوز الهمس وان كانت لا تمنع عن الكلام كلية . وقد ذكر كاتب فى معرض وصفه لقبية « نيشينام » ، وهى احدى القبائل الهندية التى كانت تسكن كاليفورنيا والتى تعرف الكاتب حق المعرفة على طرق معيشتها

---

(١) من المحتمل أن كلمة الارملة تتصل بكلمة « اليم » Ilem وتعنى الخرساء . يبدو أن مؤلفى معجم اكسفورد العبرى يفضلون هذا الأصل لكلمة الأرملة ، حيث أنهم يرجعون الكلمتين الى أصل واحد . (انظر المعجم العبرى والانجليزى للعهد القديم للمؤلفين : ف . براون ، س . ا . برجز . (اكسفورد ١٩٠٦ ص ٤٨) .

فى الثلث الأخير من القرن التاســع عشر ، ذكر أن الأرملة التى تسكن حول « أوبورن » تكف عن الكلام مهما تكن المناسبة أو الذريعة اللتان تتطلبان منها الكلام ، وذلك طوال فترة الحداد التى تدوم شهورا بعد وفاة زوجها ، وقد تدوم سنة أو اكثر • وهذه الحقيقة لم اســتمع اليها رواية ، بل إنها حقيقة ابصرتها بعينى • فاذا كانت الأرملة من بين الهنود الذين يسكنون عند نهر المسيسبى ، فان حديثها لايتجــاوز الهمس لمــدة شهور بعد وفاة زوجهــا • فاذا اتجهنــا جنــوبا الى « كوزومنوس » فاننا نجد أن هذه العادة تختفى تماما • أما عند الهنود « الكواكيوتليين » الذين يســكنون كولومبيا البريطانية ، فان الأرملة تجلس بلا حراك مدة أربعة أيام بعد موت زوجها وهى ترفع ركبتيها الى ذقنها • وبعد ذلك يتحتم عليها ألا تبرح المــكان نفسه مدة ستة عشر يوما ، وان كان يسمح لها فى أثناء تلك الفترة أن تمد رجليها دون أن تحرك يديها • وطوال هذه الفترة كلها لا يسمح لأحد أن يتحــدث معها ، لأنهم يعتقدون أنه اذا تجرأ أحد وقطع عليها صمتها ، فانــه يعاقب بموت أحد أقربائه • وهذه القيود بعينها يتحتم على الرجــل الأرمل أن يراعيها بدقة عند وفاة زوجته • وبالمثل يتحتم على الأرملة عند هنود بلاكولا الذين يسكنون المنطقة نفسها أن تصوم أربعة أيام بعد وفاة زوجها • وفى هذه الفترة لا يجوز لها أن تنطق ببنت شفة والا ظهر لها شبح زوجها ، وفقا لاعتقادهم ، وكتم أنفاســها حتى تموت • ولهذا السبب نفسه يلتزم الأرمل الصمت ويمتنع عن تنــاول الطعام بعد وفاة زوجته • والملاحظ هنا أن السبب الذى يعزى لامتناع كل من الأرملة والأرمل عن الكلام هو الخوف من جذب انتباه شبح الميت الخطير ، بل المؤذى بحق •

على أن عادة التزام الأرامل للصمت لايراعى اتباعها فى دقة بالغة فى أى مكان كما يراعى بين بعض القبائل البدائية التى تستوطن وسط استراليا وشمالها • فالأرملة عند قبيلتى « وادومان » ، و « موديبورا »، وهما قبيلتان تسكنان فى المناطق الشمالية عند نهر فيكتوريا ، لا تلتزم

وحدها الصمت طوال ثلاثة أسابيع أو أربعة بعد موت زوجها ، ولكن يشاركها ذلك أخوة المتوفى • وفى أثناء هذه الفترة توضع جثة الزوج على فروع شجرة بعد رص الفروع جنبا الى جنب ، وتظل الجثة على هذا النحو حتى يتحلل اللحم تماما ويبقى العظم • وبعد ذلك تلف العظام فى لحاء الشجرة ، وتحمل الى خيمة خاصة حيث يجلس حولها أفراد القبيلة ينتحبون • وبعد انتهاء إحتفالات الحداد تحمل العظام مرة أخرى الى الشجر وتترك هناك الى الأبد • وفى أثناء هذه الفترة التى تبدأ بالوفاة وتنتهى بوضع العظام عند الشجرة ، لايجوز لأحد أن يأكل نباتا طوطميا أو حيوانا طوطميا ينتسب اليه المتوفى • ولكن عندما توضع عظام الميت فى مقرها الأخير بين فروع الشجرة يخرج رجل كهل أو رجلان الى الأحراش ويبحث عن بعض النباتات أو الحيوانات الطوطمية التى ينتسب اليها المتوفى • فاذا كان الطوطم ثعلبا سريع العدو على سبيل المثال ، فان الرجل العجوز يمسك ببعض هذه الثعالب ويعود بها الى الخيمة • وهناك توقد النار وتوضع فوقها الثعالب لتطهى • وفى أثناء ذلك تذهب النساء اللاتى يلتزمن الصمت ، أعنى الزوجة الأرملة وزوجات اخوة المتوفى ، الى النار ويضعن رءوسهن وسط الدخان المتصاعد ويصحن « ياكاى • ياكاى »• ثم يضرب رجل عجوز رءوسهن بخفة ، ويرفع يده اليهن لكى يعضعضن اصبعا منها • فاذا أديت الشعائر على هذا النحو أصبحت النساء فى حل من تبعة الصمت ويسمح لهن بالكلام فى حرية اثر ذلك • أما الثعالب المشوية فيأكل منها أولا بعض اقرباء المتوفى من الذكور ثم يسمح لسائر الناس أن يأخذوا نصيبهم هذا من اللحم المشوى •

ومرة أخرى نجد عند قبيلة أرونتا التى تسكن وسط استراليا ، ان النساء الأرامل يلطخن شعورهن ووجوهن وصدورهن بالجص ، ويمكثن صامتات لمدة محددة حتى ينتهى الاحتفال باقامة الشعائر ، ثم يسمح لهن بعد ذلك بالكلام • وتجرى هذه الشعائر عند هذه القبيلة على النحو التالى : اذا شاءت الأرملة أن تبعد عنها دواعى الصمت ، فانها تجمع بعض الحبوب الصالحة للأكل أو بعض الدرنات فى وعاء

خشبى كبير ثم تلطخ نفسها بالجص عند خيمة النساء حيث تقيم هناك منذ وفاة زوجها • ثم تحمل الوغاء الخشبى وتسير فى صحبة بعض النسوة حتى تصل الى وسط الخيمة العامة التى تقع بين الحيين اللذين يسكنهما شطرا القبيلة وهناك تجلس النساء وتولولن بصوت مرتفع • وعند ذاك يأتى أقرباء المتوفى من الرجال ، سواء هؤلاء الذين ينتسبون اليه بطريق مباشر مثل الأبناء والأخوة الذين يصغرونه ، أم هؤلاء الذين ينتسبون اليه بأى نوع من القرابة ، ليشاركوا فى هذا الاحتفال • فيتسلم هؤلاء وعاء الحبوب أو الدرنات من يدى الأرملة ، ويضع أكبر عدد منهم أيديهم فوقه ويصرخون • « واه • واه • واه • »• وعند ذلك تكف النساء جميعا عن العويل كما يسكت الرجال الذين يشاركوهن هذا العويل فيما عدا أرملة المتوفى • وبعد وقت قصير يحمل الرجال الوعاء المملوء بالحبوب أو الدرنات أمام وجه المرأة ، ويمررونه أمام خديها دون أن يمس وجهها ، من الجانب الأيمن الى الجانب الأيسر ، بينما يصرخ الجميع : « واه • واه • واه • » • وعند ذلك تكف الأرملة عن العويل الذى شاركها فيه الرجال فى صوت ذليل • وبعد بضع دقائق يحمل وعاء الحبوب أو الدرنات الى مؤخرة الرجال الذين يجلسون فى اثناء ذلك القرفصاء على الأرض ، وكل يحمل درعه بين يديه ويضرب به الأرض أمام النساء الواقفات • ثم يتفرق الرجال اثر ذلك الى خيامهم ويأكلون الطعام الذى جمعته أرملة المتوفى فى الوعاء • وعند ذلك تكون الأرملة فى حل من الصمت وان استمرت تلطخ جسمها بالجص •

وقد فسر « سبنسر » و « جيلين » مغزى هذه الشعائر الغريبة التى تحل لأرملة المتوفى الكلام بعد فترة الصمت المحددة فقالا : « ان مغزى هذه الشعائر التى يرمز اليها بجمع الأرملة للدرنات أو حبوب الحشائش ، وهو أن الأرملة قد أوشكت على ان تستأنف حياة المرأة العادية ، تلك الحياة التى ظلت معلقة طوال فترة بقائها فى الخيمة ؛ اى فى اثناء ما يمكن أن نسميه بفترة الحزن العميق • وهذا الرمز

يقترب فى الحقيقة كل الاقتراب من رمز الورقة ذات الأطراف السوداء التى تعبر بها الشعوب المتحضرة عن حزنها ، فيما عدا أن الرمز الثانى قد عبر بطريقة ظاهرية واضحة عما تعبر به هذه الشعوب بطريقة متنكرة خفية • وأما تقديم الأرملة لوعاء الحبوب لأولاد المتوفى وأخوته فهو أشارة الى انها قد قضت فترة الحداد الأولى كما ينبغى أن تقضى ، كما أنها تهدف من ذلك كذلك الى كسب رضائهم ، وبخاصة اخوة المتوفى الأصغر منه سنا ، هؤلاء الذين يظلون مستائين لبعض الوقت من المرأة التى تعيش بعد وفاة زوجها ، وفقا لاعتقاد هؤلاء الناس • والحق أن اخ المتوفى الأصغر له الحق أن يصيب زوجة أخيه بالسهام . اذا قابلها وهى تقوم بعد وفاة زوجها بفترة قصيرة ببعض الأعمال النسائية العادية ، مثل البحث عن جذور اليام • والسبب الوحيد الذى يقدمه الأهالى لتفسير هذا الشعور العدائى ، هو أنه يحزنهم كل الحزن أن يقع بصرهم على أرملة الفقيد بعد موت زوجها بزمن قصير ، لأنها حينئذ تذكرهم بفقيدتهم • على أن هذا السبب لا يمكن أن يكون السبب الوحيد لهذا الشعور العدائى ، حيث أننا نجد أنه لايجوز لاخوة المتوفى الكبار الآخرين أن يفعلوا فعل الأخ الأصغر • ومن المحتمل كل الاحتمال أن القبيلة ، وهى ان تصبح الأرملة عند نهاية فترة الحداد ، زوجة لأحد اخوة المتوفى الذين يصغرونه • وهؤلاء هم الذين ينبغى عليها أن تتجنب رؤيتهم أثر موت زوجها فى حذر بالغ •

ومرة أخرى نجد بين قبيلتى « أونماتجيرا » و « كايتش » اللتين تسكنان وسط استراليا ، أن الأرملة يحرق شعرها بأكمله ، بأن تمرر عصاه مشتعلة بالقرب منه • كما أنها تغطى جسمها برماد من النار التى توقد فى الخيمة • وهى تعيد تغطية جسمها بالرماد عدة مرات طوال فترة الحداد • فان لم تفعل هذا ، يعتقد أن روح الميت الذى يقتفى أثرها على الدوام يقتلها وينهش لحمها • وفضلا عن ذلك فانه يحق لأصغر أخوة الزوج أن يجلدها بقسوة ، بل يقتلها ، اذا حدث

ان قابلها فى أثناء فترة حدادها العميق وهى مجـــردة من دلائل الحزن.
ومن واجب الأرملة كذلك أن تلتزم الصـــمت الذى يدوم فى العـــادة عدة شهور بعد موت زوجها حتى يخلصها منه أصغر اخوته • واذا حان هـــذا الوقت فانها تحمل لهذا الأخ الأصغر كمية وافرة من الطعام ، فيأخذ قدرا منه فى يده ويلمس به فمها ، مشيرا بذلك الى أنهـــا قـــد تحررت من الصمت ، ويجوز لها أن تقوم بأعمالها النسائية اليومية •

وما تزال تبعة الصمت التى تفرض على النساء الأرامل بعد موت زواجهن فى قبيلة « وارا مونجا » التى تقطن وســـط استراليا أكثر غرابة وأكثر مدعاة للتساؤل • وتتمثل تلك الغرابة فى أن تبعة الصمت لا تقتصر على الأرملة وحدها التى تلتزم الصمت طوال فترة الحداد التى قد تستغرق عاما ، وانما يشاركها فى ذلك والدة الزوج واخواته وبناته ، وأمها أو أمهاتهن ، وأن كن أكثر من زوجة • وأكثر من هـــذا فانه يشارك هؤلاء الصمت عدد كبير من النساء اللاتى يعدهن الأهالى من قريبات المتوفى خلافا لـــا نفعل • ومن ثم فانـــه ليس من غـــير المـــألوف أن نجد العدد الأكبر من النســـاء يمتنعـــن عن الكـــلام فى خيامهن • وحتى بعد انتهاء فترة الحداد ، فان بعض النساء تفضلن السكوت واستخدام لغة الاشارة التى أتقنها نتيجة المران • وليس من النادر أن يسود الصمت التام بين مجموعة من النساء فى الخيام ، ويدور فى الوقت نفسه حوار صامت تستخدم فيه الأصابع أو بالأحرى الأيدى والأذرع وكثير من الاشارات التى تتم عن طريق وضـــــع الأيدى أو الأكواع فى أوضاع مختلفة • وقد كان هناك فى مقاطعـــة « كريك » منذ بضعة سنين امرأة عجوز ظلت ممتنعة عن الكـــلام وعن فتح فمها الا عندما تأكل أو تشرب ، وظلت على هذا النحو طيلة عشرين عاما ، حتى دفنت فى لحدها • فاذا رغبت الأرملة الوارامونجية فى أن تسترد حريتها فى الكلام بعد فترة صمت تطول أو تقصر ، فانها تلجأ الى ابنائها الحقيقيين ومن هم بمثابة ابنائها من أفراد القبيلة ، وتقدم لهم منحة من الطعام كما هو المـــألوف فى هذه الحالات • وتؤدى هذه

الشعيرة على نحو بسيط للغاية ، فالأرملة تحضر الطعام الذى يتألف عادة من كعكة كبيرة مصنوعة من بذور الحشائش ، ثم تعض اصبع كل رجل يخلصها من قيد الصمت ، وبعد ذلك تتكلم ماشاء لها الكلام . ويبقى بعد ذلك أن نضيف أن الأرملة فى قبيلة « وارامونجا » تحلق شعرها وتجرح رأسها من الوسط فى هيئة شق طولى ، وتمرر عصاة مشتعلة فى هذا الجرح . ومن الطبيعى أن يكون هذا الجرح فى بعض الأحيان خطيرا للغاية .

ولا يسمح للمرأة عند قبيلة « ديرى » التى تسكن وسط استراليا بالكلام ، حتى يجف الجص الذى تطلو به جسدها ، علامة على الحزن ، ويتساقط من تلقاء نفسه . وفى أثناء هذه الفترة التى قد تدوم أشهرا ، لا يجوز لها أن تتحدث مع غيرها الا عن طريق الاشارة .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : لماذا تلتزم الأرملة الصمت مدة تطول أو تقصر بعد وفاة زوجها ؟ ان السبب فى اتباع هذه العادة فيما يبدو ، هو الخوف من جذب نظر شبح زوجها الخطير . وهذا السبب يعزوه هنود « بلاكولا » فى وضوح لاتباع هذه العادة كما تفسر به قبيلتا « أونماتجيرا » و « كايتش » عادة طلاء الأرملة جسدها بالرماد . فالهدف الأساسى من وراء اتباع هذه العادة هو فيما يبدو ، اما الرغبة فى تضليل الشبح أو مضايقته وطرده . فالأرملة تروغ منه عندما تظل صامتة كما أنها تضايقه وتجعله ينفر منها عندما تتجرد من زينتها وتحلق شعرها أو تحرقه ، وعندما تغطى جسمها بالجص أو الرماد . وهذا التفسير تؤكده بعض العادات الاسترالية الخاصة .

فنحن نلاحظ بادىء الأمر أن الأرملة تلتزم الصمت عند قبيلتى « وادومان » ، و « مودبورا » ، طالما ظل لحم زوجها الراحل يكسو عظامه . ولكن بمجرد أن يتحلل لحم الجسد ويتعرى العظم ، تتحرر أرملة الفقيد من الصمت . وهنا تتضح الفكرة العامة فى أن شبح الميت يسكن بقايا جسده العفن ، طالما كانت هناك بقايا من اللحم فوق

عظامه • فاذا بلى اللحم كلية ، فانه يرحل الى عالم الأرواح الذى يقع قريبا أو بعيدا من العالم الأرضى • وحيثما ينتشر هذا الاعتقاد ، فانه من الطبيعى تماما ان تلتزم المرأة الصمت طالما كان جسد زوجها فى مرحلة التحلل ، اذ من المحتمل فى هذه الفترة ، وفقا لاعتقادهم ، أن تسكن الروح الأماكن المجاورة وأن يكون معرضا فى أية لحظة لأن يجتذبه صوت زوجته المألوف لديه •

ثم اننا نلاحظ من ناحية أخرى أن علاقة الأرملة بأحد اخوة الزوج الراحل الأصغرين ، عند قبائل « زرونتا » و « أونماتجيرا » ، تؤيد الغرض فى أن الدافع وراء القيود التى تفرض عليها هو الخوف من شبح الميت • اذ يبدو أن أحد اخوة الزوج الراحل الذين يصغرونه ، يقوم بدور الرقيب على أرملة أخيه فى أثناء فترة حدادها ، فهو يرى ما اذا كانت تراعى التقاليد التى تتبع فى مثل هذه الظروف ، ومن حقه ان يعاقبها بقسوة ، وله أن يقتلها ان هى تحللت من هذه التقاليد • كما أننا نلاحظ أن أحد اخوة الزوج الراحل الذين يصغرونه هو الذى يحرر أرملة اخيه نهائيا من الصمت ، عند قبيلتى « أوتماجيرا » و « كايتش » ، أى أنه هو الذى يعيدها الى مجرى الحياة العادية • وهذه العلاقة الخاصة التى تربط الأرملة بأصغر اخوة اخيها الراحل ، تتضح كل الوضوح عندما نعلم أن الأرملة تصبح زوجة هذا الأخ بعد انتهاء فترة الحداد ، كما يحدث ذلك عندما تكون العادة المتبعة أن تتزوج الأرملة احد اخوة زوجها الراحل الذين يصغرونه • وهذه العادة تتبع بحق عند القبائل الثلاث وهى « ارونتا » و « اونماتجيرا » ، و « كايتش » التى تلتزم فيها الأرملة الصمت بعد وفاة زوجها ، وتقف من اخوته الأصغرين موقفا خاصا • فالعادة المتبعة عند قبيلة « أرونتا » أن الأرملة تصبح عند نهاية فترة الحداد زوجة لأحد اخوة الزوج الراحل الذين يصغرونه • أما فيما يختص بقبيلتى « أونماتجيرا » « كايتش » ، فقد قيل « ان من أهم خصائص عادات الزواج عندهما أن تتزوج الأرملة بأحد الاخوة الأصغرين لا بأكبرهم » • وهذا يحدث كذلك عند قبيلة « ديرى » التى تفرض الصمت على الأرملة فى أثناء

فترة الحداد ، وبعد ذلك تتزوج بأحد الاخوة الأصغرين لزوجها الراحل الذى يناديه أبناؤه بلقب الأب • أما عند القبائل البدائية الأخرى التى تعتقد أن شبح الزوج الراحل يسكن زوجته ويضايقها بترقباته غير المرغوب فيها ، فانه من الطبيعى أن تعتقد هذه القبائل أن زواج الأرملة مرة أخرى يعرض الزوج الجديد للخطر من جراء غيرة الزوج الراحل منه ، عندما يجد أن زوجته تعيش فى كنفه • وقد سبق أن أشرت فى مكان آخر الى هذا الأخطار المتخيلة التى تحدث عند زواج الأرملة مرة أخرى • وربما ساعدنا هذا على أن نفهم كيف أن الأخ عند القبائل الاسترالية التى أشرنا اليها يراقب بعين ساهر مسلك أرملة أخيه الأكبر الراحل • فالدافع فيما يبدو ليس هو الاحترام النزيه لشرف أخيه الراحل ، بقدر ما هو اعتبار شخصى يخص سلامته ، وذلك اذا خاطر وتزوج بأرملة أخيه قبل أن تتخلص كلية من شبح زوجها الراحل عن طريق اتباعها لكل التقاليد التى تفرض عليها لهذا الغرض ومن بينها التزام الصمت ••

ومن ثم فان تشابه العادات المنتشرة انتشارا واسعا بين الشعوب المختلفة يدعم فرضنا ، وهو أن الأرملة عند العبريين القدماء كانت فى مرحلة مبكرة من تاريخهم تلتزم الصمت لفترة بعد وفاة زوجها بقصد الانفلات من شبح الزوج • وربما كان كذلك على أحد اخوة الزوج الراحل الأصغرين بعد ذلك ، ان يراقب اتباع زوجة أخيه لهذه الشعائر بدقة ، لأنه ربما كان مرشحا للزواج منها بعد انتهاء فترة حدادها ، وفقا لعادة زواج الأرملة من أحد اخوة الزوج المتوفى الأصغرين • على انه ينبغى علينا ان نلاحظ بعيدا عن هذه الدراسة المقارنة لتلك العادة ، أن الشاهد المباشر على عادة الصمت التى كانت تفرض على الأرامل عند العبريين القدماء ، ليس أكثر من كونه تحليلا لغويا لأصل كلمة الأرملة العبرية ، وهو تحليل قد تكتنفه الشكوك • وحيث أن الاستدلالات التى تبدأ من تحليل أصول الكلمات وتنتهى الى افتراض عادة من العادات ، غير مؤكدة كل التأكيد ، فانني لا أستطيع أن أدعى لفرضى هذا أى قدر بعيد من الاحتمال •

الفصل العاشر

إيليا (١) والغربان

لم يرد هذا الفصل فى النسخة المختصرة التى قمنا بترجمتها . وقد ترجمته عن الطبعة الأصلية واضفت الى هذا الباب ، نظرا لأن موضوع الغراب يعد من الموضوعات الشائعة فى التراث الشعبى . وقد سبق ذكره فى أكثر من موضع فى فصل الطوفان الكبير .

ان أول رسالة أوحى بها الرب الى النبى ايليا ، وفقا لأقوال المؤرخين العبريين ، هى تلك التى أمره فيها أن يذهب الى « آخاب » ملك بنى اسرائيل ويخبره أن أرضه لن ترى الندى أو المطر لعدة سنوات . وحيث أن النبى قد قام بتبليغ رسالة الرب ، فان الرب لم يتركه يهلك فى هذا الجدب ، فلقد أوحى اليه الرب قائلا : « انطلق من هنا واتجه نحو المشرق وأختبىء عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن ، فتشرب من النهر . وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك . فانطلق وعمل حسب كلام الرب وذهب وأقام عند نهر كريث الذى هو مقابل الأردن . وكانت الغربان تأتى اليه بخبز ولحم صباحا ، وبخبز ولحم مساء . وكان يشرب من النهر ، وكان بعد مدة من الزمان أن النهر يبس لأنه لم يكن مطر فى الأرض » (٢) .

وعادة ما يرتبط نهر كريث فى الروايات الشعبية بوادى الصلت الذى ينحدر شرقا من أرض الميعاد المرتفعة ، وينفتح على سهل الأردن

---

(١) هو الذى يسميه العرب النبى الياس .
(٢) سفر الملوك الأولى ١٧ : من ١ — ٧ .

غير بعيد من أريحا . وسواء أكان هذا الربط بين النهر والوادى من قبل المؤرخين صحيحا أم غـير صحيح ، فليس هناك شك فى أن هذا المنظر الطبيعى ملائم للأسطورة كل الملاءمة . فهذه الوهدة تعد أكثر الوهاد قفرا وأكثرها سحرا فى فلسطين . وهى عبـارة عن أخدود كبير بين الجبال وتحيط به نتوءات الجبال العابسة . وهذا الأخدود ضيق للغاية الى درجة أن عرضه لا يكاد يبلغ عشرين ذراعا فى أسفله . وفيه يشق النهر مجراه وسط أجمة من الخيزران والأسل والدفل . وبذلك يقابل هذا الشريط الأخضر جوانب الصخور الجرداء التى تحيط به من كل جانب . وربما ذكرت المسـافر هذه الوهـدة بعمقهـا وضيقها ، بالأخدود الشهير الذى ينشق بين الصخور الحمراء فى أرض البتراء (سلع) . وهناك فى بعض أماكن هذا الطريق الذى يقود الى أورشليم حتى وادى نهر الاردن ، يتجلى للرائى منظر رائع لتلك الوهدة ، فبعد أن يسير المسافر بضع ساعات فى هذا المكان المنعزل الذى يتميز به ذلك الانحدار بين التلال الجيرية ذات الأخاديد الجارفة ، يشعر بالانتعاش لمرأى هذا الشريط الأخضر ، ولصوت خرير المياه الذى يصعد اليه من أعماق هذه الوهـدة العميقة ، حتى فى ليـالى الخـريف التى تعقب الصيف القائظ الجاف . فاذا نظر الى أسفل هذا الجرف الذى يصيب الانسان بدوران ، فربما وقع بصره على الغربان والنسور والصقور الضخمة ذات الشكل الأسطورى وهى تطير مندفعة الى أسفل .

وربما لجأ ايليا الى هذا المكان الأعزل الموحش الذى قلما تسقط فيه الأمطار على مدار السنة ، الى أن تنقضى سـنوات القحط التى أوحى بها الرب اليه ، وأخبر بها الناس بدوره . وربما لم يخـالط ايليا أحدا فى هذا المـكان سوى الوحوش والطيور البرية .

على أن هذه الوهدة وسكانها لم يتغيرا من ذلك الحين حتى عصرنا هذا ، اللهم الا القليل . فما زالت الوعول تسكن صخورها ، وما زال طائر القاوند يرفرف بأجنحته فوق مياهها العميقة ، وما زال الحمـام البرى يعشعش فى شقوق الصخور ، وما زالت الطيور السوداء تنتشر

فوقه أجنحتها ذات البريق الذهبى عندما تتلألأ فى أشعة الشمس • وإذا كان النبى ايليا هو أول من لاذ بتلك الوهدة البرية العميقة هروبا من الحياة ، فهو لم يكن آخر ناسك لجــأ اليها ، فهناك وهنــاك يبصر الرائى فى أماكن قد يصعب على المســافر الوصول اليها ، نقوشا على الصخور ، حيث كان النساك المتعبدون يتخذون مسكنهم ، ثم اصبحت بعد ذلك حتى اليوم مسكنا للغربان والصقور والنسور •

وينفتح الأخدود الكبير فجأة على سهل الأردن عن طريق بوابــة طبيعية هى عبارة عن ذورة ذات شكل مخروطى من الحجر الجــيرى تقع على كلا الجانبين • وهنا يقود الطريق المسافر من أورشليم فجأة الى أحد المناظر الرائعة فى فلسطين • إذ يأخذ الطريق فى هذا المكان فى الانحدار المفاجىء الى أسفل مهبطه عند السهل • وعند ذلك يقع بصر المسافر على غابة مخضرة تتغذى أشجارها بالمياه الجارية التى تتدفق فى الوهدة ، وبمياه الينابيع الوافرة التى تتدفق من الصخرة الجيرية التى تقع فى الشمال على بعد • وتشغل هذه الغابة الدائمة الاخضرار التى تعــد مأوى لعدد لا حصر له من البلابل والطيور ذات الريش الجميل الذى يتألق فى الشمس بألوانه الخضراء والارجوانية والزرقاء ، مثل طائر القاوند الهندى ذى الريش الارق وطائر التمرة الجميل ، تشغل جانبا من أريحا مدينة النخل • ويمتد خلف المدينة سهل منعزل ممتد يقطعه على البعد صف من الأشجار التى تشــير الى مجرى نهر الأردن وفيما بعد ذلك تشمخ منحدرات مواءب التى تكسوها الغابات بسلسلة جبالها التى تعلو فى حدة وسط السماء الصافية • أما فى الشمال فيمكن رؤية جبل كورانتا الذى يشتهر بغوايته فى الروايات الشعبية • وهــو عبارة عن تل ذى شكل مخروطى يعلو شرفات الصخور ويتوجه حطام كنيســة • وتمتد فى الجوانب مياه بحر الميت الهادئة التى تحيط بهــا الجبال المنعزلة من كل جانب • فاذا كان النبى ايليا قد ترك صومعته فى الوهــدة ، واتجه الى أورشليم ، فلابد أنه قد أبصر أمامه هــذا المنظر بعد أن يكون قد اجتاز الممر الملتف العميق ، واستراح هنيهــة

ليلقى نظرة على الطبيعة من خلفه • ثم استأنف سيره بعـــد ذلك متجها الى أعلى حيث تقع المدينة •

وربما أوحى لكاتب حكاية اطعام الغربان لايليا ، وجود هذه الطيور بكثرة فى وادى الصلت ، لأن الغربان ، كما رأينا ، ماتزال تبنى أعشاشها فى هذا الأخدود ، ويمكن رؤيتها من أعلى وهى تحلق فى أجوائه • حقـــا ان الغربان تلفت نظر المسافر فى أنحاء هذه المنطقة المنعـــزلة التى تمتد من أورشليم حتى البحر الميت • وقد قال « كانون تريستram» فى هذا الصـــدد : « ان مجموعات الغربان أكثر مجموعات الطيـــور غرابة فى هذا المكان ، وأكثر ما يميزه ، وأن يكن الصـــنف الصـــغير منها يفوق فى عدده الصنف الكبير • فهى قريبة فى كل مكان للعـــين والأذن ، كما أن رائحتها التى تفوح من حولها ، تذكر المسافر بتأثير وجودها فى هذا المـــكان • أما الصخب الذى تحدثه بنعيبها عندما تجلس حول المعبـــد ـــ فيصم الآذان • فنعيب غراب القيلولة وثرثرة الغربان العادية تتحد معا فيغمر النعيب الأجش للغربان المسنة • على أن ألحان مئات من أنواع الغربان الصغيرة تعلو هذا الضجيج كله • ولقد تعودنا أن نرى هذا الجيش كل صباح عند الشفق ، عندما يمر فى صـــفوف طويلة فوق خيامنا متجها الى الشمال • وتقود غربان القيلولة الطريق على هيئة كتيبة واحدة متماسكة ، وخلفها على بعد منها ، تطير الغربان العادية فى شكل متفرق • وقبل أن تهجع هذه الغربان فى مرقدها ، تعقد اجتماعا صاخبا للغاية فوق أشجار جبل الزيتون وجبل قدرون • ولا يسكن هذا الصخب الا بعد غروب الشمس • وعند ذاك تختلط الغربان جميعا فى غير تمييز وتأوى الى مهجعها فى المكان المقدس • « بل ان ان هذه الأنواع الثلاثة من الغربان تعيش فى الطرف الجنوبى من البحر الميت حيث تشرف قلعة ماسادا القديمة على برية من التلال الملحية القفرة الموحشة • ولقد كان بصرنا يقع على الدوام فى أثناء تجوالنا أسفل جبل سدوم الملحى ، على مجموعات من الغربان الكبيرة وهى تقبع على الصخور الملحية • ولايعرف فى الحقيقة سبب لتجمعها فى هذا

المكان ، اللهم الا اذا كانت ترغب في العزلة • وقد حدث ذات مرة ان أبصرنا وقت الغروب عند الجانب الشرقي من البحر الميت بجوار مكان كان لزمن قريب ساحة للقتال ، سربا من الطيور آكلة الجيفة التي اشتمت رائحة المعركة من بعيد فتدفقت الى هذه المكان من جهة الجنوب • فحيثما وجدت أجساد الموتى ، تدفقت النسور وكذلك الغربان والصقور والحدأ وغربان شمال البلاد العربية في شكل باقات » •

على أن الغربان قد قدمت للنبي ايليا في البرية خدمة غير مألوفة ، ذلك لأن الناس كثيرا ما كانوا ينظرون اليها بوصفها مصدرا للتكهن ، بل انهم كانوا يعتقدون أنها تمتلك قدرة على التنبؤ • فالاغريق كانوا يقدسون هذه الطائر ، ويربطون بينه وبين أبوالو اله النبوءة • كما كان العرافون الاغريق يستمدون النبوءة من نعيبه • وفضلا عن ذلك فان من كان يرغب في اكتساب قوة الوهية ، كان يأكل قلب الغراب ، معتقدا بذلك أن قلبه يحتوى على مقدرة على النبوءة • كما كان الرومانيون يعتقدون أن الغراب يستدعي سقوط الأمطار وهو يمشي متبخترا ذهابا وأيابا على الرمال • وما زال الناس في بعض جهات أوربا يعدون نعيب الغراب نذيرا بالموت • ويتصور الهنود الليلوويون الذين يسكنون كولومبيا البريطانية ، أن من يحرس الغراب روحه يكون ممتلكا لمنحة القدرة على التنبؤ ، فيستطيع بصفة خاصة أن يتنبأ بالموت وأحوال الجو • فالغراب يعد بحق في الأساطير التي تدور على الألسن بين القبائل الهندية التي تسكن غرب آمريكا ، أحد شخوصها الرئيسية •

ويرجع السبب في خلع هذه الفتنة السحرية وهذه القدسية على الغراب الى سلوك هذا الطائر الأفحم الذى يتسم بالحكمة والرزانة • فالغراب وفقا لكاتب مرموق « هو أكثر الطيور تطورا فيما يبدو • فلابد أنه كان يتبع الصياد والقناص فيما قبل التاريخ بحدة بصره وذكائه وشجاعته ، لكى يفترس نفاياتهما دون أن يتحرش بهما ، تماما

كما نجده فى عصرنا الحاضر يتعقب تحركات هؤلاء الناس لهذا الغرض نفسه • كما أنه كان يلازم رعاة العصــور الأولى الذين لم يكــونوا ينظرون اليه بغير اكتراث ، حيث أنه كان يشتهر بما يشتهر به الآن من رغبة فى اقتناص الحيوان الضعيف وقتله • ومع ذلك فان الغراب لا يعتمد فى حياته على الانسان ، حيث أنه يعيش حياته مستقلا عنه • وفضــــلا عن ذلك فان كثيرا من الشــعوب منذ العصور القديمة كانت تحس ازاء هذا الطائر احساسا يشوبه التقديس أو الخــرافة • وقد كــان هذا الاحساس قويا الى درجة أنه كــان يطغى على الاحساس بعــدم الثقة ، ولا نقول الكره ، ازاء هــذا الطائر • بل ان هــذا الاحساس ظل ينتشر حتى أصــبح يعيش فى بعض الأماكن حتــى يومنا هذا •

ويحكى « بلينى » حكاية توضح بطريقة لافتة كيف كان الرومانيون ينظرون الى الغــراب نظرة تقــديس ، عنــدما كانت روما فى أوج عظمتها • فقد حدث فى عهد الملك تيبيريوس أن غرابين ابتنيا عشهما على سطح معبد « كاستور وبواوكس » • وبعد مدة طار أحد هذين الغرابين ، ومشى مختالا فى حانوت حذاء واتخذ فيه مسكنا له • ولم يجرؤ الحذاء على مضايقة الغراب حيث أنه كان ينظر اليه نظرة ملؤها الورع الدينى ، اما لشخصــه فى حد ذاته ، أو لصلته بالمكان المقدس الذى كان يسكنه • وقد تعود هذا الغراب أن يطير من الحانوت كل صباح ويقف على المنبر الذى يقع فى الساحة العامة ، ويحيى المــارة السائرين الى أعمالهم بطريقة دمثة ، ثم يقوم بتحية الامبراطــور ولديه « دروزوس » « وجرمانيكوس » بصــوت مميز ذاكرا أسماءهم جميعا ، ثم يعود الى الحانوت بعد قيامه بواجب الكياســة على هذا النحو • وقد تعود الغراب أن يفعل هذا الأمر طيلة سنين عدة حتى تمكن حذاء آخر كان يجاور الحــذاء الأول من قتل الغراب • وقــد تصور الناس أن الحذاء قام بقتل الغراب اما حقدا على جاره الحذاء الذى كثر رزقه بسبب هذا الغراب ، أو لأن الغراب نفسه أتلف له

أحذيته ، فقتله فى ثورة غضبه • ومهما كان الدافع ، فقد كان هـذا اليوم يوم شؤم فى حياة هذا الحذاء • ذلك أن الناس ذعروا لمـوت صديقهم القديم وهبوا فى ثورة غضبهم ، وطردوا الحذاء الجاحـد من حانوته ، ولم يقر قرارهم حتى سفكوا دم هذا الكافر • أما الغراب المتوفى ، فقد احتفل بجنازته احتفالا شعبيا حضره آلاف المواطنين • وقد حمل نعش الفقيـد على أكتاف اثنين من الأثيوبيين اللذين يشبهان الغراب فى سوادهما ، كما تصدر الجنازة عازف على العود وصـار يعزف بألحانه الرهيبة ، بينما حملت أكاليل الزهر من كل صنف معبرة عن مدى تقدير الشـعب وحزنه على هذا الفقيد • وبهذه الطريقـة المؤثرة سارت الجنازة الى القبر الذى شيد له على بعد ميلين من طريق « آبايان » • ويعلق المؤرخ على هذه الجنازة فيقول ، انها كانت جنازة لم يحتفل بها لأمير من قبل ، وان انتقام الناس من قاتل الغراب كـان أبشع من انتقام « سكبيون الافريقى » •

ومن الخصائص التى خلعت على الغراب مزيدا من التقـديس من وجهة نظر الشعوب ، مقدرته على تقليد صوت الانسان • ولم يؤكد هذه المقدرة « بلينى » وحده وانما حكى عنها كذلك الكتاب المحدثون • « فجولد سميث » يؤكد : « أن الغراب يستطيع أن يفعل ما يعجـز طير من الطيور الأخرى عن فعله معا • ففى وسـع الانسان أن يدربه على الصيد كما يدرب الباز ، وفى وسعه أن يدربه على أن يقتفى أثر الصيد وأن يحضره الى القناص كما يفعل كلب الصيد ، وفى وسـع الانسان أن يدربه على الكلام كما يـدرب الببغاء • ولكن ربما كان أغرب ما فى ذلك كله أن يدرب الغراب على الغناء فيغنى كمـا يغنى الانسان ، ولقد رأيت غرابا يغنى « بلاك جوك » بوضوح وصدق وروح مرحة » • وكذلك كتب « ياريل » فى كتابه « تاريخ الطيور الانجليزية » فقال : « ان الطيور الانجليزية التى تمتلك مقدرة على تقليد صوت الانسـان هى الغراب والعقعق وأبو زريق والزرزور • وقد روى عن مقدرة الغراب على تقليد صوت الانسان كثيرا من الحكايات • وربما

كانت الحكايتان التاليتان تعتمد فى روايتهما على الثقات الذين لا يشك فى صدقهم ، أقل انتشارا من غيرها من سائر الحكايات • فقد دربت الغربان على النطق بجمل قصيرة بوضوح كما يصنع مع الببغاوات • ومن بين هذه الأغربة غراب يمتلكه السيد « هنسلو » ، أحد أتباع القديس البان • فهذا الغراب يتحدث بوضوح الى درجة أننا عندما سمعناه لأول مرة خيل الينا أن هذا الكلام يصدر عن انسان • وهناك غراب آخر يسكن فى « كاثام » • وقد أبدى هذا الغراب مهارة فائقة فى هذا الأمر • ولما كان هذا الغراب يسكن بالقرب من بيت الحراس ، فكثيرا ما نادى على الحراس الذين حسبوه شخصا يستدعيهم للقيام بواجب الخفر » ••

ومن المحتمل كذلك أن عادة الغراب فى أكل أجسام الموتى قد ساعد على نظرة الناس اليه فى خوف ورهبة • فمن المألوف أن البدائيين كانوا يعتقدون أنه فى وسعهم أن يكتسبوا صفات الميت عن طريق أكل جزء من جسده • وربما تصوروا على هذا النحو أن الطيور المفترسة التى تعيش على أكل الرمم ، تمتلك لهذا السبب صفة الحكمة وغير ذلك من الصفات التى كان يتصف بها الشخص المتوفى • وعلى هذا النحو يرجع تقديس كثير من القبائل التى تسكن افريقيا الشرقية للضبع : الى هذه العادة الى حد كبير ، وذلك نتيجة التهام الضباع لأجساد موتاهم • فقبيلة « ناندى » التى يأكل أفرادها جزءا من جسد الميت ، وفقا لعاداتهم ، بقصد اكتساب خصائصه ، يقدسون الضباع لهذا السبب ، ويعتقدون أنها تتحدث على نحو ما يتحدث الانسان ، وأنها على اتصال بأرواح الموتى • فاذا توفى عدد كبير من الأطفال فى أسرة واحدة فان الأبوين يضعان المولود الجديد لبضع دقائق فى الطريق الذى تمر فيه الضباع ، آملين بذلك أن تتشفع الضباع للطفل لدى أرواح الموتى ، فتتركه يعيش • فاذا عاش هذا الطفل فانه يسمى باسم الضبع • وكذلك تنظر قبيلتا « باجيو » و « وانيا مويزو » ، وهما قبيلتان تسكنان فى افريقيا الشرقية ، الى الضباع التى ترمى اليها بأجساد الموتى لكى تلتهمها ، نظرة تقديس •

وكثيرا ما تعتقد هاتان القبيلتان أن عويل ضبع من الضباع فى المساء انما يشير الى صوت آخر شخص توفى فى الحى • ويقول « الوانيا — مويزيون » أنهم لا يستطيعون أن يقتلوا الضبع لأنهم لا يعرفون ما اذا كان هذا الكائن ينتسب الى أحد أقربائهم ، كأن يكون هذا الشخص الغريب خاله أو جده ، أو لا ينتسب لهم • وربما كان مرد هذا الاعتقاد الى أن أرواح الموتى الذين تلتهم الضباع أجسادهم، تحيا بداخلهم مرة أخرى • وبناء على هذا ، فربما كانت عادة تعريض جسد الميت لهذه الحيوانات ، بالاضافة الى الاعتقاد فى انتقال روح الانسان اليها ، كافيا لأن يهيء للناس أن يتصوروا وجود علاقة بين الناس والوحوش والطيور المفترسة مثل الضباع والنسور والصقور والغربان • وما زال السؤال جديرا بالبحث حول مدى انتشار عادات الحيوانات الضارية بحيث أنها يمكن أن تحيط الغراب بصفة خاصة ، بهالة من الاحترام بين عامة الشعوب •

الباب الرابع

القـــانون

الفصل الأول

مكانة القانون فى التاريخ اليهودى

ربما كان من الأفضل ، قبل أن نمضى فى فحص بعض القوانين اليهودية الخاصة ، أن نلقى نظرة سريعة على مكانة القانون بوصفه كلا فى تاريخ بنى اسرائيل ، وذلك فى حدود ما أكده الدارسون المحدثون من خلال أبحاثهم النقدية •

وربما كانت أهم نتيجة توصل اليها النقد التاريخى واللغوى للعهد القديم ، بل وأكثرها صحة ، هى البرهنة على أن سن التشريع فى أسفار موسى الخمسة فى الصورة التى هى عليه الآن ، لا يمكن أن يكون موسى قد أعلنها فى الصحراء وفى موآب قبل أن يدخل الاسرائيليون فلسطين ، وأنها لم تتخذ صيغتها النهائية الا بعد استيلاء « بختنصر » على أورشليم عام ٥٨٦ ق•م ، عندما حمل اليهود معه الى المنفى • أى أن الجانب القانونى فى الأسفار الخمسة ، باختصار ، لا يرجع تأليفه فى الصورة التى هو عليها الآن ، الى عصر مبكر فى تاريخ بنى اسرائيل ، وانما يرجع الى عصر متأخر • فهذا التشريع بصرف النظر عن أنه لم يعلن قبل أن تستولى الأمة اليهودية على أرض الميعاد ، كتب ونشر القليل منه فيما يبدو ، قرب نهاية استقلال هذه الأمة ، كما ألف الجزء الذى اصطلح النقاد على تسميته بالتشريع الكهنوتى لأول مرة فى الصورة التى هى عليه الآن ، إما فى فترة السبى البابلى أو بعده •

على أننا نرى أنه من الضرورى أن نميز بين عصر القوانين فى حد ذاتها ، والتواريخ التى خرجت فيها الى العالم فى شكل شريعة

مكتوبة • وقليل من التفكير كفيل بأن يقنعنا أن القوانين بصفة عامة لا تخرج إلى الوجود كاملة فى اللحظة التى تصاغ فيها ، كما خرجت أثينا من رأس زيوس • فالتشريع والتقنين شيئان مختلفان كل الاختلاف • أما التشريع فهو قانون ذو نفوذ لنظم سلوكية محددة لا تنتشر ولا تصبح ملزمة بوصفها قانونا قبل أن تعتمد السلطة العليا قرارها الملزم • بل ان القوانين الجديدة نادرا ما تكون ابتداعا جديدا كاملا ، بل لا يمكن أن تكون كذلك • وانما هى ترتكز دائما على وجه التقريب على أساس عادة قائمة ، بل وتقتضى وجودها ضمنا • كما أنها ترتكز على رأى شعبى يتلاءم فى كثير أو قليل مع القوانين الجديدة ، بحيث تكون العقول مهيأة فى هدوء لمدة طويلة لتقبلها • فلا يمكن لأكثر الحكام الدكتاتوريين استبدادا فى العالم أن يفرضوا على الشعب قانونا جديدا مطلقا يكون مخالفا بوجه عام لميولهم وتيار مزاجهم الطبيعى ، وثائرا على آرائهم وعاداتهم الموروثة ، ومستهزئا بأكثر ما يتعلقون به من مشاعر وآمال • بل انه كان دائما فى أكثر عصور التشريع ثوريه عنصرا محافظا يعمل على تقبل المجتمع لهذا التشريع وطاعته له • فالقانون الذى يستجيب الى حد ما مع ماضى الشعب ، هو وحده الذى يمتلك قوة من نوع ما للتكيف مع مستقبل هذا الشعب • أما أن يعاد بناء المجتمع من أساسه ، فهو مشروع وهمى • ويظل هذا المشروع غير ضار ، طالما كان محصورا فى نطاق أحلام الفلاسفة الطوباويين • ولكنه يكون خطيرا ، بل من المحتمل أن يكون هداما اذا خرج الى حيز التنفيذ سواء عن طريق الحكام الدكتاتوريين ، أو عن طريق الزعماء الذين يدلون على جهلهم منذ المحاولة الأولى بعناصر المشكلة الأساسية التى دفعوا بأنفسهم لحلها • فالمجتمع نمو وليس تكوينا ، وعلى الرغم من أنه من الممكن أن نحور هذا النمو وأن نشكله فى أشكال مختلفة ، تماما كما يستخرج البستانى بفنه أزهارا ذات شكل أكثر جمالا وأبهج لونا من الأزهار البسيطة التى تنمو فى الحقول وفى المروج وبين الأسوار الخضراء ، وعلى شاطىء النهر ، فانه فى وسعنا أن نشكل المجتمع من جديد فى حدود

ضيقة تماما ، كما يشـــكل البستانى زهرة الزنبق أو الوردة • ففى كل قانون كما هو الحال فى كل بنات ، عنصر قديم ، واذا استطعنا أن تقتفى أثر هذا العنصر حتى نصـــل الى منبعه الأصـــلى فان هـــذا سيقودنا الى الوراء ، الى أقدم مراحل الحياة الانسانية ، سواء كان هذا يختص بحالة بعينها أو بأصل الحياة فى العموم •

فاذا انتقلنا بعد ذلك من التشريع الى التقنين ، فإنه يتضح عند ذاك احتمال قدم القوانين المقننة كل الوضوح ، الى درجة أنه يبدو من نافلة القول أن نؤكد ذلك • واذا كانت أشهر المدونات القانونية فى العالم هى مدونة جستنيان التى عرفت باسم « ديجســـت » أو « بانديكتى » ، فهذه المدونة هى مجموعة اقتباسات من أعمال رجال القانون الرومانيين القدماء بنص أصحابها الذين ذكرت أسماؤهم بعد كل اقتباس على حده • ومعنى هذا أن المدونة الرومانية ليست مجموعة من القوانين الجديدة ، بل هى ببساطة تجميع جديد لقوانين قديمة كانت تعيش فى الامبراطورية لعدة قرون • أما أشهر القوانين الحديثة فهو القانون الفرنسى الذى أصدره نابليون • وعلى الرغم من أن هـــذا القانون قد حل محل المجموعة الهائلة من نظم التشريعات المنفصـــلة المحلية التى لوحظ أن المســـافر الفرنسى يغيرها كثيرا أكثر مما يغير أفراسه ، وعلى الرغم من أن هذا القانون كون ، بدون شـــك ، وحدة متكاملة من التشريع ، الا أنه على العكس يعد « وليد القانون الرومانى العرفى بالاضافة الى سنن الملوك وقوانين الثورة » • وحسبنا هـــذا المثال الذى يشير الى مجموعات القوانين الحديثة ، اذ أنه يعد من قبيل الاسهاب أن تقدم مزيدا من هذه الأمثلة •

ويبدو أن التشريع عند الأمم السامية كان يسير على هذا النحو • وأقدم قانون فى العالم وصلنا عن العصور القديمة هو قانون حمورابى، ملك بابل الذى حكم حوالى سنة ٢١٠٠ ق • م • على أنه ليس هناك ما يجعلنا نفترض أن التشريعات التى يتضمنها هذا القانون تعد خلقا جديدا كل الجدة للمشرع الملكى ، بل ان الاحتمال والشـــاهد كذلك

يؤيدان على العكس وجهة نظر أن الملك البابلى لم ينشىء بنية قوانينه الا على أساس من التقاليد والعادات البالغة فى القدم التى ورثهـا قومه عن الساميين القدماء الذين كانوا يعيشـون فى بابل من قبل ، وهم السوماريون ، أو هو على الأقل اعتمد فى تأليفها على جزء من هذه العادات والتقاليد • وقد كان هذا الشعب السـامى متعصـبا لتلك العادات والتقاليد وكان يعدها مقدسة كما قدسها الملوك وأجازها القضاة • وبالمثل فان النقاد الذين يرجعون مجموعة التشريعات التى تسمى بشريعة موسى ، الى العصور السابقة مباشرة على فقـدان الأمة اليهودية استقـلالها ، أو التاليـة لذلك بزمن ليس بالطويل ، يدركون تماما أن هذه الشريعة حتى فى صيغتها النهائية لم تسـجل التقاليد والعادات الشعائرية فحسب ، بل انها أكـدتها ، وهى تلك العادات والتقاليد التى يعد كثير منها ، بل أكثرها أهمية ، أقدم بدون شك من العصر الذى اتخذت فيه أسـفار مـوسى الخميس شـكلها النهائى ، أى فى القرن الخامس قبل الميلاد • ومما يؤكد ببساطـة هذه النتيجة التى تقرر القدم البالغ لعادات بنى اسرائيل الشعائرية الرئيسية مقارنة هذه العادات بعادات غيرهم من الشعوب • فمن شأن هذه المقارنة أن تكشف أن ما تتضمنه العادات العبرية من آثار بدائية ، بل همجية ، ليس بالقليل • ولا يمكن أن تكون هذه الآثار قد انطبعت فى الشريعة الموسويه عندما ظهرت فى صيغتها القانونية لأول مـرة ، بل لا بد أنها ارتبطت بها منذ عصـور قديمة ، ربما ترجع الى فجـر تاريخ الجنس البشرى • وسوف نشير الى بعض هذه الآثار فى خاتمة بحثنا • ومن الممكن للباحث بطبيعة الحال أن يضاعف هذه الآثار التى سوف نعددها ، فعادة الختـان وعادة اقامة بعض الشـعائر التى تختص بالاعتقاد فى نجاسة المرأة وكذلك عادة استخدام كبش الفداء ، كـل هذه العادات لها ما ينظرها فى عادات القبائل البدائية التى ما تـزال تعيش فى كثير من بقاع العالم •

وما ذكرته يعد كافيا لازالة الخطأ فيما يدعيه نقاد الكتاب المقدس ببسـاطة من وجود أصل متأخر لكل القوانين التى تتضمنها الشريعة

العبرية ، وذلك عندما أرجعوا الصيغة النهائية للقانون العبرى المقنن الى عصر متأخر • وربما كان الأفضل كذلك قبل أن نتعمق بحثنا حول الشريعة العبرية ، أن نصحح خطأ آخر من الممكن أن يبرز بين تلك الآراء النقدية • ذلك أنه لا يعنى بحال من الأحوال فقدان الدليل فى قليل أو كثير أن ما يسمى بالشريعة الموسوميه فى أسفار موسى الخمسة قد نشأت عن موسى ، ان واضع هذه الشريعة لم يكن سوى شخص أسطورى مصدره الخلق الشعبى والخيال الكهنوتى ، وأن هذه الشخصية قد اخترعت لتفسر أصل قوام الأمة اليهودية الدينى والدنيوى معا • فمثل هذا الاستدلال يخالف الحقيقة ، ومن شأنه أن يحدث نوعا من التحريف لا بالنسبة للدليل المدقق الذى ينصف حقيقة موسى التاريخية فحسب ، وانما بالنسبة لقوانين الاحتمال بوجه عام ، اذ نادرا ما تحدث الحركات الوطنية والدينية الكبيرة الا بدافع قوة عظماء الرجال ، أو أنها لا تحدث على الاطلاق الا بتأثيرهم • فالربط بين وجود بنى اسرائيل واليهودية وموسى ، يساوى تماما الربط بين أصل البوذية وبوذا ، كما أنه يساوى تماما الربط بين المسيحية والمسيح ، وبين الاسلام ومحمد • حقا ان هناك نزوعا فى بعض الاتجاهات فى عصرنا الحاضر لادعاء أن التاريخ قد صنعته دوافع جمعية عمياء لم تكن فى حاجة الى توجيه العقول غير العادية والهامها ، ولكن هذا الفرض الذى يترتب على الاعتقاد الخاطىء الضار فى المساواة الطبيعية بين الناس ، أو يدعم به ، يناقض ما تعلمناه من التاريخ بقدر ما يناقض التجارب الانسانية • فالجماعة الشعبية تحتاج الى قائد ، وبدون هذا القائد تنزع هذه الجماعة الى التخريب ، فى الوقت الذى لا تملك فيه سوى مقدرة ضئيلة على البناء ، وقد لا تمتلكها على الاطلاق • وبدون أفكار الرجال العظام وكلماتهم وأفعالهم وتأثيرهم فيمن حولهم ، ما كانت أمة عظيمة قد بنيت ، وما كان لأمة عظيمة أن تبنى • وقد كان موسى نموذجا للرجل العظيم ، وهو يعد بحق مؤسس أمة بنى اسرائيل • ولو أننا جردنا تاريخ حياته من الملامح المعجزة التى تتجمع دائما حول ذكرى الأبطال الشعبيين ، كما تتجمع الطحالب

والحشائش تجمعا طبيعيا حول الأحجار ، فاننا نجد أن ما روى عنه في التاريخ العبرى المبكر صحيح فى أصله فيما يبدو • فقد تمكن موسى من استجماع قوى الاسرائيليين ضد المصريين الذين اضطهدوهم ، وقادهم الى القفار حيث حياة الحرية ، وبذلك صنع منهم أمة ، وطبع نظمهم الدينية والدنيوية بطابع من عبقريته البارزة ثم مات ، بعد أن قادهم الى مواآب وهو على مرأى من أرض الميعاد التى لم تطأها قدمه •

ويميز النقاد فى مجموعة القوانين المعتقدة التى تكون الجزء الأكبر من أسفار موسى الخمسة ثلاث مجموعات أو تكوينات قانونية على الأقل • وهذه المجموعات الثلاث تختلف عن بعضها البعض فى تاريخها وطابعها • وهى تشتمل وفقا لترتيبها التاريخى على كتاب العهد : وقانون سفر التثنية وقانون السفر الكهنوتى • واذا ألقى القارىء نظرة سريعة على هذه المصادر فربما ساعده ذلك على تفهم مكانة كل مصدر منها فى تاريخ التشريع العبرى ، وذلك فى نطاق ما أكده النقاد من خلال فحصهم لها • وقد كثرت الآراء التى أثيرت حول النتائج — التى توصل اليها النقاد كما أنها تعد بالغة فى التعقيد بحيث يصعب علينا أن نسردها فى هذا المجال • ومن ثم فان القارىء الذى يرغب فى التعرف على هذه الآراء ، عليه أن يرجع الى الأعمال الكثيرة التى تتعلق بهذا الموضوع ، ويسهل عليه الحصول حيث يجد تلك الآراء مدونة تدوينا كاملا •

ويعرف أقدم قانون فى أسفار موسى الخمسة بما يسمى كتاب العهد ، وهو الذى يتضمن سفر الخروج ، من الاصحاح العشرين آية ٢٢ الى الاصحاح الثالث والعشرون آية ٣٣ • وقد سمى هذا القانون بالتشريع الأول • وهو يتصل كل الاتصال بسفر الخروج ، الاصحاح الرابع والثلاثون فى آية ١١ الى ٢٧ ، وهو ما يسمى فى بعض الأحيان بكتاب العهد الصغير • وقد أدمج كتاب العهد فى المصدر الألوهى الذى يعتقد بوجه عام أنه كتب فى شمال فلسطين فى مطلع

القرن الثامن الميلادى على الأكثر • أما كتاب العهد الصغير فيحتوى على المصـــدر اليهوى الذى يعتقد بوجه عام أنه كتب فى أرض الميعاد فى عصر مبكر عن كتـــابة المصدر الألوهى ، أى أنه كتب فى القـــرن التاسع قبل الميلاد • ولكن القوانين فى حد ذاتها كانت تعيش فيمـــا يبدو بوصفها قانونا أو مجموعة منفصلة قبل أن تتجمع فى هذه المصادر بزمن طويل • بل إنه من الممكن الادعاء أن هذه القوانين حتى قبـــل تقننها كانت تنتشر بوصفها نظما عادية • وربما كان يرجع الكثير منها الى عهد بالغ فى القدم • ويصور كتاب العهد فى العموم الحياة فى عهد الملوك والقضاة الأول • أما المجتمع الذى يصور فى هذا التشريع ، فهو مجتمع ذو بنية بسيطة ، فالحياة فيه تعتمد أساسا على الزراعة ، كمـــا أن مصدر الثروة فيه هى المنتجات الحيوانية والزراعية • أما أسس القانون المدنى والجنائى ، فهى تلك التى مازال عرب الصحراء يتبعونها حتى اليوم ، وهى تشتمل على قانون الأخذ بالثأر وقانون التعويض المـــالى • فالقانون يعاقب القاتل بالأخذ بالثأر منه • أما المتهم البرىء فيبحث عن ملجأ له فى معبد الرب • وتعد السرقة والاساءة للوالدين وممارسة السحر من بين الجرائم التى يعاقب عليها القانون • فاذا ارتكب الشخص اساءة من نوع آخر ، فإما أن يعين نفسه فيها أو يرفع شـــكواه الى المكان المقدس • فاذا أحس الشخص بظلم يقـــع عليه ، فانه يأخذ لنفسه بالثأر وفقا لهذا القانون • وهو نفس قانون « العين بالعين » الذى مازال سائدا بين العرب ، كما أنه كان القانون السائد بين الكنعانيين • فاذا شاء الشخص أن يثأر لنفسه وفقا لهذا القانون ، فانه يعتمد فى ذلك على نفسه •

أما المجموعة الثانية من القوانين التى يميزها النقاد فى أســـفار موسى الخمسة فهى تلك التى يشتمل عليها سفر التثنية • ويحتـــوى هذا السفر على الجزء الأكبر من سفر تثنية الاشتراع فى الصـــورة التى عليها الآن ، فيما عدا المقدمة التاريخية والفصـــول الختامية • ويتفق النقاد المحدثون فى العموم ، فيما يبدو ، على أن سفر التثنية

هو « كتاب القانون » الذى عثر عليه فى معبد أورشليم عام ٦٢١ ق • م • ، وهو الكتاب الذى اتخذه الملك يوشيا أساسا لاصلاحه الدينى • وأهم الملامح الأساسية لهذا الاصلاح الدينى هو أولا ازالة الأماكن المقدسة المحلية جميعها أو « الأماكن العالية » التى كانت تنتشر فى ربوع البلاد ، وثانيا تركيز عبادة « يهوه » الشعائرية فى معبد أورشليم وحده • وقد أكدت أسفار موسى الخمسة هذين الأساسيين تأكيدا قويا • ويبدو أن الملك المصلح قد استمد من تعاليم هذا السفر مبادئه التى وضعها موضع التنفيذ ، كما استلهم منه الهدف الدينى المفعم بالحماس الذى شد أزره وبعث فى نفسه الحيوية فى سبيل تحقيق هذا العمل المضنى • ومن السهل ارجاع تأثر الملك المصلح بتعاليم هذا السفر فى عمق الى تلك الوعود المباركة التى وعد بها كاتب السفر من يطيع القانون على سبيل الجزاء وتلك اللعنات التى توعد بها كل من يخالفه •

ومن ثم فان الاصلاح الذى أعلنه « يوشيا » ، كان ذا أثر بالغ الغاية ، لا من ناحية المبادىء التى فرضها فحسب ولكن من ناحية كيفية نشر هذه المبادىء كذلك • فقد كانت هذه هى المرة الأولى فيما نعلم فى تاريخ بنى اسرائيل التى نشر فيها بنفوذ الحكومة ، قانون مكتوب بوصفه قانون الحياة الأسمى للأمة كلها • أما قبل ذلك فقد كان القانون عرفا وليس دستورا كما كان منتشرا فى معظمه بين الناس بوصفه مجرد عادات يستجيب اليها كل فرد بدافع قوتها وحسب اختلاف وجهات النظر الشعبية ، وبدافع قوة العادة التى يمكن الاهتداء فى تفسيرها من خلال التقاليد الموروثة إن لم يكن هذا التفسير قد ضاع فى ظلام العصور القديمة • حقا ان بعض هذه العادات قد دون فى شكل مجموعة من القوانين الموجزة التى يحتوى كتاب العهد على جزء منها على الأقل فيما نعلم • ولكنه لا يبدو أن هذه القوانين كانت تقدس تقديسا رسميا ، بل كانت مجرد كتب صغيرة توجد فى نطاق الملكية الخاصة • أما المصادر الحقيقية للقوانين فكانت تتمثل فيما يبدو ، فى هؤلاء الكهنة الذين كانوا يعيشون فى الأماكن المحلية المقدسة،

هؤلاء الذين نقلوا من جيل الى جيل تلك النظم الطقوسية والدينية التى تكاد ترتبط بها القوانين الأخلاقية كل الارتباط فى المجتمع البدائى • فعندما كان الشك يساور الناس فى عادة من العادات ، أو عندما كانوا يتنازعون حول شيء قانونى ، كانوا يلتمسون مشورة الكهنة الذيـــن كانوا يصورن أحكامهم فى كفاءة دون كفاءة القضاة العاديين ، وان كانوا ينطقون بها على لسان الرب الذى كانوا يستخيرونه ويفسرون ارادته بالقرعة أو عن طريق وسائل أخرى من وسائل النبوءة • وهذه القرارات الشفاهية التى كان يصدرها الكهنة كانت تمثل القانون • وقد كانت هى « التوراة » فى مغزاها الحقيقى ســـواء من النـــاحية التوجيهية أو التعليمية ، وذلك قبل أن تســـتخدم كلمة « التوراة » بمعناها الضيق لتدل فى بادىء الأمر على القانون بصفة عامة ، ثـــم على القانون المدون فى أسفار موسى الخمسة بصفة خاصة • على أن التوراة لم تكن فى مغزاها الأصلى ، توجيهيا كان أو تعليميا ، قاصرة على تعاليم الكهنة ، بل كانت تتضمن فضـــلا عن ذلك تلك التعاليم والتحذيرات التى نطق بها الأنبياء بدافع اعتقادهم هم وسامعيهم فى قدسيتها • ومن ثم فقد كانت هناك توراة تنسب للأنبياء ، وأخرى تنسب للكهنة وكلاهما اشتركا منذ بادىء الأمر ولعصور طويلة بعد ذلك ، فى كونهما تعاليم شفاهية غير مدونة •

ولا يعد ظهور مجموعة قوانين سفر التثنية فى صيغتها المـــكتوبة حلقة فى تاريخ الشعب العبرى فحسب ، ولكنه يعد حلقة فى تاريـــخ الانسانية جمعاء • ذلك أن هذه القوانين المكتوبة تعد الخطوة الأولى فى سبيل تدعيم الكتابة المقدسة ، وبالتالى كانت الخطـــوة الأولى فى احلال الكلمة المكتوبة ، بوصفها النظام الأعلى الثابت للسوك الانسانى ؛ محل الكلمة المنطوقة • وقد كان من جراء اتمام هذه العملية عن طريق أكمال الشريعة فى القرون التالية ، أن وضع الفكر الانسانى فى أغلال لم يستطع العالم الغربى أن يتخلص منها كلية منذ ذلك الحين • فقد كانت الكلمة المنطوقة من قبل حرة وبالتالى كان التفكير حرا ، حيث ان

الكلام لم يكن سوى أفكار فى شكل أصوات وحروف منطوقة • وكذلك كان الأنبياء يتمتعون بحرية كاملة فى الفكر والكلام لأن أفكارهم وكلماتهم كانت تستلهم من وحى الاله ، فيما كان يعتقده الناس • بل ان الكهنة كانوا أبعد ما يكونون التصاقا بالتراث • وعلى الرغم من أن الرب لم يكن يتحدث بألسنتهم ، الا أنهم هيئوا لأنفسهم ، بدون شك ، مجالا واسعا فى تشغيل الجهاز النبوئى مستخدمين فى ذلك طريقة القرعة ، أو أية وسيلة أخرى يمكن أن يتعطف بها الرب ويوضح رغبته للمستعلمين المتلهفين • فلما خضعت النبوءات للكتابة أصبحت ثابتة ومعادة على نمط واحد ، أى أنها تحولت من مرحلة الانسياب الى الجمود ، ثم الى مرحلة التبلور بكل ما يتميز به هذا التبلور من ثبات ودوام • ذلك أن الحرف الميت حل محل الكلمة النامية الحية ، كما أن الكتابة جردت النبى بل والكاهن من خصائصهما حيث أن وظائف الكهنة لم تكن قربانية بل نبوئية • ومن ثم فقد أصبح بنو اسرائيل هم « شعب الكتاب » • أما الحكم والمعارف فلم تعد تستمد من الملاحظة المستقلة ، ولا عن طريق التأمل الحر فى الانسان والطبيعة ، وانما أصبحت تستمد من الشروح المضافة الى الوثيقة المدونة • ولما أفسح المؤلف المجال للشارح ، كرست الموهبة الوطنية التى كانت سببا فى نشأة الكتاب المقدس ، جهودها ، فى كتابة التلمود •

واذا كان فى وسعنا أن نؤكد بثقة كبيرة ، التاريخ الذى نشرت فيه شريعة سفر التثنية ، فانه ليس فى وسعنا أن نحدد تاريخ تأليفها • وقد اكتشفت هذه الشريعة وذاعت فى السنة الثامنة عشرة من حكم يوشيا (٦٢١ ق • م) ، ولا بد أنها كانت قد كتبت اما فى الفترة السابقة على حكمه ، أو أنها ألفت فى حكم خليفته « منسى » ، ذلك لأن الشواهد التى تتضمنها هذه الشريعة تؤكد أن تأليفها لا يمكن ان يكون أكثر قدما من هذا التاريخ ، وأنه من المؤكد أنها قد ألفت فى القرن السابع ق • م • وفى العموم فان أكثر الفروض احتمالا تشير الى أن سفر التثنية قد كتب فى عهد الملك « منسى » ، وأنه قد احتفظ

بها فى أمان بعيدا عن الأعين بأمر من هذا الملك الشرير ، حتى قدر لها أن تخرج الى الوجود فى أثناء عملية ترميم المعبد المقدس الذى قام به « يوشيا » الورع • حقا ان الشك قد ساور بعض الباحثين فى بعض الأحيان فى أن هذا السفر قد لفقه كهنة المعبدالذين‌سعوا فى احتيال بالغ فى خداع الملك الطيب فى أنه عمل بالغ فى القدم • ولكن هذا الشك ربما بدا اجحافه وعنفه لأى فرد ينظر بعين الحق الى الاستعداد البالغ الذى هيأه التشريع الجديد لاستقبال الحكام من خدمة الدين فى أورشليم الذين سحبت الدولة اعترافها بهم ، وحرمتهم الكنيسة من أوقافهم وأصبحوا لذلك مشردين بلا مأوى ، ولم يكن أمامهم سوى أن يرحلوا الى العاصمة لكى يعيشوا فى مستوى أقرانهم الحضريين ، ويتمتعوا بكل ما لمنصب الكهنة من تقدير مادى ومعنوى • ولن نكون مبالغين فى حكمنا على رجال الدين الذين كانوا فى أورشليم ، اذا افترضا أنهم تمسكوا بالنظام القديم ، وأنهم لم يبدوا استعدادهم لفتح اذرعهم وجعبتهم لاخوانهم المحتاجين الوافدين عليهن من البلاد الا تحت ضغط القانون الصارم •

ومهما يكن جهلنا بمؤلف سفر التثنية ، فليس هناك مجال للشك فى أنه كان مصلحا نزيها ، مدفوعا بدافع الحب الصادق لبلده ، ورغبة مخلصة فى الاصلاح الدينى والأخلاقى الخالص ، ذلك الاصلاح الذى كانت تتهدده الاعتقادات الخرافية والاسراف الشهوانى اللذين اتخذ الناس من الأماكن المقدسة المحلية مجالا لممارستها • وسواء كان هذا المؤلف كاهنا أم نبيا ، فانه من الصعب علينا أن نقرر ذلك ، لأن سفر التثنية يخلطبوضوح بين المسائل الكهنوتية أو الشرعية بوجه عام ، بروح النبوة • وربما بدا من قبيل التأكيد أنه كتبه بدافع التأثير الملهم بكبار أنبياء القرن الثامن وهم عاموس وهوشع وأشعياء • ولما كان المؤلف اصطنع وجهة نظرهم فى استعلاء القانون الأخلاقى فوق القانون الشعائرى ، فقد قدم نظاما للتشريع أقامه على مبادىء دينية وأخلاقية وعلى التقوى والانسانية وعلى الحب المتبادل بين الرب

وشعبه وبين الناس بعضهم بعضا • وقد كان من الطبيعى ، لكى يقنع سامعيه وقراءه بهذه المبادىء ، أن يستغرق فى الانفعال الجاد بل الدفاع الشجوى الذى هو أقرب الى حيوية الخطيب وحماسه منه الى هدوء رجل القانون وصرامته • فالتأثير الذى يتركه على القارىء الحديث ، هو تأثير الواعظ الذى ينساب فى مجرى الخطابة المتقدة أمام جمهور ساه يحتشد فى ممرات مدوية فى كنيسة واسعة الأرجاء • بل اننا نكاد نرى عينيه المضطرمتين وملامحه المتلهفة التى تلاحق نبرات صوته الجمهورى ، وهو يتردد تحت السقف المقبى ويدوى فى آذان المستمعين بانفعالات مختلفة تتراوح بين التأكيد المطمئن والأمل ، والحزن المؤثر والتوبة ، والفزع المسيطر واليأس • حتى اذا وصل الى النغمة العالية من التحذير المفزع والوعيد بغضب الرب البالغ ، وأتى الى الحديث عن الاثم والمعصية ، خفت صوته حتى يتلاشى نهائيا فى السكون • وليس فى العهد القديم منافس يقف مع هذه الخطيب على قدم المساواة ، كما لاحظ هذا بحق أحد النقاد المرموقين فى حسن ختام خطبته الذى عبر عنه بقوة انفعالية ثابتة •

وعلى الرغم من أن الاصلاح الذى كان يهدف اليه مؤلف سفر التثنية كان ينبع بدون شك من دوافع مخلصة وحماس بالغ فى تنفيذه ، فانه يحق لدارس فلسفة الأديان ، اذا ارتكز على وجهة نظر نظرية ، أن يعبر عن شكه فيما اذا كان تركيز العبادة فى مكان مقدس واحد كان يشير الى الرجعية لا التقدمية فى الدين • فاذا ارتكز فى شكه على وجهة نظر عملية ، فانه يحق له كذلك أن يعبر عن شكه فيما اذا كان هذا الاصلاح قد لازمه نوع من الاحساس بعدم الارتياح الذى اهتزت معه كفة مزاياه • ففكرة أن الرب لا يعبد عبادة حقيقية الا فى أورشليم ، تبدو من الناحية النظرية فكرة ساذجة ، بل هراء بالنسبة للعقول الحديثة التى ارتبطت بفكرة ان الله يعيش فى كل زمان ومكان ، ومن ثم يتسنى لعباده أن يعبدوه فى أى مكان وزمان • حقا ان الفكرة المجردة فى أن الرب موجود فى كل مكان من الأفضل أن يعبر عنها فى

عبادة الأماكن المقدسة المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ، أكثر من أن يعبر من خلال تقديسه فى مكان مقدس واحد يشيد فى العاصمة . وأما من الناحية العملية فان الدين القديم قبل فترة الاصـلاح ، كان يتمتع بميزات واضحة تفوق ميزات الدين الجديد . فالرب فى ظل النظـام القديم ، كان يسكن عند عتبة دار كل رجل ، اذا أمكننا أن نقول ذلك . ومن ثم فان العابد كان يلجأ اليه فى كل حالة يعانى فيها من شـك أو متاعب أو أحزان أو آلام . اما فى ظل النظام الجديد فلم يكن يتيسر له هذا الأمر . فلكى يصل الفلاح الى معبد أورشليم ، كان يتحتم عليه فى كثير من الأحوال أن يتحمل مشقة السفر الطويل ، وهو نادرا ما كان يفعل هذا لانشغاله الدائم بعمله فى مزرعته الصغيرة . وليس عجيبا بعد ذلك أن يتنهد فى بعض الأحيان بعد أن فرض عليه النظام الجديد ، شوقا الى الناموس القديم . وليس غريبا أنه كان يعد تحطيم أماكنه المقدسة تدنيسا لها ، تماما كما قد يبدو للشعوب القديمة عندما كانت تحطم الأشجار العتيقة مثل أشجار الدردار والسدر « التى كانت تنام فى ظلها المقدس » . فاذا كان يمكن لنا أن نتصور مدى افتقاد شعبنا البسيط الساذج فى حزن لمرأى البرج الرمادى الذى ألفـوا رؤيته ، أو مرأى ذلك الصرح الذى يبرز بين الأشجار أو يطل من فوق التل ، اذا ما اختفى أمامهم ، فاننا يمكننا كذلك أن نتصور كيف كان المزارعون العبريون يصغون دون جدوى ، لصـوت أجـراس يوم السبت ، وهى تدق عبر الحقول وتدعوهم لاقامة الصلاة فى بيت العبادة الذى كثيرا ما اجتمعوا فيه هم وأجدادهم لعبادة رب الجميع . انه يحق لنا أن نتصور أن المزارع العبرى لم يـكن يختلف أساسا عن احساس مزارعينا ، عندما هب عليه الاصلاح الدينى كالاعصـار ، مبتدئا من أطراف البلد . وربما كان قد أبصر بقلب مثقل محطمى التماثيل الدينية وهم يهوون بفؤوسهم عليها هدما وتخريبا . فهناك عند قمـة التل وفى ظل شجرة البلوط ذات الأوراق — الكثيفة المنتشرة ، كـان يقدم هو وآباؤه من قبل ، العام تلو العام ، بشائر المحصول الناضج ،

وبشائر عناقيد العنب الأرجوانية • وكم رأى بعينه الدخان الأزرق المتصاعد من الضحية فى الهواء الساكن فوق الأشجار • وكم تصور أن الرب يسكن غير بعيد عنه ، ربما فى صدع سحابة بعيدة هناك تنفذ فيها أشعة الشمس فى بهاء يغلفه الضباب ، وربما كان موجودا هنا أو هناك على مقربة منه يستنشق رائحة الشواء الطيب ، فيباركه هو وثروته لأنه قدم له الضحية • أما بعد الاصلاح فقد أصبح يرى قمم التلال عارية ومنعزلة ، كما لم يعد يرى الأشجار القديمة التى طالما نشرت ظلالها فوق هذه التلال • وبالمثل لم يعد هناك أثر للعامود الرمادى القديم الذى طالما صب عليه قربان الزيت وأصبح مجرد قطع متناثرة من الأحجار • وهنا بدا له أن الرب قد هجره الى العاصمة ، ومن ثم فانه يتحتم عليه ان يرحل وراءه أينما وجده • وربما كانت الرحلة اليه طويلة ومضنية ، بحيث لم يكن يتسنى لرجل الأقاليم أن يتحملها الا فى ظروف نادرة • فقد كان يدلف فوق التل وفى الوادى الصغير حاملا معه قربانه حتى يصل الى أورشليم ، حيث يشق طريقه خلال شوارعها المزدحمة ويدفع بنفسه وسط ضجيجها المختلط • وهناك ينتظم مع كبشه فى صف طويل من المتعبدين الذين التهبت أقدامهم من السير وكسا تراب الرحلة ملابسهم ، بينما يأخذ الكاهن الجزار الذى شمر عن اكمامه فى ذبح الكباش الواقفة أمامه ، كل فى دوره • حتى اذا أتى دور ذبح كبشه ، فينساب دمه المتدفق الى بحر الدماء الذى يغطى فناء المكان المقدس • ومهما قيل له بأن هذا المكان المقدس أفضل من مكانه القديم ، ومهما تصور أن الرب نفسه يسكن فى هذه الأبنية الجليلة والأفنية الفسيحة لكى يشاهد هذه الدماء المتدفقة ، ولكى يستمع الى غناء كورس المعبد ، فان أفكاره كانت تعود به الى الوراء مصحوبة بما يشبه الحسرة على سكون قمم الجبال وظلال الأشجار العتيقة ، والمنظر الذى كان يشرف على الطبيعة الآمنة • ومع ذلك لابد أن يكون هؤلاء الكهنة أكثر منه حكمة ، ولابد أن يكون ما حدث قد تم بارادة الرب • هذه الأفكار الساذجة هى التى ربما كانت تساور رجل الضواحى البسيط عند حجته الأولى لأورشليم بعد

اتمام الاصلاح الدينى • وربما لم يكن بعض سكان الضواحى قد رأى بهاء المدينة الكبيرة وفسادها السياسى الا لأول مرة ، لأننا نفتـرض أن مزارعى أرض الميعاد كانوا ملازمين لريفهم فى هذه الأيـام ملازمة المزارعين الانجليز للاحياء البعيدة عن العاصمة • بل ربما عاش الكثير منهم ومات ، دون أن يبعد مرة واحدة عدة أميال ، عن قريته الأصلية •

ولكن فترة الاصلاح التى عاشتها مملكة يهوذا لم تدم طويلا ، اذ لم يكد يمر جيل واحد بعد وضع يوشيا للاصلاح الدينى والأخلاقى ، حتى كانت الجيوش البابلية قد زحفت الى أورشليم واستولت على المدينة وحملت معها الملك وزهرات شبابه الى الأسر • وبهـذا كانت الأسباب التى دعت الى الاصلاح هى بعينها التى قضت عليه فى مهده ، ذلك لأننا لا نشك فى أن الخوف المتزايد من الغزو الأجنبى ، كان هو أحد الحوافز التى أيقظت الضمير اليهودى وشـدت سواعد خـير رجالهم لكى ينقذوا أنفسهم قبل فوات الأوان ، والا استولى البابليون على المملكة الجنوبية ، فتلاقى نفس المصير الذى لاقته المملكة الشمالية، عندما استولى عليها الأشوريون قبل ذلك بقرن من الزمان • ولكـن السحب كانت قد أخذت فى الارتفاع تدريجيا من الشرق وغطت كل سماء أرض الميعاد • وكان الملك الورع ووزراؤه يعمـلون ، وشـبح العاصفة يتهددهم ، ورعودها يطن فى آذانهم ، بقصد اتمام الاصلاح الدينى الذى كانوا يأملون به أن يبعدوا به شبح الكارثة التى تلوح أمامهم • ذلك أنهم كانوا قد عزوا هذا الخطر الوطنى الى آثام قومهم التى تمثلت فى الاعتقاد الأعمى فى القوى الخارقة ، ذلك الاعتقاد الذى كان سر قوة السـلوك الاسرائيلى ، بل سر ضعفهم أمام العالم ، ومن ثم فقد تصور هؤلاء المصلحون أنه من الممكن وقف غزو الجيـوش الفاتحة عن طريق القضاء على العبادة الوثنية وعن طـريق انشـاء نظام أفضل لشعائر العبادة • ويبدو أنهم لم يطرأ ببالهم قط ، عندما تهدد الخطر استقلالهم السياسى ، أن يعمدوا الى استخدام الأسلحة المـادية التى يمكن أن يلجأ اليها بالفطرة فى مثل هذه الظروف الخطيرة،

من هم أقل منهم تدينا ، فبنـاء الحصون وتقوية أسوار أورشـليم ، وتمرين الرجال وتسليحهم ، والبحث عن عون أصدقائهم من الأجانب ، كل هذه الأمور التى تمليها الفطرة السليمة على العقل الوثنى ، لم تكن تبدو لليهودى ، سوى خيانة ليهوه الذى يستطيع وحده أن ينقذ شعبه من أعدائه • حقا لقد كان العبريون القدماء لا ينظرون الى مجريات الأمور الطبيعية فى حوادث التاريخ ، الا كما ينظر الى سقوط الأمطار وهبوب الرياح وتغيرات الفصول • وحسبه أن يتلمس فى هذه الحوادث بصمات الرب كما يتلمسها فى أحوال الطبيعة • وهذا القبول الهادىء لتفسير كل الأمور كليا من خلال وساطة القوى الخارقة ، كان عقبـة كئودا فى سبيل الوصول الى الاتفاق الهادىء فى حجرة المداولات فيما يتعلق بالأمور السياسية ، تماما كما يمكن أن يكون عقبة فى طـريق الفحص العلمى الهادىء للأحوال الطبيعية •

على أن ثقة اليهودى لم تهتز على الاطلاق فى التفسير الدينى للتاريخ ، عندما فشل يوشيا فى اصلاحه الدينى الذى كان يهدف من ورائه تجنب الكارثة الوطنية • بل ان ثقتهم فى أهمية الطقوس الدينية وفى الشعائر ، بوصفها الأساس الأول للرخاء الوطنى بصرف النظر عما اعترى هذه الثقة من ضعف نتيجة انهيار الاصلاح والمملكة معا ، قد أكدتها الكارثة فيما يتراءى لنا تماما • فبدلا من أن يثور الشـك فى نفوسهم ازاء هذه الحكمة المتقنة للمعايير الدينية التى كانوا قد تبنوها ، فقد انتهوا الى أن ما حـدث كان نتيجة عدم تنفيذهم تلك المعايير كما ينبغى • ومن ثم فانهم ما كادوا يستقرون فى أسرهم فى بابل ، حتى طالبوا أنفسهم بنظام أكثر دقة فى تأدية الشعائر الدينية التى كانوا يأملون عن طريقها أن يكتسبوا محبـة الرب ، فيخرجهم من منفاهم ويعيدهم الى أرضهم • وقد وضـع حزقيـال التخطيط الأول للنظام الجديد فى منفاه عند نهر خيبر • ولابد أن حزقيال الذى كان كاهنـا بقدر ما كان نبيا ، كان على علم بشعائر الأماكن المقدسة الأولى • ومما لاشك فيه كذلك أن النظام الذى اقترحه ليكون برنامجا مثاليا للاصلاح

الدينى فى المستقبل ، كان يرتكز على خبرته السابقة • ولهذا فقد كان هذا النظام يشتمل على ما هو جديد بقدر ما كان يشتمل على كثير من الشعائر القديمة ، فقد طالب بمزيد من الشعائر المقدسة البسيطة ، ومزيد من التضحية الخاشعة ، ومزيد من الفصل بين خدمة الدين وجمهور المؤمنين ، ومزيد من العزل التام بين المعبد وما يحيط به وبين اتصال الوثنيين به • وقد كان التعارض بين حزقيال الذى عاش بعد فترة السبى البابلى وبين الأنبياء الكبار الذين عاشوا قبل هذا السبى ، شاذا ، بينما نجد السالفين قد ركزوا اهتمامهم حول تعليم الفضيلة الأخلاقية ، وراعوا الأفكار الطقوسية والشعائرية بوصفها الوسيلة الوحيدة التى يستطيع الانسان أن يكسب بها رضا الرب ، نجد أن حزقيال قد عكس العلاقة بين هذين الأمرين ، فلم يكن لديه الكثير ليقوله عن المثل الأخلاقية ، بينما كان عنده الشىء الكثير ليقوله عن الشعائر • وقد طور المفكرون وكتاب المدرسة الكهنوتية البرنامج الذى نشره حزقيال فى السنوات الأولى من السبى واستمر تطوره حتى بعد النكسة بأكثر من قرن من الزمان ، عندما جعل منه عزرا فى أورشليم عام ٤٤٤ ق٠م٠ النظام المتفتح للقانون اللاوى • والوثيقة التى تحتوى على ثمرة هذا العمل والفكر هى القانون الكهنوتى الذى يكون اطار أسفار موسى الخمسة • ومع ظهور هذا القانون تبدأ الفترة اليهودية ، كما تم عن طريقه تحول بنى اسرائيل من أمة الى مؤسسة دينية • وهذا القانون الكهنوتى الذى دون على الحجر المائل فى واجهة معبد أورشليم ، يكون الجزء الثالث والأخير من مجموعات القوانين التى ميزها النقاد فى أسفار موسى الخمسة • ومن أهم الآراء التى أعلنها النقاد المحدثون فيما يتعلق بالعهد القديم ، هو تأخر ظهور هذا القانون •

الفصل الثانى

لا تطبخ الجــدى فى لبن أمــه

من الطبيعى أن يفاجأ القــارىء عندما يجد بين وصــايا الرب المقدسة التى جهر بها للاسرائيليين القدماء ، الوصية الثالثة « لا نطبخ جديا بلبن أمه » • ولن تقل دهشة القارىء عندما يدرس بعناية فقرة من الفقرات الثلاث التى دونت فيها هــذه الوصية ، بل ان دهشته تبلغ عند ذاك ذروتها • ذلك أنه يبدو أن نص هذه الفقرة يشير ، كما سبق أن ذكر ذلك بعض النقاد المرموقين ، وهم جوته ومن سبقه ، أن هــذه الوصية كانت فى الحقيقة احدى الوصايا العشر الرئيســية • وهــذه الفقرة تقع فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج • فهناك فى هذا الاصحاح حكاية تشير الى أن الرب قد أوحى الى موسى مرة أخرى بالوصــايا العشر ، بعــد أن حطم موسى الألواح الحجرية الأولى التى كانت قد كتبت عليها الوصايا لأول مرة ، وذلك عندما ثار على قومه بسبب عبادتهم للأوثان • ومن ثم فان الوصايا التى تتقــدم فى هــذا الاصحاح هى نسخة ثانية من الوصايا العشر الأولى • ومما يؤيد هذا القــول ويبعــده عن كل شك تلك الآيات التى ترد قبــل وبعــد تقديم الوصايا • ويبــدأ هذا الاصحاح على النحو التالى : « ثم قال الرب لموسى انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين • فأكتب أنا على اللوحين الكلمات التى كانت على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما » • (ســفر الخروج الاصحاح الرابع والثلاثون الآية الأولى) • ثم يتبع هذا حكاية مقابلة الرب لموسى فوق جبل سيناء واملائه موسى الوصايا العشر مرة أخرى • حتى اذا أتينا الى قرب نهاية الاصحاح فاننا نقرأ : « وقال الرب لموسى أكتب لنفسك هذه الكلمات ، لأننى بحسب هذه الكلمات

قطعت عهدا معك ومع اسرائيل • وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء • فكتب على اللوحين كلمات العهد الكلمات العشرة » • (سفر الخروج ، الاصحاح الرابع والثلاثون من آية ٢٧ — ٢٩) • وقد لا يتطرق الينا شك بعد ذلك فى أن كاتب هذا الاصحاح يقصد بالكلمات العشر ، وصايا موسى العشر ••

وهنا تبرز لنا مشكلة وهى أن الوصايا التى دونت فى هذا الاصحاح لا تتفق كلية مع النص الأكثر ذيوعا للوصايا العشر المدون فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج ، وهى تلك الوصايا التى نقرؤها مرة أخرى فى الاصحاح الخامس من سفر التثنية • وفضلا عن ذلك فان الوصايا المدونة فى الاصحاح العشرين من سـفر الخروج التى هى موضـوع بحثنا ، لم تدون على نحو ما دونت به الوصايا الأولى من ايجاز ودقة ، بحيث أنه يمكن التمييز بين الروايتين تمييزا تاما • على أن مشـكلة التمييز بين الروايتين لا تتضاءل بل هى بالأحرى تتزايد عندما نجد أن « كتاب العهد » الذى يعرفه النقاد المحدثون بوصفه أقدم مجموعة من القوانين التى تشتمل عليها أسفار موسى الخمسة ، يشتمل على رواية مزدوجة لهـذه الوصايا • وبينما يضيف كتاب العهد صعوبة أخرى فى سبيل ازالة الابهام عن هذه الوصايا ، فان اشتماله على الرواية المزدوجة يقدم فى الوقت نفسه دليلا جديدا على أصالة الرواية القديمة للوصايا العشر التى تتضمن الوصـية المعنية وهى : « لا تطبخ جـديا بلبن أمه » •• ولا يختلف النقاد حول الرواية القديمة للوصايا العشر من حيث الكم ، ولكنهم يختلفون فحسب فى توضيح وصية أو وصيتين من تلك الوصايا كما يختلفون فى ترتيب الوصايا الأخرى • وفيما يلى عـدد الوصايا التى قدمها ك • بودى فى كتابه (تاريخ الأدب العبرى) ، التى يعتمد فى سردها على نص الوصايا العشر كما وردت فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر الخروج • ولكنه بالنسبة لوصية واحـدة فضل رواية الوصايا العشر التى وردت فى كتاب العهـد •

١ — لا تعبد من دونى الهـا آخر •

٢ — لا تصنع لنفسك آلة مسبوكة •

٣ — لى كل فاتح رحم •

٤ — ستة أيام تعمل ، أما اليوم السابع فتستريح فيه •

٥ — اجعل عيد الخبز غير المختمر فى الشهر الذى ينضج فيه الـذرة •

٦ — وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة وعيـد الجمع فى آخر السنة •

٧ — لا تذبح على خمير دم ذبيحتى •

٨ — ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح •

٩ — أول أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك •

١٠ — لا تطبخ جديا بلبن أمـه •

وتتفق الوصايا التى عرضها « فيلهاوزن » من حيث العـدد مع هذه الوصايا فيما عدا أنه حذف وصية : « سـتة أيام تعمل ، أما اليوم السابع فتستريح فيه » ، كما أنه عرض وصية « وتصنع لنفسـك عيد جمع الحنطة فى آخر السنة » بوصفها وصية منفصلة عن الجزء الأول المرتبط بهـا •

ويتفق الأستاذ ر •ه كينيت بوجه عام مع « بودى » و «فيلهاوزن» فى عدد هذه الوصايا ، ولكنه يختلف عن « بودى » فى اعتبار وصية عيد حصاد الحنطة بوصفها وصية مستقلة ، كما يختلف عن « فيلهاوزن » فى صيغة وصية يوم الراحة الاسبوعى • كما يختلف معهما فى اعتماده على رواية الفصل الرابع والثلاثين من سفر الخروج • وها هى ذى نص الوصايا العشر عند « كينيت » ، وما نضعه بين الأقواس يعد زائدا عن رواية سفر الخروج •

١ — (أنا يهوه الهك) • لا يكن لك آلهة أخرى أمامى •

٢ — تحفظ عيد الفطير • سبعة أيام تأكل فطيرا كما أمرتك •

٣ ــ لى كل فاتح رحم وكل ما يولد ذكرا من مواشيك بكرا من ثور وشاة •

٤ ــ يوم السبت لى • ستة أيام تعمل وأما اليوم السابع فتستريح فيه •

٥ ــ وتصنع لنفسك عيد الأسابيع أبكار حصاد الحنطة • (أية ٢٢) •

٦ ــ وعيد الجمع (تحتفل به) فى آخر السنة •

٧ ــ لا تذبح على خمير دم ذبيحتى ، ولا تبت الى الغد ذبيحة عيد الفصح •

٨ ــ (ولا يبيت شحم عيدى الى الغد) « سفر الخروج اصحاح ٢٣ آية ٢٥ » « سفر الخروج ــ الاصحاح ٣٤ الجزء الثانى من آية ٢٥ ، ويقتصر ذلك على عيد الفصح » ••

٩ ــ أول أبكار أرضك تحضره الى بيت الرب الهك (آية ٢٦) •

١٠ ــ لا تطبخ جديا بلبن أمه (آية ٢٦) •

وأيا كانت الرواية التى نفضلها بين روايات الوصايا العشر ، فان اختلافها جميعا عن الرواية المعروفة لدينا ، يثير دهشتنا • ففى الروايات التى أشرنا اليها تختفى القيم الأخلاقية كلية • اذ أنها تشير جميعا بدون استثناء الى أمور تتعلق بالشعائر ، أى أنها وصايا دينية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فهى تتعرض فى دقة وبطريقة تثير الشك الى صغائر الأمور • أما عن العلاقة بين الانسان والرب وبين الانسان والانسان ، فليس هناك شىء يذكر بهذا الصدد • وعلاقة الرب بالانسان وفقا لهذه الوصايا أشبه بعلاقة السيد الاقطاعى بأتباعه ، فهو يفرض عليهم أن يؤدوا له حقه ، بله أتفه مظاهر هذا الحق • ولكنه لا يهتم بعد ذلك بعلاقة هؤلاء الأتباع بعضهم ببعض ، طالما أن هذه العلاقة ليست لها صلة بالجزية التى يدفعونها له • وكم تختلف هذه الوصايا مع الوصايا الست التى تقع فى الاصحاح العشرين من سفر الخروج وهى : « أكرم أباك وأمك • لا تقتل • لا تزن • لا تسرق • لا تشهد على قريبك

شهادة زور • لا تشته بيت قريبك • لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك » •

فاذا تساءلنا ، أى هاتين الروايتين المختلفتين للوصايا العشر أكثر قدما ، فان الاجابة عن ذلك لن تكون مثيرة للشكوك • وكم يقر بالنا اذا افترضنا ، معارضين فى ذلك الروايات المتشابهة ، أن الوصايا الأخلاقية التى كانت فى الأصل تكون جزءا من القانون القديم ، قد حذفت منه لتفسح المجال لوصايا تختص بمجرد اشارات الى شعائر بعينها • أليس من المحتمل على سبيل المثال أن وصية « لا تسرق » قد حذفت من الرواية الأصلية وحلت محلها وصية : « ولا يبيت شحم عيدى الى الغد » ؟ وان وصية « لا تقتل » قد استبدلت بوصية « لا تطبخ جديا بلبن أمه » ؟ • ولكن مجرى التاريخ البشرى جميعه لا يدعم هذا الفرض ، فكل الاحتمالات تؤيد ان الرواية الأخلاقية للوصايا العشر ، اذا تسنى لنا أن نسميها كذلك ، حيث أن الاتجاه الأخلاقى يكون أهم عناصرها ، كانت متأخرة عن الرواية الشعائرية • ذلك أن الاتجاه العام لتيار المدنية ، كان ولا يزال ، بل ونأمل أن يظل هكذا فى المستقبل ، ينحو نحو تأكيد سمو القيم الأخلاقية فوق الشعائر • وقد كان هذا التأكيد الدافع الأول لتعاليم الأنبياء العبريين أولا ، وتعاليم المسيح ثانيا • ومن ثم فاننا لن نكون مخطئين اذا افترضنا أن التغير الذى اعترى الوصايا العشر من الاتجاه الشعائرى الى الاتجاه الأخلاقى ، قد تم بتأثير أحد الأنبياء •

على أنه اذا جاز لنا أن نفترض ، ونحن مطمئنون لهذا اللفرض فيما اعتقد ، ان الرواية الشعائرية للوصايا العشر هى أقدم الروايتين ؛ فمازال علينا أن نتساءل : لماذا كانت وصية تحريم طبخ الجدى بلبن أمه من الأهمية بمكان ، بحيث أنها احتلت مكانا فى قانون العبريين البدائى ، بينما استبعدت عن هذا القانون تلك الوصايا التى تبدو لنا أكثر أهمية بحق ، مثل تحريم القتل والسرقة والزنا ؟ « فهذه الوصية شكلت صعوبة فى طريق نقاد العهد القديم ، كما أنهم تعرضوا لتفسيرها

من وجوه نظر متعددة • فقد قيل أنه قلما يوجد فى التشريع الشعائرى بأسره قانون أصر عليه الاله أو أساء الناس استعماله كل الاساءة مثل قانون تحريم طبخ الجدى بلبن أمه • فمثل هذه الوصية التى حرص الرب أو المشرع بوجه عام على أن يطبعها فى أذهان الناس ، لهى جديرة منا بدراسة متأنية • واذا كان الشارحون قد فشلوا حتى اليـوم فى تأكيد مغزاها الحقيقى ، فربما كان هذا يرجع الى وجهـة النظر التى استخدموها فى تفسـيرها ، أو كان يرجـع الى نقص المعلومات التى اعتمدوا عليها ، أكثر مما يرجع الى صعوبة حقيقية فى المشكلة نفسها • فالافتراض الذى لقى رواجا فى كل من العصور القديمة والحديثة والذى مؤداه أن هـذه الوصية هى احـدى الوصايا التى تدل على الانسانية المهذبة ، يتعارض مع فحوى الوصايا بوصفها كـلا ، وهى تلك التى تتضمن هذه الوصية • فالمشرع الذى لم يلتفت قط الى مشاعر الناس ، كما يبدو هذا من سائر الوصـايا العشر البدائية ، لا يبدو أنه قد التفت لمشاعر الأمومة عند النعاج ، ومن ثم فانه أولى لنا أن نتبنى وجهة نظر أخرى ، وهى أن هذا التحريم كان موجها ضـد بعض الشـعائر السحرية أو الوثنية التى رفضها المشرع وسعى فى القضاء عليها • وقد ساند هذا الرأى بعض الدارسـين المرموقين ابتداء من « مايمونديس الى « و • روبرتسون سميث » ، بوصفه أكثر الآراء احتمالا ، وأن كان هـذا الرأى لا يرتكز على أى شاهد ايجـابى ، حيث انه لا يمكن الاعتماد فى كثير أو قليل على عبارة ينقصـها الدليل تروى عن كاتب مجهول عاش فى القرون الوسطى ، ويعد أحد أفراد الطائفة القرائية (١)• وقد ذكر هذا الكاتب « انه كان من عادة الوثنين القدماء ، عندما كانوا يجمعون المحصول ، أن يطهوا الجدى فى لبن أمه ، ثم يرشون اللبن على الأشجار والحدائق وبساتين الفاكهة ، بوصفه طقسا سحريا ، معتقدين بذلك أن هذه الأشجار تمنحهم مزيدا من الثمار فى العـام التالى » • وربما كان هـذا التفسير سليما طالما كان يشير الى تصور خرافى يعـد

(١) مذهب يهودى نشأ فى بغداد فى القرن الثامن الهجرى قوامه رفض التمسك بسنة التلمود • (المترجمة) •

أساس هذا التحريم • ومن ثم يجـدر بنا أن نتساءل عما اذا كان من الممكن اكتشاف ما يشبه هذا التحريم مدعما بالأسباب ، بين القبـائل الرعوية البدائية التى تعيش فى العصر الحاضر ، ذلك لأنه يبدو من ظاهر هذا التحريم أنه ينتشر بين الشعوب التى تعتمد فى حياتها على تربية قطعان المـاشية أكثر من تلك التى تعتمد على الزراعة •

ويبدو أن القبائل الرعوية التى تسكن فى أفريقيا تنفر فى العصر الحاضر من غلى ألبان ماشيتهم • وهذا النفور متمكن من نفوس الناس وينتشر فى الوقت نفسه على نطاق واسع • وهو يرتكز على الاعتقاد فى أن البقرة التى يغلى لبنها تكف عن ادرار اللبن بعد ذلك • بل وربما مات الحيوان نتيجة الحاق الأرواح الشريرة الأذى به ، اذا لم يتجنب هذا التحريم • كما أننـا نرى أنه على الرغم من أن لبن الأبقار والزبد الذى يصنع من هذا اللبن يعدان الغذاء الرئيسى للمسلمين الذين يسكنون « سيراليون » وما جاورها من الأماكن ، فانهم يمتنعون عن غلى اللبن خوفا من أن يجف لبن البقرة التى أخـذ منها هـذا اللبن • بل انهم لا يبيعون اللبن لمن تعود أن يغليه • وتتبع قبيلة « بالوم » مثل هـذا التحريم فيما يختص بالبرتقال ، فهم لا يبيعـون البرتقال لمن يرمى قشره فى النار « لئلا يتسبب هذا فى اسـقاط الثمار التى لم تنضـج بعد » • وهنا يبدو أن تحريم غلى اللبن عند الشعوب السالفة الذكر يرتكز على أساس السحر التعاطفى ، فهم يفترضون أن اللبن ، حتى بعد أن يحلب من البقرة يظل مرتبطا بالحيوان بعلاقة حية ، بحيث أن البقرة صاحبة اللبن تضار ، بدافع التعاطف بمثل الاساءة التى أسىء بها لبنها • ومعنى هذا أن غلى لبن البقرة فى الوعاء يساوى تماما غليه فى ضرعها ، وهذا من شأنه يجعل لبن البقرة يجف فى مكانه الطبيعى • وهذا التفسير تؤكده معتقدات المسلمين والمراكشيين ، وان كان هـذا التحريم يقتصر على وقت محدد ، هو الوقت الذى يعقب ولادة العجل مباشرة • فهم يعتقدون أن « اللبن اذا غلى فوق النار فى تلك الفترة ، فان البقرة تصاب بمرض فى ضرعها ، أو أنها تكف عن ادرار اللبن أو أن

نسبة الدسم تقل فى لبنها . فاذا حدث أن سال اللبن الذى حلب من البقرة لأول مرة فى النار ، فانه من المحتمل أن يموت العجل أو تموت البقرة . وعند قبيلة « آيت ورياغل » يجب ألا يغلى لبن البقرة الذى حلب منها بعد ثلاثة أيام من ولادتها العجل ، ويظل غليه محرما حتى ينقضى أربعون يوما على الولادة . فاذا غلى اللبن فى هذه الفترة فانه من المحتمل أن تموت البقرة ، أو أن لبنها لا يعطى سوى كمية قليلة من الزبد » . وهنا نلاحظ أن تحريم غلى اللبن ليس تحريما كليا ، وانما يقتصر على فترة معينة بعد ولادة العجل ، يعتقد أن البقرة تكون فى أثنائها على علاقة تعاطفية مع عجلها ومع لبنها أكثر من أى وقت آخر . فالتحديد هنا اذن له مغزاه وهو يؤكد تفسير منع غلى اللبن بصفة عامة ، أكثر مما يضعفه . ويتأكد التفسير أكثر من ذلك من خلال الاعتقاد الخرافى فيما تصاب به الأبقار اذا ما سقط لبنها فى النار . واذا حدث هذا فى الأوقات العادية فانه يعتقد أن البقرة أو لبنها يصاب بضرر . أما اذا حدث هذا بعد ولادة العجل بزمن قصير ، عندما يكون اللبن متجبنا كثيفا ، فانه من المتوقع ، وفقا للعقيدة ، أن يموت العجل أو تموت البقرة . ومن الواضح أن الفكرة فى ذلك أنه اذا سال لبن الحلبة الأولى بعد الولادة على النار فى مثل هذا الوقت الحرج فانه يماثل تماما سقوط البقرة نفسها أو عجلها فى النار وموت أحدهما حرقا . وهكذا تتمثل علاقة المشاركة بين البقرة وعجلها من ناحية ، وبينها وبين لبنها من ناحية أخرى . ويتضح مجرى هذا التفكير من خلال خرافة مشابهة لهذا تنتشر بين قبيلة « نورادجا » التى تسكن « سيليبيس الوسطى » فهذه القبيلة تستخدم نبيذ البلح على نطاق واسع ، كما تستخدم رواسب الخمر خميرة فى طهى الخبز . ولكن بعض بطون القبائل ترفض استخدام هذه الرواسب من أجل السبب الذى يرفض الأوربيون استخدامها وهو الخوف من أن النخلة التى يستخلص النبيذ من ثمارها ، لا تقدم مزيدا من عصارات النبيذ ، ومن الممكن أن تجف اذا ما تعرضت رواسب الخمر للنار فى أثناء عملية طهيه . ويشبه تحريم تعريض رواسب الخمر للنار حتى لا تجف النخلة التى يستخلص من ثمارها

الخمر ، يشبه تماما تحريم تعريض القبائل الأفريقية اللبن لحرارة النار ، حتى لا يجف ضرع البقرة التى يحلب منها اللبن أو حتى لاتتعرض فى الحقيقة للموت • كما يشبه هذا أيضا معارضة قبيلة « بولوم » لرمى قشر البرتقال فى النار لئلا تحترق شجرة البرتقال التى جمع منها هذا البرتقال مشاركة للقشر المحترق فتسقط ثمارها أثر ذلك •

وعادة تحريم غلى اللبن خوفا من اصابة الابقار بأذى ، قاسم مشترك بين القبائل الرعوية التى تسكن فى وسط افريقيا وشرقها • فعندما قام « سبيك » و « جرانت » برحلتهما الشهيرة من زنجبار الى منابع نهر النيل ، مرا باقليم « أوكونى » الذى يقع جنوب بحيرة فيكتوريا نيانزا • وكان ملك البلد يعيش فى قرية « نوندا » ويملك ثلاثمائة بقرة حلوب • ومع ذلك فقد كانت مشكلة شراء اللبن تواجهنا كل يوم • وقد كنا نضطر الى غلى لبننا حتى نحتفظ به سليما خوفا من اليوم التالى • وقد كان الاهالى يعارضوننا فى غلى اللبن وفقا لعاداتهم ، ويقولون : « ان البقر سيكف عن ادرار اللبن ان فعلتم هذا » • وبالمثل يخبرنا « سبيك » أنه قد تسلم قدرا من اللبن من بعض نساء « داهوما » (باهيما) اللاتى قام بعلاجهن من رمد فى عيونهن • وهو يضيف الى ذلك قائلا : « على اننى لم أكن أتمكن من غلى اللبن الا سرا والا كفت الابقار عن ادرار اللبن بدعوى أن غلى اللبن يعد رقية أو سحرا تمرض بتأثيره الابقار ويجف لبنها » • وغلى اللبن عند قبيلة ماساى التى تسكن فى شرق افريقيا التى تعيش أو كانت تعيش على الرعى وعلى منتجات قطعان ماشيتها أو أبقارها « يعد اساءة شائنة يمكن أن تكون سببا كافيا لاعمال القتل فى قافلة من القوافل • ذلك أنهم يعتقدون أن غلى اللبن يتسبب فى أن تكف الأبقار عن ادراره » وبالمثل كانت تعتقد قبيلة « باجندا » التى تسكن وسط افريقيا أن غلى اللبن يجعل البقرة تكف عن ادراره • ولم يكن يسمح لأى فرد أن يغلى اللبن الا فى حالة واحدة هى : « عندما تحلب البقرة لأول مرة بعد أن تضع وليدها • يسلم اللبن للصبى المكلف بالرعى الذى

يحمله بدوره الى أى مــكان فى المرعى حيث يطلع رفاقه من الرعاة على البقــرة وعجلها • ثم يأخذ الصبى فى غلى اللبن ببطء حتى يجمد • وعندئذ يأخذ هو ورفاقه فى أكله » • وهذه القاعدة واستثناؤها تنتشر بين قبيلة « باهيما » أو « بانيبيانكولى » ، وهى قبيلة رعوية تســكن وسط افريقيا • « فاللبن لاينبغى أن يغلى حيث أن الغلى يضر بصحة الابقار ، وربما تسبب فى موت بعضها ولكنه يغلى لاستخدامه فى بعض الشــعائر ، وذلك عندما يسقط الحبل السرى عند الوليد • ثم يصبح لبن البقرة الذى كان مقدسا حتى ذلك الوقت عاديا • فاللبن الــذى يحلب من البقرة التى وضعت وليدها حديثا يعد محرما لعدة أيــام حتى يسقط الحبل السرى عن العجل الوليد • وفى هذه الاثناء يرحل فرد من أفراد الاسرة ليشرب اللبن • ولكن عليه أن يراعى ألا يلمس لبنا يحلب من بقرة أخرى » • وكذلك « يعد اللبن الذى يحلب من البقرة فى الاسبوع الاول بعد ولادتها محرما » عند قبيلة « ثونجا » وهى قبيلة من قبائل البانتو وتسكن فى جنوب شرق افريقيا • فلا ينبغــى أن يمزج بأى لبن يحلب من أبقار أخرى حيث ان الحبل السرى لم يكن قد سقط عن العجل الوليد بعد • ومع ذلك فمن الممكن أن يغــلى اللبن وأن يشربه الأطفال ، حيث ان الأطفــال يخرجون عن مجــال التحريم • وبعد ذلك لا يغلى اللبن على الاطلاق ، لا لأن هناك شيئا محرما يخشونه ولكن لأنه ليس مألوفا • ولم يقدم الاهالى تفســيرا واضحا لمحرمات اللبن • ومن المحتمل أن قبيلة « ثونجا » قد نسيت الاسباب الرئيسية لهذه القيود المألوفة فى استعمال اللبن ، حيث ان بلادهم تقــع فى الاقليم التابــع للبرتغال ، وبالقــرب من خليــج « ديلاجوا » ، وكانت منذ قرون على صلة بالأوربيين • ومن الطبيعى بناء على ذلك أنها تعيش فى أحوال أقل بدائية من سائر قبائل وســط أفريقيا التى كانت تعيش حتى منتصف القرن التاسع عشر منعزلة كلية عن التأثير الاوربى • ولكننا عندما نقارن عادات هذه القبائل الرعوية التى احتفظت بأفكارها البدائية وعاداتها مع تغيير بســيط فيها نتيجة انعزالها ، بعادات قبيلة ثونجا ، فاننا ننتهى فى شىء من التأكيد أن

الدافع الرئيسى وراء تحريم غلى اللبن عند قبيلة « ثونجا » كذلك ، هو الخـوف من ايذاء الابقار التى تسـتمد منها اللبن عن طريـق المشاركة السحرية •

فاذا رجعنا الى قبيلة « باهيما » التى تسكن فى وسط افريقيا ، فاننا نجدهم يصرحون بقولهم : « ان الاوربى اذا مزج اللبن بالشاى ، فانه يتسبب فى قتل البقرة التى تدر اللبن » • وتنتشر بين هذه القبيلة أفـكار غريبة تتصل بدرايتهم بالأبقار وبطريقة التصرف فى ألبانها • فمن المـألوف أن نسمع عن رجل يملك قطعيا من المـاشية أخبارا أسطورية مثل « رفض بقرة ما لادرار اللبن نتيجة غلى لبنها » • وهذه العبارة الاخيرة من المحتمل أنها تشـير الى سوء فهم طفيف عن فكرة المواطنين حول هذا الموضوع • ولكننا نستطيع عن طريق المقارنة أن نحكم بأن هذه القبيلة تعتقد فى أن البقرة لن تكف عن ادرار اللبن ، لا لأنها لن ترضخ لذلك ، وانما لعدم قدرتها على ذلك ، حيث أن ضرعها يجف بتأثير الحرارة التى غلى فوقها لبنها • وكذلك نجد عند قبيـلة « بانيورو » وهى قبيلة رعوية أخرى تسكن وسط افريقيا أن القاعدة هى : « ألا يغلى اللبن ولا يدفأ على النار خوفا من الاذى الذى يصيب القطيع على هذا النحو » • ومثل هذا يحدث بين قبيلة « صومالى » التى تسكن فى شرق افريقيا ، « اذ يحرم غلى لبن الجمال خوفا مـن اصابتها بالسحر • وتنتشر عادة تحريم غلى اللبن من أجل هذا السبب فيمـا يبدو ، بين الجاليين الجنوبيين الذين يسـكنون المنطقة نفسها ، كما تنتشر بين قبيلة « ناندى » التى تسـكن شرق افريقيا ، وقبائل « الواجوجو » و « الواميجى » و « الواهومبا » التى كانـت تعيش حتى زمن متأخر فى شرق افريقيا الالمـانى • ومن بين القبائل التى تسكن السودان المصرى البريطانى ، يرفض الهاونداوانيون غلى اللبن وتشاركهم قبيلتا أرتيجا وأشرف هذا الفعل » وقد قيل ان مثل هـذا الاعتقاد فى العلاقة التعاطفية بين « البقرة ولبنها الذى تدره يعيش بين بعض الشعوب المتأخرة فى أوربا حتى العصر الحاضر • فعندما

يغلى « الاستونيون » اللبن الذى تدره البقرة لأول مرة بعد الولادة يوضع خاتم من الفضة أو يوضع صحن أسفل وعاء الحلب قبل أن يجلب فيه اللبن • وهم يفعلون هذا « حتى يظل ضرع البقرة سليما ولا يفسد لبنها » • ويعتقد هؤلاء كذلك « أن اللبن اذا سال على النار فى أثناء غليه فان ضرع البقرة يصاب بمرض » • وبالمثل يعتقد مزارعو بلغاريا أن « اللبن إذا سال على النار فى أثناء غليه ، قلت كمية اللبن التى تدرها البقرة ، وربما كفت البقرة عن ادراره كلية » • وعلى الرغم من أنه ليس هناك اعتراض على غلى اللبن فى هذه الأحوال الأخيرة ، الا أن هذه الشعوب تتشاءم من تدفق اللبن فوق النار واحتراقه ، لأن اللبن المحترق ، وفقا لاعتقادهم ، يصيب البقرة صاحبة هذا اللبن بأذى ، اما عن طريق ايذاء ضرعها أو يحول بينها وبين ادرار اللبن • ولقد سبق أن رأينا أن الموريين فى مراكش يصطنعون بدقة مثل هذه الأفكار • ولسنا فى حاجة لأن نفترض أن هذا التصور الخرافى قد انتقل من مراكش الى بلغاريا ثم الى استونيا أو انتقل على العكس من استونيا الى بلغاريا ثم الى مراكش ، اذ أنه من الممكن أن تنشأ مثل هذه التصورات مستقلة فى هذه البلاد الثلاث فى شكل هذه القوانين الأولية نتيجة ترابط الافكار التى عرفتها العقول الانسانية جمعاء ، وهى تلك الافكار التى ترتكز على أساس الاعتقاد فى سحر المشاركة • وربما فسر مجرى هذا التفكير عقيدة الاسكيمو فى تحريم غلى الماء داخل البيت فى أثناء القيام بصيد سمك السلامون « لأن ذلك يضر بعملية الصيد » • ونحن نعتقد ، وان كنا لا نستند الى دليل فى هذا الاعتقاد ، أن غلى الماء فى البيت فى مثل هذا الوقت ، يؤذى السمك أو يفزعه وهو فى النهر ، وذلك عن طريق المشاركة ، وبذلك يضار صيدهم له •

وربما كان الدافع وراء الوصية العبرية القديمة وهى « لا تطبخ الجدى بلبن أمه » ، هو الخوف المماثل لخوف تلك الشعوب من التأثير على موردهم الرئيسى فى الرزق • وقد نفهم من هذه الوصية أن

هناك اعتراضا ، وفقا لهذه النظرية ، حول طبخ الجدى فى أى لبن كان ، لأن أى نعجة يغلى لبنها تصاب بأذى سواء كانت هى أم جدى بعينه أم غريبة عنه • وربما كان السبب فى الحرص على ذكر لبن الام بصفة خاصة هو أن لبن الام بطبيعة الحال كان أكثر استخداما لهذا الغرض ، أو لأن ايذاء النعجة فى مثل هذه الحالة يكون مؤكدا أكثر منه فى أية حالة أخرى • فالنعجة فى هذه الحالة تكون على صلة تعاطفية مزدوجة مع جديها ولبنها اللذين أخرجتهما من أحشائها ، ومن ثم تكون معرضة للخطر المضاعف الذى تتعرض له النعجة الغريبة عن هذا الجدى ، فاما أن يجف لبنها أو تموت بتأثير الحرارة والغلى •

على أننا يمكننا أن نتساءل : « اذا كان التحريم يختص ببساطة بغلى اللبن فلماذا يذكر الجدى بصفة خاصة فى هذه الوصية ؟ » ربما أمدتنا عادة قبيلة « باجندا » ، ولا نقول نظريتهم ، بالجواب عن هذا السؤال • فمن المعروف أن اللحم المطهى فى اللبن عند هذه القبيلة يعد من الأطعمة المفضلة عندهم ، وأن الأولاد الأشقياء والأشخاص الآخرين الذين لا يلزمون أنفسهم بالمبادىء الخلقية ، ولا يفكرون الا فى متعهم الشخصية أكثر من التفكير فى ثروتهم الحيوانية ، يكافئون أنفسهم على اثمهم ، كلما استطاعوا خلسة أن يفعلوا ذلك غافلين المتاعب التى تصيب الأبقار والنعاج المسكينة نتيجة تجنبهم لهذا المحظور • وبناء على ذلك فربما كانت الوصية العبرية « لا تطبخ الجدى بلبن أمه » موجهة الى مثل هؤلاء الأوغاد الذين كان يلعنهم الرأى الجماعى لأنهم يوجهون ضربة خطيرة لمصدر غذائهم الرئيسى • ولعل هذا يفسر لنا كيف أن غلى اللبن من وجهة نظر الشعوب البدائية الرعوية يعد جريمة أبشع من جريمة السرقة أو القتل ، لأنه بينما تصيب السرقة أو القتل بعض الأفراد بأذى ، فان غلى اللبن شأنه شأن تسميم الآبار ، يهدد القبيلة كلها ويحرمها من مورد غذائها الرئيسى • ربما كان هذا هو السبب فى أننا لا نجد أثرا فى الرواية الأولى للوصايا العشر العبرية ذكرا للوصيتين التاليتين : « لا تسرق » و « لا تقتل » ، ونجد محلهما وصية « لا تطبخ الجدى فى لبن أمه » ••

ويبدو أن فكرة علاقة المشاركة بين الحيوان واللبن الذى يحلب منه ، تفسر نظما أخرى معينة تنتشر بين القبائل الرعوية ، ولم يفسر بعضها التفسير الكافى حتى اليوم • فاللبن هو الغذاء الرئيسى عند قبيلتى « دامارس » و « هيرورو » اللتين تستوطنان جنوب غرب افريقيا • ولكن عند هاتين القبيلتين لا يغسل وعاء اللبن الذى يشربونه منه على الاطلاق ، لأنهم يعتقدون تماما أن البقرة تكف عن ادرار اللبن اذا ما غسل هذا الوعاء • ويبدو أن تفسير هذه العادة هو أن ازالة المادة المتخلفة من اللبن فى الوعاء معناه ازالة البقية الباقية من اللبن من ضرع البقرة • فالقاعدة المتبعة عند قبيلة « ماساى » هى « انه لا ينبغى حلب اللبن الا فى أوعية تصنع لهذا الغرض • ولا تغسل هذه الأوعية بالماء ، بل يكتفى بتنظيفها برماد الخشب للتأكد من نظافتها » ••

وكما ان قبيلة « هيريرو » الرعوية تمتنع عن غسل وعاء اللبن بالماء مراعاة لسلامة أبقارها ، كذلك تتجنب قبيلة « باهيما » الرعوية غسل أجسامهم بالماء لهذا السبب نفسه • « فالرجال والنساء على السواء لا يستحمون ، لأن الاستحمام يؤذى قطعان ماشيتهم وفقا لاعتقادهم ، ومن ثم فهم ينظفون أجسامهم بطريقة جافة وذلك عن طريق دهن أجسامهم بالزبد وتدليكها بالتراب الأحمر بدلا من استخدام الماء ، ثم يدهنون أجسامهم مرة أخرى بالزبد » • فاستعمال الماء فى الاستحمام « يعرض القطيع بل الأسرة للأذى فيما يقال » ••

وفضلا عن ذلك فان بعض القبائل الرعوية تعتقد أن قطعان ماشيتها تتأثر بفعل المشاركة ، لا عن طريق المادة التى تستخدم فى تنظيف أوعية اللبن فحسب ، بل عن طريق المادة التى يصنع منها الوعاء كذلك • فقبيلة « باهيما » تحرم استخدام أى وعاء مصنوع من الحديد فى الحلب، وتستخدم بدلا من ذلك أوعية مصنوعة من الخشب أو قشر القرع العسلى أو الطين • أما الأوعية الأخرى فقد يؤدى استخدامها فى حلب اللبن الى الاضرار بالماشية وقد يتسبب فى مرضها • « ولهذا فان أوعية

اللبن التى تستخدمها قبيلة « بانييورو » تصنع كلها على وجه التقريب من الخشب أو من القرع العسلى ، على الرغم من أنه من الممكن العثور على أوعية طينية فى الحظيرة التى يحفظ فيها اللبن » • وبالمثل « كانت كل أوعية اللبن عن وجه التقريب تصنع من الخزف ، والقليل منها كان يصنع من الخشب عند قبيلة « باجندا » ، كما أن الأهالى يرفضــون استعمال الأوعية المصنوعة من الصفيح أو الحديد لأن استخدامها يؤذى الماشية » • أما عند قبيلة « ناندى » ، « فان الوعاء الوحيد الذى يسمح باستخدامه فى الحلب هو الوعاء المصنوع من قشر القرع • فاذا استعمل وعاء آخر فان هذا يعرض القطيع للضرر وفقا لاعتقادهم » • وكثيرا ما تتصور قبيلة « أكيكويو » « أن استخدام وعاء آخر غــير الوعاء المصنوع من قشر القــرع الذى يخالف تلك الأوعية المصــقولة التى يستعملها الأوربيون فى حلب اللبن ، من شأنه أن يؤدى الى جفاف لبن الحيــوان » ••

وقد تبالغ بعض القبائل الرعوية فى التعبير عن اعتقادها فى أن الأبقار على علاقة تعاطفية طبيعية مباشرة مع لبنها حتى بعد أن ينفصل عنها ، الى درجة أنها تتجنب مزج اللبن باللحم أو الخضر ، لأن مثل هذا المزج يسىء الى البقرة التى حلب منها اللبن • فقبيلة « ماساى » تحرص كل الحرص على أن تبعد اللبن عن اللحم ، لأنه وفقا للتصور العام الذى يسود بينهم ، أن مزج اللبن باللحم يصيب أضرع البقر صاحبة اللبن بالمرض ، فتكف بناء على ذلك عن ادرار اللبن • ومن ثم فهم نادرا ما يرضخون لاغراء بيع ألبانهم ، ولا يفعلون ذلك الا فى حذر بالغ ، لئلا يتسبب المشترى فى اصابة أبقارهم بالمرض ، اذا ما مزج لبنهم باللحم • ومن أجل هذا السبب نفسه فانهم يتجنبون الاحتفاظ باللبن فى وعاء سبق أن طهى فيه لحم ، كما لا يوضع اللحم فى وعاء يستخدم فى حلب اللبن • ومن أجل هذا فاننا نجدهم يمتلكون مجموعتين مختلفتين من الأوعية تعزل عن بعضها بعضا لهذا السبب • وتتفق قبيلة « باهيما » مع قبيلة « ماساى » فى معتقداتها وممارساتها • فقد شاء ضابط ألمانى كان

يعسكر فى بلادهم ، أن يستبدل بأحد أوعية طهيه وعاء من أوعيتهم التى تستخدم فى حلب اللبن • ولكنهم رفضوا ذلك بدعوى أن اللبن اذا صب فى الوعاء الذى سبق أن طهى فيه اللحم ، ربما تسبب فى موت البقرة صاحبة اللبن •

ولا تحرص هذه القبائل على ألا تخلط اللبن فى وعاء سبق أن طهى فيه اللحم فحسب ، بل تحرص على ألا تخلطه كذلك فى أمعاء الانسان ، لأن الخطر فى هذه الحالة يتهدد البقرة كذلك • وكذلك تحرص القبائل الرعوية التى تعيش على ألبان قطعان ماشيتها وعلى لحمها على ألا تأكل اللحم وتشرب اللبن فى آن واحد • وانما هم يفصلون بين شرب اللبن وأكل اللحم أو العكس بفترة زمنية • بل انهم فى بعض الأحيان يأخذون دواء مسهلا لينظف معدتهم من أحد الطعامين حتى يتمكن الانسان من تناول الطعام الآخر • ومثال هذا « أن غذاء قبيلة الماساى يتكون من اللحم واللبن فحسب • وبينما يخصص لبن الأبقار للرجال المحاربين ، تشرب النساء لبن الماعز • ويعد من قبيل الاساءة البالغة أن يشرب الشخص اللبن (الذى لا يسمح بغليه) ويأكل اللحم فى آن واحد • ومن ثم فان المسايين يعيشون عشرة أيام على اللبن وحده ثم يأكلون اللحم وحده عشرة أيام أخرى • وهم يراعون عدم اختلاط الطعامين فى المعدة الى درجة أنهم يتناولون بين الفترتين دواء مسهلا » • وهذه العادة نفسها تفرض على المحاربين ، فهم لا يأكلون سوى اللبن والعسل مدة تتراوح بين اثنى عشر يوما ، ثم لا يأكلون سوى اللحم والعسل مدة أخرى مماثلة • وفى أثناء الفترتين يأخذون مسهلا قويا يتكون من مزيج من الدم واللبن يجعلهم يتقيأون الطعام كما يسبب لهم الاسهال وذلك لكى يتأكدوا من عدم وجود فضلات من الطعام الأول فى أمعائهم • وهكذا نرى مدى حرصهم فى ابعاد اللبن عن الدم واللحم • وقد قيل لنا بصراحة انهم لا يفعلون ذلك مراعاة لصحتهم بل مراعاة لقطعان ماشيتهم ، لأنهم يعتقدون أن لبن الأبقار يقل اذا لم يفعلوا هذا • فاذا شعر فرد من قبيلة « ماساى » على غير العادة برغبة فى أكل اللحم وشرب اللبن فى يوم واحد ، فانه يزج بعود من الحشائش فى حلقه مراعاة

منه فى تجنب الشر ، وبذلك يتقيأ الطعام الأول ويتمكن من أكل الطعام الثانى • وعلى نحو هذا لا تشرب قبيلة واشامبا اللبن وتأكل اللحم فى وجبة واحدة ، إذ أنهم يعتقدون أن هذا يسبب الموت المباشر للبقرة التى أخذ منها اللبن • ومن ثم فانهم لا يرغبون فى بيع اللبن الى الأوربيون خوفا من أن يتسبب المشترى الجاهل أو الطائش فى قتل الحيوان اذا ما اختلط اللبن باللحم فى معدته • وقبيلة باهيما قبيلة رعوية تعيش أساسا على ألبان قطعان ماشيتها • ولكن زعماءها وأثرياءها يخلطون اللحم بوجبة اللبن وإن كانوا « لا يأكلون لحم البقرة وحده أو أى لحم آخر الا فى المساء ، ثم يشربون الجعة بعد ذلك • وهم لا يأكلون أى نوع من الخضر مع لحم البقر كما يتجنبون شرب اللبن بعد أكل اللحم لبضع ساعات • وأحيانا يشربون اللبن فى الصباح بعد تناولهم وجبة اللحم فى المساء • ذلك أنهم يعتقدون اعتقادا راسخا أن الأبقار تتعرض للموت اذا ما اختلط اللبن باللحم والخضر فى المعدة » • وبالمثل تمتنع قبيلة « بانيورو » عن شرب اللبن مدة اثنتى عشرة ساعة بعد وجبة اللحم والجعة • وهم يقولون أن هذه الفترة ضرورية ، « لأن تناول الطعام المختلط يتسبب فى اصابة الماشية بالمرض » • « ولا يؤكل اللحم ويشرب اللبن معا » عند قبيلة « ناندى » التى تسكن شرق أفريقيا البريطانى• فاذا شربوا اللبن فانهم لا يأكلون اللحم طوال أربع وعشرين ساعة • كما انهم يأكلون أولا اللحم المطهى فى المساء ثم يأكلون بعد ذلك اللحم المشوى ، وبعد ذلك يمتنعون عن شرب اللبن مدة اثنتى عشر ســاعة وبعدها يشربون الماء المذاب فيه الملح • فاذا لم يكن الملح يستخرج من مستنقع مائى متوافر فانهم يشربون الدم بدلا منه • ويشذ الأطفال الصغار عن هذا النظام وبالمثل الأولاد والبنات الذين أجريت لهم عملية الطهارة منذ وقت قريب ، وكذلك النساء اللاتى وضعن أطفالا قبل ذلك بزمن قصير ، كما يشذ عنه الذين يعانون من مرض شديد • فكل هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم « بيتوريك » يسمح لهم بأكل اللحم وشرب اللبن فى آن واحد • أما اذا شذ أحد غير هؤلاء عن هذا النظام ، فانه يجلد فى غير هوادة ولا رحمة » • وبالمثل يحرم شرب اللبن وأكل اللحم فى

آن واحد عند قبيلة «سوك» الرعوية التى تقطن شرق أفريقيا البريطانى. وعلى الرغم من أن الكتاب الذين سجلوا عادات قبيلتى « ناندى » و « سوك » الخاصة بهذا الموضوع لم يشيروا الى سبب هذا التحريم ، الا أن مقارنة عادات هذه القبيلة بعادات القبائل السالفة الذكر ، تتيح لنا أن ندعى فى شىء من الثقة ، أن الدافع وراء تحريم أكل اللحم وشرب اللبن فى آن واحد بين قبيلتى « ناندى » و « سوك » ، هو الخوف من أن اختلاط الطعامين فى معدة الأكل يمكن أن يعرض الأبقار للأذى ، ان لم يكن للخطر .

وما تزال تنتشر مثل هذه العادة التى تدعو الى الفصل بين اللحم واللبن فى المعدة عند الاسرائيليين فى أيامنا هذه ، وان لم تراع مثل هذه الصرامة فى اتباعها . فاليهودى الذى يأكل اللحم أو يشرب حساءه ، لا ينبغى عليه أن يأكل الجبن أو أى شىء آخر من مستخرجات الألبان مدة ساعة بعد أكل اللحم . وهناك أوعية خاصة لكل منهما ، وكل مجموعة من الأوعية تعلم بعلامة خاصة ، ومن ثم فان الوعاء الذى يستخدم فى اللبن لا يستخدم فى طهى اللحم . بل انهم يعزلون السكاكين التى تستخدم فى قطع اللحم عن تلك التى تستخدم فى قطع الجبن أو السمك . وفضلا عن ذلك ، فان اللبن لا يطهى مع اللحم على موقد واحد ولا يوضعان على المائدة فى آن واحد . بل ان غطاء المنضدة يغير عند وضع الطعام الآخر عليها . فاذا كانت الأسرة فقيرة ولا تمتلك سوى غطاء واحد للمنضدة ، فانه ينبغى عليها على الأقل ، أن تغسل هذا الغطاء قبل أن تضع عليه اللبن بعد أن سبق لها أن وضعت عليه اللحم . وهذه الأحكام التى حاكت حولها المهارة الحاخامية تشكيلية من التفريعات الدقيقة ، قد استمدت صراحة من وصية تحريم طبخ الجدى فى لبن أمه . وقد لا يساورنا شك فى ضوء هذه الشواهد التى جمعت فى هذا الفصل فى أن هذه القواعد والوصية المتصلة بها تنتمى مجتمعة حقا الى جزء من الارث المألوف الذى انتقل الى اليهود منذ الزمن الذى كان يعيش فيه أجدادهم حياة الرعى ، ويعتمدون أساسا فى غذائهم على

ألبان مواشيهم ، ومن ثم كانوا يراعون سلامة هذا الغذاء من أن يلحق به أذى ، كما تفعل قبائل أفريقيا الرعوية فى عصرنا هـذا .

على أن اختلاط اللبن باللحم لا يمثل الخطر الوحيد الذى تسعى قبائل افريقيا الرعوية أن تتجنبه خوفا على قطعان ماشيتها باتباعها القواعد المذكورة فى نظام الأكل ، وانما هم يخشون كذلك من اختلاط اللبن بالخضر ، ومن ثم فهم يتجنبون شرب اللبن وأكل الخضر فى آن واحد ، لأنهم يعتقدون أن المزج بين الطعامين فى المعدة يمكن أن يؤذى القطيع بشكل أو بآخر . فقبيلة « باهيما » الرعوية التى تسكن فى « أنكولى » « تحرم أكل أنواع مختلفة من الخضر ، مثل البقول والفاصوليا والبطاطا ، على أى فرد من أفرادها ، ما لم يقض فترة صوم تبلغ بضع ساعات بعد أكل الخضر ، وقبل تناول اللبن . فاذا دفع الجوع شخصا لأن يأكل الخضر ، فانه يتحتم عليه أن يصوم بعض الوقت بعد أكلها . ويفضل أن يأكل فى هذه الحالة نبات « النب » . ومع ذلك يتحتم عليه أن يصوم مدة تتراوح بين عشر ساعات واثنتى عشرة ساعة قبل أن يشرب اللبن مرة أخرى . فشرب اللبن فى أثناء وجود الخضر فى المعدة يؤذى صحة الأبقار وفقا لاعتقادهم » . ومثل هذا يتبع عند قبيلة « بايرو » التى تسكن فى « انكولى » ، « والتى تعتمد فى غذائها على البطاطا والفول السودانى . فهم لا يسمحون بشرب اللبن حيث أنه يؤذى الماشية » وعندما كان « سبيك » يقوم بجولته بين قبيلة « باهيما » أو « واهوما » ، كما يسميها ، لاحظ المشقة التى يعانيها الناس من جراء هذا التشكك . فعلى الرغم من وفرة قطعان الماشية عندهم ، فان الناس لم يقدروا على بيع ألبانهم لنا لأننا كنا نأكل الدجاج ونوعا من البقول يسمى «ماهاراجو» . « فمنذ دخلنا « كاراجو » ، لم نستطيع أن نحصل على قطرة من اللبن لا بطريق ودى ولا بأى ثمن . ولقد رغبت فى أن أتعرف على الدافع وراء اصرار قبيلة واهوما على هذا الفعل ، فعلمت أن هناك خوفا خرافيا يتملكهم من جراء بيع اللبن . فكل من أكل لحم الخنزير أو السمك أو الدجاج أو البقول التى تسمى « ماهاراجو » ، ثم

تذوق بعد ذلك منتجات أبقارهم ، فانه يعرضها للخطر » • وقد أجاب ملك البلد على تساؤلات « سبيك » فقال : « ان الفقراء وحدهم هم الذين يعتقدون ذلك • ولما رأى أننا فى حاجة الى اللبن خصص لنا بقرة من أبقاره لكى تمدنا باللبن • وفى قبيلة « بانييورو » ، « تحرص الطبقة المتوسطة التى تقتنى الأبقار وتعمل كذلك بالزراعة ، كل الحرص فى نظام أكلهم على عدم أكل الخضر وشرب اللبن فى آن واحد • فالذين يشربون اللبن فى الصباح لا يأكلون أى طعام آخر حتى المساء • والذين يشربون اللبن فى المساء ، لا يأكلون أى نوع من الخضر حتى اليوم التالى • وهم يتجنبون أكل البطاطس والبقول بصفة خاصة • وكل من يأكلهما يمتنع عن شرب اللبن مدة يومين • وهم يفعلون هذا لكى يبعدوا اللبن عن اللحم أو الخضر فى المعدة • فالطعام المختلط ، وفقا لاعتقادهم ، يصيب قطعان الماشية بالمرض » • ومن ثم فان هـذه القبيلة « لا تقدم اللبن للزائر القريب أثناء زيارته للحظيرة ، لأنه ربما كان قد أكل من قبل بعض أنواع الأطعمة المحرم مزجها باللبن ، فتصاب الماشية بالضرر ، اذا لم يكن هـذا الشخص قد تخلص من بقايا الخضر فى معدته • ولكنهم يعبرون عن كرمهم للزائر بأن يقدموا له طعاما آخر مثل الجعة ولحم البقر ، حتى تكون معدته معدة لشرب اللبن فى صباح اليوم التالى • فاذا لم يكن فى الحظيرة لبن يكفيهم ، فان بعضهم يأكل الخضر فى المساء ويصوم عن شرب اللبن حتى صباح اليوم التالى • فاذا لم تكن هناك خضر ، فانهم يأكلون البطاطا • ومن الضرورى بعد هذا أن يمتنعوا عن شرب اللبن مدة يومين بعد أكل البطاطا حتى تصبح المعدة خالية منها تماما قبل أن يسمح لهم بشرب اللبن » • ويحرم أكل الخضر كلية فى هذه القبيلة على الرعاة لأن تناولهم لها كما يقولون ، يعرض صحة القطيع للخطر أكثر من الأفراد العاديين ، نظرا لاختلاطهم الدائم بالقطيع ، وذلك اذا اختلط طعام باللبن فى معدتهم • ومن ثم كان من الحكمة أن يملى هـذا النظام تحريم أكل الخضر كلية على الرعاة •

وعند قبيلة « باجندا » « لا يسمح لأى شخص أن يأكل البقول

أو يمص قصب السكر أو يشرب الجعة ، أو أن يدخن الدخان الهندى ، ثم يشرب اللبن فى الوقت نفسه • فالشخص الذى يشرب اللبن يصوم عن الطعام عدة ساعات قبل أن يسمح له بأكل الطعام المحرم • ولا يسمح له بشرب اللبن فى نفس المدة بعـد تناوله لهـذه الأطعمة » • والرجل فى قبيلة « سوك » الذى يمضغ الدخن البرى ، يمتنع عن شرب اللبن مدة سبعة أيام • ومما لا شك فيه أن هذا التحريم عند هاتين القبيلتين، وأن لم يقرر هذا صراحة ، سببه التأثير الضار الذى تتعرض له الماشية نتيجة اختلاط الأطعمة فى المعدة • وبالمثل فان قبيلة « ماساوى » التى تهتم كل الاهتمام بثروة قطيعها وتخشى عليها من الضرر ، وتعتقد كل الاعتقاد فى أن الحيوان يصـاب بأذى اذا ما غلى لبنه أو شرب مع اللحم ، تحرم على المحاربين كلية أن يأكلوا الخضر • وأولى للمحارب فى هذه القبيلة أن يموت جوعا من أن يأكل الخضر • بل إن تقديم الخضر له يعد اهانة بالغة له • فاذا نسى المحارب وتذوقه ، فانه يمتهن كل الامتهان ولا تقبل أية امرأة أن تتخذه زوجا لها •

ولا تشجع الشعوب الرعوية التى تعتقد فى أن أكل الخضر يهدد ثروتهم الأولى من حيث انه يقلل مئونتهم من اللبن أو يمنعها عنهـم ، على ممارسة الزراعة • وبناء على ذلك فليس غريبا أن نعـلم « أن الزراعة فى « بونورو » يتجنبها من يشتغل بالرعى • واذا قامت زوجة رجل ينتمى الى بطن من بطون قبيلة تشتغل بالرعى بفلاحة الأرض ، فانها تعرض نفسها للايذاء ، لأنها تعرض القطيع للخطر » • ومـن ثم فان النساء فى البطون الرعوية فى هذا البلد ، « لا تعمل شيئا خلاف القيام بحلب اللبن وغسل أوعية اللبن ، ذلك لأن العمل اليدوى يعـد عملا وضيعا من وجهة نظرهم • كما أن فلاحة الأرض بصفة خاصـة تؤذى قطيعهم » • وحتى عند قبيلة « باجندا » الذين يفلحون أرضهم بجد نظرا لعنايتهم بتربية القطيع ، لا يسمح للمرأة أن تفلح حديقتها فى الأربعة الأيام الأولى بعد ولادة بقرة من أبقار زوجها • وعلى الرغم من أن سبب المنع لم يذكر ، فانه يمكننا فى ضوء الشواهد السـالفة

أن نستخلص أن الدوافع وراء الامتناع عن فلاحة الأرض هو الخوف من أن المـــرأة تعرض العجل وأمه للمرض ، بل للموت ، اذا فلحت الأرض فى هذه الأيام •

وفضلا عن ذلك فان بعض القبائل الرعوية تمتنع عن أكل لحـــم بعض الحيوانات المتوحشة بناء على سبب ضمنى أو صريح ، هو أنهم اذا أكلوا لحم هذه الحيوانات ، فان مواشيهم تصاب بأذى • ومثال ذلك : « هناك خرافة تنتشر انتشارا قويا بين قبيلة « سوك » التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، تتلخص فى أن أكل لحم فى خنزير برى معين يسمى ، « كيبتورينى » يترتب عليه أن يجف لبن قطيع الرجل الذى أكل من لحم الخنزير • على أن هذه الخرافة لا تعيش الا بوصفها رواية شعبية فى السهول التى لا تعيش فيها الخنازير » • وتعتقد هذه القبيلة نفسها أنه« اذا أكل رجل غنى سمكا ، فان لبن قطيعه يجف » • وعند قبيلة «ناندى » ، « لايجوز أكل لحم حيوانات بعينها ، اذا كان من الممكن الحصول على طعام آخر • وهذه الحيـــوانات هى ظبـــى المستنقعات وحمار الوحش والفيل ، والكركدن (الخرتيت) والمهـــا السنغالى ، والريم الافريقى العادى والأزرق • فاذا أكل أحد أفراد هذه القبيلة لحم أحد هذه الحيوانات ، لا يسمح له أن يشرب اللبن مدة أربعة أشهر على الأقل ، وبعد أن يتناول دواء مسهلا مستخلصا من شجرة « سيجيتيت » ، بعد مزجه بالدم • « ويستثنى من هذه القبيلة عشيرة « كيباسيسو » ، فأفراد هذه العشيرة يطلقون لانفسهم العنان فى شرب اللبن فى اليوم التالى من أكل لحوم هذه الحيوانات الطاردة • ومن بين هذه الحيوانات التى تسمح قبيلة « ناندى » بأكل لحمه فى حدود معينة ، هو الظبى الذى يعد حيوانا نجسا • وهم يطلقون عليه اســـم « شيماكيموا » ، ومعناه « الحيوان الذى لا يجوز أن يتحدث عنه » • ومن بين أنواع الطيور البرية التى ينظر اليها نظرتهم الى الظبى ، طائر الدراج • حقا انهم يأكلون لحم هذا الطائر ولكنهم لا يأكلونه بعد شرب اللبن الا بعد مضى عدة شهور • ولم تذكر أسباب

لهذه القيود ، ولكنه يحق لنا ، فى ضوء الشواهد السالفة أن ندعى بشىء من الثقة ، أن الامتناع عن تناول اللبن شهورا عدة بعد أكل هـــذه الحيوانات أو الطيور البرية ، هو الخوف على الأبقار ، اذا ما اختلط لبنها بلحوم هذه الحيوانات والطيور فى معدة الأكل • وربما كـــان هذا الخوف نفسه هو الذى يقف وراء انتشار تلك العادة بين قبيـــلة « واتاتورو » التى تسكن فى شرق افريقيا • فاذا تناول رجل من هذه القبيلة لحم بقر وحشى معين (يسمى بوفو بلغة السواحلى) فلا يجوز له أن يشرب اللبن فى اليوم نفسه •

وربما كان من الواجب علينا أن نتعمق البحث أكثر من هذا ونتساءل عما اذا كان سبب امتناع بعض القبـــائل الرعـــوية عن أكل لحـــوم الحيوانات الطاردة بصفة عامة أســـاسه الخوف الخـــرافى من ايذاء القطيع عندما يختلط اللبن بلحم الحيوانات المتوحشة فى المعدة فى أثناء عملية الهضم • فقبيلة « ماساى » ، على سبيل المثـــال ، وهى قبيلة تشتغل أصلا بالرعى فحسب ، وتعيش كلية على لحوم الماشية ودمها وألبانها ، تزدرى ، كما قيل ، أى نوع من لحم الحيوانات الطـــاردة كما تزدرى لحم السمك والدجاج • وقد قيل كذلك ان قبيلة ماساى لم تكن تأكل أى نوع من لحوم الحيوانات المتوحشة فى الزمن القديم ، عندما كان جميع أفرادها يمتلكون قطعانا من المـــاشية • ولكن بعضهم بدأ يأكل لحم الغزال ، بعد أن فقد ماشيته » • ولمـــا كانوا يمتنعون عن أكل لحوم الحيوانات الطاردة ، واقتصروا فى صيدهم على الوحوش أكلة اللحم كتلك التى كانت تفترس ماشيتهم ، فان قطعان الحيوانات المفترسة آكلة العشب أخذت تنتشر انتشارا يستلفت النظر فى ربوع بلاد المـــاسايين ، ومن ثم أصبح من المـــألوف رؤية البقرة الوحشية وحمار الوحش والغزال وهم يرعون فى أمان بين الماشية بالقرب من حظائر الماسيين ، دون أن تبدى الماشية أى فزع • وعلى الرغم من أن قبيلة المـــاساى فى العموم لم تكن تصيد الحيوانات المفترسة أو تأكل لحومها ، فانها كانت تستثنى من هذه القاعدة حيوانين مميزين • وقد

قيل ان « العلند » هو أحد الحيوانات الطاردة القليلة التى يصطادها المـاسيون ، فهو يطارد حتى يتعب ثم يطعن بالسهام • ومن الغريب أن قبيلة الماساى تأكل لحمه أيضا لانها تعده نوعا من أنواع البقـر • وأما الحيوان الوحشى الآخر الذى تطارده قبيلة ماساى ويؤكل لحمه فهو الجاموس البرى الذى يبالغون فى تقدير لحمه وجلده معـا • ولكننا علمنا « ان الجاموس لا يعد من الحيوانات الطاردة عند قبيلة ماساى • ومن المحتمل انهم ينظرون الى الجاموس البرى نظرتهـم الى العلند ، على أنه نوع من الأبقار • واذا كان الأمر كذلك فان سبب صيدهم الجاموس البرى والعلند والتهام لحومها يكون واحدا ، وهو الاعتقاد فى أن هذه الحيوانات لا تختلف فى جوهرها عن المـاشية ومن ثم يعد قتلها وأكل لحمها عملا مشروعا • فالنتيجة العملية ليس حولها أى شك فيما يبدو ، وان كان هذا التصنيف وفقا لعلم الحيوان يدعو الى التساؤل • وقد اصطنعت قبيلة « باهيما » ، وهى قبيلة رعوية أخرى تعيش أساسا على ألبـان ماشيتها ، نفس النظام الذى يعتمد على تصنيف مشابه لملكة الحيوان ، فنحن نعلم « أن هذه القبيلة لا تأكل سوى أنواع قليلة من الحيوانات المفترسة ، وهذه الأنواع تتحـدد تماما بتلك التى تدخل فى تصنيف الأبقار مثل الجاموس ونوع أو اثنين من أنواع البقر الوحشى ، والظبى والهرتبيس ، فى حين أن لحـوم المـاعز والشياه والدجاج وكل أنواع السمك يعد ، من ناحية أخرى ، « ضارة ويحرم أكلها على أى فرد من أفراد القبيلة تحريما كليا » • وربما كان السبب فى هذا هو أن هذه الأنواع من المواشى لا يمـكن أن تعد من أنواع الأبقار ، وفقا لأى تفسير متحرر لأجناس البقر • ولمـا كانت قبيلة باهيما الرعوية لا تسمح الا بأكل القليل من الحيوانات المتوحشة ، فانها لاتهتم بعملية القنص ، على الرغم من أنها تصطاد الوحوش التى تبحث عن الفريسة متى وجدوها منهكة فى المطاردة • « أما قنص سائر أنواع الحيوانات المطاردة فهو متروك كلية للعشائر التى تشتغل بالزراعة ، وتحتفظ ببعض كلاب الصيد وتعيش فى غذائها على لحوم هذه الحيوانات » • وبالمثل فان لحـوم أكثر الحيـوانات

توحشا محرمة على بطون قبيلة « بانييورو » الراعية ، ومن ثم فانه قلما يشترك أفراد هذه البطون فى القنص ، اللهم الا اذا اقتضى الأمر صيد الأسود والنمور التى تبحث عن فريستها بين ماشيتهم « فالقنص اذن يقتصر على الأفراد الذين يشتغلون بالزراعة وهم يقومون بقنص الحيوان حتى يأكلوا لحمه » .

وربما كان السبب فى ازدراء أكل لحوم الحيوانات الطاردة عند القبائل الرعوية التى أشرنا اليها فى الحالات السابقة مصدره الاعتقاد فى أن الأبقار تضار على التو متى امتزج لحم الحيوانات الطاردة بألبانها فى بطون الرجال . ولكى يبعد الخطر عن الماشية فانه أما أن يمتنع الرجال عن أكل لحوم هذه الحيوانات كلية ، أو لا بد لهم ، على أسوأ حال ،أن يقضى الفرد منهم فترة بين أكل هذه اللحوم وشرب اللبن ، بحيث تكون المعدة قد تهيأت لاستقبال طعام جديد بعد أن تكون قد خلت من الطعام الآخر . والاستثناء الشاذ الذى يستلفت النظر من القاعدة العامة ، وهو سماح هذه القبائل لأفرادها بأكل لحوم الحيوانات التى تشبه الأبقار ، يشير الى تشابه مع العادة العبرية القديمة التى تميز بين الحيوانات النجسة والطاهرة . فهل يمكن أن يكون هذا التمييز بين الحيوانات المتوحشة على أساس النجاسة والطهارة ، قد نشأ فى مرحلة متخلفة للقبائل الرعوية التى ميزت فى عالم الحيوان بين الحيوانات الشبيهة بالماشية المنزلية ، وتلك التى تختلف عنها ، ثم وضعت قانونا ذا أهمية بالغة يرتكز على أساس هذا التصنيف ، وهو أن النوع الأول يباح أكل لحمه والآخر يحرم أكل لحمه ؟ ان القانون الحقيقى الذىيميز بين الحيوانات النجسة والطاهرة كما يتمثل فى الأسفار الخمسة الأولى معقد كل التعقيد فيما يبدو ، بحيث لا يسمح لنا باللجوء الى هذه الاستنتاج البسيط . ومع ذلك فان الأساس الأول لهذا القانون يعد بقية غريبة لمعتقدات بعض القبائل الافريقية التى تناولناها بالبحث . « هذه هى الحيوانات التى تأكلها : الثور والخروف والنعجة وذكر الأيل والغزال والسرو والنعاج البرية

وبقر الوحش والشمواة وكل حيوان ذى أظلاف مشقوقة ومجتر تأكل لحمه » • فهنا نجد أن اختبار مدى ملاءمة الحيوان لأن يكون طعاما للانسان تعتمد على صلته بالحيوانات المجترة الأليفة • وبناء على هذا الاختبار فان الغزلان والبقر الوحشى تدخل ضمن الحيوانات الصالحة للأكل ، سليم للغاية ، تماما كما رأينا عند قبليتى « ماساى » و « بوهيما » اللتين تسمحان ، بناء على هذا الأساس ، بادخال أنواع متعددة من البقر الوحشى ضمن غذائهما ، وان كان العبريون أكثر حرية فى تصنيف الحيوانات التى يسمح بأكل لحمها من الماساييين • واذا كان هذا التصنيف العبرى قد نشأ أصلا ، فيما يبدو فى ظروف رعوية صرف ، فانه من المحتمل أنهم قد وسعوا نطاقه ليواجه احتياجات الشعب الزراعى وذوقه •

والى هذا الحد أكون قد حاولت أن أقتفى أثر التشابه المحدد بين العادات الافريقية التى تتصل بغلى اللبن ونظام مزجه باللحم ، وفيما يختص بالتمييز بين الحيوانات من ناحية طهارتها ونجاستها وصلاحيتها وعدم صلاحيتها للأكل • واذا كانت هذه الموازنات ترتكز على أساس سليم ، فانها تنحو الى اثبات أن العادات العبرية التى تختص بكل هذه الأمور قد نشأت فى المرحلة الرعوية من مراحل مجتمعهم • ومن ثم ، فانها تؤكد ما ورد فى تراث الاسرائيليين القومى من أن أسلافهم كانوا رعاة بدوا يتجولون بقطعان ماشيتهم وأغنامهم من مرعى الى مرعى طيلة عصور طويلة قبل أن يستقر أحفادهم ، بعد عبور نهر الأردن وهبوطهم من مرتفعات موآب المعشبة ، فى أرض فلسطين الغنية ، ويعيشوا حياة الزراعة المستقرة •

الفصل الثالث

إيذاء الجسم حزنا على الميت

كانت العادة عند الاسرائيليين القدماء أن يظهروا حزنهم على وفاة أصدقائهم عن طريق قطع أجسامهم وقص جزء من شعورهم بحيث تبدو صلعات فوق رءوسهم • وقد ذكر النبى أرمياء متنبئا بالدمار الذى كان من المتوقع أن يحل بأرض الميعاد ، كيف أن الناس سوف يموتون دون أن يجدوا من يقومون بدفنهم أو يؤدون لهم شعائر الحزن المألوفة فقال : « فيموت الكبار والصغار فى هذه الأرض ، لا يدفنون ولا يندبونهم ولا يخمشون أنفسهم ولا يجعلون قرعة من أجلهم » • (ارمياء الاصحاح السادس عشر آية ٦) • ومرة أخرى نقرأ فى سفر ارمياء كيف « أن رجالا أتوا من شكيم ومن شيلو (سلوان) ومن ومن السامرة ،ثمانين رجلا محلوقى اللحى ومشققى الثياب وبيدهم تقدمة ولبان ليدخلوهما الى بيت الرب » (ارماء : الاصحاح الحادى والأربعون آية ٤ — ٦) • وذلك بعد أن حمل بختنصر اليهود معه الى الأسر • وقد اصطنع هؤلاء الحجاج الأتقياء كل مظاهر الحزن العميق أسفا على الكارثة الكبرى التى حلت بأرض الميعاد وبأورشليم • وقد ذكر الأنبياء السالفون من بين عادات الحزن المألوفة التى كان يسمح بها الدين ، بل يأمر بها ، عادة قص الشعور الى درجة احداث صلعة فى الرأس ،وان لم يذكروا عادة تجريح الأجسام • فالنبى « عاموس»، وهو أقدم نبى وصلتنا كتاباته ، يعلن على لسان الرب زوال دولة بنى اسرائيل ويقول : « وأحول أعيادكم نوحا وجميع أغانيكم مراثى وأصعد على كل الأحقاء مسحا ، وعلى كل رأس قرعة وأجعلها كمناحة الوحيد وآخرها يوما مرا » • (سفر عاموس ، الاصحاح الثامن آية ١٠) • ومرة أخرى نقرأ فى سفر أشعياء : « ودعا السيد رب الجنود فى ذلك

اليوم الى البكاء والنوح والقرعة والتنطق بالمسح » • وقد تنبأ النبى « مخـا » بالكوارث التى تحل بالمستقبل بالمملكة الجنوبية ، وطلب من الناس أن يستعدوا لاستقبال صحتهم فيحلقون رءوسهم كما يفعـل المحزونون فقال : « كونى قرعاء وجزى من أجل بنى تنعمك ، وسعى قرعتك كالنسر لأنهم قد انتفوا عنك » • وليس المقصود بالنسر هنـا هو النسر العادى ، كما هو الثابت فى الرواية الانجليزية وانما يقصد به طائر القرنين (١) ، الذى لا يكسو الشعر رقبته ورأسه ، ويكسو ما دون ذلك ، وهذا المظهر لا يشاركه فيه النسر العادى • وقد ظل النبى « حزقيال » يكتب فى منفاه حتى بعد أن تحققت هذه النبوءات بغزو البابليين لأرض الميعاد ، وقال : « ويتنطقون بالمسح ويغشـاهم رعب وعلى جميع الوجوه خزى وعلى جميع رءوسهم فرع » (سـفر خزقيال) الاصحاح السابع ، آية ١٨) ••

ويبدو أن عادة تجريح الجسم وحلق جـزء من الشعر علامة على الحزن ، كانت مألوفة لدى اليهـود وجـيرانهم وهم الفلسـطينيون والمؤآبيون • فالنبى أرمياء يقول : « أتى الصلع على غزة • أهلكت أشقلون (عسقلان) مع بقية وطائهم • حتى متى تخمشين نفسك » • (سفر ارمياء • الاصحاح السابع والاربعين آية ٥) • ثم يقول النبى نفسه وهو يتحدث عن دمار خموش وعلى الاحقاء مسوح • على كل سطح موآب وفى شوارعها كلها نوح لانى قد حطمت موآب كاناء لا مسرة به يقول الرب » (سفر أرمياء الاصحاح الثامن والأربعين آية ٣٧ وما بعدها) • وكتب النبى أشعياء عن الموضوع نفسه فقال : « تولول موآب على نبو وعلى ميديا فى كل رأس منها قرعة كل لحية مجزوزة • فى أزقتها يأتزرون بمسح • على سطوحها وفى ساحاتها يولول كل واحد منها سيالا بالبكاء » (سفر أشعياء ، الاصحاح الخامس عشر ، آية ٢ وما بعدها) ••

---

(١) هو النسر الخرافى (المترجمة) .

وعلى الرغم من أن الاسرائيليين ظلوا يمارسون عادات الحـزن هذه زمنا طويلا دون ابداء الاستياء منا ، فإن هذه العادات أصـبح ينظر اليها فيما بعد بوصفها عادات بربرية وثنية • ولهذا فقد حرمت فى الشرائع القانونية التى ألفت قرب نهاية الحكم الملكى اليهودى ، أى فى أثناء الأسر البابلى أو بعده • فنحن نقرأ فى أسفار موسى الخمسة التى ذاعت فى أورشليم عام ٦٢١ ق • م أى قبل الغزو ، الآيات التالية: « أنتم أولاد للرب الهكم • لا تخمشوا أجسامكم ولا تجعلوا قرعـة بين أعينكم لأجل ميت ، لأنك شعب مقدس للرب الهك ، وقد اختـارك الرب لكى تكون له شعبا خاصا فـوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » (سـفر التثنيـة ، الاصـحاح الرابـع عشر الآية الأولى وما بعدها) • فهناك نجد أن تحريم هذه العادة يرتكز على مكانة دينية شاذة احتلها الاسرائيليون بوصفهم شعب يهوه • وقد نصحت هـذه الأمة أن تكف عن التمسك بهذه العادات الغريبة وهى تلك العـادات التى كانت قد انغمست فيها حتى ذلك الوقت دون أن ينسب اليهـا إثم فى ذلك ، والتى كانت تنتشر بين الشعوب الوثنية المجاورة لهم حتى ذلك الوقت • ونستطيع أن نحكم ، ما وسعنا ذلك ، على أن هذا التغير قد نشأ نتيجة تطور فى الحس الوجدانى الذى حارب مثل هذه المظاهر الغريبة فى الحزن بوصفها أفعالا ينفر منها الذوق السليم والانسانية معا • ولكن المصلح غلف فكرته كما هـو المـألوف ، فى رداء دينى ، لا بدافع اعتبار سياسى متعمد ، ولكن لمجرد أنه لم يدرك ، اتفاقا مع أفكار عصره ، أية وسيلة أخرى يوافق الناس بناء عليها موافقة كلية على أى سلوك انسانى ، أكثر من الخوف من الرب •

وقد تكرر هذا التحريم نفسه فى التشريع اللاوى الذى ألف فى أثناء فترة السبى أو بعدها • فقد ورد فى هذا التشريع : « لا تقصروا رءوسكم مستديرا ولا تفسد عارضيك ، ولا تجرحوا أجسادكم لميب ، وكتابة وسـم لا تجعلوا فيكم • أنا الرب » (سفر اللاويين الاصحاح التاسع عشر آية ٢٧) •

ولكن يبدو أن المشرع قد تبين أنه ليس من اليسير أن يستأصل بجرة قلم عادات قد تأصلت فى العقول الشعبية ، وطالما نظر اليها الشعب بوصفها عادات لا اثم وراءها ، لأنه ألح فيما بعد ، كما لو كان قد شعر باليأس من أن الناس جميعا سوف يهجرون تلك العادات المتبعة فى ابداء الحزن ، على أن الكهنة على الأقل سوف يتجنبون تلك العادة كلية . فقال : « وقال الرب لموسى كلم الكهنة بنى هرون وقل لهم : لا يتنجس أحد منكم لميت فى قومه الا لأقربائه الأقرب اليه أمه وأبيه وابنته وأخيه وأخته العذراء القريبة اليه التى لم تصر لرجل ، لأجلها يتنجس . كزوج لا يتنجس بأهله لتدنيسه . لا يجعلوا قرعة فى رءوسهم ولا يحلقوا عوارض لحاهم ولا يجرحوا فى أجسادهم » . وقد أكدت الحوادث فيما بعد صحة الشكوك التى كانت تساور المشرع بالنسبة لكفاءة العلاج الذى شرعه للقضاء على هذه العادات الآثمة . فقد أخبرنا النبى أرمياء بعد ذلك بعدة قرون أن بعض اليهود كانوا وما زالوا يجرحون أذرعهم ويحدثون صلعات فى رءوسهم تعبيرا عن حزنهم على الميت .

وقد كانت تنتشر عادة حلق الرءوس وتجريح الجسم أو تشويهه . بوصفهما إمارتين عن الحزن ، انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية ، واتجه الآن الى توضيح هاتين العادتين والاستفسار عن مغزيهما . واننى اذ أفعل هذا ، أركز اهتمامى بصفة خاصة حول عادة تجريح الجسم أو ايذائه أو خدشه بوصفهما أكثر العادتين غموضا وأجدرهما بالملاحظة .

وقد كان العرب الجاهليون ، شأنهم شأن اليهود ، يصطنعون من بين الشعوب السامية هاتين العادتين . فالنساء العربيات كن يمزقن الجزء العلوى من أرديتهن ويخدشن وجوههن وصدورهن بأظافرهن ، ويضربن أنفسهن بالأحذية ويقصصن شعورهن . فعندما توفى القائد العظيم خالد بن الوليد لم تكن هناك سيدة واحدة من قبيلته بنى المغيرة

الا وقد قصت خصلات شعرها ووضعتها عند قبره • وما تزال تنتشر مثل هذه العادات بين عرب موآب حتى اليوم • فعند وفاة فرد من أفراد الأسرة تخدش النساء وجوههن الى درجة أن يراق دمها ويمزقن أرديتهن عند الوسط • واذا كان الشخص المتوفى هو الزوج أو الأب أو أى شخص آخر تدنو قرابته منهن ، فانهن يقصصن ضفائرهن وينتشرنها على قبره أو يلففنها على رأس الضريح ، أو انهن يثبتن وتدين فى الأرض ، أحدهما عند رأس الضريح والآخر عند مؤخرته ، ويربطن ما بين الوتدين بحبل يعلقن عليه خصلات شعورهن •

وبالمثل كانت النساء عند الاغريق القدماء يقصصن شعورهن ويخدشن وجناتهن اذا ما توفى أحد أقربائهن الأدنون أو أحد أقربائهن الأعزاء لديهن • وفى بعض الأحيان يخدشن رقابهن بأظافرهن حتى تدمى • وبالمثل كان الرجال يحلقون شعورهم علامة على الحزن واحتراما للميت • فهوميروس يخبرنا كيف ان المحاربين الاغريق غطوا جسد « باتروكلوس » فى طروادة بضفائر من شعورهم وكيف وضع « أخيل » فى يد صديقه المتوفى خصلة من الشعر كان أبوه « بيليوس » قد نذرها لنهر « سبيركوس » ليقدمها ابنه له اذا ما عاد سليما من الحرب • كما قيل ان « أورستوس » وضع خصلة من شعره على قبر أبيه القتيل « أغا ممنون » • ولكن تشريع « سولون » الانسانى الذى شرعه فى أثينا حرم تلك العادة البربرية ، عادة خدش الجسم وايذائه بوصفهما مظهرين من مظاهر الحزن ، كما فعل التشريع الانسانى فى أسفارموسى الخمسة الذى صدر فى أورشليم • وعلى الرغم من أنه يبدو أن عادة قص الشعر تكريما للميت لم يمنعها القانون صراحة ، الا أنها ربما انقرضت فى أثينا بتأثير التقدم الحضارى • فما يبدو لنا على الأقل ، هو أن كلتا العادتين المتبعتين للتعبير عن الحزن لفقد الأقرباء والأصدقاء ، قد وصلت الينا فى كتابات الشعراء الذين صوروا حياة العصر البطولى وأخلاقه ، ذلك العصر الذى سبقهم بزمن طويل •

وكذلك كانت النساء الأشوريات والأرمينيات ينزعن الى خدش خدودهن تعبيرا عن الحزن ، كما نعلم ذلك من « كزينوفان » الذى ربما شاهد مظاهر الحزن عند هزيمة « العشرة آلاف » التى شارك فيها بوصفه جنديا ، وخلدها بوصفه كاتبا • ولم تكن هذه العادة مجهولة عند الرومانيين القدماء لأن أحد قوانين « الألواح العشرة » الذى يرتكز على تشريع « سولون » ، حرم على النساء خدش خدودهن بأظافرهن عند الحداد • وقد اعتقد العلامة الرومانى القديم « فارو » أن جوهر تلك العادة كان يتمثل فى تقديم قدر من الدم عند قبر الميت ، وهو الدم السائل من خدود النساء بوصفه بديلا ناقصا لدماء الأسرى وهؤلاء الذين ضحوا بأنفسهم حتى الموت • وتؤكد عادات الشعوب الهمجية التى تعيش فى العصر الحديث ، كما سنرى وشيكا ، الى حد ما ، هذا التفسير لتلك العادة • فقد صور لنا « فرجيل » « آنا » وهى تشوه وجهها بأظافرها وتضرب صدرها بقبضتيها عندما وصل اليها نبأ وفاة أختها « ديدو » وهى واقفة بجوار النار المعدة لحرق جثث الموتى • على أننا نشك فيما اذا كان الشاعر يشير فى وصفه هذا الى عادة قرطاجانية ، أو الى عادة رومانية قديمة كانت تتبع فى ابداء الحزن على الفقيد •

وقد كان « السكيثيانيون » يحلقون شعرهم بأكمله ، ويجرحون أذرعهم ويخدشون جباههم وأنوفهم ويبترون آذانهم ، ويغرزون سهاما فى أيديهم اليسرى ، عندما يتوفى ملك من ملوكهم • وقد كان من عادة « الهون » ، عندما يعلنون الحداد على موت فقيد ، أن يجرحوا وجوهم جرحا بالغا ، ويحلقون شعورهم •

وعلى هذا النحو أبدوا حزنهم على أتيلا ، « لا عن طريق عويل النساء وبكائهن فحسب ، ولكن عن طريق تقديم قدر من دماء الرجال كذلك » • ومنذ عصر بالغ فى القدم تركز الشعوب السلافية تعبيرها عن الحزن على الفقيد فى الصراخ والعويل ، بينما يجرح المحزونون

وجوههم ، وهى عادة لا تزال تنتشر بين بعض سكان دالاماتيا ومونت ديجرو » • واذا حدثت وفاة فى بيت من بيوت « المينجريلايين » فى القوقاز • فان المحزونين يخدشون وجوههم ويشدون شعورهم كما انهم يحلقون وجوههم بما فى ذلك حواجبهم وفقا لرواية من الروايات • ووفقا لرواية أخرى ان النساء هى اللاتى يقمن بابداء شعائر الحـــزن هذه ، فالأرملة تجتمع فى حجرة زوجها المتوفى مع قريباته ويسلمن أنفسهن لأعمال العنف أو بالأحرى يسلمن أنفسهن للتعبير عن الحزن ، فيشددن شعورهن ويلطمن وجوههن وصدورهن ، ويعترضن على حادث الوفاة المؤسف • أما الشعر الذى ينتزعه من رءوسهن فى هذه المناسبة ، فيضعنه فيما بعد فى لحد الميت • ويجتمع الاقرباء فى مثل هذه المناسبة عند قبيلة « أوسيتى » فى القوقاز فيعرى الرجال رءوسهم وأفخاذهم ويضربون أنفسهم بالسـياط حتى يسيل منهـا الدم • أما النســاء فيخدشن وجوههن ويعضضن أذرعهن ويشددن شعورهن ، ويضربون صدورهن ، وهن يصرخن صراخا معولا •

ويبدو أن عادة تجريح الجسم ، بعيدا عن عادة بتــر مفاصــل الأصابع ، تقل نسبيا بين القبائل الافريقية • ومن عادة الأحباش ، عندما يحزنون على وفاة قريب أن يقصوا الشعور وينثروا الرماد على رءوسهم ويخدشوا خدودهم حتى يسيل منها الدم • واذا حدثت وفاة عند قبيلة وانيــكا التى تســكن فى شرق افريقيــا ، فان الأصــدقاء والأقرباء يجتمعون ويعــولون بصــوت عال ، ويحلقون رءوســهم ويخدشون وجوههم • وعند قبيلة كيسى التى تعيش عند حدود ليبيريا تغطى النساء أجسامهن عند الحزن على الميت ، كما يغطين رءوسهن بصــفة خاصة بطبقة من الطــين ، ويخدشن وجوههن وصــدورهن بأظافرهن • وقد تعودت الأرمل عند بعض قبائل كافير التى تسكن فى جنوب افريقيا ، أن تبقى فى مكان منعزل مدة شهر بعد وفاة زوجها ، ثم تخلع ملابسها وتغسل جسمها ، وتجرح صدرها وذراعيها ورجليها بحجر حاد ، بعد انقضاء هذه الفترة ، وقبل أن تعود لبيتها •

واذا كانت عادة تجريح الجسم عند الحزن تمارس فى ندرة فى افريقيا ، فانها كانت مألوفة بين القبائل الهندية فى أمريكا الشـمالية . فقد ألف أفراد قبيلة « تينيه » أو « دينى » التى كانت تسـكن فى شمال غرب أمريكا أن يجرحوا أجسامهم عند وفاة قريب ، ويقصـوا شعورهم ويمزقوا ملابسهم ويتمرغوا فى التراب . واذا حدثت وفاة عند قبيلة « كينسيتينوه » أو « كـرى » التى كانت تنتشر فى مساحة واسعة فى غرب كندا ، فانهم يعبرون على هذا النحو عند أحزانهم . واذا كان الفقيد عزيزا عند اقرباءه الأدنين يقصون شعورهم ويخزون الرماح والسكاكين فى أفخاذهم وأذرعهم ويطلون وجوههم بالفحم . وعندما يحرق جسد الميت فى النار المضطرمة عند قبيلة « كيجانى » وهى فرع من هنود « تيلينكت » أو « تيلينجيت » فى الاسكا ، فان أقرباء المتوفى يجتمعون ويؤذون أنفسم بدون هوادة ، مزدرين أنفسهم كل الازدراء ، فيخدشون أجسـامهم ويجـرحون أذرعهـم ويضربون وجوههم بالأحجار الى غير ذلك من الأفعال العنيفة . وهناك فرع آخر من هنود تيلينجيت يكتفى أفراده فى مثل هذه المناسبة الحزينة بحرق شعورهم أو تشييطها بأن يزجوا برءوسهم فى لهيب النار المضطرمـة المعدة لحرق الجثث بينما يكتفى البعض الآخر الذين يتسمون بشىء من التعقل فى تصرفاتهم ، أو ربما لأن حزنهم على الفقيد لم يكن يصل الى درجة حـزن الآخرين عليه ، بقص شعورهم وطلاء وجوههم برماد الجثة المحتـرقة .

وقد كان من عادة رجال ونساء هنود ولاية وشنطون الشجعـان الذين يتميزون برءوسهم المفلطحة ، أن يعلنوا الحداد على المحـارب المتوفى . بأن يقطعوا قطعة من لحمهم ويلقونها فى النار مع جـذوع الأشجار . واذا ألمت كارثة بهنود هذه المنطقة كأن يتوفى زعيم مرموق أو تقتل جماعة من محاربيهم بيد قبيلة معادية ، فان الجميع يشتركون فى اظهار هذه العواطف المحمومة ، فينتزعون شـعورهم ويجرحـون أجسامهم بحجر القداحة وكثيرا ما يصـيبون أنفسهم بأذى بالغ .

« وقد كانت من عادة أقرباء الميت فى قبيلة شينوك ، وغيرها من القبائل الهندية التى تسكن فى أوريجون أو عند نهر كولومبيا ، أن يدمـروا ممتلكاتهم ، ويقصوا شعورهم ، ويشوهوا أجسامهم ويجرحوها » • وقد يتراءى للرائى ، عندما ينظر الى هذه القبائل الهمجية ، والدماء تسيل من أجسادهم ، أنهم لن يبرءوا من مثل هذه الأعمال المتوحشة التى يصنعونها بأنفسهم ، ولكن مثل هذه الجروح ، وان تكن سيئة ، ليست خطيرة • ولكى يجرح الرجل الهمجى نفسه ، فانه يمسك بجزء من جلده بين الابهام والسبابة حتى يبرز هذا الجزء ، ثم يأتى بسكين ويزجه فى وسط ، فيترك هذا القطع ، بعد أن يعود الجلد الى وضـعه الطبيعى ، جرحا بالغا قبيح المنظر أشبه بالحجر • ومن هذا الجـرح يتدفق الدم بغزارة • وبهذا يشوه أقرباء المتوفى أنفسهم بمثل هـذه الجروح ، وربما بما هو أسوأ منها •

« واذا حدثت وفاة بين هنود شبه جزيره كاليفورنيا ، فان من يود أن يبدى لأقرباء الميت حبه له ، فانه ينتظر قدوم أقرباء الميت ، فاذا مروا به فانه يخرج من مخبأه زاحفا على وجه التقريب ، ويتغنى بصوت شاك حزين قائلا : « هو ، هو ، هو ، » ثم يضرب رأسه بأحجـار حادة مدببة ، حتى يسيل الدم على كتفيه • وعلى الرغم من أن هذه العادة البربرية كثيرا ما كانت تحرم ، الا أن الناس لا يبدون استعدادا للكف عنهـا » • وبمجـرد أن تصـعد روح الميت » عنـد الهنـود « الجالينوميريين » ، وهم فرع من الهنود البومبيين الذين يسـكنون وادى نهر روسيا فى كاليفورنيا ، « فانهم يلقون بالجثة فى وقار بـين النار المضطرمة المعدة لحرقها • وليس من اليسير وصف تلك المناظـر البشعة التى يقومون بها من صراخ وعويل مفزع ، الى اصابة الجسم بجراح بالغة فى أثناء احتراق الجثة • ويقول « جوزيف فيتش » انـه قد رأى هنديا أصابه الهياج الى درجة أنه دفع بنفسه بين النار المتوهجة، وانتزع قطعة من جسـد الميت المحترق والتهمها » • ويقص أقارب المتوفى الأدنون فى بعض قبائل هنود كاليفورنيا شعورهم ، ويرمونها

فى النــار المضطرمة ، فى الوقت الذى يأخــذون فى ضرب أجســامهم بالأحجار حتى تدمى •

ولكى يبدى هنود « سنيك » الذين يسكنون جبال روكى حزنهم على الفقيد القريب أو على الفقيد الصديق ، فانهم يحدثون جراحا فى الأجزاء التى يتراكم فيها اللحم فى أجسادهم • وكلما ازداد حبهـم للفقيد ، عمقوا الجرح فى أجسادهم • وقد أكد هؤلاء لمبشر فرنسى أن الألم الذى يملأ نفوسهم لفقد الميت يتسرب الى الخـارج من هـذه الجروح • وقد أخبرنا هذا المبشر نفسه أنه تقابل مع مجموعة من نساء « كرو » المكلومات ، وقد غطت الدماء المتجلطة أجسامهن فى صـورة بشعة الى درجة أن منظرهن كان يبعث على الشفقة بقدر ما كان يثير الفزع • وقد كان هؤلاء النسوة المساكين ملتزمات بتجـديد شـعائر الحزن فى كل مرة يمررن فيها بجانب قبور أقربائهن • وقد كان مـن المحرم عليهن أن يغسلن أجسامهن طالمـا كانت هناك بقعة متجلطة من الدم فوقها • ومن عادة قبيلة « كومانشى » ، وهى قبيلة هندية تشتهر باقتنائها الخيول فى تكساس ، أن أفراس الرجل الميت تقتل فى العادة وتدفن معه حتى يتمكن المتوفى من أن يركبها فى « بلاد الصيد السعيدة» • كما يحرق أفضل متاعه لكى يكون معدا للاستعمال عند وصوله الى العالم الأفضل • وعند ذاك تجتمع زوجاته الارامل حول أفراسه ، وقد حملت كل منهن سكينا فى يد وحجـر الشحذ فى اليد الأخرى ثم يعـولن بصوت عال بعبارات حزينة بينما يجرحن أذرعهن وأرجلهن وأجسامهن، حتى ينتابهن التعب نتيجة تدفق الدم • كما يقص أفراد هذه القبيلة شعر أعناق الأفراس وذيولها تعبيرا عن الحزن فى هذه المناسبات ، كما يقصون شعورهم أنفسهم ويجرحون أجسامهم بطرق شتى • وعنـد هنود « أراباهو » تجرح النساء الحزينات الجزء الأعلى والأسـفل من أذرعهن وكذلك أسفل ركباتهن جرحا سطحيا • ويحل المحزونون فى هذه القبيلة جدائلهم ، وفى بعض الأحيان يقصونها • وكلما ازداد حبهم للفقيد الراحل ازداد قطعهم لشعرهم • ثم تـدفن خصـل الشـعر

المقصوص مع جسد الميت • وفضلا عن هذا فانه يقص شعر ذيل الحصان الذى قتل ليرافق الميت فى حياته الآخره ، وكذلك شعر عنقه ، وينثر الشعر على ضريح الميت • وعند وفاة الأب أو الأم أو الابن عند السوكيين والفوكسيين • وهما يكونان قبيلة هندية أخرى ، فان أقارب المتوفى ، « يجرحون أذرعهم وأرجلهم وأجزاء أخرى من أجسادهم • وهم لا يفعلون ذلك بقصد تعذيب الذات ، ولا بقصد اثارة الألم فى نفوسهم الأمر الذى يصرفهم عن تذكر خسارتهم • وانما يفعلون ذلك بدافع الاعتقاد فى أن حزنهم الداخلى لابد أن يجد منفذا يتسرب منه • وليست هناك وسيلة أخرى للتخلص من هذا الحزن خلاف هذه الوسيلة » • وبالمثل يجرح أفراد قبيلة « داكوناس » أو سيوكس أذرعهم وأفخاذهم وأرجلهم وصدورهم وغير ذلك ، على هذا النحو عند موت صديق • ويعتقد الكاتب (١) الذى دون هذه العادة أنه من المحتمل ان هذه القبيلة تفعل هذا بقصد التخفيف عن آلامهم النفسية ، لأن هؤلاء الهنود أنفسهم كثيرا ما تعودوا أن يجرحوا أنفسهم وأن يمتصوا دماءهم ، وذلك لشفاء أنفسهم من ألم جسدى • وفى اثناء هذه العملية يغنون او هم بالأحرى يرتلون التعاويذ التى يعتقدون انها بدون شك تعينهم على الشفاء • وقد تعودت الأرملة فى قبيلة « كانساس » أو « كونساس » التى تسمى الولاية باسمها ، وهى فرع ينتمى الى أصل « سيووان » ، أن تخدش نفسها وان تطلو جسدها بالطين ، كما أنها تهمل لبسها وتظل على هذه الحالة الجنونية مدة عام • ثم يأخذها أكبر اخوة الزوج المتوفى لتكون زوجة له دون أن يقوم بأى نوع من الاحتفالات •

وهذه العادة التى تختص بحداد النساء الأرامل تنتشر على

---

(١) هو الكاتب William H. Keating
وذلك فى كتابه Narrative of an expedition to the source of St. Peter's River.

(نقلا عن النسخة الأصلية لهذا الكتاب ، جـ٣ ص ٢٨١).
(المترجمة)

نحو مشابه بين فروع أوماها فى نيبراسكا ، وهى فرع آخر ينتمى الى أصل « سيووان » • « فعند وفاة الزوج تبدى الزوجات من الهنـــود الحمر حزنهن المخلص على وفاة الزوج ، بأن يوزعن على الجيران كل شىء يمتلكنه ، ولا يحتفظن الا ببعض الملابس القليلة التى تكفى لتغطية أجسامهن لدرجة الاحتشام • ثم يخرجن من القرية ويجرحن أجسامهن ويأخذن فى العويل لفقد الميت دون انقطاع • فاذا كان للفقيد أخ ، فانه يتخذ أرملة أخيه بعد قضاء فترة مناسبة على وفاة زوجها ، زوجة له ، دون أن يقوم بأى استعداد رسمى لذلك » • أما عنـــد قبيـــلة « أوماها » فلا يقتصر هذا الحداد الصـــارم على النســـاء الأرامل ، « فأقارب الميت يطلون أنفسهم بالجص ، ويجرحون أنفسهم بالحجر القداح ويقطعون أجزاء من جلدهم ولحمهم ، ويخزون أجســـامهم بالسهام • فاذا مشوا فانهم يمشون حفاة الأقدام على بعد من قومهم لاظهار حزنهم على الشخص المتوفى » • « فاذا توفى رجل له مكانة بين قومه ، فانهم يعلنون الحداد على النحو التالى : « يتقابل الشباب الذين فى مقتبل العمر عند مكان يقع بالقرب من مسكن المتوفى ويخلعون عنهم ملابسهم فيما عدا المئزر • ثم يجـــرح كل منهـــم أعلى ذراعه جرحين ، ويزجون فى اللحم فرعا ذا عسلوج فى طرفه • ثم يتحركون فى صف واحد والدم يقطر من العسلوج المعلق فى أذرعهم ، حتى يصلوا الى مسكن الفقيد • وهناك يقفون فى مواجهة مسكنه فى صف بحيـــث تتلاصق أكتافهم ويغنون فى انسجام الأغنية الجنائزية على ايقـــاع فروع الصفصاف المتحركة ، وهى الأغنية الجنائـــزية الوحيـــدة التى تعرفها هذه القبيلة • وعند نهاية الأغنية يتقدم قريب من أقرباء الميت نحو المغنين ويـــرفع يده عـــلامة على الشـــكر ، وينتـــزع فـــروع الصفصاف من أذرعهم ويرميها على الأرض » • وخلاف هذا ، فقـــد ألف أفراد هذه القبيلة ، ابداء لحزنهم على وفاة قريب أو صديق ، أن يقصوا خصلات شعورهم ويرموها على جسد الميت • وكذلك تقص

نساء هنود فرجينيا ضفائرهن فى بعض الأحيان ويرمينها عـــلى قبر الميت •

واذا حدثت وفاة بين هنود « وتاجونيا » ، يقوم المحزونون بتقديم واجب العزاء للزوجة الأرملة أو لأى قريب من أقرباء الرجل المتوفى ، وهم يصرخون ويعولون ويغنون بطريقة أشد ما تكون كآبة ، ويعتصرون دموعهم ، ويخزون أذرعهم وأفخاذهم بأشواك حادة حتى تدمى • وفى مقابل ابداء هذه العواطف الحزينة يمنحون بعض الخرزات أو بعض الحلى الرخيص • وبمجرد أن يعلم الشـــخص من قبائل « فويجيان » بموت صديق أو قريب له ، فانه ينفجر فى ابداء العواطف الحزينة ، فيبكى ويئن•كما أنه يجرح وجهه بقوقعة ذات طرف حاد، ويقص شعره حتى يبدوا قصيرا • أما عند قبيلة أونا الفويجيانية ، فان عادة جرح الوجه ابداء للحزن على الفقيد تقتصر على النساء الأرامل أو قريبات المتوفى •

وقد كان من عادة الاتراك القدماء أن يقطعوا وجوههم بالسكين حزنا على فقيدهم حتى يسيل الدم والدموع معا على وجناتهم • ومن عادة قبيلة « أورانج ساكاى » ، وهى قبيلة وثنية بدائية تعيش عـــلى الزراعة والصيد فى غابات شرق سومطرة التى يصعب على المســافر توغلها ، أن يقطع أفرادها وجوههم بالسكين حزنا على الميت قبل دفنه ، حتى يدعوا الدم يسيل على وجهه • واذا حدثت وفاة بين القبائل التى تتحدث لغة « رورو » التى تسكن عند منبع نهر سنت جوزيف فى نيوغينيا البريطانية ، فان النساء الغريبات من المتوفى يضربن رءوسهن ووجوههن وصدورهن وبطونهن وأذرعهن وأرجلهن بقواقع حادة حتى يتساقط الدم منهن ويقعن منهكات على الأرض • وعند قبيلتى « كوياری ، وتورايبى» اللتين تسكنان فى نيوغينيا ، يجرح المحزونون أجسامهم بالقواقع أو الحجر القداح حتى يتدفق الدم منهم بغزارة • وتعد فترة الحزن فى جزيرة « فايتى » أو « افاتى » وهى احدى جزر الهيبريد مناسبة للعويل الشديد • كما أن المحزونين يخدشون وجوههم حتى يتدفق منها الدم •

ويحدث مثل هذا فى جزيرة « ماليكولا » ، وهى جزيرة أخرى من جزر الهبريد الجديدة • فالمحزونون كانوا وما زالوا يقطعون أجسادهم حزنا على الفقيـــد •

ويقدم الجاليلاريزيون سكان هالماهيرا ، وهى جزيرة تقع فى غرب نيوغينيا شعورهم لروح قريبهم المتوفى فى اليوم الثالث لوفاته ، وهو اليوم التالى ليوم الدفن • وتقوم امرأة لم ترزأ منذ زمن قريب فى موت أبيها أو أمها أو ابنها بتأدية واجبات المحزونين ، فتنتزع شـــعر أطراف حواجبهم وخصلات شعورهم ، وتعلق هذا الشعر على معابدهم• وبعد أن يقص شعر المحزونين على هذا النحو ، فانهم يذهبون الى البحر ليستحموا ويغسلوا شعورهم بجوز الهند المبشور حتى يتطهروا من لوث الميت ، لأنهم يعتقدون أن لمس جسد الميت أو الاقتراب منه يجعل الشخص نجسا ، ومن يتعرض لمثل هذا الدنس أو يأكل طعاما كان فى البيت مع وجود جثة الميت ، فانه ، وفقا لتصورهم ، يفقد القدرة على رؤية الأرواح • واذا لم يقدم الأحياء شعورهم للميت ، ولم يقوموا بتطهير أنفسهم بعد ذلك فانه لا يتخلص وفقا لاعتقادهم كذلك ، من تعقب روح الأخ الميت أو روح الأخت الميتة لهم • فاذا توفى شخص بعيدا عن بيته ، على سبيل المثال ، ولم يكن نبأ موته قد وصل الى أسرته ، ولم يكن أفراد الأسرة ، بناء على ذلك ، قد قصوا شعورهم أو استحموا فى اليوم الثالث لوفاته ، فان شبح الميت (الذى يطلقون عليه اســـم صوصو) يسكنهم ويمنعهم من القيام بأعمالهم • فاذا عصروا جـــوز الهنـــد بعد ذلك ، فانهم لا يستجلبون منه الزيت ، واذا سحقـــوا لب النخل ، لا يحصلون على وجبة تسد رمقهم ، واذا قاموا بالصيد فانهم لا يوفقون فى اصطياد أى حيوان • ويظل الشبح يضايقهم ويعطـــل أعمالهم حتى يصلهم نبأ الموت • وعنـــد ذاك يقصـــون شـــعورهم ويستحمون • ويعتقد المبشر الكفء الذى روى لنا هـــذه المعلومات أن تقديم الشعر للميت يخدع الشبح الساذج فيجعله يتصور أن أصدقاءه قد تبعوه فى العالم الآخر • ولكننا نشـــك فيما اذا كانت درجة سذاجة

الأشباح قد تمتد بحيث انهم يأخذون خطأ خصـــلات الشعر عـــلى أنها هى نفسها الأشخاص الذين قصت هذه الخصلات من شعورهم •

ويبـــدو أن هـــذه العادات كانت تنتشر بين كل فروع الجنس البولونيزى الذى ينتشر انتشارا كبيرا فى الباسفيك • فمن المألوف عند حدوث وفاة فى أوتاهيتى أن يحمل رفات الميت الى بيت أو كوخ بنى لهذا الغرض ويطلق عليه اسم « توبابو » • وهناك يترك حتى يتعفن ويتحلل اللحم تماما وتتخلف العظام • « وتبدأ شعائر الحداد بمجرد أن توضع الجثة فى الـ « توبابو » ، فتجتمع النساء عند باب أقرب قريبة للميت التى تكون بصدد ضرب هامتها مرات عديدة بسن سمك القرش حتى يتدفق منها الدم ويستقبل بحرص على قطع من القماش الكتان التى تطرح بعد ذلك فى نعش الفقيد ، ثم تفعل سائر النسوة بعد ذلك فعل هذه المرأة • ويتكرر حدوث هذا مدة يومين أو ثلاثة طالما كن متحمسات لهذا الفعل، وما زلن يبدين الأسف على فراق الميت • كما تستقبل الدموع التى تسكب فى هذه المناسبة على قطع من القماش وتقدم منحة للميت • ويقطع بعض الأفراد الأصغر سنا شعورهم ويرمونها أسفل النعش مع عطايا أخرى • وترتكز هذه العادة على فكرة أن روح الميت الذى يعتقـــد أنه يعيش منفصلا عن الميت ، يحلق فى المكان الذى يستلقى فيه الجســـد ويرقب أفعال الاحياء • وهو يمتن كل الامتنان بما يبدونه من مشاعر الحب والحزن » ووفقا لرواية كاتب آخر أن « التاهيتيين فى حالة الحزن، لا يعولون بصراخ عال ونغمة مؤثرة فحســـب ، وانما يحلقون شعورهم ويمزقون ملابسهم ويقطعون أجسامهم بأسنان سمك القرش أو بالسكين بطريقة مفزعة • والآلة التى تستخدم عادة فى هذا الايذاء ، هى قصبة صغيرة يبلغ طولها حوالى أربع بوصات ومثبت فى جانبيها ست أسنان من أسنان سمك القرش • وتحتفظ كل امرأة بهـــذه القصـــبة بعـــد زواجها لكى تستخدمها فى مناسبات الموت بلا رحمة • على أن البعض لا يكتفون بايذاء أنفسهم بهذه القصبة ، وانما يعدون آلة قصيرة أشبه بمطرقة الحداد ويبلغ طولها خمس أو ست بوصات • وهى مستديرة

عند طرف مقبضها ، ومثبت فى طرفها الخشبى الآخر صفان أو ثلاثة من أسنان سمك القرش • وبهذه الآلة يقطعون أجسامهم دون هوادة عند موت قريب أو صديق ، كما يضربون رءوسهم وخدودهم وصدورهم حتى يتدفق الدم بغزارة من الجروح ، وفى الوقت نفسه يصرخون صراخا يصيب الانسان بالصمم ويبعث فى النفس الألم • كما أن ملامحهم المشوهة وشعرهم الأشعث الممزق ، ودموعهم ودماءهم المختلطة التى تغطى أجسامهم ، ونظراتهم الهائجة ، وسلوكهم الجامح ، كل هذا يخلع عليهم مظهرا لا انسانيا مفزعا • وتقوم النساء أساسا بهذه الأعمال العنيفة ، ولكنهن لا يقمن بها وحدهن ، وانما يشاركهن الرجال فى هـذه المناسبات ، هذه الأفعال الشائنة • فهم لا يقطعون أجسامهم فحسب وانما يأتون مسلحين بالهروات وغير ذلك من الأسلحة المميتة التى يستخدمونها فى ايذاء أنفسهم • وترتدى النساء فى بعض الأحيان فى هذه المناسبات الكئيبة مئزرا يمسكن طرفه باحدى أيديهن لكى يستقبلن فيه الدم ، بينما يجرحن أنفسهن باليد الأخرى • ثم يجفف هذا المئزر بعد ذلك فى الشمس ويقدم لأسرة المتوفى رمزا للود ، وهى تحتفظ به بدورها بوصفه دليلا على التقدير الذى كان يتمتع فيه الفقيد • وعنـد موت ملك أو زعيم كبير يجتمع مواطنوه ويمزقون شعورهم ويجرحون أجسامهم حتى تتغطى بالدم المتدفق ، وكثيرا ما يتشاجرون بالهراوات والأحجار حتى يقتل منهم واحد أو أكثر • وربما ساعدتنا هذه المشاجرات التى كانت تحدث عند موت زعيم كبير فى تفهم نشأة عادة مقاتلة الأسير حتى الموت التى نشأت فى روما • فالقدماء أنفسهم أخبرونا أن هـذه المشاجرات جرت لأول مرة فى الجنائز ، وكانت بديلا لقتل الأسرى عند قبر الزعيم المتوفى • وقد أقام « بونيوس بروتس » أول عرض من هذا النوع فى روما عام ٢٦٤ ق•م• تكريما لوالده المتوفى ••

ولم يكن يقتصر استخدام نساء تاهيتى لأسنان سـمك القرش بوصفه مبضـعا لاسالة الدم من رءوسهم على مناسبات الموت ، بل كانت المرأة تستخدم هذا السلاح كذلك اذا حدث حادث لزوجها أو

لقريب من أقربائه أو صديق من أصدقائه أو لطفل من أطفالها • بل انها تستخدمه اذا وقع طفلها على الأرض ولحق به الأذى وعند ذاك تخلط دمها بدموعه • أما اذا توفى الطفل فان البيت يعج عند ذاك بالأقارب الذى يجرحون أجسامهم ويعولون بصوت مرتفع • « وفى هذه المناسبة يقطع الولدان شعرهما من جانب واحد بحيث يبدو قصيرا من جانب وطويلا من الجانب الآخر ، هذا بالاضافة الى سائر شـعائر الحزن الأخرى • وأحيانا يقص الوالدان شعرهما فى مساحة مربع فى مقدمة الرأس ، وقد يترك البعض الآخر هذا الجزء ويقصون ما دون ذلك • وفى بعض الأحيان تترك خصلة من الشعر فوق كل أذن ، وأحيانا تترك خصلة فوق أذن واحدة ، كما أنه فى بعض الأحيان يقص نصف الشعر على نحو قصير للغاية ويترك النصف الآخر لينمو • وقد تمتد شعائر الحزن هذه مدة عامين أو ثلاثة أعوام » • وربما فسر هـذا عـادة الاسرائيليين فى احداث صلعات فى رءوسهم علامة على الحزن •

واذا توفى ملك أو زعيم كبير فى هواى أو جزر السندوتش ، فان الناس يعبرون عن أحزانهم بأشكال شتى من الاعتداء على أنفسهم ، فهم لا يمزقون ملابسهم كلية فحسب ، وانما يضربون أعينهم وأسنانهم بالسوط والحجر ، وينتزعون شعورهم ، ويحرقون جسدهم ويقطعونه • وأكثر عمليات التشويه التى تمارس فى هذه المناسبات انتشارا ، هى عملية اقتلاع الأسنان عن طريق ضربها • وكل من الجنسين يتبع هذه العادة ، وان كان الرجال يقومون بها على نطاق واسع • وعند وفاة ملك أو زعيـم بارز ، فانه يتوقع من الزعماء الآخرين والذين تربطهم به رابطة الدم أو الصداقة ، أن يعبروا عن علاقتهم به بكسر سـن من أسنانهم الأمامية عن طريق ضربها بالحجر • فاذا فعلـوا هـذا ، فان اتباعهم يشعرون بالتزامهم باقتفاء أثرهم • وفى بعض الأحيان يكسر الرجل سنه بنفسه • ولكن الغالب أن يقوم بتأدية هذا له شخص آخر ، فيأتى هذا بعصاة ويغرسها بجانب السن ويدقها بالمطرقة حتى يقتلع

السن أو تكسر • فاذا تردد الرجال فى فعل هذا ، فان النساء يقمن بهذا العمل لهم فى أثناء نومهم • ومن النادر أن يقتلع أكثر من سن فى مناسبة واحدة • ولكن لما كانت عملية الايذاء هذه تتكرر عند وفاة زعيم أو كبير فمن النادر رؤية رجال بالغين وقد اكتملت أسنانهم • بل ان كثيرا منهم فقد أسنانه الأمامية فى كلا الفكين ، الأمر الذى ينجم عنه عيب فى النطق ، بالاضافة الى الاضرار الأخرى • على أن هناك من يجرؤ على أن يشذ عن هذه القاعدة ويحتفظ بأسنانه كاملة •

وبالمثل فان أفراد قبيلة تونجان يقتلعون أسنانهم فى فترات الحزن كما يحرقون أجسامهم ويحدثون فيها قرحا ، كما يغرزون أسنان سمك القرش فى رءوسهم حتى يتدفق منها الدم ، ويزجون السهام فى أفخاذهم وفى الطرف الأسفل من ابطهم وفى خدودهم حتى تدخل فى أفواههم • ولقد أبصر بحار انجليزى توفى فى مطلع القرن التاسع عشر فى أثناء اقامته بين قبيلة تونجون ما قام به الناس من أعمال غريبة حزنا على ملكهم « فينو » ، وقد صور ذلك فى وضوح بالغ • فقد أخبرنا أن الزعماء والنبلاء الذين اجتمعوا فى هذه المناسبة أبدوا حزنهم على فقد ملكهم بأن أخذوا يقطعون أجسامهم ويضربونها بالسياط والأحجار ، ويقطعونها بالسكاكين والقواطع الحادة • وقد يجرى أحدهم أو اثنان منهم أو ثلاثة دفعة واحدة ، ثم يقفون وسط دائرة المتفرجين ليبرهنوا على حزنهم البالغ وتقديسهم لذكرى سيدهم وصديقهم الراحل • فيصرخ أحدهم قائلا : « فينو ! اننى أعرف تماما ما يدور بخلدك . لقد شئمت أن تتركنا وترحل الى بولوتو (أرض الأموات) • وبهذا تركت شعبك فى شك من أمره • فاذا كنت تشك فى اخلاصى أو اخلاص غيرى لك فما الدليل على عدم الاخلاص ؟ وهل هناك سلوك واحد من قبلنا يدل على عدم احترامنا لك » ؟ وبعد أن يقول هذا يضرب رأسه بقسوة ويجرحها جرحا عميقا بالسوط أو الحجر أو السكين وهو يصرخ بين الحين والآخر : « أليس هذا دليلا على اخلاصنا لك ؟ ألا يؤكد هذا ولاءنا واحتفاظنا بذكرى محاربنا الراحل ؟ » ثم يأتى شخص آخر

ويسير مستعرضا نفسه جيئة وذهابا فى خطوات هائجة جامحة ثم يدير سوطه فى سرعة ويضرب نفسه به مرتين أو ثلاث مرات بقسوة على أم رأسه أو خلف رأسه ، ثم يقف فجأة ويحملق فى الدم المتدفق ويصرخ قائلا : « واحسرتاه ياسوطى • من ذا الذى كان يتصور أنك تفعل هذا الفعل الحسن بى ، وتمكننى من أن أبدى احترامى للملكى فينو • أبدا ، أبدا ، لن تستطيع بعد ذلك أن تهوى على رءوس أعدائه • واحسرتاه على المحارب الشجاع العظيم الذى سقط ميتا • أيها الملك ، لتكف عن أن تشك فى ولائى لك ، ولتتأكد من اخلاصى لك » • وهناك من يرتكب أعمالا أعنف من هذا بأن يضرب رأسه ضربات شديدة متتالية حتى يصاب بالدوار ويفقد صوابه لبعض الوقت • كما يقوم البعض الآخر فى أثناء فترة الحزن على « فنو » بحلق رءوسهم ، واحراق وجناتهم بقطع من القماش المضفر المحترق ، ودعك جراحهم بثمار قابضة مسيلة للدم • ثم يضعون هذا الدم فى شكل حلقات حول الجرح الذى يبلغ قطره بوصتين فيكون منظرهم بذلك منفرا للغاية • وهم يكررون عملية الدعك هذه يوميا ، بحيث يسيل منها الدم من جديد • أما الصيادون فيضربون رءوسهم ويكدمونها بمجاديفهم دليلا على حبهم لسيدهم الراحل • وفضلا عن هذا فان كلا منهم يرشق ثلاثة سهام فى كل خد فى اتجاه مائل ، بحيث تدخل أطرافها داخل الفم وتتعلق رءوسها فوق الكتف ، بينما يسندها سهم آخر يثبت فى ظهر الصياد ويمسك برءوس المجموعتين بحيث يكون شكلا مثلثا • وبهذا العتاد الغريب يسير الصيادون حول قبر المتوفى وهم يضربون وجوههم ورءوسهم بالمجاديف ، أو يلدغون جلد صدورهم ويرشقون بداخلها السهام • وكل هذا من أجل ابداء عواطفهم للزعيم الراحل •

وكذلك كانت من عادة المحزونين فى جزر « ساموان » ، أن يظهروا حزنهم عن طريق العويل المحموم والصراخ وعن طريق تمزيق الملابس وتقطيع الشعر واحراق الجسم بشعلات من النار ، واصابته

بكدمات بضربه بالاحجار ، وجرحه بالاحجار الحادة والقواقع ، وأسنان سمك القرش حتى يغطى الدم أجسام المحزونين • وهذه التعبير لا يعنى ، وفقا لرأى الدكتور « جورج براون » ، تقديم الدم للآلهة ، بل يعنى أولا وقبل كل شىء ، ابداء العواطف نحو الفقيد والحزن على فراقه • ومثل هذا يحدث فى « مانجيا » احدى جزر هيرفاى • فمما يكاد الشخص المريض يلفظ أنفاسه ، حتى يصبغ أقرباؤه الأدنون وجوههم بالسواد ، ويقصون شعورهم ويضربون أجسامهم بأسنان سمك القرش حتى يتدفق الدم منها • وقد كان من المألوف فى « رارتونجا» أن تكسر بعض الأسنان الأمامية ابداء للحزن على الميت • وعلى هذا النحو يعلن المحزونون أسفهم على الفقيد فى جزر ماركويزا • « فعندما يموت زعيم كبير ، تطلق أرملته ونساء القبيلة صرخات مدوية ، بينما يضربن جباههن وخدودهن وصدورهن بشظايا البامبو • وقد اختفت تلك العادة على الاقل فى « توكاهيفا » • أما فى مجموعة الجزر الجنوبية الشرقية ، فلا تزال النساء يتبعن تلك العادة ، فهن يدمين وجوههن بعد جرحها بجراح بالغة ، ويظهرن علامات الأسى فى جنازة القريب » •

وقد كانت عادة الحزن بين الموءوريين فى نيوزيلندة شبيهة بهذا • « فزوجات الميت وأقرباؤه ، وبخاصة النساء يبدون حزنهم عن طريق قطع وجوههم وجباههم بالقواقع وقطع الزجاج البركانى الاسود ، حتى يتدفق الدم بغزارة ، ثم يتركونه يجف على وجوههم • وكلما تغطت الوجوه بجلطات الدم بدا حزنهم أكبر على الفقيد • كما كان الشعر يقص دائما علامة على الحزن • وكان الرجال يقصون شعورهم من جانب واحد من الجبهة الى الرقبة » • ووفقا لرواية أخرى ان قطع الجسم من أجل الفقيد بين الماوءوريين لم تكن تقتصر بحال من الاحوال على الوجوه والجباه • « فكل أقرباء الميت وأصدقاؤه وعبيده وخدمه وأتباعه ، اذا كان يملك بعضا منهم ، يقطعون أجسامهم فى ايجاع ، بحيث يكون مرآهم مفزعا للرجل الاوربى • فهم يمسكون

بقطعة من حجر القداح (وتقدس هذه القطعة لسفكها الدم وبسبب الغرض استخدمت من أجله) بين الابهام والوسطى ويدخلونها فى جلدهم على مســافة تبلغ قدر طول الظفر • ثم يجرحون جبهتهم • ويمتد الجرح فى شكل هلالى الى أسفل الوجه على كل من الجانبين ، كما تخدش الأرجل والأذرع والصدر بطريقة مؤلمة • وفى بعض الاحيان يجرح النســاء صــدورهن جرحا بالغا على نحو أشمل وأعمق ممــا يفعله الرجال •

وربما ليس هناك شعب تتبع فيه عادة تجريح الاجســام تكريما للميت ، اتباعا منظما وبقسوة بالغة كما يفعل سكان استراليا الأصليون السذج الذين ما زالوا يقفون عند أسفل المراتب الاجتماعية • فالارمل فى القبائل التى تسكن غرب فيكتوريا يعلن الحداد على زوجته مــدة ثلاثة أشهر قمرية • وفى اليوم الثانى من كل شهر من هذه الشهور يصرخ ويعدد مآثر زوجته ويخدش جبهته الى أن يسيل الدم عــلى خديه • كما أنه يغطى رأسه وجبهته بالجص ، فاذا كان يحبها حبا بالغا ويود أن يعبر عن بالغ حزنه لفقدها ، فانه يحرق نفسه حول خصره فى شكل ثلاثة خطوط بلحاء شجر متوهج • أما الارملة فهى تعلن الحداد على زوجها مدة سنة قمرية ، فتقص شعرها باتقان ، وتحرق فخذيها بالرماد المتوهج الذى تضغطه عليهما بقطعة من اللحاء حتى تصرخ من الألم • وفى الليلة الثانية من كل شهر تبكيه بعويل وتعدد مناقبه وتجرح جبهتها حتى يتدفق الدم على وجنتيها • وفى الوقت نفسه تغطى رأسها وجهها بالجص • وينبغى عليها أن تفعل هذا مدة ثلاثة أشهر قمرية • ويخدش الاطفال جبــاههم حزنا على فقد والديهم • والوالدان عند سكان وسط فيكتوريا هما اللذان يجرحان جسميهما جروحا بالغة عند فقد ابن لهما • فالأب يضرب رأسه ويجرحها بالفأس ، والأم تحــرق صدرها وبطنها بعصاة مشتعلة • وهما يفعلان هذا يوميا ولمدة ساعات حتى تنتهى فترة الحداد • ولا تحرق النساء الأرامل فى هذا القبــائل صدورهن وأذرعهن وأرجلهن وأفخاذهن بالعصى المحترقة فحسب ، بل

يدعكن الرماد فى جروحهن ويخدشن وجوههن حتى يختلط الدم بالرماد • وعند قبيلة كورناى التى تسكن فى جنوب شرق فيكتوريا ، يقطع المحزونون أنفسهم بالاحجار الحادة والفؤوس حتى يتدفق الدم من رءوسهم وأجسامهم • واذا توفى رجل فى قبيلة ماكجاراوانيت التى تقطن غرب فيكتوريا ، فان أقرباءه يصرخون عليه ويقطعون أنفسهم بالفؤوس وغير ذلك من الآلات الحادة لمدة أسبوع •

وعند قبائل جنوب موراى وأدنى نهر دارلنج يلهب المحزونون ظهورهم وأذرعهم ، وفى بعض الاحيان وجوههم بشعلات من اللهيب المحترق ، حتى يترتب عن ذلك كدمات مؤلمة • ثم ينبطحون فى عنف على القبر ، ويمزقون شعورهم عن طريق تدليك رءوسهم وأجسامهم بحفنات من التراب تدليكا مسرفا ، كما يدلكون قرحاتهم التى يضرب لونها الى الخضرة حتى يختلط الدم بالأوساخ فى شكل مقزز للغاية • وقد تعود المحزونون فى قبيلة كاميلارو ، وهى قبيلة كبيرة تسكن شرق « نيوسوث ويلز » ، وبخاصة النساء منهم أن يغطوا رءوسهم بكتل من الجص ، ثم يشقوا رءوسهم بالفؤوس حتى يتدفق الدم فوق الجص ويسيل على أكتافهم حيث يترك حتى يجف • وقد تحدث كاتب عن طريقة الدفن عند سكان نهر « موراى » فقال : « يجتمع كثير من النساء حول نعش الفقيد ، وهن قريبات المتوفى ، ويصرخن ويعولن عويلا مؤلما ، ويجرحن أفخاذهن وظهورهن وصدورهن بالقواقع وحجر القداح ، حتى يتدفق الدم بغزارة من الجروح » •

وتدوم فترة الحزن عند قبيلتى « كابى » و « وكا » اللتين تسكنان جنوب شرق كوين لاند بالقرب من نهر « مارى » حوالى ست أسابيع • « ففى كل ليلة ينبعث صوت صراخ من الجميع ويدوم بضع ساعات يصحبه قطع الاجسام بأحجار القداح أو بأية آلة قطع أخرى ويكتفى الرجال بثلم مؤخر رءوسهم • أما النساء فيجرحن أنفسهن من قمة رءوسهن الى أخمص أقدامهن ، ويتركن الدماء تجف على

جلودهن » • أما فى حى « بوليا » فى وسط كوين لاند ، فان النساء يجرحن أفخاذهن بجروح داخلية وسطحية بأحجار حادة أو بقطع من الزجاج ، بحيث يحدثن جروحا فى شكل متواز • وفى الاحياء المجاورة « لكوين لاند » يجرح الرجال أفخاذهم فى المكان نفسه جرحا واحدا عميقا فى شكل صليب • ويجرح أفراد قبيلة « كاكادو » التى تسكن فى المنطقة الشمالية من استراليا رءوسهم فى وقت الحزن حتى يتدفق الدم على وجوههم وعلى أجسامهم • ويفعل هذا الرجال والنساء على السواء • ثم يجمع بعض الدم بعد ذلك فى قطعة من لحاء الشجر توضع بدورها ، فيما يبدو ، عند شجرة تقع فى المكان الذى توفى فيه الشخص •

واذا حدثت وفاة فى قبيلة « كاريرا » التى تقطن غرب استراليا ، فان أقارب المتوفى الرجال منهم والنساء يولولون ويقطعون فروة رءوسهم حتى يسيل منها الدم • كما يقص شعر المتوفى ويحتفظ به ، ويصنع منه خيوط يرتديها الأقارب • ومن المألوف عند قبيلة« نارينيرى» وهى قبيلة تسكن جنوب استراليا أن يحرق جزء من جسد الميت فوق نار هادئة ثم ينزع عنه الجلد ويلون بمادة حمراء • وبعد ذلك يعلق الجسد عاريا على منصة • « وعند ذاك يصرخ أقارب الميت وأصدقاؤه ويعولون ويحلقون رءوسهم فى أحكام ، ويدهنون أنفسهم بالزيت والفحم المسحوق • أما النساء فيغطين أجسامهن بالروث المقزز ويضربن أنفسهن ويقطعن أجسامهن ويظهرن عاطفة الحزن فى عنف • ويحرص كل الاقارب على الحضور وعلى ألا يتغيب لحظة ابداء علامات الحزن حتى لا يتهموا فى اشتراكهم فى جريمة قتل المتوفى » •

ويفرض على الرجل فى قبيلة « أرونتا » التى تسكن وسط استراليا أن يجرح نفسه عند الكتف حزنا على فقد حميه • فان لم يفعل هذا ، فربما قدمت زوجته لرجل آخر ، حتى يهدأ غضب شبح الاب الذى سيجه عدم ولاء زوج ابنته له •

ويحرق رجال « أرونتا » أكتافهم ، ويظل هذا الجرح الملتهب علامة على ولائهم لأحمائهم المتوفين • أما قريبات المتوفى فى قبيلة«أرونتا»، فيجرحن أنفسهن كذلك ويقطعن أجسامهن ابداء للحـــزن • وعلى الرغم من أنهن يفعلن هذا فى جنون ، ألا أنهن مع اضطرابهن البالغ ، يحرصن على أن يدمين جزءا حيا من أجسامهن ، وانما يعملن القطع فى فـــروة رءوسهن وأكتافهن وأرجلهن • وتحلق النساء الأرامل شعورهن فى قبيلة « وارامونجا » فى وسط استراليا ، ويقطعن فروة رءوسهن مـــن الوسط ، ويمررن فى الجرح عصيا محترقة • وكثيرا ما ينجم عن هذا عواقب جسيمة • وتكتفى قريبات المتوفى الأخريات فى قبيلة«وارا مونجا» بقطع فروة رءوسهن وذلك عن طريق ضربها تباعا بعصى اليام حتـــى يسيل الدم على وجوههن ، بينما يجرح الرجال أفخاذهم بالسكين جروحا تختلف فى درجة عمقها • وهم يعملون على توسيع هذه الجروح قدر الامكان بأن يربطوا خيطا متينا حول الرجل على جانبى الجرح • ويظل أثر الجرح على هذا النحو باقيا الى الابد • وقد أبصر رجل يحمل آثار جراح بلغ عددها مالا يقل عن ثلاثة وعشرين جرحا ، صنعها فى جسمه فى فترات الحزن المختلفة • وفضلا عن هذا ، فان رجال « وارامونجا » يقطعون شعورهم فى فترات الحزن بحيث تصير شعورهم قصيرة للغاية، ثم يحرقون هذا الشعر المقصوص ويطلون فروة رءوسهم بالجص ، بينما يحلق الآخرون شواربهم • وهم فى كل عمل من هذه الأعمـــال يتبعون قواعد محددة ، فهم لا يجرحون الأفخاذ ، بل لايقصون الشعر أو يحلقون شواربهم اعتباطا ، أو لمجرد الشعور بالحزن ، وانما ينبغى على الاشخاص الذين يؤدون هذه الافعال أن تكون قرابتهم للميت محددة ، وليست قرابة من أى نـــوع • وتخضـــع صلة القـــربى فى تصنيفاتها ومجموعاتها لمـــا تعارف عليه ســـكان استراليا الاصـــليون وحدهم • « فاذا توفى رجل » فى هذه القبيلة ، « وكان ينتمى اليـــك بصلة قرابة خاصة ، فلا بد أن تقوم بايذاء نفسك الايذاء المناسب لهذه القرابة ، كأن تجرح فخذيك أو تقص شعرك ، وسواء كنت صديقا

شخصيا للميت أم لا أو كان المتوفى صديقك الحميم أم من ألد أعدائك فلا بد أن تقوم بايذاء نفسك ايذاء ما » •

ومما هو جدير بالملاحظة أن الدم المتدفق من قطع جسد المحزونين الاستراليين يصب على جسد الميت مباشرة أو على الاقل يتساقط على قبره • فقد تعود الرجال فى بعض القبائل التى تسكن عند نهر دارلنج ، أن يقفوا عند القبر المفتوح ، وأن يقوم كل منهم بجرح رأس الآخر بقطعة خشب معقوفة ، ثم يحنون رءوسهم فوق الضريح ، بحيث يتساقط الدم على الجسد المسجى • فاذا كان الميت ذا شأن ، فان هذه العملية تتكرر بعد أن يلقى بعض التراب على الجسد المسجى • ويحدث مثل هذا عند قبيلة « ميليا » ــ « أوبا » التى كانت تحتل البلد القريب من بحيرة توروتا التى تقع بدورها فى الشمال الغربى من « نيو ساوث ويلز » • فاذا كان المتوفى محاربا شان المحزونين يجرحون رءوس بعضهم بعضا ، ويجعلون الدماء تسيل على الجسد المسجى فى القبر • « ولقد كنت أشهد حفلا جنائزيا عند قبيلة باهكونجى التى تسكن فى « بوركى » التى تقع على نهر دارلنج ، عندما قفز الرجل الارمل (وتصادف أنه كان زعيما من الزعماء) الى القبر ، وأمسك شعره بأصابعه ، واذا برجل أسود آخر جاء يقفز وراءه ، وضربه ضربة قوية بقطعة من خشب معقوفة على مفرق رأسه ، حتى سال الدم من الزعيم الذى قام بدوره يعمل نفس الفعل مع رفاقه • وهذا الاجراء يجرى وفق تصورى ، على سرير الوداع ، قبل أن يدفن الميت » • وقد تعودت قريبات الميت فى قبيلة أرونتا التى تسكن وسط استراليا ، أن ترمى بأنفسهن على قبر الميت ، ويقمن بجرح أجسادهن ورءوسهن لبعضهن البعض ، بضربها بهراوة الحرب أو بعصى الحفر حتى يسيل الدم فوق القبر مارا بالجص الذى يطلون به أجسامهن • كما وصف كاتب كيف أن الاهالى الذين يسكنون عند نهر فاس فى غرب استراليا يضعون جسد الميت بجانب القبر الذى يحفرونه ثم « يجرحون أفخادهم ويقولون عندما يسيل منها الدم •

لقـــد جئنا اليك بالدم • ثم يـــدكون الارض بقـــدم من أقـــدامهم • ويرشون الدم من حولهم ويدعكون الجروح بحزمة من فروع الاشجار، ويرمونها وهى مدمية على الرجل الميت » ••

ومما هو جدير بالذكر كذلك ، أن الســـكان الأصليين فى استراليـــا يقدمون فى بعض الاحيان شعرهم المقطوع ، ودمهم المسكوب لموتاهم • فيخبرنا سير جورج جراى « أن أهالى بقاع كثيرة فى استراليا يقطعون أجزاء من لحاهم عند الجنازة ويمررونهـــا فوق اللهب ويرمونها فـــوق جسد الميت • وفى بعض الأحيـــان يقطعون لحية الميت ويحرقونهـــا ويدلكون أجســـامهم برماد الشـــعر المحتـــرق » • واذا قارنا عادات الاستراليين المحدثين بعادات العبريين القدماء فى الحزن ، فاننا نجد سير جورج جراى يضيف قائلا : « ان النساء جميعا يجرحن أنفسهن ويخدشن وجوههن حزنا على الميت ، وهن كذلك يعبرون عن هذا الحزن بأن يصنعن صلعة فى رءوسهن فيما بين أعينهن وهو المكان الذى تعودن أن يمزقن جلده بأظفارهن » ••

ويبدو أن عادات الحزن عند ســـكان تاسمانيا الاصليين البدائيين • تتفق مع العادات السالفة الذكر ، « فالنساء لا يبكين فقط بعد أن يغطين رءوسهن المحلوقة بالجص ، ووجوههن بمزيج من الفحم وشحم حيوان الأمو أو شحم أى حيوان آخر سمين ، ولكنهن يجـــرحن أجسامهـــن بقواقع حادة وبالاحجار ، بل انهن يحرقن أفخاذهن بعصى محترقة • كما تطرح الازهـــار فوق القبر ويغطى الجسد العزيز بالاشجار • أما الشعر الذى يقصصنه فى أوقات الحزن ، فيطرح على ربوة » ••

ولقد استطعنا حتى الآن أن نقتفى أثر عادات قطع الجســـم وقص الشعر ، وهما من علامات الحـــزن على الميت ، بين قطـــاع كبـــير من الشعوب ، ابتداء من أكثر الشـــعوب حضارة فى العصر القديم حتـــى أكثرهم همجية فى العصر الحاضر ، وبقى لنا بعد ذلك أن نتساءل : ما مغزى هذه الشعائر ؟ ان النيكوباريزيين يقصـــون شعر رءوســـهم

وحواجبهم فى أوقات الحزن للسبب الذى يعزونه ، وهو الظهور بمظهر متنكر لشبح الميت الذى يرغبون فى الروغان منه ، لأنه ، وفقا لتصورهم، لا يمكنه التعرف عليهم بعد أن يقصوا شعورهم • فهل من الممكن أن تكون الشـــعوب جميعا قد اصطنعت كلتا العادتين بقصد خداع الشبح أو طرده اذا ما أصبح أقرباء الميت الاحياء غير معروفين للشبح أو منفرين له ؟ ان كلتا العادتين تعتمد بناء على هذا الفرض ، على الخوف من الشبح • فالمحزونون يأملون عن طــريق جرح أجســامهم وقص شعورهم ألا يتعرف عليهم الشبح أو ينفــر من رءوســهم المحلوقة وأجسامهم الدامية فيبتعد عنهم ، أى أنهم يهدفون الى التخلص من مضايقاته فى كلتا الحالتين •

ولكن كيف يمكن أن يتفق هذا السبب مع الحقائق التى قدمناها ؟ من المؤكد أن الخوف من شبح الميت فى استراليا يرجع الى أمر مــا غير الذى ذكر بهذا الصدد • فلقد رأينا أن الرجل فى قبيلة أورونتا اذا لم يجرح نفسه باتقان حزنا على وفاة حميه ، فان شبح حميه وفقا لاعتقادهم يغضب وينتزع ابنته من أحضان هذا الزوج الذى عصاه ؛ لأنه لم ينفذ الوسيلة الوحيدة لتهدئة غضبه وهى تجريح جسده على نحو متقن • كما أننا رأينا أن الأرمــلة فى قبيلتى « أونما تجــيرا » و « كايتش » اللتين تسكنان وسط استراليا تغطى جسدها بالرمــاد وتجدد علامة الحزن هذه فى أثناء فترة الحداد • فاذا لم تفعل هــذا « فان شبح الميت « أنتيرينجا » الذى يقتفى أثرها على الدوام ، يقتلها وينهش لحمها » • فالخوف من الشبح واضح فى هذه الحالات ولكنه لا يبدو منها أى هدف لخداع الشبح أو اثارة اشمئزازه عن طريق ظهور الشخص الحزين له فى مظهر تنكرى أو جعل شكله منفرا له • بل ان شعائر الاستراليين فى الحزن تهدف فيما يبدو على العكس ، الى ابراز المحزونين للشبح على هذا النحو لعله يكون مقتنعا بما يبدونه مــن امارات الحزن على الفقيد • فقبيلة أورونتا وغيرها من قبائل وســـط استراليا ، يخشون من الحاق الاساءة بالشبح ومن ثم يكونون معرضين

لايذائه ، اذا هم لم يبدوا امارات كافية على الحزن على فقيدهم • وقد قيل لنا بصدد ما يقومون به من طلاء جسم المحزون بالجص انـــه « ليست هناك أدنى فكرة لاخفاء شخصية المحزون عن شبح الميت ، بل ان الفكرة على العكس هى أن يجعلوا المحزون ، رجلا كان أو امرأة، مميزا للشبح حتى تتهيأ له الفرصة لأن يرى أن قريب الميت قد حزن كل الحزن على فقد قريبه » • أى ان عادات قبائل وسط استراليــا تهدف باختصار فيما يبدو الى اشباع رغبة الشبح أو التودد اليه ، أكثر مما تهدف الى الروغان منه أو اثـــارة اشمئزازه • وهذا الهـدف الحقيقى الذى تسعى اليه عادات الاستراليين فى العموم يؤيده مـا يتبعونه من السماح لدم الشخص الحزين أن يسقط فوق جسد الميت أو فى قبره ، ووضع شعره المقصوص على الجسد المسجى • فهـذه الأفعال لا يمكن أن تفسر الا من خلال كونها جزية تدفع لروح الميت أو عطية تمنح له بقصد اشباع رغباته أو تحويل غضـــبه عنهم • وبالمثل رأينا أن المحزونين فى قبيلة « أورانج ساكاى » التى تسكن سومطرة ، يتركون دمهم يسقط من جروحهم التى صنعوها بأنفسهم ، على قطعة من القماش التى تترك بجانب جسد الميت فى نعشه • وبالمثل فان عادة وضع الشعر المقصوص على جسد الميت أو فى قبره كانت تنتشر قديما وحديثا ، عند العرب والاغريق والمينجراليين وهنود أمريكا الشماليـــة والتاهيتيين والتاسمانيين ، بقدر ما كانت تنتشر بين سكان استراليـــا الأصليين • ومن ثم فانه يحق لنا أن ننتهى الى أن الهدف وراء اشباع رغبة الشبح أو الاستفادة منه كانت على الاقل دافعا من الدوافع التى دفعت الشعوب الى اصطناع تلك العادة التى نحن بصددها وهى عادة ايذاء أجسام الأحياء • ولكن قولنا هذا لا يعنى أننا نؤكد أن استرضاء الشبح كان هو الهدف الوحيد الذى من أجله كان الناس يقومـــون بمثل هذه الأعمال الفظيعة ، فربما كانت الشـــعوب المختـــلفة تؤذى أجسامها أو تشوهها بتأثير دوافع عديدة ، وان من بين هذه الدوافـــع المختلفة الرغبة فى ابعاد شبح الميت الخطير وخداعه •

على أنه ما زال علينا أن نتساءل : كيف تصورت هذه الشعوب أن تقديم الدم والشعر لشبح الميت يمكن أن يجلب السرور له أو يعود عليه بالفائدة ؟ فهل تعتقد هذه الشعوب أن الشبح يجد فى هذين الشيئين مجرد تعبير عن حزن أصدقائه الصادق لموت قرينه ؟ • ان هذا التفسير هو الذى يعزوه التاهيتيون لهذه العادة بكل تأكيد • ذلك لأنهم يقدمون لشبح الميت دموعهم بالاضافة الى دمائهم وشعورهم • كما انهم يعتقدون أن شبح الميت « يرقب أفعال الأحياء وهو يمتن لابداء مثل هذه المشاعر العاطفية الحزينة » • على أننا اذا كنا قد سمحنا لأنفسنا بأن نتهم الانسان البدائى بالاثرة ، فربما نكون بذلك قد أسأنا الى الشبح البدائى ، اذا افترضنا أنه كان يطلب ضريبة الدم والدموع والشعر ، لا لسبب الا امتاع نفسه برؤية أقربائه من الأحياء فى عذابهم وحرمانهم • ويبدو أنه كان يعتقد فى الأصل أن الشبح يجنى فائدة ملموسة ونفعا ماديا من اظهار العاطفة والحب على هذا النحو • وقد أشار روبرنسون سميث أن الهدف من تقديم دماء المحزونين لشبح الراحل هو خلق عهد دموى بين الحى والميت ، ومن ثم يتأكد الأحياء من وجود علاقة ودية بينهم وبين الميت ، أو انهم يمهدون لها بهذه الوسيلة • وقد أشار روبرنسون سميث ، بقصد تدعيم هذا الرأى ، الى عادة بعض الاستراليين الذى يسكنون عند دارلنج • فهؤلاء كانوا يقطعون قطعة من جسد الميت ويجففونها فى الشمس ثم يقطعون هذه القطعة الى أجزاء صغيرة يوزعونها على أقرباء الميت وأصدقائه • فيقوم بعضهم بابتلاع نصيبه ليكتسب الشجاعة والقوة ، فى حين يرميها البعض الآخر فى النهر حتى يجلب النهر لهم الفيضان والسمك ان كانوا فى حاجة اليهما • فهنا يبدو بدون شك أن تقديم الدم للميت وأخذ جزء من لحمه ، يخلق علاقة من نوع ما بين الأحياء والأموات سواء سمينا هذه العلاقة عهدا أو أى شىء آخر • وقد كانت هذه العادة تتبع بين قبيلة « كاريبرا » ، فقد كان أفراد هذه القبيلة يقصون شعر الميت ويصنعون منه خيوطا يرتديها أقارب الميت ، بالاضافة الى عادة اصابة أجسامهم بجروح • فهنا يبدو مرة أخرى أن هناك فائدة متبادلة

بين الأحياء والأموات ، فالأحياء يقدمون دمائهم لقريبهم الراحل ، كما يأخذون منه بعض شعره فى مقابل هـذا ٠

ومع ذلك فان هـذه الأفعال التى تشير الى علاقات طيبة متبادلة بين الأحيـاء والأموات قليلة للغاية ، بحيث لا نعدها كافية لأن تنتهى الى هـذه النتيجة وهى تعـذيب الأقارب الذين رزئوا فى عزيز لديهم ، عن طريق اصابة أجسامهم بجروح وغير ذلك من أنواع الايذاء الذى يقصـد به دائما أو فى العموم عقـد عهد يضـمن المساعدة والحماية المتبادلة بينهم وبين شبح الشخص المتوفى ٠ ان غالبية الممارسات التى أشرنا اليها فى هـذا الفصل يمكن أن تفسر تفسيرا منطقيا بوصـفها منحا يقدمها الأحياء للميت ٠ ولكننا لا نجـد بعض هذه العادات بل ولا أية عادة منهـا ، اذا استثنينا العادات الاسترالية ، يشـير الى ما يقـدمه الشبح لأقربائه الأحيـاء من ود فى مقابل ما يقدمونه له ٠ وبناء على ذلك فان الفرض الذى يمكن أن يفسر قطع الأحياء لأجسامهم من أجل الميت بوصفه محاولة لاقامة عهد دموى بينه وبين الأحيـاء ، ينبغى أن يستبعد فيما يبدو على أساس أن الشـواهد لا تؤيد هـذا الفرض كل التأييد ٠

على أن هناك تفسيرا أكثر وضوحا وأكثر بسـاطة لعادة اصـابة الأحياء أنفسهم بجروح تشير اليه عادات بعض القبائل الهمجية التى تمارس هذه العادة ٠ فلقد رأينا أن عادة اصـابة الأحياء لرءوسـهم وترك الدم يتساقط منها على جسد الميت ، كانت تنتشر بين القبائـل الاسترالية التى تسـكن عند نهر دارلنج ٠ أما العادة المتبعة اليـوم بين هذه القبائل ، أو بالأحرى كانت متبعة بينهم من زمن ، فهى عادة الاحتفـال بسن البلوغ ٠ « ففى اليومين الأولين من هذا الاحتفـال لا يشرب الولد سوى الدم الذى ينزف من شرايين أصدقائه الذيـن يتطوعون عن رضا بمده بالغذاء ٠ فهؤلاء الأصـدقاء يربطون أذرعهم من أعلى ، ثم يقطعون شرايين أسفل الرباط ويجمعون الدم فى وعاء

خشبى أو فى قطعة من اللحاء فى شكل طبق • ثم يركع الولد على ركبتيه فى سريره المصنوع من فروع شجيرات الفوكسيا ، يضم يديه خلفه ويلعق الدم بلسانه من الوعاء الموضوع أمامه كما يفعل الكلب ، وبعد هذا يسمح له أن يأكل لحم البط الى جانب شربه الدم » • ومرة أخرى نجد « أن المريض بمرض شديد أو الشخص الضعيف » بين هذه القبائل نفسها « يتغذى بالدم الذى يقدمه له أصدقاؤه من الرجال بالطريقة التى سبق أن شرحناها • ويرتشف الصبى هذا الدم بطريقة ساذجة ، فهو يرفع هذا الدم المتجمد الى فمه بين أصابعه والابهام • ولقد رأيتهم يطهون الدم فى وعاء خشبى يوضع وسط الرماد المتوهج » • ومرة أخرى يخبرنا هذا الكاتب نفسه وهو يتحدث عن هذه القبائل نفسها فيقول : « وفى بعض الأحيان يحدث أن ينتقل الأفراد بخيامهم ويقومون برحلة طويلة عبر الأراضى الجرداء ومعهم الرجل المريض الذى يحمله رجال أشداء يتطوعون بدمهم للمريض حتى يصابوا بالضعف والاعياء ، ذلك لأنهم يعتقدون أن الدم هو أفضل غذاء للمريض » • واذا كانت هذه القبائل الهمجية تقدم الدم غذاء للمرضى والضعفاء من أصدقائهم الأحياء فما المانع اذن أنهم كانوا يفعلون هذا مع أقربائهم من الأموات ؟ لقد كان سكان استراليا الأصليون شأنهم شأن كل القبائل الهمجية • يعتقدون أن روح الانسان تعيش بعد فناء الجسد • وقد يكون من الطبيعى بناء على ذلك أن الروح فى حالة تحررها من الجسد ينبغى أن يمدها أقرباؤها بالغذاء الأساسى الذى طالما كانوا يقدمونه له فى حياته ليتقوى به • ولقد قدم أوليسيوس ، بناء على هذا الأساس نفسه ، عندما وصل الى أرض الأموات فى بلد « سيميريان » النائية شاة ضحية وجعل دمها يتدفق فى خندق تجمعت حوله الأشباح الضعيفة فى شغف ، وأخذت تشرب الدماء ، وبذلك استعادت قوتها وأصبحت قادرة على أن تتحدث مع البطل •

ولكن اذا كان الدم الذى يقدمه المحزونون كان يراد به انعاش

الشبح ، فما سبب تقديمهم الشعر له ؟ وقد نتصور أن الشبح يشرب الدم ولكن من الصعب أن نتصور أنه كان فى حالة من الجوع الشديد بحيث يلتهم الشعر • ولكن ما زال علينا أن نتذكر أن الشعر ، وفقا لمعتقدات بعض الناس ، هو الشيء الأساسى الذى تسكن فيه قوة الشخص • وربما تصور هؤلاء أن قصى الشعر بناء على ذلك وتقديمه للميت ، يمده بمنبع من القوة لا يقل فى وفرته وأثره الفعال عن الدم الذى يقدم له • واذا كان هذا الفرض صحيحا فان التطابق بين عادة اصابة الجسم بجروح وعادة قطع الشعر تبدو واضحة • على الرغم من أن هذا هو التفسير الحقيقى لكلتا العادتين ، فان الشواهد التى بين أيدينا ليست كافية لكى تجعلنا نتحمس له فى ثقة •

ومهما يكن الأمر فان بحثنا السابق يميل لأن يؤكد وجهة النظر من حيث أن انتشار عادات قطع أجسام الأحياء ، وقص شعرهم بعد فقد عزيز لديهم ، نشأت فى الأصل بقصد أرضاء روح الراحل وخدمتها على نحو ما • وبناء على ذلك ، فحيثما انتشرت هذه العادات ، فانها تؤخذ كشاهد على أن الناس الذين اتبعوها كانوا يعتقدون فى بقاء الروح بعد موت صاحبها ، وكانوا يرغبون فى اقامة علاقة ودية معه • وبتعبير آخر ، فان انتشار هذه العادات تعنى استرضاء الميت أو تقديسه • وحيث أنه يبدو أن العبريين قد مارسوا عادة اصابة الأجسام بجراح وعادة قص الشعر احتراما لأقربائهم المتوفين ، فاننا نضمهم بشيء من الثقة الى زمرة القبائل المتعددة والشعوب التى كانت تنزع الى تقديس الأجداد فى زمن أو آخر • وقد كانت هذه العقيدة تتمتع من بين كل أشكال الديانات البدائية بانتشار واسع ، وبتأثير كبير على الشعوب • ومن المحتمل أن العلاقة الوثيقة بين عادات الحزن وتقديس الأموات كانت معروفة لدى الاسرائيليين حتى قرب عصر الملوك • وربما أمدت المصلحين الدينيين فى هذا العصر بالدافع الأساسى وراء تحريم عادات الحزن الغريبة هذه ، تلك التى عدوها بحق أثرا من آثار الوثنية •

الفصل الرابع

الثور الذى يؤذى بقرنه

لقد نص فى كتاب العهد ، وهو أقدم مجموعة من القوانين التى تحتوى عليها الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم ، على أنه « اذا نطح ثور رجلا أو أمرأة فمات ، يرجم الثور ولا يؤكل لحمه . أما صاحب الثور فيكون بريئا . ولكن اذا كان ثورا نطاحا من قبل ؛ وقد اشهد على صاحبه ولم يضبطه ، فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل » (١) . أما فى مجموعة القوانين الكهنوتية التى تعد أقدم بكثير من مجموعة القوانين الأولى ، فان القانون الذى ينظم عقوبة الحيوانات التى تنزع الى القتل ، ينص عليه فى وضوح أكثر من ذلك بوصفه جزءا من القانون العام للأخذ بثأر الدم الذى أوحى به الرب الى نوح بعد الطوفان . وهذا القانون هو : « غير أن لحما بحياته دمه لا تأكلوه ، وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الانسان أطلب نفس الانسان ومن يد كل حيوان أطلبه . سأسفك دم الانسان بالانسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الانسان » (٢) .

وقد كانت القبائل الهمجية تنفذ قانون الأخذ بثأر الدم على هذا النحو من الصرامة . حقا ان بعض هذه القبائل كانت تبالغ فى قانون

---

(١) سفر الخروج ٢١ : ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) سفر التكوين ٩ : ٥ ، ٦ .

الأخذ بالثأر أكثر من هذا ، عندما كانت تطالب بتحطيم الأشياء المادية التى تسبب عرضا فى قتل الكائنات الحية • ومثال هذا ، ان قبيلة « كوكى » التى كانت تستوطن « تشيتا جونج » فى شمال شرق الهند ، كانت تميل الى الأخذ بالثأر من القاتل ، شأنهم شأن الشعوب الهمجية الأخرى • فجزاء القتل هو القتل • « فاذا قتل نمر أحد أفراد القبيلة بالقرب من قرية ، فان القبيلة بأسرها تهم وتقتفى أثر الحيوان • فاذا نجحوا فى قتله فان أسرة المقتول تعد وليمة من لحم النمر المقتول انتقاما منه لقتله أحد أفرادها • فاذا فشلت القبيلة فى قتل النمو فى أثناء اقتفائها لاثره فى المرة الأولى ، فانه يتحتم عليها أن تظل مقتفية أثره • وتظل أسرة القتيل موضع احتقار القبيلة ، كما تظل بعيدة عن اجتماعاتها حتى تنجح فى قتل النمر أو بديله ، واقامة وليمة على لحمه • ويحدث هذا قتل نمر أحد أفراد جماعة من الصيادين أو أحد أفراد جماعة من المحاربين الذين يقومون برحلة انتقامية من عدو لهم ، فانه لا يستطيع فرد من أفراد احدى هاتين الجماعتين العودة الى القرية قبل أن يقتل النمر ، والا لحق الخزى بهذه الجماعة • وهناك مثال آخر لهذه العادة يدعو الى مزيد من العجب هو : أنه اذا حدث أن هوت شجرة على رجل وقتلته عرضا ، فان أقرباءه جميعا يجتمعون ويعملون القطع فيها • ومهما يكن حجم الشجرة فانهم يواصلون قطعها حتى تصبح شظايا متناثرة يذرونها فى الرياح ، لأنها كما يقولون كانت سببا فى قتل اخيهم » ••

وعلى هذا النحو ينتقم شعب « الأينو » ، وهو شعب بدائى يسكن فى اليابان ، من أية شجرة سقطت على رجل فقتلته • فاذا حدث مثل هذا الحادث ، « فان الناس يستشيطون غضبا ويتقدمون لاعلان الحرب على الشجرة ، فهم يجتمعون ويؤدون شعائر محدودة يطلقون عليها اسم « نيوكويش رو رومبى » • فاذا استفسرت عن هذا الاسم قيل لك : « تسلق رجل شجرة وسقط منها ومات ، أو اذا كان رجل يقطع شجرة فسقطت عليه وقتلته ، فان هذا النوع

من المـوت يسمى « نيوكويش » • والذى يتسبب فى حـدوث هذا الموت حشـد من الشياطين التى تسكن أجزاء مختلفة من جذع الشجرة وفروعها وأوراقها • ومن ثم يتحتم على الناس ان يجتمعوا وأن يعملوا القطـع فى الشـجرة ، حتى تصير شظايا صغيرة تذرى فى الهـواء • واذا لم تحطم الشجرة على هذا النحو فانها تظل خطيرة ، لأنها تظل مأوى للشياطين • فاذا كانت الشجرة ضخمة للغاية بحيث يصعب قطعها قطعا صغيرة ، فانها تترك مكانها ويعلم حولها بحيث لا يقترب أحـد منها » • ويحرق أقرباء القتيل عند السـكان الأصليين الذى يسكنون فيكتوريا الجنوبية سلاح العدو الذى قتل به قريبهم ، سواء كان رمحا أم أى سلاح آخر • وبالمثل فقد تعود أهالى جنوب استراليـا أن يحرقوا طرف الرمح الذى قتل رجلا • وقد فسر الأهالى هذه العادة بقولهم ان روح القتيل تلتصـق بطرف الرمح ، وهو لن يبرحه ليسكن المـكان المناسب له ، الا اذا حرق طرف الرمح • واذا ارتكبت جريمة قتل بين قبيلة اكيـكويو التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، فـان كبار رجال القبيلة يمسكون بالرمح او السـيف الذى كان سببا فى القتل ويظلون يضربونه حتى يثلم ، ثم يرمونه فى أقرب نهر عميق • وهـم يقولون انهم اذا أهملوا مثل هذا ، فان هذا الرمـح سيظل يقترف جـرائم قتل أخرى • ويحدثنا كاتب عاشر بنفسـه بعض القبائـل التى تسكن شرق افريقيا البريطانى حول هذا الموضوع ، فيقـول : « ان الأهالى ينظرون الى السـلاح الذى قتل شخصـا نظرة خـوف وفزع ، لأنه اذا كان قد تسبب فى جريمة قتل مرة ، فانه يصبح بعد ذلك نزاعا الى القتل على الدوام • ومن ثم فان قبيلتى « أكيكويو » و « أثيراكا » ، تأخذان فى ضرب الرمح حتى يثلم ، وبعد ذلك يدفنـه رجال القبيلة • وتتبع قبيلة « أكامبا » طريقة مختلفة فى التعامل مـع مثل هذا الرمح ، وهى طريقة تنم عن شخصيتهم المـاهرة • فالاعتقاد السائد بينهم ، هو أن السهم الذى تسبب فى قتل شخص لا يمكن أن يفقد روحه الميتة لأنها تسكن مع الشخص صاحب هذا السهم • وكذلك

يمتلك القوس لمثـل هذه الخاصية . فبمجرد أن يقتل رجل ماكامباني[1] أي رجل آخر ، فانه يحث شخصا آخر ان يحتال على سرقة هـذا السهم منه . وهذا السهم يكون فى بداية الأمر فى حوزة أقارب المقتول، فهم ينتزعونه من الجرح ويخبئونه ليلا بالقرب من قرية المجرم . وعندئذ يهم النـاس بالبحث عنه . فاذا وجدوه ، فاما ان يعودوا بـه الى القرية الأخرى أو يضعونه فى الطريق فى أى مكان ، على أمل أن يلتقطه أى شخص مار وبذلك تتحـول اللعنة اليه . وحيث أن الناس يحذرون من العثـور على مثل هذا الرمح ، فان السهم يظل فى الغالب فى حوزة القاتل .

وتوجد فى قانون الملايو المطبق فى مالاكا فقرة تنص على طريقـة التعامل مع الجاموس والمـاشية الشرسة على النحو التالى : « اذا كان الحيوان يعيش داخل غابة فى مكان غير مطروق ، ثم حدث انه قتـل شخصا ، فان هذا الحيوان يعاقب بالقتل . ويمتد الاخذ بالثـأر عند قبيلة تواردجا التى تتحدث اللغة البارية وتسكن سيليبس الوسـطى ، الى الحيوانات . فالجاموسة التى تقتـل رجـلا ، يحـكم عليهـا بالاعدام . وهذا طبيعى تماما » ، لأن التورادجا لا يرون الحيـوان مختلفا عن الانسان الا فى مظهره الخارجى . فاذا كـان الحيـوان لا يستطيع الكلام ، فلأن خرطومه أو حلقه يختلف عن فم الانسان . واذا كان الحيوان يجرى على اربع ، فلأن يديه (أى كراعيه الأماميين) يختلفان عن يدى الانسان . واذا قتـل التمساح شخصا ، فان أسرة القتيل تقتل مقابل قتيلها تمساحا ، أى أنها أما أن تقتل التمسـاح القاتل ، أو أحد أفراد أسرته . فاذا كان عدد التماسـيح القتـلى أكبر من عدد الرجال ، فان التماسـيح يكون لهم عنـدئذ الحـق فى الانتقام ، والناس على يقين من أنهم سيفعلون ذلك ، فيأخذون بثأرهم من أى شخص ما . واذا لم يتسلم الكلب نصـيبه من الغنيمة فى الصيد

---

(١) ماكامباني مفرد أكامبا .

(المؤلف) .

الذى يشترك فيه ، فانه يأبى أن يشترك فى الصيد من الغنيمة فى المرة التالية وذلك لشعوره بالظلم الذى وقع عليه • وينظر التورادجا الى حقـوق الحيوان نظرة أكثر وعيا مما نفعل نحن الآن • وهو ينظر بصفة خاصـة الى التندر به نظرة خطيرة ، فاذا رأى على سبيل المثال شخصا يلبس قردا لباس انسان ، فانه يحمل عليه حملة شعواء ويتنبأ إثـر ذلك بهبوب عواصـف عاتية ، وبحدوث فيضانات تترتب على سـقوط الأمطار الغزيرة • ومن ثم فانه لا يستطيع أحد أن يسخر من قط أو كلب دون أن يفلت من العقاب • ويحكم « البوجويون » ، وهـم قبيلة تسـكن ضواحى شمال الحبشة ، على البقرة أو الثور أو أى رأس من قطعان ماشيتهم بالاعدام ، اذا ما قتل شخصا •

وقد رأى مستر « توردای » عند مدخل قرية « باياكا » التـى تقع فى وادى الكنغو ، مشنقة نصبت بطريقة بسيطة ، وقد علق عليها كلب ميت • وقد علم من أهالى القرية أن هذا الكلب الذى كان قـد اشتهر بوصفه لصا ، اعتاد أن يقتنص الطيور • ومن ثم فقد علـق جسده ليكون شاهدا للناس على خيانته • واذا قتل حيوان شخصـا عند عرب البتراء (سـلع) ، فانه يتحتم على صاحب الحيوان أن يطرده ، وهو يصرخ وراءه قائلا : أيها الوغد ، أيها الوغد » • وليس فى وسعه بعد ذلك أن يسترد ملكيته لهذا الحيوان ، الا اذا دفـع دية الدم الذى تسبب الحيوان فى سـفكه • واذا تسببت شـاة أو نعجة من بين قطيع شخص ما فى اسقاط حجـر كبير عند منحدر فى قتل شخص دون أن يعرف على وجه التحديد هـذه الشـاة أو تلك النعجة التى تسببت فى اسقاط الحجر ، طارد صاحب القطيع القطيع بأسره ، فى الوقت الذى يصرخ به قائلا : « اعربوا عنا أيها الأوغاد » ••

وقد عرفت قانون الأخذ بالثأر أمم اخرى فى العصـور القديمـة خلاف اليهود • فقد نص فى « الزند أفستا » وهو الكتاب الذى يتضمن قانون الفرس القديم (المجوس) على ان الكلب المسعور أو ذلك الذى

يعض دون أن ينبح ، فيؤذى شاة أو يجرح رجلا ، هذا الكلب أو ذاك يحاسب على عمله هذا بوصفه عملا متعمدا • فاذا أذى الكلب شاة أو جرح رجلا ، بترت أذنه اليسرى • فاذا أذى شـــاة أخرى أو جرح رجلا آخر ، بترت أذنه اليمنى • فاذا أذى شاة ثالثة أو جرح رجـــلا ثالثا ، قطعت قدمه اليمنى • فاذا أذى شاة رابعة أو جرح رجــــلا رابعا ، قطعت قدمه اليسرى • فاذا أذى للمرة الخامسة شاة أو جرح رجلا ، قطع ذيله ثم يربط فى عامود من جانبى طوق يحيط برقبته • فاذا لم يفعلوا هذا بالكلب ثم تسبب الكلب المســعور أو ذلك الذى يعض دون أن ينبح ، فى ايذاء شاة أو جرح رجل ، حوسب حســـاب من يرتكب جريمة متعمدة • ويلاحظ على العموم أن مشرع القانون الفارسى القــديم قد عامل الكلب المجرم بصبر بالغ ، فقــد منحـــه خمس فرص للتخلص من طبعه قبل أن يعاقبه أقصى عقــوبة ســنها القانون لمجرم يتعذر اصلاحه •

وقد كان فى أثينا ، قلب الحضـــارة القديمة فى أوج ازدهارها ، محكمة خاصة بمحاكمة الحيوانات والأشياء المـــادية التى تتسبب فى قتل الكائن الحى • وقد كانت هذه المحكمة تقـــع فى نـــادى المـــدينة (بريتانيوم) ولم يكن مركز القضاة دون مركز ملك أتيكا المتوج ، ومركز الملوك الأربعة المتوجين لقبائل أتيكا المنفصلة • ولـــا كان نادى المدينة فيما يبدو ، أقدم مكان سياسى بحق فى أثينا ، اذا استثنينا قلعة الأكروبول التى كانت تشمخ بصخورها الناتئة وجدار سطحها العابس خلف المحكمة مباشرة ، وحيث أن ملوك القبائل المتوجين كانوا يمثلون ملوك القبـــائل القدامى الذين حـــكموا زمنا طويلا قبل أن يطـــوح سكان اتيكا بالحـــكم الملكى ، ويتبنوا الشكل الجمهورى للحكم ، فانه يحق لنا أن ندعى أن المحكمة التى كانت تعقد فى هذا البناء الرهيب ويشرف عليها هؤلاء القضاة المهيبون كانت قديمة للغاية • ومما يؤكد هذا الرأى طبيعة الحالات التى كان يحكم فيها ، حيث أننا نجد مـــا يماثلها فى نظام الحكم البدائى للقبائل الهمجية البدائية ، تلك القبائل

التى سكنت الهند وافريقيا وسيليبس • ولم يكن المتهمون الذين يقفون خلف الحواجز رجالا أو نساء ، بل كانوا حيوانات وآلات أو قطعا من الأحجار والأخشاب والحديد التى سقطت على أم رأس شخص فقتلته دون أن تعرف اليد المباشرة التى قتلته • على أننا لا نعرف شيئا عما كان يفعل مع هذه الحيوانات المتهمة ، ولكننا قد أخبرنا أن ملوك القبائل كانوا يبعدون الشىء الذى سقط على رأس الانسان وقتله ، فيما وراء الحدود • وفى كل عام يحاكم الفأس أو السكين الذى استخدم فى ذبح الثيران فى أعياد زيوس التى كانت تقام فى الأكروبول ، أمام هيئة القضاة المتربعين على كرسى القضاة ، كما كانت توجه تهمة القتل لهذه الآلة فى كل عام حتى يثبت جرمها وتعدم وتطرح فى البحر • وقد سخر الشاعر اليونانى الساخر اريستوفان من عقد الأثينيين لهذه المحاكم ، فوصف فى احدى مسرحياته محلفا عجوزا مجنونا يحاكم كلبا بكل ما للمحاكمة من تقاليد رسمية ، لأنه سرق قطعة من الجبن وأكلها • وربما كانت فكرة المنظر المشهور الذى اقتبسه « راسين » فى مسرحيته الكوميدية الوحيدة « المتقاضين » قد تمثلت للشاعر الأثينى وهو يقضى ساعة بليدة من الزمن بين المتفرجين فى ساحة القضاء ، وهم يرقبون فى متعة مكبوتة محاكمة الكلب والثور والحمار ، ويقفون سجناء وراء الحاجز ، بتهمة العض الاجرامى العنيف ، أو بتهمة اصابة الأشخاص بجروح بقرونها أو بتهمة الركل ، الى غير ذلك من التهم •

والأمر الذى يدعو حقا الى العجب ، هو أن أفلاطون ، فيلسوف المثالية الكبير ، قد خلع عباءة نفوذه على هذه الطقوس الغريبة للمحاكمات البربرية ، عندما اقترح تجسيد هذه الطقوس فى قوانين مدينته المثالية التى رسمها قرب نهاية حياته • ومع ذلك فينبغى أن نقر أنه عندما كان بصدد صياغة « القوانين » فقدت يد الفنان المسن المرتعشة كثيرا من حنكتها ، بحيث بدت ألوان لوحته التى صور عليها صورته الأخيرة باهتة للغاية بقدر كبر تلك اللوحة ، وذلك اذا قيست

بألوان « الجمهورية » الزاهية • ولقد رأت فيها بعض الكتب تدريجيا آثار ذبول رونق الخيال ، وأفول العبقرية فى غضون السنين • ومن ثم فقد بدت شمس أفلاطون فى هذا العمل الأخير من خلال الضباب الذى تجمع من حولها فى وقت الغروب • أما الفقرة التى اقترح فيها الفيلسوف النظام القانونى الذى يتلاءم مع مدينته المثالية ، فتجرى على النحو التالى : « اذا قتل حيوان يحمل الأثقال أو أى حيوان آخر رجلا، باستثناء ما يحدث فى الالعاب الشعبية حيث تمارس رياضة المنافسة بين الحيوان والانسان ، فان أقرباء الشخص المقتول يعدمون الحيوان بسبب جريمته • وفى هذه الحالة يشرف القضاء على الممتلكات الشعبية وفقا لما يحدده أقرباء الميت • فاذا تثبتت التهمة على الحيوان ، فانه يعدم وتطرح جثته خارج حدود المدينة • فاذا تسبب شىء مادى باستثناء الصواعق وغير ذلك من الكوارث التى يبتلى بها الآله البشر ، فى قتل انسان نتيجة سقوطه عليه أو لأن الشخص سقط عليها ومات أثر ذلك ، فان أقرب قريب للشخص المتوفى يقتص لنفسه ولأهله من هذا الشىء • وينصب أقرب جيرانه قاضيا ليحكم فى هذا الموضوع • فاذا ثبتت التهمة على هذا الشىء ، فانه يطرح وراء الحدود كما يفعل مع الحيوان القاتل » •

ولم يكن الحكم على الشىء المادى باعدامه لتسببه فى قتل الانسان غريبا فى بلاد الاغريق • فقد كان قانون جزيرة « ناسوس » يقضى بأن يحاكم الشىء المادى الذى هوى على شخص ما وتسبب فى قتله • فاذا ثبتت التهمة ضد هذا الشىء طرح فى البحر • وقد كان يقف وسط مدينة « ناسوس » تمثال برونزى لملاكم شهير كان يدعى « ثياجينيس » ، وكان قد حصل فى أثناء حياته على جوائز عديدة فى حلبة الملاكمة ومن ثم فقد تعلق به الناس بوصفه ألمع معالم بلدهم • ثم حدث أن كان يجىء الى هذا التمثال كل ليلة شخص حقير يكن الحقد لهذا الملاكم ، ويضربه ضربا يسمع له دوى • وظل التمثال يتحمل هذه المعاملة فى سكون وقور ، ولكنه فى النهاية لم يعد يتحمل تلك الاهانة

فهـوى على المسىء الجبـان وقتله • وعند ذلك رفع أقرباء القتيـل دعواهم أمام القضاء ، واتهموا التمثال بارتكاب جريمة القتل • وبالفعل أدين التمثال وحوكم ، وطرح فى البحـر • وقد نفذ مثل هذا الحـكم ضد بعض تماثيل الأولمب ، أو أن الناس على الأقل ارتابوا فى أمرها بسـبب ارتكابها جرائم قتل على هذا النحو • فذات يوم كان ولد صغير يلعب تحت تمثال لثور من البرونز كان يقف فى المنطقة المقدسة • وبينما كان الطفل يرفع رأسـه فجأة ارتطمت رأسه ببطن الحيـوان المعدنى فشجت وتوفى اثر ذلك • فقرر عراف الأولمب أن يبعد الثور عن المـكان المقدس بعد أن اتهم بارتكاب جريمة القتل المتعمد • على أن نبوءة دلف ترفقت بالتمثال ، وعدت هذا الفعل عملا غير متعمد ، ومن ثم نفذت ضـده حكم القتل غير المتعمد • وأقر عراف الأولمب هـذا الحكم وأدى للتمثال البرونزى طقوس التطهير المقدسة التى كـانت تقام عادة فى حالات القتـل غير المتعمد ، وذلك وفقا لمـا أشارت به نبوءة دلف • وقد قيل أنه عندما توفى « سكبيون الافريقى » تأثـر تمثال لأبولو فى روما لموته ، الى درجة أنه أخذ يبكى مدة ثلاثة أيام • ولمـا رأى الرومانيون أن التمثال قد بالغ فى حزنه على المتوفى ، حطموا التمثال المـرهف الحس الى قطع صـغيرة وطرحوها فى البحـر • بل إن الحيوانات لم تكن تفلت من عقوبة القانون الصارمة ، فهناك تشريع قديم أو عادة قديمة تنسبها الرواية الشعبية الى المشرع الملكى والمصلح « نوما » ، تنص على أنه اذا اقتلع رجل حجرا عنـد حدود بلده لا يقدم وحده ضحية لآله الحدود، بل يقدم معه ثوره الذى اعانه على تدنيس المقدسات • أى أن كلا من الرجل وحيواناته يصبحـان خارج حمـاية القانون ، ومن ثم يحق لأى شخص أن يقتلهما دون أن يعاقب على ذلك •

ولم تكن هذه التصورات والطقوس التى ترتكز عليها ، تقتصر على القبائـل الهمجية والشـعوب التى كانت تعيش فى عصـور الوثنية القديمة ، فقد كانت الحيوانات الدنيا ، حتى زمن قريب نسبيا ، تعـد

بدون استثناء فى أوربا مسئولة أمام القانون • ومن ثم كانت الحيوانات المنزلية تحاكم فى المحاكم الجنائية العادية ، وكان يحكم عليها بالاعدام عقابا لها على ارتكابها جرائم القتل • أما الحيوانات المتوحشة فكانت تخضع لسلطان الكنيسة القضائى • وكان يحكم عليها بالنفى أو الموت عن طريق التعزيم عليها أو اعلان حرمانها • ولم يكن هذا العقاب يحدث مصادفة بحال من الأحوال ، اذا صدق ان القديس باتريك كان يعزم على الزواحف فى أيرلندة حتى تلقى بنفسها فى البحر ، أو أنه كان يحولها الى أحجار ، وأن القديس « برنارد » أعلن الحرمان على الذباب الذى كان يطير حوله ويزعجه بطنينه وأرداه قتيلا على أرض الكنيسة • وقد اعتمد حق الامتياز الذى منحه القانون اليهودى فى كتاب العهد للحيوانات لمثولها أمام المحكمة على أساس ثابت كالصخر • وقد كان يعين لهم فى كل حالة محامون للدفاع عنهم ، كما كانت تسير الاجراءات المختلفة للحكم وهى المحاكمة والنطق بالحكم ثم التنفيذ بمراعاة تامة لأشكال العدالة وجلالة القانون • وقد كشف الباحثون فى الآثار الفرنسية القديمة عن سجل يحتوى على اثنتى عشرة محاكمة قدمت للمحاكم الفرنسية فيما بين القرن الثانى عشر والثامن عشر • وقد كان آخر ضحية هذه المحاكمات التى خضعت لما يمكن أن نسميه الشريعة اليهودية ، بقرة طبق عليها أقسى بند فى هذا القانون عام ١٧٤٠ م • ومن ناحية أخرى ، فان الحق الشرعى لأصحاب النفوذ الكنسى فى ممارسة السلطان القضائى على الحيوانات المتوحشة والحشرات الدنيا مثل الفئران والجراد واليسروع ، وما أشبه ذلك ، لم يكن يرتكز بوجه عام ، أو هو يبدو هكذا لأول وهلة ، على نصوص مدونة واضحة وخالية من اللبس • ومن ثم كان ينبغى أن يستخلص هذا الحق من الكتب المقدسة عن طريق سلسلة من القياسات التى كانت تكون الحوادث التالية حلقاتها الصلبة • فحيث أن الرب قد لعن الحية التى خدعت حواء وحيث أن داود قد لعن جبل جلبوع بسبب موت « شاءول ويوناثان » عنده ، وحيث أن المسيح المخلص قد لعن شجرة التين ، لأنها لم تحمل الثمار فى العام المنصرم ،

فإنه ينتبع هذا فيما يبـــدو ، أن يكون للكنيســـة الكاثوليكـية بالمثل الحق الكامل والنفوذ فى أن تطهر المخلوقات الحية والجامـدة بـــدون استثناء من الرذائل ، وأن تحل عليها اللعنة ، وتحـــكم عليها بالهلاك الأبدى . حقا ان بعض العالمين بقوانين الكنيسة ازدروا مثل هــذا الادراك التافه للعلم والفلسفة الانسانية ، وأثاروا اعتراضات تافهــة عن طريق سلسلة من الجدل الذى يبدو للعقل البسيط أنه متعذر دحضه، فقد زعموا أنه لكى يتمكن أصحاب النفوذ من معاقبة المسىء ، فان هذا يقتضى وجود عقد أو ميثاق أو شرط بين القوى العلوية التى تعد مصدر القوانين ، والخاضعين لهذا القانون . وحيث أن الحيوانات الدنيئـــه لا يمكن أن تخضع لعقد أو ميثاق أو شرط لأنها مسلوبة الارادة ، فلا يمكن أن تحاكم هذه الحيوانات قانونيا عن أعمال ارتكبتها وهى جاهلة بالقانون . كما تمثل جدلهم فى أن الكنيسة لا يمكن فى أى شـــكل من أشكال العدل ، أن تحل اللعنة بهذه الكائنات التى رفضت أن تعمدها . ثم ركزوا دفاعهم على سابقة لواحد من رؤساء الملائكة هو ميكائيل ، الذى رغم صراعه ضد الشيطان بسبب استحواذه على جسد موسى ، لم يتهم الحية القديمة بأية تهمة ، وانما ترك أمر احلال اللعنة بها الى الرب . على أن مثل هذه الماحكة والمراوغة اللتين تفوح منهمـــا فى قوة رائحة النزعة العقلانية لم تكن تجدى أمام ســـيطرة الكتابـــات المقدسة القوية الصلبة ، وأمام العادات المتوارثة التى اعتمدت عليها الكنيسة فى تشريعها . وفى العموم كانت الطريقة التى تتبعها الكنيسة فى هذه المحاكمات تسير على النحو التالى :

اذا عانى ســـكان حى من غارات حيوانات أو حشرات مـــؤذية أو من كثرتها المتزايدة ، فانهم يرفعون شكواهم ضد هذه الحيوانات أو الحشرات المعنية للقضاء الكنسى المختص بذلك . ثم تعين المحكمة بدورها خبيرا يقوم بالتحقيق فى هذا الأمر وتقديم تقرير عن الخسائر التى تسببها هذه الحيوانات أو الحشرات . وبعد ذلك يعـــين محـــام للدفاع عن هذه الكائنات يدلى بالسبب الذى من أجله ينبغى الا يستدعى

هذه الكائنات أمام المحكمة • وعند ذاك ينادى على هـذه الكائنـات المتهمة فى ساحة القضاء ثلاث مرات • فاذا لم تجب فانها تحاكم بتهمة الاهمال • ثم تلفت المحكمة نظر هذه الكائنات ، منذرة اياها بتـرك الحى فى خلال فترة محددة ، والا وقعت تحت طائلة عقوبة المناشدة التى لم تنفذ • فاذا لم تفعل هذا قبل أن تنقضى الفترة المحددة أو فى نهايتها حكمت المحكمة بتلاوة الرقى والعزائم عليها • على أنه يبدو أن المحاكم كانت تحذر كل الحذر من أن تدفع الأمر الى نهايته ، بحيث تصل به الى حدود النطق باحلال اللعنة على هذه الكائنات ، ومـن ثم فانها كانت تلوذ بكل حيلة وذريعة تتجنب هذه النتيجة المؤلمة ، أو هى تحاول على الأقل ارجاءها • وربما كان الدافع وراء هذا التأجيل الذى قد يصـل بالأمر الى حد ثورة الكنيسة على هذه الكائنات هـو مراعاة مشاعر هذه الحشرات التى كان من المقدر لها أن تعصف بها الكنيسة • وان كان بعض المتشككين يرون أن السبب الحقيقى وراء هذا الارجاء هو الخوف من أن الحيوانات قد لا تكترث بهذا الحكم ، بل أنها قد تتكاثر فى ظله ، كما حدث فى بعض الحالات ، بدلا من أن تختفى بعد احلال اللعنة بها على هذا النحو • ولم يكن الدفاع على استعداد لأن ينكر أن تكاثر الحشرات الطفيلية غير الطبيعى قد حدث حقا فى ظل ظروف حرمانها من رحمة الكنيسة ، ولكنه كان يعزو هذا ؛ بكل أشكال الجدل العقلانى الى مكيدة الشيطان الذى ، كما يعزو مـن قصة أيوب ، قد سمح له أن يتجول فى الأرض لكى يضايق أيوب ، ويجلب له كل أسباب الحزن ••

وليس من المعقول أن نتوقع ان احـلال اللعنة بالحيوانات كـان الغرض منه منفعة قسس الابرشيات الذين تأخروا فى دفع ضريبـة العشر للأبرشية ، حيث أن القانون قد نص أساسا على أن أفضـل الطرق لطرد الجراد هو دفع ضريبة العشر ، مرتكزا فى ذلك على سند متين من كلام النبى « ملاخى » الذى صور الرب معنفا كل التعنيف لليهود الذين تأخروا فى دفع ضريبة العشر له • وصورا بكل أساليب

الاغراء البركات التى سوف يمطرها الرب على هؤلاء اذا ما دفعوا الضريبة للأبرشية ، ومتعهدا لهم بأنهم ان فعلوا هذا ، فانه سيقضى على الجراد الذى يتلف المحصول • ويشير هذا النداء الملح لدفع الجزية ، ولحث المتعبدين على التقوى ، الى الفقر البالغ الذى كانت تعانى أماكن العبادة منه فى زمن النبى • وربما أوحى تعنيفه المثير بخطب الوعظ التى كانت تلقى فى مثل هذه الظروف على المنابر فى العصور الوسطى •

والى هنا نكتفى بهذا القدر من الاشارة الى الاسس العامة ، التى كانت ترتكز عليها محاكمات الحيوانات واعدامها فى الأزمنة السالفة فى أوروبا • وربما كان فى تقديم بعض الشواهد لهذه المحاكمات المدنية والكنسية ، ، عون لنا على ادراك حكمة أجدادنا ادراكا سليما ، إن لم يكن هذا دافعا لنا على تقدير جلالة قانونهم •

فقد دامت الدعوى بين سكان مقاطعة القديس جوليان وحشرة مغمدة الجناح تعرف الآن عند علماء الطبيعة باسم Phuchites Au'atus فترة تزيد عن اثنين وأربعين عاما • وفى النهاية اقترح السكان ، بعد أن ضاقوا ذرعا بهذه الدعوى التى دامت طويلا ، أن يتصالحوا معها ، بأن يسلموا اليها الى الأبد جزءا مخصبا من الأرض تستغله لمصلحتها • واعترض محامى هذه الحشرات على هذا الاقتراح الذى يمكن أن يحدد الى حد كبير حرية عملائه • ولكن المحكمة تغلبت على هذا الاعتراض وعينت مستشارا من قبلها ليقدم تقريرا عن هذه الأرض • ولما اثبت آن الأرض تملؤها الغابات وتتوفر فيها المياه ، ومناسبة تماما لهذه الحشرة ، أمرت الكنيسة بتدوين وثيقة نقل الملكية الرسمية وفقا للاجراءات المتفق عليها والعمل على تنفيذها • وبذلك سعد الناس بهذا الاجراء الذى أراحهم من كل من الحشرات ومن الدعوى على السواء • ولكن سعادتهم كانت سابقة لأوانها ، اذ قد اثبت التحقيق حقيقة مؤسفة ، وهى أن الأرض التى نقلت ملكيتها للحشرات كانت

تحتوى على منجم أو محتجز من تراب المغرة الذى كان يستخدم فى الأصباغ • وعلى الرغم من أن هذا المحتجز قد استغل زمنا طويلا حتى استهلك ، فإنـــه كان هناك شخص يمتلك حقـــا قديما فى المرور بهذه الأرض ، وهو حق لا يمكن أن يمارسه دون أن يعرض المالكين الجدد لتعب بالغ ، ناهيك عن المخاطر التى قد تتعرض لها الحشرات نتيجة الوطء فوقها • وقد كانت هذه العقبة خطيرة بحيث أبطلت صحة العقد• ومن ثم فقـــد أخذت الدعوى مجـــراها من جديد • أما كيـــف ومتى انتهت هذه الدعوى ، فهو أمر لا يمكن معرفته ، نظرا لتشوه السجل المـــدون فيه هذه الحادثة • والشىء المؤكد هو أن المحاكمة بدأت عام ١٤٤٥ م ، وظلت هى أو محاكمة أخرى شبيهة بها تتداول حتى عـــام ١٤٨٧ م • وربمـــا استخلصنا من ذلك أن شـــعب مقاطعة القـــديس جوليان ، لم يتصالح فيما يبدو مع هذه الحشرات ، وأنها ظلت مسيطرة على الحقل ••

وهناك دعوى أخرى رفعت ضـــد فئـــران أسقفية « أوتـــون »فى مطلع القرن السادس عشر ، وكانت لها شهرة كبيرة نظرا للدور الذى لعبه « بارثوثوموى دى تشاسينو » أو « تشاسينى » ، كمـــا كـــان يطلق عليه الناس ،وكان محاميا مشهورا ومستشارا قانونيا وكان يكنى « بكوكايين فرنسا » • وترجع شهرته فى هذا الموضوع الى مدافعته اللبقة عن الفئران • فقد حدث أن الفئران كانت قد أحدثت تلفا كبيرا فى المحصول ، كما أتت على جزء كبير منه فى « بور جندى » • فرفع الســـكان شكواهم الى القضاء ، واستدعت الفئران لكى تمثل أمـــام القضاء وترد عن نفسها هذه التهمة • وكان طلب الدفاع واضـــحا تماما من حيث الشـــكل الى حد كبير ، وطالب بناء عليه بضمان سلامة المدعى عليهم بها من حيث أنها حيوانات قذرة ذات لون رمادى وتسكن الجحور • وقد كان يقوم بخدمة الفئران فى العادة شرطى بالمحـــكمة قام بتلاوة هذا الادعاء فى الأماكن التى تكثر فيها الفئران • على أن الفئران لم تمثل أمام القضاء فى اليوم المحدد لبحث الدعوى ، وعنـــد

ذاك اعترض الدفاع باسم عملائه على أن الدعوى كانت ذات طابع فردي ومحلى للغاية • وحيث أن فئران الابريشية جميعا يهمها هذا الموضوع ، فينبغى أن تستدعى من كل مكان فى الأبرشية • واستجابت المحكمة لهذا الطلب ، وصدر الأمر لراعى كل دائرة فى الأبرشية أن أن يستدعى كل فأر فى اليوم المحدد • وحان اليوم المتفق عليه ، ولكن فأرا من الفئران لم يمثل أمام القضاء • وعند ذاك ألح الدفاع فى تأجيل المحاكمة لاتخاذ ترتيبات كبيرة معينة للفئران ، حيث أن كل عملائه من الفئران قد استعدوا لهذا الغرض ، كبيرهم وصغيرهم • مريضهم وسليمهم • فوافقت المحكمة على هذا أيضا ، وحددت يوما آخر للنظر فى الدعوى • ومع هذا فان الفئران لم تظهر فى ساحة القضاء • وعند ذاك أخذ الدفاع يطعن فى قانونية الدعوى فى ظل ظروف معينة • فقد جادل جدلا معقولا من حيث الشكل الى حد كبير وطالب بناء عليه ضمنا سلامة المدعى عليهم فى مجيئهم وأيابهم • فقد قال ان عملاءه ، رغم حرصهم على الحضور امتثالا لطلب الادعاء فانهم لم يجرؤا على ترك جحورهم خوفا من شرار القطط التى يحتفظ بها المدعون • ثم استأنف دفاعه قائلا : « واذا تعهد المدعون بضمان مالى ، على الا تتحرش قططهم بعملائه ، فان الفئران سوف تطيع الأوامر فى الحال»• وعند ذاك أدركت المحكمة صحة هذا الطلب • ولكن المدعين رفضوا أن يقعوا تحت طائلة هذه العقوبة لسلوك قططهم المحمود ، وبهذا تأجل مثول الفئران فى ساحة القضاء الى أجل غير مسمى •

ومرة أخرى رفعت مقاطعة « ستيلفيو » فى التيرول دعوى جنائية ضد فئران الحقول التى أتلفت المحصول « لما تقوم به من حفر جحور فى الأرض ، ثم ما تلبث أن تتركها وتحفر غيرها بحيث لا تهيأ الفرصه للحشائش أو أى نبات آخر أن ينمو » • وعند ذاك كلف محام « يدعى « هانز جرينيبتر » للدفاع عنهم وشرح مطالبهم ومتاعبهم وبذلك يتسنى للفئران أن تفسر سلوكها ، ولا يكون لديها أى شكوى من الاجراءات التى تتخذ ضدها » • ثم قام المدعى « شفارز مينتج »

بتوجيه الدعوى ضد الفئران • وقد أثبتت الشهادة التى استمدها من فم الشهود ، الضرر البالغ الذى ألحقته الفئران بالأرض • أما الدفاع الذى كان ملتزما بواجبه فى الدفاع عنهم ، فقد بذل كل جهده لكى ينصف عملاءه ، فأخذ يعدد أفضالهم على المجتمع وبصفة خاصة على الزراعة عن طريق قضائهم على الحشرات والديدان الضارة بالزرع ، وتقليبهم الأرض واخصابها • ثم ختم دفاعه بالتعبير عن أمله فى أن يمنح عملاءه فرصة مغادرة مكانهم الحالى ، فى حالة ما اذا أصدرت المحكمة حكما ضدهم ، وأن يسكنوا مكانا آخر يحدد لهم • كما طالب فضلا عن ذلك بأن يمنحوا جواز المرور الذى يؤمنهم من أذى القطط ومضايقاتها ومن الكلاب ، وسائر الأعداء الآخرين ، بوصفه اجراء عادلا من سلامة التفكير ، ومنح الفئران ، باحساس انسانى بالغ ، جواز المرور ، كما منحهم مهلة أربعين يوما حتى تتمكن الفئران التى لديها أولاد صغار أو تلك التى ما تزال صغيرة من الانتقال الى المكان الجديد •

ومرة أخرى اتخذ أصحاب النفوذ فى « بيرنى » عام ١٤٧٩ م اجراءات قانونية ضد الحشرات الطفيلية التى كان الناس يعرفونها باسم « انجيز » ، التى يبدو انها كانت حشرة مغمدة من نوع حشرة « بريخوس » • وقد قيل لنا وهو أمر يمكن أن نصدقه فى يسر ، أن سفينة نوح لم تكن تحتوى على هذا النوع • وقد رفعت الدعوى أمام أسقف لوزان واستمرت وقتا طويلا • ثم استدعى المتهمون بتخريب الحقول والبرارى والحدائق ، كما هو المألوف ، لكى يمثلوا فى اليوم السادس من توجيه الدعوى وفى الساعة الواحدة على وجه التحديد ، لكى يردوا عن أنفسهم هذا السلوك • ولكن الحشرات لم تأبه بهذه الدعوة ، ومثل دفاعهم الذى كان يدعى « جين بيروديه » وكان مواطنا من «ايريبورج ، بدلا منهم أمام القضاء • ويبدو أن هذا الدفاع لم يبد مقدرة كبيرة أو حماسة كافية للدفاع عن عملائه • وعلى كل فقد حكم على الحشرات باللعنة ، وورد الحكم الكنسى على النحو التالى :

« نحن راهب مونتفيراند ، اسقف لوزان •• الخ •• بعد أن استمعنا الى دعوى فخامة وجلالة لوردان بيرنى ضد الـ « انجير » ، ودفاع الدفاع غير المجدى ، وبعد أن حصنا أنفسنا بالصليب المقدس ووضعنا نصب اعيننا الخوف من الرب الذى نستمد منه كل الأحكام العادلة ، وبعد أن استشرنا فى هذا الأمر مجلس علماء القانون ، نقر ونعترف فى كتابنا أن الدعوى ضد الحشرات الطفيلية والـ « انجير » التى تؤذى الحشائش والكروم والمروج والحبوب والفواكه الأخرى، دعوى صحيحة • ومن ثم يوجه اليها فى شخص محاميها جان بيروديه ، الحكم بالتحريم عليها • كما تحل بها اللعنة امتثالا لعرف الكنيسة ، ونأمرها بالطاعة وندعوها باسم الاب والابن والروح القدس أن تترك الحقول والارض والحظائر والحبوب والفواكه والمحصولات، وترحل • وبحق هذا الحكم أعلن وأؤكد انكم منفيون مطرودون وستحل بكم اللعنة بأمر الرب القوى وسيتناقص عددكم أينما حللتم ، حتى لا يبقى منكم الا من كان فيه منفعة للانسان » • وقد كان الناس ينتظرون هذا الحكم بشغف بالغ • فلما نطق به استقبلوه بتهليل كبير • ولكن سعادتهم لم تدم ، لأن الحشرات المتمردة ، لشدة تعجب الناس أبطلت حكم الكنيسة لأنها استمرت ، فيما قيل ، فى ايذاء سكان « برنى » وأصابتهم بالداء جزاء معاصيهم حتى لاذ السكان بالعلاج العادى الضار بدخلهم ، وان كان فعالا ، وهو دفع ضريبة العشر للكنيسة •

وفى القرن الثالث عشر رفع سكان « كوبرى « عاصمة جريزون » فى سويسرا دعوى ضد الخنافس الخضراء التى كانت تسمى الذباب الأسبانى ، فى مقاطعة « ماينسى » • وقد تعطف القاضى الذى استدعى الخنافس للمثول أمامه ، وعين لها حارسا ومحاميا ، نظرا لضآلتها وصغرها البالغ • وتقدم الدفاع ورد عنها التهمة ، وطالب أن تمنح قطعة من الأرض تعيش فيها بعيدا عن الناس • ويضيف المؤرخ الذى

دون هذه الحكاية الى هذا فقال « وما تزال تتبع هذه العادة حتى اليوم • ففى كل عام تخصص قطعة من الأرض لهذه الخنافس لتجتمع فيها دون أن يتعرض انسان لمضايقتها » • ومرة أخرى أتى بجماعة من الحشرات الطفيلية الى المحكمة لتستمع الى الدعوى المرفوعة ضدها فى محكمة لوزان عام ١٤٥١ م • على أن الحشرات الطفيلية أعلنت تمردها ورفضت أن تترك البلد ، فحكم عليها فى خشوع بتطهيرها • على ان وسيلة التطهير التى اتبعت فى هذه المرة ، كانت تختلف بعض الشىء عن الطريقة المألوفة ، ومن ثم فقد انتقدها بعض الكنسيين ، وان كان قد دافع عنها الآخرون • أما دكاترة هيدلبرج بصفة خاصة ومعهم طائفة من العلماء ، فلم يعبروا عن استحسانهم لها كلية وبالاجماع فحسب ، وانما التزموا الصمت حول هجوم المتطفلين الخارجين عن مجال هذا العلم • وعلى الرغم من أنهم أقروا أن هذه الوسيلة انحرفت عن الطريقة المألوفة والمخصصة لهذا الغرض ، الا أنهم سعدوا بكفايتها التى أكدتها النتائج المترتبة على ذلك • اذ بمجرد أن نفذ هذا التطهير حتى أخذ الموت يتفشى بين هذه الحشرات حتى انقرضت عن آخرها ••

وقد كان من بين الأوبئة التى كان ينشرها الحيوان بين الناس ، وطالما رفع الناس دعواهم ضدها أمام القضاء ، وباء كان يسببه حيوان اليسروع • ويبدو أنه كان ينتشر بين الآونة والأخرى • ففى عام ١٥١٦ م ، رفع سكان « فيلينوز » دعوى ضد هذه الحشرة الفتاكة وحكم فى هذه الدعوى رئيس كنيسة « تروبس » ، وقد أمر فى حكمه بأن تترك هذه الحشرات حدائق الكروم وأرض « فيللونوز » خلال ستة أيام ، وهددها باحلال اللعنة المقدسة عليها وتشويه سمعتها اذا هى لم تمتثل للأمر • وفى القرن السابع عشر ، عانى سكان « سترامبينو » فى « بيدمونت » كثيرا من حشرة اليسروع أو « جاتى » كما كانوا يطلقون عليها ، التى خربت حدائق كرومهم • ولما دام الوباء عدة سنين ولم تجد وسائل العلاج من صلوات ومواكب

احتفال واستعمال المياه المقدسة فى وضع حد لهذا الوباء ، فقد استدعى المدعى العام هذه الحشرة للمثول أمام الحاكم أو رئيس البلدية لكى ترد على دعوى تخريبها للحى • وقد صدر الحكم فى هذه الدعوى عام ١٦٣٣ ، ولا تزال الوثيقة الأصلية لها موجودة فى أرشيف سترامبينو المجلى • وفيما يلى ترجمة هذه الوثيقة :

« عقدت المحكمة فى الرابع عشر من شهر فبراير عام ١٦٣٣ م أمام السنيور الأشهر جيرولا موسان مارتينو دى سينورى ، وسينيور ماتيو رينو ، ج • م باربيريس ، ج ميرلو ، ومستشار سترامبينو ، لصالح كل فرد فى المجتمع ، وحيث أن حشرة صغيرة بعينها تظهر فى شكل ديدان صغيرة تسمى « جاتى » تأخذ منذ ولادتها فى قرض فروع أشجار الكروم فى حدائق الأسياد وعامة الناس كذلك ، وحيث انها قد فعلت هذا طيلة سنوات عدة فى شهر مارس وفى اثناء الربيع من كل عام ، وحيث أن كل قوة انما يكون مصدرها الرب الذى تطيعه كل الكائنات حتى تلك التى لا تعقل ، فاننا نلجأ فى ورعنا الالهى الى معالجة العدل الأرضى ، اذا كان كل عون انسانى آخر قد عجز فى وضع حد لهذا الأمر • ونحن نلجأ لهذا الى حكم جلالتكم فى هذا الأمر العاجل ، ونرفع شكوانا من هذه الحيوانات المخربة ، لعلكم تأمرونها بالكف عن هذا الدمار ، وبترك حدائق الكروم وبالمثول أمام كرسى القضاء لكى تقدم سببا لعدم كفها عن تخريب حدائق الكروم وقرض أوراقها ، وتهددونها بابعادها عن هذا المكان ومصادرة ممتلكاتها • ونحن نطالب بأن يعلن هذا الحكم وأن تعلق نسخة منه فى ساحة القضاء • •

« وحيث انه قد ثبتت صحة الدعوى فقد أمر سينيور بوديستا الحيوانات السيئة بالمثول أمام كرسى القضاء لتقدم سببا عن عدم كفها عن التخريب الموجه ضدها • ونحن جيرولا مودى سان مارتينو ، حاكم سترامبينور ندعو الحيوانات التى تسمى « جاتى » أمام الحاضرين ، ونعلنها قضائيا بالمثول أمامنا فى اليوم الخامس من هذا

الاعلان ، والا فاننا سنوقع عليها عقوبة النفى والمصادرة فى الحال . ونطلب أن يذاع هذا الحكم على الجمهور عن طريق نشره وأن تلصق نسخة منه على كرسى القضاء لكى تصبح نافذة فى الرابع عشر من شهر فبراير عام ١٦٣٣ » .

(امضاء) سان مارتينو (الحاكم)

وقد كانت تنتشر فى الاقليم المجاور لسافوى منذ القرن السادس عشر ، عادة غريبة قديمة . كان الكهنة يطردون بمقتضاها حشرة اليسروع وغيرها من الحشرات التى تسبب الضرر ، من رحمة الكنيسة. فقد ذهب راعى الأبرشية ليلقى نظرة على الحقول الخربة كما عين اثنان من المحامين ، أحدهما يدافع عن الحشرات والآخر يدافع ضدها . أما الدفاع الأول فقد بدأ دفاعه الأول بقوله بأن الرب قد خلق الحيوانات والحشرات قبل أن يخلق الانسان ، ومن ثم كان لهم الحق الأول فى محصول هذه الحقول . فرد عليه الادعاء وقال أن مثل هذا التلف لا يمكن أن يتحمله الفلاحون ، حتى وان كانت هذه الحشرات لها الحق الأول فى محصول الحقول . وبعد مداولة طويلة أعلن القسيس طرد الحشرات من رحمة الكنيسة ، وأمر بأن تنزح الى بقعة من الأرض خصصت لها » ..

وقد عاشت عادة محاكمة الحشرات الطفيلية عن طريق القضاء حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، ونقلتها الكنيسة الى أمريكا . ففى عام ١٧١٣ م ، رفع رهبان « مينور » فى مقاطعة « بيدادى نومارانهاو » فى البرازيل ، دعوى ضد النمل لأنه كان يحفر بشدة أسفل اساس الأديرة ويقوض قبوها ، مما تسبب فى أضعاف حيطان الدير المعنى ، وهدد بناءه كله . ولم يكتف النمل بتقويض البناء المقدس بل انه قام بسطو على المخازن ، وحمل الدقيق المخصص للرهبان ، الأمر الذى لم يعد يحتمله الرهبان . وبعد أن ثبت أنه لم يجد مع النمل أية وسيلة للعلاج ، فقد اقترح أحد الرهبان أن يعودوا فيتمسكوا بروح التواضع والبساطة التى كانت تميز

رائدهم الساروف (١) الذى كان يسمى كل الكائنات أخوته أو أخواته : فأخته الشمس وأخوه الذئب وأخوه السنونو الى غير ذلك • ومن ثم ينبغى عليهم أن يرفعوا دعوى ضد أخوانهم من النمل أمام محـكمة العنـاية الالهيـة ويعينـوا الادعاء والدفاع • وينبغى على الأسقف أن يسـتمع باسـم العدالة العليا الى الدعـوى ، وأن يصدر حكمه فيهـا » ••

وبناء على هذا الاقتراح ، وبعد أن أعدت كل الترتيبات للمحاكمة ، أعلن مجلس الادعاء التهمة الموجهة ضد الحشرات • وافتتح الجلسة بناء على موافقة المـدعى عليهم ، وبين السبب الذى من أجله ينبغى أن يجد الناس الحمـاية فى ظل القانون ، وبين كيـف أن الرهبـان الدينيين يعيشون على تبرعات الجمهور ، وكيف أنهم يجمعون العطايا من المؤمنين بجهد شاق وتعب مضن ، فى حين أن النمل يعارض بأخلاقه وسلوكه تعـاليم الرسل ، ومن ثم فقـد كان القديس فرنسيس ، مؤسس الجمعية الدينية ينظر اليه بعين الفزع لأنه يعيش على السلب والاحتيال ، بل انه يقوض فى عنف دعائم البيت المقدس على مسـمع من عملائه الرهبان • وبناء عليه فقد حـكم المجلس غيابيا على المدعى بأقصى عقوبات القانون ، اما بالقضـاء عليهم عن طـريق تعريضـهم لوباء الطاعـون ، أو باغراقهم فى الطوفان ، أو عـلى الأقل أبعادهم عـن الحى ••

ولكن مجتمع النمل عارض هذا الحـكم مستندا فى ذلك الى انه قد منح من الرب نعمة الحياة ، وهو ملزم ، بناء على قانون الطبيعة ، أن يحافظ عليها بغريزته الطبيعية • وهو بمراعاته ذلك انما يخدم العناية الآلهية ، اذا ما قدم للناس مثالا للحكمة والعطف والتقوى وغير ذلك من الفضائل ، وتأييدا لهذا ، أشار الدفاع الى فقـرات من الكتابات

---

(١) ملاك من الطبقة الأولى يحرس عرش الرب وفقـا للعقيدة اليهودية • (المترجمة)

المقدسة التى وردت عن النبى أرمياء والراهب ايسالون بل ومن كتابات بلينى ، تلك الكتابات التى تثبت أن النمل يعمل بكد أكثر من الرهبان ، حيث ان الأحمال التى يرفعونها أكبر من أجسامهم بكثير ، وحيث أن شجاعتهم تفوق قوتهم ، كما تثبت أن الناس فى نظـر الرب ليسـوا سوى ديدان ، وأن النمل كان يمتلك الأرض قبل أن يستقر عليها الناس • وبناء على هذا كله ، فانه ينبغى أن يطرد الرهبان لا النمل من الأرض التى ليس للرهبان حق فيها سوى أنهم يريدون أن يضعوا يدهم عليها عنوة • وفى النهاية أشار الدفاع الى أن أصحاب الدعوى ينبغى عليهم أن يدافعوا عن بيوتهم وطعامهم بالوسائل الانسانية ، وهو الأمـر الذى لا يعارضـه المدعى عليهم ، حيث أنهم سوف يستمرون فى حياتهم مستجيبين لقانون الطبيعة ، ومتمتعين بحريتهم فى الأرض ، حيث أن الأرض ليست ملكا للمدعين وانما هى ملك للرب ، « فالأرض ملك للسيد الآله وهذا هو سبب كمالها » ••

وقد أعقبت هذا الرد ردود أخرى اما معارضة واما مؤيدة لـه • ونتيجة لذلك أعلن مجلس الادعاء أنه قد غير رأيه بناء عـلى هـذه المناقشـة ، فى جريمة المدعى عليهم • وبعد أن أدار القاضى الشواهد العديدة فى رأسه ، أصدر حكما بأن يحدد الرهبان مكانا مناسبا بجوارهم لا يصلح لسكنى النمل ، ويتحتم على النمل عندئذ أن ينزح فى الحـال الى المـأوى الجديد ، والا تعرض لعقوبة الطرد من رحمة الكنيسة • وبذلك يتصالح الطرفان ، كما قال ، لأنه ينبغى للنمل أن يتذكر : أن الرهبان قد عاشوا فى الأرض ليزرعوا فيها تعاليم المسيح • أما النمل فيمكنه أن يكسب عيشه فى يسر فى أى مكان آخر دون أن يكلفـه ذلك أدنى مشقة • وبعد أن نطق القاضى بهذا الحـكم فى صرامة كلف أحد الرهبان بأن يحمل رسالته الى النمل • فرحل الرسول وقرأها عليه بصوت عال عند أبواب جحوره • وقبل النمل هذا الحكم ، وشوهـد بعد ذلك وهو يرحل فى صـفوف منتظمة الى المـكان الذى حدد له ••

ومرة أخـرى أحدثت الفئران التخريب فى قرية بورانتون عـام

١٧٣٣ م • فاحتشدت فى البيوت والمخازن ، وأغارت على الحقول والحدائق •فرفع الفلاحون شكواهم ضدها،وحوكمت الفئران أمام القاضى لويس جوبلان فى اليوم السابع عشر من شهر سبتمبر عام ١٧٣٣ م• وقد مثل الادعاء مدير الأعمال المالية ، كما مثل المدعى عليهم رجل يدعى « نيقولا جوبلان » • وقد توسل هذا الى القضاء نيابة عن عملائه أن الفئران قد خلقها الرب كما خلق الناس ، ومن ثم كان لها كذلك الحق فى الحياة • فرد مجمع الادعاء عليه وقال انه لا يرغب فى وضع عقبات فى سبيل حياة هذه الحيوانات ، بل انه مستعد على العكس أن يحدد لها مكانا تسكن فيه وتأوى اليه • فطلب الدفاع بناء على هذا أن تمنح الفئران مهلة ثلاثة أيام لتتدبر أمرها • وبعد أن استمع القاضى لكلا الطرفين ، أصدر حكمه وقال ، انه بعد النظر فى التخريب الذى أحدثته هذه الحيوانات المعنية ، حكم عليها بأن تترك البيوت والمزارع ومخازن الحبوب وحدائق الكروم فى بورانتون ، وهى حرة بعد ذلك فى أن تسكن الصحارى والأراضى غير المزروعة ، والطرق العامة ، أو أى مكان آخر ، بشرط ألا تعرض الحقول والمخازن والمزارع للأذى والا اضطر القاضى الى أن يلتمس العون من الرب عن طريق الكنيسة فيحكم عليها بالحرمان من رحمتها • ثم دون هذا الحكم ، ووقعه القاضى لويس جوبلين بخط يده ••

ولعله يتضح الان السبب فى اسناد اصدار الحكم الى النفوذ الكنسى أكثر من اسناده الى النفوذ المدنى • فقد كان من المستحيل طبيعيا للجلاد العادى مهما يكن حماسه ونشاطه أن يشنق كل الفئران والنمل والذباب والبعوض اليسروع وسائر حشرات الحى كله ، ولكن ما يعجز الانسان عن فعله يمكن للرب أن يحققه فى سهولة ويسر • ومن ثم كان من المنطقى والمعقول أن يفوض لرسل الرب البحث فى هذه المشكلات بمقدرة تفوق مقدرة القاضى المدنى بكثير ومقدرة وكيله الجلاد • ولهذا فان المشكلة من ناحية أخرى كانت أكثر يسرا عندما كانت الحيوانات المتهمة من الحيوانات الاليفة التى تدخل حقا ضمن

اختصاص القوى المدنية • وفى مثل هذه الحالات كانت العدالة تسيرفى مجراها العادى • كما لم تكن هناك أدنى صعوبة على الاطلاق فى أسر المتهمين واحضارهم بعد محاكمة عادلة ، الى المشنقة أو الى ساحة المدينة • وهذا هو السبب فى أن الحشرات الطفيلية كانت تتمتع فى هذه الايام بمميزات السلطة الكنيسة ، بينما كان على الحيوانات الاليفة أن تخضع لصرامة القوة المدنية ••

ومثال هذا أن أنثى الخنزير وأولادها الستة الذين كانوا ملكا لرجل يدعى « جان بابى » الذى كان يعرف من قبل باسم فالوه ، اتهمت فى سافينى عام ١٤٥٧ م بتهمة قتلها الابن جان مارتان البالغ من العمر خمس سنوات وابن جان ماريان حاكم سافينى • وبعد فحص دقيق لشواهد الدعوى ، حكم القاضى بأن « تحال أنثى خنزير جان بايى المدعو فالوت ، الى عدالة مدام دى سافينى لكى تنفذ فيها أقصى العقوبات القانونية ، وتعلق من رجليها الخلفيتين فى شجرة منحنية ، بسبب ما ارتكبته من جريمة القتل ، وما جنته فى حق شخص « جان مارتان » • وقد نفذ الحكم فى أنثى الخنزير بالفعل ، لأننا نقرأ فى سجل هذه الحادثة الذى ما زلنا محتفظين به ما يلى : « نحن نيقولا كارويون » القاضى المذكور آنفا ، يعلم الجميع أنه بعد المحاكمة السالفة الذكر ، قد سلمنا حقا أنثى الخنزير المعنية للسيد « اتيين بوانسو » ، وكيل القضاء الأعلى الذى يسكن « شالون سورسون بوانسو » لكى ينفذ فيها الحكم وفقا لما حكمنا به • وبعد أن سلمنا أنثى الخنزير هذه ، أحضر السيد « اتيين » عربة ليحمل الحيوان فيها الى ساحة قضاء مدام دى سافينى • ثم علق « استينى » أنثى الخنزير من رجليها الخلفيتين فى شجرة محنية ، منفذا بذلك حكمنا فى شكله وفحواه « • أما بالنسبة للخنازير الستة الصغار ، فعلى الرغم من أن دم القتيل قد لوثها ، الا أنه « حيث لم تثبت تهمة القتل ضد هذه الخنازير ، فان محاكمتها تؤجل ، على أن يقدم مالكها كفالة لذلك • فاذا ثبت بعد ذلك من الشهادة أنها قد ساعدت أمها القاتلة فى التهام الصغير

جان مارتان ، أعيدت محاكمتها • وحيث أنه لم يثبت هذا عند محاكمتها مرة أخرى ، وحيث أن صاحبها رفض أن يكون مسئولا عن سلوكها فيما بعد ، فقد حكم القاضى « بأن تؤول ملكية هذه الخنازير الصغيرة بوصفها ملكية مهجورة الى « مدام دى سافينى » • ونحن نمنحها اياها قضائيا وفقا لما به عادة بلادنا وتقاليدها وحكمها » ••

ومرة أخرى مزقت أنثى خنزير وجه صبى وذراعه عام ١٣٨٦ م فى فاليز فى نورماندى • ووفقا لمبدأ « العين بالعين » ، فقد اقتص منها بالمثل ، ثم شنقت فيما بعد • وقد سيقت أنثى الخنزير الى مكان الاعدام وهى ترتدى صدرية وجوارب وسروالين وعلى وجهها قناع لوجه انسان حتى تكون شبيهة بالانسان المجرم تماما • كما أن المحكمة دفعت نقودا وملابس وجوارب للجلاد حتى لا يلوث نفسه بدم المجرم • وفى بعض الأحيان كان يتكلف اعدام الحيوانات أكثر من هذا بكثير • وهاهو ذا ايصال يبين تكاليف اعدام انثى خنزير التهمت طفلا فى ميولان بالقرب من باريس عام ١٤٠٣ م ••

١ ــ تكاليف اقامتها فى السجن	٦ صول (١)
٢ ــ تكاليف الجلاد الذى حضر من باريس الى ميولان لينفذ الحكم وفقا للأمر الذى تلاه صاحب المحكمة ووكيل الملك •	٥٤ صول
٣ ــ تكاليف العربة التى حملت أنثى الخنزير الى مكان الاعدام •	٦ صول
٤ ــ تكاليف الاحبال لربطها	٢ صول ، ٨ دينيير
٥ ــ تكاليف الجوارب	٢ دينيير

وقد أحرقت أنثى الخنزير فى « فونتناى ــ أو روز » عام

(١) عملة فرنسية قديمة (المترجمة) •

١٢٦٦ م لاتهامها بالتهـام طفل • وقد أصدر هذا الحـكم قضـاة ديرسانت جينيفيف ••

على أنه اذا كان يبدو أن أنثى الخنزير كانت تتعرض كثيرا لأقصى عقوبات القانون ، فانها لم تكن الحيوان الوحيد الذى تعرض لهـذه العقوبة • ففى عام ١٣٨٩ صدر حكم على فرس بالشنق فى ديجون اثر ما بلغ وكيل قضاء مونتبار من أنه قتل رجلا • ومرة أخرى نفذ رؤساء دير كيسترسيان فى « بوبرى » بالقرب من «بوف»حكم الاعدام فى ثور وشنقوه بالمشنقة لانه « قتل فى ثورة غضـبه صبيا كان يبلغ مـن العمر أربعة عشر عاما أو خمسة عشر عاما فى مقاطعـة « كاوروى » التابعة لهذا الدير « • وفى مناسبة أخرى سمح فلاح فى موزى عام ١٤١٣ لثور هائج أنيهرب ، فضرب الثور بقرنيه رجلا ضربا موجعـا أفضى به الى الموت بعد بضع ساعات من الحادث • ولمـا سمع تشارلز كونت ذى فالو بهذا الحادث ، أمر بالقبض عـلى الثـور وتقـديمه للمحاكمة • فقبض على الثور ، وجمع وكلاء الكـونت كل المعلومات المطلوبة ، كما جمعوا الشهود وأثبتوا التهمة ضد الثور فأعدم أثـر ذلك وشنق فى مشنقة « موزى ــ لى ــ تيمبل » • ثم ثار اعتراض ضد هذا الحكم وقدمت شكوى لمجلس الأمة ، ولكنه رفض المعارضة وقرر أن الثور قد لقى جزاءه بالفعل وان كان الكونت « فالو » قد تجاوز مجال حقوقه لأنه تدخل فى أمر لا يعنيه •• وفى عام ١٦٩٧ م حـرق فرس آخر بناء على قرار مجلس أمة « أيكس » ••

وفى بالى حكم على ديك عام ١٤٧٤ م ، بتهمة أنه باض بيضة • وقد أثبت مجمع الادعاء أن بيضة الديك ليست لهـا قيمة لأنهـا تختلط باستعدادات سحرية معينة • فأولى للساحر أن يمتلك بيضة ديك من أن يكون مالكا لحجر فيلسوف • وفى أرض الكفر استخدم الشيطان السحرة لفقس مثل هذا البيض الذى كانت تخرج منه حيوانات تسىء للمسيحيين كل الاساءة • وقد كانت هذه الحقائق أوضح وأشهر من أن ينكرها أحد ، كمـا لم يحاول الدفاع أن يعارضها • ولكن الدفاع بعد

أن قبل الدعوى المرفوعة ضد الديك كل القبول بسبب وضعه بيضة ، تساءل : « ولكن ما الشر الذى يمكن أن ينسب اليه بسبب وضعه بيضة ؟ وما الأذى الذى ألحقه بالانسان أو الحيوان من جراء ذلك ؟ وفضلا عن ذلك فقد أخذ يجادل فى أن وضع البيضة فعل غير ارادى ومن ثم فان القانون لا يعاقب عليه • أما عن تهمة السحر ، اذا كان يمكن أن تنسب الى عميله • فقد أنكرها تماما ، وتحدى المحكمة فى أن يدلى الادعاء بحالة واحدة تحالف فيها الشيطان مع هذا المخلوق ، وعند ذاك رد الادعاء عليه وأشار الى أنه على الرغم من أن الشيطان لم يتحالف مع هذه المخلوقات البهيمية ، الا أنه يسكنها فى بعض الأحيان • ودعم رأيه هذا بتلاوة حادثة خنزير جارادينى الشهيرة ، مشيرا فى حجة قوية الى أن الشيطان رغم تملكه لهذه الحيوانات ، فهى تعد وكلاء له مسلوبة الارادة تماما ، كما يحدث لو أن السجين وضع بيضة فى سجنه • ومع ذلك فقد عوقبت هذه الحيوانات بأن طوردت عبر منحدر حتى هوت فى بحيرة وبذلك قضت نحبها • وقد كان للاشارة الى هذه الحادثة وقع فى نفوس هيئة المحلفين فيما يبدو • ولهذا فقد حوكم الديك وقضى عليه بالموت لا بوصفه ديكا عاديا ، وانما بوصفه ساحرا أو شيطانا متقمصا شكل طائر • ونفذ فيه هو وبيضته حكم الاحراق بكل ما يصطحب هذا التنفيذ من رهبة مألوفة • وقد قيل ان الدفاع عن هذه الحالة يملأ مجلدات ••

واذا كان الشيطان قد عرض الحيوانات للايذاء فى العالم القديم • فلم يكن من المتوقع أن يدخر ايذاءه فى العالم الجديد • ولهذا فنحن لا ندهش عندما نقرأ أنه قد حدث فى«نيوانجلند »أن كلبا أشبع ايجاعا لأنه حكى عنه أن أحد رجال القضاء كان يركبه دون أن يكون مرئيا • وقد اختفى هذا الرجل فى حين حكم على الكلب ظلما بالشنق • كما اتهم كلب آخر بايذاء الآخرين ، اذ كانت تصيبهم النوبة بمجرد أن يرفع بصره اليهم • ولهذا فقد حكم على الكلب بالاعدام » ••

وقد قيل ان الحيوانات فى سافوا كانت تقف موقف الشهود أو فى

قفص الاتهام ، وكانت شهادتها تعد صحيحة من الوجهة القانونية • فاذا اقتحم شخص بيت رجل بين الغروب والشروق ، وقتل المالك اللص ، فانه يعد قاتلا من الناحية القانونية • لكنه من الممكن لرجل شرير يقيم وحده فىبيته أن يحتال على شخص آخر بأن يجعله يقضى الليل معه ويقتله ، ويدعى بعد ذلك أن ضيفه كان لصا قتله فى حالة الدفاع عن النفس • ولكى يكون القانون حذرا فى مثل هذه الحوادث غير المتوقعة ، ولكى يؤكد ادانة المجرم من ناحية أخرى فقد صرح القانون فى حصافة أن من يقتل فى مثل هذه الظروف ، فان هذا لا يبرىء صاحب البيت الذى يقيم وحده ، ما لم يشهد معه كلب أو قطة أو ديك أو أى نزيل آخر فى بيته يكون قد شهد جريمته ويعلن براءة سيده عن طريق الادلاء بمعلوماته الخاصة • وعلى صاحب البيت أن يعلن براءته أمام الحيوان • فاذا لم يعارضه الطائر أو الحيوان ، فانه يكون حينئذ بريئا • فالقانون يرى أنه من منح الله على عباده أنه يبدى اعتراضه على التهمة ويفتح فم القط أو الكلب أو الديك عند الضرورة ، كما حدث مرة وفتح فم حمار برلام ، وبذلك لا يهىء للقاتل فرصة الهروب من وجه العدالة •

يبدو أن كل الأشياء المادية كانت تعاقب على أفعالها السيئة فى أوروبا الحديثة كما كان يفعل الاغريق القدماء • فبعد أن أبطل مرسوم « نانتس » عام ١٦٨٥ م ، صدر الحكم ضد الكنيسة البروتستانية فى « لا روشيلى » أن تمحى من الوجود فيما عدا جرسها بسبب قيمته فيما يبدو • على أن الجرس حكم عليه تكفيرا عما كان يبديه من هرطقة فى دقه للمصلين ، بأن يضرب أولا بالسوط ثم يدفن وينتشل من التراب مرة أخرى رمزا لميلاده الجديد ويسلم الى أيد كاثوليكية • وبعد ذلك أمر بأن تتلى عليه الصلوات الدينية ، ويعلن أنه قد تخلى عن عقيدته القديمة وأنه لن يعود بعد ذلك الى الاثم • وبعد أن قام الجرس بكل مظاهر الاسترضاء المقدسة الساذجة أعلن الصلح معه وعمد وسلم أو بالأحرى بيع الى أبريشة القديس

« برســـكوميو » • ولكن عندما أرسل الحاكم ايصال بيع الجرس الى أولى الأمر فى الأبرشـــية ، رفضوا سداد الثمن مدعين أن الجرس ، نظرا لأنه قد اعتنق حديثا مذهب الكاثوليكية ، يرغب فى أن يتمتـــع بمميزات القانون الذى كان قد أصدره الملك اخـــيرا ، والذى يســـمح للمعتنقين الجدد لمذهب مخالف لمذهبهم القديم أن يتأخروا فى سداد الدين مدة ثلاث سنوات ••

وقد ظل القانون الانجليزى محتفظا الى ما يقـــرب من منتصـــف القرن التاسع عشر بأثر من طريقة التفكير القديمة نفسها متمثلة فى عقيدة أو عادة « منحة الرب » • فقد كان من المألوف فى القانون العادى أن تقدم منحة للرب لا من أجل الحيوان الذى قتل رجلا فحسب ، وانما من أجل كل شىء مادى تسبب فى وفاء انسان ، كأن تكون عجلات عربة مرت فوق انسان وقتلته ، أو شجرة هوت عليه • وبناء عـــلى ذلك فان هذا الشىء يصادره الملك ويبيعه لمصلحة الفقراء • ومن ثم فانه كان من المـــألوف أن تقيّم هيئة المحلفين الموقرة الشىء الذى تسبب فى الوفاة حتى تسلم قيمته نقدا الى الملك أو غيره لينفقها فى أغراض البر ، ثم أصبح ينظر الى هذه العطايا عمليا بوصفها مجرد رهيـــنة عند الملك • وفى ضوء هذا لم يكن هذا الأمر مستحبا كما أن المحلفـــين فيما بعد تعودوا متضامين مع القضاة أن يقللوا من قيمة الشىء ، بأن ينسبوا جريمة القتل الى شىء تافه أو الى جزء من شىء • ولم يقض التشريع على هذه البربرية البدائية نهائيا الا فى عام ١٨٤٦ م • وقد كانت هذه العادة طوال مدة ممارستها فى ساحة القضـــاء ، حجر عثرة فى سبيل رجال القانون المتفلســـفين الذين حاولوا أن يرسو دعائـــم قواعد القانون الانجليزى على الأسس الأولية للمنطق الطبيعى وعلى العدالة دون ما حاجة الى الفـــوضى فى قرارات الجهل اللانهائيـــة ، والهمجية والخزعبلات التى ارتكزت عليها الجذور المـــدونة للقانـــون الحديث والمدنية الحديثة ارتكازا غـــير مستقر • ولهذا فقـــد افترض « بلاكستون » أن القصد الأساسى من مصادرة الأشياء التى تســـبب

الموت هو شراء قدر من روح الشخص الذى تعرض للموت صدفة • ومن ثم فقد رأى أن هذه العطايا كانت تقدم أصـــلا الى الكنيسة لا الى الملك • أما الفيلسوف « رايد » فقد رأى أن هذا القانون لم يـــكن يهدف الى معاقبة الحيـــوان أو الشىء الذى تسبب فى قتل الانسان ، وانما كان الهـــدف منه ، « أن يوحى الى الناس بنظرة مقدسة ، الى قيمة حياة الانسان » ••

وقد بالغ سير « ادوارد تايلور » فى احتمال أن عادة تقديم الشىء المتسبب فى القتل عطية للرب ، وكذلك سائر العادات الأخرى التى تقوم عـــلى معاقبة الحيوانات والأشـــياء بســـبب الايذاء الذى تلحقـــه بالانسان ، ترجع الى الدافع البدائى الذى كان يتمثل فى عض الحجر الذى يتعثر فيه الانسان أو السهم الذى يجرحه • وهو نفس الدافع الذى يدفع الطفل ،بل الرجل الكبير فى بعض الأحيان فى ركل الشىء الذى يؤذيه وضربه • وقد وضح « آدم سيث » بكل ما عرف عنه من وضوح فى الفكر وبعد فى النظر وسلامة فى الحس هذا الأساس ، اذا تسنى لنا أن نسميه كذلك ، الذى يرتكز على دافع بدائى فقال : إن أسباب السعادة والألم مهما تكن هذه الأسباب أو كيفما كانت درجـــة تأثيرها ، هى فيما يبدو ، الأشياء التى تثير فى لحظة من اللحظات عنـــد كل صنوف الحيوان ، عاطفتى الحب والكره • فهاتان العاطفتان تهيجهما الأشياء اللاروحية والأشياء الروحية على السواء • فنحن نغضب ولو لحظة ، اذا تسبب حجر فى ايذائنا • والطفل يضرب هذا الحجر تماما كما ينبح الكلب فى وجه هذا الشىء • وكـــذلك يميل الرجـــل السريع الغضب لأن يحل به اللعنة • حقا ان أقل رد فعل لهذا يصـــحح من هذا الانفعال ، ويجعلنا ندرك فى الحال أن هذا الشىء الذى يخلو من الاحساس ، لايصبح أن يكون موضوعا لانتقامنا • أمـــا اذا كانـــت الاساءة كبيرة من قبل هذا الشىء ، فانه يصبح كريها لنا بعد ذلك • ونحن نسعد باحراقه أو تحطيمه • وينبغى علينـــا أن نعـــامل بنفس الأسلوب ، الشىء الذى تسبب فى موت صديق لنا صدفة كما ينبغى أن

نشعر بالذنب ازاء تقصيرنا على نحو ما ، اذا أهملنا الانتقام من هذا الشيء » •

وقد رأى الباحثون فى تطور الجناس البشرى ، أنه من المحتمل أن الميل الطبيعى فى مراحل طفولة الجنس البشرى لتشخيص الأشياء الخارجية حية كانت أم جمادا ، أو بتعبير آخر ، ان الميل الطبيعى لأن يخلع الانسان على هذه الأشياء الصفات الانسانية ، لم يكن يصحح أو كان يصحح بطريقة غير سليمة ، عن طريق التأمل فى التفرقة التى أبرزها الفكر الاكثر تقدما ، بين الشيء الحى والشيء الجامد من ناحية ، وبين الانسان والحيوان من ناحية أخرى • ولقد كان من السهل ، فى حالة ظلام العقل البشرى ، أن ترتبط الدوافع التى تحرك الرجل المفكر ، بالدوافع التى تحرك الحيوان ، بل بتلك التى تدفع الحجر أو الشجرة لأن تسقط • بل اننا نرى ان هذا الربط كان بالنسبة للرجل البدائى أمرا محتما • ومن خلال هذا التفكير المختلط ، أباح البدائيون لأنفسهم الانتقام من الحيوانات والأشياء التى تسيء اليهم أو تصيبهم بأذى • وقد ظل هذا الضباب الفكرى الذى كان مناسبا لتلك المعتقدات ، يعمى أعين المشرعين البدائيين الذين قدسوا هذا النظام الجزائى البربرى فى ظل أشكال القانون والعدالة المقدسين فى مختلف العصور ومختلف البلاد ••

الفصل الخامس

الأجراس الذهبيـة

ينص القانون الكهنوتى على أن يصنع رداء الكاهن وفقا للوصف التالى : « وتصنع جبة الرداء كلها من أسمانجونى ، وتكون فتحة رأسها فى وسطها ويكون لفتحتها حاشية حواليها صنعة الحائك ، كفتحة الدرع يكون لها لا تشق • وتصنع على أذيالها رمانات من أسمانجونى وأرجوان وقرمز على أذيالها حواليها ، وجلاجل من ذهب حواليها • جلجل ذهب ورمانة جلجل ذهب ورمانة على أذيال الجبة حواليها • فتكون على هرون للخدمة ليسمع صوتها عند دخوله الى القدس أمام الرب عند خروجه لئلا يموت » (١) •

فلماذا كان يتحتم على الكاهن أن يرتدى هذا الثوب البنفسجى الذى تتدلى أهدابه المطرزة بثمار الرمان والأجراس التى ينبغى أن يسمع صليلها عندما يدخل الكاهن المكان المقدس أو يخرج منه ، والامات ؟ ان أكثر الاجابات احتمالا فى صحتها عن هذا السؤال هو الاعتقاد فى ان صليل الأجراس المقدسة يطرد الأرواح الشريرة الحاسدة التى تقبع عند باب المكان المقدس على استعداد لأن تنقض على الكاهن المزين

---

(١) سفر العروج ، ٢٨ : ٣١ الى ٣٥ •

وكلمة اسمانجونى التى تترجمها الترجمة الانجليزية المعتمدة الى كلمة « أزرق » ، تعنى الأزرق الارجوانى • وهى تتميز عن الكلمة الاخرى « أرجوان » التى تعنى اللون الأرجوانى الضارب الى الجمرة ، ومن ثم ترجمنا الكلمة الأولى الى اللون « البنفسجى » •

(المؤلف)

بأغلى زينة وأن تحمله معها ، عندما يخطو فوق عتبة المكان المقدس ليقوم بواجبه الدينى • وأقل ما يمكن أن يقال بصدد هذا الرأى الذى لقى رواجا بين الدارسين المحدثين ، هو أن هناك أمثلة شبيهة به وتدعمه فى قوة • فقد كان الرأى الشائع منذ العصور القديمة وما قبلها ، هو أن الشياطين والأشباح تهرب عند سماع صوت ينبعث من معدن سواء أكان هذا الصوت صوت صليل من الأجراس الصغيرة أو قعقعة متواصلة طنانة تنبعث من الأجراس الكبيرة ، أو كان صليل الصنج الحاد ، أم دوى الطبول ، أم صلصلة وقعقعة أطباق من البرونز أو الحديد ، عندما يرتطم بعضها ببعض أو عندما تضرب بمدق أو بعصى• ومن ثم فقد كانت العادة المتبعة عند القيام بتطهير شخص من الأرواح الشريرة أن يدق كاهن القداس جرسا يحمله فى يده ، أو أن يعلق مجموعة من الأجراس فى ردائه بحيث تصلصل عند كل حركة يقوم بها • والأمثلة التالية توضح قدم هذه المعتقدات والممارسات وانتشارها على نطاق واسع ••

يخبرنا « لوسيان » ان الأشباح تهرب عند سماع صوت يصدر عن معدن من البرونز أو الحديد • وهو يقابل بين الشعور بالنفور الذى يحدثه رنين هذه المعادن على الأشباح ، وسحر رنين النقود المعدنية على النساء اللاتى ينتمين الى طبقة بعينها • ففى روما عندما كان شبح الميت يقوم بزيارته السنوية الى مسكنه القديم فى شهر مايو ، وكان يستمتع بتناول طعام رخيص من حب الفول ، تعود أن يقوده ساكن البيت الى الباب ويتوسل اليه قائلا : « لترحل الآن يا شبح والدى » • ثم يؤكد أمره أو طلبه برنين يصدر من معدن برونزى • ولم تنقرض مثل هذه الأفكار التى مؤداها أن الأشباح تكره سماع الرنين الصادر من المعدن بانتهاء عصر الوثنية ، بل عاشت فى أقوى صورها فى ظل المسيحية فى العصور الوسطى بعد ذلك بزمن طويل • فالعالم المسيحى المفسر « جون تزتزيس » يخبرنا أن رنين البرونز يؤثر على الأشباح تأثير نباح الكلب عليها • وهذا الرأى لم يلق معارضة سوى من قبل قليل من الرجال المفكرين ••

أما فى عصـور المسيحية ، فقـد كان أكثر الأصـوات مقتا الى آذان الشياطين والعفاريت هو الصـوت الجميل الوقور الذى يصـدر من أجراس الكنائس • ولقـد أعلن مجلس مدينة كولونيا المحلى رأيا رفعه الى الأجداد ، وهو أن الشياطين تفزع عند سماع صوت الأجراس التى تدعو المسيحيين الى الصـلاة ، فترحل • وكذلك تفعـل أرواح العواصف وقوى الرياح • على أنه يبدو أن أعضـاء المجلس نفسـه كانوا يميلون لأن يعزوا هـذا العمل الطيب الى ورع المؤمنين وشفاعتهم أكثر مما يعزونه الى صليل الأجراس • ومرة أخرى يشـير كتـاب الطقوس الدينية الذى عرف باسم « كتاب الأسقفية الرومانى » ، الى مزايا جرس الكنيسة أينما سمع صـوته ، ألا وهى قدرته على طرد القوى الشريرة وأرواح الموتى المتمردة الهائمة ، وكل أرواح الزوابع• كما ذكر « دوراندوس » العالم الشهير بالقوانين الكنيسية الذى كان يعيش فى القرن الثالث عشر فى بحثـه الشهير عن الطقوس الدينية الذى انتشر على نطاق واسع ، أن « الأجراس تدق فى تتابع حتى تفزع الشياطين وتهرب • فعندما تسـمع هـذه الأشباح طبـول محارب الكنيسة ــ أى الجرس ــ يدب الرعب فيها ، تماما كما يدب الرعب فى نفس أى متغطرس عندما يسمع فى أرضه صـوت طبول ملك قـوى يغزو بلاده •• وهـذا هو السبب كذلك فى أن الكنيسة تدق أجراسها عندما تهب عاصفة حتى تخاف الشياطين عندما تسمع صـوت طبـول الملك الأبدى أى الأجراس فتهرب وتكف عن اثارة العاصفة » • وقد كتب حول هذا الموضوع عالم الآثار الانجليزى القائد «فرنسيس جروسى» ، صـديق الشاعر « برونز » يقـول : « ان نواقيس النعى كانت تدق لغرضين : أولا ابلاغ المسيحيين الأتقياء برحيل روح الميت ، وثانيا طرد الأرواح الشريرة التى تقف عند سرير الميت وحول بيته مستعدة لأن تقبض على فريستها ، أو على الأقل تناوشها وهى فى طريقها لعـالم الأرواح • فعندما تدق الأجراس تظل الأرواح الشريرة بعيدة عن شبح الميت (لأن « دوراندوس » يخبرنا أن الأرواح الشريرة تفزع كل الفزع من صوت الاجراس) • فى حين تنطلق روح الميت كالارنب المطـارد

وتفوز بالهروب ، أو تفوز بما يسميه الرياضـيون بحقها القانونى • وربما كان ذلك فرصــة مناسبة للأرواح لأن تدفع ثمنا غاليا فى مقابل قرع أجراس الكنيسة لها ، وبخاصة بعد أن أعفيت من القيام بعمـل اضافى•ذلك أنه عندما تصلصل الأجراس ، يتحتم على الأرواح الشريرة أن ترحل ، فى حين يأخـذ روح الميت الفقير فى التحرك عندما يخفت صليلها • وفضـلا عن ذلك فان عددا كبيرا من المصـلين يصـلون من أجل الميت كلما سمعوا أصوات الأجراس تدق عن بعـد • وقد صـور « و • دى ويردى » مقت الأرواح الشريرة لسـماع الأجراس فى « الأسطورة الذهبية » فقال : « لقد قيل ان الحـيرة تنتاب الأرواح الشريرة التى تسبح فى الهواء عندما تسمع الأجراس • وهـذا هـو السبب فى أن الأجراس تدق عندما يرعد الجو ، وعندما تهب عاصـفة أو زوبعة حتى تبتعد الأرواح الشريرة وتهرب ، وعنـد ذاك تخمـد العاصـفة » ••

وكذلك صـور « لونج فيلو » فى الرواية الشعرية « للاسـطورة الذهبية » ، هـذه الخرافة تصويرا مؤثرا جميلا • ففى مقدمة قصيدته صـور برج كاتدرائية ستراسبورج فى الليل وقـد ثارت من حـوله الزوابع ، فى الوقت الذى أخـذ الشيطان وقوى الرياح تحلقان فى الهواء حول البرج وتحاولان أن تمزقا الصـليب وتسكتا صليل الأجراس المزعج : فقـال :

لو سيفر ، أهبط ، أهبط
حلق الى أسفل
امسك الأجراس المصطخبة
وحطمها حتى يسمع رنين اصدامها بالرصيف
اقتلعها من برجها الطائر
أيتها الأصـوات •
ان كل صـخبك
لا قيمة له

فلقد مسحت كل الأجراس بالزيت
وعمدت بالميــاه المقدسة
وهى تتحــدى كل ما لنــا من قوة

وفضلا عن هــذا ، فان الزوبعة العاصفة وجهنم المعولة قــد استمعا الى صوت الأجراس الوقور . وفى هذا يقول الشاعر :

Defunctoo ploro
Pestem fugo
Festa decora

كما يقول مرة أخرى :

Funera plango
Fulgura frango
Sabbata pango (1)

وفى النهاية رضخت الشياطين الحائرة لأن تنزع فى الظــلام ، تاركة وراءها الكاتدرائية التى لم تكن قد أصابها أذى ، وقــد سـطع بداخلها الملاك ميخائيل شاهرا سيفه يتلألأ بلونه الذهبى والقرمزى على ألواح زجاج النوافذ ، بينما تقتفى الموسيقى المنبعثة من الأرغن وأصوات غناء الكورس أثر الشياطين . وهى تردد :

Nocte surgentes
Vigilimus omnes (2)

ويمكننا أن ننتهى من ذلك الى أن طرد الأرواح الشريرة يعــد السبب الأول والأساسى من بين السببين اللذين يعزوهما « جروسى » لقرع أجراس النعى . والسبب الثانى الثانوى هو دعوة المؤمنين المصلين للصــلاة من أجل الروح التى أوشــكت على أن تصــعد الى بارئها .

---

(١) ومعنى هذا : اننى ابكى هؤلاء الذين ارتاحوا من الحياة واطرد الوباء واحس الأعياد الدينية اننى أنوح على الاموات والخفت الاضواء وأرعى يوم السبت يوم الراحة .
(٢) أى .. الأرواح تصعد فى الليل ونحن نرقبها جميعا .

وعلى أى الحالات فانه يبدو أن الناقوس كان يقرع على الدوام فيما مضى ، حينما كان يبدو لأقرباء المريض أن مريضهم قد أخذ يعانى سكرات الموت • ويتضح هذا من خلال فقرات متعددة استطاع أن يكشفها المختصون بالدراسات القديمة بين كتابات الكتاب القدماء • وقد أخبرنا « استبيس » فى كتابه « تشريح المساوىء » عن النهاية المؤلمة التى حدثت فى « لينكولن شاير » لشخص وثنى كان يكثر من القسم بالايمان فقال : « وعندما بدأ للناس أن نهايته قد قربت ، دقوا النواقيس • فلما سمع هذا الرجل النواقيس تناديه ، اندفع من سريره فى قوة وهو يقول : « بحق الرب انه لن يأخذنى بعد » • وعند ذاك تدفق الدم من أطراف أصابع قدميه وأطراف أصابع يديه ومن معصمه ، ومن أنفه وفمه ، ومن مفاصل جسمه ، وأجزاء أخرى منه • ولم يكف الدم عن التدفق حتى خرج كل الدم من جسمه ، وبهذا أنهى هذا الآثم حياته الزمنية » • وعندما كانت السيدة « كاترين جراى » تحتضر وهى أسيرة فى القلعة ، وأدرك حاكم القلعة أن السجينة على وشك أن تتخلص من أسره بدون ترخيص ملكى ، قال للسيد « بوكيام » : « أليس من الأفضل أن نرسل الى الكنيسة لتدق نواقيسها ؟ » • أما السيدة فقد أخذت تصلى عندما شعرت أن نهايتها قد اقتربت ، وتقول : يا الهى ، اننى أودع روحى بين يديك • سيدى المسيح هيا استقبل روحى » • فصليل النواقيس كان بالنسبة لها ، كما كان بالنسبة لغيرها أنه « قضى الأمر » • Nunc dimittis ومرة أخرى تحدث كاتب فى النصف الأول من القرن العشرين عن مسيحى يحتضر وقد كبت عواطفه : « لو مد عمره بعض الوقت ، لكان فى وسعه أن يستمع الى أجراس النعى فى هدوء » •

ومما يرجح أن الغرض الحقيقى من أن دق أجراس النعى هو طرد الكائنات الشريرة التى تحلق فى الهواء متخفية عن الأنظار وليس مخاطبة الناس من بعد ودعوتهم للصلاة على الميت ، ذلك الشكل البدائى الذى احتفظ فيه بتلك العادة فى كل مكان حتى عصرنا الحاضر •

فعندما يمرض شخص ويصـــل الى مرحلة الاحتضار فى بعض جهات جبال « ايفـــل » أى فى الحى الذى يقع فى منطقة الراين البروسية ، فان أصدقاءه ، وفقا للعادة المتبعة ، يدقون جرسا صغيرا يمسكونه فى أيديهم ، ويسمى جرس البركة • « وذلك لكى يبعدوا الأرواح الشريرة عن المحتضر » • وقد قيل ان العادة التى كانت متبعة فى « نيوسول » فى شمال هنغاريا ، أن يدق جرس صغير يحمل فى اليـــد عندما تقترب نهاية شخص ، « حتى تظل روحه المفارقة له تحلق بضـــع دقائق فى العالم الأرضى بجانب جسدها المسجى » • فاذا لفظ أنفاسه ظل الجرس يدق بعيدا عن الجســـد بعض الشىء ، ثم يدق خارج باب حجرته ثم حـــول بيته • « وبذلك يرافق صـــليل الجرس الروح وهى فى طريق رحلتها » • ثم ترسل بعد ذلك اشارة الى القندلفت لكى يأخـــذ فى دق نواقيس كنيسة القرية • ويقال ان مثل هـــذه العادة كانت تنتشر فى جبال « غابة بوهيميا » التى تفصـــل بوهيميا عن بافاريا • والدافع الذى يتـــدم تفسيرا لتلك العادة وهو الرغبة فى اعاقة رحيـــل الروح لبضـــع لحظات عن طريق دق الأجراس ذات الصوت الرقيق ، لا يمكن أن يكون الدافع البدائى بعينـــه ، لمـــا يحتوى عليه من احساس رقيق للغاية • وانما الدافع الأساسى وراء ذلك بدون شـــك ، كما هى الحال فى العادة المشابهة المنتشرة فى جبال « ايفـــل » ، هو ابعاد الشياطين التى يمكن أن تخطف الروح المسكينة فى تلك اللحظة الحرجة • ولا يأخذ ناقوس برج الكنيسة الكبير فى الدق ، الا بعد أن يؤدى الجرس الصغير وظيفته الخيرة ، وبذلك يرافق صـــوت الجرس الكبير الرنان كذلك ، الروح الراحل فى رحلته الطويلة فى أرض الأرواح كما لو كان ملاكا حارســـا ••

وفى فقرة شهيرة من كتاب دانتى « المطهر » قرن دانتى بين فكرة صليل جرس النعى وصليل ناقوس المساء الذى يسمعه المسافر فى البحر من بعـــد ، من حيث أن الناقوس الأخـــير يعلن كذلك نهـــاية يوم أو نهاية رحلة الشـــمس وهى تتلاشى فى الســـماء القرمزية • وليســـت

أبيات « بايرون » التى يقلد فيها أبيات دانتى ، أقل شهرة من الأبيات الأخيرة • فبايرون يقول :

يا للساعة الرقيقة التى توقظ الرغبة وتذيب القلوب
هؤلاء الذين يبحرون فى البحر فى اليوم الأول
عندما يفترقون عن أصدقائهم الأعزاء
ويا لها من ساعة تملأ قلب الحاج بالحب فى رحلته
عندما يعلن ناقوس المساء بدء الرحلة
وكأنه يبكى فناء يوم راحل •

وليس تعبير الشاعر « جراى » عن هذه الفكرة أقل جمالا ، وهو يصور صليل ناقوس الغروب فى المساء وصدى صوته بين أشجار الطقوس والدردار الجليلة فى ساحة كنيسة انجليزية ، عندما يقول :

لقد نعى ناقوس المساء ذلك اليوم الراحل

حقا ان أصوات قرع نواقيس الكنيسة فى مثل هذه الأوقات ، وفى هذه الأمكنة يثير احساسا يمتلىء بالرهبة والتأثير فى النفس • فهو يرن فى الآذان كصدى عالم اختفى من الوجود ، على حد تعبير « فراودى » وقد عبر الشاعر الأمريكى « بريت هارتى » أجمل تعبير عن هذا الاحساس ، عندما سمع ، أو بالأحرى تصور أنه سمع ، ناقوس صلاة التبشير يدق فى المساء بجانب ارسالية أسبانية تقع فى دولوريس فى كاليفورنيا ، وقد هجرت منذ زمن • فهو يقول :

يا أجراس الماضى ، التى لا تزال
وموسيقاها المنسية منذ زمن ، تملأ الفضاء الشاسع
وتلون شفق الحاضر بلون رومانسى
اننى أسمع نداءك ، وأرى الشمس وهى تختفى
على الصخرة ، وعلى الموجة وعلى الرمال

عندما تحيط أصوات الارسالية التى تقع عند الشاطىء
بالأرض الكافرة وتختلط بهـــا
فى دائرة سحرك
لا نعثر على أية آفة أو عفن فطرى
ولا يمر القلق العنيف أو الشهوة أو الطموح الدنىء
بهـــذه الأسوار الشاهقة
اننا نشق طريقنا عبر أمواجك الطويلة الممتدة
ونتراجع نتلمس الماضى الأسبانى
وأبقى مع حلم الغروب
أيتها الأجراس الرهيبة ، يا من تستغيث أجسامها المقدسة
بايمان القـــدماء
ويا أيتها الأجراس المجلجلة التى تهدهد موسيق الشفق
ان الروحانية تنطوى •

وقد عبر « رينان » الذى خفف من غلواء أفكاره الدينية المتشككة الادراك الهادىء للاديب الفنان ، عن مثل هـــذا الاحساس بقـــوة الأجراس التى تمس القلب ، وتناغم العقـــل بالأفكار الخاشعة ، فقال معترضا على الاتجاه العقلانى المجدب الذى اشتهر به عالم الأديان الألمانى « فوبرباخ » : « ألا ينبغى على « فوبرباخ » أن ينغمس ، من أجل الرب ، فى منابع أكثر غنى من مجرد الاحساس المتعالى المنتفخ بجرمانيته • آه لو أنه جلس عنـــد آثار فلسطين أو جبل كوليان لسمع أصـــوات الأجراس الأبدية وهى تظل تصلصل حتى يخفت رنينها على التـــلال المهجورة التى كان الرومانيون يسكونونها يوما ما • أو لو أنه جلس على شاطىء الليـــدو المنعزل ، واستمع الى صليل أجراس كنيسة القديس مارك وهى تخفت عبر البحيرة الضحلة ، ولو أنه رأى «أسيس» وعجائبها السحرية وكنيستها المزدوجة ، ورأى أسطورة المسيح الثانى الذى ظهر فى العصـــور الوســـطى مصـــورة بريشـــة « سيمابو » و «جيوتو» • ولو أنه أشبع مرآه بالمنظر الساحر لعذارى «بيروجينو» •

ولو انه رأى فى سانت دومنيكو فى سينا القديسة كاترين فى وجـدها الالهى • لو أنه فعل هـذا لمـا سخر السيد « فوبرباخ » مما يقرب من نصـف الشعر الانسانى ، ولمـا صرخ كما لو كان يطرد عنه شبح يهوذا الاسخريوطى » ••

على أن هـذه الأمثلة التى تشير الى التأثير العاطفى لأجراس الكنائس على الناس ، لا ينبغى أن تبتعد عن البحث الفولكلورى لهذا الموضوع • فنحن لا نستطيع أن نفهم أفكار الناس ما لم نتعمق أعماق مشاعرهم وعواطفهم التى تستمد منها هـذه الأفكار • وأقـل ما يمكن أن نفعله هو أن نفصلهما فى مجال الدين • ذلك أنه ليست هناك حواجز صـارمة بين الأفكار العقلية ومشاعر الجسـد من ناحية ، واحساسات القلب من ناحية أخرى ، وهى تميل جميعا لأن تذوب ويختلط بعضها بالبعض الآخر فى موجات عاطفية • وليست الموسيقى وحـدها هى التى تستطيع أن تحتفظ بموجات هـذه العواطف ، وانما بوسـع أشياء أخرى وان كانت قليلة ، أن تحتفظ بتدفقها فى قوة • ولم يحاول أحـد حتى اليوم أن يقوم بدراسـة الفولكلور من جانبه العاطفى ، وانما ركز الباحثون أبحاثهم حول الجانبين المنطقى والعقلانى ، أو بتعبير آخر يفصـله بعض الباحثين حول عناصره اللامنطقية واللاعقلانية • ولكننا يمكننا أن نتوقع بدون شك استكشافات قيمة من خلال الدراسات المستقبلة حول أثر العواطف فى تشكيل مصير الانسان وعاداته ••

ولقد كان الناس منذ العصور الوسطى حتى العصور الحديثة ، يحبون الاستماع الى صليل نواقيس الكنائس ، اذ كانوا يتصـورون أن السحرة والمشعوذين يحتشدون فى صـور غير مرئية فى الجـو ليحتالوا بحيلهم الرخيصة على اصـابة الانسان والحيوان على السواء بالشرور ، وقد كانت هناك أيام معينة فى أثنـاء السنة يعقـد فيهـا هؤلاء الأشرار اجتماعاتهم غير المقدسـة أو السبوت ، كما كان يطلق عليها • وبناء على ذلك فقد كانت الأجراس تقرع طوال الليل فى بعض الأحيان فى مثل هـذه الأيام حيث ان السحرة المشـعوذين يكونون

منشغلين فيها تحت ستار الليل بانجاز أعمالهم الجهنمية • ففى فرنسا على سبيل المثال ، كان الناس يعتقدون أن السحرة يهيمون فى الهواء فى ليلة القديسة « أجاثا » بصفة خاصة ، وهى الليلة التى توافق الخامس من شهر نوفمبر • ومن ثم أصبح من المعتاد أن تدق أجراس الكنائس والأبرشيات طوال الليل حتى تطردهم • وقد قيل أن هذه العادة نفسها تنتشر فى بعض بقاع أسبانيا • ومن بين الأيام التى يجتمع فيها السحرة كذلك ليلة عشية منتصف الصيف ، ولهذا فان أجراس « روتنبورج » فى « سوابيا » تظل تدق من الساعة التاسعة مساء فى هذه الليلة حتى الفجر ، بينما يغلق الناس المؤمنون نوافذ بيوتهم اغلاقا محكما ، بل انهم يسدون الشقوق حتى لا تتسرب الى بيوتهم هذه الشخوص المفزعة • وقد تعود السحرة كذلك أن يجتمعوا فى « الليلة الثانية عشرة » ، وليلة « القديس والبورجى » ، وعشية أول مايو • ومن ثم أصبحت العادة فى هذه الأيام أن يقوم الناس بطرد هؤلاء الأشرار الذين يمارسون شرورهم فى صورة غير مرئية ، عن طريق قرع أجراس وضرب سياط يمسكونها فى أيديهم ••

ولكن على الرغم من أن السحرة والمشعوذين يفضلون مواسم معينة من السنة للاحتفال بعربدتهم الدنسة ، فانه لا تمر ليلة لا يقابلون فيها عابرى السبل ، وذلك فى أثناء تجوالهم بحثا عن أشخاص يؤذونهم بشرورهم ، كما لا تمر ليلة لا يحاولون فيها اقتحام بيوت المؤمنين وهم نائمون فى قلق • ومن ثم كان ينبغى أن يفعل شىء لحماية المواطنين السالمين من ازعاج هؤلاء الأشرار لهم فى أثناء الليل • ولهذا فان الحراس المكلفين بحماية الشوارع من حدوث الجرائم العادية ، يلقى على عاتقهم تبعة اضافية ، وهى طرد القوى المفزعة التى تنتشر فى الظلام فى الجو ، وتتجول كالأسود الضارية التى تبحث عن فريستها • ولكى ينجز حراس الليل مهمتهم ، فانهم كانوا يستخدمون نوعين مختلفين من الأسلحة الروحية التى تتفق فى درجة فعاليتها • أما السلاح الأول فهو الناقوس ، وأما السلاح الثانى فهو الترنم بالأدعية المباركة•

واذا كان صوت الناقوس يقلق النيام فى الحى ، فان لحن تعويذة البركة كان يريحهم ، اذ كانوا يتأكدون ، كلما غطوا فى النوم أن هذا هو السبيل الوحـــد لأمنهم على حـــد تعبير ملتون ، عندما قال :

فتعويذة رجل الجرس التى تصـــل الى آذان النائمين
تبارك الأبواب من شرور الليـــل

وكثيرا ما كانت أنشودة البركة التى تحطم ســـكون الليل تصاغ فى شعر ليس له مثيل فى رداءته ، بحيث أصـــبح شعر رجل الجرس مضرب الأمثال • وفحوى هـــذا الشعر يمكن استخلاصه من سطور قالها « هينيريك » على لسان أحـــد جمهور الحراس الذى عانى الشاعر من أدعيتهم الليلية بكل تأكيـــد ، كما عانى منهم « ملتون » كذلك • وهـــذه الأبيـــات هى :

رجـــل الجرس
يخلصك من ضجيج المحنـــة
ومن القتـــلة
ومن كل سوء يمكن أن يزعجك
حتى تنام نوما هادئا
وهو يبعث فى نفوسكم الاطمئنان
ويبعد عنكم الأشباح عندما تنامون
بعد الساعة الواحـــدة أو ربما بعد الساعة الثانية
سادتى • طاب يومكم جميعا

ويخبرنا أديسون كيف أنه استمع الى رجل الجرس وهو يبـــدأ عظاته عند منتصف الليل باستهلال مألوف ظل يعيده على مسمع سامعيه فى كل ليلة من ليالى الشتاء طيلة عشرين عاما • وهذا الاستهلال هو :

أيها الرجل الفانى ، يا من ولد فى المعصـــية

وعلى الرغم من أن هـذه الخطبة المزدرية بالانسان يمكن أن يكون لها صـدى ورع فى نفس أديسون ، الا أنه يبدو أنها كانت تثير مشاعر الغضـب وازدراء النفس فى صـدور الناس العاديين الذين كانوا يستيقظون من سباتهم فى الهزيع الأول من الليل ليذكرهم رجل الجرس فى ساعة غير مستحبة بعقيدة أصل الشرور ••

لقد رأينا ان أجراس الكنائس ، كانت تقرع فى العادة ، وذلك من وجهة نظر كتاب العصور الوسطى ، ساعة حدوث العواصف المرعـدة بقصـد طرد الأرواح الشريرة المثيرة للعواصـف • وقـد ألف كاتب ألمـانى عجوز عاش فى القرن السادس عشر وكان يعـرف باسـم « ناوجورجوس » ، قصـيدة ساخرة حـول تأثير مثل هذه الخزعبلات على الكنيسـة فقال :

اذا أرعـد الرعـد ، وثارت العواصف العاصفة
اعتقد الناس لشدة تعجبنا ، أن الأرواح الخسيسة تسببها ،
هؤلاء الذين لا دين لهم ، ولا ثقـة فى أى شىء
ولهـذا يقرع الكهنة النواقيس من أعلى أبراج الكنيسة
فتصلصل بصـوت أعلى من صوتها العادى
حتى يكف الرعـد فى السماء المظلمة
لأنهم يعتقدون أن القوة التى تسكن هـذه الأجراس المسيحية
تقـدر على اسكات العاصـفة والرعـد

ولقد رأيت بنفسى ذات مرة فى « نوم بورج » ، وهى مدينة تقع على شاطىء تورنج

جرسا يفتخر باللقب الذى أطلق عليه ويقول :
« اسمى مارى »
اننى اسكت الرعد العاصـف بصوتى وكذلك الزوابع وكل شرير يمـزح » ،

ولا عجب ، اذا كانت الأجراس تقوم بهذا العمل ، أن يلجأ اليها
المتدينون عندما يسقط البرد أو تثور زوبعة أو عاصفة
أو يرعد الرعد أو يبرق البرق العنيف فى كل مكان » ..

وقد قيل ان أجراس الكنيسة كانت تقرع فى كل أنحاء ألمانيا فى العصور الوسطى فى أثناء حدوث عاصفة مرعدة ، وان القندلفت كان يتلقى ضريبة خاصة من الأبرشيات لقرعه الأجراس فى هذه الظروف العاجلة . وقد ظلت هذه الضريبة تدفع حتى نهاية منتصف القرن التاسع عشر . ومثال هذا أن القندلفت فى « يوبار » التى تقع فى « التمارك » ، كان يضطر الى قرع نواقيس الكنيسة عندما تهب عاصفة مرعدة . وفى مقابل هذا كان يتسلم من كل فلاح خمس حزم من الذرة ، لما كان يتكلفه من أعباء فى انقاذ المحصول من التلف . ويخبرنا كاتب ألمانى عن هذه العادة التى كانت تنتشر فى « سوابيا » فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر ، « أن الأجراس كانت تدق فى معظم الأبرشيات الكاثوليكية بخاصة تلك التى تقع فى شمال « سوابيا » عندما تهب عاصفة مرعدة ، وبذلك يكف البرد عن السقوط ولا تحدث خسائر من البروق . وكثير من الكنائس تمتلك أجراسا خاصة لهذا الغرض . فدير « باين جارتن » الذى يقع بالقرب من « ألت دورف » يملك جرسا يطلق عليه اسم « ناقوس الدم المقدس » . ويدق هذا الجرس فى أثناء هبوب عاصفة مرعدة . وفى « فور ملنجن » تدق الأجراس على جبل « ريميجيوس » ، فاذا قرع الناس هذا الناقوس بمجرد احساسهم بحدوث عاصفة رعدية ، فان البرق لا يتهددهم فى أى مكان فى الحى . على أن القرى المجاورة ومن بينها « يسنجن » على سبيل المثال ، لا تسعد بقرع النواقيس ، لأنها تعتقد أن المطر يختفى مع اختفاء العاصفة الرعدية . أما فيما يختص بمدينة « كونستانسا » بصفة خاصة ، فنحن نقرأ أن نواقيس كل الكنائس والأبرشيات لا فى المدينة وحدها وانما فى الأماكن المجاورة كذلك ، كانت تقرع عندما تهب عاصفة رعدية . ونظرا لقداسة هذه

النواقيس ، فان الناس يعتقدون أن أصواتها تحميهم كليـــة من أذى البرق • حقـــا ان غير قليل من الناس يساعدون القندلفت فى حماســـة فى شـــد حبال الناقوس فى قوة حتى يتأرجح تأرجحا بالغـــا • وعلى الرغم من أن هؤلاء المتطوعين ، فيما يروى ، قد صعقتهم البروق فماتوا فى أثنـــاء قرع الأجراس ، الا أن غيرهم لم يجبن عن أن يفعل فعلهم • بل ان الأطفال فى هـــذه المناسبات يحملون فى أيديهم أجراسا صغيرة مصنوعة من الرصاص أو من أى معـــدن آخر ، ومزينة بأشـــكال على هيئـــة أصابع القديسين ثم يأخذون فى دقهـــا بعـــد أن تكون كنيسة « ماريا لوريتو » التى تقـــع فى « شتايرميرك » أو فى « اينسيديلن » قـــد باركتهـــا • وقـــد كان التابعون فى ظـــل بعض النظم الاقطاعية ملزمين بدق أجراس الكنيسة فى مناسبات عـــدة وبصـــفة خاصـــة فى أثنـــاء العواصـــف الرعـــدية ••

لقد كانت النواقيس تقـــدس فى خشـــوع ، كما كان الاعتقاد الشائع انها قـــد عمدت بواسطة الكهنة • ومن المؤكد أنها كانت تسمى بأسماء وتغسل وتبارك وتدهن بالزيت المقدس لكى تستطيع أن « تبعد الأشباح الشريرة وتطردها » وكثيرا ما تشير الكتابات المحفورة عـــلى الأجراس الى المقـــدرة التى تستكن بالناقوس وتمكنه من طرد الزوابع والبرق والرعـــد • وقـــد يجرؤ البعض على نســـبة هـــذه القـــوى للنواقيس نفسها ، فى حين يتضرع البعض الآخر الأكثر تواضـــعا الى الله لكى يخلصـــهم من هـــذه الكوارث ، فهناك ناقوس فى « هازلين » قـــد حفرت عليه الكلمات التالية بالحروف اللاتينية وهى « ســـيدى المســـيح خلصـــنا من البرق والرعد والعواصف » • ويخبرنا «بينانت» الرحالة والباحث فى الآثار القديمة الذى عاش فى القرن الثامن عشر ، فى معرض حـــديثه عن بئر القديس « فينفريـــد » فى « فلينتشاير » فيقول : « لقد مســـح ناقوس من نواقيس الكنيسة تكريما للكنيسة • اننى لا أعرف أسماء الذين عينهم الكنيسة آباء أو أمهات بالتعميـــد ، هؤلاء الذين كانوا فى العـــادة من الأثرياء ولكن الذى أعرفه أن هؤلاء

كانوا يمسكون بحبل الناقوس عند الاحتفال بالتعميد ، كما يسمون الناقوس باسم • وعند ذلك يأتى الكاهن وينثر الماء المقدس على الناقوس ويعمده باسم الأب والابن والروح القدس ، كما يكسوه برداء جميل • وبعد هذا يقدم هؤلاء الآباء والأمهات وليمة كبيرة ، كما يقدمون المنح القيمة التى يتسلمها الكاهن باسم الناقوس • فاذا بورك الناقوس على هذا النحو ، فانه يكون بذلك قد اكتسب المقدرة الخارقة على تهدئة العواصف عندما يقرع ، وعلى تعطيل الرعود وطرد الأرواح الشريرة • وكثيرا ما كانت تنقش الكتابات على مثل هذه النواقيس المقدسة • ومن بين هذه الكتابات العبارة التالية :

Sancta Wenefreda, Des hoc commendare momente
Ut pietate sua nos servet ab hoste cruento

كما كتب أسفل ذلك

Protege prece pia quos convoco, Virgo Maria

على أن العالم اليسوعى الأب « مارتين ديلريو » الذى نشر كتابا قيما عن السحر فى مطلع القرن السابع عشر ، أنكر فى سخط موضوع تعميد النواقيس ، على الرغم من أنه اعترف أنها كانت تسمى بأسماء القديسين وأن أصحاب السلطان الكنسى كانوا يباركونها ويدهنونها بالزيت المقدس • أما أن نواقيس الكنيسة تدق لتقييد الأرواح الشريرة كل التقييد ، ولتفادى العواصف التى تثيرها القوى المعادية للانسان ، أو للعمل على اخمادها ، فهو ، من وجهة نظر العالم اليسوعى ، اعتقاد مصدره التجارب اليومية التى تبدو واضحة للعيان بحيث يتعذر انكارها • ولكن هذه الأعمال الخارقة من ناحية أخرى ترجع الى القداسة أو البركة التى تخلع على هذه الأجراس ، ولا ترجع الى شكلها أو الى طبيعة مادتها • فهو يرفض بازدراء ، رفضه للخرافات الوثنية ، فكرة أن الصليل الذى تحدثه آلة نحاسية كفيل بأن يبعد الشياطين • كما أنه يسخر من تصور أن ناقوس الكنيسة يفقد كل خواصه العجيبة اذا سمته محظية القسيس

باسم (ذلك أنه يرفض كلية استخدام كلمة التعميد) • وقد هبط « بيكون » بتفكيره الى حد الاشارة الى الاعتقاد فى أن « صليل النواقيس القوى فى البلاد المأهولة بالسكان قد أبعد عنها الرعود ، وبدد هواءها الفاسد » • ولكنه فى الوقت نفسه يقدم تفسيرا طبيعيا لهذه الحقيقة المتصورة فيقول : « على أن هذا يمكن أن ينجم عن تخلخل فى الهواء ولا ينجم عن صليل النواقيس » ••

وبينما تمتلك كل النواقيس بدون استثناء وبدرجة واحدة لتلك الخاصية العجيبة فى العمل على تبديد الشياطين والمشعوذين ، كما تجنب الناس ، الى جانب ذلك ، أضرار الرعود والبروق ، فان بعض النواقيس كانت تتميز عن غيرها فى درجة فعاليتها فى استخدام قواها الخيرة • ومن هذه النواقيس ناقوس القديس « آديلم » فى دير «ماليسربورى»، والناقوس الضخم « سان جرمان » بدير « سان جرمان » فى باريس • فهذان الناقوسان كانا يقرعان بانتظام لطرد أشباح الرعد والبرق • وقد كان لكاتدرائية القديس « باول » القديمة ، حق امتياز « قرع النواقيس فى أثناء حدوث الزوابع المرعدة والبرق » • على أن الأعمال الخارقة لنواقيس أوربا تتضاءل بالنسبة لأعمال نواقيس « كالوتو » التى تقع فى أمريكا الجنوبية ، لا من حيث أن نواقيس « كالوتو » كانت تتميز عن نواقيس أوربا بامتلاكها القوى خاصة بها ، ولكن من حيث كثرة حدوث العواصف المرعدة فى اقليم « أنديس » ، الأمر الذى هيأ الفرصة لنواقيس « كالوتو » فى ابراز مقدرتها التى تفوق مقدرة الأجراس العادية • وفى هذا المجال استشهد بشهادة عالم وبحار أسبانى مرموق سافر الى أمريكا الجنوبية فى النصف الأول من القرن الثامن عشر • فقد أخبرنا هذا العالم أن « بوبايان » أكثر تعرضا للعواصف المرعدة والبروق والزلازل • ولكن حيث أن « كالوتو » كانت تعد أكثر الجهات تعرضا للعواصف المرعدة والبروق ، فقد كان هذا سببا فى شهرة نواقيس

« كالوتو » التى يقرعها عدد غير قليل من الناس لعلمهم علم اليقين أنها تمتلك خاصية ضد البروق • وهناك فى الحقيقة حكايات كثيرة تحكى حول هذا الموضوع ، الى درجة أن الانسان قد يتحير فى تصديقها • وأشير الآن الى أكثر الحكايات انتشارا حول هذا الموضوع دون أن أتعرض لصدقها أو كذبها ، وانما أترك لكل شخص الحرية فى الحكم عليها • لقد كانت مقاطعة « كالوتو » التى تحتوى على عدد كبير من الهنود الذين ينتمون الى شعب يسمى « بايزيس » شاسعة الأرجاء فى الأزمنة السالفة • ثم حدث أن هؤلاء الهنود انقضوا على المدينة فجأة وتوغلوا فى طرقها ، وأحرقوا بيوتها وقتلوا سكانها • وكان من بين القتلى قسيس الأبرشية الذى كانوا يبغضونه بصفة خاصة ، لأنه كان يتلو المواعظ من الانجيل الذى لم تكن تعاليمه وشرائعه تتفق مع أسلوب حياتهم الهمجية • ومن ثم فقد كانت هذه المواعظ تكشف عن مساوىء وثنيتهم وأفكارها الحمقاء ، كما كانت تضع أمام أعينهم شرورهم الشائنة ، بل ان ناقوس الكنيسة لم يتخلص من هذا الشعور العدائى ، حيث أن رنينه كان يذكرهم بواجبهم فى الحضور والاستماع الى التعاليم الدينية • ومن ثم فانهم بعد أن قاموا بمحاولات عديدة فاشلة فى تحطيم الناقوس فكروا فى أن أفضل وسيلة فى التخلص منه هى دفنه تحت الأرض • وبذلك ينسون تعاليم الانجيل التى شاءت أن تسلبهم حريتهم •• وعندما سمع الأسبانيون فى الأحياء المجاورة « لكالوتو » بهجوم الهنود عليها سلحوا أنفسهم وانتقموا من هؤلاء المتمردين شر انتقام ، ثم أعادوا بناء المدينة ، وأخرجوا الناقوس من المكان المدفون فيه ، ووضعوه فى برج الكنيسة الجديدة • ومنذ ذلك الحين لاحظ السكان ، لشدة فرحتهم ودهشتهم ، أنه عندما يقرع الناقوس تخمد العواصف بمجرد أن تثور • واذا لم يتحسن الجو كل التحسن ، فان العاصفة تختفى على الأقل لتظهر فى مكان آخر • ولما انتشرت أخبار هذه المعجزة فى كل مكان أخذ الناس يتوسلون الى رجال الكنيسة لكى يحصلوا على قطع من الناقوس يصنعون منها ألسنة لأجراسهم الصغيرة • حتى تكتسب

من الناقوس المعنى خاصيته المميزة له ، ومن ثم يمكنهم الاستفادة من الأجراس الجديدة كل الافادة فى بلد يكثر هبوب العواصف عليه فى صورة مفزعة . وهذا هو السبب فى شهرة « كالوتو » ..

ولم يقتصر استكشاف امكانية اخماد الرعود والصواعق عن طريق تلك العملية البسيطة وهى قرع النواقيس على الشعوب المسيحية فى أوربا وسلالتهم الذين استوطنوا العالم الجديد ، وانما كان يشاركهم هذا الاستكشاف بعض القبائل الوثنية البدائية فى أفريقيا . فقد قيل ان« التيسيين » يستخدمون الأجراس فى طرد شيطان العاصفة . فاذا تسببت الصاعقة أو النار التى تتفجر عنها فى ايذاء شخص ، فان هذا الشخص يظل يحمل أجراسا فى رسغه عدة أسابيع بعد هذا الحادث .. وحيثما وجد هذا الشخص أن المطر الغزير يهدد قومه ، لأن المطر يسقط على الدوام فى أوغندا مصحوبا بالبرق والرعد ، فانه يتجول فى القرية مدة ساعة مرتديا الأجراس المصلصلة فى رسغيه وحاملا فى يده عصا من نبات البردى ، ويصاحبه فى العادة أكبر عدد من أفراد أسرته لكى يقوموا بخدمته ، وان كان هؤلاء لا يقومون بالأعمال الأساسية . فاذا تسببت الصاعقة فى مقتل شخص ، فانه لا يدفن داخل البيت وفقا للمادة المتبعة وانما يحمل الى مسافة بعيدة ويوارى فى التراب بجانب نبع يقع عند حافة الغابة ، ويوضع على قبره كل الأوانى والأدوات التى كان يمتلكها فى حياته . كما تغرس المعازق على سبيل الضحية لاله الصواعق ، عند باب الكوخ الذى هوت عنده الصاعقة الذى أصبح حطاما بفعلها ، وتترك هناك لبضعة أيام . ومن الطريف هنا أن هذه الرواية تشير الى فاعلية الأجراس والمياه الجارية معا وهى العقيدة التى انتشرت فى بعض خرافات الأوربيين القدماء ..

وحيث أنه لا يبدو أن قبيلة « باتيسو » قد تبنت هذه المعتقدات عن طريق المبشرين الأوربيين ، فاننا ننسب اليهم ميزة ابتداع عادة طرد شياطين العواصف عن طريق قرع النواقيس ، أو اخمادها عن

طريق وضـــع الأوانى والفؤوس فى الامكنة الخربة وعلى قبر من صعقته الصواعق • وكذلك يستخدم الصينيون الطبول ، التى تتفق فى أغراضها العملية مع النواقيس ، فى تجنب شرور الرعــد ، وان كانت المناسبات التى يضرب فيها الصينيون الطبول تختلف عن مناسبات قرع النواقيس التى أشرنا اليها • فاذا مرض شخص بمرض الجــدرى ، وظهــرت البثور فى وجهــه مــدة سبعة أيام ، وكذلك اذا أرعــد الرعــد ، اختير أحــد أفراد أسرة المريض لكى يأخــذ فى ضرب الطبول التى تــكون معــدة لمثــل هــذه الطــوارئ • ويعاون هــذا الشخص شخص آخر من الأسرة فى ابلاغه بأن الرعــد قد خمــد ، لأن صوت الطبول القوى لا يمكن ضاربه من التمييز بين صــوت الرعد وصــوت الطبول • وقــد قيل أن السبب فى ضرب الطبول هو منع بثور مرض الجــدرى من الانفجار • ولكن هــذا التفسير يقدمه الصينيون لاختفاء بثور المرض نتيجة ضرب الطبول ليس مقنعا فيما يرى الباحثون • ولكننا بمقارنة هــذا التصــور بالتصور الأوربى الســالف الذكر ، نفترض أن الصينيين يتصــورون أن انفجار بثور المرض يسببه أصلا شيطان الرعــد الذى يمكن طرده عن طريق ضرب الطبول ••

واذا كانت القبائل الهمجية قــد استطاعت أن تحقق غرض طرد الأرواح الشريرة عن طريق احــداث الضجيج ، فهناك شواهد تدل على أنهم لم يرفضوا الوسائل الأوربية التى تحقق الغرض نفسه • وقــد سجل اثنــان من المبشرين كانا يعيشان بين ســكان « بورت موريسباى » فى نيوغينا البريطانية ، نموذجا من هــذه الوسائل التى استعارها هؤلاء الأهالى عن الأوربيين ، قالا : « فى ذات ليلة عندما هبت عاصــفة رعــدية ، سمعنا صوتا مزعجا فى القرية • وقد كان الأهالى يضربون الطبول ويصرخون فى حماسة لكى يطردوا أشباح العاصفة • ثم أخــذت أصوات ضرب طبولهم فى الخفوت ، عندما بدأت العاصفة تهــدأ • وعند ذاك شعر سكان القرية بالاطمئنان • وعلى هذا النحو كانوا يقومون ليلة السبت بطرد الأشباح التى تسبب المرض ويترتب

على ذلك وفاة عـدد كبير من الأهالى • وعندما قرع ناقوس الكنيسة عندهم لأول مرة ، شـكر الأهالى مستر لوويس لأنه أبعد عنهم عصابات الأشباح من داخل قراهم ، كما كانوا يفعلون هم أنفسهم عن طريق ضرب طبولهم • وقـد سعدوا كذلك بنباح كلب لطيف كان يعيش فى بيت الارسالية (ذلك لأن الكلب الاسترالى الشرس لا ينبح) ، لأنهم تبينوا فى ثقة تامة أن الأشباح قـد اضطرت إثر ذلك الى أن ترحـل عنهم • ولكن الأشباح ألفت ، لسوء الحظ ، صـوت قرع الناقوس ونباح الكلب • ومن ثم كان يتحتم على الصـبية أن يتجولوا فى الليل وهم مسلحون بالأقواس والسهام لكى يصيبوا هذه الأشباح البغيضة • وكثيرا ما كانوا يفزعون الى الغابات والأحراش ليختبئوا فيهـا » • ومعنى هـذا أن أهالى « بورت موريسباى » البدائيين ، قد شاركوا العالم المسيحى ، « جون نزيتزيس » رأيه فى أنه ليست هناك وسـيلة لطرد الأشباح الشريرة ، أفضـل من قرع النواقيس البرونزية ونباح الكلب ••

ويقوم بعض هنود « بويبلو » فى أريزونا بطـرد السـحرة عن طريق قرع النواقيس ، وان كان من المحتمل أنهم استعاروا هـذه العـادة من المبشرين الأسبان ، لأنهم لم يكونوا يستعملون من المعادن حتى ذلك الوقت سوى الذهب والفضـة ، أى أن استخدام النواقيس لم يكن معروفا لدى سـكان أمريكا الأصليين قبـل أن يفـد اليهـا الأوربيون • وقد وصف أحـد الضباط الأمريكيين طريقة طرد الأشباح التى رآها رأى العين فى قرية من قرى « موكويس » التى تقع شأنها شأن سائر قرى هؤلاء الهنود الكثيرة ، على قمـة ربوة تشرف عـلى واد خصـيب ، فقال :

« ان أهالى « موكويس » يعتقدون فى سـذاجة ، فى السـحر والسحرة ، فالهواء الذى يحيط بهم ، وفقـا لتصورهم ، يعج بالأرواح الشريرة • ويطرد سـكان « أورابى بى » هـذه الأرواح الشريرة عن طريق ترتيل أناشيدهم الدينية وعن طريق قرع النواقيس • وقـد

واتانى الحظ لأن أشاهد فى مطلع عام ١٨٧٤ م ، بمرافقة الجنـرال « كروك » ، هـذه الوسائل السحرية الغريبة التى قام بتأديتها أهالى تلك البلدة المنعزلة التى لا يكاد يعرفها الزائرون • وقـد بدا لى وكأن سكان القرية جميعا قـد تجمعوا • وبعد أن غنوا بصـوت عال وبنغمة متحدية ترتيلة أو ابتهالا ذا ايقاع موسيقى يؤكد صـليل الأجراس القوى ، تقدموا مسرعين فى صـف واحـد من أعلى قمة الجبـل الى حدائق البرقوق التى تقع أسفله ، ووقفوا بعض الوقت عند أركان هذه الحدائق وهم يغنون فى نغمة واحـدة عالية ويأخـذون من الأشـياء الموضوعة داخل الناقوس ما يساوى نقودهم • ثم صـدرت اشارة من قائد المجموعة ، اندفعوا على أثرها الى الحدائق • وفى أقل من ساعة كانت ثمار الأشجار قد اقتطفت عن آخرها كما انتزعت فروع الأشجار التى حملها الأطفال والنساء الى قريتهم التى تقـع فوق قمة الجبل » • والهـدف من الرقص حول حدائق الفاكهة ، وكذلك ترتيل الأناشيد بصـوت مرتفع ، ودق النواقيس بحماسة بالغة ، هو بدون شك طرد السحرة الذين كان الأهالى يعتقدون أنهم يسكنون بين فروع أشجار البرقوق ويتنعمون بالفاكهة اللذيذة ••

عـلى أن استخدام الأجراس والطبـول بقصـد طرد الأرواح الشريرة كان مألوفا عنـد كثير من الشـعوب الأخرى التى لم تكن فى حاجة لأن تستعير من المسيحيين الأوربيين وسـائل هـذا الطرد • « فالطبلة النحاسـية تعـد الآلة الرئيسـية فى الصـين التى تحـدث ضجيجا قادرا عـلى طرد الأشـباح • وهـذه الآلة النحاسـية تعد فى الحقيقة ملمحا مميزا للصـينيين ، وهى تقرع فى ربوع الامبراطورية كل يوم ، وبخاصـة فى الصيف عنـدما تنشـط عملية طـرد الأشباح بسبب زيادة الوفيـات • ويصـاحب الضرب على الطبول النحاسـية الضرب على الصنج النحاسية والطبول المصـنوعة من الخشـب أو الجلود ، لأن كل هذا يزيد فى تأثير الطبول النحاسية • وكثيرا ما تستمر جماعات صغيرة من الرجال والنساء فى ضرب هـذه الآلات مدة ساعات

متتالية ولا يعترض الجيران على ذلك أو يرفعون شـكواهم بأنهم يفسـدون عليهم نومهم بالليـل • ربما كان السبب فى هـذا هو ارتياح آذانهم لهـذه الموسيقى البدائية • أو تقديرهم لهـذا العمل الجليـل الذى يقوم به بعض أفراد هـذا الشعب الطيب مشكورين لاهتمامهم البالغ بخير العامة وسلامتها » • وتقام احتفالات طرد الأشباح فى جنوب الصـين فى فصـل الصيف القائظ ، عندما ينتشر وباء الكوليرا الذى يعزى انتشاره الى تحليق الشياطين غير المرئية فى الجو • ووظيفة هذه الاحتفالات هى طرد هذه الكائنات الشريرة من البيوت والمساكن • وكل هـذا العمل تقوم به جمعية من الجمعيات • وتجمع تكاليفه عن طريق الاكتتاب • ويتصدر قائمة الدفع عادة الموظفون الكبار المحليون ، وهؤلاء الذين يدفعون لهـذا الغرض مبالغ سخية • أما العمل الحقيقى فى طرد الأشباح فتقوم به مواكب من الرجال والصـبية الذين يتجولون فى الطرقات ويقرعون طبولهم بصـوت عال ، ويضربون بفؤوسـهم وسيوفهم الأعـداء غير المرئيين ، ويزعجونهم بقرع طبولهم وصـليل أجراسهم وفرقعة مفرقعاتهم واطلاق وابل من رصاص بنادقهم ••

وفى « أنـام » ، يعزف الشخص المكلف بطرد اشباح المرض من مسكن معين على عوده ، فى الوقت الذى يصلصل فيه بسلسلة نحاسية بربطها فى أصبع قدمه الكبير ، بينما يساعده مساعدوه فى قرع الطبول والآلات الوترية الأخرى •على أن الناس يتصورون أن صليل الأجراس يصدر من رقبة حيوان يمتطيه الاله ويأتى به مسرعا ليساعد المؤدى العازف • وتلعب النواقيس دورا كبيرا فى طقوس بورما الدينية • ويحتوى كل معبد من معابدهم على عدد كبير منها • ويبدو أن الناس يميلون الى الاستماع الى صوتها العذب ولحنها الجمهورى • وهـم يقولون فى العصر الحاضر ، ان خواصها لا تمثل فى طرد الأشـباح الشريرة بقدر ما تتمثل فى لفت أنظار الأشباح الحارسة بأنهم يتغنون بمدح بوذا ، ومن ثم فان المتعبدين يعلنون فى النهاية تقديسهم لبوذا وولاءهم لواجبه الدينى ، عن طريق قرع النواقيس ثلاث مرات •

على أننا نعتقد أن هذا التفسير يعد أحد الأفكار المتأخرة التى يبرر بها العابد المتقدم فى أفكاره ، بقاء شعيرة بدائية قديمة كانت قد نشأت أساسا لغرض أقل صقلا وجمالا من الغرض الحالى • وربما كان قرع نواقيس الكنائس فى أوربا أصبح محببا الى نفوس كثير من الأتقياء لجمال صوته وما يثيره فى النفس من دواع رقيقة ، كان يمارس فى الأصل لطرد الأشباح من بيوت المصلين ، وذلك قبل أن ينظر اليه بوصفه وسيلة لاستدعاء العابدين لكى يقوموا بتأدية صلاتهم فى أماكن العبادة المقدسة ••

وعلى كل فان استخدام شعوب آسيا الساذجة للأجراس بقصد طرد الارواح الشريره فى تلك الصورة البسيطة ما يزال يتبع عندهم حتى يومنا هذا • ففى أثناء الاحتفال الجنائزى الليلى الذى تقوم به قبيلة « ميشيمى » ، وهى قبيلة من قبائل التبت التى تسكن بالقرب من حدود أسام الشمالية ، يحمل الكاهن بطريقة غريبة أسنان ثمار البرقوق الملونة بألوان مختلفة ، كما يحمل الأجراس والقواقع ، ويظل يرقص على هذا النحو بعنف بقصد طرد الأرواح الشريرة ، بينما تصلصل تلك الأشياء وتقعقع من حوله • وعند قبيلة « كيرانتى » وهى قبيلة تسكن وسط الهملايا وتقوم بدفن موتاها فوق قمم التلال ، « يتحتم على الكاهن أن يحضر الجنازة • وفى أثناء سيره مع جسد الميت فى طريقه الى القبر ، يقرع وعاء نحاسيا بعصا من وقت لآخر ، ويناشد روح الميت ، آملا أن يرحل فى سلام ليرافق الأرواح التى سبقته » • وربما كان القصد من قرع الوعاء النحاسى عند الاحتفال الجنائزى هو الاسراع برحيل روح الميت الى مقرها الأخير ، أو طرد الشياطين التى يمكن أن تعترض سبيله • وربما كان هذا السبب أو غيره يلائم تفسير عادة نساء اسبرطة فى التجول فى شوارع المدينة وهن يقرعن الأوانى عندما كان يموت ملك من ملوكهن • وعندما تنفصل زوجة من قبيلة « كافيروندو » ، وهى احدى قبائل البانتو التى تسكن وسط افريقيا ، عن زوجها وترحل الى أهلها ، فانها ترى أن من واجبها عندما

يتوفى زوجها أن تعلن الحداد عليه فى قريته • ولهذا الغرض فانها « تربط الجرس الذى يستخدم فى نداء قطعان الماشية على خصرها بحيث يتدلى من الخلف ، وتجمع صديقاتها ويسرن جميعا مهرولات الى قرية زوجها المتوفى بينما يصلصل الجرس المعلق فى خصرها بطريقة مثيرة طوال الطريق » • وربما كان القصد من صليل الجرس فى هذه المناسبة كذلك هو ضمان رحيل روح الميت فى أمان ، أو ربما كان الغرض من ذلك هو لفت نظر الميت الى ما تقوم به زوجته الأرملة حزنا عليه • ومن المألوف عند قبيلة « دياك » التى تقطن الأقاليم الجنوبية الشرقية فى بورنيو الهولندية ، أن تقرع النواقيس القرصية ليلا ونهارا طالما كان جسد الميت مسجى فى البيت • وتبدأ الألحان الحزينة بمجرد أن يلفظ الميت آخر أنفاسه • وعند ذلك تقرع أربعة نواقيس قرصية دقات مختلفة ومتتابعة ، بحيث يفصل بين دق ناقوس وآخر دقيقتان • وهكذا تظل تقرع النواقيس ساعة بعد ساعة ويوما بعد يوم • وقد قيل إنه ليست هناك دقات أكثر سحرا وتأثيرا على المستمعين ، بما فى ذلك أجراس النعى تسمع من الكنائس الكاثوليكية فى أوربا ، من هذه النغمات الحزينة التى تصدر من نواقيس الموتى هذه ، وهى ترن فى رتابة حتى يتلاشى صليلها عبر أنهار بورنيو العريضة ••

وعلى الرغم من أننا لا نعرف سببا لقرع قبيلة دياك للنواقيس فى هذا الجزء من بورنيو بصفة مستمرة بعد موت شخص ، الا أننا يمكننا أن نفترض أن الغرض من ذلك هو ابعاد الأرواح الشريرة ، لا استدعاء الأصدقاء المحزونين الذين يسكنون على بعد • اذ لو كان الغرض من ذلك هو مجردنشر نبأ الوفاة بين الأحياء المجاورة ، فما سبب قرع النواقيس على الدوام ليلا ونهارا ، طالما كان الميت ما زال يرقد فى بيته ؟ • كما أننا نعرف من ناحية أخرى أن طرد الشياطين فى بورنيو يتم عن طريق قرع الآلات المعدنية • وقد تحدث رحالة انجليزى قام برحلة فى شمال بورنيو عن ظروف إقامته فى مناسبة

من المناسبات فى بيت كبير من بيوت بلدة « دوزون » التى يسكنها حوالى مائة من الرجال مع أسراتهم فقال : « وعندما أرخى الليل سدوله ، انطلقت ألحان ذات ايقاع وأنغام غريبة ، من طنبور معدنى • فلما سألت عما اذا كان هذا نوعاً من الطرب ، أجابوا بالنفى وشرحوا لى أن هناك رجلا مريضا ، وأنه يتحتم عليهم أن يعزفوا هذه الألحان حتى يبعدوا عنه الأرواح الشريرة » وهؤلاء الأهالى أنفسهم يقومون بطرد كل الأرواح الشريرة من القرية فى شىء من القدسية مرة فى السنة • وفى أثناء عملية الطرد تقرع النواقيس وتدق الأجراس لكى يولى الشياطين هاربين فى سرعة • وبينما يأخذ الرجال فى قرع النواقيس ودق الطبول تسير النساء فى مواكب من بيت لآخر ، وهن يرقصن ويغنين على ايقاع الصنج النحاسية ألتى يحملنها فى أيديهن ، وعلى صليل الأجراس النحاسية الصغيرة التى يربطنها فى شكل مجموعات فى معاصمهن • فاذا فزعت النساء فى طرد الشياطين من البيوت ، فانهن يقتفين أثرها حتى يسقنها الى شاطىء النهر حيث يكون فى انتظارهن مركب معد لحملهن الى ما وراء حدود القرية • ويزين هذا المركب بتماثيل لرجال ونساء وحيوانات وطيور مصنوعة من أوراق نخل الساغو • كما توضع فيه الأطعمة والملابس وأوعية الطهى • وبعد أن ينتقل هؤلاء المسافرات الروحانيات الى ظهر المركب ، تفك مرساته ، ويترك ليبحر فى مجرى النهر حتى يصل الى بعد سحيق فى النهر ويختفى بين الغابات عن الأنظار وبذلك تكون الشياطين قد ابتعدت بعيدا مع المسافرات ، ولا تعود مرة أخرى ، كما يأملون ذلك فى ضعف بالغ •

وعندما زار سير « هوج لو » قرية تقع على تل « سينجودباك » فى أغسطس عام ١٨٤٥ م ، استقبل باحتفال رائع بوصفه أول أوربى زار هذا المكان • وقد اشترك هذا الرجل الانجليزى بروح طيبة فى صلاة الشمس والقمر والصلاة « لراجا سارواك » ، حتى يكون محصول الأرز وافرا وانتاج الخنازير غنيا ، وحتى تتجنب النساء

الذكور • وقد شاء هذا الزائر الانجليزى أن يزيد من مفعول هـذه الصلوات ، بأن أخذ يرمى بكمية صغيرة من الأرز الأصـفر الى أعلى بين فترات متقطعة بقصد لفت نظر ثلاثة من الآلهة فيما يبدو لمطالب عبادهم • وبعد أن اشترك سير « هوج لو » فى هذه العبادة المتواضعة على مرأى الناس أمام البيت ، رجع الى الشرفة حيث كان زعيم القرية جالسا • « فربط جرس الصقور حول معصمى وطلب منى أن أربط له بالمثل جرسا آخر حول معصم يده اليمنى • وبعـد هذا قـرعت النواقيس والطبول التى كانت تعلق بجوانب الشرفة • ثم ربط الزعيم جرسا صغيرا آخر حول معصمى ، كما أخذ الرجال العجائز يفعلون فعله وكل منهم يوجه الى كلمات لم أفهم فحـواها ، أو بالأخـرى يتمتمون — لأنفسهم بها • وكان كل شخص يدخل علينا يحضر معـه أوعية عديدة مصنوعة من البامبو ممتلئة بالأرز ، ويضيف عند وصوله جرسا الى الأجراس حتى أصبحت عندى اجراس عديدة للغاية • ثم طلبت منهم على سبيل المجاملة أن أربط سائر الأجراس فى معصـمى الأيسر ، اذا كان هذا لا يضر بالاحتفال ، وهذا ما فعلوه معى بحق » • وعلى الرغممن أن سير « هوج لو » لم يفسر لى هذا الأمر ، ومن المحتمل أنه لم يكن يعرف سبب خلع الأجراس على الزائر على هـذا النحو ، الا أنه يمكنناأن نفترض أن الغرض من هذا هو حفظ الأرواح الشريرة فى مأواها البعيدة ••

ويحمل الكاهن الباتارى فى « ميرازابور » ، وكذلك كثير من الطبقات المتنسكة فى الهند ، الأجراس والخشاخيش المصـنوعة من الحديد ، ويهزونها فى أثناء سيرهم بقصد أفزاع الشياطين • ولهذا الغرض نفسه، فيما يبدو ، ترتدى طبقة معينة من الكهنة الشياطين التى تعيش بـين قبيلة « جوند وتعرف باسم « أوهيالسى » الأجراس على الدوام • ومن المحتمل أن مثل هذا الدافع يكمن وراء عادة تعليق الأجراس ، حيثما انتشرت هـذه العادة ، فى أجـزاء مختلفة من جسم الانسان بخاصة فى رسغ القدم وفى المعصم والرقبة ، سواء اقتصر هذا التعليق

على مناسبات معينة أو دام لفترات طويلة • وقد نفترض أنه كان يظن فى الأصل ان صليل الأجراس يحمى حاملها من شرور الغيلان • ولهذا السبب ، فانه من المـألوف أن يرتدى الأطفال فى الأقاليم الجنوبية من بلاد الصين أجراسا صغيرة • أما فى الأقاليم الشمالية ، فانهم يرتدونها فى قلة • كما تحمل نساء نابوليتان حليا من الفضة تتدلى منها أجراس صغيرة على ملابسهن بوصفها تعويذة تحرسـهن من الأعـين الشريرة• ويقوم اليزيديون الذين يعتقدون اعتقادا قويا فى قـوة الشـياطين ، باحتفال فى نهاية أعياد الحج • وهم يعتقدون أن هذا الاحتفال يبعد الذئب الأسحم عن الجماعة المتدينة • وفى هذا الاحتفال يأتى رجـل عجوز ويخلع عنه ملابسه ويلبس جلد نعجة كما يلبس حـول رقبته قرطا من الأجراس الصغيرة ، وعلى هذا النحو يزحف حول الحجاج المجتمعين ويحدث صوتا يقصد به تقليد ثغاء المـاعز • ويعتقد الأهالى أن هذا الاحتفال يطهر الجماعة ، وان كان يحق لنا أن نفترض أن هذا التطهير يحدث عن طريق احاطة المؤمنين بسياج روحانى لا يسـتطيع العدو أن يخترقه مهما تكن قوته • ومن المحتمل ان الكاهن من قبيـلة « باداجا » يكون مدفوعا بهذا الدافع عندما يربط أجراسا فى أرجـله قبل أن يحـاول المشى بقـدمين عاريين فوق جمرة متوهجة فى حفرة ، وذلك فى أثناء الاحتفال الذى يقام لمباركة المحصول ••

وكثيرا ما يستخدم سكان افريقيا الأصليون الأجراس بهدف طرد الأرواح الشريرة • ولسنا فى حاجة لأن نفترض أنهم كانوا يصطنعون هذه العادة على الدوام أو فى العموم ، نقلا عن الأوربيين ، حيث أن شعوب افريقيا السوداء كانت تعتقد منذ القدم فى وجود الأرواح ، كما كانت تعرف المعادن • ومثال هذا أن سكان « ساحل سليث » الذين يتحدثون اللغة « اليووبية » يعتقدون أن هناك أرواحا شريرة بعينها تسمى « أبيكوسى » تسـكن الغابات والأماكن الخربة • فاذا قتلها الجوع ، فانها تبحث عن ملاذ لها من الجـوع فى جسم الانسان • ولهذا فانها تنتظر فترة حدوث حمل للمرأة ، وتتسلل مع الجنين فى رحم

المرأة • فاذا ولد مثل هؤلاء الأطفال ، أصابهـم الهزال لأن الأرواح الجائعة تستهلك أفضل غذائهم المخصص لهم • ولكى تخلص الأم الطفل من هذا الكائن المتطفل المزعج ، فانها تقدم له طعاما بوصـفه ضحية • وهى تنتهز فرصة انشغاله بالطعام ، فتعلق فى رسغى الطفل اجراسا صغيرة وأساور من الحديد ، كما تعلق فى رقبته كذلك اقراطا من الحديد • ويعتقد الأهالى أن قعقعة الحديد ورنين الأجـراس يبعد الأرواح الشريرة عن الطفل ، ومن ثم فقد أصبح من المـألوف رؤية الأطفال وأرجلهم مثقلة بالحلى المصنوع من الحديد • ومن المـألوف كذلك عند قبيلتى باجندا وبانييورو اللتين تسـكنان فى وسـط افريقيا أن يحمل الأطفال الذين يتعلمون المشى ، اجراسا صغيرة تربط فى أرساغهم • والسبب الذى يقدم لتفسير هذه العادة ، هو أن الأجراس تساعد الطفل على المشى أو أنها تقوى رجليه • ولكن ربما كان الدافع الأساسى هو أبعاد الطفل الصغير فى تلك الفترة الحرجة عن انظـار الأرواح الشريرة • ومن المحتمل ، بناء على هذا الدافع نفسه ، أن يحمل ولدا كل توأم فى قبيلة باجندا أجراساً فى ارساغهم فى أثنـاء الاحتفالات الطويلة التى تؤدى باتقان ، وفقا لمـا تفرضه معتقدات هذه الشعوب الخرافية على الوالدين فى مثل هذه الظروف • وفى هذه الاحتفالات يتحتم على كل من الأب والأم أن يضربا طبلة خاصة على الدوام ليلا ونهارا ••

وعندما تضع الام ابنهـا فى قبيلة « بوجو » التى تسـكن شمال الحبشة ، فان قريباتها يشعلن النار عند باب بيتها ، ويسرن ببطء حول النار ، فى الوقت الذى تقرع فيه الأجراس فى قوة كما تهز فروع أشجار النخيل ، وذلك بهدف افزاع الأرواح الشريرة وابعادها • كما روى أن أفراد قبيلة « جوند » فى الهند « يقرعون على طبق من النحاس عنـد ميلاد الطفل حتى يتغلغل الصوت الى آذان الطفل ، فلا يسمع ما دونه من الأصوات » • ويبدو أن هذا السبب الذى قدم تفسيرا لهذه العادة ليس هو السبب الأصلى ، أما السبب الرئيسى فيما يبدو ، فهو حماية

الأم وطفلها من شر الأرواح الشريرة ، وذلك عند سماع هذه الأرواح الأرواح لأصوات قرع النحاس ، وهو نفس السبب الذى قدم لاتباع قبيلة « بوجو » لهذه العادة . وقد قيل كذلك أن الكوريتيين فى الاسطورة الاغريقية كانوا يرقصون حول الطفل زيوس ، وهم يضربون الدروع برماحهم حتى يعلو ضجيجها فوق صـوت الطفل ، فلا يجتذب صـوت الطفل أباه الشرير « كرونوس » الذى كان من عادته أن يلتهم أولاده بمجرد ولادتهم . ويمكننا أن ننتهى من هذا الى أن هذه الأسـطورة الاغريقية تتضمن بقايا عادة قديمة كانت تتبع بقصـد حماية الأطفال من الأسباب الكثيرة التى تؤدى الى وفاتهم ، وهى تلك الأسباب التى يعزوها الانسان البدائى الى وسـاطة الأرواح الشريرة الخطـيرة . ويمكننا أن نفترض ، على سبيل تقديم مزيد من الايضـاح ، أنه عندما كان يولد الطفل فى الزمن القديم ، فان الأب وأصدقاءه كانوا ينزعون الى تسليح أنفسهم بالسـيف أو الرمح والدرع ثم يرقصون رقصـة الحرب حول الطفل ، وهم يضربون الدروع بسهامهم أو سيوفهم حتى لا يستبين صراخ الطفل من ناحية فلا يجذب انتباه الأرواح التى تتجول بحثا عن الفريسة ، وحتى تفزع الشياطين وتبتعد عن مكان هذا الضجيج من ناحية أخرى . كما أنهم كانوا يلوحون بأسلحتهم ويصوبونها فى قوة فى الهواء ، حتى يلحقوا الهزيمة الساحقة بهـؤلاء الأعداء غـير المرئيين . وهذا الفرض تؤيده على أقل تقدير الموازنة التالية :

وصـف كاهن أسـبانى فى مطـلع القرن الثامن عشر العـادات التى يتبعها « التاجالوجيون » سكان جزر الفيلبين عند ميلاد الطفـل فقال : « ــ ان الباتياناك » التى يسميها البعض الغيلان (التى ربما كانت من وحى تأليفهم أو أحلامهم أو تخيلاتهم) هى قرينة الشخص أو هى الشـيطان الذى ألف أن يضايقهم . وهم يعزون الى هـذه الكائنات ما يحدث للطفل من شرور فى أثناء ميلاده . والاساءة الى هذه الكائنات أو تهيئة الجو لهـا للانطلاق ، يجعلها تختبىء فى شجرة أو فى أى مكان بالقرب من البيت الذى تضع فيه المرأة وليدها . ولكى

يبطلوا عمل « الباتياناك » الشرير ، فانهم يخلعون ملابسهم، ويسلحون أنفسهم بالدروع والرماح وسائر الأسلحة الأخرى ، ويجلسون على هذا النحو فوق سطح البيت أو عند أسفله ، ويأخذون فى توجيه طعناتهم وضرباتهم فى الهواء ، كما يقومون بتأدية حركات وتلميحات أخرى لهذا الغرض نفسه » • وهناك رواية أخرى لهذه العادة تذكر أن الزوج وأصدقاءه يتسلحون بالسيوف والدروع والسهام ، وبهذا يكونون معدين لتوجيه ضرباتهم فى الهواء من فوق سطح البيت أو عند أسفله (ذلك لأن بيوتهم تشيد على أعمدة) ، وذلك بقصد افزاع الأرواح الخطيرة أو طردها ، حتى لا تؤذى الأم وطفلها • ويبدو أن هؤلاء الرجال المسلحين الذين يطردون الأرواح الشريرة عن الطفل المولود ، يشبهون ، فى قيامهم بتوجيه ضرباتهم بأسلحتهم فى الهواء ، الكوريتين البدائيين عند الاغريق القدماء ••

وهذه المعتقدات التى تتعلق بالأخطار التى يتعرض لها الأطفال من قبل الأرواح الشريرة ، قد أدت الى اتخاذ قبيلة كاشين فى بورما مثل هذه الاحتياطات لحماية الأم وطفلها • فعند هذه القبيلة ، « تقول القابلة لحظة ميلاد الطفل : إن الطفل يسمى كذا وكذا » • واذا لم تقل هذا ، فان روحا شريرا يسمى « نات » ، يبدأ هو أولا بتسمية الطفل ، الأمر الذى يتسبب فى هزاله ، بل فى موته • فاذا لم تتعرض الأم وطفلها للخطر ، قدم الطعام والشراب المألوف ، وسعد الأب بذلك • أما اذا تعسرت ولادة الأم ، فان هذا يكون دليلا على أن « النات » تمارس نشاطها ، وعند ذاك يستدعى العراف الذى يطلق طليه الأهالى اسم«تومزا»فيذهب الى بيت آخر فى القرية ويلتمس النصيحة من أشجار الخيرزان (تشيباوت) ، لتخبره عما اذا كان « نات » البيت هو الذى يقوم بهذا العمل الشرير ، أم أن « نات » الأحراش قام بطرد « النات » الحارسة ليمارس عمله فى حرية • وتسمى « نات » الأحراش « سون » ، وهى عبارة عن أرواح الأطفال الذين توفوا إثر ولادتهم ، وهم يبحثون بطبيعة الحال عن رفقاء لهم ،

ولهذا فهم يدخلون البيت الذى تضع فيه الأطفال الذين توفوا إثـر ولادتهم ، وهم يمسكون بالأم والطفل • فاذا أخبرت أشجار الخيزران العراف أن « نات » البيت هو الروح الثائر قام باسترضائه وتقـديم الضحية له بالطريقة المـألوفة • أما اذا أخبرت بأن « السون » هـو الذى يسيطر على هذا الموقف ، فان العراف يتخذ عند ذاك اجراءات عاجلة ، فتطلق النيران من البنادق من حول البيت وفى الممرات التى تؤدى الى القرية ، وتصوب السهام أسفل البيت • كما يلوح بالسيوف أو السكاكين الكبيرة (دهاس) والشعلات النارية فوق جسم المرأة • وفى النهاية تصنع كومة من الخرق البالية ويوضع بداخلها الفلفل الحار وغير ذلك من المـواد التى تنبعث منها رائحة نفاذة وتوضع أسـفل البيت وتشعل فيها النيران • وبهذه الطريقة تطرد أكثر الأرواح عنادا واصرارا • وقد أخبرنا مبشر كاثوليكى عن هذه العادة نفسها التى تنتشر بين قبيلة « كاشين » فذكر أنه فى حالة الولادة العسرة ، فـان هؤلاء البدائيين يتهمون « السدن » (وهم أرواح النساء اللاتى توفين فى أثناء الولادة) بسعيها فى قتل الأم ، ومن ثم فهم يقومون كما هـو المـألوف بطردها • ولهذا الغرض يتجول أفراد الأسرة فى كل ركن من أركان البيت ، ويلوحون بسكاكينهم وسهامهم ، ويحدثون كل صنوف الصخب • وكلما كانت الأصوات أكثر جلبة ، كانت أبعد فى تأثيرها • بل انهم يقفون الى جانب المـريض وهم مجردون من ملابسهم لكى يفزعوا الأرواح الشريرة • كمـا أنهم يحرقون داخل البيت وخارجه أوراقا ذات رائحـة نفاذة ويقرعون سيوفهم ، ويستمرون فى احداث الصخب فى الطرق الرئيسية وفى الغابة حتى يصلوا الى أقرب جرف حيث يرغمون « السون » على السقوط فيه ، وفقا لتصورهم ••

وعندما تعانى المرأة فى قبيلة « القلموق » من آلام المخاض ، فان زوجها ينشر شباكا حول الخيمة ويجرى هنا وهنـاك ، وهو يضرب فى الهـواء بهراوته حتى يبقى عـلى الأرواح الشريرة فى مـأواها • و « عندما يولد طفل » ، عند قبيلة « نوجيا » التتارية ، « يذهب كل

فرد من أفراد القبيلة الى بيت المولود وهو يحمل أوعية يضرب عليها متصورا بذلك أنه يرغم الشيطان على الفرار ، فلا تكون له بذلك أدنى سلطة على روح الطفل » • وفى « بونى » ، وهى امـارة فى جنـوب سليبس ، « يصرخ الرجال عندما تعانى المرأة من آلام الوضع ، أو يطلقون النار من بنادقهم لكى يطردوا بذلك الأرواح الشريرة التى تحول دون ميلاد الطفل » • أما عند ولادة أمير من الأمراء ، وبعد أن تنفصل المشيمة عن جسم الأم ، « فان الناس يقومون بقرع كـل الأدوات التى تستخدم فى طرد الشياطين ، « حتى تـفزع الأرواح الصريرة وتهرب • ومن أجل هذا الغرض نفسه تقرع الطبول فى جزر « أرو » فى جنوب غرب نيو غينيا عندما تطول عملية الولادة بدرجة تثير الازعاج • ويعتقد سكان المناطق المجاورة لمجرى مائى بعينه يصب فى خليج بورتون عند بحيرة تنجانيفا ، أن روح هذا النهر يسىء الى الأم الحامل ساعة ولادتها طفلها • فاذا خيل لأم أنها تعانى من مكايد هذا الروح ، تحتم عليها أن تقدم الضحية له ، وأن تؤدى شـعائر معينة • وعند ذلك يجتمع كل سكان القرية ويأخذون فى قرع الطبول بجوار الكوخ الذى ترقد فيه المرأة ويصرخون ويرقصون « لطـرد الروح الشريرة » • وعندما يولد طفل عند قبيلة « سينجهاليز » فى سيلان « ترفع القابلة صوتها بصراخ يعلو صراخ الطفل حتى لا تتعرف أرواح الغابة على وجود الطفل وتسبب له الأذى » • وعلى هذا النحو كان الرومانيون القدماء يعتقدون أن المرأة بعد الولادة بصفة خاصـة تكون عرضـة لايذاء آله الغابة « سيلفانوس » ، الذى يتخذ طريقـه الى البيت ليلا لكى يضايقها ويخطفها عنوة • ومن ثم فقد كان من المـألوف أن يسير ثلاثة من الرجال فى أثناء الليل حول بيت المرأة ، وهم مسلحون بالفؤوس والمدقات والمـكانس بصفة خاصة • ثم يقفون عند كل باب من أبواب البيت ، ويأخذ اثنان منهم فى ضرب عتبته بالفأس والمـدق ، كما يقوم ثالثهم بكنسها • وهم يعتقدون بذلك أنهم يحمون الأم من هجمات آله الغابة ••

ويحق لنا أن نفترض على هذا النحو ، أنه كانت من عادة الاغريق القدماء ، أن يقوم الرجال المسلحون بحماية النساء وقت الوضـــع من الأرواح الشريرة ، وذلك بأن يرقصوا من حولهم وهم يقرعون دروعهم بسهامهم وسيوفهم • وربمـــا ظلت الأسطورة تحكى عن هذه العـــادة حتى بعد اختفائها بزمن طويل ، عندما وصفت الكورتيين ، وهم يؤدون تلك الشعيرة حول مهد الطفل الصغير زيوس ••

على أنه ينبغى علينا أن نعود مرة أخرى بعد هذا الاستطرداد ، الى عادة استخدام الأجراس بوصفها وسيلة لتجنب ايذاء الشياطين والأرواح • فمن عادة السوناريين الذين يشـــتهرون بصـــياغة الذهب والفضة فى المقاطعات الوسطى فى بلاد الهند ، أن يرتدى الأطفال وصغار البنات خلاخيل مجوفة بداخلها أجراس تصلصل • وبعد أن تتزوج امرأة وتلد عددا من الأطفال ، فانها تترك الخلخال المجوف وترتدى خلخالا مصمتا • وقد قيل لنا فيما بعد ان السبب فى ارتداء البنات هذه الخلاخيل المجلجلة هو التعرف على مكان تجوالهن ، وبذلك يمكن الحيلولة بينهن وبين ايذاء الشياطين فى الأماكن المظلمة • ولكن السبب الحقيقى فيمـــا يبدو هو أن هذه الخلاخيل كانت تستخدم فى بث الذعر بين الأرواح »• كمـــا أنه من عادة قبيلة « ناندى » التى تسكن شر قافريقيا البريطانى، أن تتسلم البنت من عشاقها والمعجبين بها قبل اجراء عملية الطهـــارة لها ،أجراسا كبيرة على سبيل السلفة ، وهى ترتدى عادة هذه الأجراس حول رسغها ، ثم تقوم بردها بعد انتهاء هذه المناسبة المقدســـة • وفى العادة تتسلم الفتاة التى تنتمى الى عامة الشعب ، عشرة أجراس أو عشرين جرسا وترتديها جميعا عند اجراء عملية الطهارة لها • وبمجرد أن تنتهى عملية الطهارة ، تقف الابنة وتقرع الأجراس حول رأسها ، ثم تخرج وتقابل عشيقها وترد اليه الأجـــراس المعارة • فاذا كنـــا الآن نعرف السبب فى حمل المحاربين من قبيلة ناندى للأجـــراس فى أرجلهم ، فإنه يبدو لنا الآن أننا قد تعرفنا على سبب ارتداء الفتيات للأجراس عند الطهارة • واذا كنا لا نشك فى المعلومات المؤكدة فى هـــذا

الصدد ، فاننا يمكننا أن ننتهى الى أن الأجراس كانت تعد تعويذة تحمى كلا الجنسين من أخطار القوى الخارقة التى يتعرض لها كل منهما تعرضا مؤقتا أو دائما ، وفقا للخصائص التى تتميز بها هذه القوى ..

ويخشى الأهالى فى الكنغو أن تسكن الشياطين أجسامهم عن طريق أفواههم عندما يتناولون شرابا . ومن ثم فهم يستعملون فى هذه الظروف كل الوسائل التى تبعد عنهم هذه الكائنات الخطيرة . واحدى هذه الوسائل هى أن يقرعوا جرسا عند كل جرعة شراب يشربونه . وقد لوحظ أن الزعيم عندهم يشرب عشرة أوعية من الجعة فى جلسة واحدة ، وكلما رفع الوعاء الى شفتيه قام بقرع الجرس ، فى الوقت الذى يلوح فيه صبى برمح الزعيم ، زيادة فى الحيطة ، أمام صاحب المقام الرفيع ، لكى يمنع الشياطين من أن تتسرب الى معدته مع شربه الجعة . ويحمل الناس فى هذه المنطقة كذلك الأجراس التى يخلع عليها الرجل الفتيشى خاصية سحرية ، فتكون بمثابة تعويذة تمنع عنهم الحمى ووباء الجراد ، بل من الممكن أن تجعل حاملها غير مرئى . ومن المألوف عند شعب « باكيريوى » ، الذى يسكن « أوكيريوى » ، وهى أكبر جزر بحيرة فيكتوريا نيانزا ، أن يعلقوا جرسا على باب كل بيت . ويتحتم على من يدخل البيت أن يقرع الجرس بأن يضربه برأسه ، لا لكى يعلن قدومه لأصحاب البيت ، كما نفعل نحن الأوربيين ، بل لكى يطرد الأرواح الشريرة وسحر المشعوذين عن البيت . وفى غرب افريقيا يساعد صليل الأجراس على زيادة الصخب الذى يصاحب طرد الأشباح عن الرجال الذين يتملكونهم فى مواسم معينة ..

ومن أهم ما يميز الكهنة والأنبياء والأطباء فى افريقيا ، حملهم للأجراس أو ارتداؤهم اياها فى أثناء احتفالاتهم المقدسة التى تهدف الى طرد الشياطين أو الشفاء من الأمراض أو استقبال وحى الهى . فالسحرة فى قبيلة أكامبا التى تسكن شرق افريقيا البريطانى ، على سبيل المثال ، يحملون أجراس القطيع بعد تعليقها فى سير من الجلد ،

ويقومون بقرعها فى أثناء تنبؤهم بالغيب ، ذلك أنهم يتصـــورون أن صليل الجرس يلفت انتباه الأرواح اليهم • وقد أخبر أحد أطبائهم السيد « هويلى » ، أنه رأى فى رؤياه أن الاله يأمره باحضار جـــرس بعينه • فقام هذا الطبيب اثر ذلك برحلة خاصة الى قبيلة « كيكويو » ليشترى هذا الجرس • وعند عودته أقام وليمة من الجعة ، وذبـــح ثورا مخصيا لكى يسترضى الأرواح • وتتميز طبقة الكهنة (لوباس) عند قبيلة « جالا » التى تسكن فى شرق أفريقيا عن طبقة العرافـــين (كاليجوس) • ولكن كلا من الكهنة والعرافين يحملون أجراسا فى أثناء الاحتفال بطقوسهم الغريبة • ويتســـلح العرافون فضـــلا عن ذلك ، بسوط ، وهم لا يترددون فى ضرب المريض به برفق بقصد طرد الشيطان الذى يعتقدون أنه يتملك المريض • ومرة أخرى نجد أن الطبيب الساحر عند « الغانيين » الذين يسكنون فى « جابون » يحمل عددا من الأجراس الصغيرة التى يربطها فى رسغيه ومعصميه عندما يقوم بالكشف عن عراف من العرافين • وهو يعلن صراحة أن أصوات الأجـــراس ترشـــده الى الى الكشف عن هذا المذنب من بين زحام المتفرجين المضطربين القلقين • وتعتقد قبيلة « هو » التى تسكن فى « توجولاند » فى غرب افريقيا ، فى وجود نوع من الأرواح الكادحة أو الأرواح الماهرة التى تعمـــل بطريقة معجزة على زيادة عدد الأصداف الصفراء فى حجرة كنوز رجل من الرجال كما تعمل على زياد محاصيله • واسم هذه الأرواح الخيرة « سولوى » ومن الغريب حقا أن قبيلة « هو » تطلق هذا الاسم بعينه على أصـــوات الأجراس الصغيرة التى يعلقها كهنتهم بأهداب أرديتهم، كما كان يفعـــل كهنة اليهود فى العصر القديم ، كما يقال ان اله بحيرة البرت اتصل « بالبانييوريين » الذين يسكنون افريقيا الوسطى عـــن طريق وساطة نبية كانت تعلق المحار الأصفر والأجراس الحديديـــة الصغيرة بأهداب ردائها الجلدى • وقد كانت المحارات والأجـــراس تتماوج وهى تسير كأمواج البحيرة • كمـــا تمثل اله الرخاء ، عند هذه القبيلة نفسها ، واسمه « وامالا » ، وهو المسئول عن زيادة نسل الرجال وقطعـــان المـــاشية والمحصول ، لنبى من الأنبياء ، فأخذ النبى ينطق

بالنبؤات باسم الآله • وعندما تملك هذا الشخص الوحى ، ارتـدى الأجراس فى رسغيه ، كما ارتدى جلد عجلين أبيضين حول خصره بعد أن علق فيـه مجموعة من الأجراس الصغيرة ••

وربما كانت هذه الأمثلة كافية لتبين لنا كيف أن عادة اسـتخدام الأجراس فى الطقوس السحرية والدينية كانت تنتشر على نطاق واسع ، وكيف كان النـاس يعتقدون فى كثير من بقاع الأرض بأثر صلصـلة الأجراس فى طرد الشياطين • ويبدو من الأمثلة القليلة التى قدمتهـا آنفا ، أن بعض الشعوب كانت تعتقد فى بعض الأحيـان أن صليل الأجراس ، لم يكن يهدف الى طرد الأرواح الشريرة بمقدار ما كان يهـدف الى اجتذاب الأرواح الطيبة أو الحارسة • ولكن استخدام الآلات بقصد اجتذاب هذه الأرواح الطيبة أقل وضوحا فى الطقوس البدائية من استخدامها بقصد طرد الأرواح الشريرة • وربما كـان استخدام الأجراس بقصد اجتذاب الأرواح الطيبة ، لا بقصد طـرد الأرواح الشريرة ، يرتبط بمرحلة متقدمة من الوعى الدينى ، عندما تغلبت الثقة فى الخير على الخوف من الشر ، وعندما لم تعد القلوب التقية تنزع الى الهروب من الشيطان ، بقدر ما كانت ترغب فى الاقتراب من الله • وربما سـاعد ما أشرنا اليه فى هـذا الفصـل من عادات ومعتقدات ، على استجلاء العادة اليهودية التى بدأنا الفصل بالحديث عنها ، بل وتفسيرها ، سواء اعتقد العبريون فى أن الكاهن الذى يخطو فـوق عتبة المـكان المقدس بردائه البنفسجى ، كان يقـوم بطرد الشـياطين أو يعمل على جذب انتباه الرب برنـين الأجراس الذهبية وصليلها ••

تـم بحمـد الله

محتويات الكتاب

الباب الثانى : عصر الأنبيـاء

الباب الثالث : عصر القضاة والملوك

الباب الرابع : القانون

رقم الإيداع ٢٩٩٢ لسنة ١٩٨٢

مطابع سجل العرب

